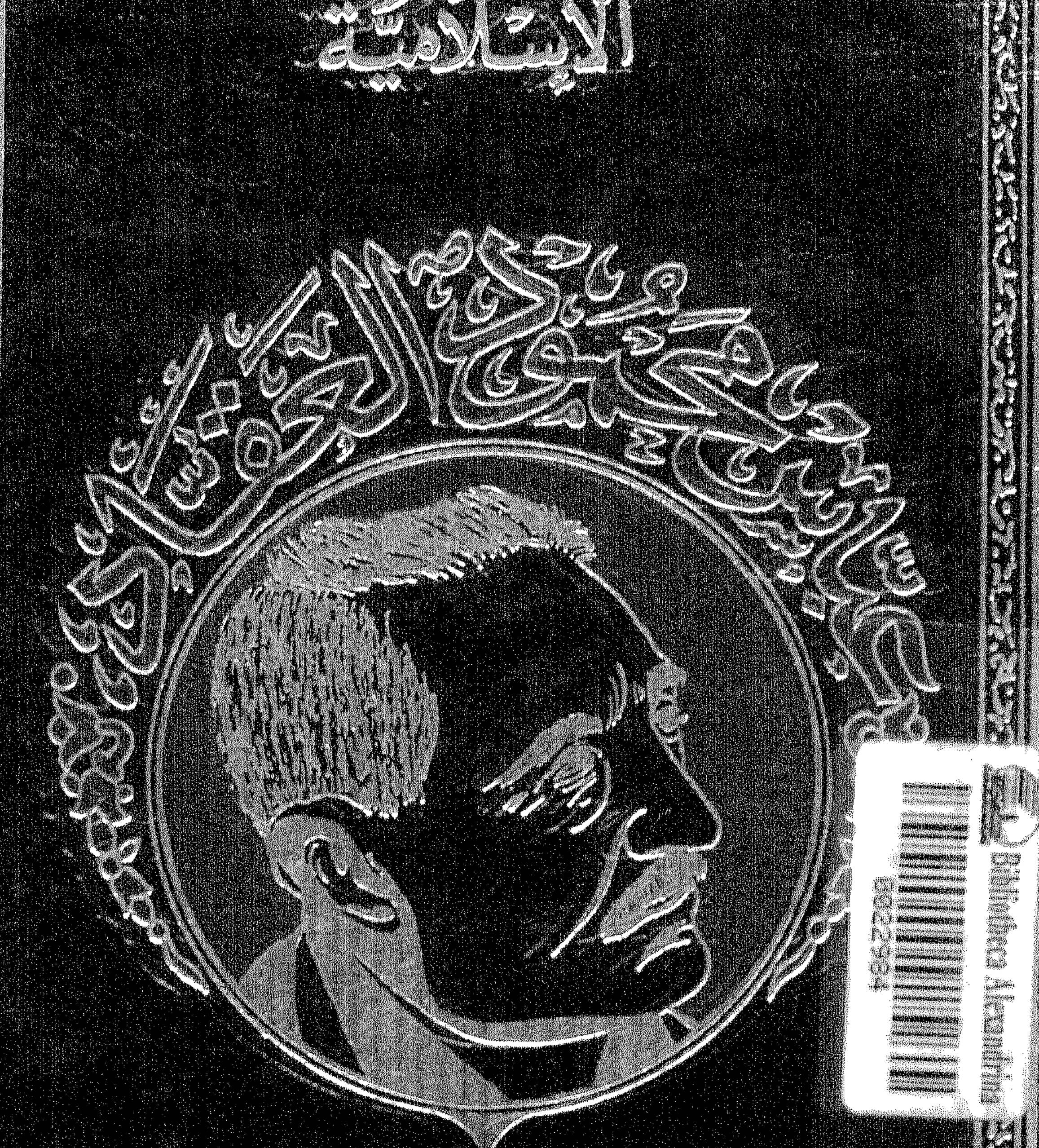
موسوعة

عباس محمود العقاد

الإسلامية













عثمان ابن عفان

ذو النورين

عباس محمود العقاد

الناشر الوحيد في كافة البلاد العربية والاسلامية
عدا مصر
المكتبة العصرية
للطباعة والنشر
صاحبها: شريف عبد الرحمن الانصاري
تلفون : بيروت ٢٣٧٥٤٥ ص. ب. ٨٣٥٥
صيدا ٧٢١٦١٢ — ٧٢٠٣١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم اني أحمدك حمد الشاكرين ، وأشكرك شكر الحامدين ، واصلي واسلم على خير خلقك ، وحامل هديك ، وقبس نورك •• محمد بن عبد الله•• وآله وصحبه ، ومن سلك نهجه وسار على دربه •

وبعد •• فنحن بين يدي نفحة اخرى من نفحات الاستاذ العقاد •• نتفيأ ظلالها ، ونقتطف ثمارها ، ونرتشف رضابهـا ، ونعيش أحداثها •• مع أحد الشهداء الابـرار الاطهار ، الذيـن تركوا بصمات جليـة في سجـل العظمة والانتصار •• مع ذي النورين •• عثمان بن عفان •

ومقصد كاتبنا فيما يكتب ، تعريف بالنفس الانسانيـة في حالـة مـن أحوال العظمة والعبقرية ، أو حالة من أحوال النبل والاريحية ، وذلـك مـن خلال المواقف والاحداث فحسب •

وسيرة عثمان ما هي الا نمط من أنماط متعددة ، زخرت بهـا الدعوة الاسلامية من سير الخلفـاء ، وغير الخلفـاء كأبي عبيدة ، وخالـد ، وسعد ، وأمثالهم من الصحابة والتابعين •• ما منهم الا من كان عظيما بمزية ، وعلمـا من أعلام التاريخ ••

فأين كان هؤلاء من العظمة ، ومن تاريخ بني الانسان ، لـولا العقيـدة الدينية ، والرسالة المحمدية ؟؟؟

وسيرة عثمان لا تبرز لنا عبقرية كعبقرية الصديق أو الفاروق أو الامام ، وانما تبرز لنا من جانب الاريحية صفحة لا تطوى ، ولا يستطيع العقل الرشيد أن يرجع بها الى باعث غير باعث العقيدة والايمان •

وان أبرز الخصائص في تاريخ العقيدة ، أنه تاريخ قيم ومبادىء ، وليس بتاريخ وقائع وأحداث ، والوقائع والاحداث على اختلاف العصور ، وتكـرر الصور ، متشابهة في ظاهرها ، مختلفة في باطنها ، والقيم النفسية التي تكمن وراءها ••

لذلك لم يكن مقتل عمر كمقتل عثمان ، فبواطن الحادثين والقيم النفسية الكامنة وراءهما متباينة ، لان عمر قتل بيد دخيلة على الاسلام ، وبتخطيط من خصوم الاسلام ، أما عثمان •• فقد قتل بأيد مسلمة ، حركها وقادهـا الدهماء الشاغبون •

ولقد تساءل الكاتب : ماذا صنعت العقيدة اذن بنفوس الحاكمين والمحكومين ؟ وماذا تغير في الامر عما كان عليه من فتك الجاهليين بعذ قتال المؤمنين ، وايمان الكافرين ؟

ولكنه استدرك بأن العقيدة لا تبطل الخلاف والنزاع ، ولا تلغي الحوادث والخصومات ، والا كانت شللا معطلا لحياة الأمم ، ومعوقا لمجرى التاريخ ..

ولا عجب اذن ان كان الناس قد ابتلوا بشرور تفوق الخصومات ، اذ ليس المطلوب من العقيدة ابطالها ، وانما أن ترتفع بالنفوس عن أن تكون في غير شأن ، أو شأن هزيل ضئيل ، فدورها الحقيقي : ايقاظ القيم ، وتحريك الهمم .

وعلى هذا لم يكن مدار البحث الخصومات والاحداث ، وانما القيم والمبادىء التي دارت عليها الخصومات والاحداث .. ولقد كان مدار الخصومة ، محاسبة الرعية للامام ، ومحاسبة الامام لنفسه .

وقارن الكاتب بين ما كان عليه أبناء الجاهلية والبادية وحكومات الجزيرة العربية من غمط حق المحكوم في محاسبة الحاكم ، حيث كانت شرعة الحكام وقتئذ طغيانا مطلقا من جميع القيود ... وبين ما وصلت اليه الامور في آطار التطور الى حد محاسبة الخليفة على كل صغيرة وكبيرة ، ومن كل صغير وكبير ، وهذا ما حققته العقيدة الاسلامية على أعقاب الجاهلية .. ولئن كانت المآرب الذاتية وراء كل محاسبة لعثمان ، فان هذا كان عيب الحركة ، وان لم يكن عيبا لحق المحاسبة ، لان محاسبة الحكام كانت قيمة جديدة في الصدر الاول من الاسلام ، فنادى بها الخاصة والعامة ، وظلت عاملا مهما في السياسة أيام الخلافة ، وبعد أن صار الحكم ملكا متوارثا ..

ولقد بلغ عثمان الذروة في محاسبة نفسه ، وتحرجه من المساس بالحياة البشرية ولو في سبيل الحفاظ على حياته ، فلما أيقن القتل رفض أن يبقى في داره من يقتل أحدا ممن يحيطون به ، ولما طلب منه التنحي أبى ، ولم يكن اباؤه حرصا منه على السلطان ، فلا شيء أغلى من الحياة وقد هانت عليه ، ولا يزعم أحد أنه غنم من الخلافة مالا ، فقد ترك الدنيا وماله دون ما كان عليه يوم استخلف ، ولكنه خاف جريرة التنحي ، وما سيعقب ذلك من نزاع وقتال .

وان من خلط المؤرخين ، أنهم يجعلون التطور السياسي ومقتل عثمان شيئا واحدا .. فعبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء ، أهون من أن يحدث التطور السياسي ، وليس بكثير عليه في الوقت نفسه أن يتحمل جريرة قتل عثمان ، وعلى هذا .. فالتطور السياسي غير مقتل عثمان ، وكل منهما له أسبابه وعوامله ..

وفاجعة عثمان لا ينظر اليها كما ينظر الى مصارع رؤساء الدول في عهد الثورات .. مثل الثورة الانجليزية مع شارل الاول ، والفرنسية على لويس

السادس عشر ، فشتان ما بين المقتلين ٠٠ فالصراع في هاتين الثورتين كان بين قوة الأمة وقوة العرش ، فكان أشبه بحرب انتهت بهزيمة أحد الطرفين ، أما مقتل عثمان فلم يكن هكذا ، وانما كان أشبه بحادثة محلية تمت على اثر مشاغبة جامحة من مشاغبات الدهماء ، ولو كان الاجناد والحراس على باب عثمان ـ كغيره من الحكام ـ ما قتل هكذا ٠٠ فلا محل اذن للمقارنة بين قوى الدولة ، وقوى الفتنة والمشاغبة ٠ ولا محل ـ كذلك ـ للموازنة بين عوامل الانقلاب السياسي ، وعوامل الدفاع عن شخص الخليفة في داره ، فعوامل التطور بقيت بعد عثمان وازدادت ، ولم تؤد الى مقتل ملك أو وال من كبار الولاة في أرجاء الخلافة ٠

وبين الكاتب ان أسباب التطور السياسي ومقتل عثمان في حاجة الى نظر ، لانها اما أسباب مزعومة ، أو صحيحة لم يظهر أثرها الا لاقترانها بأحوال تلك الفترة ، ولو كانت في زمن آخر ، لما ظهر لها هذا الاثر ٠٠ وذكر ما قاله معاوية من أسباب الفتنة ، وما قاله محمد بن سليمان المتفلسف ، وما كتبه الاستاذ محمد أحمد جاد المولى في كتابه « انصاف عثمان » ٠٠ وقام بتمحيص رأي معاوية وتحليله ، متهما معاوية ـ وقد جعل السبب في عدم اختيار عمر وتركه الامر للشورى ـ بأنه كان يهدف الى تنفيذ مآربه في ولاية العهد ، وأيد ذلك بترشيحه لابنه يزيد من بعده ، ورأى أنها خطة خالية من الحصافة والتجربة ، لما جرته من خلافات وصلت الى أقرب الاقربين ٠٠ وتناول الاسباب الواقعة ، التي تسببت في الفاجعة ٠٠ فعدد بعض الامور التي استحدثها عثمان ، وأخذت عليه ، ودافع عنه فيما اتهم به ، مبينا أن جمع القرآن في نسخة وحرق ما عداها ، قد سبقه الى ذلك الصديق والفاروق عند تنفيذ فكرة جمع المصحف ، فكان عملهما محمودا ، ومن أنكره لم يلبث أن ارتضاه ٠٠ وما استحدثه عثمان مخالفا للمألوف ، سبقه الى مثله عمر ٠٠ حين منع زواج المتعة ، ونقص من أعطيات المؤلفة قلوبهم ، وأعفى من حد السرقة عام المجاعة ، ولم ينكر عليه أحد ذلك ، ولم تقم ثورة ، ولم يحمل سلاح ٠

واعتبر الكاتب ان هذه الامور وغيرها أسباب ولا أسباب ، وانها بين أسباب مزعومة . أو أسباب صحيحة ولكنها لم تفعل فعلها الا لاقترانها بأحوال تلك الفترة ، وهي فترة ما بين الخلافة والمملكة ، حيث اضطرب الوزن والسخط والرضى ٠٠ في حين ان عثمان لم يكن في قوة أبي بكر وعمر ، بل ان عمر نفسه أحس ببوادر هذا الاختلاف قبل مقتله ، حتى قال في دعائه : « اللهم كبرت سني ، وضعفت قوتي ، وانتشرت رعيتي ، فاقبضني غير مضيع ولا مفرط ٠٠٠ » ٠

ولقد استعرض العقاد آراء النسابين والمؤرخين في نسب بني أمية ، واستخلص منها أسباب المنافرات التي شهدتها الجزيرة بين بني هاشم وبني أمية ٠٠ وان ظاهرة الاستلحاق والتبني التي كانت شائعة في بني أمية ، لم

تكن الا وسيلة من وسائل تدعيم العصبية ، ليقوي شأنهم في مواجهة بني هاشم ، وان تلك المنافرات تدخل في سيرة عثمان مداخل شتي ، وان كل عمل من أعماله ، أو خلق من أخلاقه له صلة بتلك المنافرات ·· وان سبق عثمان الى الاسلام ـ وهو من تلك الاسرة بالذات ـ كان يعد فضلا له لا يداينه فضل ·· فقد أسلم رغم تلك الحواجز العريقة من المنافسة والملاحاة بين بني أمية وبني هاشم ، وشريعة العداوات في الجاهلية تقف حائلا منيعا دون ذلك ·· فعتبة ابن ربيعة لم يدخل حلف الفضول مع اعجابه به ، خشية أن يؤثر ذلك في علاقته بأسرته ، حتى قال : « لو أن رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول » ·· وشتان ما بين حلف الفضول والدخول في الاسلام ، فحلف الفضول لا يهدم معتقدا ، ولا يغير دينا ·· والاسلام جاء بهدم المعتقد الموروث من عبادة الاصنام ، وفضلا عن ذلك فان اتباع محمد يرفع من قدر بيت عبد المطلب ، ويكسبه شرفا لا يصل اليه شرف بين الناس قاطبة ··

لذلك لا نعجب من الاهانات التي لقيها الرسول من الحكم بن العاص ، وعقبة بن أبي معيط ، وكلاهما وثيق الصلة والقربى بعثمان ، ولا نعجب ـ أيضا ـ مما لاقاه عثمان بعد اسلامه على يد عمه الحكم ، بغية أن يرده عن الاسلام فلم يفلح ·

وعثمان كان في قبوله للاسلام سريع الاستجابة ، مفتوح القلب ، متطلعا الى الحق ، لانه كان في ضميره باعث مطاع الى الايمان بالدين الجديد · وبعد أن اعتنق الامويون الاسلام ، انتهت المنافرات والمفاخرات بينهم وبين بني عبد المطلب ، وما من أموي أسلم كان يتعالى الى مطاولة آل النبي ، ولكنهم مع هذا كانوا يودون في قرارة أنفسهم أن يسمعوا عن أمية كلما سمعوا عن هاشم ونبيه ·· حتى ان عثمان نفسه استحضر في خلافته رجلا نسابة من حضرموت ، وسأله : أرأيت عبد المطلب ؟ قال : نعم ·· رأيت رجلا قعدا أبيض طوالا مقرون الحاجبين ، بين عينيه غرة يقال : ان فيها بركة ، وان فيه بركة » فعاد يسأله : أفرأيت أمية ؟ قال : نعم ·· رأيت رجلا آدم دميما قصيرا أعمى ، يقال : انه نكد ، وان فيه نكدا » فقال عثمان : حسبك من شر سماعه ·· وصرف الرجل ·

ولد عثمان بعد ستة أعوام من عام الفيل ، وكان أبوه من التجار الكبار ، فعاش في رغد من العيش ، ومات أبوه وعثمان في مقتبل العمر ، وتزوج عقبة ابن أبي معيط من امه أروى البيضاء بنت عم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان له خالة كاهنة ، ومن جهة امه كان جنوح طبيعته للتدين الذي عرف عن بني هاشم ، ولعل اجابة امه على شكوى زوجها عقبة من عثمان خير دليل على ذلك ، فحينما قال لها : ان ابنك قد صار ينصر محمدا ، لم تنكر ذلك من ابنها، وقالت : ومن أولى به منا ، أموالنا ، وأنفسنا دون محمد ·· !!

اذن عاش عثمان مشكلة زوج الأم التي تنال اهتمام علم النفس الحديث ، وكان يشعر بالغضاضة من هذا الزواج،وينظر الى عقبة على أنه قد انتزع مكان أبيه ، وتمكن هذا الشعور من طويته ، فملأت الريبة نفسه في الاوضاع القائمة ٠٠

وكان عثمان مشهورا بالجمال والحياء ، بالاضافة الى عذوبة روحه ، وحلاوة شمائله ، ومحبته لدى عارفيه ، وكان فيه حزم وصفه به أبو بكر يوم دعاه الى الاسلام قائلا : « ويحك يا عثمان ، انك لرجل حازم ، ما يخفى عليك الحق من الباطل » وكان سريع الاستجابة للحق ، فما أن قال له أبو بكر ذلك ، حتى مر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه علي بن أبي طالب ، فقام أبو بكر للرسول ، وأسر في اذنه بشيء ٠٠ يقول عثمان : فجاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقعد ، ثم أقبل علي ، فقال : « يا عثمان ٠٠ أجب به الى جنته ، فاني رسول الله اليك والى خلقه » قال عثمان : « فوالله ما تمالكت حين سمعت قوله ان أسلمت ، شهدت أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله » ٠٠

ومن بين خلائق عثمان التي قالها عن نفسه ، أنه كان في الجاهلية مستهترا بالنساء ٠٠ وساق الكاتب نموذجا لترفه في العيش ، ونموذجا لنظرته الى المال ٠٠ واستخلص من ذلك ، أن خلائق عثمان كانت الى الطيبة والسماحة ، أقرب منها الى صفات البأس والصرامة ، وان نشأة العيش الخفيض صحبته من صباه الى شيخوخته ٠

وأتى الكاتب بحادثة خصومته مع أبي عبيدة وبعد أن برأ عثمان مما أخذ عليه في تلك الحادثة ، عقب عليها بأن المعارك لم تحفظ لعثمان موقفا من تلك المواقف النادرة التي تتناقلها الألسنة ويتساير بها الركبان الا أن فضيلته العليا هي السخاء حيث يعز السخاء على أمثاله من ذوي الثراء وهذه هي آية العقيدة في مناقب عثمان ٠

فقد آلى على نفسه أن يسبق أكفاءه في ميادين الجود والسخاء ، لانه لم يستطع أن يسبقهم في ميادين الجهاد والفداء ٠

ولقد عاب الاستاذ العقاد على جمهرة المؤرخين وصفهم لعثمان بالضعف ، مبينا أن القول بضعف عثمان صعب على من يعلم أن السماحة نفسها قوة لا يضطلع بها طبع ضعيف ، وان عهد عثمان لم يخل من عمل يدل على قوة نفس ، ومناعة خلق ، وثبات لا يتزعزع أمام الهول والخطر ٠٠ فكان اسلامه تحديا لخاصة اهله ، وتلقى صدمات في بداية خلافته لم يتعرض الفاروق لأخطر منها في جميع أيامه ٠٠ وليس من السهل أن يوصف بالضعف رجل يحيط به خطر الموت من كل جانب ، ولا يذعن لمن توعدوه به ٠٠

ثم بين الكاتب ان عثمان كان وسطا بين الانقياد والاقتحام ، وان انقياده لأبي بكر حين دعاه للاسلام لا يشينه ، لانه انقياد للأكبر ، وان انقياده لمروان بن الحكم الذي تغنى به المؤرخون ... فأنسب ما يقال فيه : انه طاعة : طاعة اختيار وليست طاعة انقياد ، ولم تكن يوما بطاعة الضعيف يلعب به القوي ، بدليل ان عثمان كان يسمع لمروان اذا أصاب ، ويعرض اذا أخطأ .

ثم تناول المؤثرات التي أثرت في شخصيته سواء أكانت من فعل البيئة ، أم من فعل العقيدة .. فمؤثرات البيئة : وراثته الأموية ، ويتمه في صباه ، ونشأته في بيت يتولاه غير أبيه ، وانتماؤه من جانب الأمومة الى بيت عبد المطلب ، واصابته بالجدري في شبابه ، وبعض النفسانيين يرى ان الجدري اذا اهمل علاجه يترك أثرا في بنية المصاب ..

وأما أثر العقيدة : فانها لم تبطل سماحته ، ولم تغض من قيمتها ، بل زكت فيه تلك السماحة ، وجعلتها مزية له .

وأما عن ثقافته .. فانه كان عالما بالانساب ، والامثال ، وأخبار الايام ، وعرف من أطوار العرب وأحوالهم ما لا يعرفه غيره ، نظرا لكثرة رحلاته ، ومعاشرته لغير العرب ، كما كان خبيرا بمعارف البادية ..

وكان فقيها بأحكام الدين ، وأحفظ المسلمين لكتاب الله ، وروى قرابة مائة وخمسين حديثا ، وقال فيه ابن سيرين : « ... كان أعلمهم بالمناسك عثمان ، وبعده ابن عمر » ..

وكان سفيرا بين المسلمين وأعدائهم مما جعله على دراية بمجريات الاحداث ..

واعتمد عليه الرسول – صلى الله عليه وسلم – في تدوين الوحي ، كما اعتمد عليه أبو بكر – رضي الله عنه – في كتابة الوثائق الهامة .. واكتسب من ترحاله في البلاد لباقة في الحديث ، حتى قال فيه عبد الرحمن بن حاطب : « ما رأيت أحدا من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان اذا حدث أتم حديثا ولا أحسن من عثمان بن عفان ، الا أنه كان رجلا يهاب الحديث » ..وكان الرسول يحب حديثه ، ويتوق الى سماعه في بعض أوقاته .. وروي عنه شعر لم يطمئن الكاتب الى أنه قائله ..

وعرض بعض كتبه الى عماله ، وامراء الاجناد ، والجباه ، مشيرا الى أن هذه الكتب لا يمكن أن تكون من املاء مروان بن الحكم ، لان بعضها قد بدىء وختم بآيات من القرآن تلائم ما يدعو اليه ، أو ينهي عنه ، ولم يكن مروان حافظا للقرآن مثل عثمان ، كما أنها ناطقة بخلائق عثمان .. وتميزت كتاباته وخطبه بالسلاسة والبساطة ، وعدم التكلف ، والبعد عن الاطناب .

وعلى مدى ثلاثين عاما سبقت اسلام عثمان عاصر خلالها أحداث الجزيرة العربية ، وتاريخ العالم ، ثم دخل الاسلام فشهد عهد النبي ، ووقف على اخباره العامة والخاصة نظرا لمصاهرته له ، واتصاله بالدعوة من البداية ، كما وقف على أخبار الخلافة في عهد أبي بكر وعمر ، وكان على دراية بكل أعمال التأسيس في الدولة الاسلامية ..

واستعرض الكاتب الآراء التي وردت في سر تسميته بذي النورين .. وبين ان ملازمته للرسول لم يقطعها الا الاذن له بالهجرة ، أو اختياره شهدة لا يغنى فيها سواه ، وكان شأنه من ذلك شأن الخلفاء الراشدين جميعا ، كأنما هي خاصة من خواصهم ، رشحهم لها ما رشحهم بعد ذلك للخلافة متعاقبين دون حاجة الى مفاضلة وترجيح ..

كما ساق العديد من الامثلة على بذله وسخائه ، وانه كان أمينا على سر الرسول ، الذي توفي وهو راض عنه ، وكان مفخرة لاي صحابي أن يقال عنه : ان رسول الله توفي وهو عنه راض .. فكان عثمان في طليعة من تحسب له تلك المفاخرة ، وان كان خصومه حاولوا أن ينزلوا شيئا من منزلته باتهامه بالتخلف عن وقعة بدر ، وبيعة الرضوان ..

وفي عهد أبي بكر كان عثمان من أقرب المقربين اليه بعد عمر ، خاصة وانهما كانا صاحبين قبل الاسلام ، وكان بينهما تشابه في الطباع والاخلاق ، وما تقدم عمر على عثمان عند أبي بكر الا من أجل المصلحة العامة ، لان أبا بكر وعمر كانا أوفق اثنين بين الصحابة للعمل معا في مهام الخلافة الاولى .. فتلازما وتشاورا ، وتقارب بينهما في الدعوة ما تباعد في الخلق والخليقة ، وكان أبو بكر يرى ان عثمان أهل للخلافة ، فلقد قال له لما أفاق من غشيته التي لحقته وهو يملي عليه وثيقة الاستخلاف : من كتبت ؟ فقال : عمر ، فقال أبو بكر : بارك الله فيك ، بأبي أنت وامي لو كتبت نفسك كنت لها أهلا . وأبو بكر اذ يرى عثمان أهلا للخلافة ، فانه كان يرى في الوقت نفسه ان عمر أحق بها منه ..

وجاء عمر .. فلازمه عثمان ، وركن عمر الى مشورته ، وعمل بها في كثير من الامور ...

ثم جاء عهد عثمان .. وعلى الرغم من تمرسه الطويل بشئون الدعوة والخلافة ، وتربيته السياسية التي لم يحظ بها أحد من الخلفاء ، فانه لم يعمل في خلافته عملا على غير سابقة تشبهه في كل شيء الا في ظروفه وملابساته ، مع ان الظروف والملابسات قد تغيرت !! فكانت عدة ولا عدة .. وهذه احدى النقائض الكبرى التي تأصلت في عهده .. ونقيضة اخرى كانت تضاف لمفاخره ، فصارت تحسب على معايبه ، وهي سبقه بني أمية الى الاسلام ، مع بقاء من يعودونه وهم كافرون أو مرتدون ، فكان ذلك تكبيرا منفردا بين جلة الصحابة بعد انتهاء أمر الشرك .

وتناول الكاتب موضوع زواج عثمان من بنتي رسول الله : السيدة رقية، والسيدة أم كلثوم ٠٠ ثم زواجه من احدى الاجنبيات ، وهي نائلة بنت الفرافصة ٠٠ فكانت مثالا رائعا في حبها ووفائها لعثمان ، وكانت لها حظوة عنده ، لادبها ، وذكائها ، وحسن قولها ، واعتبر الكاتب ان حبها وطاعتها لعثمان مقياس يقاس به الرجال النابهون٠٠ فقد انعكست عليها شخصية عثمان، وايمانه ، وكرم نفسه ، وتحنفت على سنته ٠٠ في الوقت الذي خاض معاوية نفس التجربة ، ففشل ، وآثرت زوجته الاجنبية عيش البادية على عيشه ، وعافت قصره بالشام ، وكانت من نفس قبيلة نائلة ٠٠ وفرق كبير بين سن معاوية وعثمان ، وقصور الشام وقصور الحجاز ، وهذا خير دليل على ان عثمان لم يكن رجلا امعة ، أو شيخا هزيلا ، وانه كان قوي التأثير فيمن حوله ٠

وعن شئون المجتمع ٠٠ ركز العقاد على التغييرات التي طرأت على المجتمع الاسلامي ، وصاحبها عثمان ٠٠ فصاحب الدعوة منذ أن كان أتباعها أفرادا قلائل ، وصاحب الاسلام في جهاده حتى انتشر في الجزيرة العربية قبيل وفاة النبي — صلى الله عليه وسلم — ٠٠٠ ثم صاحب الاسلام في جهاده وفتوحه التي أوشكت أن تحيط بالعالم المعمور في عهد الشيخين ٠٠٠ ثم صاحب الجهاد والفتوح في عهد خلافته ، فلم تمض الا سنوات قلائل حتى بسط الاسلام سلطانه على المعمورة كلها ، عدا ما كان في أقصى المشرق ، أو أقصى المغرب ٠

وتناول ما طرأ على المجتمع الاسلامي من وفر وثراء ٠٠ حيث تضخمت الثروات في أيدي المسلمين ، حتى جاء في مصادر متعددة ان عبد الرحمن بن عوف خلف ذهبا كان يقطع بالفؤوس حتى تمجل أيدي الرجال ، وترك ألف بعير ، وثلاثة آلاف شاة ، ومائة فرس ، وقسم ميراثه على ستة عشر سهما ، فبلغ السهم ثمانين ألف درهم ٠٠ ولم يكن هذا الثراء قاصرا على ابن عوف وحده ، بل كان هناك غيره من أمثال الزبير ، وطلحة ٠٠ حتى قال محمد بن سيرين : « كثر المال في زمن عثمان ، فبيعت جارية بوزنها ، وفرس بمائة ألف درهم ، ونخلة بألف درهم » ٠٠ وعلل سر هذا الثراء ، بأبواب التجارة التي تفتحت أمام المسلمين ، ونظرة المسلمين الى المال على انه وسيلة تحقق الغايات الكريمة ، وليس غاية تستبيح الوسائل المحظورة ، وان الترف رذيلة مزدراة ، بالاضافة الى غنائم القتال التي لم يوافق القائلين على أنها السبب المباشر للثراء ، اذ لو كان الامر كذلك لم يكن في وسع ابن عوف وغيره أن يجمعوا من الانفال كل هذه الثروة ، ولم يكن التفاوت في الانصبة بين أكبر وأصغر عطاء يحقق تلك الطفرة لدى اناس معدودين دون سواهم ٠٠

ولقد بلغت مشكلة التضخم المالي ذروتها في خلافة عثمان ٠٠ بعد مرحلة من الملل والسأم في نهاية عهد عمر ، تطور في عهد عثمان الى سخط وتمرد ، لذلك لم تدم الحالة طويلا حتى كان من الناس من يغضب باطلا ولا يخجل من

ذلك ، ومن يغضب حقا وليس على يقين من ان ولاة الامـر أحق منه وأجـدر بالفضل والطاعة ، وكان منهم من يحار بين الفريقين ، ولا يدري أين الصواب ٠

وفي عرض الكاتب لمبايعة عثمان ٠٠ قدم لذلك بأن ما قام به الشيخان في تولية العهد ، كان بمثابة ابراء للذمة أمام الله ٠٠ حفاظا على المسلمين من الخلاف والتفرق ، فأزال بذلك كل شبهة ، ودحض كل افتراء ، وبدد كل هم ، ورد على من اتهمهما بالاحتيال والتدبير ٠٠ اذ لو كانا يرميان لتحقيق مآرب ، أو اتباع هوى ، لاختار أبو بكر من تميم ، وعمر من عدي أو بني الخطاب ٠٠ والنظام الذي اتبعاه كان سيتبعه كل منهما لو وضع مكان الآخر ، اذ لم يكن البحث لديهما ، أي أولياء العهـد أفضل وأحب اليهما ، وانمـا أيهم أحب الى المسلمين ، وأجدر أن يجمعهم على بيعة واحدة ، وكلمة سواء ٠٠

وعمر لم يكن في تركه الاستخلاف منقاد الهوى، اذ لو كان كذلك لاستجاب لقول المغيرة بن شعبة حينما رأى حيرة عمر فيمن يختار ، فقال له : « أدلك عليه ؟ عبد الله بن عمر » ولكن عمر نهره قائلا : « قاتلك الله ، والله ما أردت الله بهذا ٠٠ ويحك ٠٠ كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته ؟ لا ارب لنا في اموركم ، فما حمدتها فارغب فيها لاحد من أهل بيتي ٠٠ ان كان خيراً فقد أصبنا منه ، وان كان شرا فقد صرف عنـا ٠٠ بحسب آل الخطـاب أن يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل عن امر أمة محمد ٠٠ اما لقد جهدت نفسي ، وحرمت أهلي ، فان نجوت كفافا لا وزر ولا أجر اني لسعيد ٠٠٠ » ٠

وعمر من خلال أقواله وأحواله تبدو الحيرة مسيطرة عليه ، فهو حذر لربه ودينه ، ويخشى أن يتحملها حيا وميتا ، ولذلك كان يحاول أن يستند في موقفه الى ما يريح نفسه ، وأثر عنه قوله : « ٠٠٠ انظر ، فان استخلف فقد استخلف من هو خير مني (يعني أبا بكر) ، وان أترك فقد ترك من هو خير مني (يعني الرسول) ، ولن يضيع الله دينه » ٠

ومجلس الشورى الذي اختاره عمر ، والمسئوليات التي أناطها به ، خير دليل على عظمته ، وحيطته ، ودقته ، وحكمة تدبيره ٠٠ وأشاد الكاتب بالدور الذي قام به عبد الرحمن بن عوف ، حيث خلع نفسه من حق الاستخلاف ، وقام بدور المحاور بين الباقين الى أن رجحت لديه كفة عثمان ، فأعلنه خليفة للمسلمين وهو يقول : « اللهم اسمع واشهد أني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان » وقام بمبايعته ، وتبعه المهاجرون والانصار ، وتبـاطأ علي ، فقال ابن عوف : « ومن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بمـا عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » ٠٠ فأسرع علي بمبايعة عثمان وهو يقول : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » ٠٠

ورد الكاتب علي الافتراءات القائلة : بأن استخلاف عثمان كان خدعـة لعلي ، وأن عليا قال وهو يبايع عثمان : « خدعة وأي خدعة » ٠٠ واعتبر هذا

الزعم ضرب من ضروب المخترعات المألوفة ممن يحبون أن يسندوا كل شيء الى دهاء الدهاة ، وخديعة المخدوعين ٠

ولقد كان هناك شعور يخامر الصدور بان هذه الحال لن تدوم ، وأنه لا بد من تغيير وتبديل ، وأنه جاء في أقوال الرسول والصديق والفاروق مـا يشير الى ذلك ، فكان ترقب هذا التغيير تزداد مخامرته للصدور في فترات التوجس والترقب بين عهد وعهد ٠٠ ولما ذهب عمر بغتة كان الشعور السائد يومئذ شعورا بحالة يخشى ألا تدوم ، وخوفا من تغير لا يدري كيف يتقى ٠٠ ومن عجب أن عثمان نفسه كان يساوره هذا الشعور ، وتخامره تلك الحالة النفسية ، وظهر ذلك واضحا في خطبه التي كانت تدور حول فتنة الدنيا ، والوعد باتباع السنن واجتناب البدع ، وتهدئة النفوس من قبل ما تخافه ٠٠ ولكن النار كانت تحت الرماد ٠

ان خلافة عثمان أصعب خلافة قامت في صدر الاسلام ، ومحنتها فاقت محنة الصديق في مواجهة المرتدين ، لان المسلمين نهضوا للتصدي للمرتدين في صف موحد ، وتعاضد كامل ٠٠ أما عثمان فقد ابتلى في أول عهده بمـا يشبه هذه الثورة في وقت كثر فيه الاختلاف والتخلخل والتغير في الدواعي النفسية ، خاصة بعد ذهاب الهيبة العمرية ٠٠ تلك الهيبة التي كان يحسب لها الفرس والروم ــ أكثر من أبناء الجزيرة ــ ألف حساب ، وليس أدل على ذلك من قول رستم بطل الفرس المشهور : « أحرق كبدي عمر ، انه يكلـم الكلاب فتفهم عنه » ٠

وما ان ذاع نبأ مقتل عمر حتى تلاحقت الثورات والفتن ، وتمردت قبائل الفرس والروم والترك ، ونقضت عهودها ، وكانت محنة تفوق محنة الردة في اتساع ميادينها ، وتباعد أطرافها ٠٠

ومع ذلك فقد أثبت عثمان كفاءته ومقدرته على مواجهتها ، فأسرع في تسيير النجدات ، وتصريف الامور بحزم وعزم ، وواجه تلك المحنة الجائحة بما أعاد للدولة هيبتها ، وثبت أركانها ، بعد أن اهتزت عقب مقتل عمر ، حتى أدرك الاعداء أن المسلمين لا يقدح من قوتهم موت خليفة ، أو تبديل قائد ٠

ومرة أخرى عاب الكاتب على اللائمين والعاذرين اتهامهم عثمان بالضعف، مبينا أن الضعفـاء لا يتساوون ، ولا يلازمهم الضعف في كل مـا يعملون ، والقوي في حالات أضعف من الضعيف في حالات ، والقول بضعف عثمان غير مقبول على الاطلاق ٠٠ واستند في ذلك الى الاعمال التي وليها عثمان ، وبرز فيها ، واتضحت قوته من خلالها ٠٠ خاصة معالجته لمشكلات الدولة الخارجية التي اعتمد فيهـا على الحزم والعزم والسداد والسرعـة مـع الحيطة والاناة والرفق في سياسة الاعداء والاولياء ، وكان معانا على ذلك بحمية الجند ، وكفاية القواد ٠٠

وعثمان في عزمه وسداده لم يركن الى اخماد الثورات التي قامت ، بل أمر قواده بمواصلة الزحف خارج الحدود ، حتى لا يعودوا فيثيروا الفتن والقلاقل من جديد ، وبذلك اتسعت الفتوحات الى حدود الهند والصين شرقا ، والى أبواب القسطنطينية وتخوم الاندلس غربا ، والى ما وراء بحر الخزر شمالا ، والى السودان وجوانب الحبشة جنوبا .

وعثمان في جرأته واقدامه حسم مشكلة غزوة قبرص ورودس وجزر بحر الروم ، لدفع الغارات البحرية عن شواطىء مصر والشام والقيروان ، وهذه مشكلة عرضت على عمر فتخوف منها ، لانه كان لا يحب أن يكون بينه وبين جيشه بحر أو جسر أو قنطرة ، وضرب بالحاح معاوية عليه في ركوب البحر عرض الحائط ، بل توعده ان فعل ، خاصة بعد أن هول له عمرو بن العاص أخطار البحر ، فأقسم عمر لا يحملن عليه مسلما أبدا ، وهادن ملك الروم من أجل ذلك .. فكان موقف عثمان تجاه هذه المشكلة من أدل أعماله على نصيبه من الاجتهاد والاقتداء ، وأنه أقدم حيث أحجم من هو أشهر منه بالاقدام .. فقد كتب الى معاوية يأذن له بركوب البحر ، ويشترط عليه ألا ينتخب الناس ، ولا يقترع بينهم ، وأن يخيرهم ، فمن اختار الغزو طائعا حمله وأعانه ...

وكان لاسطول المسلمين بقيادة عبد الله بن قيس الجاسي دور عظيم في تحقيق النصر ، والسيطرة على سبل الملاحة ، وقد كان لهذه الخطوة الجريئة أثرها في تهدئة الجبهة الداخلية ، حيث أصبحت تلك الغزوات شاغل المسلمين .. يتابعونها ويترقبون أخبارها .. ولكن هذا لم يدم طويلا ، خاصة بعد أن تفاوتت مواقع الجهاد ، وعدد المجاهدين ، ونصيب كل مجاهد ، مما جعل بوادر الثورة تظهر لدى من يستشعرون بأنهم دون غيرهم .. وساق الكاتب العديد من الامثلة منذ عهد عمر حتى نهاية عهد عثمان ، وعلل لذلك بقوله : انها جرائر الاختلاف من نظام الخلافة الى نظام الملك ..

وقد عدد الكاتب أسباب القلاقل .. كتباعد مواقع الجيوش ، والتنافس بينها ، والتهم التي لحقت ببعض الولاة : كالوليد بن عقبة وسعيد بن العاص اللذين تعاقبا على ولاية الكوفة في عهد عثمان ، فاتهم الاول بشرب الخمر ، وثبتت التهمة ، وأقيم عليه الحد ، وعزل .. واتهم الثاني بتعمد التشهير بسلفه ، خاصة بعد أن غسل المنبر قبل أن يجلس عليه ، فكثر اللغط في مجلسه ، وبدأت حركة نفور منه ، وتمرد ضده وضد عثمان ، وكثر الشاغبون من الروادف والاتباع ، وصار لهم تجمعات ، وبينهم مكاتبات ولقاءات ، فكانت تلك الزلازل النفسية بمثابة صدمة لعثمان ، ابتلي بها رعاياه في بحبوحة السلم والرخاء ، فكانت طورا جديدا في حياة أولئك الرعايا .. فلا هم رعايا خلافة ، ولا رعايا مملكة .. وفارق كبير بين نظام الخلافة ونظام الملك ، هو الفارق بين الثقة التي لا تحتاج الى حماية ، وبين السلطة التي تحمي نفسها ،

وقد وصلت الخلافه الى عثمان وهو أحوج ما يكون الى هذه الثقة ، وهي أعصى ما تكون عليه ··

فالعلية كانوا يرون أنفسهم نظراءه بل ومنافسيه ، والدهماء فرغوا من الاشغال ، وتفرغوا للقيل والقال ·· وسياسة عثمان مع العلية جاءت على عكس ما كان عليه الصديق والفاروق ·· فأطلقهم في الآفاق ارضاء لهم ، وأملا في اسدائهم النصح للدهماء ، وحسن القيادة ، واتقاء الفوضى ··

كما اختار عثمان ولاته من أقربائه عسى أن يصدقوه العون ··

وكانت آفة عثمان تلك النزعة الاموية التي كشف عنها نظرته الى الامامة التي أوشكت أن تكون نظرة الى الملك ، حيث قال لابن مسعود : « مالك ولبيت مالنا ؟ » وقال في احدى خطبه : « ··· فضل من مال ، فلم لا أصنع في الفضل ما أريد ؟ فلم كنت اماما ؟ » ·· فهو بهذا يكاد يرفأ الخلافة برقعة الملك ··

وترتب على ذلك كله تغيير في أطوار النفس لا يمكن اسناده الى الرعية دون راعيها ··

وبعد أن أثبت العقاد نزاهة عثمان ، وأنه كان ينفق من ماله الخاص على المصالح العامة قبل وبعد الخلافة ، وأنه حقق العديد من الانجازات والاصلاحات، بالاضافة الى الانتصارات والفتوحات ·· رد على المؤرخين الذين يحيلون عمل عثمان وتدبيره على الاعوان والنصحاء ، والتواني والتفريط اليه ، أو الى غلبة الاعوان عليه ، ولا سيما المسئول الاكبر ــ في رأي الاكثرين ــ عن أخطاء عثمان ·· ابن عمه مروان بن الحكم ·· فبين أن مروان لم تكن له تلك القوة ، وليس بالعون الغالب الذي لا يخالف ، وغاية شأنه ، أنه المأمور الذي لا يستعاض عنه بمن هو أنصح منه وأقدر على الطاعة ، وأن المحنة لم تكن علة عللها مشورة عثمان لمروان ·· انما علة العلل ·· ان خلافة عثمان جاءت في وقت يحتاج الى ثقة الخلافة فلا يجدها ، والى سلطة الملك فلا يجدها ، ولن يسلم حكم يحتاج الى سند الثقة في موضعه ، والى سند السلطة في موضعه ، فلا يجد هذا ولا ذاك ·

وجاء نسخ المصحف مكرمة من أبرز مكرمات عثمان ، ومن أدل الاعمال على اقدامه وشجاعته ، وهو عمل قد تردد من قبله أبو بكر فيما هو دونه ، وذلك حينما عرض عليه عمر فكرة جمع القرآن ، بعد أن قتل عدد كثير من القراء في موقعة اليمامة ·· ولما اتسعت رقعة الخلافة في عهد عثمان ، وتفرق المسلمون في الامصار ، حدث اختلاف في القراءة ، مما جعل حذيفة بن اليمان ــ بعد أن عاد من قتال أرمينية ــ يقول لعثمان : « أدرك الناس يا أمير المؤمنين قبل أن يختلفوا في الكتاب » فأرسل عثمان في طلب النسخة التي أودعها الفاروق عند السيدة حفصة قبيل مقتله ، وأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن

الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن يقوموا بنسخها ، وبعد أن تثبت من صحتها وزعها على الامصار ، وأباد كل ما عداها ، فكان هذا العمل الجليل معدودا من أكبر سيئات عثمان ، مع أنه لم تبق لعثمان حسنة أعظم منه في تاريخ الاسلام !!٠

وفي النهاية ٠٠ بين الكاتب أن الدعوة النبوية رفعت مجتمعها الى الأوج الذي لا تقوى النفوس البشرية على مداومة البناء فيه ، ومن ثم كان ما حدث لا يمكن تسميته انقلابا ، وانما رد فعل للانقلاب العظيم ، الذي طرأ على حياة الامة العربية بعد الدعوة النبوية ٠٠ فهذا التطور هو أحد الحادثين المختلفين اللذين يتلاقيان في سيرة عثمان ، وفحواه : التحول مع الزمن من وثبة النبوة ، الى ثقة الخلافة ، الى سلطة الملك ٠٠ والحادث الاخر هو المشاغبات التي عملت فيها الاغراض الصغيرة ، والغرائز الهوجاء ، والدعاوى الملفقة ٠٠

واعتبر الاستاذ العقاد أساس البلاء : البطر على الحقوق التي كسبوها من الاسلام ، وسهولة الشكوى ٠٠ ومتى سهلت الشكوى صار الاعراض عنها محنة ، واستجابتها محنتين ، لانها تغرى بالشكوى من جديد ، وتزيد البلاء بزيادة السهولة طمعا في دوام الاصغاء ٠٠

وأورد العديد من الاتهامات التي كان عثمان في بعضها بريئا ، وفي بعضها له وجهة نظر جعلته يرجح أن ذلك هو الصواب ، والبعض الاخر محسوب عليه ، ولكنه ليس مسوغا للقتل ٠٠

ولقد أشير على عثمان بالضرب على أيدي الشاغبين ، في الوقت الذي ليم على مواقف الحزم مع بعضهم ، فكان من محنة الامامة في ذلك الوقت ، أن يلام الامام على النقيضين : الرأفة بالشاكين ، واغضابهم لانه لم يجبهم الى ما سألوه !!٠

وختم الكاتب كتابه ـ بعد أن كشف جوانب الخير في أغوار النفس الانسانية ـ بتحية صدق تمتحن بالنار والنور بين ظلمات الشرور ، وبين السر في عدم وصف عثمان بالعبقرية أسوة بالصديق والفاروق وعلي ٠٠ بأنه لا يؤمن بالعبقرية لعثمان ، وانما يؤمن بأنه ذو النورين : نور اليقين ، ونور الاريحية والخلق الامين ٠

وبعد هذا العرض الموجز لما حواه الكتاب ، أود أن أقول : ان أي انسان يلي أمرا سبقه فيه عبقري عظيم يملأ العين والفؤاد مثل الفاروق ، لا يستغرب أن يحدث له ما حدث لعثمان ٠٠

ولقد وفق العقاد ـ رحمه الله ـ في الذود عن عثمان بالحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ، بلا تحيز ولا مبالغة ، فبدد الاوهام ، وصحح الافهام ، وأراح النفوس ، ووضع النقط فوق الحروف ، وأعاد الحق الى نصابه ، وكان مثاليا في عرضه ٠٠ مثاليا في نقده ٠٠ مثاليا في دقة فكره ، وروعة بحثه ٠

مهدي عبد الحميد مصطفى
مبعوث الازهر الشريف في لبنان



على العهد

علم قراء هذه التراجم وجهتنا التي نتجه اليها في كتابتها ، ولا نحسب ان أحدا ممن تتبعوها ـ أو تتبعوا معظمها ـ ينتظر منها بحثا غير بحوثها التي عنيناها ، فليس يعنينا منها سرد الحوادث ، ولا استقصاء البيان عن فترة من السنين ، وانما يعنينا من الحادثة التي نعرض لها ، ومن الفترة التي نستبينها أنها وسيلة الى مقصد واحد : وهو التعريف بالنفس الانسانية في حالة من أحوال العظمة والعبقرية ، أو حالة من أحوال النبل والأريحية ، فان جاوزنا هذا المقصد الى غيره ، فانما نجاوزه لجلاء فكرة تحيط بأطوار التاريخ الانساني ، وتخرجه من غمار التيه (١) والظلمة ، وتسلك به مسلكا غير مسلك التخبط والضلال ..

ونحن نقيس أثر هذه التراجم بمقياسين متقابلين ، بل متعارضين متناقضين ، ولكنهما ينتهيان الى نتيجة واحدة ..

نقيس أثرها بالرضى والقبول من الموافقين ، ونقيسه بالسخط والنفور من المخالفين ، وكلاهما دليل على أثر نغتبط به ونستزيد منه .. دليل على أن التراجم رمية أصابت مرماها ، وهذا كل ما نبغيه .

ومن الملاحظات التي نغتبط بها خاصة أن جانب الرضى عن هذه التراجم غير مقصور على أبناء دين واحد أو أبناء نحلة (٢) واحدة .. فتراجمنا لعظماء الاسلام قد اطلع عليها وتتبعها أناس كثيرون ممن لا يدينون بالاسلام ، وترجمتنا لغاندي قد كان أكثر قرائها من المسلمين ، وهؤلاء وهؤلاء قد عرفوا وجهتها ، ولم يخرجوا بها عن سبيلها ، فليست النفس الانسانية ملكا لأبناء دين واحد ، وليس الكشف عن أسرارها وأغوارها (٣) فريضة شرع واحد أو عرف واحد ، وما من شيء يجعل للدين نفسه معنى ان لم تكن النفس الانسانية ذات معنى وذات قيمة وذات علاقة أصيلة بهذا الوجود أجمع ، فلا يضل معتقد عن هدى عقيدته حين

---

(١) يأتي التيه بمعنى : الصلف والكبر وبمعنى الضلال وهو المراد هنا .
(٢) النحلة : الملة . (٣) أي أعماقها وخباياها .

يؤمن بجانب من جوانب عظمتها أو جانب من جوانب النبل والأريحية فيها •• والسؤال الذي يسأله من يعرف المسألة كلها هو :

ــ هل تستحق الحياة أن نحياها ؟••

فان كانت حياة الانسان أهلا للثقة بها والايمان بقدرها فالجواب نعم ، وان لم تكن كذلك فلا جواب للسؤال غير اليأس والضياع والانحلال •

بل نحن نرى أن الشاكين والمترددين يتوبون (١) الى طريق الامل والرجاء كلما لمسوا للنفس الانسانيه جذورا عميقه في أصول الحياة ، وهذه الجذور نلمسها لمسا كلما علمنا ان النفس الانسانية قابلة لعمل عظيم ، وكلما علمنا أن قوة الاعتقاد بالخير هي نفسها عمل عظيم • وليس الخلاف اذا بين دين ودين ، أو بين مذهب ومذهب ، او بين فلسفة وفلسفه ، ولكنه خلاف بين حياة لها جذور ، وحياة مستاصلة من جميع الجذور ، وهو بعبارة أخرى خلاف بين حياة لها معنى ، وحياة فارغه من كل معنى ، ولو كان هذا المعنى من مخترعاتها الملفقة وأباطيلها المزجاة (٢) •

نقيس أثر هذه التراجم بالرضى من هولاء المؤمنين بمعنى الحياة وهؤلاء الباحثين عن معناها ••

ونقيسه كذلك بسخط الساخطين وغيظ المحنقين (٣) ، وكلما اشتد هذا السخط ، واضطرم (٤) هذا الغيظ علمنا موقع الرمية من الهدف الصميم ، فهو موقعها الذي أصبنا به المقتل من ذلك المعسكر الذي يسمي نفسه بمختلف الأسماء ، ولا يصدق عليه اسم منها كما يصدق عليه اسم أعداء الانسان ••

وانما تصدق الأسماء حيث تصدق على الصفات والأعمال ، وقد سمي بأعداء النوع الانساني قديما معاشر من الخلق كانوا يكرهون النعمة ويعافون (٥) السرور ، ويتجنبون معاشرة الناس ، ولكنها تسمية لم تكن على صواب •• لأنهم كرهوا النعمة وعافوا

---

(١) أي يرجعون • (٢) أي الرديئة أو الزائفة • (٣) الحنق : الغيظ
(٤) اضطرم : التهب • (٥) أي يكرهون •

السرور ايمانا بنعمة أشرف من جميع النعم ، وشوقا الى مسرة ارفع من جميع المسرات ، ثم تجنبوا معاشرة النـــاس نبوا (١) بضمائرهم عن العيش الذي لا يعرف النعم والمسرات الا في أحضان الرذائل والشهوات ، فمن شاء فليسم هولاء الملتزمتين بما شاء من الاسماء الا ان يسميهم باعداء الانسان •

اما اعداء النوع الانساني حقا فهم الحريصون على تصغير كل عظيم فيه ، الملوثون لكل صفحه نقيه من صفحاتـــه ، العاكفون على هدم كل ما بناه في تاريخه الطويل من قيم الاخلاق ، وعقائد الخير والفلاح ، الذين يعملون مـــا لا يعمله الا عدو مغير على الارض ، يتعقب (١) بقايا اهلها كما يتعقب العدو اللدود جنسا من الد الاعداء لجنسه ، فلا يسره شيء كما يسره ان يرجع الى ماضيه وحاضره بالتشويه والتخريب ، وذم الحميد منه وتسجيل الذميم المعيب ••

ويبلغ المسخ (٣) بهؤلاء المساكين أنهم يخلصون في بغضائهم اخلاص الجنسين المتعاديين بالطبيعه ، فلا يقنعون بما يجدونه من العيوب والادناس بل يتجسسون عليها ويلحون في تاويلها ، ولا يطيب لهم شيء كما يطيب لهم ان يبطلوا الثناء على بطولة البطل وتفدية الشهيد وايثار الكريم ، فيردوه الى الزراية والمهانة ، وتعليل الامـــور باســـوأ العلل ، وتفسيرهـــا باقبـــح البواعـــث والاغراض •• ومثل هذه اللجاجة (٤) في تلطيخ تراث الانسانية كله بالاوزار والادناس لا تصدر الا من طبـــع سقيم وخليقـــة عوجاء ، فيجوز لكل صاحب عقل ان يفهم بعقله علل الاعمال سامية أو مسفة (٥) ، وعامة أو خاصة ، ومخلوطـــة بالاثرة أو خالصة للايثار ، ولكن الهيام بتحقير كل عظيم واتهام كل ثنـــاء والحماسة المتشنجة لتغليب الخسة على النبل ونبش السمعـــة المأثورة عن جراثيم النتن والقذى ليس المرجع فيه الى فهم ودراسة ، ولكنه يرجع الى مسخ في الكيان يسلخ المبتلى به في مسالخ العدو

---

(١) أي تباعدا وتجافيا • (٢) تعقبه : تتبعه وأخذه بذنب كان منه •
(٣) المسخ : تحويل صورة الى صورة أقبح منها ، ومن معاني المسخ : الضعيف الاحمق • (٤) الخصومة • (٥) أي رديئة •

المبين لنوع الانسان •

وما كان في وسع انسان حي أن يسيغ الحياة كما يريدها هؤلاء المسخاء المنكودون ، ولكنهم فقدوا الثقة بالحياة المثلى فعوضوها ببديل منها لا يغني عنها الا الى حين •• ان المنحدر من القمة الى الهاوية يتحرك في انحداره ، بل يتحرك سريعا الى قراره، وهو في حركته هذه أسرع من الصاعد الى القمة •• بجهده وهدايته ، وأسبق منه جدا الى غايته بل نهايته •• الا أنها حركة المصاب بالحركة على الرغم منه ، فلا وجه للمقابلة بين الصاعد المجاهد والهابط المقذوف كما ينقذف الجلمود (١) ، وأن لاح لمن يراهما أنهما متحركان ، وأن الهابط منهما أقدر من الصاعد على العدو والجريان ••

وقد امتلأ مكان الثقة من نفوس هؤلاء المسخاء بسخائم (٢) المقت والكراهية ، فكانت لهم عوضا بئس العوض •• كانت لهم عوضا كعوض الحركة الهابطة من الحركة الصاعدة ، وليس أدل على ضرورة الثقة للانسان في اجتماعه وانفراده من حاجة هؤلاء الى تعويضها بذلك الثمن التقيل ، وانه لجد ثقيل في الحقيقة ، فانه لهو الانتحار بغير ارادة الانتحار •

ونحمد الله على نصيبنا من هذه الكراهية ، كما نحمده على نصيبنا من تلك النقمة ، فهذه وتلك كلتاهما مقياس صادق لأثر هذه التراجم التي نزيدها اليوم ترجمة جديدة ، وسنزيدها بمشيئة الله كلما اتسع الوقت وأحسسنا الرضى من هنا والكراهية من هناك •

ان سيرة الخليفة الثالث نمط (٣) من أنماط متعددة زخرت بها الدعوة الاسلامية من سير الخلفاء وغير الخلفاء : أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وأبي عبيدة ، وخالد ، وسعد ، وعمرو ، وأمثالهم من الصحابة والتابعين ، ما منهم الا من كان عظيما بمزية ، وعلما من أعلام التاريخ ، فأين كان موضع هؤلاء من العظمة ومن تاريخ بني الانسان لولا العقيدة الدينية ولولا الرسالة المحمدية ؟•

---

(١) الجلمود : الصخر • (٢) السخمة : السواد ، والسخام : سواد القدر والسخيمة : الضغينة والحقد • (٣) نمط : أي نوع •

ليقل من شاء من فلاسفة التاريخ ما يشاء في التعليل والتحليل والتلخيص والتفصيل ، فمهما يقل القائلون ، ومهما يشرح الشارحون ، فليس من السهل على عقل رشيد أن يزعم أنها كلها خدعة وهم في رؤوس أناس جاهلين • ولا حاجة هنا الى الفلسفة ولا الى الحذلقة (١) ولا الى الجدل الطويل ، فالقول الفصل بعد كل قول ووراء كل شرح : أن الوهم الخادع في رؤوس الجاهلين خير ألا يكون • وماذا يبقى من تاريخ الانسانية لو حذفنا منه هذه العوامل الحية وقلنا مع القائلين : أنها وهم من الأوهام كان خيرا لها أنه لم يكن ولم يكن بعده ما جرى في مجراه ؟•

وفي هذه السيرة على ما نرجو ، وعلى خلاف ما يخطر في بال الكثيرين لأول وهلة ، شواهد على هذه انعبرة الكبرى أكبر من شواهد أخرى ، فلعلها لا تبرز لنا عبقرية كعبقرية الصديق أو الفاروق أو الامام ، ولكنها تبرز لنا من جانب الأريحية صفحة لا تطوى ، ولا يستطيع العقل الرشيد أن يرجع بها الى باعث غير باعث العقيدة والايمان •

● ❊ ●

(١) حذلق الرجل وتحذلق : اذا أظهر الحذق فادعى أكثر مما عنده •

الفصل الأول

بين القيم والحوادث

ربما كانت سيرة الخليفة الثالث ـ ذي النورين ـ أوفى السير بالشواهد على الخصائص التي تلازم تاريخ العقيدة في أطوارها الأولى ، ولا سيما أطوار التحول في طريق الاستقرار ..

وأبرز هذه الخصائص في تاريخ العقيدة ، أنه تاريخ قيم ومبادىء ، وليس بتاريخ وقائع وأحداث ..

فالوقائع والأحداث تتشابه في العصور المتطاولة ، ولو أننا تخيلناها معروضة في الصور الصامتة ، لما وجدنا من فارق يذكر بين الوقائع والأحداث التي تفصلها من مسافة الزمن آلاف السنين ، ومن مسافة المكان آلاف الفراسخ .. كلها صورة متكررة من حيث ظواهرها وأعراضها البادية للعيان ، ولكنها تختلف اختلافا بعيدا حين ننفذ من ظاهرها الى باطنها ، أو حين ننفذ من حركاتها المكشوفة الى القيم النفسية التي تكمن (١) وراءها ، والى الدعاوى التي تدور عليها ، ولو كانت من دعاوى المبطلين ، التي يصدق عليها في بعض الأحايين : أنها كلمات حق أريدت بها أباطيل ..

فالحوادث التي تدور على طلب السطوة (٢) ، غير الحوادث التي تدور على طلب الحرية ، ولو كان طلب الحرية أكذوبة يتعلل بها المتعلل لغاية في نفسه يسترها ويعلن ما عداها ..

فاذا كان المتعلل بالحرية مبطلا في دعواه ، فهناك فارق صحيح بين المعارك التي تذكر فيها الحرية حقا أو باطلا ، والمعارك التي لا ترد فيها على لسان أحد ولا تخطر بباله ، فلولا أنها أصبحت شيئا يهتم به الناس ويتنازعونه لما ذكرها الصادقون ولا المبطلون . ومتى أصبحت الحرية قيمة من القيم المحسوبة في حياة الأمم ، فهناك دليل عليها ممن يتعلل بها صادقا ويتعلل بها كاذبا ، ليخدع الناس بها عما يريده من ورائها .

---

(١) أي تختفي . (٢) السطوة : القهر بالبطش .

وفي سيرة عثمان ــ رضي الله عنه ــ صدمة عنيفة تواجه كل باحث في تاريخ صدر الاسلام ، وتلك هي قتلته البشعة وهو شيخ وقور جاوز الثمانين ٠

لم يكن عثمان أول خليفة قتل ، فان الفاروق عمر بن الخطاب قتل قبله غيلة (١) وهو يقيم الصلاة ٠٠

ولكن مقتل عمر لم يكن صدمة في تاريخ العقيدة ٠ قتله غلام دخيل على الاسلام ومن ورائه عصابة تدين بغير دينه ، وتكره منه ما عمله لاقامة ذلك الدين ، فلا غرابة ولا صدمة ، ولا شيء فيه غير الفاجعة (٢) التي تفجع نفوس المسلمين ٠٠

أما تلك القتلة البشعة (٣) التي انتهت بها حياة الخليفة الثالث فشيء غير هذا ، وشيء بعيد عن هذا في صدمته المفاجئة لمن يتابع تاريخ العقيدة الاسلامية في أطوارها الأولى ٠٠

لم يمض جيل على الاسلام ويقتل خليفة المسلمين هذه القتلة؟ فماذا صنعت هذه العقيدة اذا بنفوس الحاكمين والمحكومين ؟٠٠ وماذا تغير من فتكات (٤) الجاهلية بعد جهاد المؤمنين وايمان الكافرين ؟

والسؤال صدمة عنيفة ٠٠

ولكنه قائم على خطأ جسيم (٥) ، وان يكن خطأ قريب التصحيح ٠

فالعقيدة لا تبطل الخلاف والنزاع ، ولا تختم الوقائع والأحداث في التاريخ ، ولم يحدث قط في دعوة اصلاح في الدين أو غير الدين أنها قسمت التاريخ الى عهدين : عهد سابق كان فيه نزاع وكانت فيه أحداث ، وعهد لاحق يبطل فيه النزاع وتنقضي فيه الأحداث ٠

لم يحدث هذا قط ولا يحسن أن يحدث ، فانه لو حدث لكانت العقيدة المصلحة شللا معطلا لحياة الأمم ، معوقا للتاريخ في مجراه المطرد (٦) الى غير قرار ٠٠

ان العقيدة لا تلغي الحوادث والخصومات ، ولكنها تجدد القيم التي تدور عليها الحوادث والخصومات ٠

---

(١) اغتاله : أخذه من حيث لم يدر ٠ (٢) الفاجعة : الرزيئة والمصيبة ٠
(٣) شيء بشع : أي كريه ٠ (٤) الفتك : القتل ٠ (٥) أي عظيم ٠
(٦) أي المستمر ٠

وليست الخصومات شر ما يبتلى بـه الناس ، فشر منهـا الخسة (١) التي ترضى بالدون (٢) ، وشر منها الوفاق علـى الغش والمهانة ، وشر منها شلل الأخلاق الذي لا يبالي صاحبه ما يحسن وما يقبح ، وما يرضي وما يسوء ، وشر منها الحياة بغير قيمة تستحق الخلاف عليها ، وبغير معنى يتسع للبحث فيه ..

فليس مطلوبا من العقيدة أن تبطل الخصومات ، ولكنمـا المطلوب منها أن ترتفع بالنفوس عن الخصومة في غير شأن ، أو ترتفع بها عن الخصومة في شأن هزيل ضئيل (٣) ..

وعلى هذا ينبغي ألا تكون الخصومات والأحداث هي مـدار البحث في تاريخ هذه الفترة ، بل ينبغي أن يكون مدار البحث على القيم والمبادىء التي دارت عليها تلك الخصومات والأحداث.

ولا نقول : ان الفاجعة اذا تهون ..

وغاية ما نقوله : انها تفهم على وجهها الصحيح ، وأنها تفهم على وجه لا يريب (٤) في عمل العقائد ، وعمل العقيدة الاسلامية على التخصيص .

لقد كان مدار الخصومة على محاسبة الامام : محاسبة الرعية لامامها ، ومحاسبة الامام لنفسه ، وكل أولئك شيء جديـد في التاريخ ، وكل أولئك شيء يقيم ويقعد في حياة الأمم ، ولا سيما حياتها في أطوار العقيدة الأولى .

أين كان أبناء الجاهلية من حق الحساب بين الحاكم والمحكوم ؟

أما في البادية فقد كان الحساب كله على شريعة (٥) الثأر والانتقام ، واغارة القبيلة الكبيرة على القبيلة الصغيرة ، وكان الغالب على الفرد أن يعيش في كنف قبيلته ، تحميه ان استطاعت، أو تخلعه ان عجزت عن حمايته . وقد شاع في العصور الحديثة كلام كثير عن الحرية البدوية ولم تفهم على حقيقتها مـع كثرة الكلام فيها ، فما كانت الحرية البدوية قط قائمة على حق انساني تحميه الشرائع والآداب ، ولكنها كانت أشبه شيء بانطلاق المادة حيث لا عائق (٦) لها مما حولها ، ومثل هذه الطلاقة طلاقـة

---

(١) الخسة : الدناءة . (٢) الدون : الحقير . (٣) ضئيل : صغير .
(٤) لا يشكك . (٥) أي طريقة . (٦) أي حائل .

العصفور في فضائه ، والحيوان الآبد (١) في صحرائه : طلاقة المادة حيث لا حواجز ولا سدود ..

وأما الحكومات التي قامت في الجزيرة العربية ، على نحو من نظام الملك والامارة ، فقد كانت شريعتها – على خلاف المظنون – طغيانا مطلقا من جميع القيود ، وكان بعض ملوكهم يتخذ من أهوائه ونزواته شعائر يدين بها الناس في مسائل الحياة والموت ، فكان المنذر بن ماء السماء يجعل له يوم نعيم ويوم بؤس ، ويقتل كل من يسوقه اليه الحين (٢) في يوم بؤسه ولو كان عابر طريق ، وكان يسكر ويأمر بالقتل فينفذ لساعته ولا يدري بعد افاقته فيم كان هذا العقاب ان صح أن يسمى بالعقاب . وحدث أن حجر بن الحارث فرض على بني أسد أتاوة (٣) ، فتمردوا عليها ، فاستباح أحياءهم ، واعتقل رؤساءهم ، وأقسم ليقتلنهم بالعصا هوانا (٤) بهم عنده أن يقتلهم بالسيف أو السلاح ، فسموا من أجل ذلك بعبيد العصا ، وقال شاعرهم عبيد بن الأبرص يستشفع فيهم :

ومنعتهم نجدا فقد	حلوا على وجل (٥) تهامه
اما تركت تركت عفـ	ـوا أو قتلت فلا ملامه
أنت المليك فوقهم	وهم العبيد الى القيامه

وكان عمرو بن هند يكلم الناس من وراء ستور (٦) ، وكانوا يضربون المثل بكليب وائل في عزته ، فيقولون عن العزيز البالغ في العزة : « انه أعز من كليب وائل » .. لأنه كان يحمي الكلأ (٧) فلا يقرب حماه ، ويمر بالمكان يعجبه ، فيرمى عنده بكليب (٨) وينادي بين القوم : انه حيث بلغ عواؤه كان حمى لا يرعى .. وكانوا يقولون : « لا حر بوادي عوف » لأنه كان من عزته يقهر كل من حل بواديه ، فكلهم عنده كالعبيد ..

وأقبح من ذلك ما روي عن عمليق ملك طسم وجديس ، فانه كان يأمر ألا تزف الفتاة الى بعلها (٩) قبل أن تزف اليه ، وفي ذلك

---

(١) الآبد : مفرد أوابد ، والاوابد : الوحوش . (٢) الحين : الهلاك .
(٣) الاتاوة : الخراج . (٤) هوانا : أي استخفافا بهم . (٥) الوجل : الخوف.
(٦) جمع ستر . (٧) العشب رطبا أو يابسا . (٨) كلب صغير . (٩) البعل : الزوج .

تقول احدى هؤلاء الفتيات :

يجمل ما يؤتى الى فتياتكم   وأنتم رجال فيكم عدد الرمل ؟

الى أشباه هذه المظالم التي أجملناها في كتابنا عن الديمقراطية في الاسلام ، وقلنا معقبين عليها : انها روايات لم تخل من اضافات القصة والخيال كجميع روايات التاريخ القديم المنقول بالتلقين والاسناد « ولكننا نثبتها و نعول عليها ، لأن الفكرة هنا أبلغ من الخبر ، وأصدق من وثائق الأوراق ، فلو لم تكن فكرتهم الغالبة عن الحكم أنه عزة وخيلاء لا تكملان لصاحبهما بغير اذلال الأعزاء، وتمحل (١) الذرائع (٢) للعتو (٣) والايذاء ، لما تواترت أنباء الملوك على هذه الوتيرة (٤) ·· » ·

ومن هذه الفكرة المتواترة عن سلطان الحكم الى محاسبة الخليفة على كل صغيرة وكبيرة في شؤون الدولة بون بعيد ، وشيوعها بين الخاصة والعامة حتى يتصدى للحساب صغير القوم وكبيرهم على السواء ، هو الفتح الذي جاءت به العقيدة الاسلامية على أعقاب الجاهلية ، وعلى مسمع من طغيان الأكاسرة والقياصرة والتبابعة (٥) ، في الشرق والغرب والشمال والجنوب ··

وسنرى أنهم كانوا يحاسبون الخليفة على الزيادة في حمى المرعى المتروك ، لا بل الصدقة بعد تكاثرها ومضاعفة عددها ، وسنرى أنهم كانوا يحاسبون واليا من أكبر ولاته ــ وهو والي الشام معاوية بن أبي سفيان ــ لأنه سمى مال الدولة مال الله بعد أن كان يسمى بيت مال المسلمين ، وأشفقوا أن يكون تغيير الاسم تمهيدا لاستئثار الحاكم بالتصرف فيه ، وكف المسلمين أصحاب المال عن المحاسبة عليه ··

هذه المحاسبة بين الحاكم والمحكوم قيمة كبيرة نشأت مع العقيدة المحمدية ، وهي قيمة كبيرة على جميع حالاتها من الصدق فيها أو التذرع بها الى غرض قد يخفيه أصحاب الذرائع والتعلات، فان القانون يصونه أناس مخلصون ، ويدعي غيرهم صيانته كاذبين مدلسين (٦) ، ولكن القانون على الحالين كسب عزيز

---

(١) التمحل : الاحتيال · (٢) الذرائع : الوسائل · (٣) أي مجاوزة الحد · (٤) الوتيرة : الطريقة · (٥) ملوك اليمن · (٦) مدلسين : أي غاشين·

لا يستهين به عاقل ، ولا يقول أحد بالاستغناء عنه من أجل الكذب به أو الكذب عليه،وكذلك كل قيمة غالية من قيم الحياة الانسانية كالفضيلة والخير والحرية والصدق وما شابهها من فتوح الضمير في آماد (١) التاريخ ، مما يحرص عليه الناس ، أو يصطنعون الحرص عليه ، فانما تكسبها الانسانية بالتعارف عليها ، وقبولها أو قبول مقاييسها ، ولن تكون القيم جميعا الا من هذا القبيل ، وعلى هذا المثال ٠

ولقد كان من الناهضين (٢) لمحاسبة عثمان ـ رضي الله عنه ـ أناس مغرضون يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون غير ما يقولون : كان منهم من أقام عليه الحد ، ومن حبس أباه في جريمة ، ومن فرق بينه وبين حليلة تزوجها على غير الشريعة ، ومن أبى عليه الولاية ، ومن لم يصنع به الخليفة أمرا من هذه الأمور ولكنه كان منطوي النية على الفساد والافساد ٠٠ وكل هذه المآرب (٣) قد شيبت (٤) بها حركة المحاسبة على أعمال الخليفة ، فكانت عيبا للحركة ، ولكنها لم تكن عيبا لحق المحاسبة ، ولا ازراء (٥) بشأنه ، ولا بالشأن الذي كسبته الأمة من تقريره والتعارف عليه ، ولولا أنه حق لما تعلل به المبطلون ٠٠

وآفة البحث في تطور الأخلاق والقيم الانسانية ، أن يتولاه من لا يفقهون قيمة النهي عن شيء بعد أن كان مباحا غير منهي عنه ، ولا يخطر النهي عنه على بال أحد ، فاقامة الحدود التي يؤخذ الناس بالتزامها ، وينهون عن تجاوزها ، هي عنوان الدوافع الباطنية التي غيرت حياتهم ، وغيرت نظراتهم الى الأعمال والأخلاق ، فأعلنوها في تلك الحدود ٠

وأضل من هؤلاء من يبحثون في تطور الأخلاق ، فيأخذونها بالعناوين ويطلقون العنوان الواحد على صفتين مختلفتين أو متناقضتين ، ويكاد القس راشدال Rashdall أن يزن الأطوار الأخلاقية بهذا الميزان حيث يقول : « انه ندر من رذيلة أو جريمة

---

(١) الامد : الغاية والمنتهى والغضب ، والآمد : المملوء من خير أو شر ، والسفينة المشحونة ٠ (٢) أي القائمين ٠ (٣) أي المقاصد والغايات ٠ (٤) شيبت : أي خلطت ٠ (٥) الازراء : التهاون بالشيء ٠

الا كانت في زمن من الأزمنة منظورا اليها كأنها واجب من واجبات الديانة أو العرف ، كالسرقة التي كانت تحسب فضيلة من الناشئة الاسبرطية ومن الطائفة الهندية التي تسمى بطائفة الخناقين ، وقد كانت القرصنة ـ وهي سطو (١) وقتل ـ صناعة محترمة في العالم القديم ، وكان الاضطهاد الديني في القرون الوسطى أشرف الواجبات » ٠

وليس من الميسور في هذا المقام أن نفصل وجوه الخلاف بين الاباحة القديمة والتحريم الحديث في جميع هذه الفعال والخلال ، ولكننا نكتفي بما يستطاع بيانه بغير حاجة الى الافاضة والاسهاب (٢) كالقرصنة ما بين العصرين القديم والحديث ٠ فهل القرصنة التي نحرمها اليوم هي القرصنة التي كانت مباحة بالأمس ، أو هما نقيضان بسم واحد مشترك بينهما بوهم الاصطلاح ؟ ٠ ٠

الواقع أن قرصنة الأمس كانت حقا كحق صاحب الملك الذي تسطو عليه ، اذ كان صاحب الملك يجمع بضاعته بالسطو على قبيلة أو عشيرة أضعف منه ، وأعجز عن الهجوم والدفاع ، فان كان فيما يملكه شيء مصنوع فهو من صنع العبيد المسخرين في أرضه أو معمله ، وكلهم من أسرى الحرب المغتصبين من أبناء القبيلة التي قهرت ، لأنها عاجزة عن مقاومته ودفعه ٠ فحقه في بضاعة السفينة كحق القرصان في السطو عليها ، وليس هذا الحق الذي يستطيع القرصان في العهد الحديث أن يدعيه ويقبل التعارف عليه ٠ ٠

ويصدق على سرقة الناشئة (٣) الاسبرطيين ما يصدق على القرصنة في العصور القديمة ، ويمكن أن يقال كذلك : ان الاضطهاد الديني في العصور الوسطى غير الاضطهاد الديني في العصر الحديث ، لأن العمل لا يعتبر رذيلة (٤) أو جريمة الا اذا كان فيه نقض لقيمة أخلاقية مصطلح (٥) عليها ، ولم يكن التسامح ولا الحرية الفكرية قيمة مصطلحا عليها في العصور

---

(١) أي قهر وعدوان ٠ (٢) الاسهاب : كثرة الكلام ٠ (٣) الناشئة : من جاوزوا حد الصغر ٠ (٤) الرذيلة : ضد الفضيلة ٠ (٥) أي متفق ٠

المظلمة بين الأوربيين . سواء منهم المضطهدون ومن يقع عليهم الاضطهاد . فلو أن أحدا من الذين وقع عليهم الاضطهاد ظفر بمخالفيه في العقيدة لاضطهدهم كما اضطهدوه وقسرهم (١) على التصديق بعقيدته كما قسروه ، وكلا الفريقين يستعيذ من حرية الفكر على اعتبارها تفريطا في الغيرة على الدين ٠

فالقيم الأخلاقية والوجدانية هي الجوهر المهم في تطور الأخلاق . وليست هي الأسماء والعناوين ، ومتى ظهرت «القيمة» في أمة فهي مكسب حق لا شك في نفعه أيا كانت نية المنادي به على الصدق أو على الخداع ، فلو لم يكن الذهب ذا قيمة لما استحق أن يزيفه المزيفون ٠٠

ومحاسبة الحكام كانت قيمة جديدة بين العرب وسائر المسلمين في الصدر الأول من الاسلام ، فنادى بها الخاصة والعامة وادعاها الصادق والكاذب ، وظلت عاملا مهما في السياسة أيام الخلافة وبعد أن صار الحكم ملكا يتوارثه الأبناء عن الآباء ٠٠

أما الخليفة عثمان ــ رضي الله عنه ــ فأثر العقيدة فيه وهو فرد ، أوضح من آثرها فيمن قدموا اليه من الأمصار ليناظروه ويحاسبوه ، وهو واحد من آحاد معدودين لم يكن في وسع العقل أن يتخيلهم في جاهليتهم على حالتهم التي ارتفعوا اليها بعد الاسلام ٠٠

انه كان من سلالة (٢) الأمويين، وهي سلالة اشتهرت في الجاهلية بالحرص على المال لا تبذله في غير مأرب أو متعة ، ولم ينهض أحد منهم بتكاليف المروءة والسخاء الا منافرة لمن ينافسهم بين الملأ ، وغيرة منهم أن يسبقوه الى المجد والثناء. فلما أسلم عثمان ــ رضي الله عنه ــ كانت شهرته الكبرى بالسخاء والأريحية . فنزل عن ماله لتسيير جيش في سنة العسرة ، ونزل عن ماله لشراء بئر يستقي منها المسلمون بغير ثمن ، ونزل عن ماله لتوسعة المسجد ، ونزل عن ماله لحمل المغارم واغاثة الملهوف والبر بالأقربين والأبعدين ٠٠

ومذهبه في محاسبة نفسه قد تتعارض فيه الأقوال والتأويلات.

---

(١) أي أجبرهم ٠ (٢) أي نسل

ولكنه في الأمر الثابت الذي لا جدال فيه قد بلغ الذروة (١) من محاسبة النفس والتحرج من المساس بالحياة البشرية ولو في سبيل الذود (٢) عن حياته وحياة أقرب الناس اليه .. فلما آيقن من القتل ابى ان يبقى في داره من يقتل احدا ممن يحيطون بهـا ويعالجون اقتحامها (٣) لاغتياله ، ولما سئل أن يتنحى عن الخلافة أبى أن يتنحى عنها ، ولم يكن اباؤه (٤) ضنا (٥) بشيء يحتويه. فلا شيء أغلى من الحياة وقد هانت عليه . ولا يزعم أحد أنه غنم من الخلافة مالا ، بل يتفق المؤرخون على أنه ترك الدنيا وماله أقل مما كان لديه يوم ولي الخلافة . ولكنه أبى أن يخلع نفسه حذرا من أن يحمـل جريرة (٦) الخلع ومـا يعقبـه من النزاع والقتال . وقد صرح بذلك غير مرة فقال : انه يخشى على الذين يستطيلون أيامه أن يتمنوا بعده لو كان يومه مائة سنة ، فلا يبوءن (٧) بالعاقبة المحذورة وهو مختار .

فاذا تركنا الحوادث جانبا ونظرنا الى التاريخ في صدر الاسلام على أنه تاريخ قيم ومبادىء ، فلنا أن نقول اننا أمـام فواجع مؤلمة . يود الناظر اليها لو يزوي (٨) بصره عنها ، وليس لنا آن نقول أننا أمام صدمة يصطدم بها من يسأل عـن أثر العقيـدة وأطوارها .فلا صدمة هناك اذا نحن وزنا الحوادث بميزان القيم، وعلمنا أن التاريخ لن يخلو من الحوادث ، وأن حوادث الخلاف ليست بأكبر الشرور التي تبتلى بها ضمائر بني الانسان .

---

(١) الذروة : القمة . (٢) الذود : الدفاع . (٣) أي يحاولون دخولها .
(٤) اباؤه : رفضه . (٥) امساكا أو تمسكا . (٦) الجريرة : الذنب والجناية.
(٧) أي يرجع . (٨) أي يقبض .

وبعد الصدمة

وليست الصدمة العنيفة بالحائل الوحيد دون توضيح هذه الفترة وتمحيص أسبابها وعواملها وتبعات المسئولين عنها ، فالصعوبة الكبرى أننا في هذه الفترة أمام حادثين يرجع كل منهما الى أسبابه وعوامله ، ويتكلم عنهما بعض المؤرخين كأنهما حادث واحد متحد الأسباب والعوامل ..

هذان الحادثان هما : التطور السياسي، ومقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ ، وأسباب هذا لا تكفي لتعليل ذاك ، وليس من الحتم أن تؤدي اليه .. وقد طال الجدل حول عمل عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء وأثره في هذه الفترة ، فرأى بعض المؤرخين أنه أهون من ذاك ، لأنهم اعتقدوا أن الانقلاب السياسي ومقتل عثمان حادث واحد له أسباب واحدة ، وليس هو كذلك . ولو انهم فصلوا بين الأسباب في كليهما لأمكن تقدير التبعة والاستطاعة في عمل كل عامل ، ودسيسة (١) كل مشترك في المؤامرة .

فابن السوداء ولا شك أهون من أن يحدث التطور السياسي ، وغيره ممن هم أعظم منه شأنا وأشد منه خطرا أهون من احداث ذلك التطور كله ، سواء تعمدوه (٢) أو عملوا له غير عامدين ، لأنه يرجع الى أسباب متفرقة عميقة القرار ، كثيرة التشعب ، لا تضطلع (٣) بها قدرة رجل واحد ولا عدة رجال متألبين (٤) متواطئين (٥) ..

ولكن مقتل عثمان شيء آخر غير التطور السياسي ، وفي وسع ابن السوداء ومن هو أقل منه أن يقترفه بيده وأيدي من يستمعون لتحريضه ودسيسته ، لأنه في حقيقته « مشاغبة » من مشاغبات الدهماء (٦) التي لا تعجز عن أمثال هذه الأفاعيل .

---

(١) الدس : الاخفاء . (٢) أي قصدوه . (٣) أي تقوم . (٤) التأليب : التحريض والافساد . (٥) واطأه على الامر : وافقه . (٦) من معاني الدهماء : العدد الكثير ، وجماعة الناس .

والذين يقرأون فاجعة عثمان ، ويلمون بالتاريخ ، يسبق الى خيالهم ما قرأوه عن مصارع رؤساء الدول في ابان (١) الثورات والفتن القومية : كالثورة الانجليزية مع شارل الاول ، والثورة الفرنسية مع لويس السادس عشر ، وغيرهما من الثورات في العالم القديم والعالم الجديد ..

ومتى سبقت الى خيالهم هذه الصورة ، حسبوا أن الثورة التي أفضت (٢) الى مقتل رئيس الدولة في الأمتين كالثورة التي أفضت الى مقتل رئيس الدولة الاسلامية في صدر الاسلام ، وبينهما في الواقع فارق بعيد أبعد من فارق الزمان والمكان .

ان الثورة التي أطاحت بشارل الأول قد اجتمعت فيها قوة الأمة بأسرها على وجه التقريب أمام قوة العرش وأنصاره من النبلاء ، وقد كانت هناك حرب وهزيمة غلبت فيها احدى القوتين ، وانهزمت فيها القوة الأخرى .

وهكذا حدث في الثورة الفرنسية التي أطاحت بلويس السادس عشر . وهكذا حدث في ثورات تهذه بالقارة الأمريكية والعالم القديم .

أما مقتل عثمان — عليه الرضوان — فلم تكن فيه حرب بين قوة الدولة وقوة الأمة ، ولم تتقابل فيه قوى الحكومات الاسلامية وقوى الأمم في البلاد العربية وغير العربية ، وغاية ما يوصف به أنه « حادثة محلية » قد تتم على أثر مشاغبة جامحة من مشاغبات الدهماء ، وقد يستطيعها ابن السوداء ومن هو أقل من ابن السوداء ..

وعلى سبيل الايجاز الذي يغنينا عن الاسهاب في المقارنة والمناقشة نقول : ان عثمان — رضي الله عنه — ما كان ليقتل لو كانت داره محروسة حراسة الدور التي يقيم فيها ولاة الأمور ، وان هذه الجمهرة التي اقتحمت داره واجترأت (٣) عليه بالسلاح ما كانت لتقتل واليا من ولاته — كمعاوية بن أبي سفيان في الشام مثلا — لو أنها هجمت على داره بين حرسه وأجناده ، فلا محل هنا للموازنة بين قوى الدولة وقوى المشاغبة أو الفتنة ، ولا محل

(١) ابان : وقت . (٢) أي أدت وانتهت (٣) أي تجرأت .

كذلك للموازنة بين عوامل الانقلاب السياسي وعوامل الدفاع عن شخص الخليفة في داره ، فكل عوامل الانقلاب لم يكن من الحتم أن تؤدي الى مقتل الخليفة ولو بلغت أضعاف ما كانت عليه ، وقد كانت المشاغبة التي جنت جنايتها على حياة الخليفة كافية لاجتراح (١) هذه الفعلة ولو لم يكن وراءها كل عوامل التطور التي كانت تتجمع هنا وهناك في تلك الفترة الفاجعة ، وقد بقيت عوامل التطور وازدادت بعد انتهاء عهود الخلفاء الراشدين وقيام الملك الموروث ، فلم ينجم عنها مقتل ملك أو وال من كبار الولاة في بقاع الدولة الاسلامية من أقصاها الى أقصاها ..

فمن الواجب اذا عند احصاء الأسباب والتبعات ، والكلام عما يستطاع وعمن يستطيعه أن نفرق بين الحادثين وأن نرجع بالتطور السياسي الى أسبابه وعوامله التي تبلغ ما تبلغ ، ولا يلزم منها أن تؤدي الى مقتل ولي الأمر في عاصمته ، وأن نرجع بمقتل ولي الأمر الى أسبابه وعوامله التي قد تحدث مع ذلك التطور وقد تحدث منفصلة عنه في كل طور من أطوار القلق والتذمر (٢) ، مما يدوم أو ينقضي بانقضاء أوانه ، ثم لا يعود في عصره .

---

(١) أي لارتكاب . (٢) التذمر : الغضب .

أسباب ولا أسباب

على أن الأسباب التي ذكرت للحادثين جميعا لا تزال في حاجة الى اعادة نظر ، لأنها اما أسباب مزعومة يراد بها غير ظاهرها . أو يجتهد بها المجتهدون بغير روية (١) في مواردها ومصادرها . واما أسباب صحيحة ولكنها لم تفعل فعلها الا لاقترانها بأحوال تلك الفترة ، ولو جاءت في فترة أخرى لما كان لها ذلك الأثر ·

خذ لذلك مثلا أسباب الفتنة كما ذكرها معاوية لابن الحصين ·· سأله حين وفد عليه : « ما الذي شتت (٢) أمر المسلمين وخالف بينهم ؟ » · قال ابن الحصين وخاله أراد ان يوافق هواه : « قتل الناس عثمان ! » · قال معاوية : « ما صنعت شيئا » فعاد ابن الحصين يقول : « فمسير طلحة والزبير وعائشة وقتال علي اياهم » · قال معاوية مرة أخرى : « ما صنعت شيئا » · فقال الرجل : « ما عندي غير هذا يا أمير المؤمنين » · قال معاوية : « فأنا أخبرك · انه لم يشتت بين المسلمين ولا فرق اهواءهم الا الشورى التي جعلها عمر الى ستة نفر ، وذلك أن الله بعث محمدا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فعمل بما أمره الله به ، ثم قبضه الله اليه ، وقدم أبا بكر للصلاة فرضوه لأمر دنياهم اذ رضيه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأمر دينهم ، فعمل بسنة الرسول ، وسار بسيرته حتى قبضه الله ، واستخلف عمر فعمل بمثل سيرته ، ثم جعلها شورى بين ستة نفر ، فلم يكن منهم رجل الا رجاها لنفسه ورجاها له قومه ·· ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك اختلاف » ·

كذلك روى ابن الحصين عن معاوية ، وجاء أناس من ذوي النظر في الحكمة والتاريخ فقالوا بما قال به معاوية ومنهم محمد ابن سليمان المتفلسف فيما رواه عنه ابن مكي الحاجب · قال :

---

(١) أي نظر وتفكر · (٢) أي فرق ·

ما فحواه (١) : ان اختيار الستة من أهل الشورى ليكون الخليفة واحدا منهم بعد مقتل الفاروق قد جعل كلا منهم يشرئب (٢) اليها ، ويعلم أنه أهل لها ، وكان أشدهم عملا لها وكيدا لعثمان طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي الملقب بطلحة الجود ، فهو من أبناء عمومة أبي بكر . محبوب لسخائه وشجاعته وسبقه الى الاسلام . وكان ينافس عليها الفاروق فضلا عمن جاء بعده ، ويرى أن أبا بكر كان خليقا (٣) ان يكلها اليه (٤) . وأنه اذا فضل عليه عمر فليس بعد عمر من يفضله ، وأعانه الزبير لأن منافسة علي وعثمان اذا وليا الخلافة اشق عليه من منافسة طلحة اذا هي آلت (٥) اليه .

وكان أناس من المجتهدين يتابعون محمد بن سليمان المتفلسف على هذا الرأي ، أو يتابعون معاوية بن أبي سفيان أول من قال به وذهب الى تخطئة عمر في ندبه لاهل الشورى . ولم تزل منهم بقية في عصرنا هذا ترى الحصافة (٦) والحكمة فيما قاله معاوية ، منهم الأستاذ محمد أحمد جاد المولى الذي كان كبيرا للمفتشين بوزارة المعارف . فهو ينقل كلام معاوية في كتابه « انصاف عثمان » ثم يتبعه قائلا : انه رأي « الحصيف المجرب الذي حلب الدهر أشطره ، وغلب برأيه ودهائه صاحب الحق على حقه . وأقام دولة الاسلام على تخوم (٧) دولة الروم موطدة الأكناف قوية الدعائم . وحاش لعمر أن يتهمه أحد فيما فعل ، فانه لم يرد الا الخير للمسلمين جاهدا ، وكان أعظم ما يرجوه من ذلك ألا يكون خلاف وافتراق بين المسلمين .. وأكبر الظن عندنا أن عمر لو كان في حال غير هذه فربما فضل أن يريح المسلمين من العناء (٨) والمناوشات الحزبية ، ويعهد الى من هو أهل للخلافة . فقد يجد الناس لهذا التعيين حرمة تسكت الألسنة والدولة لا تزال فتية . أعدى أعدائها الشقاق والانقسام .. » .

هذا سبب من أشهر الأسباب المذكورة ، تواتر القول به من أيام الفتنة الى العصر الحاضر . ولو كانت الأسباب التاريخية

---

(١) أي ما معناه . (٢) اشرأب اليه : مد عنقه وتطلع . (٣) أي جديرا . (٤) أي يسندها اليه . (٥) أي انتهت اليه . (٦) حصف : استحكم عقله فهو حصيف ، وأحصف الامر : أحكمه . (٧) تخوم : حدود . (٨) أي التعب .

تهمل على قدر وهنها وظهور الغرض فيها ، لما ورد لهذا السبب ذكر علي لسان بعد افضاء معاوية به الى أبي الحصين ، الا أن يكون ذكره لتوهينه والكشف عن غرضه ، وهو مكشوف لا يجهد من يريد أن يلتفت اليه ٠

فمعاوية لم ينكر الشورى في اختيار الخليفة الا لأنه أجمع العزم على خطة ولاية العهد ، ورشح لها ابنه يزيد من بعده ، وما كان في هذه الخطة حصافة ولا تجربة لأنها لم تلبث أن أوقعت الخلاف في أقرب الأقربين الى معاوية ، وساقتهم الى تولية العهد اثنين بدلا من ولي عهد واحد ، ولم تحسم الخلاف بين بني أمية فضلا عن حسم الخلاف بين قريش وبين سائر المسلمين ٠٠

وقد قال الشعبي : ان عمر لم يمت حتى كانت قريش قد ملته (١) لقمعه (٢) رؤساءهم وحبسه اياهم بالحجاز خوفا من فتنتهم بالدنيا وفتنة الدنيا بهم ، فاذا كانت هيبته في حياته قد سكنت بهم عن الخلاف ، فهم مختلفون بعد موته لا محالة ، ولو أنه اختار للخلافة أحدا سماه لما اختار طلحة ولا الزبير لأنه لم يذكرهما فيمن تمناه للخلافة من الموتى ولا من الأحياء ٠ فقال : انه كان يختار أبا عبيدة لو عاش ، لانه سمع رسول الله يدعوه أمين الأمة ، أو كان يختار سالما مولى أبي حذيفة لو عاش لأنه رأى رسول الله يقدمه للصلاة بالمهاجرين ٠٠ فلما سمى من يحسبهم مرشحين للخلافة من الأحياء سمى عليا وعثمان ولم يجاوزهما الى غيرهما من الستة أصحاب الشورى ٠٠ فقال لعلي : « اتق الله يا علي ان صارت اليك ، ولا تحمل بني هاشم على رؤوس الناس » وقال لعثمان : « اتق الله يا عثمان ان صارت اليك ، ولا تحمل بني معيط على رؤوس الناس » وما نحسبه سكت عن طلحة الا عامدا وعلى علم بأن اتفاق الستة لا يجمعون عليه وتقية (٣) أن يظن ظان أنها وقف على بني تيم ، ويقينا منه أن اتفاق الستة على واحد أحرى (٤) أن يلزمهم الطاعة لمن يتفقون عليه ٠

واذا كان في كلام معاوية لابي الحصين حصافة ألمعية (٥)

---

(١) ملته : سئمته ٠ (٢) يأتي القمع بمعنى : الضرب ، والقهر والاذلال ٠ (٣) أي حذرا ٠ (٤) أحرى : أجدر ٠ (٥) أي ذكية ٠

فتلك هي اشارته المقصودة الى التفرقة بين أمور الدين وأمور الدنيا ، واعتباره أن تقديم النبي ـ عليه السلام ـ أبا بكر للصلاة بالناس بمثابة الرضى عنه لأمور دينهم فأضاف الناس اليه الرضى عنه لأمور دنياهم ، ويصح من ثم أن يكون المرضي عنه لهذه غير المرضي عنه لتلك ، وهذا هو المدخل الى ولاية الملك لأمثال يزيد وعقبة (١) مع وجود من هم أفضل منه دينا من جلة (٢) الصحابة والتابعين ..

ونعدل (٣) عن الأسباب المزعومة أو الأسباب التي اجتهد بها المجتهدون الى الاسباب الواقعة التي حدثت ، وكان لها أثر في اهاجة الخواطر وتسويغ الانقلاب ، ومنها ما يتعلق بأمور الدين، ومنها ما يتعلق بأمور الدنيا ، أو أمور الحكم والسياسة :

فمن الأمور التي تتعلق بالدين ، أن الخليفة الثالث زاد النداء في الأذان لصلاة الجمعة ، وأنه أتم الصلاة في منى وعرفة ، وكان النبي والخليفتان الأولان يقيمونها على القصر ، وقد صلاها عثمان نفسه في أول خلافته ركعتين ، ومنها ، أنه جمع القرآن الكريم في نسخة ، وأمر باحراق ما عداها في المدينة والأمصار ..

ولم يكن عثمان ـ رضي الله عنه ـ في واحدة من هذه مستبيح حرام ، بل كان متحرجا غاية التحرج لدينه ، فقد زاد في الأذان لكثرة عدد الناس ، واتساع المدينة ، وصلى صلاة المقيم لأنه اتخذ بمكة أهلا . فتحرج أن يصلي صلاة المسافر وهو صاحب أهل فيها . وقد كان جمعه القرآن الكريم حسنة من أجل الحسنات، سبقه أبو بكر وعمر الى مثلها . فحمد المسلمون صنيعهما وأنكره من أنكره منهم أولا ، ثم عادوا الى قبوله بل ألفوه وأثنوا عليه .

قال عمر : ان القتل قد استحر (٤) بأهل اليمامة ، وأخشى أن يستحر بقراء الكتاب في غيرها ، فيذهب ما حفظوه بذهابهم ، الا أن يجمعوه . وأشار على الخليفة الأول بجمعه ، فكانت مفاجأة نفر منها أبو بكر وجعل يقول : « كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ؟ » . فقال عمر : « هو والله خير » . قال أبو بكر : « نعم خير » . ولم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله لذلك صدره ..

---

(١) أي من جاؤا بعده من الأبناء . (٢) جلة القوم : سادتهم وعظماؤهم .
(٣) عدل عنه : حاد ، وعدل اليه رجع . (٤) استحر القتل : اشتد .

ثم أخذوا يتتبعون آي القرآن ويجمعونها من الرقاع والعسب (١) والأكتاف وصدور الرجال ، حتى وجدوا من سورة التوبة آيتين عند خزيمة بن ثابت لم يجدوهما عند غيره ، وتم جمع الكتاب في مصاحف عند طائفة من جلة الصحابة كالامام علي ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وجاء عثمان فسد ذرائع الخلاف ، ولم يأت بشيء من عنده غير تعميم المصحف في جميع البلدان ليقرأه المسلمون على نسخة واحدة .

ولئن كان في بعض هذه الأمور التي تتعلق بالدين مخالفة للمألوف لقد خالف عمر المألوف في منع زواج المتعة ، وفي نقص الأعطية للمؤلفة قلوبهم ، وفي الاعفاء من حد السرقة في عام المجاعة ، وفي تسوية الصفوف بالمسجد عند الصلاة . وفي مسائل أكبر مما أحصوه على عثمان ، فلم يتحدث بها متحدث على سخط وتذمر فضلا عن الثورة وحمل السلاح .

ولا نطيل في سرد الأمور « الدنيوية » التي قيل : أنها هاجت (٢) الفتنة على عهد عثمان . ومنها . عصبة قريش على الأمصار وسيادة العرب على الأمم الاخرى . واقامة بعض الولاة الذين اتهموا في تقواهم وبذل الاموال لذوي القرابة والنصراء .

فقد ثار الثوار ، فجاء الكوفيون يطلبون الزبير ، وجاء البصريون يطلبون طلحة وجاء المصريون يطلبون عليا وكلهم من صميم قريش .. وقد أقام معاوية ملكه بقريش والعرب ، وكان بذل الأموال لذوي القرابة والنصراء عماد دولته ووسيلته الى تأسيس بيته وبسط سلطانه .

ومن الولاة الذين أنكر الثائرون ولايتهم لاتهامهم بشرب الخمر الوليد بن عقبة ، وقد حده (٣) عثمان بعد استماعه للشهادة عليه ، ولم تكن ولايته على عهد عثمان . بل ولاه عمر على الجزيرة . واختاره عثمان لولاية الكوفة .

وسنرى بعد ، أنه ما من عمل نسب الى الخليفة الثالث الا حدث مثله من قبله . فلم تنشب من أجله فتنة . أو حدث مثله من

(١) جريد النخل . (٢) هاج الشيء : أثاره . (٣) نفذ فيه حد شارب الخمر .

بعده فلم تنشب من أجله فتنة ، بل لعله كان من دعائم الدولة وأساس السلطان •

ولهذا قلنا : انها أسباب ولا أسباب ، وأنها بين أسباب مزعومة يراد بها غير ظاهرها ، أو أسباب صحيحة ولكنها لم تفعل فعلها الا لاقترانها بأحوال تلك الفترة ، ولو جاءت في فترة أخرى لما كان لها ذلك الأثر •

لم ؟ ••

نعم ، لم والأسباب واحدة تختلف عواقبها بين هـذه الفترة وغيرها ؟ ••

ذلك أنها فترة جاءت بين الخلافة والمملكة ، فلا تستقيم فيها وسائل الخلافة ولا تستقيم فيها وسائل المملكـة •• ومن هنـا اضطراب الوزن ، واضطراب السخط والرضى ، وقياس الأمور في وقت واحد بمقياسين مختلفـين أو متعارضـين •• ولعمر الحق (١) ما من شيء يدل على أن الأحداث السياسية تبع للحالة النفسية ومقاييس الفكر والأخلاق كما يدل عليه تاريخ هـذه الفترة في صدر الاسلام بين خلافة الراشدين ودولة بني أمية •

لقد كان الناس رعيـة « مملكـة » يتصرفون في معايشهـم ومطالبهم كما يتصرف رعايا الممالك ، ويسومون ولي أمرهم أن يسوسهم سياسة الخلافة وينتظرون من الخليفة الثالث ألا يجري في أمر من الأمور على نهج ينحرف قيـد شعرة (٢) عـن نهج الخليفتين الأول والثاني ، وهم أنفسهم قد انحرفوا عن نهج رعايا الخليفتين أبعد انحراف •

ومما لا جدال فيه أن عثمان لم يكن بقوة أبي بكر وعمر ، ولكن عمر نفسه على قوته ومهابته قد أحس في أخريات أيامـه وطأة (٣) الاختلاف بين العهود فكان يقول في دعائـه : « اللهم كبرت سني ، وضعفت قوتي ، وانتشرت رعيتي ، فاقبضني غير مضيع ولا مفرط •• » •

فتكليف عثمان أن يستبقي الزمن حيث لا يبقى ضرب مـن

(١) أسلوب قسم• (٢) قيد شعرة : أي قدر شعرة • (٣) الوطأة: موضع القدم وهي أيضا كالضغطة

تكليف الأيام ضد طباعها كما قال الشاعر الحكيم ، وقد أسلفنا الاشارة الى ذلك ثقلنا في عبقرية الامام : ان عثمان « أحس بها فما فارق الدنيا حتى ترك الخلافة والملك عسكرين متناجزين لا يرجع أحدهما الا بالغلبة على نده) وضده » .

وقلنا قبل ذلك : « انه لا بد من ملك أو خلافة ، ولن يكون ملك بأدوات خليفة ولا خليفة بأدوات ملك .. ولم يكن معاوية زاهدا في الخلافة على عهد أبي بكر أو عمر أو عثمان ، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه ، فلما جاء عصر الملك طلب الملك والملك يطلبه .. »

ثم قلنا : « كيف يكون المخرج بين سياسة الملك كما يطلبها العصر وسياسة الخلافة كما تطلبها البقية الباقية من آداب الفترة النبوية ؟ .. أيفرق الأموال على رؤوس القوم وقادة الجند وطلاب الترف ، أم يلزمهم عيشة النسك (١) والشظف (٢) والجهاد ؟ واذا حرمهم وتألبوا عليه (٣) مع خصمه أفهو الغالب اذا بمطالب العصر ومقتضياته ودواعيه أم هم الغالبون ؟ واذا أعطاهم ليبذخوا (٤) بذخ الملك الدنيوي وهو وحده بينهم الناسك المجتهد على سنة النبوة ، أفيستقيم له هذا « الدور » العجيب وهو في جوهره متناقض لا يستقيم ؟ » .

تلك هي العقدة التي استحكمت في عهد عثمان ووجب أن تنقطع في عهد علي ومعاوية ..

واعادة النظر في جميع الأسباب والتبعات تعود بنا الى نظرة فاصلة في هذه المشكلة التي زادها نفر من المؤرخين اشكالا بما أضافوه اليها من الأسباب المختلقة (٥) والأسباب الصحيحة التي خرجوا بها على غير مخرجها .

---

(١) النسك : العبادة . (٢) الشظف : خشونة العيش . (٣) أي قاموا ضده . (٤) البذخ : الكبر . (٥) أي من نسجهم وتأليفهم

فنحن أولا في تاريخ الخليفة الثالث أمام حادثين لا تكفي أسباب أحدهما لتفسير الحادث الآخر .

ونحن في الحادثين جميعا بعد هذا أمام أسباب لا تفعل فعلها لو جاءت في فترة أخرى ، ولعلها تفعل نقيض فعلها فتؤيد ولي الأمر ولا تخذله كما تأيدت دولة بني أمية بالعطايا والعمائر وكان فيها خذلان عثمان ومشيره مروان ..

وما لم تنقطع غاشية هذا اللبس وهذا الابهام من تاريخ هذه الفترة فنحن نسلكها في ضباب لا تبدو فيه الأشباح والصور على حقيقتها ، ومن ثم رجونا أن نبدأ السيرة وقد تبدد ما حولها من غواشي ذلك الضباب الكثيف ، وسنبدؤها من حيث تبدأ في طريق لا يبهمه اختلاط الأسباب ولا التعويل عليها مبتورة (١) منفصلة الرؤوس والأذناب ..

* * *

(١) مبتورة ومقطوعة .

الفصل الثاني

بين الجاهلية والاسلام

نشأ عثمان بن عفان في أسرة أموية تنتمي الى أمية جد أبيه ، وعند أمية يكثر الخلاف على سلسلة النسب بين أسرته والنسابين (١) ، فلا تتفق الأقوال المتضاربة على قول حاسم (٢) ٠

يقول المقريزي في رسالة النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم : « وقد كانت المنافرة لا تزال بين بني هاشم وبني عبد شمس بحيث أنه يقال : ان هاشما وعبد شمس ولدا توأمين ، فخرج عبد شمس في الولادة قبل هاشم وقد لصقت اصبع أحدهما بجبهة الآخر ، فلما نزعت دمي المكان ، فقيل : سيكون بينهما أو بين ولديهما دم ، فكان كذلك ٠٠

« ويقال : ان عبد شمس وهاشما كانا يوم ولدا في بطن واحد، كانت جباههما ملصقة بعضها ببعض ، ففرق بين جباههما بالسيف ، فقال بعض العرب : ألا فرق ذلك بالدرهم ؟ فانه لا يزال السيف بينهم وبين أولادهم الى الأبد » ٠٠

وأمية هو في تاريخ الأسرة ابن عبد شمس أحد التوأمين أو الأخوين ، ولكن بعض النسابين يقول : انه ربيب (٣) عبد شمس ، وانه ابن جارية رومية وصلت الى الحجاز مع ركب سفينة جنحت (٤) الى الشاطيء ، ويفسرون بذلك أبياتا منسوبة الى أبي طالب يقول فيها :

قديما أبوهم كان عبدا لجدنا بني أمية شهلاء جاش بها البحر

ويفسرون به أيضا قول الامام علي لمعاوية في بعض كتبه : « ليس المهاجر كالطليق ولا الصريح (٥) كاللصيق (٦) » ٠٠ وجاء في ابن هشام أن عقبة بن ذكوان بن أمية صاح حين أمر

---

(١) النسابين : الذين يعرفون تسلسل الانساب ٠ (٢) أي قاطع ٠
(٣) ربيب الرجل : هو ابن امرأته من رجل آخر ٠ (٤) جنحت : مالت ٠
(٥) صرح نسبه : خلص ٠ (٦) اللصيق : المنسوب لغير أصله ٠

النبي بقتله : « أأقتل من بين قريش ؟ » • فقال عمر بن الخطاب : « حن قدح (١) ليس منها » وهو مثل يضرب للقدح الدخيل في الميسر ، وروى ابن هشام أيضا •• أن النبي ـ عليه السلام ـ قال حينئذ : « انما أنت يهودي من أهل صفورية » ويقال في تفسير الحديث : أن الأمة التي ولدت أباه كانت ليهودي من أهل صفورية ، ويقال غير ذلك مما يعسر الفصل فيه •

ولكنه من الراجح الذي ينتهي به التاريخ الى دور التحقيق ، أن التبني وتدعيم العصبية به معهودان في هذه الأسرة على نحو لم يذكر له مثيل في الأسر الجاهلية الكبيرة ، ومما رواه الأصفهاني وابن أبي الحديد : أن معاوية قال لدغفل النسابة : « أرأيت أمية ؟ » • قال : « نعم » • قال : « كيف رأيته ؟ » • قال : « رأيته رجلا قصيرا ضريرا يقوده عبده ذكوان » • قال معاوية : « ذلك ابنه أبو عمرو » • قال دغفل : « ذلك شيء تقولونه أنتم ، أما قريش فلم تكن تعرف الا أنه عبده » •

وفي التاريخ الثابت بعد الاسلام أن أبا سفيان استلحق زيادا الذي كان يسمى بزياد بن أبيه أو بزياد بن سمية ، وكان معاوية يغضب على من ينكر هذا الاستلحاق ، فقال يزيد بن مفرغ يخاطبه :

أتغضب أن يقال أبوك عف(٢) وترضى أن يقال أبوك زان
فأقسم ان رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان

وروى البلاذري من أخبار هذا الاستلحاق : أن عثمان بن محمد بن أبي سفيان ولي المدينة بعد عمرو بن سعيد ، فعرض في خطبته بسلفه ، وكان هذا حاضرا في المسجد ، فنهض مغضبا ، وقال فيما قاله لعثمان حفيد أبي سفيان : « انني لا يستنكر شبهي ولا أدعي لغير أبي » ••

ويزيد المقريزي على ما تقدم من خبره : أن أمية « صنع في الجاهلية شيئا لم يصنعه أحد من العرب : زوج ابنه أبا عمرو امرأته في حياته » •

---

(١) القدح : السهم •
(٢) أي عفيف •

قال المقريزي : « والمقتيون (١) في الاسلام هم الذين أولدوا نساء آبائهم واستنكحوهن من بعد موتهم • وأما أن يتزوجها في حياته ، ويبنى عليها (٢) وهو يراه ، فان هذا لم يكن قط • وأمية قد جاوز هذا المعنى ولم يرض بهذا المقدار حتى نزل عنها له وزوجها منه » •

ثم قال المقريزي : « وأبو معيط بن أبي عمرو بن أمية قد زاد في المقت درجتين » ••

وندع (٣) ما جاء في أنساب الأشراف وفي شرح نهج البلاغة من سائر هذه الأخبار عن استلحاق الأبناء ، فان الحرص على تدعيم العصبية ظاهر في هذه الأسرة ، مما ثبت من أخبارها ، فلا حاجة الى الاسهاب فيه •

وكانت المنافرة شديدة بين أمية وهاشم الى أيام الدعوة المحمدية ، يحفظ لنا الرواة أخبارا كثيرة منها قديمة وحديثة ، فمن أحدثها قبل الدعوة الاسلامية : أن حربا بن أمية وعبد المطلب بن هاشم تنافرا (٤) الى حكم من بني عدي القرشيين هو نفيل جد الفاروق ، فقال نفيل لحرب : « أتنافر رجلا هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة (٥) ، وأوسم منك وسامة (٦) ، وأقل منك لامة (٧) ، وأكثر منك ولدا ، وأجزل (٨) منك صفدا (٩) ، وأطول منك مذودا (١٠) :

أبوك معاهر (١١) وأبوه عف ... وذاد الفيل عن بلد حرام

يشير الى تعرض أمية للنساء ، ومنهن امرأة من بني زهرة راودها فتصدى له بعض قومها ، وأوشكت أن تكون من جراء هذا الخلاف فتنة بين قبائل قريش ••

وأقدم من هذه المنافرة منافرة أخرى بين هاشم وأمية تكلف فيها امية أن يصنع صنيع هاشم ، وكان هاشم ــ واسمه عمرو ــ

---

(١) نكاح المقت : كان في الجاهلية ، وهو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه •
(٢) بنى على أهله : زف ودخل • (٣) أي نترك • (٤) تنافرا : أي تحاكما في الحسب أو المفاخرة • (٥) الهامة : الرأس ، وهامة القوم : رئيسهم •
(٦) الوسيم : حسن الوجه • (٧) أي ما يلام عليه • (٨) أي أكثر • (٩) الصفد : العطاء • (١٠) المذود : اللسان • (١١) المعاهر : الذي يأتي النساء للفجور •

قد غلب عليه لقب هاشم لأنه تكفل بأطعام المعوزين من أهل مكة وجيرتها عام المجاعة ، فكان يهشم الثريد لهم وينحر الابل ويتعهد الفقراء ، وفيه يقول شاعرهم :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

فأراد أمية أن ينافسه في الشرف ومحبة الناس اياه فعجز عن هذه المنزلة ، فدعاه الى المنافرة كعادتهم ، واحتكما الى كاهن خزاعة بعسفان على خمسين ناقة تنحر بمكة وجلاء عشر سنين من جوار الحرم ، فقال الكاهن سجعا على أسلوب الكهان والمحكمين جميعا يومئذ : « والقمر الباهر (١) ، والكوكب الزاهر (٢) ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر (٣) ، لقد سبق هاشم الى المآثر (٤) ، أول منه وآخر ، وأبو همهمة بذلك خابر » .

وأبو همهمة الذي أشار اليه الكاهن هو حبيب بن عامر الذي خرج مع أمية ، وينتهي نسبه الى فهر بن مالك - وكأنما أراد الكاهن بذكره أن يذكره بما في النسب الأول والآخر من سر هو به خبير .

قال الرواة : فأخذ هاشم الابل فنحرها وأطعم لحمها من حضر . وخرج أمية الى الشام فأقام بها عشر سنين .

ويكاد التنافس بين العشيرتين أن يشمل كل مطلب من مطالب الحياة ، فشمل الفروسية ، ووسامة الذرية ، كما شمل الرئاسة . ومفاخر السيادة .

تنافس أمية وعبد المطلب على سباق الخيل ، وتراهنا على أن تجز ناصية (٥) المسبوق سنة ، ويغرم عددا اختلفوا فيه من العبيد والاماء والابل ، فسبق فرس عبد المطلب فرس أمية ، ودان أمية بسيادته عليه سنة ، وينقل ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة كلمة لعبد الله بن جعفر في محضر معاوية جبه (٦)

---

(١) بهر القمر : أضاء حتى غلب ضوء الكواكب . (٢) زهرت النار : أضاءت ، والازهران : الشمس والقمر . (٣) أي مرتفع و[illegible]خفض ، أو منجد : نسبة الى نجد ، وغائر نسبة الى تهامه . (٤) أي المكارم المتوا[illegible]ة . (٥) الناصية: قصاص الشعر . (٦) جبه : ضرب جبهته ورده ، أو[illegible] بما يكره ، وهو المراد .

بها يزيد وهو يفاخره فقال : « أتفاخرني بحرب الذي أجرناه أم بأمية الذي ملكناه أم بعبد شمس الذي كفلناه ؟ » .

ويقول الكلبي في أبناء عبد المطلب : « كانوا اذا طافوا بالبيت يأخذون البصر » ، ورآهم عامر بن مالك فقال : « بهؤلاء تمنع مكة » ، وغير هذه الصفة تقال في ابناء حرب ، فلا يتصدى لنقضها أحد من الأمويين المتقدمين ..

ونحسب أن المنافسة بين العشيرتين كانت ضربة لازب ، لأن الاختلاف بينهما أعمق غورا من الاختلاف على الرئاسة ومناصب الشرف فيما اصطلح عليه عرف الجاهلية : كان اختلافا في الخلق والطبيعة ، وكان بنو هاشم على ما ثبت من الروايات المتقدمة أقرب الى الأخلاق المثالية الدينية ، وبنو أمية أقرب الى الأخلاق العملية الدنيوية . وقد يتردد المؤرخ في قبول بعض الروايات المتقدمة على علاتها ، ولكنه لا يحتاج الى المشكوك فيه من تلك المرويات ليعلم هذا الفارق الواضح من خلائق العشيرتين فيما أثر عنهم قبل الاسلام وبعد الاسلام ، ففي حلف الفضول قام بنو هاشم بالأمر وقام به معهم بنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم ، وتخلى عنه بنو عبد شمس فلم يشتركوا فيه .. وحلف الفضول هذا هو الذي قال عنه النبي — عليه السلام — : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول .. أما لو دعيت به اليوم لأجبت ، وما أحب أن لي به حمر النعم وأني نقضته » .

وخلاصة قصته : أن رجلا يمانيا قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها رجل ، فلواه (١) بحقه ، وأبى أن يرد اليه بضاعته ، فقام في الحجر أو في مكان على شرف (٢) وصاح يستغيث ، وكان من أجل ذلك أن تعاهد أناس من بني هاشم وأحلافهم ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد الا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم ، وعمدوا الى ماء من زمزم فجعلوه في جفنة (٣) وبعثوا به الى البيت فغسلت به أركانه وشربوه ..

وقد أبى الأمويون وبنو عبد شمس عامة على أحد منهم أن

---

(١) لواه بدينه : مطله . (٢) شرف : مكان عال . (٣) الجفنة كالقصعة .

يدخل هذا الحلف ، فكان أحدهم عتبة بن ربيعة يقول : « لو ان رجلا وحده خرج من قومه ، لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول » .

وان طبيعتين يفصلهما هذا الفاصل من ذوات النفوس ، لا جرم (١) تتنافران وان ضمهما بلد واحد ، وانهما في البلد الواحد لأخلق بالتنافر من المتباعدين ..

هذه العجالة عما كان من المنافرة بين بني هاشم وبني أمية في الجاهلية تدخل في سيرة عثمان من مداخل شتى (٢) ، وقل أن يمر بنا مبحث في عمل من أعماله أو خلق من أخلاقه الا كانت به عودة الى تلك المنافرة .

فمنها نفهم أن فضل عثمان في اسلامه لا يدانيه أحد من السابقين المعدودين الى الاسلام . اذ لم يكن منهم من أقامت أسرته بينها وبين النبي هذه الحواجز العريقة من المنافسة والملاحاة . وكلهم كان بينهم وبين الاسلام ما كان بين القديم عامة والجديد عامة ، ولم تبلغ عداوتهم أن تكون من عصبية اللحم والدم أو عصبية البيت كما كانت عداوة الأمويين للهاشميين . وليست هذه العداوة في الجاهلية بالشيء الهين ولا بالعقبة المذللة (٣) . فقد رأينا رجلا من بني عبد شمس كان يتمنى أن يشهد حلف الفضول فحماه أن يفعل ذلك خشية الخروج على قومه ببدعة (٤) لم يقبلوها ولم يشتركوا فيها . وهذا مع ما هو واضح من الفارق بين دعوة كحلف الفضول لا تنقض دينا . ولا تغير عبادة ، ولا تميز أحدا من الداخلين فيها بشرف أو سيادة . وبين دعوة كالدعوة المحمدية تحطم كل صنم . وتبدل كل عبادة ، وتثبت لبيت عبد المطلب شرفا لا يسمو اليه شرف بين الناس كافة . فضلا عن قريش وأمة العرب بكل من تشتمل عليه ..

وما تقدم من شواجر (٥) النزاع بين أمية وهاشم كاف للابانة عن فضل عثمان في سبقه مع السابقين الى قبول الدعوة المحمدية .. الا أن هذا الذي تقدم لم يكن شيئا الى جانب الشر الذي قوبل به النبي في بيت عثمان نفسه وبين عمومته وقرابته من جملة الأمويين ..

---

(١) بمعنى لا بد ، أو حقا . (٢) أي متعددة . (٣) أي السهلة .
(٤) البدعة : الامر المستحدث . (٥) شجر القوم : اختلفوا .

فالحكم بن العاص ــ عم عثمان ــ كأن يتصدى للنبي ويشتمه ويمشي وراءه يحكيه (١) في مشيته ويخلج (٢) بأنفه وفمه ، فقيل : انه ــ عليه السلام ــ التفت اليه وهو بهذه الحالة فلزمه ذلك الاختلاج ، وقال فيه عبد الرحمن بن حسان وهو يهجو مروان ابنه :

ان اللعين أباك فارم عظامه
ان ترم ترم مخلجا مجنونا
يضحى خميص (٣) البطن من عمل التقى
ويظل من عمل الخبيث بطينا (٤)

وقد لبث على دخلة (٥) نفسه بعد اسلامه عام الفتح خوفا من القتل ، فكان يتطلع على النبي في داره ، فرآه مرة فقال : « من عذيري من هذا الوزغة ! (٦) » ثم أمر ألا يساكنه بالمدينة ، فأخرج مع بنيه الى الطائف لا يدخل المدينة ما أقام فيها ــ عليه السلام ــ •

ومنهم عقبة بن أبي معيط الذي كان يتربص بالنبي حتى يسجد في صلاته فيلقي على رأسه سلا (٧) الشاء أو يطأ على عنقه الشريفة كما قال النبي في يوم بدر : « انه وطىء على عنقي وأنا ساجد فما رفعت حتى ظننت أن عيني قد سقطتا » •• وكان أحد الأسرى الذين قتلوا ببدر لشدة ما ابتلي به المسلمون من آذاهم قبل الهجرة ، وفي بيت عقبة هذا أقام عثمان زمنا ، لأنه تزوج من أمه بعد موت أبيه في صباه •

وتصدى للنبي ــ عليه السلام ــ كثيرون غير هذين من قرابة عثمان وخاصة أهله ، ولم يدخل في الاسلام أحد من بني أمية قبله مع هذه العداوة في أسرته كلها وفي خاصة قرابته منها ، فله من فضل هذه السابقة ما ليس لأحد السابقين الى قبول الدعوة المحمدية •

ولما أسلم ــ رضي الله عنه ــ أخذه عمه الحكم ، فأوثقه رباطا ،

---

(١) يحكيه : أي يمشي مثله ويقلده • (٢) من معاني خلج : غمز وحرك
(٣) الخمصة : الجوعة ، وهو خميص : أي جائع • (٤) البطين : عظيم البطن •
(٥) دخلة الرجل : نيته ، ومذهبه ، وخلده ، وجميع أمره • (٦) الوزغة : جمع وازغ ، ومن معاني الوازغ : الكلب • (٧) أي الامعاء •

وعذبه ، وأقسم لا يخلينه أو يدع ما هو فيه ، فأقسم لا يدعنه أبدا ، وصبر على العذاب حتى يئس منه عمه فأخلاه ٠

وروي في سبب اسلامه أن أبا بكر شرح له قواعد الاسلام ، وهداية الدين الجديد ، وأنس منه خشوعا وتفكيرا ، فقال له : « ويحك يا عثمان ، والله انك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل ٠٠ ما هذه الأوثان التي تعبدها وقومك ؟ أليست حجارة لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ؟ » ٠ فراجع نفسه وقال : « بلى والله انها لكذلك » فدعاه أبو بكر الى لقاء النبي ، ولقيه ، فقال له ـ عليه السلام ـ : « يا عثمان ! ٠٠ أجب الله الى جنته » ٠ قال عثمان : « فوالله ما ملكت حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله . ثم لم ألبث أن تزوجت رقية » ٠

ومن المتواتر أن عثمان كانت له خالة اسمها سعدى بنت كريز تتكهن وتتعبد ، ونقل عنها : أنها هنأته باسلامه وزواجه ، فقالت :

هدى الله عثمان الصفي بقوله
فأرشده والله يهدي الى الحق
فبايع بالرأي السديد محمدا
وكان ابن أروى لا يصد عن الصدق
وأنكحه المبعوث خير بناته
فكان كبدر مازج الشمس في الأفق

وينقل عنها غير ذلك : أنها كانت طرقت (١) وتكهنت عند قومها فلما رأته بعد قيام النبي بالدعوة قالت :

أبشر وحييت ثلاثا تترى (٢)
أتاك خير ووقيت شرا
أنكحت والله حصانا (٣) زهرا (٤)
وأنت بكر ولقيت بكرا

---

(١) الطرق : الضرب بالحصى ، وهو نوع من التكهن ، والطراق ، المتكهنون ، والطوارق ، التكهنات : (٢) أي متتابعة ٠ (٣) الحصان : العفيفة ٠ (٤) الزهراء : ذات الوجه الابيض المشرق ٠

وافيتهـــا بنـــت عظيـــم قـــدرا
بنـــت نبـــي قـــد أشـــاد ذكـــرا

قال عثمان : « فعجبت من كلامها وسألتها : يا خالة !٠٠ ما تقولين ؟ » ٠ قالت : « يا عثمان !٠٠ لك الجمال ولك اللسان ، هذا نبي معه البرهان ، أرسله بحقه الديان ، فاتبعــه وأهجر الأوثان » ٠ واستزادها قائلا : « يا خالة !٠٠ انك لتذكرين شيئا ما وقع ذكره في بلدنا فأبينيه لي » ٠ قالت : « محمد بن عبد الله رسول من عند الله جاء بتنزيل الله يدعو الى الحق والهدى » ٠

ويقال : ان عثمان انما ذهب الى ابي بكر بعد ما سمعه من خالته ، فرآه أبو بكر مفكرا ، فسأله وجرى بينهما بعد ذلك ما تقدم من النصيحة والاستجابة على ما اتفقت به الروايات ٠

ونحن نسقط من حسابنا ما روي من كلام الكاهنة ، لأنــه ضعيف السند لا يبقى منه الا أن خالة لعثمان كانت تتكهن وتتعبد ، وأن مسألة الدين في بيته كانت شغلا شاغلا لمن يأخذه على العصبية والعناد ، أو يأخذه على العبادة والتقوى . فما نظن أن رجــلا في الثلاثين ــ وهي سنه عند اسلامه ــ كان يعصي اله جميعا ويطيع شيخة عقاما (١) لو لم يكن في ضميره باعث مطاع الى الايمــان بالدين الجديد ٠

وفي وسعنا أن نتخيل غضب قومه الأقربين من اسلامه ، فقد كان كأشد غضب لحق مسلما من قومه المقيمين على الجاهلية ، ولكنه مع هذا لم يمنع أناسا منهم أن يلوذوا (٢) به خوفا على أنفسهم بعد هزيمتهم ، ولم يمتنـع أن يتشفع لهم عنـد النبي وصحبه ، ويسأله العفو عنهم ، وكذلك نرى ان تاريخ أمية في الجاهلية يحضرنا عند تقدير فضل عثمان في اسلامه ويحضرنا عند تقدير أعذاره وعلل أعماله التي أخذت عليه بعد ولايتــه الخلافة ٠ فقد كان لتدعيم العصبية وتأليبها شأن قديم في تاريخ هذه الأسرة ، ألجأها الى استلحاق الأبناء من الموالي ، والى تزويج البنين من زوجات آبائهم أو الموالي من زوجــات أوليائهم ، ولا

(١) المرأة العقام : التي لا يولد لها ٠ (٢) يقال : لاذ بفلان : أي لجأ اليه ٠

ندري على التحقيق بم نعلل هذه العادة التي انفردوا بهـا أو كادوا ، الا أنها قد تعلل بأن القوم لم يكونوا من الخمول بحيث يسكنون الى خمولهم ، ولم يكونوا من العزة الراسخة (١) بحيث يطمئنون الى عزتهم ، وأنهم ـ وان لم يعقموا ـ لم تشتهر عنهم غزارة (٢) الذرية في الجاهلية ، ولا في الاسلام ، وهذه سلسلة ولاية العهد أوشكت أن تنقطع في كل بيت من بيوتهم ولي الخلافة بعد قيام الدولة الأموية ، وربما انقرض (٣) البيت في جيل أو جيلين ، وبقي معاصروه من غيرهم عدة اجيال ٠٠

وقد انتهت المفاخرة بعد الاسلام بين المسلمين من بني أمية وبين بني عبد المطلب ، فما من اموي مسلم كان يتعالى الى مطاولة آل النبي بالنسب من جانب آبائه ـ عليه السلام ـ خاصة ، ولكنهم مع هذا ـ ولا استثناء لأصدقهم اسلاما كعثمان وصحابة النبي ـ قد كانوا يودون لو سمعوا عن أمية كلما سمعوا عن هاشم وبنيه٠ وتقدم أن معاوية سأل دغفلا النسابة عن أمية بعد سؤاله عـن عبد المطلب ، وابن أبي الحديد ، يروي مثل هذا عن عثمان في أيام خلافته ، وأنه ـ رضي الله عنه ـ تمنى رجلا يحدثه عن الملوك وسير الماضين ، فذكروا له رجلا بحضرموت ، فكان ممـا سأله عنه : أرأيت عبد المطلب ؟ قال : « نعم ، رأيت رجلا قعدا أبيض طوالا مقرون الحاجبين بين عينيه غرة يقال أن فيها بركة ، وأن فيه بركة » ٠٠ فعاد يسأله : « أفرأيت أمية ؟ » قـال : « نعم ٠٠ رأيت رجلا آدم (٤) دميما (٥) قصيرا اعمى يقال أنه نكد (٦) ٠ وان فيه نكدا » ٠ قال عثمان : حسبك من شر سماعه ، وصرف الرجل ٠٠

ولا ينبغي أن ينسى العذر حيث يذكر الفضل للرجل مـن سوابق آله وذويه ٠٠

---

(١) الراسخة : أي القوية ٠ (٢) غزارة : كثرة ٠ (٣) انقرض القوم : ماتوا ولم يبق منهم أحد ٠ (٤) الآدم من الناس : الاسمر ٠ (٥) الدميم : القبيح ٠ (٦) رجل نكد : أي شؤم عسر ، ورجل نكد : قليل العطاء ٠

نشأتــه وشخصيتــه

ترجمة عثمان ترجمة سوية ، لا نستغرب من لاحقها بعد الاسلام شيئا مما نعلمه عن سابق سيرته قبل اسلامه ، واذا فاجأنا بالغرابة لأول وهلة فانما نستغربه من أثر المفاجأة ، ثم نعود الى دواعيه فاذا هو مطرد لا غرابة فيه ..

نشأ في نعمة وعيش خفيض (١) ، وكانت ولادته بالطائف أخصب بقاع الحجاز ، لست سنوات مضت من عام الفيل ، ولم يؤثر عنه أنه اختبر شظف (٢) العيش قط في صباه أو طفولته ..

وهو ابن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، كان أبوه تاجرا واسع التجارة ، وكان يحمل قوافله الى الشام على دأب (٣) الأكثرين من تجار بني أمية ، وفي احدى هذه الرحلات التجارية مات عن ثروة عظيمة ، وترك ابنه بين الصبا والشباب ..

واذا صح ما جاء في أنساب الاشراف للبلاذري ، فقد كان عفان يعمل في حياكة الثياب : « عفان أول حائك لثيابكم » . ولكننا نستبعد جدا أن يجمع الثروة من حياكة الثياب بيديه ، ومن الراجح اذا أنه كان يدير مصنعا من مصانعها ، أو انه عمل بها في صباه ثم تحول عنها الى التجارة .

وأم عثمان هي أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ، وأمها أروى البيضاء بنت عبد المطلب عمة النبي ــ عليه السلام ــ وقد سبق أن أختها تتكهن وتنقطع للكهانة ، ففي وراثته من جانب أمه جنوح (٤) الى طبيعة التدين التي اشتهر بها عبد المطلب وآباؤه وبنوه .

ويروى كما جاء في ابن الأثير : أن عقبة بن مسيط شكاه الى أمه ــ وكان قد تزوج بها بعد وفاة عفان ــ فقال لها : ان ابنك قد صار ينصر محمدا ، فلم تنكر ذلك من ابنها وقالت : « ومن أولى به منا ؟ .. أموالنا وأنفسنا دون محمد » ..

---

(١) عيش خافض وخفيض : أي فيه دعة . (٢) شظف العيش : يبسه وشدته . (٣) الدأب : العادة والشأن . (٤) جنوح : أي ميل .

وقد كان مألوفا في الجاهلية أن تتزوج المرأة بعد تطليقها من زوجها أو بعد وفاته ، ولكن هذه العادة المألوفة لا تمنع أن ينقبض لها الابن وأن ينكسر لها بينه وبين نفسه ، فيلازمه منها بعض الخجل . ولا يرتاح اليها بأية حال ..

ويبدو من دراسات علم النفس الحديث أن « مشكلة الأب » قد تمكنت من طوية الصبي . فكان لها فعلها في توجيه شعوره من ناحية ذويه ومن ناحية البيئة بأسرها . فضاعفت ما في وراثته الأموية من الايواء الى ذوي قرباه ، وهيأت نفسه للنفور من الوضع القائم في البيئة فلم يصعب عليه أن ينكر الأوضاع القائمة في نطاقها الأعم الأوسع ، وهو نطاق الشعائر الجاهلية ..

ذلك أنه نشأ وهو يحس أن رب البيت الذي نشأ فيه غاصب ينتزع مكان أبيه ، فتمكنت من نفسه الريبة في الأوضاع القائمة، ولم يحتملها الا على مضض (١) الكاره وترقب المتربص (٢) ، وبخاصة حين تأتي من ناحية الأم التي تتمثل لابنها في هذه الحالة كأنها مغلوبة على أمرها منتزعة ممن هو أحق بها ..

وقد أسلفنا أننا لا نعول كثيرا على الرواية التي تعود باسلام عثمان الى نصيحة خالته الكاهنة . فليس في كلامها مقنع للفكر يحول رجلا في الثلاثين عن دينه وتراث بيته ، ولكنها على هذا تدل على داعية من الشعور لا نهملها ولا نستبعد مكانها من السريرة الباطنة ، ويعززها (٣) أن أسرة أمه كانت لا تخلو من عطف قوي نحو صاحب الدعوة الى الدين الجديد : عطف يبدو من قول أمه : « أموالنا وأنفسنا دون محمد » .. وهي كلمة لا ينبغي أن ننساها في مواطن كثيرة من سيرة ابنها ــ رضوان الله عليه ــ .

ونقرأ وصف عثمان على ألسنة معاصريه ، فنراهم مجمعين على صفتين لم ينسهما أحد منهم ، وهما : الجمال والحياء ..

---

(١) مضض : أي وجع . (٢) التربص : الانتظار . (٣) يعززها : يقويها .

كان ربعة لا بالقصير ولا بالطويل ، حسن الوجه ، مشرف (١) الأنف ، بوجنتيه نكتات من آثار الجدري ، رقيق البشرة ، أسمر اللون ، كثير الشعر ، له جمة (٢) أسفل أذنيه ، وبه صلع مع طول في لحيته وغزارة في عارضيه (٣) ..

وكان خفيف الجسم ، ولكنه لم يكن بضعيفه ولا معروقه (٤) ، بل كان ضخم الكراديس (٥) بعيد ما بين المنكبين .

أما خلائقه ، فقد أجمع واصفوه على أنه كان عذب الروح ، حلو الشمائل محببا الى عارفيه ، ومن ذاك أن نساء قريش كن يرقصن أطفالهن فيقلن :

أحبك والرحمن حب قريش عثمان

وكان يوتد (٦) أسنانه بالذهب ، ويخضب (٧) لحيته ، وربما تركها بغير خضاب .

وفي كتاب « الرياض النضرة » يروي المحب الطبري عن عمرو ابن عثمان : أن عثمان بن عفان قال : « كنت رجلا مستهترا بالنساء ، واني ذات ليلة بفناء الكعبة في رهط من قريش اذ أتينا فقيل لنا : أن محمدا قد أنكح عتبة بن أبي لهب رقية ، وكانت رقية ذات جمال رائع . قال عثمان : فدخلتني الحسرة لم لا أكون أنا سبقت الى ذلك ، فلم ألبث أن انصرفت الى منزلي فأصبت خالة لي قاعدة وهي سعدة بنت كريز ، وكانت قد طرقت وتكهنت عند قومها ، فلما رأتني قالت : « أبشر وحييت ثلاثا تترى .. الى آخر الأبيات ، وروي ما تقدم من حديثها في غير هذا الفصل الى قوله : « وكان لي مجلس عند أبي بكر فأتيته فأصبته في مجلس ليس عنده أحد ، فجلست اليه فرآني مفكرا فسألني عن أمري ـ وكان رجلا متأنيا ـ فأخبرته بما سمعت من خالتي ، فقال : « ويحك يا عثمان انك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل » . ثم قال : « فما كان أسرع من أن مر رسول الله

---

(١) مشرف : أي مرتفع . (٢) الجمة : مجتمع شعر الرأس .
(٣) عارضتا الانسان : صفحتا خديه . (٤) المعروق : القليل اللحم .
(٥) الكردوسة : كل عظمين التقيا في مفصل . (٦) أي يثبت . (٧) أي يصبغها بالحناء ونحوها .

ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه علي بن أبي طالب يحمل ثوبا ، فلما رآه أبو بكر قام فساره (١) في أذنه بشيء ، فجاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقعد ثم أقبل علي فقال: « يا عثمان! .. أجب الله الى جنته فاني رسول الله اليك والى خلقه » . قال : « فوالله ما تمالكت حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله » .

وتتكرر قصة كهذه في كتاب الاصابة لابن حجر العسقلاني ، وهي قصة يلاحظ عليها أن زواج السيدة رقية من عتبة بن أبي لهب قد كان قبل البعثة النبوية ، فلما بعث النبي قال أبو لهب لابنه : « رأسي من رأسك حرام ان لم تطلق ابنته ، ففارقها ولم يكن دخل بها » .

فلا يبقى من هذه القصة ما يستبقي للتعريف بخلائق عثمان الا قوله عن نفسه : أنه كان في الجاهلية مستهترا (٢) بالنساء ، ولو لم يرد حديث هذه القصة في رواية من الروايات لما علمنا قط أنه كان كذلك في الجاهلية ، لأن أحدا من معاصريه في الجاهلية لم يشهده على حال يحسبها من الاستهتار بالنساء ، فانهم كانوا يبيحون كثرة الزوجات لمن استطاع أن يجمع بينهن ، وانما نعرف من هذه القصة خلائق عثمان بنعمته وحياته . وبقدرته على المتعة والتعفف عما يشينه (٣) منها ، وبالخلق الذي لازمه طول الحياة ، وهو خلق ربيب النعمة الكريم .

روى عمرو بن أمية الضمري قال : « اني كنت أتعشى مع عثمان خزيرا (٤) من طبخ من أجود ما رأيت ، فيها بطون الغنم وأدمها اللبن والسمن ، فقال عثمان : كيف ترى هذا الطعام ؟ فقلت : هذا أطيب ما أكلت قط . فقال : يرحم الله ابن الخطاب . أكلت معه هذه الخزيرة قط ؟ قلت نعم ، فكادت اللقمة تفرث (٥) بين يدي حين أهوي بها الى فمي وليس فيها لحم ، وكان أدمها السمن ولا لبن فيها . فقال عثمان : صدقت ! .. ان عمر ـ رضي الله

---

(١) أي تحدث اليه سرا . (٢) مستهترا بالنساء : مولعا بهن .
(٣) يشينه : أي يعيبه . (٤) الحساء من الدسم . (٥) أي تتشدق وتتناثر .

عنه ـ أتعب والله من تبع أثره ، وأنه كان يطلب بثنيه ـ أي منعه ـ عن هذه الأمور ظلفا ـ أي غلظا ـ في المعيشة • ثم قال : أما والله ما آكله من مال المسلمين ولكني آكله من مالي ، وأنت تعلم أني كنت أكثر قريش مالا ، وأجدهم في التجارة ولم أزل آكل من الطعام ما لان منه وقد بلغت سنا ، فأحب الطعام الي ألينه ، ولا أعلم لأحد علي في ذلك تبعة (١) » •

ودخل زياد علي عثمان في خلافته بما بقي عنده لبيت المال ، فجاء ابن لعثمان فأخذ شيئا من فضة ومضى به ، فبكى زياد •• قال عثمان : « ما يبكيك ؟ » • قال : « أتيت أمير المؤمنين عمر بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخذ درهما ، فأمر به أن ينترع منه حتى أبكى الغلام ، وان ابنك هذا جاء فأخذ ما أخذ ، فلم أر أحدا قال له شيئا » • قال عثمان : « ان عمر كان يمنع أهله وقرابته ابتغاء وجه الله ، وأني أعطي أهلي وأقربائي ابتغاء وجه الله •• ولن تلقى مثل عمر ، لن تلقى مثل عمر •• لن تلقى مثل عمر •• » •

وقد سمع غير مرة يقول : « يرحم الله عمر ، من ذا يطيق ما كان يطيقه » !

وصفوة القول في خلائق عثمان أنه كان الى صفات الطيبة والسماحة أقرب منه الى صفات البأس والصرامة ، وان نشأة العيش الخفيض صحبته من صباه الى شيخوخته ، وفي غير تبعة عليه كما قال ••

اختصم يوما هو وأبو عبيدة بن الجراح ، فقال أبو عبيدة : « أنا أفضل منك بثلاث » ، فسأله عثمان : « وما هن ؟ » • قال : « الأولى أني كنت يوم البيعة حاضرا وأنت غائب ، والثانية شهدت بدرا ولم تشهده ، والثالثة كنت ممن ثبت يوم أحد ولم تثبت أنت » ، فلم يغضب عثمان ولكنه قال له : « صدقت » • ثم أجابه معتذرا فقال : « أما يوم البيعة فان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعثني في حاجة ومد يده عني وقال : هذه يد عثمان بن عفان ، وكانت يده الشريفة خيرا من يدي • وأما يوم بدر فان رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلفني على المدينة ولم يمكني

---

(١) التبعة : الشيء الذي لك فيه بغية شبه ظلامة •

مخالفته . وكانت ابنته رقية مريضة فاشتغلت بخدمتها حتى ماتت ودفنتها ، وأما انهزامي يوم أحد ، فان الله عفا عني ، وأضاف فعلي الى الشيطان . فقال تعالى : « ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا • ولقد عفا الله عنهم ان الله غفور حليم » (١) ••

والحق أن تخلف عثمان عن يوم البيعة وعن يوم بدر لم يكن باختيار منه ولم يكن فيه احجام عن خطر مخوف ، بل تخلف في اليومين طوعا لأمر النبي ــ عليه السلام ــ . أما يوم « أحد » فقد انهزم معه فيه كثيرون من شجعان الصحابة ، وكانت الهزيمة فيه صدمة من صدمات البغتة التي يكاد النكوص (٢) فيها أن يكون دفعة آلية ثم يثبت الجأش (٣) بعد الصدمة الأولى كما حدث من أكثر المنهزمين في ذلك اليوم العصيب •

بيد أن المعارك الأخرى لم تحفظ لعثمان موقفا من تلك المواقف النادرة التي تتناقلها الألسنة ويتساير بها الركبان من أخبار زملائه الخلفاء . فان كان فيها غير متخلف ولا محجم فليست هي بفخره الأول وفضيلته العليا • انما كانت فضيلته العليا السخاء حيث يعز السخاء على أمثاله من ذوي الثراء . ولا سيما ذوي الثراء من بني أمية الذين ضنوا بأموالهم في الجاهلية والاسلام الا لمطمع أو مصلحة . وهذه هي آية العقيدة في مناقب عثمان ••

لقد أشربت النفوس من العقيدة الجديدة غيرة لا عهد لها بمثلها في التنافس بين أكفائها : غيرة في العقيدة وغيرة لها وغيرة عليها . فجمعت من معاني الغيرة أشرفها وأصدقها وأبعدها عن التنازع بين الناس بالباطل والتلاحي (٤) بينهم بالعرض الزائل. اذ كانت تجمع من معاني الغيرة الشريفة غيرة الحماسة للعقيدة وغيرة التنافس عليها وغيرة الصدق في منافستها ، وأشرف ما في هذه الغيرة الشريفة أنها لم تكن تغري أحدا بغمط (٥) حق لأحد، أو بادعاء حق لا يؤمن به من يدعيه في قرارة ضميره . لأنها لم

---

(١) الآية : ١٥٥ من سورة آل عمران • (٢) أي الرجوع والفرار •
(٣) الجأش : رواغ القلب اذا اضطرب عند الفزع . ونفس الانسان • (٤) لحاه يلحوه : شتمه . وألحاه : لامه ، ولاحاه ملاحاة ولحاء : نازعه • (٥) أي جحود•

تكن غيرة العرف الظاهر قصاراها (١) الوجاهة عند الناس ، بل كانت الوجاهة عند الله قصاراها ومبدأها ومنتهاها . فلا يدعيها مدع بالباطل . ولا يأمن اذا ادعاها بالباطل أن تذهب جميعا فلا تبقى لها عنده ولا عند الناس أو عند الله باقية • ومن ثم كانت غيرة بناء وصدق ولم تكن غيرة هدم وادعاء •

ومضى الناس يتنافسون . ويؤمرون أن يتنافسوا في مثل هذا الفضل فهم فيه متنافسون مجدون • وقد رأينا كيف كان أناس في رجاحة أبي عبيدة وعثمان يتعارفون على هذا التنافس الذي لا يخجل فيه أخ من أخيه ولا صديق من صديقه • فلا ينقم مسبوق على سابق . ولكنه يغبطه (٢) ويستحث عزائمه على سبقه ما استطاع •

وهكذا نظر عثمان الى أكفائه ، فوجد أنه لم يسبقهم في ميادين الجهاد بالسيف فآلى (٣) على نفسه ليسبقنهم في ميادين الجود والسخاء . وثابر على ذلك من أول أيامه في الاسلام الى ختام أيامه في الحياة ، فهاجر الى الحبشة وهو يعلم أن ماله كلة عرضة للضياع من جراء هذه الهجرة ، فلم يبال ما بقي منه وما ضاع ، وتقدم في كل محنة أصابت المسلمين من فاقة أو قحط أو نقص في السلاح والعتاد ، فبذل من المعونة والعطاء ما لم يبذله أحد من أمثاله في ثرائه ، وما لم يبذله الذين هم أقدر منه على معونة أو عطاء ، ولم يكن على أية حال بأغنى الأغنياء •

وكانت له سماحة محببة حيث يجود ويتكلم بكلام التجار في مساوماتهم وهو على غاية الجود ••

قال ابن عباس : « قحط الناس في زمن أبي بكر ، فقال أبو بكر لا تمسون حتى يفرج الله عنكم . فلما كان من الغد جاء البشير اليه فقال : لقد قدمت لعثمان ألف راحلة برا وطعاما ، فغدا التجار على عثمان فقرعوا عليه الباب فخرج اليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه ، فقال لهم : ما تريدون ؟

(١) أي غايتها • (٢) الغبطة : أن تمنى مثل حال المغبوط من غير زوالها عنه ، فان تمنيت زوالها فهو الحسد • (٣) آلى : أقسم •

قالوا : بلغنا أنه قدم لك ألف راحلة برا وطعاما · بعنا حتى نوسع على فقراء المدينة ، فقال لهم عثمان ادخلوا ! فدخلوا فاذا ألف وقر (١) قد صب في الدار ، فقال لهم : كم تربحوني على شرائي من الشام ؟ قالوا : العشرة اثني عشر · قال قد زادوني · قالوا العشرة أربعة عشر · قال قد زادوني ·· قالوا : العشرة خمسة عشر · قال : قد زادوني ·· قالوا : من زادك ونحن تجار المدينة ؟·· قال : زادوني بكل درهم عشرة ·· هل عندكم زيادة ؟·· قالوا : لا ·· قال : فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة » ·

ويشير عثمان هنا ــ كما هو ظاهر ــ الى جزاء الحسنة بعشرة أمثالها عند الله . ولن تعدم في هذا المقام بتسامة سحت على فم متحذلق يقول : أما أعطى عطاءه وهو ينتظر الجزاء في الآخرة ؟· فلقد آمن بالآخرة ألوف من ذوي الأموال التي لا تفنى ، وهم لا يبضون (٢) بدرهم يوقنون من جزائه ما أيقنه عثمان ·

وكان يدخل عرف الاحسان في صفقات التجارة ، وهي تلك المعاملة التي اصطلح الناس قديما على أنها شيء يتقدم فيه حساب المنفعة على حساب المودة بل القرابة ، وممن يعبرون اليوم عن هذا المعنى ويقولون باصطلاح العصر من يعبرون عن معنى قديم تفاهم عليه المتعاملون بالبيع والشراء من أقدم الأزمنة ، فقيل من أخباره في هذه الخصلة : أنه ابتاع حائطا ــ أي بستانا ــ من رجل ، فساومه حتى قام على عثمان فالتفت عثمان الى عبد الرحمن بن عوف فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عز وجل أدخل الجنة رجلا كان سمحا بائعا ومبتاعا وقابضا ومقبضا ، ثم زاد البائع العشرة آلاف ·

وأسعدت شمائل السماحة فيه بخصال أندر في أبناء النعمة من خصال الكرم والاحسان ، فقد يهون على المرء أن يتجرد من بعض ماله ولا يهون عليه أن يتجرد من بعض كبريائه وخيلائه وتعاليه

---

(١) الوقر بكسر الواو : الحمل · (٢) بئر بضوض : يخرج ماؤها قليلا قليلا ، والبضيضة : المطر القليل وبض الماء يبض بضا وبضوضا وبضيضا : سال قليلا قليلا ·

على أنداده ونظرائه فضلا عمن يعلوهم بالبسطة (١) والجاه ٠ وكان المأثور عن عثمان كما روى صاحب الصفوة عن مولاة له : « أنه كان لا يوقظ أحدا من أهله الا أن يجده يقظان فيدعوه » ٠

وروى الحسن أنه « رآه نائما في المسجد ورداؤه تحت رأسه فيجيء الرجل فيجلس اليه ، ثم يجيء الرجل فيجلس اليه ، كأنه أحدهم » ٠٠

وربما أحرج كما يحرج أصحاب الحياء حين يجترىء على حيائهم من هو أولى بتوقيره (٢) ، فيبدر (٣) منه بعض ما يسوء مخاطبه ثم لا يلبث أن يندم على بادرته ويتوب الى الله ، ومن قبيل ذلك : غضبه على عمرو بن العاص حين واجهه بالزجر وهو يخطب الناس . فثارت ثورته أن يكون هو من يعظه عمرو بمثل ذلك الكلام وما فيه من اغراء بالفتنة عليه ٠ قال عمرو : يا عثمان انك قد ركبت بالناس النهابير (٤) وركبوها منك ، فتب الى الله عز وجل وليتوبوا ٠٠ فالتفت اليه مغضبا وأجاب قائلا : وأنت هناك يا ابن النابغة ؟ ثم لم يلبث أن رفع يديه وقال : أتوب الى الله تعالى ٠ ثم كررها فقال : اللهم اني أول تائب اليك ٠

فهذه شخصية سمحة ،تساندت فيها مناقب السماحة ، وأوشكت أن تستوفيها على مثال منقطع النظير فيمن عرفناهم من الاعلام بين الجاهلية والاسلام : كرم وحياء ودعة ورفق وأريحية ومروءة تعين على المروءات ٠ فهل يقال على هذا : انها شخصية سمحة وكفى ؟ هل يقال : انها شخصية خلت من صفات البأس والصرامة، أو كان حظها من هذه الصفات ضئيلا لا يلتفت اليه ؟ هل يقال انها شخصية ضعيفة بكلمة متيقنة لا تردد فيها ؟

من السهل أن يقال ذلك متابعة لجمهرة المؤرخين الذين درجوا على تعليل الحوادث الجلى (٥) في عصر عثمان بضعفه واستسلامه لمن حوله ، وعلى رأسهم ابن عمه مروان بن الحكم ٠٠ فان السهولة هنا توحي الى المؤرخ أن يختار سبيلها ويعفي نفسه من

---

(١) البسطة : السعة ٠ (٢) أي تعظيمه ٠ (٣) البادرة : الحدة ، وبدرت منه بوادر غضب : أي خطأ وسقطات عندما حقد ٠ (٤) الرمال المشرفة ٠ (٥) أي العظمى ٠

النظر الى طريق غيرها قد يعترضه فيها اعتراض من حيث لا اعتراض، على سالك السبيل السهل الذلول ٠

لكن القول بضعف عثمان صعب على من يعلم أن السماحة نفسها قوة لا يضطلع (١) بها طبع ضعيف ، وصعب على من ينظر في أعماله جميعا ولا يكتفى منها بأعماله التي يبدو عليها الضعف والتردد ، ولم يكن عهد من عهود سيرته يخلو من عمل يدل على قوة نفس ، ومناعة خلق ، وثبات لا يتزعزع أمام الهول والخطر ، وحسبنا من عهود سيرته ما أحاط بأطرافها من أول اسلامه الى ختام حياته ٠ فقد كان اسلامه تحديا قويا لخاصة أهله ثبت عليه مع بقاء العلية من قومه بين عدو للاسلام أو مسالم له على دخل (٢) وسوء نية ، وقد تلقى في أول خلافته صدمات لم يتعرض الفاروق لأخطر منها في جميع أيامه ، ومنها هزيمة الجيوش وفناء بعضها بين عوارض الأجواء القصية (٣) وانقضاض الروم والخزر على أطراف الدولة الاسلامية الحديثة ، وبعض مواقفه في تلك الأيام لا يمكن الرجوع به الى رأي مروان بن الحكم ، كوصاياه في اعداد الحملات البحرية من المتطوعين بغير اكراه على أحد من المجندين ، وليس من السهل أن يوصف بالضعف رجل يحيط به خطر الموت من كل جانب ولا يذعن لمن توعدوه به جهرة وردوه على مسمعه ليل نهار ٠

كلا ٠٠ لا يقول القائل عن رجل كهذا انه ضعيف ، ثم يستريح الى قولته ، الا أن يبتغي الراحة ولا يبتغي سواها ٠

ولكنا نحسب أن مكان عثمان من القوة والعزيمة هو المكان الذي يحتاج الى التوضيح ،ولا يتضح لأول نظرة في سيرته وحوادث عصره ، فليس هو بالمكان الذي يتراءى على القرب والبعد كأنه العلم البين الغني عن التوضيح ٠٠

من الناس من يقتحم طريقه ولا ينتظر من يدله أو يدفعه ، بل لعله يقتحمه ويصر على اقتحامه كلما كثر المعارضون له وقل من يدلونه عليه ، ومن شأنه أن يحسم تردد المترددين واعتراض المعترضين فلا يلبث أن يقودهم معتزما فينقادوا له معتزمين ٠٠

---

(١) أي يقوم ٠ (٢) الدخل : ما داخل الانسان من فساد في عقله أو جسمه ٠ (٣) أي البعيدة ٠

ليس عثمان من هؤلاء ..

ومن الناس من لا يعرف العزم تابعا أو متبوعا ولا يثبت عليه اذا عرفه الا ريثما يدفعه الخطر عنه ، وقد ينثني (١) عن عزمه بغير خطر لأنه من الوهن والعي (٢) بحيث لا يقوى على الثبات .

وليس عثمان من هؤلاء ..

فليس هو مقتحما ولا هو منقادا عاجزا عن العزم والثبات ، ولكنه وسط بين الاقتحام والانقياد لغيره في جميع الاحوال .

انه ينقاد ويسوغ انقياده لنفسه بمسوغ ترضاه ، ولا بد له من المسوغ المرضي في جميع الأحوال ..

هؤلاء أيضا يختلفون في مسوغ الانقياد للآخرين : فمنهم من ينقاد لمن هم أكبر منه ويأبى الانقياد لمن هم مثله أو دونه في المنزلة ، ومنهم على نقيض ذلك من ينقاد لمن هم أنداده (٣) أو ينقاد لمن هم دونه ، ويأبى الانقياد للنظراء والرؤساء ..

ومسوغ الأولين الذين ينقادون لمن هم أكبر منهم أن الانقياد للاكبر طبيعة في كل علاقة بين رئيس ومرؤوس ، ويدين بهذا المسوغ من لا حق له في الرئاسة أو من لا مطمع له فيها على الأقل الى حين ، فقد يكون صغيرا يرجو أن يكبر ، أو خاملا (٤) يرجو أن يعرف ، أو مبتدئا يرجو أن ينتهي الى العظمة كما انتهى اليها من يعظمهم من الرؤساء .

أما مسوغ الآخرين الذين ينقادون لمن هم أنداد لهم أو من هم دونهم فهو أنهم أمنوا أن ينسب انقيادهم الى ذلة أو خوف ، وبخاصة حين يكون المنقاد معروف الوجاهة (٥) والرئاسة ، مساويا لمن يدله ويشير عليه ، أو راجحا (٦) عليه بالمكانة والسلطان .

وكذلك كان عثمان في اهتدائه الى الاسلام بنصيحة أبي بكر الصديق . فقد كان عثمان أجمع لأسباب الوجاهة من أبي بكر في عرف عصره : كان من أمية وأبو بكر من تيم ، وكان أغنى منه وأقدر على مخالفته ، وكان أبو بكر الى جانب هذا وذاك يدعوه

---

(١) يلين ويميل . (٢) العجز . (٣) جمع ند ، والند : النظير والمماثل .
(٤) أي غير معروف . (٥) وجهاء القوم : سادتهم وأشرافهم . (٦) أي متفوقة .

الى الايمان برسول يتبعانه معاً فيقبل ان شاء الله ، ويأبى ان شاء الله ، ولا سلطان له عليه ••

وكذلك كان عثمان في اصغائه لمروان بن الحكم حيث أصغى اليه ، فقد كان مروان كاتبه وتابعه . وكان اصغاؤه له لغير خوف أو مذلة ، وعلما منه بأنه محسوب عليه ••

وسماحة عثمان واضحة هنا أيضا لأنها فرض كفروض الحساب لا يتأتى بغيره تقدير الحقيقة الملتبسة ، فمن الناس من يأبى الانقياد للانداد والرؤساء حسدا ونكدا (١) ومن يأبى الانقياد للاتباع والأعوان تيها (٢) وتجبرا وذهابا مع شهوة الترفع (٣) والاستعلاء ، فهؤلاء كأولئك لا يعرفون السماحة ولا يوصفون بها ، ولو لم يكن عثمان سمحا مبرأ من الحسد والنكد ومن شهوة الترفع والاستعلاء . لما أصغى الى ند ولا الى تابع . ولا سوغ الاصغاء اليهما بمسوغ من المسوغات ترضاه نفسه وتطمئن اليه •

من أشد ما يروى استدلالا على ضعفه وانقياده لراي مروان ابن الحكم قصة رواها ابن عباس عن أبيه وهو ثقة فيما عاينه وحكاه • قال :

« ما سمعت من أبي شيئا قط في أمر عثمان يلومه فيه أو يعذره ، وما سألته عن شيء من ذلك مخافة أن أهجم منه على ما لا يوافقه ، فانا عنده ليلة ونحن نتعشى اذ قيل : أمير المؤمنين بالباب • فقال : ائذنوا له . فدخل فأوسع له على فراشه وأصاب من العشاء معه ، فلما رفع قام من كان هناك وثبت أنا : فحمد عثمان الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد يا خال فاني قد جئتك أستعذرك من ابن أخيك علي •• سبني وشهر أمري وقطع رحمي وطعن في ديني ، واني أعوذ بالله منكم يا بني عبد المطلب • ان كان لكم حق تزعمون أنكم غلبتم عليه فقد تركتموه في يدي من فعل ذلك بكم ، وأنا أقرب اليكم رحما منه ، وما لمت أحد منكم الا

---

(١) نكد عيشه : اشتد ، ونكد البئر : قل ماؤها ، ونكد فلان حاجة فلان : منعه اياها ، ونكد فلان فلانا : منعه ما سأله . ورجل نكد : شؤم عسر • (٢) تيها : تكبرا • (٣) بمعنى التعالي •

عليا ولقد دعيت أن أبسط يدي عليه فتركته لله والرحم ، وأنا أخاف ألا يتركني فلا أتركه ..

قال : « فحمد العباس لله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد يا ابن أختي ، فان كنت لا تحمد عليا لنفسك فاني لأحمدك لعلي ، وما علي وحده قال فيك بل غيره ، فلو أنك اتهمت نفسك للناس اتهم الناس أنفسهم لك ، ولو أنك نزلت مما رقيت وارتقوا مما نزلوا فأخذت منهم وأخذوا منك ما كان بذلك بأس .

قال عثمان : « فذلك اليك يا خال ، وأنت بيني وبينهم » .

قال : « فأذكر لهم ذلك عنك ؟ » .

قال : « نعم » وانصرف .

« فما لبثنا أن قيل : هذا أمير المؤمنين قد رجع بالباب فقال : ائذنوا له . فدخل فلم يجلس وقال : لا تعجل يا خال حتى أوذنك » .

« فنظرنا فاذا مروان بن الحكم جالسا بالباب ينتظره حتى خرج ، فهو الذي ثناه عن رأيه » .

« فأقبل علي أبي وقال : يا بني ! ما الى هذا ـ يعني عثمان ـ من أمره شيء » ..

فاذا أخذت هذه القصة على عجل فعثمان قد كان أداة لمروان يذهب به ويجيء كما يشاء ويمضيه (١) على رأي أو يثنيه (٢) عنه على هواه .

ولكننا اذا تخيلنا عثمان على هذه الصورة وجب أن نسأل : من غير مروان كان يصنع بعثمان هذا الصنيع ؟ فان الرجل اذا كان هين المقادة الى هذا الحد هان على كل موسوس له أن يقوده ، ولا سيما أقربهم اليه وألزمهم له من حرمه ومساكنيه في داره . وقد عرفنا من تاريخ تلك الفترة أو ما قاربها أنه كان يستمع في بيته الى من يوغر (٣) صدره على مروان فلا يستجيب لتوغيره ، ومنهم نائلة بنت الفرافصة زوجته ، وقد كان للزوجات أثر في

---

(١) مضاء الامر : نفاذه ، ويمضيه هنا : أي يضره . (٢) أي يرده .

(٣) الوغرة : شدة الحر ، والوغر : تحريك الحقد والضغن والعداوة والتوقد من الغيظ .

قصور ذوي السلطان ممن عرفوا بالقوة والسطوة لم ينقطع في عصر من العصور ..

فالطاعة هنا ليست بطاعة نفس ضعيفة لكل من يوسوس لها على مقربة منها ، ولكنها طاعة اختيار لسبب له شأنه عند عثمان ، وان لم يكن له هذا الشأن عندنا نحن اليوم ، أو عند ناقديه من معاصريه ..

ونحن على يقين أننا اليوم نتردد في الجواب اذا سئلنا : « من غير مروان بن الحكم كان خليقا (١) أن يعمل لعثمان عمل الكاتب الوزير الذي يعمل له كأنه يعمل لنفسه في سره وجهره ؟ » .

اننا نعرف رجال تلك الفترة المرشحين لمثل هذا العمل ، فمن منهم يتولاه اذا استغنى عن مروان ؟

ليس مروان بأفضل من يكتب للخليفة في عصره ، ولكن الذين هم افضل منه لا يرتبطون بهذا العمل ارتباطه ، ولا يطالبهم عثمان بما يطالب به مروان من خدمته وولائه .

لقد ذهب عثمان الى العباس يشكو عليا . ويكاد يعم بالشكوى بني عبد المطلب ، لأنه يحسبهم ذوي (٢) حق غلبوا عليه ، فاذا خامرته (٣) هذه الشكوى صوابا أو خطأ ، وخامرته في أناس كبني عبد المطلب على مثل ذلك الصواب أو ذلك الخطأ ، فهو لا يتخذهم وزراء كتبة يعملون له ويرتبطون بخدمته كارتباط مروان ومن اليه . ولعله لو لم يشكهم لا يخطر له أن يكلفهم عملا كعمل كاتبه ووزيره ، فانهم في مقام الأنداد ولهم شاغل عن عمل يرتبطون به الى جواره ..

ولا نقول : ان عثمان لم يكن يستمع لمروان ، ولا انه كان يستمع للصواب من رأيه ويعرض عن الخطأ منه . ولكنما نريد أن نقول : ان ما بينهما ليس بطاعة الضعيف يلعب به القوي ، وانه اختيار له سببه الذي يوضع في ميزانه عند عثمان وغير عثمان حين يكون في مكانه .

والسؤال الواجب على أية حال في كل مقام كهذا المقام هو : « ماذا كان أجدر وأجدى (٤) من هذا ؟ » فان كان الجواب قاطعا

---

(١) خليقا : أي جديرا . (٢) أصحاب . (٣) خامره : خالطه .
(٤) أجدى : أي أنفع وأفضل .

فقد أمكن القطع بالخطأ ، وان كان الجواب يحتمل رأيا هنا ورأيا هناك فليس التردد بينهما بالدليل حتما على الضعف والاستسلام ·

واتباع عثمان لمشورة مروان أو لمشورة غيره . لم يكن قط ذلك الاتباع الذي يعاب جملة أو يستحسن جملة ، ولم يكن طاعة المستسلم الذي لا يدري فيم يستسلم . ولكنه أشد ما يكون من قبيل الحيرة التي يشترك فيها سالكان لا يأمن أحدهما اذا ضل صاحبه . ومن حار معك كما تحار أقرب اليك ممن يهتدي وهو في طريق وأنت في طريق ·

ونعود فنقول : ان شخصية عثمان بما اشتملت عليه من نواحي قوتها وضعفها شخصية سوية (١) ، لا تناقض بين ما علمناه من أخبارها وأعمالها وبين ما نرجحه من المؤثرات فيها من فعل البيئة والعقيدة . وقد ذكرنا بين مؤثرات البيئة وراثته الأموية ويتمه في صباه ونشأته في بيت يتولاه غير أبيه ، وانتماءه (٢) من جانب الأمومة الى بيت عبد المطلب ، وعلينا أن نشير الى مؤثر آخر يلحق بهذه المؤثرات ولا يورد على أنه مؤثر يتواتر في جميع الحالات ، ولكنه يورد لأنه لا يهمل في اعتبار بعض النفسانيين ·

ذلك السبب هو اصابته بالجدري في شبابه · وعند بعض النفسانيين أن الجدري يعقب أثرا في بنية المصاب به اذا اهمل علاجه ــ بعد سن الطفولة خاصة ــ وليس اهمال علاجه يومئذ بالأمر البعيد ·

أما أثر العقيدة فمن الواجب ونحن نتعرف معادن الشخصية الانسانية أن نتثبت من معاييره (٣) في تقويم الأخلاق ، والتفرقة بين فاضلها ومفضولها ، ويجب هذا التثبت خاصة في الزمن الذي يكثر فيه الخلط (٤) بين قيمة الفضيلة وبين التعريف بأسبابها ، فيعذر بعض المقصرين أنفسهم أن يكونوا دون المؤمنين بالدين شجاعة وسخاء ، ويقولون : اننا كنا خلقاء أن نقدم مثل اقدامهم ، ونسخو مثل سخائهم ، ونجود بالروح والمال مثل جودهم ، لو كنا ننتظر الجزاء في اليوم الآخر أضعافا مضاعفة من النعيم والسعادة ·

---

(١) السوي : المعتدل · (٢) أي انتسابه · (٣) أي موازينه · (٤) أي المزج

وتلك في الواقع خديعة الطبع اللئيم ، وانهم ليزعمون أنهم يشجعون ويجودون لو آمنوا بالجزاء بعد الموت والواقع أنهم واهمون أو مغالطون ، وأن لهم أشباها صدقوا بالجزاء بعد الموت ولم يتركوا الجبن والشح (١) ولا تركوا ما هو أقبح من الجبن والشح وهو السلب والغصب والعدوان على النفس والمال ·

فانتظار الجزاء بعد الموت لا يبطل قيم الأخلاق ، ولا يجعل الشجاع ·

قلنا في كتابنا أبي الشهداء : « كذلك يقول من يقول : أن الأريحية التي سمت (٢) اليها طبائع أنصار الحسين انما هي أريحية الايمان الذي يعتقد صاحبه أنه يموت في نصرة الحسين فيذهب لساعته الى جنات النعيم ·· فهؤلاء الذين يقولون هذا القول يجعلون المنفعة وحدها باعث الانسان الى جميع أعماله ، حتى ما صدر منها عن عقيدة وايمان ، وينسون أن المنفعة وحدها لن تفسر لنا حتى الغرائز الحيوانية التي يصاب من جرائها (٣) الفرد طوعا أو كرها في خدمة نوعه ، بل ينسون أن أنصار يزيد لا يكرهون جنات النعيم ولا يكفرون بها ، فلماذا لم يطلبوها كما طلبها أنصار الحسين ؟ انهم لم يطلبوها لأنهم منقادون لغواية أخرى ، ولأنهم لا يملكون عزيمة الايمان ونخوة (٤) العقيدة ، ولا تلك القوة الخلقية التي يتغلبون بها على رهبة الموت ، ويقرعون بها وساوس التعلق بالعيش ، والخنوع (٥) للمتعة القريبة ، فلولا اختلاف الطبائع لظهر شغف (٦) الناس جميعا بجنات النعيم على نحو واحد ، ومضى الناس على سنة واحدة في الاريحية (٧) والفداء · ومرجع الفرق اذن في آخر المطاف الى فرق واضح بين طبائع الأريحيين وطبائع النفعيين » ·

وهذا الفرق بين الطبائع هو الذي نرجع اليه في رجل يمتاز بالشجاعة البالغة ، ورجل يمتاز بالسماحة البالغة ، ولا يمتازان

---

(١) الشح : البخل · (٢) من السمو ، وهي الرفعة والرقي · (٣) أي بسببها · (٤) نخوة : أي عظمة · (٥) الخنوع : الخضوع والذل · (٦) أي حبهم · (٧) الاريحية : سعة الخلق ·

بمزية واحدة ، وكلاهما يؤمن بالثواب والعقاب •

وهذا الفرق بين الطبائع هو الفرق بين من يطمح الى المثل الأعلى ولا يقنع بما دونه وبين من يكفيه من الجزاء انه يأمن العذاب •

وهذا الفرق بين الطبائع هو الفرق بين فرقتين من المسلمين تحارب كلتاهما في صف ، وكلهم مصدقون بجزاء السماء ، واطلاع علام الغيوب بما يطوونه (١) في الخفاء •

فالعقيدة الدينية لا تبطل سماحة عثمان ولا تغض (٢) من قيمتها ، وتظل هذه السماحة سماحة مقومة في معيار كل فضيلة ومعيار كل فاضل ، لا يغير منها أن العقيدة بعثتها في مبعثها هذا ، أو حركتها بعد سكون ، او خلقتها خلقا من حيث لم تكن • فقد كان مع عثمان أناس من منبته لم يعتقدوا كما أعتقد ، ولم يزل بينهم وبين الاعتقاد حجاب (٣) من عوج العقول وعمي الأبصار وأثرة الجهالة ، وكل أولئك محسوب معدود في معايير الأخلاق ••

ونعمم هذا القول في تقويم الفضائل والمواهب ، فنفرق بين التقويم والتقدير وبين التعليل والتفسير ، فليست كل فضيلة عللناها أو فسرناها شيئا قد أبطلنا قيمته وقدره ، وليس قولنا : ان هذه الروضة تنبت الرياحين والثمرات مبطلا ما بينها وبين الفلاة (٤) المجدبة من الفرق والاختلاف • وليس قولنا : ان هذا الانسان شجاع لأنه استمد مناقب الشجاعة من وراثته أو من تعليمه أو من اعتقاده ذاهبا بفضل الشجاعة ، مسويا بينه وبين الجبان أو بينه وبين الشجاع الذي هو دونه في شجاعته واقدامه ••

فالأسباب تثبت الفضائل والمواهب ولا تنفيها ، وهي من أجل هذا جديرة بالاثبات ، وجديرة بالطلب ، وجديرة بالثناء ، وان من نعرف أسباب حسنه لحسن ، وان من تعرف أسباب قبحه لقبيح ، فلن يصبح الحسن قبيحا لأنه معروف السبب ، ولن يصبح القبيح حسنا لأنه معروف السبب ، وان قل العجب مع عرفان السبب كما قيل ، فقد يذهب العجب ولا يذهب الاعجاب ••

---

(١) أي يخبئونه • (٢) أي تقلل • (٣) حجاب : أي ستر • (٤) الفلاة : المفازة •

والشاعر قد بلغ غاية الاعجـاب بيحيى حفيد علي بـن أبي طالب حين قال :

كدأب (١) علي في المواطن كلها
أبي حسن والعرق من حيث يخرج

وأين له من ذاك ؟ لا أين ! انه
اليـه بعرقيـه الزكيـين محرج

تفسير للشجاعة هو غاية التقدير ، وابطال للعجب هو غايـة الاعجاب ، وانما يتجنى على الفضائل الانسانية بتفسير أسبابها من يتحمل (٢) للنوع الانساني كأنه يتمحل لعدو لا يرضيه أن يوصف بخير الا أن يتعلـل لمعابته بعلـة . ويبطل العجـب منه والاعجاب به سواء ·

• ❋ •

(١) الدأب : العادة والشأن · (٢) المحل : المكر والكيد ·

ثقافة عثمان

نعنى في تراجم عظماء الصدر الأول من الاسلام بالكلام على ثقافتهم ومصادر هذه الثقافة من معلومات زمنهم . ونرى أنها من العناصر التي لا غنى عنها في التعريف بمنازلهم وكفاياتهم ، لأن هذه الكفايات قسمة بين قوة النفس والخلق وبين قوة الفهم والتفكير ، ولا تخفى علاقة ثقافتهم بما يفهمون ويفكرون ..

وبديه ان ثقافة الأقدمين غير ما نريده بكلمة الثقافة في العصر الحديث ، ولكنه فرق يحسب للأقدمين ويشهد باجتهادهم ودرايتهم بالاستفادة من القليل المبعثر حتى لا يستفاد اليوم من الكثير المجموع الميسر لطالبيه . ولو أننا جعلنا ودائع الورق مقياسا للثقافة لكانت أوراق تلميذ مبتدىء في عصرنا أضخم من أوراق نوابغ (١) المثقفين في صدر الاسلام ، ولكنهم كانوا بهذا المحصول القليل يعملون ما يعجز نوابغنا وأبطالنا ، ويتكلمون في المعضلات (٢) فاذا بالكلمة الوجيزة (٣) فصل الخطاب .

ونخال أن الاختلاف بيننا وبينهم في ثقافتنا وثقافتهم يتلخص في فرق واحد يحصر جميع الفروق : وذاك أن الكلمة قد رخصت في زمن المطبعة واباحة الكلام أو ابتذاله لمن لا يحسنه في قول ولا استماع .

كانت الكلمة تسمع وتحفظ ، وتنقل من سلف الى خلف ، وتندمج في تجربة كل سامع كأنها زيادة عضوية تتوالد ولا تموت .

كانت بضعة (٤) من حياة ..

كانت تصان كما تصان ذخائر الآباء والأجداد ، ولو أنها صينت هذه الصيانة لأول مرة في عصر التنزيل لما استغرب أحد تقديسهم للكلمة التي يعلمون أنها مقدسة ، ويصونونها ايمانا

---

(١) جمع نابغة ، والنابغة : الرجل العظيم الشأن . (٢) المعضلات أي الشدائد (٣) الوجيز من الكلام : القصير . (٤) بضعة : أي قطعة .

بالفريضة الالهية . وما في ذلك غرابة عند الأقدمين أو المحدثين . ولكنهم فعلوا ذلك قبل عصور التنزيل . وتعودوا الحرص على ذخيرتها الانسانية قبل أن يتعودوا الحرص عليها وهي ذخيرة سماوية يدخرونها لحياة أبقى من حياة الدنيا . وهي حياة الخلود ..

اليك مثلا علمهم الذي كانوا يسمونه علم الانساب : ما مبلغه من العلم بالقياس الى العلم الذي يقابله في زماننا وهو علم التاريخ ؟

أين ذلك مما يستوعبه اليوم من النقد والتحليل والشرح والتفصيل والتفريع والتأصيل ؟

لكن علم الأنساب هنالك وشائج (١) أعراق وأحساب . وعروق في الأبدان والأنفس لا يدفنها التراب ..

اذا عرف أحدهم نسبا فقد عرفه ليهتز بفخره . أو يهتاج بعداوته، أو يقرنه بفعال صاحبه . ويشهدها في ذريته وخلفائه .

وإذا عرف ذلك النسب فهو فلان هذا الذي أمامه . يساجله (٢) المودة أو البغضاء . ويذكر ما كان له ولآبائه من عزة ومضاء (٣) أو ذلة واستخذاء . ويضيف الى كل نسب رواية عن ملحمة (٤) . أو طرفة (٥) من حكمة . أو ملحة من فكاهة . ولا يجد بينها وبين أنباء نهاره فاصلا بين قديم وجديد أو بين مدثور (٦) مهجور . وحاضر مسموع ومذكور ..

وقل مثل ذلك في أمثال العرب وشواهدها ومعارض الاستشهاد بها في مواضعها ..

وقل مثل ذلك في أشعارها ومدائحها وأهاجيها وبلاغتها ومحاسن ألفاظها ومغازيها (٧) ..

كل ممدوح كائن حي من مجد ومنعة وجود ومطاولة بالغلبة والعطاء . وكل مادح كائن حي بما استجاشه (٨) من طمع . وما

(١) أي روابط وعلائق . (٢) يساجله : يباريه ويفاخره . (٣) أي قطع . (٤) الملحمة : الوقعة العظيمة القتل . (٥) ما يستطرف لحداثته . (٦) من قولهم : دثر الرسم : درس . (٧) مغازيها : أي معانيها . (٨) أي تحرك في نفسه وقلبه .

استقبله من أمل ، وما خلفه وراءه من عطف وحنين ، وما أثار في كلامه من تنافس وتناظر ، أو من سوابق بين عشائرهم تذكر وتستعاد ، وتعود معها محاسن آباء وآجداد ومساوىء أضغان(١) وأحقاد ..

فاذا سطرت تلك الأمثال والقصائد كلاما في الورق فهي بضع صفحات مختزلات (٢) ، واذا تمثلتها خوالج بين الصدور فهي حيوات تضاف الى حياة ..

لقد كانوا يعيشون عيشهم المحمل بتجاربه وعواقبه كلما تكلموا أو استمعوا الى متكلم من رواتهم وبلغائهم وثقاتهم ، فلا جرم كانوا يفاخرون آمم العالم ، بأنهم يتكلمون •

وكان عثمان على علم بمعارف العرب في الجاهلية ومنها الانساب والأمثال وأخبار الأيام • وساح (٣) في الارض فرحل الى الشام والحبشة وعاشر آقواما غير العرب فعرف من أطوارهم وأحوالهم ما ليس يعرفه كل عربي في بلاده . وجدد في رحلاته تجديد الخبرة والعمل معارف البادية عن الأنواء (٤) والرياح ومطالع النجوم ومقارناتها في منازل السماء،وهي معارف القوافل والأدلاء (٥) من أبناء الصحراء العربية . وأبناء كل صحراء ..

وأسلم فكان من أفقه المسلمين في أحكام الدين وأحفظهم للقرآن والسنة . روى عن النبي ــ عليه السلام ــ قرابة مائة وخمسين حديثا ، قال محمد بن سيرين وهو يتكلم عن الصحابة : « كان أعلمهم بالمناسك عثمان ، وبعده ابن عمر » •

وكان أقرب الصحابة الى مجرى الحوادث بين المسلمين والمشركين ، فكان من سفراء الاسلام في غير موقف من مواقف الخلاف أو الوفاق ، تارة بين المسلمين وأعدائهم وتارة بينهم وبين الأسرى منهم في أرض الأعداء ..

وكان كاتبا يجيد الكتابة، فاعتمد عليه النبي ــ عليه السلام ــ في تدوين الوحي واعتمد عليه الصديق في كتابة الوثائق الهامة ، ومنها الوثيقة التي عهد فيها بالأمر بعده لخليفته الفاروق •

---

(١) بمعنى أحقاد • (٢) الاختزال الحذف والاقتطاع • (٣) ساح في الارض ذهب • (٤) الأنواء : جمع نوء ، والنوء : النجم مال للغروب •
(٥) الادلاء : جمع دليل ، وهو من يدل على الطريق •

وزودته معرفته بالأخبار والأنساب وسياحته في البلاد بزاد حسن من مادة الحديث مع ذوي الكمال من الرجال • قال عبد الرحمن بن حاطب : « ما رأيت أحدا من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان اذا حدث أتم حديثا ، ولا أحسن ، من عثمان بن عفان ، الا أنه كان رجلا يهاب الحديث » ••

ولم يكن حديثه لغوا ولا ثرثرة يزجي (١) بها الفراغ بين أهل الفراغ ، بل كان من تلك الأحاديث التي كان يتوق (٢) اليها النبي ـ عليه السلام ـ في بعض أوقاته فيتمناها ، وتروي السيدة عائشة من ذلك : أنها سمعت النبي ذات ليلة يقول : لو كان معنا من يحدثنا :؟ قالت : يا رسول الله أفأبعث الى أبي بكر ؟ فسكت • ثم قالت : أفأبعث الى عمر ؟ فسكت • ثم دعا وصيفا (٣) بين يديه فساره فذهب فاذا عثمان يستأذن ، فأذن له فدخل فناجاه (٤) عليه السلام طويلا ••

وينقل عنه الرواة كثيرا من شواهد الأمثال والأشعار ، وكأنه كان ينظم الشعر ان صح ما قيل انهم وجدوا في خزانته وصية مكتوبا على ظهرها :

غنى النفس يغني النفس حتى يجلها
وان غصها حتى يضر بها الفقر
وما عسرة فاصبر لها ان لقيتها
بكائنة الا سيتبعها يسر
ومن لم يقاس الدهر لم يعرف الأسى(٥)
وفي غير الأيام ما وعد الدهر

ولكن هذا الشعر وغيره مشكوك في نسبته اليه •

الا أنه كتب في خلافته رسائل من النمط الذي لا يرتضي الظن نسبته الى كاتبه مروان ••

ومن هذه الرسائل كتاب الى عماله يقول فيه :

---

(١) يزجي : أي يدفع ويسوق ، والمراد الاول • (٢) يتوق : يشتاق •
(٣) الوصيف : الخادم • (٤) نجوته نجوا : ساررته ، وتناجوا : تساروا •
(٥) الاسى : الحزن

« .. استعينوا على النـاس وكل مـا ينوبكم (١) بالصبر والصلاة . وأمر الله أقيموه ولا تداهنوا (٢) فيه، وإياكم والعجلة فيما سوى ذلـك . وارضوا من الشر بأيسره . فـان قليل الشر كثير . واعلموا أن الذي ألف بين القلوب هو الذي يفرقها ويباعد بعضها عن بعض . سيروا سيرة قوم يريدون الله لئلا تكون لهم على الله حجة » .

ومنها كتاب الى العمال يقول فيه : « ان الله ألف بين قلوب المسلمين على طاعته . وقال سبحانه : « لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم » (٣) .. وهو مفرقها على معصيته . ولا تعجلوا على أحد بحد قبل استيجابه (٤) فان الله تعالى قال : (لست عليهم بمسيطر الا من تولى وكفر (٥)) ومن كفر داويناه بدوائه . ومن تولى عن الجماعة أنصفناه وأعطيناه حتى يقطع حجته وعذره ان شاء الله » .

ومن كتبه الى العمال :

« أما بعد . فان الله أمر الأئمة ان يكونوا رعاة ، ولم يتقدم اليهم أن يكونوا جباة (٦) . وان صدر هذه الأمة خلقوا رعـاة ولم يخلقوا جباة . وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة . فاذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . ألا وان عدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فتعطوهم الذي لهم وتأخذوا بما عليهم . ثم تثنوا بالذمـة (٧) فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم . ثم العدو الذي تنتابون (٨) فاستفتحوا عليهم بالوفاء » ..

ومن كتبه الى الجباة :

« أما بعد فان الله خلق الخلق بالحق . فلا يقبل الا الحـق .

(١) ينوبكم : أي ينزل بكم ويصيبكم . (٢) دهن : نافق ، والمداهنة : اظهار خلاف ما يبطن . (٣) الآية : ٦٣ من سورة الانفال . (٤) أي استجوابه ومحاكمته . (٥) الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ من سورة الغاشية . (٦) أي يجمعون الاموال . (٧) أي أهل الذمة . (٨) انتابهم انتيابا : أتاهم مرة بعد أخرى .

خذوا الحق وأعطوا الحق . والأمانة الامانة . قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم الى ما اكتسبتم . والوفاء الوفاء . لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد . فان الله خصم لمن ظلمهم » ..

وكتب الى أمراء الأجناد : « أما بعد فانكم حماة المسلمين وذادتهم (١) . وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا . بل كان على ملأ منا .. لا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل . فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم . فانظروا كيف تكونون . فاني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه » ..

وبعض هذه الكتب يبدؤه ويختمه بذكر آيات من القرآن تتوالى في بيان ما يدعوهم اليه وينهاهم عنه . وليست هي مما يكتبه مروان ، لأنه لم يكن يحفظ القرآن حفظ عثمان ، وليس ما تقدم من الوصايا بالذي يكتبه مروان غير مملي عليه . لأنها هي الوصايا التي هي أحرى (٢) بحياء عثمان والفته ووفائه ورحمته لليتيم وايثاره الموادعة وكراهته اللجاجة (٣) في القصاص . لهذا نقول : انها من اسلوبه الذي يوائمه (٤) - رضي الله عنه - ، وأسلوبه ثمة (٥) هو ترجمان نفسه . فان الرجل يكتب لغيره ليقنعهم بما يحس انه مقنعه لو كتب اليه . وهذه كتابة عثمان لا كلفة فيها ولا محاولة ولا اطناب ، الا الدعوة القويمة في استقامة وسهولة وبساطة لا تقدر في الناس انهم يخالفون ما وضح لهم واستقام بين أعينهم من الأمور . وكذلك كان عثمان يعقل ما يطيعه وما يطاع . وكذلك استجاب لدعوة أبي بكر حين دعاه الى الاسلام . فما هو الا أن اتجه ذهنه مستقيما الى حقيقة الأصنام وحقيقة الاسلام حتى قال لصاحبه : نعم .. هو ذاك ..

أما الخطابة فقد كانت على هذا النهج من الكتابة السهلة

---

(١) أي المدافعون عنهم . (٢) أي أجدر . (٣) اللجاجة في القصاص المبالغة في تنفيذه . (٤) يوائمه : يلائمه ويناسبه (٥) ثمة : أي هناك .

القويمة ، وربما ارتج (١) عليه فلا يبتئس (٢) لذلك ، ولا يزيد على أن يقول ما معناه : سيأتي القول حين الحاجة الى القول ٠٠

ومن خطبه في أوائل الفتنة : « ان الناس يبلغني عنهم هنات وهنات (٣) ، واني والله لا أكون أول من فتح بابها وأدار رحاها ٠ ألا واني زام نفسي بزمام (٤) وملجمها بلجام ٠٠ ومناولكم طرف الحبل ، فمن أتبعني حملته على الأمر الذي يعرف ، ومن لم يتبعني ففي الله خلف منه وعزاء عنه ٠ ألا وان لكل نفس يوم القيامة سائقا وشاهدا : سائق يسوقها على أمر الله وشاهد يشهد عليها بعملها ٠ فمن كان يريد الله بشيء فليبشر ، ومن كان انما يريد الدنيا فقد خسر » ٠

ومن خطبه بعد تفاقم الفتنة خطبة على الروية لم تكن مرتجلة قال فيها :

« ٠٠٠ آفة (٥) هذه الأمة وعاهة هذه النعمة ، عيابون طعانون ، يرونكم ما تحبون ، ويسترون عنكم ما تكرهون ، يقولون لكم وتقولون ٠ أمثال النعام يتبعون أول ناعق ، أحب مواردهم اليهم البعيد ، لا يشربون الا نغصا (٦) ويردون الا عكرا ، لا يقوم لهم رائد ٠٠ وقد أعيتهم الأمور ٠٠

« ألا فقد والله عنتم علي ما أقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم (٧) بلسانه ، فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم ، ولنت لكم وأوطأتكم كنفي (٨) وكففت عنكم يدي ولساني فاجترأتم علي ٠ أما والله لأنا أعز نفرا وأقرب ناصرا وأكثر عددا وأحرى ان قلت : هلم أتي الي ٠ ولقد أعددت لكم أقرانا وأفضلت عليكم فضولا وكشرت لكم عن

---

(١) ارتج عليه : توقف ولم يقدر كأنه أطبق عليه ٠ (٢) أي فلا يحزن ٠
(٣) أي أشياء وأشياء ٠ (٤) الزمام : المقود ٠ (٥) بمعنى العاهة والداء ٠
(٦) لعلها : نغصا ، والنغص : أن تورد ابلك الحوض ، فاذا شربت صرفتها وأوردت غيرها ٠ (٧) قمعكم : أي قهركم ٠ (٨) كنفي : أي جانبي ٠

نابي وأخرجتم مني خلقا لم أكن أحسنه ، ومنطقا لم أنطق به. فكفوا عني ألسنتكم وعيبكم وطعنكم على ولاتكم . فاني كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم رضيتم مني بدون منطقي هذا • ألا فما تفقدون من حقكم ؟ والله ما قصرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلي . ولم تكونوا تختلفون عليه ••• » •

وهذه الخطبة هي التي قام مروان بعدها يهم بالكلام ويتكلم متوعدا فأسكته عثمان . ونرى انها قيلت على الروية (١) لأنه خرج من داره وهو يعلم باجتماع الوفود وتحفزها ولم يفاجأ منها بأمر لم يكن يعلمه وهو ينوي الخطابة فيها ••

وهذه النماذج من كتبه وخطبه لا تورد في هذا المقام من ناحية البلاغة والبيان مستقلة عن مواضعها ودواعيها . ولكنها تورد قبل كل شيء لانها ـ مع ما تبديه من بيانه ـ تبدي لنا أسلوب الخليفة الثالث في علاقته برعاياه من خلال أسلوب الكتابة والخطابة • فقد كانت أوائل كتبه أشبه الكلام بما نسميه اليوم « الأسلوب الرسمي » أو أسلوب التشريع والوثائق القانونية : تبليغ وتقرير بغير تنميق (٢) ولا محاولة تأثير . وهو كذلك أسلوب الخلافة التي تعلم ان التفاهم بينها وبين من تخاطبهم مفروغ منه متفق عليه مستغن عن الاقناع وعن المسحة الشخصية التي يصطبغ بها الكلام اذا وقع الاختلاف في النظر بين السامع والمتكلم . ثم يستطرد الموقف بالخليفة الى ما رأيناه في خطابه الأخير . واول ما يبدو منه ان الراعي والرعية لا يثوبون (٣) الى قسطاس (٤) واحد . وتلك بوادر الملك تظهر في مضامين القول كما ظهرت على ما نراه في الأعمال والنيات •

---

(١) الروية : التفكر في الامر • (٢) تنميق : أى تزيين وتحسين
(٣) يثوبون : يرجعون • (٤) القسطاس الميزان •

الفصل الثالث

من اسلامه الى خلافته

١ ـ شئونه

مضى من اسلام عثمان الى مبايعته بالخلافة نيف وثلاثـون سنة ، شهد فيها من الغـير (١) في تاريخ الجزيـرة العربية وفي تاريخ العالم من حولها ما لم يعهده العالم قط قبل البعثة المحمدية، وشهد فيها عهد الدعوة النبوية وعهد الخلافة في أوجها (٢) على أيام الصديق ثم على أيام الفاروق ٠

وجمعت المصاهرة بين حياته الخاصه وحياة النبي ــ عليـه السلام ــ في بيته مع اتصاله به في الدعـوة الكبرى من سنتهـا الأولى ، فلم يفته شيء من أخبار النبوة الخاصة والعامة في حياة النبي ، ولم يفته شيء بعدها من أخبار الخلافة في حياة الشيخين . ولم يفته بعبارة أخرى شيء مما نسميه اليوم بأعمال التأسيس في الدولة الاسلامية ٠

تزوج من السيدة رقية بنت النبي ــ عليه السلام ــ ، وهاجر بها الى الحبشة ، فكان أول المهاجرين اليهـا ، ثم هاجر بهـا الى المدينة فمرضت للعناية بها ، فماتت يوم ورد البشير الى المدينة بنصر المسلمين وهزيمة قريش في تلك الوقعة الحاسمة ، وقيل : ان عثمان كان قد أصيب بالجدري قبل الخروج الى بدر ، فحال مرضه ومرض زوجته دون الخروج اليها مع جلة (٣) الصحابة ٠٠

وكانت غبطة (٤) عثمان بمصاهرة النبي ــ عليه السلام ــ عظيمة ، وحزنه لانقطاع هذه الصلة أعظم ، فلم ير بعد ذلك الا محزونا مهموما لفقد زوجته وانقطاع صلته بنبيه وأكرم الناس عليه ، ورآه النبي على تلك الحال فسأله : «ما لي أراك مهموما»؟ قال فيما رواه سعيد بن المسيب : « وهل دخل على أحد ما دخل

---

(١) غير الدهر : أحداثه ٠ (٢) الاوج : ضد الهبوط ٠ (٣) جلة : أي كبار وعظماء ٠ (٤) غبطة : أي فرحة ٠

علي يا رسول الله ؟! ماتت ابنة رسول الله التي كانت عنـدي ، وانقطع ظهري . وانقطع الصهر بيني وبينـك » فطيب النبي خاطره وزوجه أختها أم كلثوم ، وبقيت معـه الى ان توفيت في السنة التاسعة للهجرة بعد بنائه (١) بها بست سنوات ٠

وأشهر الروايات على انه سمي بذي النورين، لأنه تزوج من رقية وأم كلثوم بنتي النبي ـ عليه السلام ـ ، « ولم يعلم أحد تزوج بنتي نبي غيره » ٠٠

ويقال انه سمي بذلك لان النبي ـ عليه السلام ـ قال : «فيه نور أهل السماء ومصباح اهل الارض » ويقال : انه كان يختم القرآن كل ليلة في صلاته « فالقرآن نور ، وقيام الليل نور » ٠

ومما خرجه الحافظ السلفي في سياق هذه الكنية: ان اسماعيل ابن علية أتى يونس بن خباب ليسمع منه ، فسأله يونس « مـن أين أنت ؟ » فقال : « من أهل البصرة » قال يونس : « أنت من أهل المدينة الذين يحبون عثمان بن عفان وقد قتل ابنتي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ! ٠٠ » فقال يونس ما فحواه (٢): « أتراه قتل واحدة فزوجه الثانية من أجل ذلك » !

وجواب اسماعيل مفحم (٣). وقصته مع يونس بن خباب عبرة من عبر الدعوة « السياسية » اذا لجت (٤) بالنفوس وغلبت على العقول ، فما يسمى عثمان من أجله بذي النورين يجري علـى لسان صاحب الهوى في النقد والمعابة فينعاه عليه . وينعاه على البلد الذي يحبه ، ويحسبه قتلا لبنتين من بنات النبي ولا يدور بخلده (٥) جواب اسماعيل ان من قتل واحدة لا يعطى غيرهـا ليقتلها . ولا يرد على باله ما لا يغيب عن مثله من حديث ابـن عباس حيث يروي عن النبي انه قـال لعثمان مواسيا بعد موت رقية : « والذي نفسي بيده ولو ان عندي مائة بنت تموت واحدة بعد واحدة زوجتك أخرى حتى لا يبقى من المائة شيء ٠٠ » ٠

وحقيق بهذه القصة أن نحضرها أخلادنا (٦) ونحن مقبلون

---

(١) بنى بامرأته : أي زف ودخل عليها ٠ (٢) أي ما معناه ٠ (٣) يقال : أفحمه . أي أسكته ٠ (٤) أي ترددت أو كثـرت وعظمت ٠ (٥) بخلده : أي بقلبه أو عقله ٠ (٦) جمع خلد

على العلل والتعلات في الدعوة لعثمان والدعوة عليه ، فاننا لواردون (١) على علل كثيرة وتعلات (٢) أكثر منها ، تسبقها الرغبة في خلق المحاسن أو المآخذ فلا تعيا مرة بخلق ما تريد ٠٠

ومنذ اليوم الذي أسلم فيه عثمان لزم النبي حيث كان ، ولم يفارقه الا للهجرة باذنه ، أو في مهمة من المهام التي يندب لها ، ولا يغني أحد فيها غناؤه ٠ شأنه في هذه الملازمة شأن الخلفاء الراشدين جميعا ، كأنما هي خاصة من خواصهم رشحهم لها ما رشحهم بعد ذلك للخلافه متعاقبين بغير حاجة الى مفاضلة وترجيح ٠٠

فمن الصحابة من كان يبرح (٣) المدينة أو مكة في عمل من أعماله ، ومن كان يحضر الغزوات ويغيب عما عداها في مصالحه ومصالح أهله ، ما عدا أبا بكر وعمر وعثمان وعليا ، فقد أصبح عملهم بعد اسلامهم مقترنا بعمل النبي في مقامه وسفره ، وقد يقترن به فيما عم أو خص من أمره — صلوات الله عليه — ، وتلك وشيجة من وشائج الواقع غير مدبرة ولا مقدرة ، تجمع بين النبوة والخلافة كما ينبغي أن تجتمعا بحكم القرابة اللدنية بين المهمتين المتلازمتين ٠٠

وترك عثمان تجارته الواسعة لمن يتولاها عنه من وكلائه وذوي قرباه ، وجعل بيته بيتا لمال المسلمين قبل أن يكون للدولة الاسلامية بيت مال ، فلم يتطلب عمل الرسالة مددا من زاد السلم أو الحرب الا نهض به عثمان وحده ، أو كان أول ناهض به مع القادرين على بذل المال في هذا السبيل ٠٠

شكا المهاجرون تغير الماء بالمدينة ولم يجدوا فيها غير بئر واحدة يستسيغون ماءها ، وكانت عند يهودي يغالي بثمنها ، فاشترى منه نصفها وغلبه دهاء ، لأنه قسم سقياها يوما له ويوما لصاحبها ، وأباح السقيا منها بغير ثمن في يومه ، فكان طلاب الماء يأخذون منه كفايتهم في ذلك اليوم ٠٠ ونظر اليهودي فرأى أنه لا ينتفع من نصفه الباقي له بكثير أو قليل فلما باعه بالقليل

---

(١) أي مقبلون ٠ (٢) جمع تعلة ، وهي ما يتعلل به ٠ (٣) أي يغادر ويترك ٠

بعد المغالاة فيه وهبها عثمان لمن يستقي منها في جميع الايام ·

ولما ندب النبي المسلمين لغزوة تبوك لم يكن عندهم من المال ما يقوم بنفقاتها . لبعد شقتها (١) واشتداد القيظ (١) في وقت الخروج أليها ، فتكفل عثمـان وحده بثلث نفقاتهـا . وتبرع للمجاهدين بالمطايا والاطعمه ، وجاء بألف دينار في كمه فنثرها في حجر الرسول ، وكـرر ذلك غـير مرة على ما جـاء في جمهرة الأخبار ··

واشترى أرضا ليزيدها في بناء المسجد بذل فيها عشرين ألف درهم أو خمسة وعشرين الفا ، ولم يقصر عن معونة يستطيعها في عسرة او مجاعة، مدعوا الى ذلك او ملبيا من نفسه داعية النجدة والسماحة ، فلم يضارعه (٣) في سخائه احد من اقرانه . وكان بحق اسخى الاغنياء وأغنى الاسخياء ··

وعهد اليه النبي في السفارات التي يخشى خطرها . فلمـا كانت حملة الحديبيه التي تأهب فيها النبي لدخول مكه دعا بعمر ليبعثـه الى رؤساء عشائرها ، فقال عمـر : « ان قريشا تعرف عداوتي اياها وغلظتي عليهـا ، وليس بين القوم احـد من بني عدي ينتصر لي ، فلو بعثت يا رسول الله عثمان اليهم فهو بينهم اعز مني » - وقد بعثه النبي فلم يسلم من سفاهه السفهاء ولم يمنعهم ان يبطشوا به لولا ان تصدى لهم ابن عمه ابان ابن سعيد بن العاصي ، وشاع يومئذ في معسكر المسلمين ان المشركين قتلوه. وكانوا قد احتبسوه ثلاثة ايام يتشاورون في امره . فلمـا دعا النبي جنده الى بيعـة الرضوان أو بيعة الشجـرة ، وضع يده اليمنى على يده اليسرى وهو يقول : هذه بيعة عثمان ·· «اللهم هذه عن عثمان في حاجتك وحاجة رسولك » ··

وسيأتي من أمر الدعوة على عثمان أنهم كانوا يحسبون عليه انه لم يشهد بدرا ولم يشهد يوم البيعه ، ولا لوم عليه في المرتين ولا سيما التخلف عن بيعة الشجرة ، اذ كان قد تخلف فيما هـو أخطر وأعسر من حضور المبايعة كما حضرها سائر الصحابـة .

---

(١) الشقة : السفر البعيد · (٢) القيظ : حرارة الصيف · (٣) يضارعه: يساويه ·

وهذه وما تقدمها من حديث يونس بن خباب بعض أفانين (١) التهم التي تخلقها الفتنة ، ويعلم بطلانهـا القائل قبـل المستمع اليها ..

ومن المهام التي اختصه النبي بها أنه كان يكتب له الوحـي عند نزوله ، وكان ــ عليه السلام ــ يناديه متحببا ويقول له وهو يملي عليه : « أكتب يا غثيم (٢) » . واستخلفه على المدينة في غزوته الى ذات الرقاع ، وأرسله الى اليمن مستطلعا حين كانت امارتها الى علي ، وكاد أن يفرده بالعمل فيما نسميه اليوم أمانة السر أو الكتابة الخاصة ، وهي أمانة يضطلع بها من يوثق بصدقه وكياسته (٣) ولطف أدائه لما يؤتمن عليه من رسالة أو سفارة ..

لا جرم يروي عنه أبو عبد الله الجبيري في روايـة راجحة : انه كان موضع سر النبي في مرضه ــ عليه السلام ــ ، وفي هــذه الرواية ينقل عن السيدة حفصة أنهـا حادثت السيدة عائشـة تذكرها بما كان من هذه المسارة فقالت : « اني كنت أنا وأنت عند رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأغمي عليه فقلت لك: أترينه قد قبض ؟ فقلت : لا أدري ، ثم أفاق فقال : افتحوا لـه الباب ، فقلت لك : أبوك أو أبي ؟ فقلت : لا أدري ، ففتحنا فاذا عثمان . فلما رآه النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : ادنه . فأكب عليه فساره بشيء لا أدري أنا وأنت ما هو ثم رفـع رأسه فقال : أفهمت ما قلت لك ؟ قال نعم . قال : ادنه .. فأكب عليه أخرى مثلها فساره بشيء ما ندري ما هو، ثم رفع رأسه فقال: أفهمت ما قلت لك ؟ قال نعم . سمعته أذناي ووعاه (٤) قلبي . ثم أمره فانصرف ..

كـان بين الصحابة منزلـة مـن منازل الفخـر يعتدون بها ويتعارفون عليها وهي منزلـة الرضى من رسول اللـه الى يوم وفاته ، وكان من الكلمات الجارية على الألسنة في معرض الثناء أن يقال عن الرجل : انه توفى رسول الله وهو عنهم راض ..

---

(١) أفانين : أي أساليب . (٢) لعلها « يا عثيم » بالعين ، وهو أسلوب تصغير ، الغرض منه المداعبة والتدليل . (٣) كياسته : أي عقله . (٤) وعاه : أي حفظه .

فهذه المنزلة كانت من مفاخر عثمان التي يذكرها ويذكرها له من يحمده ، وكان في الطليعة ممن تحسب لهم هذه المفخرة بين الصحابة ، وانما كان شانئوه (١) يتحدثون بتخلفه عن وقعة بدر وعن بيعة الرضوان لينزلوا به شيئا من منزلته تلك التي ليس عليها خلاف ٠

وصارت الخلافة الى الصديق ، وهو الذي أسلم عثمان على يديه ، وطالت الصحبة بينهما من قبل الاسلام ، والفت بينهما مشابه كثيرة في الطباع والأخلاق ، وكان ابو بكر يعتقد في عثمان الحزم كما قال له يوم فاتحه في أمر اسلامه .وليست هي من كلمات المجاملة في مقام الترغيب والارتفاع فما كان أبو بكر بالرجل الذي يرسل الكلمات جزافا ولا بالمتكلم الذي يعييه أن يجامل أحدا بالصدق الذي يرضيه ٠

ولم يكن مستغربا بعد طول الصحبة أن يكون عثمان أقرب المقربين الى الخليفة الجديد في أعمال سياسته واواصر (٢) مودته ، ولكننا هنا أمام عهد نادر من عهود الانسانية تتقدم فيه النظرة الى الدعوة القائمة على كل نظرة الى ما عداها . وقد يحب الانسان من يحب لأنه أقرب الى اعتقاده في نصرة الدعوة ، والأمانة لها ، والقدرة على خدمتها ، وان هذه الظاهرة العميقة الأغوار لمن أقوى ظواهر العهد وأحقها من المؤرخ بالانتباه اليها، وقد سبقت الاشارة الى فعلها اللدني في الجمع بين النبوة والخلافة . وتخصيص الخلفاء الراشدين على غير تدبير ولا تقدير بملازمة النبي في مقامه وسفره وغيابهم حين يغيبون بأذنه وفي رسالة من رسائل الدعوة النبوية ،ثم ها هي تتكرر في التتريب بين الخليفة الأول وبين أوفق الصحاب لمعونته وملازمته ، والاطلاع على مقاصده ونياته ، فلم يكن بين أبي بكر وعمر من الصحبة قبل الاسلام ولا من المشابهة في الخلق بعض ما كان بين أبي بكر وعثمان ، ولكن أبا بكر وعمر كانا أوفق اثنين بين الصحابة للعمل معا في مهام الخلافة الأولى ، فتلازما وتشاورا وتقارب بينهما في الدعوة ما تباعد في الخلق والخليقة ، حتى كان

---

(١) شانئوه : كارهوه وخصومه ٠ (٢) أي روابط ٠

من يريد الوقيعة يسأل أبا بكر متجاهلا : والله ما ندري أأنت الخليفة أم عمر ؟ فيقول ــ رضي الله عنه ــ : هو لو كان شاء ٠٠

ويحق لنا أن نقول : ان الامر لم يكن باختيار أبي بكر ولا باختيار عمر ، ولكنه كان باختيار المصلحة العليا التي غلبت على كل مصلحة في ذلك العهد النادر ، وانها لمن وحي الله ٠٠

في أيام أبي بكر لم يكن احد بعد عمر اقرب اليه من عثمان ، وكتب أبو بكر عهده الآخير وهو على سرير الموت وعثمـان الى جواره يملي عليه ٠ فلما أفاق سأله : من كتبت ؟ قال : عمر ٠٠ كتبها وهو يعلم أنه لا يعدو بها نية الخليفة المحتضر ، فان أفاق أتم عهده كما أراد ، وان ذهب في تلك الغشية بطلت اللجاجة (١) فيما أراد ، وانسد باب الفتنة والخلاف ٠٠

قال أبو بكر وهو على سرير الموت مستريح الى وفاء صاحبه ، مطمئن الى أمانة كاتبه : « بارك الله فيك ؛ بأبي أنت وأمي ٠ لو كتبت نفسك كنت لها أهلا » ٠٠

وهذا هو أسلوب الصديق فيما يرتضيه لمجاملته وصدقـه : كلمة حق توافق السامع ولا تخالف الحقيقة في ضمير القائـل ، ومما لا شك فيه أن أبا بكر كان يرى في عثمان انه أهل للخلافه ، وان رأى أن عمر أحق بها منه ٠٠

ثم صارت الخلافة الى عمر ولم يكن عنده قريب أو بعيد غير من يقربه عمل أو يبعده عمل ، ولم تكن للناس عنده أقدار غير أقدارهم عند الله وعند رسول الله ، وكان يستمع الى كل ويعتمد على كل ، ويستبقي كبار الصحابة جميعا عنده ليستعين برأيهم ويجنبهم غواية الدنيا اذا انطلقوا اليها ، أو كما قال : انه كان يخشى عليهم من الدنيا ويخشى على الدنيا منهم ، فبقي منهم من بقي على رضى وموافقة ، وبقي الكثيرون منهم على تبرم (٢) وملل (٣) ، فلم يرسل أحدا منهم في البلاد الا من أرسله في ولاية أو جهاد ، ولم يكن يطيل الولاية لأحد منهم وان أحسن وأفضل ، مخافة على الناس أن يفتتنوا باحسانه وأفضاله ، ان لم يخف عليه أن يفتنه الناس ٠٠

---

(١) أي الخصومة ٠ (٢) أي ضيق وضجر ٠ (٣) ملل : سآمة ٠

وكان عثمان ممن بقي معه ولازمه غير مكره ولا راغب في الرحلة كما رغب فيها الذين ارتحلوا أو لم يرتحلوا ارتحاله قبل الاسلام . ولم يشتغلوا بالدين اشتغاله بعد الاسلام . فركن اليه عمر في طلب المشورة . وعمل بمشورته في احصاء الناس والأعطية . وفي بدء السنة بشهر المحرم . وعمل بها في خطته الكبرى . وهي خطة العزل (١) بين الامامة والقيادة الى ميادين القتال • فان اصابة الامام قد تطمع العدو وقد تيئس الصديق . وليست كذلك اصابة القائد الذي من ورائه امام يوليه ويولي آنداده (٢) وآمثاله من بعده . وهي نصيحة من عثمان لعمر ما أدلها على سرائر المؤمنين في ذلك العهد الأمين : ينصح الناصح ولا يبتغي بنصيحته غير وجه الله . ويتقبلها السامع وهو لا يبتغي بقبولها غير وجه الله •

شيء واحد من أشياء كثيرة يكشف لنا عن أصالة المشكلات والنقائض في عهد عثمان ••

فها هنا فترة من التربية السياسية مرت به ومر بها ولم تهيأ لخليفة قبله ولا بعده . فهي أطول من فترة التربية السياسية التي تهيأت لأبي بكر مع النبي . وأطول من الفترة التي تهيأت لعمر مع النبي والخليفة الأول . ثم هي أطول من الفترات التي تهيأت للخليفة الرابع علي الذي جاء بعده . لأن عليا ــ رضي الله عنه ــ أسلم وهو صبي ومضت عليه سنوات قبل مشاركته في أعمال الرأي أو أعمال الفعل والانجاز . وقد كان اسلام عثمان وهو في نحو الثلاثين . مشهود له بالحزم والبصر . ومتأهب (٣) من اللحظة الأولى للمشاركة في كل خطة يتعاون عليها أقرب المقربين من صاحب الدعوة . وبينه وبين صاحب الدعوة ــ عليه السلام ــ صهر ومودة وقرابة ليست بالبعيدة •

وفي هذه الفترة التي تمرس (٤) فيها بشئون الدعوة وشئون الخلافة عرضت كل مشكلة . وارتسمت كل خطة في معاملة الصحابة وسائر المسلمين . وارتسمت كذلك كل خطة في معاملة

---

(١) العزل اي الفصل • (٢) أي أقرانه • (٣) أي مستعد • (٤) تمرس بالشيء وامترس اختلك به

المشركين والمنافقين من مسالمين أو محاربين ومن أناس على الموازبة (١) بين السلم والقتال ، واتضحت على هذا النحو حدود الامام وحدود الرعية ، ومواضع الترخص والتشدد في جميع هذه الحدود على اختلاف أحوال اليسر والعسر أو أحوال التبسط والحرج ، وكان خليقا به وهو مطلع على كل قدوة وكل سابقة أن يكون اطلاعه هذا عدة جامعة يستعد بها لولاية الخلافة وتدبير الولايات من قبلها ، وصراطا يستقيم عليه فلا يعوزه (٢) الرأي الواضح ولا التصرف العاجل في أمر من الأمور ..

وهذه هي المشكلة الكبرى ..

بل هذه هي مشكلة المشاكل في عهد عثمان من قبل ابتدائه الى ما بعد نهايته ..

المشكلة الكبرى كما سوف تتراءى لنا أنه لم يعمل في خلافته عملا قط على غير سابقة تشبهه في كل شيء الا في ظروفه وملابساته ، فقد تغيرت كل الظروف والملابسات وهي هي بيت القصيد في كل استعداد لها بالقدوة والسابقة ..

لقد كانت له سابقة في كل شأن من شئونه حتى في شئون زواجه ومصاهرته ، وحتى في شئون تمييزه وتأليفه لذويه ولأعدائه ، ولكن مع هذا الفارق الواحد الذي هو في الحقيقة جامع لكل فارق يخطر على البال ، وهو فارق الظروف والملابسات .

كانت تربيته السياسية عدة له وأي عدة ، وكانت مع هذا هي مشكلة المشكلات بين الاستعداد بها والتصرف فيها وفاقا لما اختلف من ظروفها وملابساتها ..

عدة ولا عدة ..

وهذه هي احدى النقائض الكبرى التي تأصلت في عهد هذا الخليفة الشهيد ..

ونقيضة أخرى من نقائض عهده تعود الى مزيته العظمى في اسلامه قبل عامة قومه ..

---

(١) الموازبة : المداهاة والمخاتلة . (٢) الاعواز : الفقر والاحتياج .

فهذه المزية العظمى ، ما معناها اذا نحن عبرنا عنها بعبارة أخرى لا تخرج عنها في لبابها (١) وقشورها ؟

معناها القريب البسيط أن قومه تأخروا في الاسلام ، وأنه كان مسلما من صفوة المسلمين ، اذ كان قومه عامة على لدد (٢) الكفر واصرار العداوة بينهم وبين النبي وصحبه الأبرار ، وكان منهم من يعودون به وهم كافرون أو مرتدون فيبدو ذلك نكيرا منفردا بين جلة الصحابة ، لأنه كان وحده منفردا بالمزية التي لم ينفردوا بها مثله ، وهي سبقه الى الاسلام بين أسرة مصرة على المكابرة والعداء ..

ولقد كان العربي يلوذ بالعربي وهما في المعسكرين المتناجزين (٣) ، وكان عثمان مسلما يوم أوفده النبي الى مكة وتلقاه أهلها بالأذى فتصدى لنصرته بعض أبناء عمومته المشركين ، ومضى ذلك في حينه ولم يلتفت اليه ملتفت في ذلك الحين ، لأنه لم يكن بدعا من عادات القوم قبل الاسلام ولا بعده . وكان مشركو مكة يهابون المساس بصاحب الدعوة نفسه لعلمهم أن عشيرته تغضب له اذا جد الجد ، وأصابه المكروه في سبيل الدين .

فلما انتهى أمر الشرك ، وانتهى عرفه وعاداته ، وبقيت مفاخر الاسلام وسوابقه أصبحت المزية العظمى نقيصة (٤) من جانبها الآخر لم تكن مزية على الاطلاق .

يحضرنا في هذا الصدد مثل يستوحيه الذهن قسرا (٥) في موقعه من هذه السيرة ، وهو مثل الرؤيا التي فسرها المنجمون للملك تفسيرا قضى عليهم بالعقاب ، ثم فسرها له غيرهم تفسيرا أغدق (٦) عليهم النعمة والثواب ، ولا فرق بين التفسيرين في المدلول ..

قال له المنجمون أولا : ان الرؤيا مشئومة لأنها تريهم أعزاءه يهلكون واحدا بعد واحد ثم لا يلبث الملك أن يهلك على آثارهم .

ثم قال له المنجمون آخرا : انها لرؤيا سعيدة تبشره بالعمر الطويل ، وانه لأطول عمرا من قومه أجمعين .

---

(١) أي جوهرها ومظهرها ، واللب خالص كل شيء . (٢) اللدد : شدة الخصومة . (٣) المناجزة والتناجز : بمعنى المقاتلة . (٤) نقيصة : أي عيب . (٥) أي كرها أو قهرا . (٦) أي أكثر .

والتفسيران واحد في المدلول . ولكن الأول يسخط ويسوء والثاني يرضي وييسر ، ولا فارق بينهما في غير التعبير .
وعثمان ــ رضوان الله عليه ــ كان أسبق قومه الى الاسلام فهذه مزيته العظمى .

وكان كل أهله على الشرك ما عداه ، وهنا تتغير الصفحة في النظر بعد ذهاب الشرك وأهله ، وما بدا في الصفحة الأولى الا الذي بدا في الصفحة التالية : قريب من قريب .

ليس من المألوف في أيام عثمان أن يكون الزواج مسألة من مسائل المجتمع ، فانما كانت شئون الزواج تجري على وتيرة (١) واحدة بحكم العادة كأنها من شئون الزوج والزوجة التي لا تعني (٢) أحدا غيرهما ، ولكن زواج عثمان لم يجر على هذه الوتيرة سواء قبل الخلافة أو بعدها . فكان زواجه على التعاقب من بنتين للنبي ــ عليه السلام ــ تاريخا في علاقات الزواج يكفي من ندرته أنه عرف به في كنيته على قول من أشهر الأقوال .

ولم يختلف بعد وفاة السيدة أم كلثوم عن سنة أمثاله في الزواج من عقيلات البيوت على الأغلب الى أن توفي عن زوجاته الثلاث : رملة وفاختة ونائلة ، الا أن زواجه من نائلة بنت الفرافصة كان من قبيل الزواج الذي يقال فيه : انه مسألة من مسائل المجتمع في حينه ، فقد كان زواج الصحابة من غير المسلمات خارج الحجاز أحد الطوارىء التي جدت في المجتمع الاسلامي بعد فتوح العراق والشام ومصر ، وكان لها أثرها البعيد في تطور البيت العربي واختلاف أنماط (٣) المعيشة بين ذوي البيوتات من جلة الصحابة ، وبعضها مما دخل على المعيشة العربية بعادات للأمم الغربية لم يتعودها العرب قبل مخالطتهم تلك الأمم مخالطة الصهر والمعاشرة البيتية .

وتتعدد الروايات في الباعث الى خطبة عثمان لنائلة بنت الفرافصة كما هو الغالب في أخبار العصر كله ، وأشهرها : أنه سمع بزواج سعيد بن العاص والي الكوفة من أختها هند ، وتناقل

---

(١) وتيرة : طريقة . (٢) أي تخص ؤتهم . (٣) أنماط : طرق وأنواع .

ذوو قرباه الأحاديث عن كياستها (١) وجمالها وحسن قيامها على أمور بيتها . فكتب الى سعيد يخطب أختها ولا يعرفها ، وكان ضب بن الفرافصة قد أسلم ، فأمره أبوه أن يزوجه أختها نائلة ، وكانت أديبة ذكية تنظم الشعر وتحسن القول ، ولها في زواجها من عثمان أبيات مما تغنى به ابن عائشة في بعض ألحانه ، ومنها قولها تخاطب أخاها :

ألست ترى يا ضب بالله أنني
مصاحبة نحو المدينة أركبا

اذا قطعوا حزنا (٢) تخب (٣) ركابهم
كما حركت ريح يراعا (٤) منقبا (٥)

لقد كان في فتيان حصن بن ضمضم
لك الويل ما يغني الخباء المطنبا (٦)

ثم قولها تخاطب نفسها :

قضى الله حقا أن تموتي غريبة
بيثرب لا تلقين أما ولا أبا

وغادرت قومها في بادية الشام وحواضرها على كره منها الى مسكنها الغريب ، وسألها عثمان حين رآها : « لعلك تكرهين ما ترين من شيبي ؟ » قالت : « والله يا أمير المؤمنين اني من نسوة أحب أزواجهن اليهن الكهول » . قال عثمان : « أنا قد جزت (٧) الكهول ، وأنا شيخ ، ولن تجدي عندنا الا خيرا » .

وعلى هذه النقرة (٨) بعد هذه الغربة توثقت المحبة بين الزوجين حتى كرهت الزوجة الفتية بعد مقتل عثمان أن تتزوج من أحد بعده كائنا ما كان قدره ونسبه ، وتكاثر خطابها فأحبت أن تصرفهم عنها وتصرف نفسها عنهم ، فعمدت الى حجر فهتمت به ثناياها ، وردت معاوية بن أبي سفيان حين خطبها قائلة لرسوله : « ماذا يرجوه من امرأة جذماء ؟ » .

---

(١) أي عقلها . (٢) الحزن : خلاف السهل . (٣) الخبب : ضرب من العدو . (٤) اليراع : ذباب يطير بالليل كأنه نار ، وشيء كالبعوض يغشى الوجه . (٥) يقال : نقبوا في البلاد : أي ساروا فيها طلبا للمهرب . (٦) أي المشدود بالحبال والاوتاد . (٧) أي تجاوزت . (٨) النقرة : مراجعة في الكلام .

ونائلة هي التي كتبت الى معاوية تصف مقتل زوجها ، وقالت من خطابها الذي تواترت نسبته اليها : « من نائلة بنت الفرافصة الى معاوية بن أبي سفيان · أما بعد فاني أدعوكم الى الله الذي أنعم عليكم وعلمكم الاسلام وهداكم من الضلالة وأنقذكم من الكفر ونصركم على العدو وأسبغ (١) عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، وأنشدكم الله وأذكركم حقه وحق خليفته أن تنصروه بعزم الله عليكم ، فانه قال : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء (٢) الى أمر الله (٣) » وان أمير المؤمنين بغي عليه ، ولو لم يكن لعثمان عليكم الا حق الولاية لحق على كل مسلم يرجو امامته أن ينصره ، فكيف وقد علمتم قدمه في الاسلام ، وحسن بلائه ، وأنه أجاب داعي الله وصدق كتابه واتبع رسوله ، والله أعلم به اذ انتخبه (٤) فأعطاه شرف الدنيا وشرف الآخرة » ··

ثم استطردت تقص خبر مقتله ، وتتهم المقصرين عن نجدته ·· فما كان صوابها بأدل على الوله والحزن من خطئها فيما اتهمت ، ومن تخبطها فيما زعمت ، فان خطبا (٥) أهون من خطبها الذي شهدته بعيني رأسها ليذهل الحزين عن سداد رأيه ، كما قال حكيم المعرة فيما دون ذلك :

ربما أذهل الحزين جوى (٦) الحزن
الى غير لائق بالسداد
مثلما فاتت الصلاة سليمان
فأنحى على رقاب الجياد

وقد كان لها عند عثمان مثل هذا الحب وهذه الحظوة ، بل كان له من الثقة بنصحها ما لم يكن له في مروان بن الحكم أقرب المقربين ·· وكانا يتلاحيان (٧) كثيرا في محضره ، وعيرها مرة أباها « الذي لا يحسن الوضوء » فقالت له تعرض بأبيه ـ وهو

(١) أسبغ : وسع وأتم · (٢) تفيء : ترجع · (٣) الآية : ٩ من سورة الحجرات · (٤) انتخبه : أي اختاره · (٥) الخطب : المصيبة · (٦) جوى : أي حرقة · (٧) يتلاحيان : يتشاتمان ، أو يتنازعان ، أو يتلاومان

عم عثمان ــ « أما والله لولا أنه عمه وأنه يناله غمه لأخبرتك عنه ما لم أكن أكذب عليه » •• وغضب عثمان فتوعد مروان لئن تعرض لها ليسودن وجهه • ثم قال له : « والله لهي أنصح لي منك » •

ان خلق الرجل لا يقاس بمقياس أصدق من المرأة وأسبر (١) منها لأغوار طبعه ، وقد يعز على هذا المقياس ــ مقياس المرأة ــ أن يسبر لنا أغوار عقله وأعماق بديهته ، ولكنه لا يعز عليه أن يفرق بين الرجل الذي يحب ويطاع ويهاب ، والرجل الذي تنزل به الألفة منزلة الوهن والعجز في نظر من يألفونه قبل من يعرفونه على البعد أو لا يعرفون منه الا القليل ••

وهذا مقياس صادق من هذا الزواج الغريب أو الطاريء على المجتمع الاسلامي بعد فتوح العراق والشام وسائر الفتوح الآسيوية والافريقية ، وهو مقياس قيس به رجال من النابهين على نحو واحد فلم يكن بينهم من هو أرجح فيه من عثمان ، ولا سيما مقياس الشخصية الغالبة التي تؤثر فيمن يعاشرها ، وتصبغه بصبغتها ، كما تأثرت السيدة نائلة بايمان عثمان وتقواه وكرم نفسه فنسيت نفرتها واختلاف عقيدتها وبيئتها وتحنفت (٢) على سنة (٣) زوجها كما قال من وصفوها في حياته وبعد مقتله •

وفي ذلك العصر نفسه تزوج أناس من ولاة الدولة العربية بالعقائل (٤) والجواري في الحاضرة والبادية ، فكان منهم من تعود عاداتهن من الشراب على الطعام ، وسوغه (٥) لنفسه باختلاف المختلفين في الخمر وأنواعها ، وكان أمر هؤلاء ومن شاكلهم يرفع الى الفاروق قبل خلافة عثمان فيحسمه على دأبه (٦) بتأديب من عصى ، والتنكيل بمن أصر على استباحة الشراب المحظور •

ومن لم يبلغ من ضعفه أن ينقاد هذا الانقياد لم يبلغ من شخصيته الغالبة على ذوي جواره وعشرته أن يصبغهم بصبغته

---

(١) السبر : الاختبار • (٢) تحنفت : أي استقامت • (٣) أي طريقته •
(٤) جمع عقيلة ، والعقيلة : كريمة الحي • (٥) سوغه : أجازه • (٦) أي عادته •

ويحولهم الى معيشة كمعيشته ، وهذه ميسون بنت بحدل الكلبية من قبيلة نائلة بنت الفرافصة قد تزوجت بمعاوية ، وداره الى جانب دارها ، ومقامه في دمشق أقرب الى باديتها ، فلم تلبث أن سئمت مقامها ، وعافت (١) القصر الذي تسكنه زوجة لأمير المؤمنين وأما للأمير من بعده ، ونظمت أبياتها التي جرت مجرى الأمثال على لسان كل زاهد في مقامه ، حنينا الى مألف عيشه الأولى ، وان كانت دون ذلك المقام في الرغد والنعيم ٠

قالت ميسون تذكر القصر والبادية :

لبيت تخفق الأرواح فيه
أحب الي من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني
أحب الي من لبس الشفوف (٢)

وقالت تشير الى زوجها :

وخرق (٣) من بني عمي نحيف
أحب الي من علج (٤) عليف (٥)
فما أبغي سوى وطني بديلا
فحسبي ذاك من وطن شريف

وذلك مع الفارق البعيد بين قصور الشام وبيوت الحجاز وبين سن معاوية وسن عثمان ، وبين ما ترجوه زوجة الخليفة بعد موته وما ترجوه زوجة معاوية وأم يزيد وأم شقيقته « أمة رب المشارق » وسيدة القصر تكاد أن تنفرد فيه ، وأن تغدو وتروح بين الحاضرة والبادية حين تشاء ٠

هذه لمحة من ملامح « الشخصية العثمانية » لا تهمل في مكانها من سيرته الخاصة ، ولعلها أهدى للمؤرخ من شيم (٦) كثيرة توضح له خلائقه التي يؤثر بها فيمن حوله ، ولا شك أنها تزداد

---

(١) أي ملت وكرهت ٠ (٢) الشفوف : الثوب الرقيق الذي يظهر ما تحته لرقته ٠ (٣) الخرق : الفتى الحسن الكريم الخليقة ٠ (٤) العلج : الرجل من كفار العجم ٠ (٥) أي معلوف ٠ (٦) الشيمة : الخلق ٠

وضوحا اذا اتضحت معها ملامح الشخصيـة التي تأثرت بهـذا الأثر ، وهي السيدة نائلة التي جاءته نافرة تنعي غربتها وزواجها من غير بني عمومتها ، ولم تلبث أن تحنفت وأخلصت لبعلها في وفائها واعتقاده ٠

فهذه شخصية قوية من بيئة عريقة في القوة والاعتزاز بالعرف والقوة وقومها بنو كلب أحد القبائل التي هجرت موطنها قديما في الجزيرة العربيـة وحافظـت على أرومتهـا (١) وعصبيتها وفصاحتها ، فكانت الى ما بعد الاسلام بعدة قرون مرجعـا لمن يتقصى أساليب الفصحى ، او يريد أن ينشيء أبناءه على خشونة البادية وصحتها ، ومهما نصعد مع أصولها في القدم نجد فـي أخبارها ــ بل في أسمائها ــ لونا من ألوان هذه العصبية وهذه الخشونة وهذه العراقة البدوية التي لا يسهل على أبنائها وبناتها أن يتخلقوا بخلق غيرها ٠٠

وتنسب هذه القبيلة الى وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة ، ويقول النسابون : « ان وبرة ولد له كلب وأسد ونمر وذئب وثعلب وفهد وضبع ودب وسيد وسرحان » ثم يزيدون على ذلك بعد الاسلام: « أن من أشراف كلب الفرافصة بن الأحوص بن عمرو بن ثعلبة ، وهو الذي تزوج عثمان بـن عفان ابنته نائلة بنت الفرافصة ، ومنهم زهير بن جناب بن هبل ابن عبد الله بن كنانة ، ومن أسلافهم في الاسلام دحية بن خليفة الكلبي وهو الذي كان جبريل ــ عليه السلام ــ ينزل في صورته ، ومنهم حسان بن مالك بن جذيمة ٠٠ » ٠

ويؤخذ من بعض أخبار الكنيسة الشرقية أن رؤساءهم دانوا بالمسيحية تلبية لدعوة الرسل الأولين في بادية الشام قبل أن تدين بها الدولة البيزنطية ، خلافا لما قد يظن من أنهم دانوا بها مـع الدولة القائمة في بلاد الروم ٠٠

وأيا كان مقطع القول في ذلك فلا مراء في قوة هذه القبيلة وعراقتها واعتزازها بأصولها واعتدادها بأنفتها (٢) وخشونتها

(١) أرومتها : أصلها ٠
(٢) أنفتها : أي كبريائها ٠

كأنها ضرب من الايمان أو أصرة من أواصر الأنساب ، وقد عجزت قصور الملك في دمشق أن تروض أم يزيد على البقاء مع بعلها في القصر المنيف ، فلم يسع معاوية الا أن يرسلها وابنها الى باديتها عسى أن يستفيد من تلك النشأة منعة (١) في الخلق توانيه يوم ينهض بأعباء الدولة التي أعدها له من صباه ٠

فاذا كانت خلائق عثمان هي التي حببت الى زوجته من تلك العشيرة أن تفارق النشأة التي عزت مفارقتها على أترابها (٢) فلن يرد على الخاطر أنها خلائق رجل امعة (٣) ، أو رجل هزيل يذهب به من يذهب ويجيء به من يجيء ، ولا بد لتردده وحيرته حين يقع منه التردد والحيرة أن يثاب بهما الى باعث بعمل عمله في طبائع الأقوياء وغير المستضعفين ولا ينحصر عمله في النفوس التي برئت من القوة وخلصت للضعف والهزال ٠

وقد ولدت له نائلة بنته مريم ، فكان مما يخطر على البال ان هذه التسمية من ايحاء أمها ، ومن بقايا حنينها الى عقيدتها الأولى ، ولكن اسم مريم كان من الاسماء المحببه الى عثمان ، وقد سمى به بنته من ام عمرو بنت جندب ، وهو أشبه أن يكون تحية للزوجة المخلصة من أن يكون متابعة لها فيما لا تعاب المتابعة فيه ٠

تزوج عثمان على التعاقب تسعا من النساء ، ومات عن ثلاث منهن هن : نائلة وفاختة ورملة ، اذا صح أنه طلق ام البنين وهو محصور ٠

وقد ولد له تسعة من الذكور وسبع من الاناث ، ولم يولد له من بنتي رسول الله رقية وأم كلثوم غير عبد الله ابنه من رقية ، عاش الى السادسة ثم نقر عينه ديك فورم وجهه ومات ، وسائر أبنائه من زوجاته الأخريات لم يؤثر عنهم أمر ذو خطر في التاريخ ، وهي حالة من حالات السلالة الأموية لا نجزم بتعليلها على وجه واضح ، فهم على خلاف بني هاشم الذين بقيت فيهم بقايا النجابة (٤) والعزيمة على استمرار القتل في أصولهم وفروعهم ،

---

(١) منعة : أي قوة ٠ (٢) أترابها : لداتها ٠ (٣) الامع والامعة : الرجل الذى لا يثبت على شيء ويتابع كل أحد على رأيه ٠ (٤) النجابة : الكرم ٠

وانما كان بنو أمية في المشرق والمغرب يعقبون كأنما يأتي العقب منهم على قدر الضرورة ، مع أنهم قد اتخذوا الجواري الى جانب زوجاتهم ، وتزوجوا من قريباتهم وغير قريباتهم ، فاذا تسلسل النسب منهم جيلا أو جيلين لم يمض على سؤاله في الجيل الثالث . أو يرزقون الولد ولا يرزقون فيه النجابة والنبوغ ، وربما كان للنسب الدخيل في أصولهم الجاهلية أثر في هذه الحالة المتلاحقة ، وأقرب من ذلك الى التعليل المقبول أن أولئك الأصول في الجاهلية لم يتصونوا في المخادنة (١) والمعاشرة كما شاع عن بعضهم فأصابهم من الآفات الجنسية ما كمن في أعقابهم وتداركوه بالتبني تارة والاستلحاق تارة والتماسك بين ذوي القربى حيث لا موضع للتبني والاستلحاق ..

ونحن نومىء (٢) الى هذه الملاحظة بسبيل الكلام على ذرية عثمان . لأنها ملاحظة شوهدت في تاريخ الأصول الاموية وشوهدت في نسله وعشيرته ، وشوهدت في أعمال خلافته ، فلها محل فيما خص أو عم من سيرته وتاريخه ..

٢ ـ شئون المجتمع

منذ أسلم عثمان الى أن تولى الخلافة تغير المجتمع العربي في نطاق واسع ، وأصبحت الصبغة الاسلامية نوعا من الصبغة العالميه يكاد أن يقرب بين أساليب المعيشة في جميع أمم الحضارة الشرقية والغربية ..

أسلم عثمان والدعوة الاسلامية محصورة في آحاد معدودين يلتمسون النجاة بعقائدهم وأنفسهم وذويهم من مجتمع الى مجتمع ومن بلد الى بلد . وصاحب الاسلام في جهاده وفتوحه حتى عم الجزيرة العربية قبيل وفاة النبي ـ عليه السلام ـ ،وأصبح بذلك دينا عربيا يجمع بين قبائل العرب على اختلاف الأنساب والطبقات ..

ثم صاحب الاسلام في جهاده وفتوحه أيام حروب الردة وفتوح

(١) الخدن : الصاحب . (٢) نومىء : نشير .

العراق وما جاوره من أرض فارس والروم ، ثم صاحبه في جهاده وفتوحه حتى أوشكت هذه الفتوح أن تحيط بالعالم المعمور يوم تسلم زمامه من سلفه العظيم عمر بن الخطاب ..

ولم تمض سنوات من خلافة عثمان حتى أحاط العالم الاسلامي بالعالم المعمور كله الا ما كان منه في أقصى المشرق او أقصى المغرب ، فأصبحت الصبغة الاسلامية كما اسلفنا ، صبغة عالمية تشمل العربي والفارسي والرومي والمصري والبربري ، وتسلكهم كلهم في دوله واحدة لاول مرة في التاريخ ..

وليس الذي طرأ على المجتمع العربي خاصة أنه عرف الترف ولم يكن يعرفه ، او عرف الثروة وكان محروما منها ، فان الترف والوفر قديمان في الجزيرة العربية . وزيادة المقدار لا نحسب من التغير الجوهري في المجتمع ان لم تكن مصحوبة بالتغير في نظرة الانسان الى الحياة ، وهذا الذي غير المجتمع العربي ، وغير المجتمع الاسلامي ، بعد اتساعه وامتداده الى اقصى مداه في خلافة عثمان .

ان الغني المترف من عرب الجاهلية لم يكن يخجل من ترفه . ولم يكن يحسب أنه يختلس به شيئا ليس من حقه . ويستمتع بشيء لا ينبغي لمروءته بل كان يبذخ (١) في ترفه ويفاخر نظراءه ببذخه ، ومن لم يدرك من الترف والبذخ حظا كحظه فهو متطلع له ، حاسد عليه ، ناظر اليه كما ينظر الى آمنية الحياة ، ان فاتته فقد فاته من حياته خير ما يتمناه ..

تغير هذا بعد الاسلام كل التغير ، وأصبح الترف رذيلة مزدراة (٢) كائنا ما كان نصيب المترف من الجاه والثراء ، وأصبح الثراء نعمة دون النعمة الكبرى التي يتطلع اليها المسلم في حياته الجديدة ، فهي وسيلة دون غاية ومتاح في حاجة الى تسويغ ، ثم لا مسوغ للسرف (٣) فيه بأية حال .

وعلى هذا كبر مقدار الثروة التي ينعم بها أصحابها بعد أن تغير النظر الى كثيرها وقليلها ومسوغاتها ومحظوراتها ، فربما

(١) البذخ : الكبر . (٢) مزدراة : أي محتقرة . (٣) أي الاسراف .

بلغت ثروة الرجل الواحد في خلافة عثمان ما يعدل ثروة السادة المترفين جميعا على آخر عهد الجاهلية وما يحسب حتى في زماننا هذا غنى مفرطا عند أغنى الأغنياء ٠

قيل في مصادر متعددة : ان عبد الرحمن بن عوف خلف (١) ذهبا كان يقطع بالفؤوس حتى تمجل (٢) أيدي الرجال ، وترك ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس ، وقسم ميراثه على ستة عشر سهما فبلغ السهم ثمانين ألف درهم،وكان يزرع بالجرف(٣) على عشرين ناضحا (٤) ويتجر فيكسب من التجارة مئات الألوف ٠

وكان كلما اجتمع له من الربح مدخر كثير فرقه على الغزاة ، وتصدق به على الفقراء ٠ قال ابن عباس : « مرض عبد الرحمن ابن عوف فأوصى بثلث ماله فصح فتصدق به ، ثم قال : يا أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، كل من كان من أهل بدر له علي أربعمائة دينار ، فقام عثمان وذهب مع الناس ، فقيل له : يا أبا عمر ! ألست غنيا ؟٠ قال : هذه وصلة من عبد الرحمن لا صدقة ، وهو من مال حلال ، فتصدق عليهم في ذلك اليوم بمائة وخمسين ألف دينار » ٠

وكان كلما اجتمع له عدد من العبيد أعتقهم ووصى لهم بما يكفيهم ٠

ولما مات الزبير بن العوام طلب أبناؤه ميراثه ، فأبى عبد الله أن يقسم بينهم حتى ينادي بالموسم أربع سنين من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه ، لأنه كان يؤتمن على الودائع ممن يترددون على الحجاز للتجارة ، فلما انقضت أربع سنين قسم بينهم ما بقي من ماله خالصا فاذا هو خمسون ألف ألف ومائتا ألف ٠

---

(١) خلف : أي تركه ومات عنه ٠ (٢) المجلة : قشرة رقيقة يجتمع فيها ماء من أثر العمل ٠ (٣) الجرف : الخصب ، وأرض جرفة : مختلفة ، والجرف : المكان الذي لا يأخذه السيل ، والجرف : ما تجرفته السيول وأكلته من الارض٠
(٤) الناضح : البعير يستقى عليه ٠

وكان طلحة يغل (١) بالعراق ما بين أربعمائة ألف الى خمسمائة ألف ، ويغل بالسراة عشرة الاف دينار ، وكان لا يدع أحدا من بني تيم عائلا (٢) الا كفاه مؤونة عياله ، ويزوج أياماهم ويقضي دين غارمهم · وأخرج صاحب الصفوة فيما اخرج من أخباره : أنه باع عثمان أرضا بسبعمائة ألف حملها اليه ، فلما جاء بها قال : ان رجلا تبيت هذه عنده في بيته لا يدري ما يطرقه من أمر الله لغرير بالله ·· فبات ورسله تختلف في سكك المدينة حتى أسحر وما عنده منها درهم ·

وعن سعدى بنت عوف امراته : أنها دخلت عليه يوما فرأته مغموما ، فسألته : ما شأنك ؟ ·· قال المال الذي عندي قد كثر وأكربني ، قالت : وما عليك ؟ ·· اقسمه فقسمه حتى ما بقي منه درهم ، وقال خازنه : كان المال الذي فرقه يومئذ أربعمائة ألف ·· .

ونحن لا نشك في عظم هذه الثروات التي توافرت لهؤلاء النخبة من أجلاء الصحابة شيئا فشيئا من ايام النبي — عليه السلام — الى ما بعد قيام الدولة الاموية ، ولا نجري على عادة المحدثين الذين يتلقون أخبار العصور الماضية جملة واحدة بالشك أو بالنفي من غير بينة ، فان الرفض المطلق كالتسليم المطلق كلاهما من الآليات التي تحكم حكمها بغير تصرف ولا انتقاد ، ومن الجائز أن الناقلين لم يتحروا الدقة في حساب الأرقام بالملايين والألوف والمئات كما نحسبها اليوم . ولكن الذي نعتقده أن مقادير تلك الثروات أكبر وليست أقل مما توحيه تلك الأرقام ، لأنها اجتمعت من أربح التجارات في جميع العصور ، وهي التجارة المتبادلة بين الشرق والغرب من طريق العراق والشام والجزيرة العربية مجتمعات ·

لقد كان الملأ من قريش أغنياء مفرطين في الغنى أيام الجاهلية ، وكان موردهم كله من مواصلات الحجاز بين اليمن والشام ، ولم يكن لهم فوق ذلك سلطان على بقعة وراء الحجاز ، بل كان

---

(١) الغلة : الدخل من كراء دار ، وأجر غلام ، وفائدة أرض ·
(٢) عائلا : فقيرا ·

سلطانهم في الحجاز نفسه عاجزا عن تأمين قوافلهم بغير المساومة بينهم وبين قبائل الطريق ..

فلما استقر الامن في الجزيرة العربية وامتدت الفتـوح الى العراق والشام وفلسطين ومصر ، واطمأنت القوافل على هذه الطرق شرقا وغربا والى الشمال والجنوب ، واتسعت مواصلات التجارة العالمية في تلك البقاع . لم يكن مورد في العالم قط أعظم ولا أربح من هذا المورد الذي تهيا لبيوت التجارة العريقـة في قريش ، ويكفي أن يسلم هذا المورد سنة في كل سنتين أو ثلاث ليغنم منه التاجر الكبير الوف الألوف ، ويأخذ من ربح سنة ما يعوض وقف التجارة سنوات .

ومن المعلوم في العصور الحديثة أن شركة الهند الشرقيـة جمعت الملايين من أرباح تجارة دون هـذه التجـارة في السعـة والضمان ، اذ كانت تؤدي الضرائب والأتاوات (١) في البحـر والبر ، ولا تملك خطوطا من المواصلات كتلك الخطوط التي تمهدت لاصحاب التجارات في الحجاز ، اما أصحاب هذه التجارات فلم تكن عليهم ضريبة مفروضة غير الزكاة ونفقات الحراسة ، وكانت أرباحهم معدنا خالصا أو عملة مقبولة في كل جهة مـن جهات العالم يومذاك ، دون أن تتعرض لتقلب المضاربـات في الأسواق بين أقصى المشرق في الهند وأقصى المغرب على الشواطيء الأطلسية .

فاذا قام على هذه التجارة العالمية عشرون بيتا أو ثلاثون بيتا من بيوت التجارة العريقة في مكة والمدينة فليس من المبالغة أن يقال عنها : أنها كانت تملك الملايين وتعمل الفؤوس في حطام(٢) الذهب والفضة ، فربما كانت المبالغة هنا الى القلة لا الى التزيد في التقدير .

ويهمنا أن نلتفت الى مصدر الثروات من التجارة تصحيحـا لوهم الواهمين أنها قد اجتمعت كلها من غنائم القتال ، فان عطاء المقاتلين لم يكن يتفاوت هذا التفاوت في الأنصبة بين أكبر عطاء وأصغر عطاء ، ولم يكن في وسع طلحة ولا الزبير ولا عبد الرحمن

(١) جمع اتاوة ، والاتاوة : الخراج . (٢) الحطام : ما تكسر من اليبيس.

ابن عوف أن يجمعوا من أنفال (١) القتال ثروة تزيد على نصيب الأجناد بمثل ذلك الفارق الكبير ٠

وليس هذا كل ما يهم من تحقيق مصدر الثروة أو من الرجوع بأكثره الى التجارة دون غنائم القتال ، اذ المهم في الواقع أن المجتمع الذي تدور ثروته على الأعمال التجارية غير المجتمع الذي تدور ثروته على أعطية الجند من غنائم القتال دون سواها ، فهما مجتمعان متغايران في آداب المعاملة ، وفي موازين الأخلاق ، وفي النظر الى متع الحياة ، واذا التقيا معا في أقل من عمر الرجل الواحد فلا قرار ولا تفاهم بين موازين التجارة وموازين الجهاد الى حين ٠٠

قال محمد بن سيرين : « كثر المال في زمن عثمان فبيعت جارية بوزنها ، وفرس بمائة ألف درهم ، ونخلة بألف درهم » ٠

وهذا الذي كان يقال عنه في الزمن الماضي : انه وفرة الخير ودرة الرزق ٠٠ وهذا الذي نقول عنه اليوم : انه آفة « التضخم » في النقد مع فارق بعيد بين أحوال عصرنا وأحوال العصور الماضية : ذلك هو الفارق بين عملة الورق وعملة الذهب والفضة، فاذا رخص الذهب والفضة كما حدث في ذلك العصر فقد رخص المال في جوهره ولم تكن ثمة (٢) غرابة في كتل الذهب التي تقسمها فؤوس العبيد ، ولا حيلة في مثل تلك الحالة لمن يعيش على مورد محدود ولا يقتني من الذهب والفضة ما يكفيه من الكفاف ، وليست كذلك أزمة التضخم من عملة الورق وما جرى مجراها ، اذ يقل الشراء لقلة ما يشترى من المتاع المطلوب ، وبعضها يطلب ولا يوجد عند طلبه في الأسواق ٠٠

هذه الأزمة بلغت غايتها في خلافة عثمان ، ولكنها بدأت بعد الهجرة الى المدينة واستئناف مسير القوافل الى رحلتي الصيف والشتاء ببضع سنوات ٠

والاسلام لا يمنع التجارة ولا ينكر الثروة ، ولكنه يمنع الترف ، وينكر كنز الذهب والفضة ، ويأمر بانفاق المال في المنافع والمرافق كما جاء في القرآن الكريم : « كي لا يكون دولة بين

---

(١) أنفال : مغانم ٠ (٢) ثمة : أي هناك ٠

الأغنياء منكم (١) » ويتقي أشد التقية أن يترف أناس ويعدم أناس آخرون ..

ولم يصعب على المجتمع الاسلامي تدبير مشكلة الثروات الكبيرة في السنوات الأولى من الدعوة ، أو على الأصح أن الثروات الكبيرة لم تكن مشكلة من مشكلات المجتمع في تلك السنوات ، سواء من جانب الأغنياء أو جانب الفقراء . فان أصحاب تلك الثروات كانوا يتعوذون منها ، ويشفقون من فتنتها ، ويسارعون الى تفريقها على مستحقيها من الغزاة والمجاهدين وعلى المحرومين والمعوزين (٢) ، وكان تخصيص الغزاة بالصلات التي تأتيهم من فيض (٣) تلك الثروات تشريفا لهم يتنافسون عليه ولا يأنفون منه ، بل كان منهم من يأبى أن تفوته هبة يراد بها أهل بدر أو غيرهم من أصحاب المغازي والسرايا ، كأنه يرى في ذلك انكارا لصفته وكرامته وسابقته في جهاده ، وقد تقدم أن عثمان ذهب مع الناس الى عبد الرحمن بن عوف ليأخذ حصته من العطاء الذي نذر تفريقه على البدريين(٤)، وموقف عثمان هنا خاصة ـ ونحن بصدد ترجمته ـ يصور لنا شعور الغني والفقير يومئذ بشرف العطاء الذي يخص به البدريون ومن حذا حذوهم في غزوات الجهاد . فقد كان عثمان ـ رضي الله عنه ـ يفرق أضعاف ما أخذه من عبد الرحمن بن عوف ، ولكنه أشفق أن يدخل البدريون في حساب ولا يكون هو مثلهم من الداخلين فيه . وبخاصة حين عيره بعضهم أنه تخلف عن غزوة بدر ، ودفع عنه هذا التعيير بما اعتذر به من اذن النبي له بالتخلف ومن حسبان سهمه في الغنيمة وهو غائب . فمثل هذا الشعور الذي يشمل الواصل والموصول من الغزاة والمجاهدين لا يجعل الثروة الكبيرة مشكلة يضيق بها المجتمع بين أغنيائه وفقرائه ، اذ هي ودائع عند الأغنياء يحرصون على تفريقها ، ولا يحرصون على اكتنازها واستبقائها . ثم هم لا حاجة لهم الا اكتنازها واستبقائها لأنهم كانوا يعافون الترف . ويعرضون

---

(١) من الآية : ٧ من سورة الحشر . (٢) المعوزين المحتاجين . (٣) أي زيادة . (٤) أي من حضروا غزوة بدر .

عنه اعراضهم عن وصمات (١) الخلق التي لا تجمل بالرجل في دينه ولا في دنياه ، وكان أحدهم يشكو الحكة ، فلا يسمح لنفسه بلبس الحرير ، وهو قادر عليه الا أن يستأذن في ذلك رسول الله ، فيأذن له على سبيل الفتيا ، لا على سبيل التسلط من الرسول في لباس المسلم وطعامه ، فما كان هذا التسلط مما يفرضه الرسول لنفسه ، أو يفرضه المسلمون للرسول في غير ما يتولاه من التبليغ والتشريع ، وقد كان الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف ممن أذن لهم الرسول بلبس قميص من الحرير في بعض الغزوات ضرورة لا ترفا ولا سرفا ، والمقام غير مقام الترف والسرف في شكة (٢) الجهاد ٠٠

وابتدأت الخلافة الأولى على عهد الصديق ومشكلة الثروات الكبيرة مكبوحة الجماح مملوكة الزمام ، ثم أحس الخليفة الأول بزمامها يضطرب في يديه بعد اتساع التجارة وامتداد الفتوح ، فاتخذ الحيطة لفتنتها واستبقى عنده كبار الصحابة ليجمع بين معونتهم له في الرأي والعمل ، وبين تجنيبهم الفتنة ومآزق (٣) الولاية ، وكان يتذمر (٤) من ترخص بعض الصحابة في أمور تؤذن بما بعدها ، فقال لعبد الرحمن بن عوف وهو على سرير الموت : « ما لقيت منكم أيها المهاجرون أشد من وجعي ، اني وليت أمركم خيركم في نفسي ، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر دونه ، ورأيتم الدنيا قد أقبلت ولما تقبل ، وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد (٥) الديباج (٦) وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذربي — أي المنسوب الى أذربيجان — كما يألم أحدكم اذا نام على حسك السعدان » ٠

ثم قال يعظه ويحذره : « والذي نفسي بيده لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه خير له من أن يخوض غمرات الدنيا ، ثم أنتم غدا أول ضال بالناس يمينا وشمالا ٠ لا تضيعوهم عن الطريق ٠ يا هادي الطريق جرت ! » ٠

---

(١) الوصم : العيب والعار ٠ (٢) الشكة : الحلة ٠ (٣) جمع مأزق ، والمأزق : المضيق ٠ (٤) تذمر : لام نفسه على فائت ، أو تغضب ، وتذمر عليه : تنكر له وأوعده ٠ (٥) أي وسائد ٠ (٦) الدبج : النقش ، والمدبج : المزين بالنقش ٠

ولم يكن عمر بحاجة الى التحذير من عواقب انطلاق الصحابة في الأقطار ، بل ربما كان يحذرها حيث لم يحذرها صاحبه ، ولكن الصديق ــ رضوان الله عليه ــ لم ينس تحذيره في موقف الأمانة ، فقال له وهو يجود بنفسه : « واحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذين انتفخت أجوافهم ، وطمحت أبصارهم ، وأحب كل امرىء منهم لنفسه وان منهم لحيرة عند زلة واحد منهم ، فاياك أن تكونه ، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله ٠٠ » ٠

كلمات لا تدري كيف تحيط بما فيها من فهم لكل شيء في ابانه (١) وقبل موقعه : فهم لطبائع الناس ، وفهم للخطر كيف يأتي ومن أين يبدأ ، زلة واحد تتبعها حيرة من الكثيرين ، وماذا يصد ذلك الخطر من الزلة ومن الحيرة ؟٠٠ تصده القدوة بولي الأمر ، فلن يزالوا خائفين منه ما خاف الله ٠

وهكذا قد كان ٠٠

على أن المشكلة ظلت في قبضة الزمام على عهد عمر ، بين قوة الخليفة وتورع الأجلاء من الصحابة ، وشواغل الجهاد والفتح قبل استفحال قضاياه ونقائضه ، وما برح الصحابة الكبار يتورعون من الشغلان بالثروة الى ما بعد أيامه ، فكان أقدرهم على التجارة وتثمير المال عبد الرحمن بن عوف يخجل أن يراه أحد منصرفا الى شؤون متاجره ومزارعه ، وحدث ابنه ابراهيم عنه فقال : « ان رجلا زار المدينة ليلقى أصحاب رسول الله ، فلقيهم جميعا الا عبد الرحمن بن عوف ، وسأل عنه فقيل له : انه في أرضه بالجرف (٢) ، فلما جاءه ألفاه (٣) واضعا رداءه وبيده مسحاة يحول بها الماء ، فاستحى عبد الرحمن ، وأخذ رداءه وألقى المسحاة » ٠

قال ابراهيم : « فسلم الرجل ثم قال : جئتك لأمر ثم رأيت أعجب منه ٠٠ هل جاءكم الا ما جاءنا وهل علمتم الا ما علمنا ؟٠٠ قال عبد الرحمن : ما جاءنا الا ما جاءكم وما علمنا الا ما علمتم ٠

---

(١) ابانه : أي وقته ٠ (٢) منطقة زراعية في ناحية من المدينة ٠
(٣) ألفاه : وجده ٠

فقال الرجل : فمالنا نزهد في الدنيا ، وترغبون فيها ، ونخف الى الجهاد ، وتتثاقلون عنه ، وأنتم خيارنا وسلفنا وأصحاب نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ •• فعاد عبد الرحمن يقول : انه لم يأتنا الا ما جاءكم ولم نعلم الا ما قد علمتم ، ولكنا ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر » •

وقد دعا الأمر بعد قيام الفاروق بالخلافة الى مضاعفة الحيطة (١) في كل تدبير لجأ اليه الصديق على اتفاق مع صاحبه لاتقاء الفتنة ومصاحبة التغير الطارىء بالسياسة التي تلائمه ، وجعل يشتد في حيطته كلما تباعدت المسافة بين المجتمع الاسلامي في أوائل عهد الدعوة وبين هذا المجتمع بعد افتتاح العراق وأقاليم فارس الغربية والشام ومصر الى حدود افريقية الشمالية والسودان ••

فمن سياسته في ذلك :أنه ثابر (٢)على استبقاء كبار الصحابة الى جواره في المدينة ، وكان منهم من يسأله الخروج للغزو والجهاد فيثنيه(٣)عن ذلك ويلقي في روعه(٤)معذرته المشهورة : « ان له في غزوه مع رسول الله ما يكفيه ويبلغه •• وهو خير له من الغزو اليوم » ثم يقول له : « خير لك ألا ترى الدنيا ولا تراك » •

وانتهج في محاسبة الولاة خطة حاسمة لا هوادة (٥) فيها مع أحد ممن أحسن أو أساء ،فراقبهم جميعا أشد مراقبة واتخذ موسم الحج موعدا لمراجعتهم وسماع أخبار الرعية عنهم ، ومنهم من كان يعزله ويستدعيه اليه لغير جريرة (٦) يؤخذ بها الا أنه لا يريد ـ كما قال غير مرة ـ أن يحمل فضل عقله على الناس ، وأنه يخشى أن يفتتن الناس به ان لم يفتتن هو بالناس مع فتنة السلطان وفتنة النجاح ••

وحظر على المقاتلين أن يملكوا الأرض والعقار ، وكان له كما قلنا في عبقرية عمر . « نظام اقتصادي يوافق مصلحة الدولة في عهده ، فكان يحض (٧) على التجارة ، ويوصي القرشيين ألا

---

(١) أي الحذر • (٢) المثابرة على الامر المواظبة عليه • (٣) أي يرده ويمنعه • (٤) روعه : أي قلبه وعقله وخلده (٥) الهوادة : اللين • (٦) جريرة: ذنب أو جناية • (٧) أي يحث •

يغلبهم أحد عليها لأنها ثلث الملك ، ولكنه أبقى الأرض لابنائها في البلاد المفتوحة ، ونهى المسلمين أن يملكوها على أن يكون لكل منهم عطاؤه من بيت المال كعطاء الجند في الجيش القائم . واذا أسلم أحد الذميين أخذت منه أرضه ووزعت بين أهل بلده وفرض له العطاء ، وكان غرضه من ذلك أن تبقى لأهل البلاد موارد ثرواتهم ، وأن يعتصم الجند الاسلامي من فتن النزاع على الأرض والعقار ، ومن فتن الدعة (١) والاشتغال بالثراء والحطام ، وربما أغضى عن كثير في سبيل الاعانة على تعمير البلاد بأهلها . فصفح عن أهل السواد ـ العراق ـ ليأمنوا البقاء فيه .. مع أنهم حنثوا بالعهد وعاونوا الفرس على المسلمين في أثناء القتال ، ويلوح من كلامه في أخريات أيامه أنه كان على نية النظر في تصحيح النظام الاقتصادي وعلاج مشكلة الفقر والغنى على نحو غير الذي وجدها عليه . فقال : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء» ولم يرد في كلامه تفصيل لهذه النية . ولكن الذي نعلمه من آرائه في هذا الصدد كاف لاستخلاص ما كان ينويه . فعمر على حبه للمساواة بين الناس كان يفرق أبدا بين المساواة في الآداب النفسية والمساواة في السنن الاجتماعية ، فكتب الى أبي موسى الأشعري : بلغني أنك تأذن للناس جما (٢) غفيرا . فاذا جاءك كتابي هذا فأذن لأهل الشرف وأهل القرآن والتقوى والدين فاذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامة .. ولكنه لما رأى الخدام وقوفا لا يأكلون مع سادتهم في مكة غضب وقال لسادتهم مؤنبا : ما لقوم يستأثرون على خدامهم ؟ ثم دعا بالخدام فأكلوا مع السادة في جفان (٣) واحدة ..

« فالمساواة في أدب النفس لم تكن عند عمر مما ينفي التفاضل بالدرجات ، ولم يكن يرضيه كذلك أن يعتمد الفقراء على الصدقات والعطايا ويعرضوا عن العمل واتخاذ المهنة ، فكان يقول لهم في خطبه : « يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم ! .. فقد

(١) أي خفض العيش . (٢) أي لا تفرق بين شريفهم ووضيعهم
(٣) جمع جفنة ، والجفنة : هي القصعة

وضح الطريق فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالا على المسلمين » • وكان يوصي الفقراء والأغنياء معا أن يتعلموا المهنة ، فانه يوشك أن يحتاج أحدهم الى مهنة وان كان من الأغنياء •• فيسوغ لنا أن نفهم من هذا جميعه معنى ما انتواه من أخذ فضول (١) الغني وتقسيمها في وجوه البر والصلاح •• على أن عمر يصح أن يسمى مؤسسا لديوان الوقف الخيري على الوجه الذي نعهده الآن • فقد أنشأ بيت الدقيق لاغاثة الفقراء الذين لا يجدون الطعام ، وأصاب (٢) قبل خلافته أرضا بخيبر ، فاستشار النبي ـ عليه السلام ـ فيها فاستحسن له أن يحبس أصلها ويتصدق بريعها ، فجعلها عمر لا تباع ولا توهب ولا تورث ، وينفق منها على الفقراء والغزاة وغيرهم ، ولا جناح على من وليها أن يأكل بالمعروف ويطعم صديقا فقيرا منها » ••

وكان عمر يستقصي عادات المسلمين في معيشتهم حيث تفرقوا من بقاع الدولة الاسلامية ، فسأل من عنده من أجلاء الصحابة : ان الناس قد دنوا من الريف فما ترون في حد الخمر؟ وكان ممن سألهم عبد الرحمن بن عوف فقال : نرى أن نجعله كأخف الحدود ، فجلد فيه ثمانين •

ثم انتهت خلافة عمر والمجتمع الاسلامي مجتمعان ! •• أحدهما ماض ولما يمض بأجمعه ، والآخر مقبل ولما يقبل بأجمعه ، وأوشك عمر على قوته أن يحار في تدبيره ، وقال الشعبي كما تقدم : أنه قضى وقد أوشكت قريش أن تمهله لشدته ووقوفه لها بحيث وقف حائلا بينها وبين نزعاتها ومطامحها في دنياها الجديدة ، بين ماض ينصرم ، وحاضر يتقلب ويكاد أن ينهزم ، ولكن الثقة به لم تضعف مع طوالع المجتمع الجديد بل زادته هذه الطوالع المتقلبة تمكينا على تمكين ، وجعلت من يخالفه يخجل من مخالفته ، لمكان تلك الثقة القوية ولاستطاعة النفوس أن تغالب محن (٣) الحوادث ولا تستسلم لغوايتها ، ولعلنا لا نجد لهذه المغالبة مثلا يبرزها كما يبرزها مثل عبد الرحمن بن

---

(١) أي ما يزيد عن الحاجة • (٢) أي تملكها • (٣) جمع محنة ، والمحنة : هي البلية •

عوف الذي بلغ غاية النجاح في المجتمع الجديد وكان قطبا من أعظم الأقطاب في مجتمع الدعوة والخلافة الأولى ، فانه شهد بدرا والمشاهد كلها ، وكتبت له حصة وافية من أنفال الغزوات وغنائمها ، وفاضت ثروته من التجارة والزراعة حتى فرقها مرة بعد مرة ، وعاش الى أيام عثمان وكان صاحب القول الفصل في اختياره للخلافة لأنه ارتضى أن يخلع نفسه منها ليكون له الرأي فيمن يختار من المرشحين لها ، فهو بحق مثل نادر للمغالبة النفسية بين ما استقبل واستدبر من حياته على عهد النبي — صلوات الله عليه — وعهد عمر وعهد عثمان ، وقد كان كما أخرجه البخاري يقول كلما رأى وفرة (١) المال عنده: «··خشينا أن تكون حسناتنا قد عجلت لنا» ·· وكان يصوم ثم يؤتى له بالطعام فيقول : « قتل مصعب بن عمير وهو خير مني ، فكفن في بردة ان غطي رأسه بدت رجلاه . وان غطيت رجلاه بدا رأسه . وقتل حمزة وهو خير مني ، فلم يوجد له ما يكفن فيه الا برده ، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط · وقد خشينا أن تكون حسناتنا قد عجلت لنا» ··

فهذه المغالبة لمحنة المجتمع الجديد ، وتلك الثقة بالفاروق ، وتلك القوة فيه ، قد حفظت زمام الدولة في قبضة وليها ، ولم تذهب بالمخالفة له الى مدى أبعد مما سماه الشعبي بالملل وأحسن في وصفه . فلو لم تكن هنالك ثقة مكينة لجاوز الأمر الملل الى السخط والتمرد . وألفى هنالك من يتمرد ليمضي مع الماضي ومن يتمرد ليقبل مع المستقبل . ولكنها حالة لم تدم طويلا بعد خلافة الفاروق · اذ كان في الناس من يغضب باطلا ولا يخجل من غضبه بالباطل ، وكان منهم من يغضب حقا وليس هو على يقين ان ولاة الأمر أحق منه وأجدر بالفضل والطاعة ، وكان منهم من يحار بين الفريقين ولا يدري كيف يهتدي في حيرته الى صواب ·

---

(١) الوفرة : الكثرة ·

الفصل الرابع

المبايعة

اذا لخصت سنة (١) الصديق أو سنة الفاروق في تولية العهد بعدهما ، كانت خلاصتها : أنها ابراء للذمة أمام الله ، درءا (٢) للخلاف ، وحرصا على الوحدة الاسلامية ٠٠

ولا بد من استحضار هذه الحقيقة لمنع كل شبهة ، وتأويل كل قصد ، ودفع كل فرية (٣) عند تعليل الطريقة التي اختارها كلاهما لتحقيق هذه البغية واختلفا فيها ظاهرا ، ولا اختلاف بينهما باطنا فيما قصدا اليه ٠

فلا تدبير هناك ولا احتيال لغاية يرميان اليها غير تلك المصلحة أو تلك الوحدة ٠ ومن ظن أن الصديق قد اختار عمر ليقصي عن الخلافة غيره ، أو ظن أن عمر قد اختار جماعة الشورى ليرجح الكفة في جانب واحد منهم على سواه ، فهو ينكر عليهما الاسلام ، ولا ينكر عليهما حسن النية أو حسن التدبير وحسب ، فان أحدا يؤمن بأنه محاسب على نيته وعمله اذ يودع الدنيا ويستقبل الآخرة ، لن يحتال ، ولن يدبر لهواه ، وهو يعلم أنه يغضب الله بما يفعل ، ولو كان لأحدهما هوى في أحد لاختار أبو بكر من بني تيم ، واختار عمر من بني عدي أو بني الخطاب ، وما كان ينبغي لهما الهوى وهما في سطوة (٤) الدنيا وجاه الولاية ، فكيف ينبغي لهما وهما مقبلان على الموت مؤمنان بحساب لا شك فيه ؟

لم يكن هناك نظامان دستوريان كما وهم بعض المحدثين الذين أرادوا أن يعينوا بلغة الدساتير العصرية نظاما لتولية العهد في سابقة الصديق أو سابقة الفاروق ، وانما هما نظام واحد يتبعه كلاهما في موضع صاحبه ، فما نحسب أن أبا بكر كان مسميا أحدا بعينه لو كان في موضع عمر ، وما نحسب أن عمر كان محجما (٥) عن التسمية لو كان في موضع أبي بكر ، وليس البحث

---

(١) سنة : أي طريقة ٠ (٢) درءا : أي دفعا ٠ (٣) افترى الشيء اختلقه ٠ (٤) سطوة : هنا بمعنى صولة ٠ (٥) محجما : أي ناكصا ٠

عندهما ، أي أولياء العهد أفضل وأحب أليهما ؟ ولكنما البحث الذي يعنيهما ويشغلهما : أيهم أحب الى المسلمين وآقمن (١) أن يجمعهم على بيعة واحدة وكلمة متفقة ، ولا يعقل أن أحدا منهما كان يعلم في طويته أن ثمة (٢) وسيلة غير الوسيلة التي اختارها لتحقيق الوحدة المنشودة ثم يعدل عنها ، ليأثم في حق ربه وحق دينه وحق رسوله وحق المسلمين كافة ، تبرعا منه بالاثم حيث لا حاجة ولا مصلحة ولا فرصة بعدها للندم والتوبة •

حضرت الوفاة أبا بكر ، فسأل نفرا من نخبة الصحابة عمن يتولى أمور المسلمين بعده ، فذكروا عمر ، وأشار بعضهم الى شدته ، فقال لهم : انه كان يشتد لأنه يراني رقيقا ، فاذا وكل (٣) اليه الامر فلا خوف من شدته • وروى محمد بن سعد : أن جماعة من الصحابة دخلوا عليه لما عزم على استخلاف عمر ، فقال له قائلون منهم : « ما أنت قائل لربك اذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته ؟ » • فقال أبو بكر : « اجلسوني » • ثم جلس فقال : « ابالله تخوفونني ؟ •• خاب من تزود من امركم بظلم ، أقول : انني قد استخلفت عليهم خير أهلك •• أبلغوا عني ما قلت لكم من وراءكم » ••

ثم اضطجع وجاء عثمان بن عفان فجعل يملي عليه : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم • هذا ما عهد أبو بكر في آخر عهده بالدنيا خارجا منها ، وعند اول عهده بالآخرة داخلا فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب ، اني استخلفت بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا ، فاني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي واياكم خيرا ، فان عدل فذاك الظن به وعلمي فيه . وان يدل فلكل امرىء ما اكتسب ، والخير آردت ولا علم لي بالغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » ••

وكان يملي وتدركه غشية (٤) . فلما قال : « استخلفت بعدي » ولم يذكر اسما أتم عثمان وصيته باسم عمر بن الخطاب • ثم

---

(١) أقمن : أي أجدر • (٢) أي هناك • (٣) وكل : أي أسند • (٤) أي يغمى عليه •

أفاق أبو بكر فسأله : ماذا كتبت ؟ فأعاد عليه العبارة كما زادها، فدعا له وبارك عليه ، وقال له : « هكذا الظن بك ، لو كتبت اسمك لكنت لها أهلا » .

والقوم في معرض المحاسبة لأنفسهم أمام الأمانة العظمى لا يصطنعون زخارف المجاملات التي يتلهى بها طلاب الظرف ورواد الاندية في زماننا هذا وقبل زماننا ، فما كان عمر ليتنحى عن الأمانة وقد اختير لها وهو يعلم أنه أقدر عليها .. فانه محاسب على انكاره حقه كما يحاسب على انكار حق غيره اذا اجتمعت له صفة الولاية دونه . فكان يتولى الخلافة وهو يقول : « لو علمت ان أحدا أقوى على هذا الأمر مني ، لكان أن أقدم ، فتضرب عنقي ، أحب الي من أن آليه » ..

ثم حضرته الوفاة فلم يعهد في بادىء الأمر لاحد ، ونقل اليه حديث الناس اذ يقولون : « انه غير مستخلف ، ولو كان له راعي ابل أو راعي غنم ثم ترك رعيته كان قد فرط في أمانته . فماذا يقول لله عز وجل اذا لقيه ولم يستخلف على عباده ؟ » فأصابته كآبة ثم نكس (١) رأسه طويلا ثم رفعها وقال : « ان الله تعالى حافظ الدين ، وأي ذلك افعل فقد سن لي . ان لم استخلف فان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يستخلف ، وان استخلف فقد استخلف أبو بكر » ..

وعاودوه في هذا الحديث فجعل يسأل كأنما يسأل نفسه : « من استخلف ؟ » . وروى عمر بن ميمون الأودي أنه قال بعد ذلك : لو كان أبو عبيدة حيا لاستخلفته وقلت لربي ان سألني : سمعت نبيك يقول : انه أمين هذه الأمة ، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا استخلفته وقلت لربي ان سألني : سمعت نبيك يقول : ان سالما شديد الحب لله تعالى » .. فقال له المغيرة بن شعبة : « أدلك عليه . عبد الله بن عمر » . فنهره (٢) قائلا : « قاتلك الله ! والله ما أردت الله بهذا . ويحك ! كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته ؟ لا أرب (٣) لنا في أموركم ، فما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي . ان كان خيرا فقد أصبنا منه ،

(١) أي خفض . (٢) نهره : زجره . (٣) أي لا حاجة

وان كان شرا فقد صرف عنا • بحسب (١) آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل عن أمر أمة محمد • أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي ، فان نجوت كفافا لا وزر ولا أجر اني لسعيد •• » •

ثم قال : « انظر ، فان استخلف فقد استخلف من هو خير مني ، وان أترك فقد ترك من هو خير مني ، ولن يضيع الله دينه » ••

وراجع نفسه وروجع في الاستخلاف مرة بعد مرة فقال : « ما أردت ان اتحملها حيّا وميتا • عليكم هؤلاء الرهط (٢) الذين قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ انهم من أهل الجنة ، وهم : علي ، وعثمان ، وعبد الرحمن ، وسعد ، والزبير ، وطلحة • فليختاروا منهم رجلا ، فاذا ولوا منهم واليا فأحسنوا مؤازرته (٣) وأعينوه » •

ثم دعا بهم فحضروا الا طلحة كان غائبا ، فقال لهم : « اني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا الأمر الا فيكم ، وقد قبض رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو عنكم راض • واني لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم ، ولكني أخافكم فيما بينكم فيختلف الناس » •

ووضع رأسه وقد نزفه الدم ، فتناجوا بينهم حتى ارتفعت أصواتهم ، وقال عبد الله بن عمر : « سبحان الله ! ان أمير المؤمنين لم يمت بعد ! » فسمعه فانتبه ، وقال : « اعرضوا عن هذا ، فاذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ، وليصل بالناس صهيب ، ولا يأت اليوم الرابع الا وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبد الله بن عمر مشيرا ولا شيء له من الأمر ، وطلحة شريككم في الأمر ، فان قدم في الايام الثلاثة فأحضروه أمركم ، وان مضت الأيام الثلاثة فامضوا » ••

والتفت سائلا : « ومن لي بطلحة ! » قال سعد بن أبي وقاص: « أنا لك به ولا يخالف ان شاء الله تعالى » •

---

(١) بحسبهم : يكفيهم • (٢) أي الجماعة • (٣) أي مناصرته ومساندته •

وقال لأبي طلحة الأنصاري : « يا أبا طلحة ، ان الله طالما أعز بكم الاسلام ، فاختر خمسين رجلا من الانصار ، فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم » ، وقال لصهيب : « صل بالناس ثلاثة أيام ، وادخل هؤلاء الرهط بيتا وقم على رؤوسهم ، فان اجتمع خمسة وأبى واحد فاشدخ (١) رأسه بالسيف ، وان اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما ، وان رضي ثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر ، فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع فيه الناس » ..

على هذا الوجه أبرأ عمر ذمته من قضية الاستخلاف ..

وعلى هذا الوجه نرى عقل رجل من أولئك الرجال الأفذاذ يعمل في تفصيلات هذه القضية التي واجهته بجميع عقدها ومخاطرها لأول مرة في حياته ، وهو يفارق تلك الحياة : يقلبها على جميع الوجوه ، ويفرض لها جميع النتائج ، ويطرق أبوابها فيفتح منها ما ينبغي أن يفتح ، ويغلق منها ما ينبغي أن يغلق ، ويلاقي من جانب ما يخشاه من جانب ، ويختار الرجال ثم يختار الخطط على كل احتمال من احسان أو اساءة ، ومن وفاق أو شقاق ، ويفعل ذلك في غمرات الموت (٢) بين صرعات الألم من جراحه القاتلة ، ويعالج به أمرا لم يعالج من قبل على هذا المثال أو على مثال غيره ، وكأنما هو من خبراء الاختصاص في دساتير الحكم درسها وتلقى دروسها من أساتذتها الذين سبقوه الى تقريره وتدوين وقائعها ومواقعها ، وجلس ليوازن ويقابل ، ويطابق ويوافق ، ومن حوله الأعوان ، يلبون ما يطلب ، ويستدركون ما يفوت ، وينتهون في سعة من الوقت الى قرارهم وهم وادعون (٣) آمنون أن يصيبهم مكروه من مغبة (٤) ما قرروه .

ولو كان تفكيره لعذر يتكلم به ، أو لحجة يسكن اليها ، لقد كان حسبه أن يبرىء ذمته بالطمأنينة الى الدين في حراسة الله ،

---

(١) فاشدخ : أي اكسر . (٢) غمرات الموت : شدائده . (٣) الوديع والوادع : بمعنى الساكن . (٤) مغبة : عاقبة .

أو كان حسبه أن يبرىء ذمته بما جرى عليه الأمر في عهد رسول الله ، ولكنه لا يلتمس عذرا يقال وحسب ، أو حجة تقنع وكفى ، بل يسأل نفسه ويحاسبها على اختلاف الأمور بين عهد وعهد وتباين (١) الأعذار من حال الى حال ، فلا يدع من جوانب القضية شبهة يوردها من يحاسبه الا أوردها لنفسه ، كأنما هو حامل الميزان ..

فمن سأل عن معجزات العقائد في كواكب السماء ، أو أطواد (٢) الارض فهذه معجزة المعجزات التي تأتي بها العقيدة في نفس الانسان : تخرجه من جوف الصحراء دفوا لأعضل المعضلات بخلقه ، وكفؤا لها بعقله ، وكفؤا لها بعمله ، ونمطا من الشعور بالتبعات لا يجارى (٣) ، ونمطا من القدرة على النهوض بها يطول الزمن بأبناء الحضارات قبل أن يبلغوه وقبل أن يعرفوه ..

ومن آيات (٤) بعد النظر في سبر آغوار (٥) الرجال ،أنه جعل للترجيح بين أصحاب الشورى رجلين : هما عبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن عوف ، فأما عبد الله بن عمر ، فهو الذي نحاه (٦) عن المشاركة في الخلافة . وأعده للترجيح بين المختلفين ، وليس له من الآمر شيء ، وأما عبد الرحمن بن عوف فلم يلبث أن نحى نفسه ليقبل حكمه . فكان بحق أصلح المتشاورين لترجيح احدى الكفتين ..

ومن آيات بعد النظر في الاختيار وسبر الأغوار أنه أقام أبا طلحة الأنصاري على راس خمسين ممن يختارهم لقمع (٧) الفتنة في مهدها اذا اختلف المتشاورون ، فكان أبو طلحة عند ظنه حزما وتقية . قال للقوم وقد تنازعوا الرأي : « لقد حسبتكم تتدافعونها ولا تتنافسونها » . ثم أقسم لا يمهلنهم لحظة بعد الأيام الثلاثة ، ثم هو صانع بهم ما أمر به أمير المؤمنين ..

---

(١) تباين : اختلاف . (٢) جمع طود ، والطود : الجبل . (٣) لا يجارى : لا يبارى ولا يضارع . (٤) أي دلائل . (٥) سبر أغوارهم : اختبار نفوسهم وطواياهم . (٦) نحاه : صرفه وأبعده . (٧) قمع الفتنة : قهرها واخمادها .

ومن آيات بعد النظر في الاختيار ، أن اختار صهيبا للصلاة بالناس ، فهو الامام الذي لا تخشى له دعوة من تقديسه للصلاة ، ولا يأبى الناس أن يأتموا به وقد أمهم قبل ذاك ..

ومن آيات بعد النظر في الاختيار وسبر الأغوار أنه اختار طلحة مع الستة وهو غائب عن المدينة .. أو ما كان في الخمسة المقيمين بالمدينة غنى وكفاية ؟.. أو ما كان لطلحة بديل من سائر الصحابة المقيمين ؟.. جواب ذلك عند التاريخ في نهاية عهد عثمان ، وعند التاريخ في بداية عهد علي ، وعند عمر قبل ذلك باثنتي عشرة سنة .

وآية الآيات دستوره في اختيار الستة دون سائر الصحابة من الأنصار والمهاجرين ..

أتراه اختارهم جزافا كما شاء ؟.. ذلك دستور لا يلزم الناس جميعا ولا حجة له عليهم فيه اذا سألوه عن فضل المختارين على غير المختارين ؟..

أتراه اختارهم من قبائل قريش ليكون كل منهم نائبا عن قبيل منها ، أو متكلما باسم بيت من بيوتات الرئاسة فيها ؟.. تلك هي العصبية يحييها في أسوأ أوان لاحيائها ، حيث تراد الوحدة والغيرة على العقيدة ، ولا تراد العصبيات الجاهلية ، أو لا يراد الاعتراف بها اذا تيقظت على غير ارادة .

أتراه اختارهم من البدريين وذوي السوابق في الجهاد ؟.. لقد كان من هؤلاء عند وفاة عمر نفر غير قليل ، لو جمعهم كلهم لكثروا ، ولو فاضل بينهم لما وضحت لهم أسباب المناضلة ، ومنهم من هو ذو فضل وليس بذي رئاسة تتبع ، ومنهم من ذوي الفضل والرئاسة من لو اجتمعوا لاختل ميزان الترجيح وبطل معنى الاختيار ..

فلا بد من اختيار ، ولا بد من دستور يثاب (١) اليه في الاختيار ، وكان الدستور الذي ثاب اليه عمر حيث يعجل المرء عن الروية غاية في الروية والدقة في الموازنة بين جميع الوجوه :

كان دستوره أن أصحاب الشورى هم الذين ذكروا بأسمائهم

---

(١) يثاب : أي يرجع

في خطبة النبي ـ عليه السلام ـ بعد حجة الوداع ، وهم الذين يتفق الناس على الاختيار منهم ، أصحاب الشورى وأن تكون لهم حجتهم عليه ٠٠٠

وعمر يعلم أن طلحة كان يطمح (١) الى استخلافه بعد أبي بكر ، وكلاهما من عشيرة واحدة وهي قبيلة تيم ، فقال له أبو بكر : « اما والله لو وليتك لجعلت أنفك في قفاك (٢) ، ورفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذي يضعها » ٠٠

وما كانت تخفى على عمر فضيلة في واحد من الستة ولا نقيصة (٣) ، وما كان يغمط (٤) لهم فضلا ولا يغضي على نقص ، واولهم عبد الرحمن بن عوف الذي اقامه بينهم مقام الحكم الذي يرجح بين العدلين ، فقال له : ان ايمانه يرجح بنصف ايمان الامة ، وقال عنه لابن عمر : نعم المرء ٠٠ ذكرت رجلا صالحا الا أنه ضعيف ، وهذا الأمر لا يصلح له الا الشديد من غير عنف ، اللين من غير ضعف ، الجواد من غير سرف ، الممسك من غير بخل ٠٠

ورأيه في الزبير انه مؤمن الرضا كافر الغضب ، وقد صارحه برأيه فيه فقال له : « لعلها لو أفضت (٥) اليك ظللت يومك تلاطم بالبطحاء على مد من شعير » ٠٠

ورأيه في سعد أنه أهل لها ٠٠ فان تولوه فهو أهل ، والا فليستعن به الوالي ، فاني لم أعزله عن ضعف ولا خيانة ، وكان يقول : « اذا روى سعد حديثا فلا تسألوا عنه غيره لصدقه وأمانته » ٠

وكان يظن مع هذا أنه لا يليها « الا أحد هذين الرجلين : علي وعثمان ٠ فان ولي عثمان فرجل فيه لين ، وان ولي علي ففيه دعابة (٦) وأحرى به أن يحملهم على الحق » ٠

وقال لعثمان : « كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها اياك ، فحملت بني معيط على رقاب الناس ، وآثرتهم بالفيء »

---

(١) أي يتطلع ٠ (٢) كناية عن التعالي والتكبر ٠ (٣) نقيصة : عيب ٠
(٤) أي يجحد ٠ (٥) أي آلت اليك ٠ (٦) الدعابة : المزاح ٠

وقال لعلي مثل ذلك عن بني هاشم ولم يذكر الفيء ، واذا صح ما جاء في احدى الروايات (١) أنه قال لعثمان بعد مقالته الأولى: « فسارت اليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحا » فانها لمن نبوءاته التي جعلته من المحدثين (٢) ، أي من الذين يتحدث اليهم بلسان الغيب ، كما قال عنه النبي ــ عليه السلام ــ ٠

ولا خوف عليهم من الناس اذا اتفقوا كما قال لهم حين دعاهم للمشاورة وانتخاب واحد منهم للخلافة ، فليس أسلم عاقبة ولا أصدق حجة من اتفاقهم على اسناد الخلافة الى أحدهم ٠ فان اتفق أكثرهم فأبو طلحة مأمور بحسم الفتنة قبل أن تنجم (٣) والقضاء على المخالفة قبل أن يبرح (٤) مجلس الشورى ٠ فان لج (٥) الخلاف مع هذا وبعد هذا فلا حيلة فيه ٠٠

وقد روى الثقات حديث النبي ــ عليه السلام ــ حين عاد من حجة الوداع قبيل وفاته فقال : « أيها الناس ان أبا بكر لم يسؤني (٦) قط فاعرفوا له ذلك ، يا أيها الناس اني راض عن عمر وعلي وعثمان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد ابن مالك وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين ، فاعرفوا لهم ذلك » ٠٠

فحسب عمر أن يرتضي للمشاورة في أمر الخلافة من رضي النبي ــ عليه السلام ــ عنهم قبيل وفاته ، وحسبه مع هذا أن يكون هؤلاء النفر الكرام المرضي عنهم هم ملتقى الآراء بين خاصة المسلمين وعامتهم ، فلا يسمون خليفة الا كان واحدا من هؤلاء ، ولا يحاول أحد في ذلك العصر أو في عصرنا هذا أن يزيد عليهم علما من أعلام الاسلام يومئذ الا اعترضه مانع أو كان مستنده الى سبب غير جامع ، فقد كان العباس بن عبد المطلب حيا في ذلك الحين فلم يدخل في أصحاب الشورى ، وقال ابن جرير الطبري في تعليل ذلك : « انه ــ أي عمر ــ انما جعلها في أهل

---

(١) رواها الجاحظ وابن أبي الحديد مسندة الى ابن عباس ٠ (٢) المحدثين: الملهمين ٠ (٣) تنجم : تظهر ٠ (٤) يبرح : يترك ٠ (٥) لج : اشتد ٠ (٦) أي لم يفعل ما يسيئني ٠

السبق من البدريين والعباس لم يكن مهاجرا ولا سابقا ولا بدريا ٠٠ » ٠

ولكن الواقع أن العباس لم يذكر في خطبة الوداع ، ولم يكن من المرشحين للخلافة مع وجود علي ، وهو نفسه قد تقدم لمبايعة علي ، ثم أشار عليه الا يدخل في جماعة الشورى ، فليس في استثنائه تعسف (١) من عمر ، وانما التعسف أن يختاره لسبب ولا يختار معه كل من يشاركونه في هذا السبب ، وذلك هو الاستثناء الذي لا يغني شيئا ولا يطاع بسند شامل براء (٢) من التحكم والجزاف ٠٠

ولقد علمنا فيما علمناه وألممنا به آنفا من آراء المعقبين على خطة الصديق وخطة الفاروق ، أن بعضهم ود لو كان الفاروق قد نهج على منهاج سلفه في اختيار خلفه ، وأنهم عابوا عليه أن يكل الى الستة أن يتشاوروا في انتخاب واحد منهم ، لأنهم تولوا هذه المهمة فداخل كلا منهم الأمل في الخلافة والايمان بصلاحه لولايتها ، فانفتح بينهم باب التنافس وتطرقت اليهم نوازع الشقاق في هذا الباب ٠

ومعاوية بن أبي سفيان كان على رأس القائلين بهذا الرأي ، وهو نفسه حجة (٣) على نقيضه ، لأنه قد اشرأب (٤) الى الخلافة ، وتصدى للمبايعة بها وليس هو من الستة ولا من كان يطمع في اسنادها اليه بوصية من الفاروق لو اختار الفاروق أن يعهد بعهده لخليفة يسميه باسمه ، وقد نادى معاوية بولاية العهد لابنه يزيد ، وبويع عليها طوعا أو كرها ، فلم يحسم بذلك خلافا بين المسلمين عامة ، ولا بين بني أمية أو أبناء بيت أبي سفيان ٠

وما نحسب أن عمر كان يؤمن بترجيح واحد من الستة على الآخرين واجماع المسلمين على مثل رأيه فيه ، وأنه قادر على رد المخالفين له الى الاجماع ان كان من الناس من يخالفه قبل المبايعة ٠

---

(١) تعسف : ظلم ٠ (٢) أي بريء ٠ (٣) أي دليل ٠ (٤) أي تطلع اليها وتمناها ٠

وليس البحث في هذا المقام عن فضل العلم أو فضل البأس (١) والفروسية ، فربما قل الخلاف على صاحب الفضل فيهما بين أصحاب الشورى ورؤساء المهاجرين والأنصار كافة ، وانما البحث فيمن يجمع الناس الى حكمه وفضله : وهو بحث لازم لا غنى عن المشاورة يومئذ فيه ، ولو إستغنى عنه أحد لاستغنى عنه عمر ، ولم يبال ان كان يحكم برأيه في ولاية العهد على يقين •

ولا ريب أنه حصر المرشحين بعده للخلافة ، فأحسن حصرهم ، ولم يدع واحدا منهم خارجا من زمرتهم (٢) ، فهم مرشحون لها عند أنفسهم وعند أنصارهم قبل أن يندبهم للمشاورة فيها ، فان صارت الى واحد منهم باتفاقهم ، كان هذا ألزم لهم ، وأوجب لتحرجهم من الخروج على ولي الأمر باختيارهم ، وكان أوجب لتحرجهم كذلك من الخروج على مشيئة عمر التي أملاها ورتب لها نتائجها •

كان ولي الأمر في ذلك المجتمع الوليد (٣) كفؤا لأمانة الخلافة الى النفس الأخير من أنفاس حياته المباركة ، فأوصى وصيته المحكمة التي نظر فيها نظرته الشاملة ، ولم يدع فيها بقية لنظرة ثانية ، ولكن الوصايا مهما يبلغ من أحكامها والزامها لا تنفذ بغير منفذين يقدرون على تنفيذها ، ويصدقون النية فيه ، فلو لم يكن أصحاب الشورى وقائد الجند وامام الصلاة في الأيام الثلاثة أهلا لأمانتهم ، لما أغناهم حزم الخليفة الراحل شيئا في تلك المهمة المعجلة التي يوشك أن يفسدها كل خطأ في القيام عليها ، وكل تأخير عن موعدها • وقد أدى الخليفة واجبه وبقي واجب المنفذين الذين ائتمنهم على الأمة بعد حياته ، فمن حقهم على التاريخ أن يسجل لهم أداءهم لواجبهم ، وتصريفهم لأمانتهم على أتم الوجوه الميسرة لهم في تلك المهمة المحرجة ••• وفي

---

(١) البأس : الشدة في الحرب • (٢) زمرتهم : جماعتهم • (٣) أي الحديث التكوين •

زمرتهم قبل غيرها بعض محرجاتها ، بل أعضل (١) محرجاتها ٠

تنافسوا بينهم ولا جرم ٠ أقل من منصب الخلافة في الدنيا والدين يتنافس عليه المتنافسون ، ومن المروءة أن يستشرف(٢) المرء الى مقام الفاضل ويأبى لدينه ودنياه مقام المفضول ، فان لم يكن تنافسهم على مكانة عالية فهو تنافس يربأون (٣) به عن مظنة التخلف والقصور ٠٠

ثم ألهم أحدهم أول حل للمشكل تتبعه لا محالة سائر الحلول: واحد ينزع نفسه منها باختياره وينوب عن سائرهم في التوفيق بين المختلفين ٠٠

سبقهم الى هذا الحل عبد الرحمن بن عوف ، ولم يسبقهم اليه نزولا بقدره عن أقدارهم ، بل نزولا به عن قدر الصديق والفاروق ، فقد علم أن الرضى عن خليفة بعد هذين مطمع بعيد،ولم يشأ أن ينزل بنفسه منزلا لا يرتضى له ولا يرتضيه ٠٠

ولم يخطر له أن يخلع نفسه بادىء ذي بدء قبل أن يرى منهم من عساه يصنع مثل صنيعه ، فان كان منهم من يخلع نفسه على أن يختار غيره فقد ضاقت بينهم شقة الخلاف ، وان لم يكن فلينظر بعد ذلك فيما يلي خطوته الأولى من خطوات ٠٠

قال : « أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟ » فلم يجبه أحد ٠ فقال : « فأنا أنخلع منها » ، ثم تقدم الى الخطوة التالية فلم يخطئها ووصل منها الى حصر الخلافة في واحد من اثنين : علي وعثمان ٠٠

لقي كلا منهما فأراه أنه يعلم حجته ودعواه ، قال لعلي : تقول يا أبا الحسن اني أحق من حضر بهذا الأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك في الدين ولم تبعد في نفسك ، ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر ، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق به ؟ » قال : « عثمان » ٠٠

ولقي عثمان فقال : « انك تقول : شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله وابن عمه ولي سابقة وفضل فأين يصرف هذا

---

(١) أي أصعب ٠ (٢) استشرف الشيء : رفع بصره اليه ، وبسط كفه فوق حاجبه كالمستظل من الشمس ٠ (٣) أي يرتفعون ٠

الأمر عني ؟ ·· لكن لو لم تحضر ، فأي هؤلاء الرهط تراه أحق ؟ » فقال : « علي » !

وتختلف الروايات فيمن اختاره الزبير وسعد ، ولكن الراجح منها انهما ذكرا عثمان بشرط ، ولم يقطعا برأي في ايثار (١) علي عليه ··

فلما انحصر الترجيح بين عثمان وعلي خرج يسأل من يلقاه من غير أصحاب الشورى فيذكر له بعضهم عثمان وبعضهم عليا ، ويزيد المختارون لعثمان على المختارين لعلي وهو أمر لا غرابة فيه مع المعهود من طبائع الناس ، وأنهم لا يجنحون(٢)الى العظمة النابغة (٣) جنوحهم الى الطيبة والسلامة ، ولا ينفسون (٤) على الشيوخ ما ينفسونه على الفتيان والكهول ··

كل أولئك وأبو طلحة الأنصاري رئيس الجند ينذرهم ويقسم لهم « بالذي ذهب بنفس عمر » لا يزيدتهم على الأيام الثلاثة ، ثم يجلس في بيته فينظر ماذا يصنعون ، وينفذ الأمر فيمن خالف وأصر على الخلاف ·

ولئن كان عمر موفقا في اختيار كل لعمله ، لقد كان اختياره لأبي طلحة أوفق ما في هذا التوفيق·انه الرجل الذي آخى النبي ـ عليه السلام ـ بينه وبين أبي عبيدة الجراح أولى الناس في رأي عمر بالخلافة لو عاش ، وهو البطل الذي ثبت في وقعة أحد يوم انهزم أشجع الشجعان ، ولزم النبي في ذلك اليوم المشهود يقف بينه وبين السهام والسيوف، ويتطاول بصدره ليدفع عنه ضربات المشركين الذين عرفوه وتعمدوه ليصيبوا الدعوة في مقتلها اذا أصابوه ، وشهد أبو طلحة وقعة حنين فبارز عشرين خصما وصرعهم ، وصاح صيحته التي كان ـ عليه السلام ـ يقول : « انها في الجيش خير من مائة رجل » ·· ولم يكن يبالي الموت وهو في سعة من دنياه ، ولم يكن يعرف غير الجد فيما يعمل أو يقول··

وقد أوفى بأمانته في أيام الشورى فلم يدعهم حتى فرغوا من عملهم في صبيحة اليوم الثالث ، وكان فيه فصل الخطاب ·

في تلك الليلة أتى عبد الرحمن بن عوف منزل المسور بن

---

(١) أي تفضيل · (٢) لا يجنحون : لا يميلون · (٣) أي الظاهرة ·
(٤) نفس عليه : حسده ، ونفس عليه الشيء : لم يره أهلا له ·

مخرمة ، فأيقظه وأرسله يدعو الزبير وسعدا ، ثم بدأ بالزبير فقال له : « خل بني عبد مناف وهذا الأمر » قال الزبير : « نصيبي لعلي » ثم قال لسعد : « اجعل نصيبك لي فنحن كلالة (١) » ــ أي أبناء عم من بعيد ــ وكلاهما من بني زهرة • فقال سعد : « ان اخترت نفسك فنعم ، وان اخترت عثمان فعلي أحب الي » ثم قال : « أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا وارفع رؤوسنا » فاعتذر عبد الرحمن لأنه خلع نفسه منها ، وأعاد عليه مقالته : انه لا يقوم مقام أبي بكر وعمر أحد بعدهما ويرضى الناس عنه ••

ثم كان علي وعثمان آخر من دعاهم في تلك الليلة : دعا عليا فناجاه (٢) طويلا ، ثم دعا عثمان فناجاه الى صلاة الصبح ، ويظن أنه سأل كلا منهما عما ينويه اذا ولي الخلافة ، وعن وصية عمر بعمال الولايات أن يتركوا في ولاياتهم عاما بعد وفاته ، ثم يصنع الخليفة ما بدا له من اقرار أو عزل على حسب أحوالهم وأحوال ولاياتهم ، وأنه سأل كلا منهما عن سياسته عامة وخاصة في شئون الأفياء(٣) والارزاق والأجناد والسرايا والمغازي وسائر ما يتولاه من أمور الخلافة ، ولا يقطع أحد بما دار بين عبد الرحمن وبين كل من علي وعثمان على حدة ، وأغلب الظن أن الذين ذكروا شيئا من هذا انما ذكروه مستنبطين ولم يذكروه نقلا عن عبد الرحمن أو عن علي وعثمان ••• قال عبد الله بن عمر : من أخبرك أنه يعلم ما كلم به عبد الرحمن بن عوف عليا وعثمان فقد قال بغير علم •

وحانت صلاة الصبح فصلوا في المسجد ، وجمع عبد الرحمن رهط (٤) الشورى وبعث الى من كان بالمدينة من أهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد فاجتمعوا حتى التج (٥) المسجد بأهله ، وقام عبد الرحمن فقال : « أيها الناس ! •• ان أهل الأمصار قد أحبوا أن يلحقوا بأمصارهم وقد علموا من

---

(١) الكلالة : بنو العم الاباعد ، وقيل : الكلالة ، مصدر من تكلله النسب : أي تطرفه كأنه أخذ طرفيه من جهة الوالد والولد ، فليس له منهما أحد • (٢) أي أسر له في القول • (٣) جمع فيء ، والفيء : الخراج والغنيمة • (٤) جماعة • (٥) أي امتلأ وازدحم •

أميرهم » • فصاح به سعيد بن زيد أحد ذوي السابقة الأولى في الجهاد : « انا نراك أهلا لها » • قال عبد الرحمن : « أشيروا علي بغير هذا » • قال عمار بن ياسر : « ان أردت ألا يختلف المسلمون فبايع عليا » وقال المقداد بن الأسود : « صدق عمار • ان بايعت عليا قلنا : سمعنا وأطعنا » • واذا بعبد الله بن أبي سرح يناديه : « بل تبايع عثمان فلا تختلف قريش » ويثني عبد الله بن أبي ربيعة فيقول: « صدق •• ان بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا» • فتنابز (١) عمار وابن أبي سرح ، واختلط القول بين بني هاشم وبني أمية ، فعاد عمار يقول : « أيها الناس ! •• ان الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه فأني تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ؟ » وبادره رجل من آل مخزوم شاتما : « لقد عدوت طورك (٢) يا ابن سمية ! •• وما أنت وتأمير قريش لأنفسها » ؟

وضاق سعد بن أبي وقاص صدرا بهذه المنابزة وهذا الصخب ، فصاح بعبد الرحمن : « يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس » •

ولا ندري هل تعمد عبد الرحمن هذا التمهل قبل اعلان البيعة ، أو أنه سكت حين اعترضه المعترضون باللجاج والمنابزة • فالغالب من تصرفه في أمر الشورى أنه كان يخطو الخطوة ثم يتبعها ما بعدها بحساب واناة (٣) ، وآخر ما كان من ذلك أنه أرجأ (٤) محادثة اللذين انحصرت فيهما الأقوال حتى كانا آخر من تحدث اليه ، وأنه لما دعاهما دعا عليا ثم ثنى بعثمان ••

فان كان قد تمهل في المسجد على عمد فقد أحسن الروية ، لأنه سكت حتى أيقن الحاضرون بما رأوه وما سمعوه أن الفتنة موشكة أن تكشر عن نابها ان لم ينته الناس من مبايعة خليفتهم تلك الساعة ! •• هذا يذكر اتفاق قريش ، وهذا يشترط ، وهذا يقابل شرطه بمثله ، وهذا يتكلم عن بني هاشم ، وهذا يتكلم عن بني أمية • فلما صاح سعد صيحته بعبد الرحمن :

---

(١) تنابزا : أي تلاقبا وتعايبا • (٢) عدوت طورك : تجاوزت حدك •
(٣) تمهل وروية • (٤) أخر •

أفرغ يا عبد الرحمن قبل أن يفتتن الناس . كان صوته في تلك اللحظة كأنما هو صوت المسجد كله يتكلم بلسان واحد .

وأسرع عبد الرحمن فقال : « اني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا » ودعا عليا وقال : « عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده » . فقال : « أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي مع اجتهاد رأيي » ودعا عثمان فقال له كذلك : « عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده » . فقال : « نعم » .

فرفع عبد الرحمن رأسه الى سقف المسجد ويده في يد عثمان فقال : « اللهم اسمع واشهد .. أني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان » ثم بايعه بالخلافة ، وبايعه المهاجرون والأنصار .

وجاء في بعض أخبار ذلك اليوم : أن عبد الرحمن بن عوف لما بايعه ازدحم الناس عليه يبايعونه حتى غشوه (١) عند المنبر فقعد عبد الرحمن مقعد النبي ـ صلوات الله عليه ـ وأقعد عثمان على الدرجة الثانية فجعل الناس يبايعونه ، وأبطأ علي فقال عبد الرحمن : « ومن نكث (٢) فانما ينكث على نفسه . ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما (٣) فرجع علي يشق الناس حتى بايع وهو يقول : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون (٤) » ..

وقد بايع رهط الشورى عثمان في المسجد ما عدا طلحة فانه كان غائبا فقدم بعد ذلك وعلم بالبيعة فسأل : « أكل قريش راض به ؟ » ثم قال له عثمان حين ذهب اليه : « أنت على رأس أمرك .. ان أبيت رددتها » قال طلحة : « أتردها ؟ » قال : « نعم » . فسأله : « أكل الناس بايعوك ؟ » قال : « نعم » قال : « قد رضيت ، لا أرغب عما قد اجتمعوا عليه » ..

ولا نلتفت هنا الى زوائد الأقاويل عما خدع عليا وعمن

---

(١) غشوه : غطوه . (٢) نكث العهد : نقضه . (٣) من الآية : ١٠ من سورة الفتح . (٤) من الآية : ١٨ من سورة يوسف .

خدعه • فان ما أجملناه هنا من شتى الروايات هو الأشبه والأمثل بهم أجمعين •

ولكنا نلم بطرف من تلك الأقاويل ، حيث يزعم بعض الرواة أن عليا بايع وهو يقول جهرة : « خدعة وأي خدعة » • وأنه يعني بذلك أن عمرو بن العاص خدعه فانخدع ، وأن ابن العاص لقيه في ليالي الشورى فألقى في روعه أن « عبد الرحمن بن عوف رجل مجتهد ، وانك ان أعطيته شرطه ، زهد فيك ••• ولكن تقبل على الجهد والطاقة » • ويزعم أصحاب هذه القصة أيضا أن ابن العاص لقي عثمان فقال له : « ان عبد الرحمن رجل مجتهد ، وليس والله يبايعك الا بالعزيمة » أي وفاقا لشرطه فأقبل منه عزيمته يبايعك عليها •

فهذ القصة وما هو من قبيلها ضرب من ضروب المخترعات المألوفة ممن يحبون أن يسندوا كل شيء الى دهاء الدهاة وخديعة المخدوعين ، فما كان علي بالذي يعتقد أن عمرو بن العاص يتآمر معه على عبد الرحمن وعثمان ، وما كان عثمان بالذي يتلقى سر عبد الرحمن من عمرو بن العاص وما تخطر هذه الخواطر الا على بال الذين يتعشقون بطولة الدهاء فيضعون عمرو بن العاص بحيث يعرف سر عبد الرحمن ويعرف الشرط الذي سيعرض به الخلافة على علي وعثمان ، ويجعل هذا يقول « نعم » ويجعل ذاك يقول « لا » كما يشاء ••

والأشبه والأمثل بهم جميعا أن يكون عبد الرحمن بن عوف وغيره يشترطون ذلك الشرط بعينه على من يقبل أمانة الخلافة في تلك الآونة ، وأن عليا وعثمان يقولان ما قالاه في جوابه ، ولا حاجة الى دهاء ولا ايحاء من النصحاء والوسطاء •

ان حكم الحال أصدق من حكم المقال في جميع الأخبار ، وهو كذلك على التخصيص في أخبار هذه المبايعة ، ان لم يكن في رواية الأقوال والحوادث ففي رواية الشعور الذي كان يخامر(١) الصدور ويتجمج فيها منذ زمن بعيد : شعور بحال لا تدوم ، وخوف من تغيير وتبديل ، واجتهاد في منع التغيير والتبديل أو في اجتناب الضرر منهما جهد (٢) المستطاع ••

---

(١) يخامر : يخالط • (٢) أي قدر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن الأحاديث التي رويت عن النبي ـ صلوات الله عليه أن الخلافة ثلاثون سنة ثم هي بعد ذلك ملك عضوض (١) .

ومن كلام أبي بكر في معارض شتى : أن الدنيا موشكة ان تغير من النفوس ما لا يحمد تغييره . ومن كلام عمر وعمله في أيامه جميعا ما ينم على حذر دهذا أو أشد من خطر الدنيا على نفوس الاقطاب الكبار فضلا عن الدهماء(٢)وسواد(٣) الدنيا..

وكانت لهذا الشعور احيان (٤) يشتد فيها ويغلب على الناس عامة حتى كانه بديهة حاضرة لا تحتاج الى تفكير ، ومن هذه الاحيان فترات التوجس (٥) والترقب بين عهد وعهد منذ أيام النبي ـ عليه السلام ـ : بين وفاة النبي وقيام ابي بكر . وبين وفاة ابي بكر وقيام عمر . وبين وفاة عمر خاصه وقيام عثمان..

ولما حدثت فتنة الردة في أوائل عهد أبي بكر دهش الناس ولم يدهشوا . دهشوا لأنهم فوجئوا . ولم يدهشوا لأنهم ـ وقد وقع الذي وقع ـ لم يستغربوه . ولم يستكثروا حدوثه بعد صدمه كتلك الصدمة الهائلة ، وبعد غياب صاحب الدعوة ومتعهدها وصاحب المنزلة التي لا تدانيها فيهم منزلة ثم أصبح التوجس والترقب ديدنا (٦) فهم في كل فترة من قبيلها . فتساءلوا بعد موت أبي بكر : ماذا عسى ان يكون بعد ذهاب هذا الخليفة الرفيق الرقيق ؟ ولعله تساؤل لم يعنتهم (٧) كثيرا ولم يطل بهم أجله غير قليل . اذ كان أبو بكر لا يبرم امرا (٨) بغير مشورة عمر ، وكانت سياسة الشيخين سياسة واحدة تلين معهما تارة وتشتد تارة أخرى . فلما أشفق الناس بعد وفاة أبي بكر لم يشفقوا من تبديل سنة مرعية أو خروج على جادة متبعة. ولكنهم أشفقوا من شدة فيها وصرامة في حمل الناس عليها . ثم ذهب عمر بغتة والناس يستعظمون الخطوب . ويلمسون بوادر التغير من بعيد ومن قريب ، فعادوا الى ديدنهم في أمثال هذه الفترة ،

---

(١) عضوض : أي يعض عليه . (٢) أي جماعة الناس . (٣) سواد الناس : عوامهم . (٤) جمع حين : أوقات . (٥) التوجس : التخوف . (٦) ديدنا : أي عادة وطبيعة . (٧) أي يشق عليهم . (٨) أبرم الامر : أحكمه.

وخيل اليهم أن كل أمر جائز وكل خطر متوقع خلال هذه النقلة مما علموه الى ما يجهلونه ويوجسون منه ويترقبونه ..

وفي كل كلمة بدرت . وكل وصاة قيلت في هذه الفترة . اعراب مقصود أو غير مقصود عن هذا الشعور الغالب الذي بلغ أقصاه يومذاك : شعور بحالة يخشى ألا تدوم ، وخوف من تغير لا يدري كيف يتقى ..

عمر يوصي ببقاء الولاة عاما ، ويتوقع الفواجع (١) من الأثرة والايثار ، ويريد « من يحمل الأمة على الحق » ومن يشتد في غير عنف ويلين في غير ضعف .. وعبد الرحمن يعلم أنه لا رضى عن أحد بعد الصديق والفاروق . ولا طمأنينة للناس الا أن يطمئنوا الى سيرة كالسيرة الأولى ، وهم لا يعلمون من أين يأتي التبدل والانحراف .

ان تقرير هذه الحالة النفسية أهم من احصاء مئات الحوادث والأقوال التي انحدرت الينا من تلك الفترة ، لان الحوادث والاقوال لا تفهم بغير فهم تلك الحالة النفسية ، ولعل تلك الحالة في كثير من الأحيان هي مبعث الحوادث وأقوال القائلين فيها ، فما كان احد يعيب سياسة عثمان مخلصا او غير مخلص الا كان الحذر من تبديل السنن ونقض السوابق حجة له يسوقها في خطابه للخليفة أو خطابه للخاصة والعامة من رعيته ، وأصبح حضور هذا الحذر في الأذهان من دواعي المبالغة في تعظيم المخالفات وخلقها من غير شيء على نية حسنة عند بعضهم وعلى نية سيئة عند الآكثرين ، لانها كانت نغمة العصر التي تفتح الآذان ، وتتأهب الاذان لاستماعها في كل مكان .

وأهم من ذلك أن عثمان على رأس المسلمين قد ساوره (٢) ذلك الشعور وداخلته تلك الحالة النفسية وجثمت في سريرته حتى تمكن منه التسليم والاستسلام لما هو كائن لا محالة ، فكان يقول لمحدثيه كما يقول في خطبه : ان ما تبتلى به هذه الأمة قدر واقع لا يدفع ، وان فتنة الدنيا طغت على النفوس طغيانها الذي

---

(١) الفواجع : المصائب .

(٢) ساوره : أخذ برأسه .

لا تجدي (١) فيه الحيلة أو المحاولة • وذلك كله مما نلمسه في استسلامه آخر أيامه ، وتركه المحاولة ، أو عدوله عنها بعد المضي فيها ، ونلمسه كذلك في شكه واسترابته (٢) في صدق العاملين وتعويله (٣) من أجل ذلك على أقربائه وخاصة ذويه عسى أن يصدقوه في رعاية السنن والمواثيق ••

وتظهر تلك الحالة النفسية من خطبه الأولى كما تظهر من خطبه الأخيرة ، فلما بايعه أصحاب الشورى خرج فيهم وهو أشدهم كآبة (٤) حتى أتى منبر رسول الله ، وقام يخطب الناس فأرتج (٥) عليه ، وجاء في كلام من روى خبر الارتياح عليه أنه قال يومئذ : « أيها الناس •• ان اول مركب صعب ، وان بعد اليوم أياما ، وأن أعش تأتكم الخطبة على وجهها (٦) ، وما كنا خطباء وسيعلمنا الله •• » •

مقام أدل من المقال ، يدل على كثير •

وأول ما يدل عليه أنه لا تدبير ثمة ولا تحضير ، فلو كان عثمان على علم باختياره للخلافة لما أعياه أن يعد لهذا المقام كفايته من المقال البليغ ، ولكنها قد جاءته وهو لا يستبعد أن تفوته ، ولا يزال يخشى في ذات نفسه أمام الله أن يتعجلها بالتحضير والتدبير ، وأن يطوي في سره منها ما لم يكن له أن يبديه في العلانية •

ثم خطب فاتفقت الأقوال أو كادت على نصوص خطبه الأولى ، وكان مدارها على فتنة الدنيا ، والوعد باتباع السنن ، واجتناب البدع ، وتهدئة النفوس من قبل ما تخافه ، ولا تخاف خطرا أكبر من خطره ••

قال في خطبته الأولى : « انكم في دار قلعة (٧) ، وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم ،

---

(١) أي لا تفيد ولا تنفع • (٢) أي تشككه من الريب • (٣) تعويله عليهم : أي اعتماده عليهم • (٤) الكآبة : الغم ، وسوء الحال ، والانكسار من حزن • (٥) أي تلعثم ولم يقدر على اجادة الكلام • (٦) وجهها : أي سبيلها المقصود • (٧) قلعة : غير ثابتة لا تدوم لاحد •

صبحتم أو مسيتم • الا وان الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور • اعتبروا بمن مضى . ثم جدوا ولا تغفلوه فانه لا يغفل عنكم ، أين أبناء الدنيا واخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلا ، آلم تلفظهم ؟ • ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها •• » •

وقال في أوائل خطبه : « ••• اني قد حملت وقد قبلت . ألا واني متبع ولست بمبتدع • آلا وان لكم علي بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثلاثا : اتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم ، وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ ، والكف عنكم الا فيما استوجبتم • الا وان الدنيا خضرة قد شهيت الى الناس ومال اليها كثير منهم ، فلا تركنوا (١) الى الدنيا ولا تثقوا بها فانها ليست بثقة ، واعلموا انها غير تاركة الا من تركها •• » •

ان اقرب الاخبار الى الصدق ما تهم بأن تنفيه فيحمي صدقه بآية من دواعيه قبل النفس وقبل الواقع ، وكل ما كان خليقا ان يحدث عند مبايعة الخليفة الثالث قد حدث على وجهه الذي يطابق الواقع والمتوقع ، وفي هذه الخطبة مطابقة لما يتطلبه الموقف من المعدات والعهود ، وفيها زيادة وعد « بالكف عن الناس الا فيما استوجبوه » •• ولعلها الزيادة التي أتت في أوانها بعد ما تململ (٢) منه القوم من صلابة عمر ومنعه اياهم أن ينساحوا في الدنيا خوفا عليهم منها وخوفا منهم عليها •

أما المكائد التي أبدعتها أوهام المتوهمين فقد يبطلها قبل كل شيء أنها ليست بمكائد تعمل عملا ينفع من يكيدها •

ومن هذه المكائد ما يخيل الينا أن مخترعيها وضعوا حين وضعوها « قصة مسرحية » يعطون كل بطل من أبطالها دوره في الكلام ودوره في الدخول والانصراف ، ومنها ما يخيل الينا أن أصحاب الشورى كانوا عصبة محضرة مستعدة على مصارحة بينها لحرمان هذا واجتباء (٣) ذاك ، واحدى هذه الخيالات خيالة

---

(١) تركنوا : أي تطمئنوا • (٢) تململ : تقلب • (٣) اجتباء : اختيار •

المستشرقين الذين توهموا أن أصحاب الشورى خصوا عثمان باختيارهم لأنه شيخ يدلف (١) الى منيته (٢) فكلهم يطمع فيها بعد موته · افحدث حقا انهم خصوه وعرفوا يقينا قبل أن يبايعه عبد الرحمن من سيكون مختاره ومجتباه ؟

وفي مكيدة أخرى من هذه المكائد التي « يمسرحها » المخترعون لها ان اختيار عثمان قرر الملك لبني أمية على نية مبيتة (٣) ، فهل هي مسرحية يكتبها التاريخ نسخه بعد نسخة ، ويريد هنا غير ما يريده هناك ؟ ··

ولماذا تطمع القبائل ان تتداول الخلافة بعد خليفة من بني أمية ، وهم أقدر على احتجانهـا (٤) ، وأرغب في الاستئثار بها بعد مالها اليهم في صدر الاسلام ؟ ··

كل هاتيك حيل مسرحية توضع لها أدوارها وأعمالها حسب منهاج التأليف .وأولاها بالشك فيه ما لاح عليه الأحكام والتوفيق بين الادوار والأعمال ، وأولاها بالقبول ما ليس وراءه تحضير ينتظم كما ينتظم التحضير في المسرحيات : شيء يـراد وشيء لا يراد ، ويعالجه فيستطيعه تارة ويعيي به تارة أخـرى فينقلب على غير ما تعمده وانتحاه ·

وعلى هذا النحو المطبوع آلت الخلافة الى عثمان ·

● ❊ ●

---

(١) يدلف الشيخ : يمشي مشي المقيد وفوق الدبيب · (٢) المنيـة : الموت · (٣) أي مسبقة · (٤) يقال : حجن فلان فلانا : أي صده ، صرفه ، وجذبه بالمحجن ·

الخلافة

بين هذه النذر قامت أصعب خلافة تولاها خليفة قط في صدر الاسلام ، وقد كانت ثورة المرتدين في أول خلافة الصديق محنة شديدة نهض لها المسلمون جميعا متساندين متآزرين . فابتلي عثمان في أول خلافته بما يشبه تلك الثورة ويزيد عليه : الخلاف في الداخل ، والتغير في الدواعي النفسية ، وهو أخطر المصاعب جميعا في خلافة عثمان .

كانت هيبة عمر تملأ الجزيرة العربية وما حولها . وكان أصحاب الدولتين الكبيرتين من الروم والفرس أهيب له من رعيته في الجزيرة ، لأن هذه الرعية تعتصم من هيبته بحق يعرفه لها وتعرفه لنفسها، ولم تكن للروم والفرس عصمة من هيبة الا بالحذر والدسيسة . ورستم بطل الفرس المشهور الذي كاد أن يصبح من أبطال الاساطير هو القائل عن عمر : « أحرق كبدي عمر . انه يكلم الكلاب فتفهم عنه ! » . يعني أنه جعل من عرب البادية الذين ازدراهم (١) الفرس أبطالا كالأسود بفضل ما يسدى اليهم ويستمعون اليه من نصيحته والاقتداء بسيرته . وقد خطر للمؤرخين في صدر الاسلام أن الهرمزان كان من المتآمرين مع أبي لؤلؤة على قتل عمر ، وهو خاطر قريب الى الذهن ولو لم يعتمد فيه المؤرخون على غير القرائن التي شهد بها يومئذ شهود الفاجعة (٢) قبل وقوعها . ولكننا نحسب أن المؤامرة أكبر جدا من ظواهرها التي تحصرها في أبي لؤلؤة والهرمزان . وأن تدبيرها في معسكرات فارس وبلاط يزدجرد وحاشيته أقرب الى الخاطر ، وأدنى الى المنظور في مجمل الأحوال .

فما هو الا أن ذاع (٣) في ساحات المشرق والمغرب مقتل عمر ، حتى تلاحقت الثورات والفتن كأنما كانت على موعد ، وتمرد

---

(١) ازدراهم احتقرهم . (٢) الفاجعة : ما تؤلم الناس بالدواهي .
(٣) أي انتشر .

من قبائل الفرس والترك والروم من كان قد أذعن (١) وتعاقد مع قادة الحرب على الصلح والطاعة،ونقضت دولة الروم صلحها فأغارت على الاسكندرية برا وبحرا وأرسلت أساطيلها الى شواطىء فلسطين ، وأطلقت في الميادين خفية من يبث فيها الوعد والوعيد ويغري المطيع بالعصيان،وأحصى المؤرخون البيزنطيون عدة السفن والجيوش التي اشتركت في حركات الثورة والانتقاض ، فقال بعضهم : انها جاوزت خمسمائة سفينة ومائة ألف مقاتل ، وسرعان ما تسايرت الأنباء بهذه الزحوف بين الخزر والأرمن ومن وراءهم من الشعوب الآسيوية ، فهبوا يتعللون بالذرائع (٢) لنقض الصلح ، أو ينقضونه بغير ذريعة وينتهزون الفرصة التي علموا أنها لا سنح مرة أخرى اذا استكانوا (٣) للطاعة والمسالمة ••

لقد كانت محنة كمحنة الردة أو اكبر منها في اتساع ميادينها وتباعد أطرافها ••

وكان عثمان كفؤا لها بالعزم والرأي والسرعة في تصريف الأمور وتسيير النجدات واسناد كل عمل الى من يحسنه ويسد فيه أحسن سداد ••

ولقد درج العاذرون واللائمون في تاريخ عثمان على التسليم بضعفه كأنه حالة لا تفارقه في جميع أعماله ، أو كأنه حالة لم تفارقه قط في عمل مما تولاه ••

فالذين آمنوا منه بحسن القصد ، كانت معذرتهم له بالضعف واللين أسبق معاذيرهم الى ألسنتهم حيث يوفقون بين خطئه وحسن قصده ، والذين أفرطوا في اللوم جعلوا من ذلك الضعف خطلا (٤) في الرأي قد يغطي على حسن النية لو افترضوه وسلموه • وهؤلاء وهؤلاء يستغربون أن يقال : انه كان كفؤا لتلك المحنة بعزيمته وأصالة رأيه ، ويخيل اليهم أن كلمة « الضعف » تلغي كل قوة وتبطل كل عزيمة ، أو ينسون أن الضعفاء لا يتساورون،وأن الضعف لا يلازمهم في كل ما يعملون، وأن الضعف كالمرض تتفاوت فيه مناعة (٥) الأبدان ومناعة

---

(١) أذعن : خضع • (٢) الذرائع : أي الاسباب • (٣) استكانوا : خضعوا واستسلموا • (٤) خطلا : أي فسادا • (٥) مناعة : أي حصانة •

النفوس ، فقد يعدي القوي الركين وان جانبه النحيل الهزيل لا تسري (١) اليه عدواه ، وقد يكون القوي في حالات أضعف من الضعيف في حالات ، وهذا مع التسليم بضعف عثمان على العلات، وهو قول لا يقبل على اطلاقه ، اذ لا نرى من علامات ضعفه إلا ما يظهر فيه الضعف بالنسبة الى موقف من المواقف قد يحار فيه الأقوياء كما يعيي (٢) به الضعفاء ·

فلا تنس أن عثمان قد ولي اعمالا ناجحة في الجاهلية والاسلام ، وان من هذه الأعمال قوافل تترحل في الصيف والشتاء ، وتوافق مطالب اليمن في الجنوب والشام في الشمال ، وأنه استطاع أن يصرف هذه القوافل ويوائم تلك المطالب وهو مقيم في مكة او المدينة ، وأنه تعود أن يستشار فيما يحضره ويغيب عنه ، وأنه تعود كذلك أن يعرف مشورة غيره في مثل عمله ، وأن يعرف أخبار من تقدمه ومن عاصره من نظرائه ، وأنه بعد الاسلام قد لازم ولاة الأمر في السياسة والحرب من عهد النبي — عليه السلام — الى عهد الفاروق ، وشاركهم في كثير ، وسمع أوامرهم وحضر مشاوراتهم في كثير ··

فلا تكونن كلمة الضعف حاضرة في الذهن كلما حضرته حادثة من حوادث سيرته أو آية من آيات عزمه وتدبيره ، وليكن للضعف محله فلا يشغل كل محل في معارض هذا التاريخ العجاب·

انعلاج عثمان لمشكلات الدولة « الخارجية » التي فاجأته بعد ولايته قد كان كأحسن علاج يتولاه خليفة في تلك الآونة(٣): عزم وسداد وسرعة، مع الحيطة والأناة والرفق في سياسة الأولياء والخصوم ·

ولا شك أن الخليفة كان معانا على عمله ، ولم يكن منفردا بعبئه في تلك المحنة الجائحة: كان معانا عليه بحمية الجند وكفاية القادة ، وكانت حمية الدين التي حفزت دعاة الاسلام من نصر الى نصر ومن عزمة الى عزمة ، وصحبتهم من بدر الى القادسية وتبوك وبابليون ، صامدة على سمتها كأقوى وأقوم ما كانت في

---

(١) أي لا تنتقل · (٢) أعياه الامر : أجهده وأتعبه · (٣) الآونة : أي الفترة ·

يوم من أيامها ، بل لعلها في حروب الفرس والروم كانت أقوى وأقوم من حروبها في الجزيرة العربية • اذ كانت أنفة العربي أن ينهزم أمام المتعجرفين(١)عليه من الأعاجم كفيلة أن تنفث(٢) في قلبه الغضبة القوية التي لا تثيرها حرب العربي للعربي والشبيه بالشبيه •

كان حبيب بن مسلمة الفهري يقاتل الروم في ميادين سورية وفلسطين ، فاستعان بمدد من الجزيرة فوصل اليه ، واستعان بمدد من الكوفة فأبطأ عنه ، فلما أقبلت الروم قبل وصول المدد وهم لا يتوقعون القتال مع قلة الجند في معسكر العرب أتاهم حبيب من حيث لم يتوقعوا وبيتهم بليل(٣) • فانتصر وانهزموا ••

وان الدهشة من هذه الجرأة لتغمرها حتى لتكاد تمحوها دهشة أخرى من دهشاتها التي لا عداد لها في كل وقعة من وقعاتها: كانت أم عبد الله امرأة حبيب معه وهو ينوي الهجمة بليل قبل أن يسفر نور الصبح ويأتي المدد المرتقب ، فسألته : أين الموعد؟ قال : سرادق « الموريان » أو الجنة فوجدها عند السرادق قد سبقته اليه •

وقبل هذا أعين الصديق والفاروق بحمية الأجناد وكفاية القواد، ولكن أعباء الجهاد في أوائل أيام عثمان كانت أشق وأكبر وأحوج الى التوجيه الناجز ، والتصريف الذي لا يغني الاجمال فيه عن التفصيل ، على حسب الأطوار المتجددة والطوارىء المتقلبة ، لامتداد خطوط القتال وتعدد الفتن وتباعد المسافات بين البلدان وتكاثر العناصر والأجناس في جيوش المسلمين ، فقام الخليفة الشيخ بأعبائه الجسام على أحسن ما يقام بها في تلك المحنة الجائحة ، وكان له ولا شك أكبر الفضل في تثبيت مهابة الدولة الجديدة بعد ما أصابها من الوهن والتخلخل عند مقتل عمر ، فوقر في اخلاد الأمم المحيطة بها انهم ينازلون قوما

---

(١) العجرفة : جفوة في الكلام ، وخرق في العمل ، والاقدام في هوج ، وهو يتعجرف : أي يتكبر ، ويتعجرف عليهم : يركبهم بما يكرهونه ولا يهاب شيئا • (٢) النفث : شبيه بالنفخ ودون التفل • (٣) بيت الامر : دبره ليلا ، وبيت العدو : أوقع بهم ليلا

لا يقدح في قوتهم موت خليفة أو تبديل قائد ، وانهم منتصرون مستميتون في سبيل النصر على اختلاف القادة والرؤساء ، فقتل بعد هذه التجربة عثمان ، ثم قتل علي ، ثم مات معاوية ثم مات يزيد وتخلى معاوية الثاني عن الملك وانقسم المسلمون على أنفسهم ولم تقم للثورة عليهم قائمة في بلاد الروم أو بلاد الفرس الا ما كان من شغب متفرق على غير وجهة ، يعرو (١) الدول داخلها ومن خارجها بلا انقطاع ولا يخاف منه على دعائمها وأركانها •

ولم يقنع عثمان بتسكين الثورات حيث يكفي فيها التسكين ، أو قمعها حيث تحتاج الى القمع (٢) في بلاد الطغاة والمتجبرين ، فصالح من صالح وحارب من حارب ، ثم أمر قواده بمجاوزة البلاد التي نشبت فيها الثورات الى ما وراءها منعا لارتداد الهاربين اليها وانبعاث الفتن والدسائس من قبلها ، فتقدمت جنوده شرقا الى حدود الهند والصين ، وشمالا الى ما وراء بحر الخزر ، وغربا الى أبواب القسطنطينية وتخوم الأندلس ،وجنوبا الى السودان وجوانب الحبشة ، ولم يؤخذ عليه قط وناء (٣) في انفاذ نجدة أو تسيير مدد أو تدارك خطر في أوانه من أقصى تلك البقاع الى أقصاها •

وعرضت له مسألة عسيرة من المسائل التي استطاع الفاروق ارجاءها (٤) ولم يكن ثمة بد من عودتها في أوانها :

عرضت له غزوة قبرس ورودس وجزر بحر الروم ، واعداد العدة لدفع الغارات البحرية عن شواطيء مصر والشام والقيروان، فكانت بحق مسألة ــ بل مشكلة ــ من المشكلات التي لم تستحكم قبل أيامه ولم تتطلب الحل السريع من ولي لأمر المسلمين في الجزيرة العربية ، أو في البقاع التي انتهت اليها الفتوح •

وكان من سياسة عمر ألا يجعل بينه وبين جيش من المجاهدين بحرا ولا جسرا ولا قنطرة ، وأن يجنبهم ركوب البحر ما استطاع،

---

(١) اعتراه : غشيه • (٢) القمع : القهر • (٣) وناء : ضعف ، وفتور وكلال ، واعياء • (٤) أي تأجيلها •

وكان معاوية يلح عليه في غزو الروم بحرا ويهون عليه خطب هذه الغزوات ولا يفتأ يحضه على ذلك ويقول فيما قاله حضا عليه : « ان قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم » يعني جزيرة أرواد ..

فكتب عمر الى عمرو بن العاص يسأله أن يصف له البحر وراكبه ويقول له : « ان نفسي تنازعني اليه » .

فكتب اليه : « اني رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، ليس الا السماء والماء . ان ركد (١) خرق القلوب وان تحرك أزاغ (٢) العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، وهم فيه دود على عود ، ان مال غرق وان نجا برق (٣) .. » الى آخر ما هول به عليه ، فأقسم عمر لا يحملن عليه مسلما أبدا ، ورضي من ملك الروم بترك القتال ، ثم زاد ملك الروم فكاتبه وقاربه وبادله الهداية ، وأرسل مع البريد هدية من الملكة الى السيدة أم كلثوم زوجة عمر تحتوي فيما احتوته عقدا فاخرا يقوم بأضعاف أضعاف هدية الطيب التي أرسلتها اليها أم كلثوم ، فباع عمر العقد وأودعه خزانة بيت المال ، وكتب الى معاوية يحذره من القتال ، وينذره أن يصيبه منه ما أصاب العلاء الحضرمي اذا هو أقدم عليه بغير اذنه .

أما قصة العلاء هذه فقد كان لها أثرها الذي لم ينسه عمر ، ولم يزل عالقا بذهنه يعاوده كلما عاودوه بذكر البحر وغزواته ، وخلاصتها : أن العلاء الحضرمي والي البحرين كانت بينه وبين سعد بن أبي وقاص منافسة في الجهاد ، فبرز (٤) اسم العلاء في حروب الردة ، ثم غلبه سعد فضلا وهمة في وقعة القادسية « وأزاح الأكاسرة عن الدار وأخذ حدود ما يلي السواد » .. قال ابن الأثير : « فأراد العلاء أن يصنع في الفرس شيئا .. وقد كان عمر نهاه عن الغزو في البحر ، فعبرت الجنود من البحرين الى فارس ، فخرجوا الى اصطخر وبازائهم أهل فارس ، وعليهم

---

(١) ركد : أي سكن . (٢) أزاغ : أي أمال . (٣) من معاني برق : تحير حتى لا يطرف ، أو دهش فلم يبصر . (٤) أي ظهر .

الهربذ ، فحالت الفرس بين المسلمين وبين سفنهم •• واقتتلوا قتالا شديدا بمكان يدعى طاوس، • وقتل من أهل فارس مقتلة عظيمة ، ثم خرج المسلمون يريدون البصرة ولم يجدوا الى الرجوع في البحر سبيلا ، وأخذت الفرس منهم طرقهم فعسكروا وأمتنعوا •• » •

قال ابن الأثير الذي نلخص منه قصة هذه الغزوة : « لما بلغ عمر صنيع العلاء أرسل اليه عتبة بن غزوان يأمره بانفاذ جند كثيف الى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا ••• وأمر العلاء بأثقل الأشياء عليه وهو تأمير سعد عليه ، فشخص العلاء الى سعد بمن معه » ولم يكن أشد على نفسه من هذا العقاب الأليم ، وما كان ليطيعه لولا ايمانه وتقواه وأنه استحقه بمخالفته من لا ينجو من عقابه مخالف كائنا من كان ••

وبقيت عبرة هذه الغزوة لا تنسى ولا تغيب عن فكر عثمان بعد عمر ، وأوشكت مصائبها جميعا أن تعزى (١) الى البحر والى كل ماء من بحار فارس والروم ، ثم عادت المسألة ـ أو المشكلة ـ الى عثمان فوجب أن يفصل فيها برأيه وهو على ذكر من سياسة عمر وسياسة أبي بكر من قبله : لا يحملن أحدا من المسلمين على ركوب البحر ، أو على ركوب الغرر (٢) في قتال ••

ونظرة عثمان في هذه المشكلة من أدل أعماله على نصيبه من الاجتهاد ومن الاقتداء ، ومن أدل الأمور على اقدامه حيث يحجم من هم أشهر منه بالاقدام ••

ان المشكلة هنا قد تغيرت ، ولم يبق بينها وبين مجازفة العلاء الحضرمي غير شبه قليل ••

تغير من ركوب البحر أنه أصبح اليوم ضرورة لا محيد (٣) عنها ، بعد اذ كان مجازفة لا حاجة اليها ••

فقد أصبحت قبرس ورودس وجزر الشاطىء القريب ملتقى تتربص (٤) فيه الأساطيل المتجمعة من أقطار دولة الروم،وأصبح

---

(١) تعزى : أي تنسب • (٢) الغرر : الخطر • (٣) لا محيد : لا عدول •
(٤) تتربص : تنتظر

امتناع السفن المغيرة بها خطرا على الشام وفلسطين ومصر والقيروان ، لا يؤمن على غرة (١) ، ولا على استعداد وأهبة (٢) ثم كان ما كان من اختيار المسلمين ركوب البحار اضطرارا وتجربتهم للسفن كبارها وصغارها ، فذللوا المركب العصي الذي طالما تجنبوه ، وتغيرت المشكلة ولم يبق بينها وبين مجازفة البحرين غير شبه قليل ..

وعلى هذا الشبه القليل بين الأمس واليوم لم تزل شبهة التغرير بالناس قائمة لا تدفع اذا خيف الضرر ، ووقع الخطر ، وقيل : ان ولاة الأمر لم يحذروا ما كان حذرهم منه عمر ،وأوجب الحذر منه على أتباعه وتابعيه .

وعسير أن يمنع غزو البحر ، وعسير مثله أن يباح ، فخرج عثمان من العسرين خير مخرج ، وكتب الى معاوية يأذن له ويشترط عليه : « ألا ينتخب الناس ولا يقترع بينهم ، وأن يخيرهم ، فمن اختار الغزو طائعا حمله وأعانه .. » .

وعلى هذا الشرط غزا عبد الله بن قيس الجاسي قائد الأسطول خمسين غزاة « بين شاتية وصائفة (٣) في البر والبحر لم يغرق أحد ولم ينكب (٤) ... » .

واتفقوا مع أهل الجزر على شروط تحميهم الغرة وتبيحهم أن ينزلوا بها ليمنعوا نزول العدو بأرضها واحتماء الأساطيل المغيرة بمرافئها (٥) ، ورتبوا الحملة عليها من مصر والشام تأمينا للطريق من شرقها وغربها وجنوبها ، فأمنوا البحر وأمنوه لمن يسلكونه من المسلمين والمسالمين . ولو أنهم تركوا البحر وشأنه لاستعصى عليهم بعد ذلك أن يدفعوا غارة الروم من قبل البحر كما دفعوها ، وأن يسيطروا على سبل الملاحة خلال سنوات معدودات كما سيطروا عليها ..

---

(١) غرة : خدعة . (٢) أهبة : عدة . (٣) شاتية وصائفة : أي في فصلي الشتاء والصيف . (٤) نكب : عدل . (٥) جمع مرفأ : وهو مكان من الشاطيء ترسو فيه السفن .

وكانت هذه الهمة من عثمان في علاج الأخطار الخارجية حلا نافعا في شئون الدولة الداخلية الى حين ، لأن مدافعة الأخطار من الخارج شغلت الناس زمنا عن شواغل السلم والدعة التي تفرقهم وتفرغ أوقاتهم للنقاش والجدال فيما يعنيهم أو لا يعنيهم ، ولكن مواقع الجهاد اختلفت واختلف عدد المجاهدين فيها ونصيب كل مجاهد من غنائمها وأنفالها ومن رواتبها وأعطيتها ..

وبدأ ذلك في عهد عمر ، كما تبدأ مشكلات الميادين التي لا تستقر على قرار ، بين الكر والفر ، والاقامة والترحال ، وتعاقب الأمراء والقادة في ميادين القتال ، فمما حدث في عهد عمر من ذلك : أن أهل البصرة شكوا عجز خراجهم على كثرتهم ، وأن أناسا يشاركونهم فيه ممن أقاموا معهم بعد تمام الفتح ، فاختصم أهل البصرة وأهل الكوفة « وادعى أهل البصرة قرى افتتحها أبو موسى دون اصبهان ، أيام أمد به عمر بن الخطاب أهل الكوفة ، فقال لهم أهل الكوفة : آتيتمونا مددا وقد افتتحنا البلاد ، فأنشبناكم في المغانم ، والذمة ذمتنا ، والأرض أرضنا . قال عمر : صدقوا . فقال أهل الأيام والقادسية ممن سكن البصرة : فلتعطونا نصيبنا مما نحن شركاؤهم فيه من سوادهم وحواشيهم . فأعطاهم عمر مائة دينار برضا أهل الكوفة ، أخذها من شهد الأيام والقادسية .. » .

وقد عزل عمر والي الكوفة عمار بن ياسر واستعمل عليها أبا موسى ، وكان أهل الكوفة يشكون عمارا ويقولون لعمر : أنه لا يدري علام استعملته ، فسألهم : ومن تريدون ؟.. قالوا : نريد أبا موسى ، فولاه عليهم . فأقام عليهم سنة ، ثم باع غلامه العلف فشكوه فعزله وصرفه الى البصرة ..

ولبث عمر مهموما مغموما بأمر هذه الشكايات ، حتى اضطجع يوما بجانب المسجد وهو يفكر فيها ، واستيقظ وهو مكروب بادي (١) الأسى ، فقال له المغيرة بن شعبة : ما فعلت هذا يا أمير المؤمنين الا من عظيم ، فقال : وأي شيء أعظم من مائة ألف لا يرضون عن أمير ، ولا يرضى عنهم أمير ؟.. وأتاه

---

(١) أي ظاهر الحزن

أصحابه وهو بتلك الحال من الغم والأسى فسألوه : ما شأنك ؟ ..
فقال : ان أهل الكوفة قد عضلوني (١) . واستشارهم فيمن يوليه ، فأشاروا عليه بتولية المغيرة ، فولاه وأقام واليا عليها أكثر من سنتين الى مقتل عمر ، وكان من رأي المغيرة الذي استمع اليه عمر : أن الوالي القوي المسدد أصلح من الضعيف التقي « أما الضعيف المسلم فان اسلامه لنفسه وضعفه عليك وعلى المسلمين ، وأما القوي المسدد فان سداده وقوته لك وللمسلمين » .

ولم ينحسم هذا الخلاف في عهد عمر ولا في عهد عثمان ولا في عهد علي الى أيام الدولة الأموية ، فكان معاوية يأخذ لجند قنسرين بنصيب من فتوح العراق وأذربيجان والموصل والباب ، وهكذا كان يحدث في الميادين عامة بين من ظفروا فيها ثم تحولوا عنها الى غيرها ، وبين من أقاموا فيها ولم يشهدوا فتوحها ، ولا ظلم ولا غبن في التقسيم والتقدير ، وانما هي جرائر (٢) السعة واشتباك النظم والولايات وكثرة الأمداد التي تنتقل من ميدان الى ميدان ومن ولاية الى ولاية . ولنا أن نقول : انها جرائر الاختلاف من نظام الخلافة الى نظام الملك ، والدولة التي تواجهها كل يوم قضية من قضايا المعيشة مقرونة بقضايا الجهاد ، أو قضية بين حالة عاجلة وحالة باقية على مدى الأيام ، ولا ينفصل فيها نظام المعيشة ، ونظام الجهاد كل الانفصال ..

وليس بالنادر بين هذه القلاقل أن يخف الجيش لنجدة جيش آخر فلا يصل الى المكان المحصور أو المهدد الا بعد الاستغناء عن نجدته ، وليس بالنادر أن تتنافس الجيوش بالقادة والسمعة والسابقة فينفس (٣) بعضها على بعض أن ينحاز لقيادته أن يكون أميره تابعا لأمير آخر لم يعرفه قبل ذلك .

ومما اتفق من ذلك أيام عثمان ، أن حبيب بن مسلمه الذي سبقت الاشارة اليه كتب الى عثمان يسأله المدد ، فكتب عثمان الى

---

(١) عضل عليه : ضيق ، وعضل به الامر : اشتد . (٢) جمع جريرة ، والجريرة : الذنب والجناية . (٣) نفس به : ضن ، وعليه تجير : حسد ، ونفس عليه كذا : لم يره أهلا له .

معاوية في الشام يأمره أن يشخص اليه من أهل الشام والجزيرة قوما ممن يرغب في الجهاد ، وكتب الى سعيد بن العاص في الكوفة يأمره بأن يمد حبيبا بجيش عليه سلمان بن ربيعة الباهلي ، فسار سلمان في ستة آلاف من أهل الكوفة ولم يصل الى حبيب الا بعد فراغ حبيب من حملته الظافرة على الموريان ·

ولقد كان كلاهما ــ حبيب وسلمان ــ من أشجع القواد وأخبرهم بفنون القتال ، وكان كل منهما « غزاء » (١) معروف السابقة في ساحات الجزيرة والشام ، فلما أراد سلمان أن يلي امارة الجيشين أبى عليه حبيب ذلك ، ودخل جند القائدين في المنافسة ، وقال أهل الشام لنضر بن سلمان ان أبى الا الرئاسة علينا · فأجابهم أوس بن مغراء من جند سلمان بشعر يقول فيه :

فان تضربوا سلمان نضرب حبيبكم ... وان ترحلوا نحو ابن عفان فارحلوا (٢)
وان تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا ... وهذا أمير في الكتائب مقبل
ونحن ولاة الثغر كنا حماته ... ليالي نرمي كل ثغر وننكل

ولكن القائدين كانا أحكم وأكرم من أن تفسد عليهما هذه المنافسة عملا حاضرا بين أيديهما ، فافترقا على أن يوغل حبيب في غرب أرمينية وأن يوغل سلمان في شرقها ، وأن يتلاقيا الى الشمال بعد فتح المواقع بينهما ، فدان لهما ما بين البحر الأسود وبحر الخزر ، وصرفا بأسهما الى العدو ضنا بقوة الجيشين أن تتفرق في المنافسة على الادارة والسمعة ، ولكنها منافسة كانت تحتدم في أيام السلم وبين سكان المدن فلا تنتهي بغير خصومة ولا تنتهي الخصومة فيها بغير شر وعناد ·

ومن مقابلة النقيض بالنقيض أن نستطرد من قصة حبيب وسلمان الى قصة الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص اللذين تعاقبا

---

(١) أي شارك في الكثير من الغزوات · (٢) الشعر في تاريخ الطبري (ط· المعارف) ٣٠٧/٤ وابن الاثير ٥٥/٣ وفيهما : « وان ترحلوا نحو ابن عفان نرحل » ·

على ولاية الكوفة في عهد عثمان ، وقد أجمع المؤرخون على فداحة الخطر الذي نجم من هذه القصة على امامة عثمان بين أهل الكوفة ثم بين سائر الأمصار .

كان الوليد بن عقبة والي الكوفة قد اتهم بشرب الخمر ، فعزله عثمان وأمر باشخاصه اليه وأسند الولاية بعده الى سعيد ابن العاص ، فغضب نفر من بني أمية على سعيد لأنه غسل منبر المسجد قبل أن يخطب عليه ، وعدوا ذلك تشهيرا بالوالي المعزول، وتربصوا (١) به الدوائر (٢) يكيدون له بين رعيته ويغرون به من يلغط (٣) في مجلسه .

ونحن نقتبس من جملة المؤرخين ، كالطبري وابن الأثير وغيرهما ، زبدة هذه القصة التي كان لها كل ذلك الخطر من بدء الفتنة الى مقتل عثمان ..

وزبدة هذه القصة من مراجعها المتواترة : أن سعيدا اختار وجوه الناس وأهل القادسية وقراء أهل الكوفة ، فكان هؤلاء دخلته داخلا (٤) ، وأما اذا خرج فكل الناس يدخل عليه .

وسأل عن أهل الكوفة فأطلعوه على حالهم ، فكتب الى عثمان بما انتهى اليه كما أمره ، وقال له فيما قال : « ان أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغلب أهل الشرف منهم ، والغالب على تلك البلاد روادف (٥) ردفت ، وأعراب لحقت ، حتى ما ينظر الى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها (٦) ولا نابتتها (٧) » .

فأتاه الجواب من عثمان أن يفضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد ، وليكن من نزلها بسببهم تبعا لهم ، الا أن يكون أهل السابقة قد تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء ، وليحفظ لكل منزلته ويعطيهم جميعا بقسطهم على سنة العدل والمعرفة بأقدار الناس .

---

(١) ربص بفلان وتربص : انتظر به خيرا أو شرا يحل به ، والمراد هنا : الشر . (٢) أي الهزائم . (٣) اللغط : الصوت والجلبة . (٤) أي يدخلون عليه داخل بيته غير مقيدين بمكان الاستقبال .

(٥) أي توابع . (٦) أي من نزل بها . (٧) نابتتها : من أهلها الاصليين .

وأرسل سعيد الى وجوه القوم فقال لهم : « أنتم وجوه من وراءكم ، والوجه ينبيء عن الجسد ، فابلغونا حاجة ذي الحاجة وخلة (١) ذي الخلة ، ثم أدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والمتسمتين في سمره ، فانقطع الذين لا سابقة لهم ولا قدمة بعضهم الى بعض ، وجعلوا يقعون فيه وفي عثمان ، وكلما لحق بهم لاحق من ناشيء أو أعرابي أو مولى طليق أعجبه كلامهم حتى غلب الشر وفشت القالة ، فكتب سعيد بذلك كله الى عثمان على ما تعوده الولاة من ابلاغ كل كبيرة أو صغيرة الى الخليفة منذ أيام الصديق ، فنادى منادي الخليفة الى صلاة جامعة وخطبهم وتلا عليهم ما جاءه من سعيد وذكر لهم أنه يريد أن يبعث الى العراق بمن شاء النقلة اليه من أهل السابقة ، ويأذن له في أن يبيع ما يملك بالحجاز عسى أن يستعين بهم سعيد على نصيحة الشاغبين من الروادف والأتباع ..

على أن سعيدا لم ينقطع عن لقاء العامة اذا جلس للناس ، فحدث في بعض هذه المجالس : أن فتى غرا (٢) أثنى على طلحه ابن عبيد الله فقال : ما أجود طلحة ! .. قال سعيد : ان من كان له مثل بساتينه لحقيق أن يكون جوادا .. والله لو أن لي مثلها لأعاشكم الله بها عيشا رغدا (٣) .. فقال عبد الرحمن بن قيس ، وهو فتى حدث : والله لوددت أن لك ما كان لكسرى على نهر الفرات ، فانتهره أناس من الحاضرين وصاحوا به : أتتمنى له سوادنا ! وهاج الشر بينهم وبين أهل الفتى ، وسمع قومه من بني أسد بما أصابه فجاءوا وأحاطوا بالقصر ، وعاذت القبائل بسعيد فأقسم لا يغشى مجلسه أحد من أولئك الشاغبين « فقعد أولئك النفر في بيوتهم وأقبلوا يقعون في عثمان » ..

ونما خبر هذا الشغب الى عثمان ، فأذن لسعيد في اخراجهم الى الشام ، وكتب الى معاوية : « أن نفرا قد خلقوا للفتنة فأقم عليهم وانههم فان آنست منهم رشدا فاقبلهم وان أعيوك فارددهم علي »

---

(١) من معاني الخلة : الفقر والحاجة . (٢) أي صغيرا غير مجرب . (٣) رغدا : واسعا طيبا .

فلما قدموا على معاوية أنزلهم كنيسة مريم ، وأجرى عليهم ما كان لهم بالعراق • وكـان يتغدى ويتعشى معهـم ويحادثهم ويستخبرهم عن شكاتهم عسى أن يقنعهم ، فقال لهم في بعض هذه الأحاديث : بلغني أنكم نقمتم قريشا ، ولو لم تكن قريش كنتم أذلة • ان أئمتكم لكم جنة (١) فلا تفترقوا عن جنتكـم ، وان أئمتكم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة • والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم السوء ولا يحمدكم على الصبر ، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم (٢) على الرعية في حياتكم وبعد وفاتكم ••

قال رجل منهم ــ وهو صعصعة ــ : أما ما ذكرت من قريش فانها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنا ، وأما ما ذكرت من الجنة فان الجنة اذا اخترقت خلصت الينا •

قال معاوية : عرفتكم الآن • وعلمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول • ثم قال لصعصعة : أنت خطيبهم ولا أرى لك عقلا •• أعظم عليـك أمر الاسـلام وأذكرك بـه وتذكرنـي الجاهلية ••

وطالت اللجاجة بينه وبينهم فأجمع رأيه على اخراجهم بعد الكتابة الى الخليفة ، وكتب اليه يصفهم ويقول عنهم :

« •• قدم علي أقوام ليست لهم عقول ولا أديان ، أضجرهم العدل لا يريدون الله بشيء ، ولا يتكلمون بحجة ، انما همهـم الفتنة وأموال أهل الذمة ، والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ومخزيهم ، وليسوا بالذين ينكون (٣) أحدا الا مع غيرهم ، فانه سعيدا ومن عنده عنهم ، فانهم ليسوا لأكثر من شغب ونكير » •

وخرجوا قبل أن يخرجهم معاوية من الشام فقصدوا الـى الجزيرة ولم يعودوا الى الكوفة اتقاء الشماتة بهم ، وسمع بهم والي حمص عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فاستدعاهم منذرا متوعدا وقال لهم :

---

(١) جنة : وقاية • (٢) جررتم : أي جنيتم •

(٣) نكى العدو وفيه نكاية : قتل وجرح •

ــ يا آلة الشيطان • لا مرحبا بكم ولا أهلا •• خسر والله عبد الرحمن ان لم يؤدبكم • يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم • لا تقولوا لي ما بلغني أنكم قلتم لمعاوية • أنا ابن خالد • أنا ابن من قد عجمته العاجمات • أنا ابن فاقيء الردة • والله يا صعصعة •• لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى ••

ثم أقامهم شهرا كلما ركب مشاهم معه ، وخافوه فاستقالوه وأعلنوا له توبتهم ، وسرح أحدهم ــ وهو الأشتر ــ الى عثمان فخيره عثمان أن يحل حيث شاء ، فاختار العودة الى ولاية عبد الرحمن •

وجرى في البصرة ما كان يجري في الكوفة من أشباه هؤلاء الروادف ، وكان في بعض قرى الولاية قاطع طريق يسمى حكيم ابن جبلة العبدي يصاحب الجيش ثم يخنس (١) عنه ويغير على أهل الذمة ، فشكاه أهل الذمة ورؤساء المسلمين الى عثمان ، فكتب الى ابن عامر والي البصرة أن يحبسه ومن كان مثله فلا يخرجن من البصرة « حتى تآنسوا منهم رشدا » فحبسه وتعقب خبره ، فجاءه النبأ ذات يوم أن رجلا يدعى ابن السوداء نزل عليه وأخذ يصرح له ولأمثاله بالطعن في عثمان وخلافته ، فدعا بابن السوداء هذا فاذا هو عبد الله بن سبأ ، يهودي من أهل اليمن يقول برجعة النبي الى الدنيا ويظهر التشيع لعلي • فسأله ابن عامر : من أنت ؟ قال : رجل من أهل الكتاب رغبت في الاسلام وفي جوارك • ثم أخرجه من البصرة لما علم من لياذه (٢) بالمفسدين فيها . فذهب الى الكوفة يلوذ فيها بأمثال حكيم بن جبلة فأخرج منها . وذهب الى مصر فجعل يكاتب من تركهم في البصرة والكوفة ، وأوى بمصر الى حمران بن ابان وهو رجل موتور (٣) من عثمان ، كان قد تزوج امرأة في عدتها ففرق عثمان بينهما وضربه وسيره الى البصرة ، فسعى هناك في وقيعة بين الوالي ورجل من النساك (٤) ، وافتضح كذبه عليه ، فأخرج من البصرة ، وذهب

---

(١) يخنس : يتأخر • (٢) لاذ به : التجأ اليه • (٣) يقال أوتره : أدركه بمكروه • (٤) جمع ناسك ، والناسك : العابد •

يتردد بين الشام والحجاز ومصر ، فلقيه فيها ابن السوداء وآوى اليه وأدخله معه في مكاتباته وسعاياته ، وكثرت السعاية بين أهل الامصار من الروادف واشباههم ، فمن نزل منهم بالشام ارضاه معاوية أو اخرجه ، ومن تحول عنها كاتب غيره للاجتماع في مكان لا رقابة عليهم فيه ·

وحدث أن الكوفة خلت من واليها سعيد بن العاص وخلفه عمرو بن حريث ، فاذا بجموع المكاتبين تلتقي فيها ، واذا بأناس منهم يشيعون في الناس أن سعيدا عائد اليهم ، وأنه ذهب الى الخليفة يريده على نقصان رزق نسائهم الى مائة درهم ، ورد اولي البلاء من المجاهدين الى الفي درهم ، ويزعم ان الفيء من العراق بستان قريش وانها تأخذ منه ما تأخذ وتدع ما ندع · وطفق (١) دعاة منهم يذيعون هذه القالة أيام الجميع والناس مجتمعون في المسجد فيستخفون ألبابهم (٢) ، ولا يستمعون لذي رأي يبطل لهم ما يذاع على كذب بينهم ، وتصدى عمرو بن حريث ــ خليفة سعيد على الكوفة في غيابه ــ لتفنيد ما زعموا ، فقام على المنبر في يوم جمعة ينصح لهم ويوصيهم بالطاعة ولا من سميع ·

قال القعقاع بن عمر : « أترد السيل على أدراجه ؟ هيهات ، والله لا يسدن الغوغاء الا المشرفية (٣) ويوشك أن تنتضى (٤) ويعجون (٥) عجيج العيدان ، ويتمنون ما هم فيه اليوم فلا يرده الله عليهم أبدا · فاصبر » قال عمرو : « اصبر » · وتحول الى منزله لا يأمر ولا ينهى ·

هذه بداية تتبعناها الى نهايتها · بدأت في أوائل خلافة عثمان وتتبعناها الى نهايتها قبيل مقتله ، وما يبلغ من خطب هذه الغاشية أن تفضي الى مقتل رئيس دولة ، لولا شذوذ في طبيعتها خرج بها عن سوائها (٦) ، وتعدى بها أطوارها ··

---

(١) أي جعل · (٢) الالباب : العقول · (٣) نوع من السيوف · (٤) نضا سيفه وانتضاه : سله · (٥) العج : رفع الصوت · (٦) أي حد اعتدالها ·

نعم .. هي غاشية هان خطبها لو أنها صادفت أميرا يعالجها بنظام الامارة ، وهان خطبها لو أنها صادفت واليا مسئولا عن نظام ولايته مطلق اليد في دفع شواجر الفتنة عنها ، وقد عالج كل وال من ولاة ذلك العهد ما وقع منها في ولايته ، فاستطاع أن يصرف عنه غائلتها (١) : عالجها معاوية بنفي القائمين بها ، وعالجها عبد الرحمن بن خالد بتأديب دعاتها ، ولم يستفحل (٢) شرها في الكوفة الا بعد أن غاب عنها واليها سعيد بن العاص ، ووقف دونها خليفته عمرو بن حريث مكتوف اليدين وهو بعيد عن مشورة عثمان ومشورة أمير الولاية سعيد ، ولو كان له أن يسكنها بالسيف كما قال القعقاع لما كان تسكينها كثيرا عليه ، ولكن القعقاع نفسه لم يشر عليه بامتشاق السيف على توقعه أن يعج (٣) عجيجها ، وانما أشار عليه أن يصبر فصبر ، ولزم بيته لا يأمر ولا ينهى .

لقد كان خطب الغاشية هينا لو أخذها الآخذون بسلطان الامارة أو بسلطان الولاية . ولكنها قد جرى الحساب فيها على سنة الخلافة في عهد لا هو بعهد خلافة ولا بعهد مملكة ، تتقاصر فيه حقوق الخليفة ولما يتوطد (٤) فيه حق الملك ، وهذه هي النكبة الكبرى في صميمها .

وفي أمثلة الشواجر التي أشرنا اليها في عهد عمر وعهد عثمان كذلك مجال للتفرقة بين طريقة الخلافة وطريقة الملك والامارة في سياسة هذه الشؤون ، أو في سياسة جميع الشؤون .

كان عمر أقوى من عثمان ولا مراء في ذلك ، وتقدم أنه بدل ثلاثة من الولاة على الكوفة غير وال رابع كان يهم باشخاصه اليها قبل مقتله ، وشوهد مهموما مكروبا على قدرته التي لا تضيق بأزمة من أزمات السلم والحرب واضطلاعه بأعظم الأعباء التي عرضت له أيام خلافته : مائة الف لا يرضون عن وال ولا يرضى عنهم وال ، وهذه معضلة ثقلت عليه حتى أحس ثقلها كل من

---

(١) غائلتها : أي دواهيها . (٢) أي يعظم ويكبر . (٣) العج والعجيج : رفع الصوت ، وعجت الريح وأعجت : اشتدت وأثارت الغبار والدخان .
(٤) يتوطد : يتثبت .

كان يعرفه ويلقاه في ابان شكاياتها ومنازعاتها ٠

فما بال أزمة كهذه تثقل على الرجل الـذي نهض بأفدح الأعباء وصغرت في عينيه مخاوف الدنيا ومطامعها ؟ ٠ ٠

أتراه خاف من ثورة أصحاب الشكاية ؟

لو كان هذا ما يخشاه لما أعضله ولا أعياه أن يعد له عدته ، ويفرغ منه على النحو الذي يريده ٠ ٠

أم تراه خاف على سلطانه ، أو خاف على حياته ، أو خاف على مصلحـة من المصالح الكبرى أو الصغرى تعنيه غير مصلحة الاسلام والمسلمين ؟ ٠

كلا ٠ ٠ فما في شيء من ذلك ما يخيفه ، وانما أعضله من أمر تلك الشكاية مخافة أمر واحد : مخافة الظلم أن يقع منه على شاك له حق في شكاة (١) ٠ ٠

ذلك كل ما أعضل على عمر من شكايات أهل الكوفة ، ولو لم يكن حساب نفسه على الظلم أعضل من كل معضلة لما كان في شكايات القوم ما يكربه ويقلق نومه ويغيم على وجهه حتـى يلمحه من ينظر اليه من عارفيه ٠ ٠

ولو أن عمر على يقين من افتراء (٢) الشاكين لما أهمه أن يسخطهم ويخسر ثناءهم ، ولا أعياه أن يؤدبهم ويردهم الى طاعة وليهم ، فانما الشكاة بالحق هي التي تزعجه وتكربه ، ويشغله منها أن يبرأ من مظنتها غاية جهده ٠ فان عرف وجه الحق فما يبالي بعده من شكا أو ادعى ولو زعم أنه يدعي باسم مـن شاء من الأكثرين أو الأقلين ، وعلى هذا جرت سياسته وسياسة أبي بكر ، وعلى هذا كان يقضي بين أبي بكر والشاكين منه حيثما سمعت الشكاية من الخليفة الاول ، وبخاصة في مسائل الأعطية والأرزاق ٠

كان رزق أبي بكر الصديق حين استخلف خمسـين ومائتي دينار في السنة ، وشاة في كل يوم يؤخذ منها بطنها ورأسهـا وأكارعها ، فلم يكن يكفيه ذلك ولا عياله ، فخرج الى البقيـع يتجر ، وجاء عمر فاذا هو بنسوة جلوس فسألهن : ما شأنكن ؟ ٠ ٠

---

(١) أي شكوى ٠ (٢) الافتراء : الكذب والاختلاق ٠

قالت بعضهن : « نريد خليفة رسول الله يقضي بيننا » فانطلق يطلبه فوجده في السوق ، فأخذ بيده وجذبه ليذهب به الى حيث تنتظره النسوة • قال أبو بكر : « لا حاجة بي الى امارتكم • رزقتموني ما لا يكفيني وعيالي » وسأله عمر عما يكفيه فقدره بثلاثمائة دينار في السنة وشاة كل يوم لا يؤخذ منها شيء • وجاء علي وهما على هذه الحالة فلم ير ضيرا (١) في الزيادة ووافقه عمر بعد مراجعة • قال أبو بكر : « أنتما رجلان من المهاجرين لا أدري أيرضى بقية المهاجرين بما رضيتماه أم لا » • ثم صعد المنبر واجتمع اليه الناس فقال :

« أيها الناس !•• ان رزقي كان خمسين ومائتي دينار وشاة يؤخذ منها بطنها ورأسها وأكارعها ، وان عمر وعليا كملا لي ثلاثمائة دينار والشاة • أفرضيتم ؟•• » •

فأجابه المهاجرون : « اللهم نعم •• قد رضينا » • وصاح صائح من جانب المسجد فاذا هو أعرابي يقول : « لا والله ما رضينا • فأين حق أهل البادية ؟ » •

ولم يكن عسيرا على عمر ولا على أبي بكر أن يعلما أنها صيحة لا يصغي اليها ، فمن التنطع (٢) ان يمنع رزق الخليفة الذي أقره ذوو الرأي من المجاهدين في انتظار سؤال البادية من حضرهم منها ومن لم يحضر ، وكان جماع قولهم : ان المهاجرين اذا ارتضوا شيئا فانما الغائبون من أهل البادية تبع للحاضرين ، ولا يشتكي من ذلك مشتك بالحق كائنا ما كان ادعاؤه وكائنا من كان المدعون على غراره (٣) ••

فلا حساب للخليفة اذا جاءته الشكاية غير حسابه لضميره وخشيته أن يكون قد ظلم أحدا ، أو قمع شاكيا له مظنة صدق في شكايته ، وغير ذلك حساب الملك والامارة ، فانهما بين خوف الفتنة وخوف الضرر على سلطان صاحب السلطان ، ويأتي الانصاف في المرتبة بعد النظام والمصلحة ان كان له حساب ••

ولقد شكا من الزكاة أيام الخليفة الأول أكثر أهل الجزيرة العربية واستدعى قتالهم جهدا أكبر من جهد القتال مع الأكاسرة

---

(١) أي ضررا • (٢) التنطع : أي المغالاة • (٣) أي حاله ومنواله •

والقياصرة ، فما وقع اليقين في نفس الخليفة أنه على الحق وأن الشاكين على الباطل حتى أقدم على مكاره الحرب الداخلية وأقدم معه سائر المهاجرين والأنصار . ولو تكرر هذا لتكرر علاجه بما يقتضيه في غير مبالاة بكثرة الشاكين وقلة المجاهدين ٠

المثل الآخر الذي تفترق فيه خطط الخلافة وخطط الملك من جانب الرعية ، قبل جانب الرعاة ، هو مثل الخلاف بين القائدين سلمان وحبيب في حروب أرمينية ٠ فقد وجد النزاع على الرئاسة ووجد التنافس بين الأتباع ، ولكنهما وجدا في موقف جهاد ، فأوحى الموقف الى المتنازعين والمتنافسين خير ما يصنعون بغير حاجة الى مشورة الخليفة ، وهذه حادثة من حوادث عهد عثمان الذي اشتبكت فيه معالم الخلافة ومعالم الملك وغلبت فيه معالم الملك على مطالب المعيشة أيام السلم بعيدا من حمية الجهاد ومن خطر العدو المتحفز للانتقاض ، وقريبا من شهوات الدنيا وبطالة الفراغ ٠٠

وقضى للخليفة الثالث ، باتساع دولته ودرء (١) الأعداء عنها ، أن يتولى أصعب خلافة في صدر الاسلام ٠

كانت ثورة الفرس والروم والخزر والترك أول صدمة تلقاها ، وأكبر بها من صدمة يتلقاها صاحب دولة في أول حكمه ، ولكنه ظفر بها وجاوزها بالدولة سليمة منيعة (٢) فأسلمه الظفر الى الصدمة الكبرى ، وهي صدمة الزلازل النفسية التي امتحن بها رعاياه في بحبوحة السلم والرخاء ، وكانت كلها طورا جديدا في حياة أولئك الرعايا ، فلا هم رعايا خلافة ولا هم رعايا مملكة ، متراوحين هنا تارة وهناك تارة أخرى ، بين بين ، على غير نظام متبع في حالة واحدة أو في الحالتين ٠

وقد أتينا من قبل على فارق بين الخليفة والملك في محاسبة النفس على شؤون الرعية ، ونأتي الآن على الفارق الأصيل أو الفارق الشامل بين النظامين ، وهو الفارق بين الثقة التي لا تحتاج الى حماية وبين السلطة التي تحمي نفسها ٠٠

فالخليفة يعمل ما يشاء في ظل الثقة به والاطمئنان اليه ،

---

(١) درء : أي دفع ٠ (٢) اي قوية ٠

يعمل اليوم ما ينقضه غدا ولا ملامة عليه ، ما دام عمله اليوم والأمس لغيره لا لنفسه ، وللمصلحة العظمى التي لا يناله منها نصيب غير نصيبه المقدور ، وقد يرضى هو لنفسه بأقل من ذلك النصيب •

رعية تثق بخليفتها وخليفة يثق برعيته ، ولكنه لا يبالي الا يثقوا به ان كان على طمأنينة بينه وبين ضميره ، وبينه وبين الله على السنة الالهية التي يعلمها من أحكام دينه •

أما الملك فالسلطة هي قوامه عند ذويه سواء نعموا بالثقة طواعية ، أم خذلتهم هذه الثقة عن اكراه وكراهية •

وقد وصلت الخلافة الى عثمان وهو أحوج ما يكون الى هذه الثقة ، وهي أعصى ما تكون عليه •

سبقه بالحذر من علية الناس خليفتان بلغت ثقة العلية والدهماء (١) بهما غاية مبلغها ، فأبو بكر كان يحذر الدنيا على أولئك العلية ، وعمر كان يسلمهم منها ما يأمن عاقبته عليهم ، ولا يقدرون على مخالفته ، لأنهم لا يشكون فيه ، ولا الشك فيه مقبول منهم اذا هم قبلوه •

أما هؤلاء العلية فهم في خلافة عثمان منافسون ونظراء ، وخلافته بينهم على شرط معرض في كل لحظة للتأويل والحساب العسير ••

وأما سواد الناس فقد شغلوا أولا ثم فرغوا من الشغل للبطالة والملاحاة وكأنهم ورثوا من بيزنطية سلطانها ومعه محاك الجدل البيزنطي الذي تضرب به الأمثال ، ولا يؤمن سواد الناس مع البطالة والفراغ للقيل والقال •

وقد كانت سياسة أبي بكر وعمر أن يستبقيا العلية عندهما، ويرسلا الجند والقادة على قدر الى ميادين الجهاد ، وكان عمر يقتضب (٢) الولاية على الولاة مخافة ــ كما قال ــ من أن يحمل فضل عقولهم على الناس •

أما سياسة عثمان فقد اختلفت باختلاف الأحوال : سياسة عثمان كانت ترمي الى اطلاق العلية في الآفاق ، ارضاء لهم،وتوسلا

---

(١) الدهماء : عامة الناس وجماعتهم •.(٢) أي يختصر مدتها •

بمقامهم بين الدهماء في كل قطر الى تسديد النصيحة وحسن القيادة واتقاء الفوضى ، وهو اجتهاد منه ، له ولا ريب جانبه من الصواب ..

وعزت (١) عليه الطمأنينة الى الولاة مع الفراغ للدنيا بعد الجهاد ، فاختار للولاية أناسا من ذوي قرابته سبقت لهم ولاية في عهد الخليفتين السابقين : عسى أن يصدقوه العون بحكم القرابة ان لم يصدقوه العون خالصا لوجه الله ..

ولما اضطر الى هذه الخطة حاسب ضميره فعمل على تدارك الضرر منها ، فذلك حين وفد الوفود لكل مصر من الأمصار عليه وال من ولاته الأقربين ، فهم يعيشون في أمصارهم ، ويحضر منهم من يشاء في موسم الحج ، ليرجع اليه بما يراه موضعا للمراجعة من أحوال مصره ، وهذه خطته التي آثرها للطمأنينة الى ولاته والطمأنينة على رعاياه .

والذي شاع عن عثمان — وما أسهل الاشاعة — أنه كان يبالي (٢) ذوي الثراء ولا يبالي المقترين (٣) والضعفاء ، والذي كان يحدث منه فعلا أنه يغضب الطامعين ويحمي المطموع فيهم من أهل الذمة وأهل الحاجة والمتربة (٤) ، فمن أجل ابل الصدقة غضب الغاضبون حين حمى لها المرعى ، وزاد في مرعاها على حسب زيادتها ، ومن أجل أهل الذمة غضب الشطار (٥) من قبيل حكيم ابن جبلة ، لأنه أدبهم وأمر بحبسهم ونهاهم عن أموال أهل الذمة وهم يحسبونها حلالا مباحا لمن يسطو عليها ، وكان رهط المبعدين من الكوفة الى الشام يحاور معاوية في هذه الأموال ، فينهاهم عنها ، ويكتب عنهم الى عثمان أنهم « لا يتكلمون بحجة ، وانما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة » .

فأما الرزق الحلال فقد فرض لأصحابه ضعف ما كانوا يأخذونه من الأعطية يوم تولى الخلافة ، ولم يفعلها سياسة بل فعلها ايمانا بالصواب في هذه الزيادة ، وقد كان هو في عهد الفاروق أول من

---

(١) عز الشيء فهو عزيز : أي قل فلا يكاد يوجد . (٢) أي يهتم بهم .
(٣) الذين ضاقت عليهم النفقة . (٤) المتربه : المسكنة والفاقة . (٥) الشاطر : من أعيا أهله خبثا .

قال بكثرة المال وأشار عليه برصد الأسماء وتوفية كل ذي حق حقه من العطاء خشية النسيان والتكرار ٠٠

وقد تعود المؤرخون أن يقسموا عهد عثمان قسمين : قسم الصلاح والرضى ، وقسم الخلل والشكاية ، وهم على صواب في تقسيمهم هذا وان لم يصب منهم من قال : أنهما قرينان لأيام الكهولة وأيام الشيخوخة في حياة عثمان ٠٠

فالواقع أن عثمان كان شيخا جاوز السبعين على أرجح الأقوال في كلا القسمين ، ولكن الفرق الصحيح بين السنوات الأولى والسنوات الاخيرة من عهده ، أن الناس كانوا في شاغل بدفع الاعداء في السنوات الاولى ، وأنهم فرغوا للجدل والملاحاة في السنوات الأخيرة ، وان اتهام الولاة أيسر من اتهام القادة في ابان (١) القتال ، وقد صارت الرئاسة كلها الى الولاة بعد المشاركة بينهم وبين قادة الحروب ٠

ولم يأت هذا التغيير في أطوار النفوس من جانب واحد ولا من الرعية وحدها دون راعيها ، فحسب طالب الحقيقة أن يعلم أنه لم يأت كله من جانب عثمان ، وأن الرعية تغيرت فلم تصبح رعية خليفة ، وهي تحاسب ولي أمرها بميزان الخلافة ٠

أما ان عثمان لم يشترك في هذا التغيير بعمل من عنده ، فذلك هو الطرف الآخر من طرفي الباطل والادعاء ٠

انما آفة عثمان أنه لم يخل من الأموية ولم يكن أمويا « كفاية » ٠٠

فمن خلاله الأموية حب القرابة فهو مبالغ في ايثاره لذوي قرباه ٠

ومن خلاله الأموية تلك « الطبيعة العملية » التي لم يكن للاسرة فكاك (٢) منها ٠٠

لقد كان أبو سفيان يخلط بين النبوة والملك فيقول للعباس : « لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما » ٠

وكان ينظر الى مال الفيء بين يدي رسول الله ،فيقول للرسول ــ عليه السلام ــ : « لقد أصبحت أكثر قريش مالا » ٠

---

(١) وقت ٠ (٢) فكاك : أي خلاص

وروي عن الحسن أن أبا سفيان دخل على عثمان ــ رضي الله عنه ــ حين صارت الخلافة اليه فقال : « قد صارت اليك بعد تيم وعدي ، فأدرها كالكرة واجعل أوتادها (١) بني أمية ، فانما هو الملك ولا أدري ما جنة ولا نار » • فانتهره عثمان وأخرجه مطرودا من عنده •

ان عثمان لأنزه نفسا وأطهر عقيدة من مثل هذه النزعة الدنيوية ، ولكنه سلم من شر ما في « الأموية » ولم يسلم من ميراثها بأجمعه ، فكانت له نظرة الى الامامة قاربت أن تكون نظرة الى الملك ، وكان يقول لابن مسعود كلما ألح عليه في المحاسبة : « مالك ولبيت مالنا ؟ » •• وقال في خطبته الكبرى يرد على من أخذوه بهباته الجزيلة (٢) في ايتاء ذي القربى على رواية الطبري : « فضل من مال ، فلم لا أصنع في الفضل ما أريد ، فلم كنت اماما ؟ » ••

فقد كاد في هذا المقال أن يرفأ (٣) الخلافة برقعة من الملك ، ومالت به طبيعة العصر كله الى بقية من النزعة الاموية فكاد الملك والخلافة لديه يلتقيان في حساب الأموال •

على أنه مع هذا التوسع في فهم حقوق الامامة لم يثبت أنه أنفق المال في غير مصالح الأمة كما يقدرها ويوافقه على تقديرها الكثيرون من المحدثين الذين نشأوا في عصر الاقتصاد وتقسيم الموارد والمصروفات على حسب مرافق الدولة ، وثبت على التحقيق أنه أنفق من ماله الخاص ــ قبل الخلافة وبعدها ــ لاستصلاح أمور عامة من خصائص بيت المال ، وقد تحرج أشد التحرج من انفاق المال على حرس يحميه في أسوأ أيام الفتنة ، ولو أنه فعل لما خالف بذلك سنة الحكم في نظام من النظم الحكومية ، وكانت له « سياسة اقتصادية » يلاحظ فيها تدبير المرافق العامة وتيسير التجارة والعمارة ، ومنها اصلاح ميناء جدة وتمهيد الطرق واقامة الشرطة في المخافر وتنظيم الأسواق •

---

(١) أوتاد الارض : جبالها ، وأوتاد البلاد : رؤساؤها • (٢) الجزيلة : العظيمة والكثيرة (٣) أي يصل ويضم •

ومهما يقل القائلون عن ترخصه في العطاء وبذل الرواتب من بيت المال فلا قول لأحد في حرمة الحياة عنده حتى فيما يخشى منه الجور على حياته ، فما طاوعه بميره قط على ايقاع حكم الموت بانسان ممن استحقوا هذا الحكم بالشغب والعصيان ، ومن لامه في هذا الباب فانما يلومه لأنه أفرط في الرحمة والأناة ، ولا يلومه لانه قسا فضلا عن الافراط في القسوة •

والمشقة التي يلقاها المؤرخون في هذا الصدد عظيمة متعبة ، لأن الغالب في المؤرخين أنهم يستسهلون الرأي كلما كتبوا عن رجل اشتهر بصفة من الصفات ، وهم على دأبهم هذا قد يستسهلون الرأي في تقدير سياسة عثمان بعد السنوات الأولى من خلافته على الخصوص ، فما كان عملا وتدبيرا فليس أسهل من اسناده الى أعوانه ، وما كان توانيا وتفريطا فليس أسهل من اسناده اليه ، وان أسندوه اليه ليقولوا أنه غلب عليه ••

وتحضرني في هذا المقام مساجلة (١) بين بعض الصحاب سمعناها عن ضعف عثمان ، وتسيير الناصحين له من حزبه ومن غير حزبه ، واحدى الدلالات على ذلك أنه تاب ثم عدل عن التوبة مرات في عامه الأخير •

والأمر الذي تنسيه أصحاب هذه الدلالة أن التوبة شيء لم يطلب قط من أحد في تلك الآونة الا استجاب اليه ، وما قيل لأحد قط : تب الى الله فأجاب على ذلك بغير التوبة والاستغفار ، فما كان منهم من أحد يرى أنه غني عن الاستغفار وتكفير الذنوب في وقت من الأوقات ، أو كان يستعلي عن الوقوف أمام الله موقف التوبة والندامة ، وما كانت توبات عثمان الا من هذا القبيل كلما دعي اليها في أيامه الأخيرة ، فانما هي توبة لله وأمام الله ، ولا عليه أن يعيدها في اليوم مرات بعد مرات •

فمن تيسير المؤرخ على نفسه أن يحيل عمل عثمان وتدبيره على الأعوان والنصحاء ، وأن يحيل التواني والتفريط اليه أو الى غلبة الاعوان عليه ، ولا سيما المسئول الاكبر في رأي الاكثرين عن أخطاء عثمان ، ابن عمه مروان ••

---

(١) المساجلة : المباراة والمفاخرة

فما كان لمروان هذا من القوة ما أسبغه(١)عليه المداحون بعد قيام الدولة الأموية ، ولم تكن له هذه القوة حتى في مطامع الملك وهمم السيادة والرئاسة ، فانه كان يزاحم معاوية فلم يستطع أن يبلغ معه كثيرا ولا قليلا ، وراح يحرض عمرو بن عثمان ليناوىء (٢) معاوية ويقول له : انه لم يأخذ الخلافة الا باسم أبيك ثم ينزوي (٣) ولا يجسر (٤) على الظهور ٠٠ ولم يفارقه هذا الخمول (٥) بعد موت معاوية وابنه يزيد ، فكاد أن يبايع عبد الله بن الزبير بالخلافة لولا النزاع بين اليمانية والقيسية في الشام ٠٠

وقد أودى (٦) حمقه بحياته بعد أن صارت الخلافة اليه ، ذلك المصير الذي لا فضل له فيه ٠ فقد خشي أن يكبر خالد بن يزيد بن معاوية فينازعه سريره ، فلم تهده حيلته الى عمل يحتاط به لهذه المنازعة غير أن يتزوج أمه ليصغره ويلحقه بأتباعه ، وأمعن في هذه الحيلة لما كبر خالد فقال له على مسمع من أشراف القوم : مالك ولهذا يا ابن الرطبة ٠٠ فكان فيها حتفه ، وقيل ان خالدا أخبر أمه فقالت له : لا يعلمن أحد أنك أخبرتني ، ثم وضعت على رأس مروان وسادة ولم ترفعها حتى مات ٠

فمروان هذا ليس بالعون الغالب الذي لا يخالف . وليس هو على الأقل بالذي ينسب اليه الرفق في تسيير الناس للقتال متطوعين ، أو الرفق في محاسبة الخصوم والثائرين أو بذل العطاء لمن ينافسهم وينافسونه من رؤساء بيت العاص أو بيت حرب في بني أمية ، وغاية شأنه أنه المأمور الذي لا يستعاض عنه بمن هو أنصح منه وأقدر على الطاعة وأعرف بما كان وما هو كائن من أخبار العاصمة وأحوال الولايات لطول المراسلة والمعاشرة ، ومن كان يحسب أن مشورته السيئة هي علة العلل

---

(١) أي توسعوا ٠ (٢) ليناوىء : ليعادي ٠ (٣) ينزوي : يتنحى ويبتعد٠
(٤) جسر على كذا : أقدم ٠ (٥) خمل ذكره وصوته خمولا : خفي ، وأخمله الله تعالى فهو خامل : أي ساقط لا نباهة له ٠ (٦) أودى الرجل : هلك ٠

في محنة عثمان ، فعليه أن يلغي هذه المشورة ويفترض أنه لم يقل بها ولم تسمع منه ثم لينظر ماذا يقدم هذا أو يؤخر من أزمة الحكم ومن فاجعة عثمان ..

انما المحنة كلها : أنه زمن كان يحتاج حينا الى ثقة الخلافة فلا يجدها ، ويحتاج حينا آخر ، أو في الحين نفسه ، الى سلطة الملك فلا يجدها ، ولن يسلم حكم يحتاج الى سند الثقة في موضعه أو الى سند السلطة في موضعه ، فلا يجد هذا ولا ذاك .

* ★ *

مصحف عثمان

ينفرد اليوم بين أعمال عثمان عمل جليل يوازنها جميعا ، يذكر باسمه حيث يذكر المصحف الشريف ، ويعلمه من يعلم أن المصحف « العثماني » منسوب اليه ..

فقليل من الناس يعلمون اليوم أنباء الفتوح التي فتحها عثمان ، وأنباء الغارات التي ردها عثمان ، ومنها ما تلتبس (١) فيه أسانيد المؤرخين ، فيختلط السند الواحد بين البلد والبلد وبين السنة والسنة ، ولا يعرف القول الفصل في ذلك كله الا بعد معارضة ومقابلة بين الأنباء والروايات لا يشتغل بها أحد غير المختصين ..

أما عمل عثمان في المصحف فهو ماثل معلوم حيث يقرأ المصحف وحيث يقال : هذا مصحف عثمان ، وكل مصحف اليوم هو مصحف عثمان ، فلم تكن كلمة « المصحف » نفسها معروفة علما على الكتاب الذي يجمع آي القرآن الكريم . فعرف المصحف تارة و « الامام » تارة منذ سميا باسميهما في أوائل خلافة عثمان .

وليس من مباحث هذا الكتاب تاريخ جمع القرآن منذ جمع لأول مرة في حياة النبي ــ عليه السلام ــ ، وانما نذكر منه ما يذكر في تاريخ عثمان ــ رضوان الله عليه ــ ، وهو باتفاق الخالفين بعده ألزم ما كان لازما من أعمال العناية بحفظ القرآن الكريم

جمع القرآن الكريم في حياة النبي ــ عليه السلام ــ بعد أن كان مفرقا في جريد النخل وصفائح الحجارة والعظام والجلود والرقاع ، ولم يرتب يومئذ على حسب السور والموضوعات ، وفي ذلك يقول الشيخ محمد العاقب الشنقيطي من أرجوزته المشهورة :

---

(١) التبس عليه الامر : اختلط واشتبه .

لم يجمـــع القـــرآن في مجلـــد
على الصحيح في حيـــاة أحمـــد
للأمـــن فيـــه مـــن خـــلاف ينشأ
وخيفـــة النسخ بوحـــي يطـــرأ
وكـــان يكتـــب علـــى الأكتـــاف
وقطـــع الأدم واللخـــاف

فلما كانت أيام أبي بكر قال له عمر : ان أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ باليمامة يتهافتون تهافت الفراش ، واني أخشى ألا يشهدوا موطنا الا فعلوا ذلك وهم حفظة القرآن .. فهلا جمعته وكتبته ؟.. فنفر أبو بكر أن يفعل ما لم يفعل رسول الله . ثم أرسل أبو بكر الى كاتب الوحي زيد بن ثابت فقال له مشيرا الى عمر : « ان هذا قد دعاني الى امر فأبيت (١) عليه ، وأنت كاتب الوحي ، فان تكن معه اتبعتكما ، وان توافقني لا أفعل » وتراجعا في الامر حتى قال عمر : « وما عليكما لو فعلتما ذلك ؟ » فنظرا مليا (٢) ثم قالا : « لا شيء ! » .

فجمعت الآيات وروجع الحفاظ في كل آية ، ولم يشتغلوا يومئذ بنسخ ما جمعوه وارسال النسخ الى الأمصار ، لأنهم تتبعوا الآيات لجمعها لا لمخافة الاختلاف في قراءتها .

ثم حدث هذا الاختلاف بعد تفرق المسلمين في الأمصار على أيام عثمان ، وبلغ من ذلك أن المعلمين والصبية كانوا يقتتلون في المكاتب لأن الصبية يرجعون الى آبائهم فيسمعون منهم غير ما سمعوه من معلميهم ، وعاد حذيفة بن اليمان من قتال ارمينية فلم يدخل بيته حتى أتى الخليفة فقال له : « أدرك الناس يا أمير المؤمنين قبل أن يختلفوا في الكتاب » فلم يتوان (٣) عثمان بقية يومه ، وأرسل الى السيدة حفصة يطلب النسخة التي أودعها أبوها عندها قبيل وفاته وقبل أن ينتخب الخليفة بعده ، وأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد

(١) أبيت : رفضت . (٢) مليا : أي وقتا طويلا . (٣) توانى في الامر : قصر .

الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها ، ثم عارضها (١) على ما يحفظه وهو يحفظ القرآن كله ، وعارضها على ما يحفظه سائر الصحابة فخلصت له النسخة المتفق على قراءتها وترتيب آياتها ، فلم يحجم (٢) بعد ذلك عن أمر كان غيره خليقا أن يهابه، منذ رأينا أن أبا بكر قد تردد قبل أن يجيب عمر الى مشورته وليس فيها أكثر من مجرد التفكير في جمع الآيات المتفرقات ..

أمر بعد حصول هذه النسخة لديه فأباد (٣) كل ما عداها احراقا ومحوا ، وأخذ « العسب واللخاف والجلود » التي لم تختلف ولم تجتمع على ترتيب فدفنها بين القبر والمنبر ،وأرسل من « المصحف » كما جمعه نسخا الى الأمصار يعتمدونها ولا يقرأون في غيرها .

عمل من أخلق (٤) الأعمال أن يوصف بأنه « عمل عثماني » في الاقدام عليه وفي أثره ..

فهذه الجرأة أحق شيء أن يلتفت اليه من كانوا يحسبون أن صفة الرحمة أو صفة الطيبة تحجب الشجاعة وتثني صاحبها عن تبعته اذا آمن بها ..

وهذا العمل ــ في اختلاف تقديره وأثره ــ مثال من أعمال عثمان كافة .. اذ كان معدودا عليه من أكبر السيئات ، ولم تبق لعثمان حسنة أعظم منه في تاريخ الاسلام .

---

(١) عارضها : قابلها . (٢) أحجم عن الشيء : كف أو نكص هيبة .
(٣) أباد : أهلك . (٤) أي أجدر .

النهـايـة

قلنا في الفصل الأول من هذا الكتاب : « ان الصعوبة الكبرى أننا في هذه الفترة أمام حادثين يرجع كل منهما الى أسبابه وعوامله ويتكلم عنهما بعض المؤرخين كأنهما حادث واحد متحد الأسباب والعوامل ، هذان الحادثان هما : التطور الاجتماعي ومقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ وأسباب هذا لا تكفي لتعليل ذلك وليس من الحتم أن تؤدي اليه » ٠

ومقتل عثمان لا يوصف بأكثر من أنه « مشاغبة دهماء » لم تجد من يكبحها ٠٠

أما التطور الاجتماعي فلا بد من التفرقة في تعليله بين لغط الألسنة في حينه وبين البواعث الحقيقية التي عملت فيه عملها الفعال ولم تعمل فيه بداهة بألسنة اللاغطين في ذلك الحين ٠

انهم لغطوا يومئذ بسيادة قريش ، ولغطوا بالأموال التي أغدقها ولاة الأمر على الانصار والاشياع ، ولغطوا بايثار الصنائع وذوي القربى ٠٠

ولم يكن شيء من هذا اللغط علة للتطور الاجتماعي الذي بدأ بعد دعوة الاسلام وانتهى بقيام الدولة الأموية ٠

فالذين شغبوا على عثمان جاءوا من البصرة والكوفة ومصر ليبايعوا واحدا من ثلاثة هم : الزبير وطلحة وعلي ، وكلهم من قريش ٠

ودولة بني أمية قامت بعد ذلك وهي دولة قرشية غالية في عصبيتها ٠

والذين ثاروا على بني أمية انما ثاروا باسم بني هاشم وهم قرشيون ، ومن بني هاشم قامت دولة العباسيين ودولة الفاطميين ٠

وبعد نحو مائة سنة من مقتل عثمان قام بالأمر في الأندلس « صقر قريش » عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، فبايعه العرب والبربر لأنه من سلالة قرشية ٠٠

فلا يكفي أن يلغط بالنقمة على قريش سامرون في مجلس أو

لاغطون في طريق . ليقال أن التطور الاجتماعي أيام عثمان انما كان مداره على الضجر من قريش والرغبة في الخلاص من سيادتها ٠

وقد غلا الأمويون في العصبية كما غلوا في كسب الأنصار والاشياع ببذل الاموال واسناد الولايات ، فوطدوا بذلك ملكهم وقهروا خصومهم ، ولم يقتل منهم أحد من جراء ذلك كما قتل عثمان ٠

كان خراج السواد في عهد معاوية خمسين مليون درهم ومعها مثلها من هدايا النيروز والمهرجان فاحتجنها (١) لنفسه وأنفقها في سبيل سلطانه ودولته ٠

ووهب خراج مصر كلها لعمرو بن العاص جزاء له على معاونته اياه وهو يربي (٢) على عشرة ملايين من الدراهم ، وجعل عطاء الحسن والحسين مليوني درهم وكان عشرة الاف درهم في عهد عمر بن الخطاب ٠

واقتفى يزيد آثار أبيه فسأل عبد الله بن جعفر حين قدم عليه : « كم عطاؤك ؟ » قال : « ألف ألف درهم » قال : « قد أضعفناها لك » ٠ فقال له عبد الله : « فداك ابي وأمي وما قلتها لاحد قبلك » فضاعف عطاءه ثانية ، ثم خرج عبد الله فقال جلساء يزيد له : « أتعطي رجلا واحدا أربعة آلاف ألف درهم ؟ » فقال لهم : « ويحكم ! اني اعطيتها أهل المدينة أجمعين ، فما يده فيها الا عارية ! » ٠

وهذه الهبات على عهد الدولة الاموية ربما بلغت في اليوم الواحد ما لم تبلغه هبات عثمان في سنوات . وأكثر هبات عثمان من خاصة ماله ، وليس فيما وهبه من بيت المال عطاء واحد لم تكن له صلة بعمل من أعمال الفتح والجهاد ٠٠

فاذا كان الناس قد شغبوا على عثمان فلغطوا بسيادة قريش، أو لغطوا بالهبات والعطايا فليس هذا اللغط هو حقيقة البواعث والقوى التي عملت في التطور الاجتماعي وانتهت بقيام الدولة الأموية على دعائم من سيادة قريش وتقريب الأنصار والاشياع ٠

انما تطور المجتمع الاسلامي بعد أيام الدعوة النبوية لأن

---

(١) احتجن المال : ضمه واحتواه ٠ (٢) أي يزيد ٠

الدعوة النبوية قد رفعت مجتمعهـا الى الأوج الـذي لا تقوى النفوس البشرية على مداومة البقاء فيه . ولو لم تتغير أحوال المعيشة باقبال الدنيا واتساع الفتوح . فاذا اتفق على النفس البشرية عسر البقاء في ذلك الأوج وفتنة المعيشة معا فلا بد من تطور المجتمع حالا بعد حال .

وقد يسمى هذا التطور انقلابا من قبيل الترخص في التعبير. أما حقيقته فهي نقيض الانقلاب : حقيقته أنه رد فعل للانقلاب العظيم الذي طرأ على حياة الأمة العربيـة من آثـر الدعـوة النبوية . فارتفعت مع تلك الدعوة شأوا (١) لا طاقة للنفوس البشرية بالدوام عليه . وثابت الى طبيعتها بعد سكون تلك الوثبة وغنمت منها القيم الجديدة التي دخلت في تقدير الرعاة والرعايا وحسبت في موازين الأخلاق والآداب . فأما دوام الغيرة الروحانية سنوات وأجيالا على قوة واحدة فذلك ما ليس فيه مطمع لطامع . وليس له سابقة ولا لاحقة من وقائع التاريخ .

هذا التطور الاجتماعي هو أحد الحادثين المختلفين اللذيـن يتلاقيان في سيرة عثمان . وفحواه التحول مع الزمن من وثبـة النبوة الى تقة الخلافة الى سلطة الملك . أيا كان الدول في سيادة قريش وتوطيد الملك بالعصبية والهبات ..

أما الحادث الآخر فلا صفة له اكثر من صفة المشاغبات التي يجمح بها الدهماء . ولا أختلاف بينها وبين المشاغبات التي تعمل فيها الأغراض الصغيرة . والغرائز الهوجاء (٢) . والدعـاوى الملفقة . والصيحات التي تقبل بغير تمحيص (٣) . وتنطلق الى غير مقصد وعلى غير هداية .

وأساس البلاء كله البطر على الحقوق التي كسبوها مـن الاسلام ومنها حق خولهم (٤) اياه عثمان . حين وفد الوفود . وندب طوائف منها للقائه في موسم الحج كل عـام لابلاغه مـا يشكونه من الولاة وما يطلبونه اليه . وقد رأينا أنهم استسهلوا الشكاية من العمال من أيام عمر . ثم زادها سهولة عليهم أنهـم

---

(١) شأوا : أي غاية . (٢) أي السريعـة الحمقاء . (٣) التمحيص : الابتلاء والاختبار . (٤) خولهم : أي منحهم وأعطاهم .

استطاعوا في عهد عثمان أن يقدحوا (١) في انتخابهم ويشككوا الناس في كفايتهم للولاية لولا قرابتهم من الخليفة • وليس أدل على وهي (٢) الأسباب الحقيقية للشكوى من حاجتهم الى نبش الماضي عن أسباب تثير الشعور ، ولا تستند الى حجة غير المزاعم والأقاويل • ومن ذلك نبشهم عن سيئات عبد الله بن أبي السرح الذي ارتد في عهد الدعوة ثم تاب وولاه عمر بعض ولاياته في مصر ، فانهم زعموا أن عثمان قد ولاه القيادة لأنه أخوه في الرضاع ، والصحيح أن عبد الله بن أبي السرح كان أكفى الكفاة في قيادته ، وانه انتصر حيث قاد جيشا في البر أو في البحر ، ومع الروم أو أهل افريقية ، وزعموا أن عثمان نقل (٣) مروان بن الحكم بخمس الغنائم التي أرسلها ابن أبي السرح من افريقية ، وهو غير صحيح ، وانما الصحيح أن ابن أبي السرح أخرج الخمس من الذهب وهو خمسمائة ألف دينار فأنفذها الى عثمان وبقي من الخمس أصناف من الأثاث والماشية يشق حملها الى المدينة ، فاشتراها مروان وبقيت من ثمنها بقية عنده فوهبها له عثمان يوم بشره بفتح افريقية ، والناس على وجل (٤) من أخبار الغارات عليها ••

وكقصة ابن أبي السرح قصة الحكم بن العاص الذي رخص له عثمان في العودة الى المدينة بعد أن نفاه النبي ــ عليه السلام ــ عنها ، فانما أبى النبي أن يساكنه في المدينة ثم وعد عثمان أن يعفو عنه ، ولا حرج من مقامه حيث لا مساكنة له ــ عليه السلام ــ بعد وفاته • فقد أذن له بالمقام في الطائف حيث لا يسكن معه وهي أحب في سكنها وأشهى •

ومن هذه الشكايات التي يبحث عنها الباحث ، أنه ولى الوليد ابن عقبة لقرابته ثم اتهم بشرب الخمر وثبتت عليه التهمة •••

فأما أنه هو الذي ولاه فغير صحيح لأنه كان مولى من قبل عمر ، وأما أنه شرب الخمر فقد أقام عليه عثمان الحد وعزله ، ولا يطلب من الامام أكثر من ذلك ••

ولاموه لأنه لم يقتص من عبيد الله بن عمر لقتله الهرمزان

---

(١) يقدحوا : يطعنوا • (٢) وهي : ضعف • (٣) نفله النفل ، ونفله ، وأنفله : اذا أعطاه اياه • (٤) وجل : خوف •

المتهم بالتآمر على قتل أبيه . وأيا كان وجه العدل في هذه القضية لقد كان لوامه على قتل عبيد الله لو آنه أخذه بالهرمزان آكثر من عاذريه (١) ، فما كان أكثر من يقول يومئذ : أن عمر قتل بالأمس وابنه يقتل اليوم ، وقد كان عذر عثمان في ترك عبيد الله أنه دفع الفتنة ، فأطلقه ولما يمض على قتل أبيه أيام ، ودفع الفتنة ولا ريب حق من حقوق الامام .

وذكروا أنه أبعد أناسا من الصحابة عن مساكنهم أو عن أعمالهم ولم يذكروا أنهم أغلظوا له في القول ولم يوقروه ، وقد ضرب عمر بن الخطاب سعد ابن أبي وقاص لأنه لم يقف له في مجلس الخلافة ، وقال له : « انك أردت أن تقول : انك لا تهاب الخلافة ، فالخلافة تقول : انها لا تهابك ! » ولم يعرف عن انسان أنه اعتذر لصحابي من الاساءة اليه كما اعتذر عثمان لابن مسعود الى يوم وفاته ، وهو غاية ما يستطيع .

واذا كان أساس البلوى كلها سهولة الشكوى . فيومئذ يظهر بالشكوى من كان حقه أن يتوارى بها من أصحاب الترات والذنوب ، ولكن سماحة عثمان أطمعتهم في الظهور . وسولت (٢) لمن شاء منهم أن يجترىء عليه مع الشاكين والمتذمرين . وأعجب العجب في هؤلاء قصته مع محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة ابن عبد شمس قريب عثمان وربيبه في داره . فان الناس قد ولعوا بالكلام على محاباة عثمان لأقربائه وهذا واحد من أقرب الأقربين اليه أقام عليه الحد لأنه أصاب شرابا ، ثم جاءه يطلب منه ولاية فأباها عليه وقال له : لو كنت آهلا لذلك لوليتك ! فكان هذا زعيم الثائرين عليه في مصر ومعه نفر من ذوي قرباه .

ومنهم من عاقبه عثمان لأنه كان يلعب بالنيرنجيات (٣) ، ومن عاقبه لأنه تزوج بامرأة في عدتها . ومنهم من عزله كعمرو ابن العاص فكان أحكم من أن يجهر بالشغب عليه ، ولكنه كان يدعوه جهرة الى التوبة وهي دعوة أشبه ما تكون بالاتهام الصريح .

ومنهم من كان يزجره ولاة عثمان لأنه كان يهذر (٤) في

---

(١) عاذريه : من يلتمسون له العذر . (٢) سولت . زينت . (٣) جمع نيرنج ، وهو أخذ من السحر وليس به . (٤) الهذر : الهذيان ، وأهذر في كلامه : أكثر .

الدين بما لا يعلم ، أو يهذر فيه بما يعلم أنه الباطل. ويضمر من ورائه سوء النية ، كعبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء ، فقد أخرجه الولاة من بلد الى بلد لأنه كان يقول : برجعة النبي الى الدنيا وحلول روح الله في علي ، وقد كان علي ـ رضي الله عنه ـ أشد على ابن السوداء هذا من عثمان وولاته •

وبين هؤلاء الشاغبين يسمع النضح الصادق من رجل كأبي ذر يروعه البذخ والترف ، فيدعو الى التقوى والصلاح ، وينعي على الذين يكنزون الذهب والفضة ويحبسونهما عن الخير والصدقة ، فتحسب صيحته على عثمان، ولا قبل لعثمان بتغيير الزمن وتبديل الأوان ، وقد حذر منه قبل أوانه الصديق ، ثم حذر منه الفاروق وجلة الصحابة الأكرمين ، ولا شيء يجنى من تلك الصيحة الا أن تملي (١) للشاغبين في شغبهم ، وهم لا يصدقون صدق أبي ذر ولا يتقون تقواه •

ولقد أشير على عثمان بالضرب على أيدي الشاغبين ، وكان عمرو بن العاص أول من قال له : انه قد لان لهم في المقال ولم يجزهم بما استحقوه من جزاء ، ومن محنة الامامة في ذلك الزمن أن يلام الامام على النقيضين : على الرأفة بالشاكين ، وعلى أنه أغضبهم ولم يجبهم الى ما سألوه •

ولما جمع مجلسه للشورى كان من ناصحيه من أشار عليه بأن يشغل الناس بالجهاد ، فلم يرض أن يكون الجهاد سياسة يحمي بها نفسه ويشغل بها الساخطين عليه ••

وكان من ناصحيه من أشار عليه باتخاذ الحرس أو بالسفر الى الشام ، فلم يقبل هذا ولا ذاك •

وكان رأي علي أن يشتد في حساب الولاة ، وأن يعزل منهم من نهج في الولاية منهجا لم يكن يرضاه قبله الفاروق ولا الصديق، ولو فعل لعزل معاوية أول من عزل ، ولكن ولاية معاويـة في الشام كانت أقل الولايات شغبا عليه ••

وللسائل في أمثال هذه المآزق أن يسأل : « فعل عثمان هذا أو ذاك فسخطوا عليه ، فهل يرضون عنه لو لم يفعل هذا وذاك ؟ » •

---

(١) يقال : أمليت له في غيه : اذا أطلت •

واليقين في رأينا أن الرضى عنه في أمثال ذلك المأزق مطمع لا يرام ، لأن أساس البلاء كله سهولة الشكوى من الدهماء ،ومتى سهلت الشكوى فالاعراض عنها محنة ، واستجابتها محنتان ، لأنها تغري بالشكوى من جديد وتزيد البلاء بزيادة السهولة طمعا في دوام الاصغاء •

وتحسب على عثمان أخطاء وهنات جنت عليه ، وساعدت من أراد أن يتجنى عليه بالحق وبالباطل ، منها توسعه في حقوق الامامة ، وتوسعه في معيشة الغنى بعد خليفتين كانا مثالا في التقشف والرضى بالقليل ، وقد توسع كذلك في تقريب ذوي قرابته واصطفائهم لأعماله وبطانته ، ولم يردعهم أن يجبهوا كبار الصحابة من أمثال علي وعبد الرحمن بن عوف بسوء المظنة والتهمة الجائرة ، فجعلوهم في حيرة من أمرهم : ان دخلوا في أمر الفتنة على عزم وقوة لم يأمنوا التهم ، وان تجنبوا الأمر كله عزلوا عثمان حتى يشعر الناس بعزلته ، وقد ظن من ظن بعد تفاقم الشر أن عثمان انما صرف من تطوعوا لحراسته في داره لأنه لم يكن على طمأنينة من جانبهم ، فتفرقوا وأحس الشاغبون حول الدار من تفرقهم كأنهم خاذلوه •

ومن الانصاف له أن يقال : ان تقصيره في حق نفسه كان أكبر من تقصيره في حق رعيته ، فقد أفرط في المسالمة واغتفر ما لا يغتفر من العدوان عليه في حضرته ، وتحرج غاية التحرج من البطش بمساعير (١) الفتنة لأنه لم يكن من الغرور بحيث يبرىء نفسه من تبعة سخطهم ، ولم يكن من الأثرة بحيث يدرأ عن نفسه الخطر وهو لا يبالي أكان على خطأ أم كان على صواب •

ولا نحسب نحن من أخطائه أنه أصر على الامامة وأبى أن ينزل عنها وقال لمن أنذروه القتل ان هو لم يعتزل : انه لا يخلع قميصا ألبسه الله اياه ، فقد عزا (٢) بعضهم هذا الاصرار الى وصية النبي له في مرض وفاته ، وعزاه بعضهم الى يقينه من الموت ويأسه من جدوى الاعتزال على رعيته ، وأيا ما كان باعثه على الاصرار فهو الباعث الذي لا يعزى الى الاثرة ولا يفسره الا الايثار في سبيل ما اعتقده واجبا عليه ، حتى الايثار على الحياة •

---

(١) مساعير الفتنة : موقديها • (٢) عزا : أي نسب •

ومن الفضول في سيرة تدور على « تحليل الشخصية » أن نطيل في سرد أحداث الفتنة التي انتهت بمقتله ، وأن نحصر أسماء من تكاتبوا ومن دعا منهم ومن أجاب ، فكل ما رواه المؤرخون من هذه الأحداث يدل على مؤامرة مشتركة بين وفود الأمصار ، عملت فيها الدعاية والاستثارة وعملت فيها الشعوذة والضلالة المدبرة ، ولم تكن قط في مصلحة رأس من رؤوس الصحابة الكبار فيميل الظن الى اتهامه بالتدبير ، فان الفتنة التي يلغط فيها بالثورة على قريش لن تكون من تدبير القرشيين ، وان الفتنة التي يشعوذ بها أصحاب الضلالة ممن يزعمون أنهم من دعاة علي لن تفيد عليا عند المؤمنين ، ولن يرضاها علي لدينه ولا لدنياه •

انما هو شغب غوغاء لا رأس له ولا قدم ، ووجود التدبير وراء هذا الشغب الأعمى هو الذي يوحي الى المؤرخ أن يدا كانت تعمل فيه لمحض الشغب والى غير نتيجة الا أن يفسد الامر على الدولة الاسلامية ، وتحوم الشبهات من أجل هذا حول ابن السوداء ومن كانوا يستمعون اليه من شذاذ الأمصار الذين قيل فيهم : « لا ندري أعرب هم أم عجم ومسلمون هم أم مفسدون مدسوسون على الاسلام •• » •

ثم بلغ الكتاب أجله بقصة ذلك الكتاب الذي قيل : انهم وجدوه مع غلام لعثمان يأمر فيه والي مصر أن ينكل (١) بقادة الوفد الذي عاد من عند عثمان ••

عاد وفد مصر من عند عثمان موعودا بما يرضيه ، ثم لم يلبث أن قفل (٢) ومعه كتاب مختوم بخاتم عثمان يأمر فيه بجلد « عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن الحمق وعروة بن البياع وحبسهم وحلق رؤوسهم ولحاهم وصلب بعضهم » ••

ولم يعد وفد مصر وحده بل عاد معه وفد الكوفة ووفد البصرة وهم مفترقون في الطريق ، ولم يفت عليا أن يسألهم عن هذا الملتقى العجيب ، ان صحت قصة الكتاب ! ••

وحان المصرع الأليم الذي لا نحب أن نطيل النظر فيه ، فان

---

(١) ينكل بهم : أي يجعلهم عبرة لغيرهم • (٢) قفل : رجع وعاد •

تريثنا بعده هنيهة فانما نتريث لنستخرج العزاء لبني الانسان من الشر المركوز في طبيعة الانسان ..

لئن كان مصرع عثمان شرا مطبقا . لقد كان كجميع الشرور . ينطوي على خير يبقى بعد زوال الغاشية في حياة فرد أو أفراد .

كان الخير فيه ذلك الحق الذي آمن به من لا يحسنونه .فأراهم أنهم أهل لحساب ولي الأمر وهو يبسط سلطانه من تخوم (١) الصين الى بحر الظلمات ..

وكان الخير فيه ذلك الايمان الصادق الذي صمد به شيخ في التسعين للكرب المحيق (٢) به وهو ظمآن محصور في داره بغير نصير ، ولو شاء لكان له ألوف من النصراء يريقون البحار من الدماء . حيث عزت قطرة الماء .

وان وجبت كتابة السير . فأوجب ما يوجبها ان تكشف جانب الخير في أغوار النفس الانسانية . لا قصيدة مديح كما يقال بل تحية صدق تمتحن بالنار والنور بين ظلمات الشرور . وهذه السيرة الرابعة من سير الخلفاء الراشدين لا نسميها بالعبقرية كما سمينا عبقرية عمر وعبقرية الامام وعبقرية الصديق ، لأننا لا نؤمن بالعبقرية لعثمان — رضي الله عنه — . ونؤمن في الحق أنه ذو النورين : نور اليقين ونور الأريحية والخلق الامين ، ومن أبى عليه ميزانه أن يحابي في كلمة تستدعيها المجاراة لما سبقها من الكلمات لن ينظم قصائد المديح في محراب التاريخ ، فحسب النفس البشرية أملا أنها غنية بالحق عن قصائد المديح في هذا المحراب .

---

(١) تخوم : حدود . (٢) المحيق به : المحيط به .

الفهرست








Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



عبقرية الإمام علي

بقلم

عباس محمود العقاد

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت



مقـــدمة

أحمدك اللهم حمدا يوافي نعمك ، ويكافيء مزيدك ، وأسالك يا الهي أن تصلي وتسلم وتبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله ، كمـا صليت وسلمت وباركت على سيدنا ابراهيم ، وعلى آله في العالمين ، انك حميد مجيد ••

وبعـد ••

فمع السماحة والعدل ، والنجابـة والفضـل ، والشجاعـة القاهرة ، والبطولة النادرة •• مع القوة التي خذلتها القوة ، والهمة التي اثاقلت مـن حولها الهمة ، والمروءة التي استعصت عليها المروءة •• مع الحكمة التي خلفت مواريثها للاجيال ، فكانت نورا يشع ، وزادا يشبع •• مع كريم الوجه وعظيم الخلق •• مع الامام وكفى •• نسيح بين صفحات هذا الكتاب •

وفي الحديث عن الامام صلة بالنفس الانسانية في كل مناحيها ، وفي سيرته ملتقى بالعواطف الجياشة ، والاحاسيس المتطلعة الى الرحمة والاكبار ، لانه الشهيد أبو الشهداء •• وملتقى بالخيال ، حيث دار حول شجاعته منزع الحقيقة ، ومنزع التخيل •• وملتقى بالفكر ، فهو صاحب آراء لم تسبـق في التصوف والشريعة والاخلاق ، ويعتبر صاحب مذهـب حكيـم بين حكمـاء العصور ، أوتي من الذكاء ما هو أشبه بذكاء الباحثين المنقبين منه بذكـاء الساسة المتغلبين ، وملتقى مع الذوق الادبي أو الفني ، تراه في نهجه البلاغي والادبي •• وملتقى مع خلاف الطبائع والاذهان ، أو الخصومة الناشبة أبدا على رأي أو حق أو وطن ، فتنازع الناس حوله ، وتناقضت آراؤهم فيه ، حتى عبر عن ذلك بقوله : « ليحبني أقوام حتى يدخلوا النار في حبي ، ويبغضني أقوام حتى يدخلوا النار في بغضي » • « يهلك في رجلان : محب مفرط بما ليس في ، ومبغض يحمله شنأني على أن يبهتني » •• وملتقى مع الشكوى والتمرد ، أو الرغبة في التجديد والاصلاح ، فصار اسمه علما يلتف به كل مغصوب ، وصيحة ينادي بها كل طالب انصاف ، وصارت الدعوة « العلوية » كأنها الدعوة المرادفة لكلمة « اصلاح » •

فالتقت النفوس مع علي في وجه من وجوهه ، وعلى حالة من حالاته ، وتلك مزية تفرد بها الامام •

وعن صفات الامام •• بين الكاتب أنـه أول هاشمي ولـد من أبوين هاشميين ، فتجمعت لديه كل صفات تلك الاسرة الكريمة من نبل ، وأيد ، وشجاعة ، ومروءة ، وذكاء •• وأبوه هو الذي سماه « عليا » بعد أن كانت أمه قد سمته « حيدرة » وعاش علي مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكان سريع النماء ، متفوقا على أقرانه ، ونشأ قوي البنية ، واحتفظ بمكانة تركيبه في شبابه وكهولته •• وعدد الكاتب صفاته الخلقية ، مشيرا الى أنه كان

يتميز بقوة جسدية فائقة ، وأنه كان لا يبالي بحر ولا برد ، ولا يعني ذلك أنه كان فاقد الحس ، وانما كانت عنده مناعة لم يحظ بها معظم الناس ٠٠

ثم عدد صفاته الخلقية ٠٠ فبين أنه كان شجاعا لا ينهض له أحد في ميدان مناجزة ، وجريئا على الموت لا يخشى قرنا من الاقران مهما كانت قوته ، وذاعت شهرته ، واستدل على ذلك بتجرئه وهو فتى ناشىء على ملاقاة فارس الجزيرة العربية « عمرو بن ود » الذي كان يقوم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه ٠٠ وكان يزين تلك الشجاعة النادرة التورع عن البغي ، والمروءة مع الخصم ، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال ٠٠ واقترنت شجاعته بالاعتزاز والثقة ، وتمكنت الثقة من نفسه ، فحملها من ميدان الشجاعة الى ميدان العلم والرأي ، فكان يقول : « اسألوني قبل أن تفقدوني ، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني في شيء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدي مائة ، وتضل مائة ، الا أنبأتكم بناعقها ، وقائدها ، وسائقها ، ومناخ ركابها ، ومحط رحالها » ٠٠٠ وحملها الى ميدان العبادة والطاعة ، فكان يقول : « ما أعرف أحدا من هذه الامة عبد الله بعد نبينا غيري ٠٠ عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الامة تسع سنين » ٠

وهذه الثقة جعلته لا يتكلف ، ولا يحتال على أن يتألف ، ولا يقبل التكلف من مادحيه ، ولا يمكن أن تسمى هذه الثقة زهوا ، لان العجب كان من أبغض الصفات لديه ٠٠ وكانت قلة التكلف توافق منه خلقيته الكبرى من الشجاعة ، والبأس ، والامتلاء بالثقة ، والمنعة ، فكان يخرج لمبارزيه حاسر الرأس وهم مقنعون بالحديد ٠٠ كما وافقت منه خليقة الصدق الصراح الذي يجترىء به الرجل على الضر والبلاء ، كما يجترىء به على المنفعة والنعماء ، فما تجاوز قول الصدق في شدة ولا رخاء ، وكان يقول : « علاقة الايمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك ، وألا يكون في حديثك فضل على علمك ٠٠٠ » ٠

وصاحبه صدقه الصراح في تقواه وايمانه ، فكان زاهدا كأعظم ما يكون الزاهد ٠٠ وكان أبعد الناس من كزازة طبع ، وضيق حظيرة ، وجفاء عشرة ٠٠ وكان يتبسط في سماحته حتى قيل : « ان فيه دعابة » ، وبالغ عمرو بن العاص فوصفها بدعابة شديدة ، في محاولة منه للقدح في صلاحيته للخلافة ، ورد الكاتب على هذا الادعاء ، مبينا أن تاريخ علي وأقواله ونوادره مع صحبه وأعدائه ليس فيها دليل على خلق الدعابة ، فضلا عن الدليل على الافراط فيه ، وأن دعة علي حسبت من الدعابة البريئة ، ثم بالغ فيها المبالغون ، وليس لديهم اثبات على ما يدعون ٠٠

وكان للامام مزايا فكرية لا تقل عن صفاته النفسية ، ومحاسنه الخلقية ، فاتفقت الآراء على بلاغته ، وعلمه ، وفطنته ٠

وآداب الفروسية اعتبرها الكاتب مفتاح شخصية الامام ، ولخصها في النخوة التي فطر عليها ، وكانت من آداب أسرته الهاشمية ، وعادة من عادات الفروسية العملية ·· فكانت نخوته تمنعه من أن يعمل في السر ما يزرى به في العلانية ، ومن ان يهتبل فرصة سانحة الا اذا قامت على الشرف ، وخير دليل على ذلك ما حدث في صفين ، حين استولى جيش معاوية على الماء ، وحرموا منه عليا وجنده ، واستطاع جيش علي أن يتغلب على جيش معاوية ، ويستولي على الماء ، فقال لاصحابه : « خذوا من الماء حاجتكم ، وارجعوا الى عسكركم ، وخلوا عنهم ، فان الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم » وكذلك وصاياه لجنوده التي سن لهم فيها سنة النخوة في حرب البصرة ·· وموقفه من عمرو بن العاص الذي عمد الى كشف سوأته بعد أن تمكن علي منه في معركة صفين ، ولو كان غير علي ما ترك تلك الفرصة التي كانت ستريحه من مكمن عداء ودهاء ··

ونخوته هي التي حالت بينه وبين مجاراة خصومه في السباب ، لانه خير من يعلم بأن النخوة لا تبيح للفارس أن ينال من عدوه بغير الحسام ، واذا كان قد قال في بعض الظروف ما جعله يشذ عن تلك السنة ، فليس ذلك الا كما يشذ الفرسان ، حين تغلبهم بوادر اللسان ، وهذه الفلتات شيء ، واتخاذ السباب صناعة وسلاحا وسبيلا الى الباطل شيء آخر ··

وكانت نخوة الفروسية لدى الامام يصاحبها نزعة الى التصوف ، واعتبر الناقدون أن هذه النزعة لا تمازج الفروسية ، ورد عليهم الكاتب بأن التصوف في معدنه جهاد في الحق ، أو جهاد في الله ·

ولد علي في الكعبة ، وكان ذلك كان ايذانا بعهد جديد لها ، وكاد أن يولد مسلما ، بل لقد ولد مسلما حقا ، فكرم الله وجهه عن السجود للاصنام ، وتفتحت عينيه على الاسلام ، وتربى في بيت النبوة ، وتطلع الى عبادة النبي وزوجه الطاهرة خديجة ، وأسلم صغيرا ، ولم تكن قرابته من الرسول هي سبب اسلامه ، فكم من أقرباء الرسول من تصدى له ، وتمسك بدين الآباء زمنا طويلا ، كما لم تكن الالفة بينه وبين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هي السبب ، بل أوشكت أن تكون عائقا لاسلامه في طفولته الباكرة ، لولا أن علم أبو طالب بأمر الدعوة ، فنصر محمدا ، وأمر عليا بمتابعته ، فأقبل على الدين الجديد اقبالا لا تلجلج فيه ، فكان مسلما حقا في عبادته ، وفي علمه وعمله ، وفي قلبه وعقله ، وكان دينه له ولعدوه ، بل له ولعدو دينه ··

وامتاز بالفقه الذي يراد به الفكر المحض ، والدراسة الخالصة ، فأمعن فيه ليغوص في أعماقه على الحقيقة العلمية ، أو الحقيقة الفلسفية ـ بلغة العصر ـ ·· ولذا يمكن القول بأن الامام أبو علم الكلام في الاسلام ·· ونهج

البلاغة قد حوى الكثير من الكلمات التي تنسب اليه ، ويصح أن تنسب أصلا للعلم الالهي ٠٠ كما يمكن القول بأنه كان يتتلمذ للقرآن الكريم ، ويستوحيه نصا في عرفان اسلامه ، وتقرير ايمانه ، فكان مبتكرا في نظرته الى الخلق والخالق ، وجاء في أقواله عن الخفاش والطاووس ما يدل على ذلك ، فكان مؤثرا للاجتهاد ما استطاعه ، معرضا عن التقليد ما استغنى عنه ، وكان اسلامه اسلام المطبوع الذي يبتكر دينه ، والحكيم المجتهد الذي يرجع في الحكمة والاجتهاد الى رياضة النفس ، وتمحيص الفكر ٠٠ والرجل الذي أتيح له أن يتتلمذ لربه ، ويتربى في حجر نبيه ، ويصبح اماما للمقتدين من بعده ٠

وعصر الامام انفرد بظاهرة اجتماعية لم تكن في عصور الخلفاء من قبله ، وهذه الظاهرة أن المجتمع صار ذا شقين : شق يؤيد النظام الاجتماعي القائم ، ويسعى الى بقائه وتدعيمه ، وهو حصة معاوية في الشام وما جاورها ٠٠ وشق ثائر على هذا النظام ، ويسعى الى تقويضه ، وهو حصة علي في الجزيرة العربية بكل أنحائها ٠٠

والشام يمكن وصفها بأنها أرض أموية منذ عهد الجاهلية ، حين لجأ اليها أمية بعد أن صارت الزعامة لهاشم ، وبعد ظهور الاسلام حيث كان يقصدها الامويون في تجارتهم وهجرتهم ، وتولى امرتها يزيد بن أبي سفيان في عهد الصديق ، ومعاوية في عهد الفاروق ، وظل واليا عليها بضع عشرة سنة الى أن بويع علي بالخلافة ، فثبت أركانه ، وأسس السلطان الاموي فيها ٠٠ وكانت سياسته مع السواد والإشراف وذوي الاخطار تقوم على أساس اجتذابهم نحوه كل بما يؤثر فيه ، الى حد أن قصده عقيل بن أبي طالب حين رفض أخوه الامام أن يجري عليه من بيت المال ، وكان يقول : « ان أخي خير لي في ديني ، ومعاوية خير لي في دنياي » ٠ وساق الكاتب حادثة الدمشقي الذي ادعى على كوفي دخل دمشق بأن الناقة التي معه ملك له فقدها في صفين ، وحكم معاوية للدمشقي بالناقة ارضاء له ، وعوض الكوفي وأحسن اليه لما أخبره أنه جمل وليس بناقة ، وقال له : « أبلغ عليا أني أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل » ٠ وهذا خير شاهد على دهاء معاوية في سياسته التي رسمها لينال تأييد الجميع ، فاجتمع له كل منتفع بهذا النظام ٠٠ وكانت له سياسته مع صيحات التمرد ، فيبادر باسكاتها ٠٠ فمن أسكته المال جعل المال سلاحه معه ، ومن كان جادا مخلصا في العبادة والزهد ولا يغريه المال ، احتال على ابعاده ونفيه من الشام ، كما فعل مع أبي ذر ، وعبد الله بن سبأ ، وغيرهما ٠٠ وما مر عام الا وازداد رصيده من الرضا والاستقرار ، حتى تحيزت له الشام جميعها عند مبايعة علي ٠٠

أما علي ٠٠ فأوشكت أن تنعدم دواعي السكينة والرضا والاستقرار في حصته من الدولة ، وظهر تنافس شديد بين أهل مكة والمدينة والكوفة ،

واستعصى عليه أن يرضي الجميع ، حتى ضاق به المقام في الحجاز ، فأوى الى الكوفة مأوى « المستجير من الرمضاء بالنار » ٠٠ وكانت قبائل البادية تنفس على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة ٠٠ وكان المحرومون من العبيد والموالى والاعراب غير راضين عن حظهم من العيس بعد أن شرع لهم الاسلام بالمساواة والانصاف ٠٠ وفي الوقت الذي كان فيه أجناد معاوية يستجيبون للحق والباطل ، لانهم لا يميزون بينهما ، كان مع علي جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب النسك والفقه والشريعة الذين يحتكمون في كل شيء الى الكتاب والسنة ، ولا يؤيدون القتال ، ولا يستجيبون الا لما أباحوه أو استوجبوه ٠٠ كما كان في كفته الطامعون في الخلافة ، والمتطلعون اليها ٠٠ ومنهم من كان يحارب عثمان ثم صار يحارب عليا باسم عثمان ٠٠ ومنهم من كان يتعلل بقلة المشاورة له والمبالاة بقوله ٠٠ ومنهم كبار الصحابة الذين انطلقوا في عهد عثمان ، فأثروا حتى ان أيدي الرجال كانت تمحل وهم يقطعون الذهب الذي خلفوه بالفؤوس ٠٠ وهؤلاء صاروا قادة التمرد على علي ، لانهم أدركوا أنه لن يقرهم على ما هم فيه ، وعرفوا مذهبه في حساب الولاية والخلافة ، فليس بمذهبه واليا أو خليفة بمريح أولئك الاغنياء والذين ذاقوا حلاوة الغنى ، وكرهوا أن يحرموه ، أو يحاسبوا عليه ٠٠ هذه النماذج كانت نصيب علي في حصته ، فكانت من أقوى أسباب القلق والتبرم والنفور ، على عكس نظرائهم في حصة معاوية ٠٠ بالاضافة الى ذلك ٠٠ فهناك علة اعتبرها الكاتب من أكثر العلل التي تبتلى بها دولة أو حكومة ٠٠ وهي اعتمادها في مواردها على غيرها ٠٠ في حين أن حصة معاوية كان فيها من سعة الثروة ما يسع كل صاحب حاجة مقيم عنده أو ساع اليه ٠٠

وما يمكن قوله عن علي ومعاوية : أن أحدهما كان يعمل والحوادث حرب عليه ، والاخر يعتمل والحوادث عدة في يديه ٠

ولقد بويع الامام بالخلافة بعد فاجعة مقتل عثمان ، التي كانت بلاء لا يدفع ، وقضاء لا حيلة لاحد في اتفائه وألقى الكاتب الضوء على المآخذ التي أخذت على عثمان ، فأثارت النفوس ، ودفعت الى التذمر والتمرد ، فتألب الناس عليه من كل صوب ، حتى فلت الزمام ، وكان ما كان ٠٠ وبرأ العقاد عليا من دم عثمان ، وذكر أنه كان يقوم دائما برد الثوار عنه ، وفي المرة الاخيرة توسط بين الخليفة والثوار ، حتى استمهلهم عثمان ثلاثة أيام يحقق خلالها مطالبهم ، ومضت المهلة ، ولم تتحقق المطالب ، فادرك الثوار أنهم مأخوذون بالانتظار ، فتسوروا الدار ، وولغوا في دم طهور لو هان على صاحبه أن تسفك الدماء في سبيله لعز عليهم أن يسفكوه ٠٠٠ وأتى برواية شداد بن أوس عن مقتل عثمان ، وكل ما فيها يبرىء عليا مما اتهم به ٠٠ وقد لعب مروان بن الحكم

دورا في ايغار صدر الخليفـة على علي ، وأوقع من روعـه أن عليا على رأس الساعين بين الناس بالكيد له ، وتأليب الثائرين عليه ، حتى جعل عثمان لا ينظر الى علي بعين المودة والثقة ..

ولم يكن هناك أصعب ولا أحرج من موقف الامام ، فالثوار كانوا يعتبرونه المسئول الاول عن الاصلاح ، والخليفة يحسبه المسئول الاول عن تهدئة الموقف ورد الثوار ، وكانت حيرته بين تقريب عثمان له ، وابعاده عنه ، أشـد مـن حيرته بين الخليفة والثوار .. وبعد مقتل عثمان ظلت المدينـة خمسة أيـام يلتمسون من يجيبهم الى القيام بالامر ، ولا مجيب .. ألحوا على علي ، وطلبوا الزبير ، وطلحة ، ثم سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، فلـم يجدد الا الرفض .. فرجعوا الى علي ، وأخذ الاشتر النخعي بيده ، فبايعه ، وبايعه الناس حتى طلحة والزبير ، ونهج علي سياسـة من أحسن السياسات ، فأخذ في تجنيد قوى الخلافة الدينية لمواجهة قوى الملك الدينوية ، وعزل الولاة المتهمين ، ورد أملاك المسلمين المسلوبة ، وسار على نهج الصديق والفاروق فـي تجنب كبار الصحابة المتطلعين الى الامارة فتنة الولايات .. ولعل هـذا هو مـا أثار عليه طلحة والزبير بعد أن بايعاه ، ولم تمضي أيام معدودة حتى تجمع علـى علي جميع الـولاة المنتفعون في عهـد عثمان ، وجميع الطامعيـن في الانتفاع بالولاية ، وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ما يبغون ، فخرج الجميع وعلى رأسهم طلحة والزبير ، وطالبوا عليا بدم عثمان ، وهم لم يدفعوا عنه في حياته بعض ما دفع علي عنه ، وجمعوا حشودهم الى البصرة ، وكانت السيدة عائشة معهم تناصر طلحة القرابته، والزبير زوج اختها أسماء ،ولم تكن قد نسيت موقف علي في حادثة الافك حين أشار على الرسول بتطليقها .. وكانت وقعة الجمل التي انتصر فيها علي ، وقتل الزبير ، ومات طلحة متأثرا بجراح المعركة .. غير أن المعركة كشفت عن مصاعب القيادة لجنود الامام ، فكانوا آراء متباينة ، وأهواء متناقضة .. الثوار لا يستندون الى فكر أو روية ، والحفاظ والقراء في اجتهادهم يقرون هذا ، ويرفضون ذاك ، بل كان في جيشه من يعمل لصالح خصمه كالأشعث بن قيس ..

ولم يبق أمام علي من الخصوم أقوى من معاوية ، فآثر علي ــ كعادته ــ خطة المسالمة ، والبدء بالاقناع في عدد من الرسائل المتبادلة بينه وبين معاوية ، والتي ظهر منها عنت معاوية ، ورفضه للمسالمة ، فوجد علي أن الصدام مـع معاوية حتمي ، فزحف بجيشه الى صفين ، وكاد النصر أن يتم لعلي ، لولا خدعة رفع المصاحف ، وطرح قضيـة التحكيم ، واجبـار علي من قبل أجنـاده على قبولها ، واكراهه على اختيـار أبي موسى الاشعري ، وانتهـت المأساة بتلك المهزلة ، أو انتهت المهزلة بتلك المأساة : خلع علي ، وتثبيت معاوية !! وصدق

قول علي في حق أنصاره : « ... ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الاخيب ... » .. وازداد موقف علي حرجا وصعوبة بحركة الخوارج الذين مردوا على الشقاق ، واتهموه وأصحابه بالكفر لقبولهم التحكيم ، وحاول الامام ردهم واقناعهم ، فأصروا على قتاله ، وبعد أن بدأوه بالعدوان ، ونفد صبره ، قاتلهم وهزمهم شر هزيمة ..

وتصدى الأشعث بن قيس لصرف الاجناد عن علي ، وتثبيط هممهم في محاربة معاوية ، في الوقت الذي علا فيه نجم معاوية ، وانضم اليه طلاب المنافع ، ولم يمض عامان ، حتى كانت معه مصر ، والمدينة ، ومكة ، وبقي علي في أرباض الكوفة يائسا منعزلا عن الناس ، يتمنى الموت كما قال في بعض خطبه ، ويوجس شرا من أقرب المقربين اليه ..

ونسجت المقادير نسجها الاخير حينما اتفق ثلاثة من الخوارج على قتل علي ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص .. فنجا عمرو ، وأصيب معاوية ، وكانت الشهادة من نصيب الامام ، فضربه عبد الرحمن بن ملجم بسيف مسموم في جبينه وهو خارج للصلاة ، فمات بعد أيام ، وقبل أن يموت حذر بني عبد المطلب على العموم ، وابنه الحسن على الخصوص من المثلة القاتلة ، أو التعرض لغير قاتله ..

وانتهت الحياة النبيلة بعد أن قدمت معرضا حافلا بالعواطف الانسانية ، التقت فيه عوامل النخوة ، والشجاعة ، والوفاء ، والايمان ، والسماحة ، ولامست سيرة الامام النفس الانسانية في شتى نواحيها .. وتلك مزية الامام .

وقد لام الكاتب من جردوا الامام من خدع الحرب والسياسة . بحجة أنه لم يقبل مشورة الدهاة ، وأخفق فيما ارتآه وتساءل : أكان في وسعه أن يصنع غير ما صنع ؟ ولو كان في وسعه وصنع فهل العاقبة ستكون أسلم ؟؟ ورأى أن استجابته لآراء الدهاة لم تكن مضمونة النجاح ، ولا مأمونة الخطر ، وتناول الامور التي اعتبرت مآخذ عليه ، لمخالفته رأي الدهاة فيها .. كعزل معاوية من ولاية الشام ، وحزمه في معاملة طلحة والزبير ، وعزله لقيس بن سعد من ولاية مصر ، وعدم تسليمه لقتلة عثمان ، وقبوله للخلافة ، وحلل هذه المواقف أعظم تحليل ، وقلبها على وجوهها ، فكانت النتيجة أن عليا كان صاحب الحجة ، ورأيه كان الاصوب ، أو أنه لم يكن ليستطيع أن يفعل غير ما فعل ، وأن الغلطة التي وقعت منه ويقل الخلاف فيها هي : عزله لقيس بن سعد عندما تشكك من مؤازرته لمعاوية ، وقد عرف الامام خطأه في ذلك ، فقال لصحبه : « ان مصر لا يصلح لها الا أحد رجلين : هذا الذي عزلناه ـ يعني قيسا ـ والاشتر » ولكن الاشتر مات في الطريق ..

ولقد سمع علي نفسه رأي أبطال الميدان في أسباب النصر والهزيمة ، وتمييزهم معاوية عليه بالدهاء والسياسة ، فقال : « ٠٠٠ والله ما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى الناس٠٠٠ » ٠٠ وعلل وضعه في قول آخر : « ٠٠٠ ولكنه لا رأي لمن لا يطاع » ٠٠ وعلل موقف أتباعه منه بقوله : « ٠٠ لم تكن بيعتكم اياي فلتة ، وليس أمري وأمركم واحدا ٠٠ اني اريدكم لله ، وأنتم تريدونني لانفسكم » ٠٠

أما خصمه معاوية ٠٠ فقد بين الاسباب التي أعانته على علي بقوله : « انه كان رجلا لا يكتم سرا وكنت كتوما لسري ، وكان يسعى حتى يفاجئه الامر مفاجأة وكنت ابادر الى ذلك ، وكان في أخبث جند وأشدهم خلافا ، وكنت أحب الى قريش منه ، فنلت ما شئت » ٠

وكشف العقاد حقيقة اخرى ، وهي : أن معاوية لو كان في مكان علي لكانت هزيمة مرجحة بل مؤكدة ٠٠ ولم يقصد الكاتب بذلك أن يصف عليا بقوة الدهاء ، وسعة الحيلة ، وانما قصد أن يبرئه من عجز الرأي ، وضعف التدبير ، وساق أمثلة تكشف عن سداد رأيه ، وحسن مشورته ، وحزمه ، ومعرفته للرجال والجماهير ، وقال : ان هذا كاف لمهمة الحكم لو تصدى به الامام للخلافة والعصر عصر خلافة ، وليس بعصر دولة دنيوية مضطربة في دور تأسيسها ، وتلفيق أجزائها ، وأنه اذا كان لا بد من ملك أو خلافة ، فلا يمكن أن يكون ملكا بأدوات خليفة ، ولا خليفة بأدوات ملك ، ولن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلا يريد العصر والعصر يريده ، لانه عصر ملك تهيأت له الدواعي الاجتماعية ، وتهيأ له الرجل بخلائقه ، ونياته ، ومعاونة أمثاله ٠٠

ورد الكاتب على الناقدين لعلي فوات الخلافة عليه منذ وفاة الرسول حتى فاجعة عثمان ، وبين ان ذلك كان لاسباب خارجة عن ارادة علي ، فهناك عامل العصبية ، وعامل السن ، وعامل الصنعة العالمية للدولة الاسلامية ٠٠

ومهما يكن من حكم الناقدين لسياسة الامام ، فمن التعسف أن يطالب بدفع شيء لا سبيل الى دفعه ، وأن يحاسب على مصير الخلافة ، وهي منتهية لا محالة الى ما انتهت اليه ٠٠ ومن التعسف أن يلام الامام ، لانه باء بشهادة الخلافة ٠٠ ولا بد لها من شهيد ٠٠

لقد كان في سياسته فهم وعلم ، وان لم يكن فيها الحيلة العملية التي هي الى الغريزة أقرب منها الى الذكاء ، فكان نعم الخليفة لو صادف أوان الخلافة ، وكان نعم الملك لو جاء بعد توطيد الملك ، واستغنائه عن المساومة والاسفاف ٠

ولو انتقلنا الى حكومة الامام ٠٠ نرى ان الفترة التي قضاها في الخلافة لم يبارحها الصراع لحظة ، وكان الصراع داخليا لم يتجاوز الحدود ، فانقضت أيامه وليس للحكومة الاسلامية سياسة خارجية ، وانما كان لها سياسة داخلية ٠٠ فكانت سياسة مع رعاياه أساسها أن يكون الناس في الحقوق

سواء ، فلا اجحاف بالضعفاء ، ولا محاباة للأقوياء ‥ واستدل الكاتب على ذلك بموقفه من القطائع التي وزعت قبله على المقربين والرؤساء ، وفرضه على ولاته الرفق بالرعية ، وساق مثالا من وصاياه لولاته ، ووصاياه في تحصيل الخراج والصدقات ، ودستوره في تحصيل الضرائب ، ودستوره في الولاة والعمال ‥

ورد الاستاذ العقاد على من اتهموا عليا بأنه آثر الاقرباء بالولايات ، فأتى ما أنكره على عثمان من قبله ‥ وبين أن هذا نوع من المقارنة بالاشكال والحروف دون البواطن والغايات ، فظروف الامام قد اضطرته لذلك بعد أن حاربته قريش ، وشاعت الفرقة والشغب بين أعوانه من أبناء الامصار ، وانه كان يحاسب أقاربه من الولاة على ما في أيديهم أعسر حساب ، حتى انهم كانوا يتركون ولاياتهم ويستقيلون منها كما فعل ابن عباس حين هجر البصرة الى مكة ، وكان يؤنب ولاته على حضور الولائم التي لا يجمل بهم حضورها ‥ فكان الروح الانساني هو قوام الحكومة الامامية كما ينبغي أن يكون ‥

وأثبت الكاتب للامام عذره في حرقه للروافض الذين ألهوه ، وأشار الى أن الحقوق العامة في حكومة الامام كان لها شأن لا ينسى مع حقوق الافراد ، وان اختياره للكوفة عاصمة للامامة العالمية كان أوفق اختيار ، لانها كانت ملتقى الشعوب من جميع الاجناس ، لمكانتها التجارية الهامة ، ومركزها الثقافي الممتاز .

وعن النبي والامام ‥ ذكر الكاتب أن هناك العديد من الاحاديث المتواترة في فضل علي ومحبته ، منها ما انفرد به كحديث الخيمة الذي رواه الصديق ، ومنها ما اشترك فيه مع غيره كما جاء في رواية عائشة حين سئلت عن أحب الناس الى رسول الله ، واستخلص من آراء المتشيعين لعلي أو عليه في تأويل هذه الاحاديث ، ان عليا كان من أحب الناس الى النبي ان لم يكن أحبهم اليه على الاطلاق ، فهو ابن عمه الذي كفله ، وربيبه ، وزوج أحب بناته اليه ، وبديله في الفراش ليلة الهجرة ، ونصيره في غزواته ، وتلميذه الذي تعلم على يديه ، لذلك لم يقف الامر عند حب النبي له ، وانما كان يحببه الى الناس ، وذكر الكاتب العديد من أقوال النبي في ذلك ، ومنها : « أيها الناس ، لا تشكوا عليا ، فوالله انه لجيش في ذات الله » ولاح له أن النبي بذلك ، وبما وكل اليه من أعمال ، كان يهيئه للخلافة في وقت من الاوقات ، على أن يكون اختيار الناس له طواعية وحبا ‥

وعن علي والصحابة ‥ بين الكاتب أنها كانت علاقة زمالة مرعية ، وتنافس يثوب الى الصبر والتحمل والتقية ، فلم تربطه بهم الفة حميمة ، ولم تقصه عنهم عداوة وبغضاء ، فليست طبيعته بالتي تحقد على الناس ، وان حقد الناس عليها وأفرطوا ‥ وألمح الى موقفه من الخلفاء السابقين ، وأنه كان يرى

نفسه أحق بالخلافة ، ولقد تخلف ستة أشهر عن مبايعة الصديق ، ثم قال له يوما : « انه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر انكار لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله اليك ، ولكنا كنا نرى ان لنا في هذا الامر حقا ، فاستبددتم به علينا » .. ومع ذلك فقد أظهرت أحاديثه أنها أقل ما تشعر به النفس الانسانية في هذه الحالة من النفرة والنقمة ، ولم تسجل عليه كلمة تستغرب من مثله .. وأعان الخلفاء السابقين برأيه وعلمه ، وجاملهم مجاملة الكريم بمسلكه ومقاله ، وكان وفيا معهم في حياتهم وبعد مماتهم ، ومخطىء من يستند الى فتواه في مقتل الهرمزان كدليل على كراهيته لعمر ، أو نقمة منه في أبنائه ..

وكان أعرف بالعهد ، وأصون له حتى في حومة الحرب ، وليس أدل على ذلك من موقفه مع طلحة والزبير في وقعة الجمل ..

ولم يرزق الالفة الحميمة ، لانه من أصحاب المزايا التي تغرى بالمنافسة والحسد .. فهو شجاع ، عالم ، بليغ ، ذكي ، موصول النسب بأعرق الارومات .. فان لم يحسد هذا فمن يحسد ؟

وهكذا فرضت على الرجل العظيم ضريبة العظمة الغريبة في ديارها ، وبين آلها وأنصارها ...

فالعلاقة بينه وبين كرام الصحابة كانت علاقة الزمالة التي ينوب فيها الواجب مناب الالفة .. والعلاقة بينه وبين خصومه كانت علاقة حسد غير مكفوف ، وبغض غير مكتوم .. والعلاقة بينه وبين سواء العامة كانت علاقة غرباء يجهلونه ، ولا ينفذون الى لبابه ، وان قاربه اناس معجبون ، وباعده اناس نافرون .. وتلك أيضا آية الشهيد .

وفي تناول العقاد لثقافة علي .. تعرض للقب الامام الذي اختص به ، بحيث اذا أطلق لا ينصرف لسواه ، مع ان من سبقوه من الخلفاء كان كل منهم اماما !! وأرجع ذلك الى أن الامامة في عهد الخلفاء لم يكن عليها صراع ، فكلهم امام حيث لا اشتباه ولا التباس ، ولكن الامام بغير تعقيب ولا تزييل هو الامام كلما وقع الاشتباه والالتباس .. وبقد تفرد الامام باتصاله بمذاهب الفرق الاسلامية منذ وجدت ، واتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد ، كما اتصلت بينه وبين علماء الفقة والشريعة ، وعلماء الادب والبلاغة ، فهو استاذ هؤلاء جميعا ، ومن هنا كان الاجدر بلقب الامام واتفق للامام في صفة الامامة — كغيرها من جل صفاته — آية من آيات الشهداء ، وهي بخس حقهم في الحياة ، واعطاؤهم فوق حقوقهم بعد الممات .. فنحلوه ديوانا من الشعر ، وعلما يسمى بعلم الجفر ، ومقامات خلت من حرف الالف ، وأقوالا لم تعرف من مصطلحات علم الكلام ، وبعض ما نحلوه يزيده قدرا ، ويرفعه شأنا ألا تصح نسبته اليه ..

والامام نظم الشعر ، ولكنه لم يمتلك الاجادة فيه ، وكان ناقدا خبيرا ، وما نسب اليه في التوحيد ، والقضاء ، والفقه ، وعلم النحو ، وفن الكتابة ، وفرائد الحكمة ·· هذه كلها ذخائر يمكن أن تكون أساسا لموسوعة المعارف الاسلامية ··

وللامام فضل كبير في انشاء علم النحو ·· وهو الذي أضفى صبغة الانشاء على الرسائل والعظات ، وكلمة الجوامع طراز فريد في حكمة السلوك على اسلوب الامثال السائرة ، وكل نمط من أنماط كلامه شاهد له بالملكة الموهوبة من قدرة الوعي ، وقدرة التعبير ·· فهو — ولا شك — من أبناء آدم الذين علموا الاسماء ، وأوتوا الحكمة وفصل الخطاب ··

أما ثقافته العسكرية ·· ففنه العسكري فن بطل مغوار يناضل الافراد ، وينفع الجيش الذي هو فيه بقدوة الشجاعة ، واذكاء الحماسة ، وتعزيز الثقة بين صفوفه ، ويعرف كيف يهجم في الوقت الملائم ، وكيف يحتال على عدوه لتوهين عزمه ، وساق الكاتب بعضا من وصاياه في تسيير الجيوش ، وتأديب الجند ، ومعاملتهم لسكان البلاد ··

وعلى العموم ·· فثقافة الامام ثقافة الفارس المجاهد بسيفه وقلمه ، ويتشابه في الجهاد بأسه وتقواه ، فهو فارس يتلاقى في الشجاعة دينه ودنياه ، وهو عالم يتلاقى في الدين والدنيا بحقه ونجواه ·

ولقد كان للامام رأي خاص في المرأة ، خلاصته : أنها شر كلها ، وشر ما فيها أنه لا بد منها ، وكان يرى أن « خيار خصال النساء شرار خصال الرجال : الزهو ، والجبن ، والبخل ·· فاذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها ، واذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها ، واذا كانت جبانة فرقت من كل شيء يعرض لها » ··

وكان يتلطف بالمرأة ، ويصفح عن عدوانها ، متأثرا في ذلك بآداب الفروسية التي طبع عليها ··

ولم يكن رأيه في المرأة مستمدا من حياته البيتية ، وانما من ثقافته ومعرفته لآراء الاقدمين فيها ، والا فقد كانت حياته على أحسن ما وصفت به الحياة الزوجية بين أمثاله ·· عاش مع السيدة فاطمة ، ولم يتزوج بأخرى في حياتها حتى ماتت بعد النبي بستة أشهر ، وكان وفيا لها ، وأنجبت له الحسن ، والحسين ، ومحسن ، وأم كلثوم ، وزينب ·· ولما ماتت تزوج بعدها ، وكان وافر الحظ من الذرية ··

وكان أبا سمحا يستريح الابناء الى عطفه ، ويجترئون على مساجلته الرأي ، وكان يشعر بالزهو حينما يحيط به أبناؤه في محافل الروع أو مشاهد الزخرف ، وزهوه كان زهو الشجاع الفخور بأشباله الشجعان ·

ومن أقواله : « ان للوالد على الولد حقا ، وان للولد على الوالد حقـا ، فحق الوالد على الولد أن يطيعه في كل شيء الا في معصية الله سبحانه ، وحق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ، ويحسن أدبه ، ويعلمه القرآن » ..

وكانت عيشته عيشة زهـد وكفاف : يطحـن لنفسه ، ويأكـل الخبز اليابس الذي يكسره على ركبته ، ويلبس الرداء الذي يرعد فيه ..

وعموما .. لم يمت أحد من رعاياه عن نصيب أقل من النصيب الـذي مات عنه وهو خليفة للمسلمين ، في وقت كانت الخلافة تناقض ملك الدنيا ، ولكن بيته كان نقيض القصر الذي تعرض الدنيا المملوكة بين أركانه وزواياه .

ان الشجاع جريء على الدنيا ، لانه لا يبالي الحياة ، والزاهد جريء على الدنيا ، لأنه لا يبالي النعيم ، وطالب الحقيقة جريء على الدنيا ، لان غايته من ورائها ... والامام خلق متجرئـا على الدنيـا بشجاعتـه ، وزهده ، وطلبه للحقيقة ، فأي مصير ينتظره غير الشهادة ؟ انه مستشهد حتى ولو مات على سريره ، وحياته آيات من آيات الشهادة ... ولئن كـان قد أخفق .. فانـه أخفق حيث يشرفه الاخفاق ، وحيث يخفق الآخرون لو نصبتهم الاقدار في مثل مكانه ، ولا يمكن القول : بأنه أخفق في العمل لانـه لم يغلب القدر ، فذلـك تكليف بما لا يطاق ..

وبفوز الامام بالشهادة .. كانت نهاية البداية ، وبداية النهاية .

ولا يسعني في النهاية الا أن اقدم تحية اعجاب بالبطل والكاتب .. هذا في طهارة نشأته ، وعراقة أرومته ، ونقاء سريرته ، وعلو همته ، وقوة ارادته ، وغزارة علمه وثقافته ، وروعة زهده وحكمتـه ، وصدق ايمانـه وشجاعته ، وثباته على الحق ونصرته ، وتضحيته في سبيله بروحه ومهجته .. والآخر .. في جمال عرضه ، وصحـة نقده ، وقوة رده ، وحلاوة لفظـه ، ودقة فهمه ، وبراعة فكره ، ونبل قصده ..

تحية .. وألف تحية .

مهـدي عبـد الحميـد مصطفى
مبعوث الازهر الشريف في لبنان

تقديم

فى كل ناحية من نواحى النفوس الانسانية ملتقى بسيرة علي بن أبى طالب رضوان الله عليه ..

لأن هذه السيرة تخاطب الانسان حيثما اتجه اليه الخطاب البليغ من سير الأبطـال والعظماء ، وتثير فيه أقوى ما يثيره التاريخ البشرى من ضروب العطف ومواقع العبرة والتأمل .

فى سيرة ابن أبى طالب ملتقى بالعاطفة المشبوبة[1] والاحساس المتطلع الى الرحمة والاكبار .. لأنه الشهيد أبو الشهداء ، يجرى تاريخه وتاريخ أبنائه فى سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة ، ويتراءون للمتتبع من بعيد واحدا بعد واحد شيوخا جللهم[2] وقار الشيب ثم جللهم السيف الذى لا يرحم ، أو فتيانا عوجلوا وهم فى نضرة العمر يحال بينهم وبين متاع الحياة ، بل يحال بينهم أحيانا وبين الزاد والماء ، وهم على حياض المنية[3] جيـاع ظماء .. وأوشك الألم لمصرعهم أن يصبغ ظواهر الـكون بصبغتهم وصبغة دمائهم ، حتى قال شاعر فيلسوف كأبى العـلاء لا يظن به التشيع بل ظنت باسلامه الظنون :

وعلى الأفق من دماء الشـهيد ين علي ونجـله شـاهدان
فهمـا فى أواخـر الليـل فجرا ن ، وفى أوليـاته شـفقان

وهـذه غاية من امتزاج العاطفة بتلك السيرة قلمـا تبلغها فى سـير الشـهداء غاية ، وكثيرا ما تنمطش اليها سرائر الأمم فى قصص الفـداء التى عمرت بها تواريخ الأديان ..

وفى سيرة ابن أبى طالب ملتقى بالخيال حيث تحلق الشاعرية الانسانية

---

(١) أي المتوقدة . (٢) أي اكسبهم جلالا وعظمة . (٣) أي الموت .

فى الأجواء أو تغوص فى الأغوار[1]. فهو الشجاع الذى نزعت به الشاعرية الانسانية منزع الحقيقة ومنزع التخيل ، واشترك فى تعظيمه شهود العيان وعشاق الأعاجيب ... ألم يحارب المردة[2] فى فلواتها ؟ .. ألم يخلق له الرواة أندادا من المناجزين والمبارزين لم يخلقهم الله ؟.. ألم يستصغر عليه المحبون الغالبون فى الحب أن يصرع من عرفنا من خصومه فأنشئوا له من الخصوم المغلوبين من لم يعرفهم ولم يعرفوه ؟.. ألم يوشك من وصفوه ووصفوا وقعاته وفتكاته أن يلحقوه بأبطال الأساطير وهو هو أصدق الأبطال فى أصدق مجال

وتلتقى سيرته ـ عليه رضوان الله ـ بالفكر كما تلتقى بالخيال والعاطفة ، لأنه صاحب آراء فى التصوف والشريعة والأخلاق سبقت جميع الآراء فى الثقافة الاسلامية ، ولأنه أحجى[3] الخلفاء الراشدين أن يعد من أصحاب المذاهب الحكيمة بين حكماء العصور ، ولأنه أوتى من الذكاء ما هو أشبه بذكاء الباحثين المنقبين منه بذكاء الساسة المتغلبين ، فهو الذكاء الذى تحسه فى الفكرة والخاطرة قبل أن تحسه فى نتيجة العمل ومجرى الأمور ..

وللذوق الأدبى ـ أو الذوق الفنى ـ ملتقى بسيرته كملتقى الفكر والخيال والعاطفة ، لأنه رضوان الله عليه كان أديبا بليغا له نهج من الأدب والبلاغة يقتدى به المقتدون ، وقسط من الذوق مطبوع يحمده المتذوقون ، وان تطاولت بينه وبينهم السنون . فهو الحكيم الأديب ، والخطيب المبين ، والمنشىء الذى يتصل انشاؤه بالعربية ما اتصلت آيات الناثرين والناظمين ..

وللنفس الانسانية نواحيها الكثيرة غير نواحى العطف والتخيل والتفكير ، وتذوق الحسن الجميل من التعبير

فمن نواحيها الكثيرة ناحية لم تنقطع قط فى زمن من الأزمان ، وهى ناحية الخلاف بين الطبائع والأذهان ، أو ناحية الخصومة الناشبة أبدا على رأى من الآراء ، أو حق من الحقوق ، أو وطن من الأوطان

(١) أي الاعماق • (٢) العتاة • (٣) أي أجدر •

فقد يفتر[1] العقل والذوق بعض حين ، وقد يفتر الخيال والعاطفة بعض حين ، ولـكن الذى لم يفتر قط ولا نخاله يفتر فى حين من الأحايين خصام العقول وجدل الألسنة واختلاف المختلفين وتشيع المتشيعين

وان ها هنا للمجال الرغيب[2] والملتقى القريب فى سيرة هذا الامام الأوحد التى لا تشبهها سيرة فى هذه الخاصة بين شتى الخواص ، وهو رضوان الله عليه قد قال فى ذلك أوجز مقال حين قال :

« ليحبنى أقوام حتى يدخلوا النار فى حبى ، ويبغضنى أقوام حتى يدخلوا النار فى بغضى » .. أو حين قال : « يهلك فى رجلان : محب مفرط بما ليس فى ومبغض يحمله شنآنى[3] على أن يبهتنى[4] »

وصدق الامام الكريم فى غلو الطرفين من محبيه ومن مبغضيه . فقد بلغ من حب بعضهم اياه أن رفعوه الى مرتبة الآلهة المعبودين ، وبلغ من كراهة بعضهم اياه أن حكموا عليه بالمروق[5] من الدين : هنا الروافض الغلاة[6] يعبدونه وينهاهم عن عبادته فلا يطيعونه .. ويستتيبهم فيصرون على الكفر أى اصرار ، ويأمر باحراقهم فيقولون وهم يساقون الى الحفيرة الموقدة : انه الله وانه هو الذى يعذب بالنار ! ..

وهناك الخوارج الغلاة يعلنون كفره ويطلبون منه التوبة الى الله عن عصيانه .. ويسبونه على المنابر كما سبه خصومه الأمويون الذين خالفوهم فى العقيدة ووافقوهم على السباب ..

ميدان من ميادين الملاحاة لم يتسع قط ميدان متسعه فى تواريخ الأبطال المعرضين للحب والبغضاء : يقول اناس : اله . ويقول اناس : كافر مطرود من رحمة الله !..

وناحية أخرى من نواحى النفس الكثيرة تلاقيها سيرة الامام فى أكثر من طريق : وتلك هى ناحية الشكوى والتمرد أو ناحية الشوق الى التجديد والاصلاح ..

فقد أصبح اسم علي علما يلتف به كل مغصوب ، وصيحة ينادى بها كل طالب انصاف ، وقامت باسمه الدول بعد موته لأنه لم تتم له دولة فى

(١) فتر يفتر فتورا وفتارا : سكن بعد حدة ، ولان بعد شدة ، والفتر : الضعف • (٢) الواسع • (٣) بغضى • (٤) بهته : قال عليه ما لم يفعله • (٥) بالخروج • (٦) المجاوزون الحد •

حيـاته ، وجعل الغاضـبون على كل مجتمع باغ ، وكل حـكومة جائرة يلوذون بالدعوة العلوية كأنها الدعوة المرادفة لكلمة الاصلاح ، أو كأنها المنفس الذى يستروح اليـه كل مكظـوم .. فمن نازع فى رأى ، ففى اسم علي شفاء لنوازع نفسه ، ومن ثار على ضيم[1] ففى اسم علي حافـز لثورته ومرضاة لغضبه ، ومن واجه التاريخ العربى بالعقل أو بالذوق أو بالخيال او بالعاطفة فهناك ملتقى بينه وبين علي فى وجـه من وجوهه ، وعلى حالة من حالاته ، وتلك هى المزية التى انفـرد بها تاريخ الامام بين تواريخ الأئمة الخلفاء ، فأصبحت بينه وبين قلوب الناس وشائج[2] تخلقها الطبيعة الآدمية ان قصر فى خلقها التاريخ والمؤرخون...

وكل ملتقى من هذه الملتقيات يدع الكاتب فى حذر ما بعده من حذر ، لأن اشتباك العوامل النفسية يزيد صعوبة الباحث عن نفس من النفوس ، ولا ينقصها أو يئول بهـا الى البساطة والوضوح ، وكلمـا قلت هـذه العوامل وانحصرت فى ناحية من النواحى سهل الخلوص الى مقطع الحق فيها ، فالبطل الذى يلتقى بالفكر وحده أسهل من البطل الذى يلتقى بالفكر والعاطفة ، وان هـذا لأسـهل من الذى يلتقى بالفكر والعاطفة والخيال ، وكل أولئك أسهل ممن يلتقى فى ألف سـنة متوالية بدخـائل النفوس جميعا من طموح الى المثل الأعلى ، أو حرص على الملاحاة[3] ، أو شغف بالبلاغة أو رياضة على التقوى ، مزيدا على الخيل والشعور والتفكير

لهذا نعلم غير مترددين فى علمنا أن واجبنا فى « عبقرية الامام » مرسوم الغاية والطريق ، وهو واجب التبسيط والقصد الى الخطة الوسطى ، وفى علمنا بهذا بعض التيسير ، وان لم يكن فيه كل التيسير ، نرجع « بعبقرية الامام » الى الحقيقة الوسطى

نرجع من عشرين طريقا الى بداية واحدة ، لأن الطريق الواحـدة لا تؤدى اليها أقرب أداء . وحسبنا اننا عرفنـا ضرورة الرجوع من كل هذه الطرق الى تلك البداية المقصودة فعلى بركة الله ..

عباس محمود العقاد

---

(١) ظلم · (٢) أي صلات · (٣) لاحاه ملاحاة ولحاء : نازعه ·

صفـاته

المشـهور عن على كرم الله وجهـه انه كان أول هاشـمى من أبوين هاشميين .. فاجتمعت له خلاصة الصفات التى اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها فى كثير من أعلامها المقدمين ، وهى فى جملتها النبل والايد[1] والشجاعة والمروءة والذكاء، عدا المأثور فى سماتها[2] الجسدية التى تلاقت أو تقاربت فى عدة من أولئك الأعلام

فهو ابن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبـد مناف ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف

وقيـل ان اسمه الذى اختارته له أمه : حيدرة باسم أبيهـا أسـد ، والحيدرة هو الأسد .. ثم غيره أبوه فسماه عليا وبه عرف واشتهر بعد ذلك ..

وكان على أصغر أبناء أبويه ، وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب ، وبين كل منهم وأخيه عشر سنين

قيل ان عقيلا كان أحب هؤلاء الأخوة الى أبيه ، فلمـا أصاب القحط قريشا وأهاب[3] رسول الله عليه السلام بعميه حمزة والعباس أن يحمـلوا ثقل أبى طالب فى تلك الأزمة جاءوه وسألوه أن يدفع اليهم ولده ليـكفوه أمرهم ، فقال : دعوا لى عقيلا وخذوا من شئتم . فأخذ العبـاس طالبا وأخذ حمزة جعفر وأخـذ النبى عليه السـلام عليـا كما هو مشهور . فعوضه ايثار النبى بالحب عن ايثار أبيه ، ولكنه عـرف هـذا الايثار فى طفولته الأولى فكان سابقة باقية الأثر فى نفسه على ما يبـدو من أطوار حياته التالية ، وجاءت لهذه السابقة لواحقها الكثيرة على توقع واستعداد

(١) جمع يد ، ومـن معاني اليد : القوة والنعمـة والاحسان . (٢) أي علاقاتها . (٣) أهاب بعميه : أي دعاهما .

فتعود أن يفوته الحق والتفضيل وهو يدرج فى صباه

وربما صح من أوصاف عليّ فى طفولته أنه كان طفلا مبكر النماء سابقا لأنداده فى الفهم والقدرة ، لأنه أدرك فى السادسة أو السابعة من عمره شيئا من الدعوة النبوية التى يدق فهمها والتنبه لها على من كان فى مثل هذه السن المبكرة . فكانت له مزايا التبكير فى النماء كما كانت له أعباؤه ومتاعبه التى تلازم أكثر المبكرين ، ولا سيما المولودين منهم فى شيخوخة الآباء ..

ونشأ رضى الله عنه رجلا مكين[1] البنيان فى الشباب والكهولة ، حافظا لتكوينه المكين حتى ناهز[2] الستين ..

قال واصفوه وهو فى تمام الرجولة انه كان رضى الله عنه ربعة أميل الى القصر ، آدم — أى أسمر — شديد الادمة ، أصلع مبيض الرأس واللحية طويلها ، ثقيل العينين فى دعج وسعة ، حسن الوجه واضح البشاشة ، أغيد[3] كأنما عنقه ابريق فضة ، عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش[4] السبع الضارى لا يتبين عضده من ساعده قد أدمجت ادماجا . وكان أبجر — أى كبير البطن — يميل الى السمنة فى غير افراط ، ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها ، ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها ، شثن[5] الكفين ، يتكفأ فى مشيته على نحو يقارب مشية النبى ، ويقدم فى الحرب فيقدم مهرولا لايلوى على شيء

وتدل أخباره — كما تدل صفاته — على قوة جسدية بالغة فى المكانة والصلابة على العوارض والآفات . فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل ، ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس ، واشتهر عنه انه لم يصارع أحدا الا صرعه ، ولم يبارز أحدا إلا قتله ، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه الا رجال ، ويحمل الباب الكبير يعيى بقلبه الأشداء ، ويصيح الصيحة فتنخلع لها قلوب الشجعان

---

(١) قوي . (٢) قارب . (٣) الانسان المائل العنق . (٤) شاش : جمع مشاشة ، وهي : رأس العظم الممكن المضغ ، وأمش العظم : أقمخ . (٥) شثنت كفه : خشنت وغلظت .

ومن مكانة تركيبه رضى الله عنه انه كان لا يبالى الحر والبرد ، ولا يحفل الطوارىء الجوية فى صيف ولا شتاء ، فكان يلبس ثياب الصيف فى الشتاء وثياب الشتاء فى الصيف ، وسئل فى ذلك فقال : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الى وأنا أرمد العين يوم خيبر فقلت : يا رسول الله ، انى أرمد العين . فقال : اللهم اذهب عنه الحر والبرد ، فما وجدت حرا ولا بردا منذ يومئذ .. »

***

ولا يفهم من هذا أنه رضوان الله عليه كان معدوم الحس بالحر والبرد بالغا ما بلغت بهما القساوة والايذاء . فقد كان يرعد للبرد اذا اشتد ولم يتخذ له عدة من دثار[1] يقيه . قال هرون بن عنترة عن أبيه : دخلت على على بالخورنق وهو فصل شتاء وعليه خلق[2] قطيفة وهو يرعد فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين ، ان الله قد جعل لك ولأهلك فى هذا المال نصيبا وأنت تفعل هذا بنفسك ؟ .. فقال : والله ما أرزؤكم[3] شيئا ، وما هى الا قطيفتى التى أخرجتها من المدينة ...

فليس هو انعدام حس بالصيف والشتاء ، انما هى مناعة قوية خصت بها بنيته ، لم يخص بها معظم الناس .

وكان الى قوته البالغة ، شجاعا لا ينهض له أحد فى ميدان مناجزة[4] ، فكان لجرأته على الموت لا يهاب قرنا[5] من الأقران بالغا ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت ، واجترأ وهو فتى ناشىء على عمرو بن ود فارس الجزيرة العربية الذى كان يقوم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه ، وكانت وقعة الخندق فخرج عمرو مقنعا فى الحديد ينادى جيش المسلمين : من يبارز .. فصاح على : أنا له يانبى الله .. قال النبى وبه اشفاق عليه : انه عمرو . اجلس . ثم عاد عمرو ينادى : ألا رجل يبرز؟.. وجعل يؤنبهم قائلا : أين جنتكم التى زعمتم انكم داخلوها ان قتلتم ؟ .. أفلا تبرزون الى رجلا ؟ .. فقام على مرة بعد مرة وهو يقول : أنا له يارسول الله ، ورسول الله يقول له مرة بعد مرة : اجلس . انه عمرو ، وهو يجيبه :

---

(١) كل ما كان من الثياب فوق الشعار . (٢) البالي . (٣) أي ما أنقصكم ، أو ما أصيب من أموالكم . (٤) مقاتلة . (٥) القرن : كفؤك في الشجاعة .

وان كان عثرا .. حتى أذن له فمشى اليه فرحا بهذا الاذن الممنوع كأنه الاذن بالخلاص .. ثم نظر اليه عمرو فاستصغره وأنف أن يناجزه وأقبل يسأله : من أنت ؟ .. قال ولم يزد : أنا علي . قال : ابن عبد منـاف ؟.. قال : ابن أبى طالب . فأقبل عمرو عليه يقول : يا ابن أخى .. من أعمامك من هو أسن ، وانى أكره أن اهريق دمك ، فقال له على : لـكنى والله لا أكره أن أهريق دمك . فغضب عمرو وأهوى اليه بسيف كان كما قال واصفوه كأنه شعلة نار ، واستقبل علي الضربة بدرقته فقـدها[1] السيف وأصاب رأسه ، ثم ضربه عليٌ على حبل عاتقه فسقط ونهض ، وسقط ونهض ، وثار الغبار ، فما انجلى الا عن عمرو صريعا وعلي يجأر بالتكبير

وكأنما كانت شجاعته هذه القضاء الحتم الذى لا يؤسى[2] علي مصابه ، لأنه أحجى المصائب ، وأقلها معابة الا يدفع . فكانت أخت عمرو بن ود تقول على سبيل التأسى بعد موته :

لو كان قاتـل عمرو غير قاتله
بكيته أبدا ما دمـت فى الأبد
لـكن قـاتله من لا نظـير له
وكان يدعى أبوه بيضـة البلد

***

فكانت شجاعته من الشجاعات النادرة التى يشرف بها من يصيب بها ومن يصاب ..

ويزيدها تشريفا انها ازدانت بأجمـل الصـفات التى تزين شـجاعة الشجعان الأقوياء .. فلا يعـرف النـاس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التى طبع عليها علي بغير كلفة ولا مجـاهدة رأى . وهى التورع عن البغى ، والمروءة مع الخصم قويا أو ضعيفا على السواء ، وسلامة الصدر من الضغن[3] على العدو بعد الفراغ من القتال...

فمن تورعه عن البغى ، مع قوته البالغة وشجاعته النادرة ، انه لم يبـدأ أحدا قط بقتال وله مندوحة[4] عنه ، وكان يقول لابنه الحسن : « لا تدعون

(١) من معاني القد : التقطيع • (٢) من الأسى هو الحزن • (٣) الحقد •
(٤) أي سعة •

الى مبارزة . فان دعيت اليهـا فأجب . فان الداعى اليها باغ والبـاغى مصروع » ..

وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه ، وقيل له: انهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك ، فقـال : « لا أقاتلهم حتى يقاتلونى . وسيفعلون ! .. »

وكذلك فعل قبل وقعة الجمل ، وقبل وقعة صفين ، وقبل كل وقعة صغرت أو كبرت ووضح فيها عداء العدو أو غمض : يدعوهم الى السلم وينهى رجاله عن المبادأة بالشر ، فمـا رفع يده بالسيف قط الا وقـد بسطها قبل ذلك للسلام...

كان يعظ قوما فبهرت عظته بعض الخوارج الذين يكفرونه فصـاح معجبا اعجاب الكاره الذى لا يملك بغضه ولا اعجابه : قاتله الله كافرا ما أفقهه .. فوثب أتباعه ليقتلوه . فنهاهم عنه ، وهو يقول : انما هو سب بسب أو عفو عن ذنب ..

وقد رأينا أنه كان يقول لعمرو بن ود : انى لا أكره أن اهريق دمك .. ولكنه على هذا لم يرغب فى اهراق دمه الا بعد يأس من إسلامه ومن تركه حرب المسلمين .. فعرض عليه أن يكف عن القتـال فأنف ، وقال : اذن تتحدث العرب بفرارى ، وناشده : ياعمرو . انك كنت تعاهد قومك الا يدعوك رجل من قريش الى خلتين[1] الا أخذت منـه احداهما . قال : أجل . قال : فانى أدعوك الى الاسلام أو الى النزال . قال : ولم يا ابن أخى ؟ .. فوالله ما أحب أن أقتلك .. فلم يكن له بد بعد ذلك من احدى اثنتين : أن يقتله أويقتل على يديه

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد[2] فى العداء لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصـحابه عندهم الا بمقـدار ما استحقوه فى موقف الساعة : فاتفق فى يوم صفين أن خرج من أصـحاب معاوية رجل يسمى كريز بن الصباح الحميرى فصاح بين الصفين : من يبارز ؟ .. فخرج اليه رجل من أصحاب علي فقتله ووقف عليه ونادى :

---

(١) الخلة : الخصلة . (٢) أي الشدة في العداء .

من يبارز ؟.. فخرج اليه آخر فقتله وألقاه على الأول ، ثم نادى : من يبارز ؟.. فخرج اليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبه ، ثم نادى رابعة : من يبارز ؟ .. فأحجم الناس ورجع من كان فى الصف الأول الى الصف الذى يليه ، وخاف علي أن يشيع الرعب بين صفوفه فخرج الى ذلك الرجل المدل[1] بشجاعته وبأسه فصرعه ثم نادى نداءه حتى أتم ثلاثة صنع بهم صنيعه بأصحابه ، ثم قال مسمعا الصفوف : يا أيها الناس . ان الله عز وجل يقول : « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص[2] » ، ولو لم تبدءونا ما بدأناكم .. ثم رجع الى مكانه .

أما مروءته فى هذا الباب فكانت أندر بين ذوى المروءة من شجاعته بين الشجعان . فأبى على جنده وهم ناقمون أن يقتلوا مدبرا أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا سترا أو يأخذوا مالا . وصلى فى وقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء ، وظفر بعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهم ألد أعدائه المؤلبين[3] عليه فعفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء ، وظفر بعمرو بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذى عدة فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوأته اتقاء لضربته .. وحال جند معاوية بينه وبين الماء فى معركة صفين وهم يقولون له : ولا قطرة حتى تموت عطشا .. فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سوغ[4] لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده ، وزار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفية أم طلحة الطلحات : أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادى . فلم يرد عليها شيئا ، ثم خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها . قال رجل أغضبه مقالها : يا أمير المؤمنين . أتسكت عن هذه المرأة وهى تقول ما تسمع ؟ .. فانتهره وهو يقول : ويحك ؟.. انا أمرنا أن نكف عن النساء وهن مشركات أفلا نكف عنهن وهن مسلمات ؟.. وانه لفى طريقه اذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة . ثم ودع السيدة عائشة أكرم وداع وسار فى ركابها أميالا وأرسل معها من يخدمها ويحف بها . قيل

---

(١) أي المعجب المغرور · (٢) من الآية : ١٩٤ من سورة البقرة ·
(٣) الذين يجمعون الناس عليه بالظلم والعداوة · (٤) أجاز ·

انه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمائم وقلدهن السيوف .. فلمـا كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأففت[1] وقالت : هتك سترى برجاله وجنده الذين وكلهم بى .. فلمـا وصلت الى المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها : انما نحن نسوة

وكانت هذه المروءة سنته[2] مع خصومه ، من استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها ، ومن كان فى حرمة عائشة رضى الله عنها ومن لم تكن له قط حرمة ، وهى أندر مروءة عرفت من مقاتل فى وغر[3] القتال ..

وتعدلها فى النبل والندرة سلامة صدره من الضغن على أعدى الناس له وأضرهم به وأشهرهم بالضغن عليه . فنهى أهله وصحبه أن يمثـلوا بقاتله وأن يقتلوا أحدا غيره ، ورثى طلحة الذى خلع بيعته وجمع الجموع لحربه رثاء محزون يفيض كلامه بالألم والمودة ، وأوصى أتباعه الا يقاتلوا الخوارج الذين شقوا صفوفه وأفسدوا عليه أمره وكانوا شرا عليه من معاوية وجنده ، لأنه رآهم مخلصين وان كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصرين ..

***

وتقترن بالشجاعة — ولا سيما شـجاعة الفرسان المقاتلين بأيديهم — صفة لازمة لها متممة لعملها قلما تنفصل عنها وكأنها والشجاعة أشبه شىء بالنضح[4] للماء ، أو بالاشعاع للنور ، فلا تكون شجاعة الفروسية الا كانت معها تلك الصفة التى نشير اليها ، وهى صفة « الثقة » أو « الاعتزاز » أو الادراع بالهيبة والتهويل على الخصوم ولا سيما فى مواقف النزال

وقد يسميها بعض الناس زهوا وليست هى به ولا هى من معـدنه وسمته ، وان شابهته فى بعض الملامح والألوان

فالزهو المذموم فضول لا لزوم له ولا خير فيه ، وهو لون خادع قد يوجد مع الضعف كما يوجد مع القوة ، وقد يبدو على الجبان كما يبدو على الشجاع ..

أما هذا الاعتزاز الذى نشير اليه ، أو هذه الثقة التى تظهـر لنـا فى

(١) أظهرت ضجرها ، أو قالت : أف . (٢) أي طريقته . (٣) حقـد ، والضغن ، والعـداوة ، والتوقد مـن الغيظ ، ووغـر القتـال : أي شدته . (٤) بالرسن .

صورة الاعتزاز ، فهى جزء من شجاعة الفارس المقاتل لا يستغنى عنه ولا يزال متصلا بعمله فى مواجهة خصومه ، وهو عرض للقوة يساعد الفارس فى ارهاب عدوه واضعاف عزيمة من يتصدى لحربه .. مثله هنا كمثل العروض التى تعمد اليها الجيوش لاعلان بأسها وتخويف الأعداء من الاستخفاف بها والهجوم عليها . فهو كالشجاعة أداة ضرورية من أدوات القتال لا تنفصل عنها ، وليس كل ما فيها ضربا من الخيلاء يرضى به الشجاع غروره ويتيه[1] به فى غير حاجة الى التيه

ولهذا تحمس الناس للفخر العسكرى من قديم الزمن وعهدوه وتحدثوا به وتناقلوه ، فسمحوا للفارس — بل لعلهم أوجبوا عليه — أن يروغ من خصمه بالفخر المرعب اذ يتقدم لنزاله ، وأن يلاقيه وهو ينشد الأشعار فى ذكر وقعاته والتهويل بضرباته والاشادة بغزواته ، وعلموا انهم — وقد احتاجوا الى شجاعته — محتاجون كذلك الى فخره وحماسته وايقاع الرعب فى جنان[2] قرنه ، فشاعت قصائد الفخر والحماسة كما شاعت قصائد الحب والمناجاة ، وهى أحب القصائد الى القلوب

***

ومن تأصل هذه العادة فى الطبائع انها تشاهد فى جميع الأحياء فطرة وارتجالا بغير اصطناع ولا تعمد . فلا نرى حيا من الأحياء الناطقة أو العجماء ينازل قرنا له الا حاول ما استطاع أن يهوله بتكبير حجمه واستطالة قدره وائتمار نظره وتنفيش ريشه أو شعره ، ويقف الانسان مثل هذا الموقف فيطيل قامته ويبرز صدره ويدق بيده عليه ويقول بلسان حاله ما يقال باللسان ، فاذا هو الفخر والحماسة واذا هو عنوان الثقة والاقدام ..

هذه الصفة لازمة لفرسان الميدان ، ولا سيما فرسان العصور الأولى الذين يقفون للقتال وجها لوجه ، وينظر أحدهم الى قرنه وهو يهجم عليه

وكانت هذه الصفة من صفات علي رضى الله عنه ، يفهمها من يريد أن يفهم ولا يضيق صدرا بفضله ، وينكرها من ينفس[3] عليه فيسميها الزهو

---

(١) يتكبر . (٢) الجنان : القلب . (٣) أي يحسده .

أو يسميها الجفوة والخيلاء . قال له قيس بن سعد بعد عزله من ولاية مصر : انك والله ما علمت لتنظر الخيلاء .. ومر الزبير بن العوام مع رسول الله فى بنى غنيم ، فرأى رسول الله عليا على مقربة منه فضحك له وضحك عليٌّ يحييه . فقال الزبير : لا يدع ابن أبى طالب زهوه . قال رسول الله : انه ليس به زهو ، ولتقاتلنه وأنت له ظالم ..

فليس هو بالزهو المكروه ، ولكنها الشجاعة التى يمتلىء بها الشجاع والثقة التى تتراءى مكشوفة فى صراحتها واستقامتها ، لأن صاحبها لم يتكلف مداراتها ولم يحس انه يحتاج الى مداراتها ، ولأنه لا يقصدها ولا يتعمد ابداءها ..

***

وقد كان مدار هذا الخلق فى ابن أبى طالب على ثقة أصيلة فيه لم تفارقه منذ حبا ودرج ، وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال . فما منعته الطفولة الباكرة يوما أن يعلم انه شىء فى هذه الدنيا وانه قوة لها جوار يركن اليه المستجير . ولقد كان فى العاشرة أو نحوها يوم أحاط القروم[١] القرشيون بالنبى عليه السلام ينذرونه وينكرونه وهو يقلب عينه فى وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير .. لو كان بعلي أن يرتاع فى مقام نجدة أو مقام عزيمة لارتاع[٢] يومئذ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية الى مقام الخشية والخشوع . ولكنه كان عليا فى تلك السن الباكرة كما كان عليا وهو فى الخمسين أو الستين .. فما تردد وهم صامتون مستهزئون أن يصيح صيحة الواثق الغضوب : أنا نصيرك .. فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار ، وعلم القدر وحده فى تلك اللحظة أن تأييد ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القروم ..

عليٌّ هذا هو الذى نام فى فراش النبى ليلة الهجرة ، وقد علم ما تأتمر به مكة كلها من قتل الراقد على ذلك الفراش

وعليٌّ هذا هو الذى تصدى لعمرو بن ود مرة بعد مرة والنبى يجلسه

---

(١) السادة . (٢) فزع .

ويحذره العاقبة التى حذرها فرسان العرب من غير تحذير ، يقول النبى : اجلس . انه عمرو . فيقول : وان كان عمرا .. كأنه لا يعرف من يخاف ولا يعرف كيف يخاف ، ولايعرف الا الشجاعة التى هو ممتلىء بها واثق فيها فى غير كلفة ولا اكتراث .

وتمكنت هذه الثقة فيه لطول مراس[1] الفروسية التى هى كما أسلفنا جزء منها وأداة من أدواتها

وزادها تمكينا حسد الحاسدين ولجاجة المنكرين ، وكلاهما خليق أن يعتصم المرء منه بثقة لا تتخذل ، وأنفة لا تلين . فمن شواهد هذه الثقة بنفسه انه حملها من ميدان الشجاعة الى ميدان العلم والرأى حين كان يقول : « اسألونى قبل أن تفقدونى ، فوالذى نفسى بيده لا تسألونى فى شىء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة الا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ، ومناخ ركابها ومحط رحالها » .

ومن شواهدها انه كان يقول والخارجون عليه يرجمونه بالمروق[2] : « ما أعرف أحدا من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا غيرى ، عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين » .

وزاده اتهام من حوله معتصما بالثقة بنفسه ، فلما عتب عليه خصماه طلحة والزبير أنه ترك مشورتهما قال : « نظرت الى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته ، وما استن النبى صلى الله عليه وسلم فاقتديته ، فلم أحتج فى ذلك الى رأيكما ولا رأى غيركما ، ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما واخوانى المسلمين ، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما ... » .

وأبدى هذه الخليقة منه أنه كان رضى الله عنه لا يتكلف ولا يحتال على أن يتألف . بل كان يقول : « شر الاخوان من تكلف له » ويقول : « اذا احتشم[3] المؤمن أخاه فقد فارقه » ، فكان الذين ينتظرون منه الاصطناع والارضاء يخطئون ما انتظروه ، ولا سيما اذا هم انتظروه من أرزاق رعاياه وحقوقهم التى اؤتمن اليها ، فيحسبون انها الجفوة البينة

(١) مزاولة . (٢) يرجمونه بالمروق : يرمونه ويتهمونه بالكفر .
(٣) جشيم الامر جشما وجشامة وتجشمه : تكلفه على مشقة .

وأنه الزهو[1] المقصود وما هو بهذا ولا بتلك .. انما هي شجاعة الفارس بلوازمها التي لا تنفصل منها ، وانما هو امتعاض[2] المغموط المسيء ظنا عن حوله يتراءى على سجيته فى غير مداراة ولا رياء . فما كان يتكلف اظهار تلك الخلائق زهوا كما يسمونه أو جفوة كما يحسبونها ، بل كان قصاراه[3] ألا يتكلف الاخفاء ، فاذا التفت قاصدا الى ما فى نفسه فهو لا يقصد العجب ولا يرضاه ، بل ينهى عنه ويشتد فى اجتنابه ، ويوصى من أحب : « اياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منه .. « واعلم ان الاعجاب ضد الصواب ، وآفة الألباب[4] »

نعم كان ملاك الأمر فى أخلاق على عليه السلام انه كان لا يتكلف اظهار شيء ولا يتكلف اخفاء شيء ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه ، فربما أفرط الرجل فى الثناء عليه وهو متهم عنده فلا يدعه حتى يعلن له طويته ويقول له : « أنا دون ما تقول وفوق ما فى نفسك » .

***

وكانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقته الكبرى من الشجاعة والبأس والامتلاء بالثقة والمنعة ، وكانت تسلك معه مسلك الحقيقة والمجاز على السواء .. كأنه يعنى ما يصنع وهو لا يعنيه ، وانما يجيء منه على البديهة كما تجيء الأشياء من معادنها : كان مثلا يخرج الى مبارزيه حاسر[5] الرأس ومبارزوه مقنعون بالحديد . أفعجيب منه أن يخرج اليهم حاسر[6] النفس وهم مقنعون بالحيلة والرياء ؟ .. وكان يغفل الخضاب أحيانا ويرسل الشيب ناصعا وهو لا يحرم خضابه فى غير ذلك من الأحيان . أفعجيب منه ، مع هذا ، أن يقل اكتراثه لكل خضاب ساترا ما ستر ، أو كاشفا ما كشف ، من رأى وخليقة ؟

بل كانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقة أخرى كالشجاعة فى قوتها ورسوخها .. أو هى قريبة للشجاعة فى نفس الفارس النبيل وقلما تفارقها ، ونعنى بها خليقة الصدق الصراح الذى يجترىء به الرجل على الضر والبلاء كما يجترىء به على المنفعة والنعماء . فما استطاع

(١) من معاني الزهو : الكبر والفخر • (٢) غضب • (٣) أي غـ...
(٤) العقول • (٥) حاسر الرأس : مكشوف الرأس • (٦) أي الحناء •

أحد قط أن يحصى عليه كلمة خالف فيها الحق الصراح فى سلمه وحربه ، وبين صحبه أو بين أعدائه ، ولعله كان أحوج الى المصانعة بين النصراء مما كان بين الأعداء ، لأنهم أرهقوه باللجاجة وأعنتوه بالخلاف ، فما عدا معهم قول الصدق فى شدة ولا رخاء ، حتى قال فيه أقرب الناس اليه : انه رجل يعرف من الحرب شجاعتها ولكنه لا يعرف خدعتها . وكان أبدا عند قوله : « علامة الايمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك ، وألا يكون فى حديثك فضل على علمك ، وأن تتقى الله فى حديث غيرك » ..

***

وصدق فى تقواه وايمانه كما صدق فى عمل يمينه ومقالة لسانه .. فلم يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه فى لذة دنيا أو سيب[1] دولة ، وكان وهو أمير للمؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها ، وكان يختم على الجراب الذى فيه دقيق الشعير فيقول : « لا أحب أن يدخل بطنى ما لا أعلم » .. قال عمر بن عبد العزيز وهو من أسرة أمية التى تبغض عليا وتختلق له السيئات وتخفى ما توافر له من الحسنات : « أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب » . وقال سفيان : « ان عليا لم يبن آجرة[2] على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة » وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة ايثارا للخصاص[3] التى يسكنها الفقراء . وربما باع سيفه ليشترى بثمنه الكساء والطعام . وروى النضر ابن منصور عن عقبة بن علقمة قال : « دخلت على على عليه السلام فاذا بين يديه لبن حامض آذتنى حموضته وكسر يابسة . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتأكل مثل هذا ؟ .. فقال لى : يا أبا الجنوب ، كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا — وأشار الى ثيابه — فان لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به » ..

وعلى هذا الزهد الشديد كان على رضى الله عنه أبعد الناس من كزازة[4] طبع وضيق حظيرة وجفاء عشرة ، بل كانت فيه سماحة يتبسط فيها حتى

(١) العطاء ، والعرف ، ومردى السفينه ، وشعر ذنب الفرس (٢) ما يبنى به ، وهو معرب . (٣) جمع خص ، وهو البيت من القصب (٤) اليبس والانقباض .

يقال:دعابة ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال له : « لله أبوك لولا دعابة فيك » وانه قال لمن سألوه فى الاستخلاف : « ما أظن الا أن يلى أحد هذين الرجلين : علي أو عثمان . فان ولي عثمان فرجل فيه لين ، وان ولى علي ففيه دعابة ، وأحر به أن يحملهم على الطريق ».

***

وأغرق ابن العاص فى وصف الدعابة فسماها « دعابة شديدة » وطفق[1] يرددها بين أهل الشام ليقدح[2] بها فى صلاح الامام للخلافة ، وانما نقول: ان ابن العاص أغرق فى هذا الوصف ، وان الدعابة المعيبة لم تكن قط من صفاته ، لأن تاريخ علي وأقواله ونوادره مع صحبه وأعدائه محفوظة لدينا لا نرى فيها دليلا على خلق الدعابة فضلا عن الدليل على الافراط فيه .. فان كان لهذا الوصف أثر أجاز لعمر بن الخطاب أن يذكره فربما كان مرجع ذلك أن عليا خلا من الشغل الشاغل سنين عدة ، فأعفاه الشغل الشاغل من صرامته وأسلمه حينا الى سماحته وأحاديث صحبه ومريديه فحسبت هذه الدعة من الدعابة البريئة ثم بالغ فيها المبالغون ، ولم يثبتوها بقصة واحدة أو شاردة واحدة تجيز لهم ما تقولوه .

وقد كانت للامام صفات ومزايا فكرية تناصى المشهور المتفق عليه من صفاته النفسية ومزاياه الخلقية . فاتفق خصومه وأنصاره على بلاغته ، واتفقوا على علمه وفطنته ، وتفرقوا فيما عدا ذلك من رأيه فى علاج الأمور ودهائه فى سياسة الرجال .

والحق الذى لا مراء فيه انه كان على نصيب من الفطنة النافذة لا ينكره منصف ، وانه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة فى مشكلات الحكم والقضاء ، وانه كان أشبه الخلفاء بالباحثين والمنقبين أصحاب الحكمة ومذاهب التفكير وعنه أخذ الحكماء الذين شرعوا علم الكلام قبل أن يتطرق اليه علم فارس أو علم يونان .. وكان يفهم أخلاق الناس فهم العالم المراقب لخفايا الصدور ويشرحها فى عظاته وخطبه شرح الأديب اللبيب ..

(١) أي أخذ · (٢) أي ليعيب

الى هنا متفق عليه لا يكثر فيه الخلاف ، ثم يفترق الناس فى رأيه رأيين وان لم يكونوا من الشانئين[1] المتحزبين ، فيقول أناس: انه كان على قسط وافر من الفهم والمشورة ، ولكنه عند العمل لا يرى ما تقضى به الساعة الحازبة[2] ولا ينتفع بما يراه . ويقول أناس: بل هو الاضطرار والتحرج يقيدانه ولا يقيدان أعداءه وانهم لدونه فى الفطنة والسداد . وهو رضى الله عنه قد اعتذر لنفسه بشابه من هذا العذر حين قال : « والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس » ..

***

أما مقطع الرأى بين الرأيين فنرجو أن نفصله في مواضعه من الفصول التالية مشفوعا بمناسباته ، ولكننا نستطيع أن نجزم[3] هنا بحقيقتين تجملان ما نبسطه فى مواضعه من الكتاب ، ولا نحسبهما تتسعان لجدل طويل ، وهما: أن أحدا لم يثبت قط أن العمل بالآراء الأخرى كان أجدى وأنجع[4] فى فض المشكلات من العمل برأى الامام ، وان أحدا لم يثبت قط أن خصوم الامام كانوا يصرفون الأمور خيرا من تصريفه ، لو وضعوا فى موضعه واصطلحت عليهم المتاعب التى اصطلحت عليه . وكلتا الحقيقتين حريه[5] أن تضبط لسان الميزان قبل أن يميل فيغلو به الميل هنا أو هناك

هـذه صفات تنتظم فى نسق موصول : رجل شجاع لأنه قوى ، وصادق لأنه شجاع ، وزاهد مستقيم لأنه صادق ، ومثار للخلاف لأن الصدق لا يدور بصاحبه مع الرضا والسخط والقبول والنفور ، وأصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق ان الناس قد أثبتوا له فى حياته أجمل صفاته المثلى ، فلم يختلفوا على شىء منها الا الذى اصطدم بالمطامع وتفرقت حوله الشبهات ، وما من رجل تتصف المطامع أسباب الطعن فيه ثم تنفذ منه الى صميم .

---

(١) المبغضين • (٢) الامر الحازب : الشديد • (٣) نقطع • (٤) الناجع: المفيد • (٥) أي جديره •

مفتاح شخصيته

« آداب الفروسية » هى مفتاح هذه الشخصية النبيلة الذى يفض منها كل مغلق ويفسر منها كل ما احتاج الى تفسير

وآداب الفروسـية هى تلك الآداب التى نلخصـها فى كلمة واحدة وهى : النخوة[1] ..

وقد كانت النخوة طبعا فى عليّ فطر عليه ، وأدبا من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيه ، وعادة من عادات « الفروسية » العملية التى يتعودها كل فارس شجاع متغلب على الأقران ، وان لم يطبع عليها وينشأ فى حجرها . لأن للغلبة فى الشجاع انفة تأبى عليه أن يسف[2] الى ما يخجله ويشينه[3] ، ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلما ، وتمنعه أن يعمـل فى السر ما يزرى[4] به فى العلانية .

وهكذا كان علي رضى الله عنه فى جميع أحواله وأعماله : بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى ، ولا سيما فى معاملة الضعفاء من الرجال والنساء . فلم ينس الشرف قط ليغتنم الفرصة ، ولم يساوره[5] الريب قط فى الشرف ، والحق انهما قائمان دائمان كأنهما مودعان فى طبائع الأشياء . فاذا صنع ما وجب عليه فلينس من شاءوا ما وجب عليهم ، وان أفادوا كثيرا وباء[6] هو بالخسار ..

أصاب المقتل من عدوه مرات فلم يهتبل[7] الفرصة السانحة بين يديه ، لأنه أراد أن يغلب عدوه غلبة الرجل الشجاع الشريف ، ولم يرد أن يغلبه أو يقتصّ منه كيفما كان سبيل الغلب والقصاص ..

قال بعض من شهدوا معركة صفين : لما قدمنا على معاوية وأهل الشام

(١) الفخـر والعظمـة ٠ (٢) يطلـب الامور الدنيئـة ٠ (٣) يعيبه ٠
(٤) يحتقر ٠ (٥) يأخذ برأسه ٠ (٦) باء : رجع ٠ (٧) يغتنم وينتهز ٠

بصفين وجدناهم قد نزلوا منزلا اختاروه مستويا بساطا واسعا وأخذوا الشريعة — أي مورد الماء — فهي في أيديهم .. وقد أجمعوا على أن يمنعونا الماء . ففزعنا الى أمير المؤمنين فخبرناه بذلك فدعا صعصعة ابن صوحان فقال له : ائت معاوية وقل له: انا سرنا مسيرنا هذا اليكم ونحن نكره قتالكم قبل الاعذار اليكم ، وانك قدمت الينا خيلك ورجلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا ، ونحن من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتج عليك ، وهذه أخرى قد فعلتموها اذ حلتم بين الناس وبين الماء ، والناس غير منتهين أو يشربوا فابعث الى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء ويكفوا حتى ننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم له ... »

ثم قال راوي الخبر ما معناه ان معاوية سأل أصحابه فأشاروا عليه أن يحول بين علي وبين المورد غير حافل[1] بدعوته الى السلم ولا بدعوته الى المفاوضة في أمر الخلاف ، فأنفذ معاوية مددا الى حراس المورد يحمونه ويصدون من يقترب منه ، ثم كان بين العسكرين تراشق بالنبل فطعن بالرماح فضرب بالسيوف حتى اقتحم أصحاب علي طريق الماء وملكوه

وهنا الفرصة الكبرى لو شاء علي أن يهتبلها ، وأن يغلب أعداءه بالظمأ كما أرادوا أن يغلبوه به قبيل ساعة .. وقد جاء أصحابه يقولون : والله لا نسقيهموه . فكأنما كان هو سفير معاوية وجنده اليهم يتشفع لهم ويستلين قلوبهم من أجلهم . وصاح بهم : « خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا الى عسكركم وخلوا عنهم ، فان الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم »

ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة في حرب أهل البصرة ، فأبى أن يهتبلها وأغضب أعوانه انضافا لأعدائه ، لأنه نهاهم أن يسلبوا المال ويستبيحوا السبي وهو في رأيهم حلال . قالوا : أتراه يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم ؟.. فقال : « انما القوم أمثالكم ، من صفح عنا فهو منا ونحن منه ، ومن لج حتى يصاب فقتاله مني على الصدر والنحر »

(١) غير مهتم ولا مبالي .

وسن لهم سنّة الفروسية أو سنّة النخوة حين أوصاهم ألا يقتلوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح ولا يكشفوا سترا ولا يمدوا يدا الى مال .

ومن الفرص التى أبت عليه النخوة أن يهتبلها فرصة عمرو بن العاص وهو ملقى على الأرض مكشوف السوأة[1] لا يبالى أن يدفع عنه الموت بما حضره من وقاء . فصدف[2] بوجهه عنه آنفا أن يصرع رجلا يخاف الموت هذه المخافة التى لا يرضاها من منازله فى مجال صراع . ولو غير عليّ أتيح له أن يقضى على عمرو لعلم أنه قاض على جرثومة عداء ودهاء فلم يبال أن يصيبه حيث ظفر به ، ولا جناح[3] عليه .

***

لقد كان رضاه من الآداب فى الحرب والسلم رضا الفروسية العزيزة من جميع آدابها ومأثوراتها ..

فكان يعرف العدو عدوا حيثما رفع السيف لقتاله .. ولكنه لا يعادى امرأة ولا رجلا موليا ولا جريحا عاجزا عن نضال ولا ميتا ذهبت بحياته ولو ذهبت فى سبيل حربه .. بل لعله يذكر له ماضيه يومئذ فيقف على قبره ليبكيه ويرثيه ويصلى عليه .

وهذه الفروسية هى التى بغضت اليه أن ينال أعداءه بالسباب وليس من دأب[4] الفارس أن ينال أعداءه بغير الحسام[5]

فلما سمع قوما من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصفين قال لهم : « انى أكره أن تكونوا سبّابين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب فى القول ، وأبلغ فى العذر ، وقلتم مكان سبكم اياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوى[6] عن الغى والعدوان من لهج به »

وربما شذ عن سنّته هذه فى بعض الأحايين فاذا به لا يشذ عنها الا كما يشذ الفرسان حين تغلبهم بوادر اللسان .. فندر بين رجال السيف من يسمع الكلمة المغضبة فلا ينطق لسانه بكلمة عوراء[7] يجازى بها

---

(١) العورة . (٢) صدف عنه : أعرض . (٣) اثم . (٤) الدأب : العادة والطبيعة . (٥) السيف . (٦) ويكف . (٧) قبيحه .

غضبه الذى طبع على ابدائه ولم يطبع على كتمانه ..

ومن قبيل هــذا كلمات قالها عليّ فى ابن العاص وفى معاوية وفى الأشعث بن قيس وغير هؤلاء . ولكنه لم يجعلها ديدنا[1] له كما سبوه على المنابر وأشاعوا مذمته بين أهل الأمصار ..

شغب عليه الأشعث بن قيس ومرد عليه الجنــد وأفشى بين أنصاره الفتنة وقاطعه مرة وهو يخطب على منبر الكوفة فأغضبه وهاج غيظه فبدره بقوله : « عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين : حائك بن حائك ، منافق ابن كافر ، والله لقد أسرك الكفر مرة والاسلام أخرى ، فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك ، وان امرأ ولى على قومه السيف وساق اليهم الحتف[2] لحرى أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد » .

***

وطفق ابن العاص ينعته بين أهل الشام بالهزل والدعابة ويأمر بسبه على المنابر حتى وجب رده وادحاض[3] زعمه . فقال رضى الله عنه فى بعض خطبه : عجبا لابن النابغة !.. يزعم لأهل الشام ان فى دعابة وانى امرؤ تلعابة[4] : اعانس وامارس[5] .. لقد قال باطلا ونطق آثما . أما — وشر القول الكذب — انه ليقول فيكذب ، ويعد فيخلف ، ويسأل فيبخل ، ويخون العهد ويقطع الآل[6] ، فاذا كان عند الحرب فأى زاجر وآمر هو ما لم تأخذ السيوف مآخذها . فاذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنح القوم سبته . أما والله انى ليمنعنى من اللعب ذكر الموت . وانه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة انه لم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتيه آتية ويرضخ له على ترك الدين رضيخة (٧) .

وكذلك كان يجبه معاوية وغيره بنظائر هذه الكلمات حين يجترئون عليه بما يغض من حقه ويقدح فى دعوته . فلا يشذ عن ديدن الفرسان فى روية فكره ولا فى بوادر لسانه ، ولكن الفلتات التى من هذا القبيل

---

(١) الديدن : الدأب والعادة (٢) الموت . (٣) ابطال . (٤) أي كثير اللعب غير جاد . (٥) مضاربة الناس مزاحا ومغازلة النساء . (٦) القرابة والرحم . (٧) العطية . ومثلها الرضيخة مع قلة .

شيء واتخاذ السباب صناعة دائمة وسلاحا مشهورا وسبيلا الى القول الباطل شيء آخر ..

ولقد كانت للامام رضى الله عنه شواغل أخرى غير الفروسية تجرى فى مجراها حينا وتبدو غريبة عنها حينا آخر فى عرف بعض الناقدين ، ومنها التفقه والنزوع الى « التصوف » واستنباط حقائق الأشياء ..

***

فهذه فى عرف بعض الناقدين ليست من مزاج الفروسية على ظاهر ما قدروه .. ولكن ما التصوف أو التجرد للحقيقة ؟.. أليس هو فى معدنه جهادا فى الحق أو جهادا فى الله ؟ .. أليست طبيعة الجهاد وطبيعة الفروسية من معدن واحد ؟.. ألم نعهد فى كل ملة وكل زمان فئات من الناس يجاهدون لأنهم متدينون متنطسون[1] ، أو يتدينون ويتنطسون لأنهم مجاهدون ؟ ..

فالامام علي رضى الله عنه فارس لا يخرجه من الفروسية فقه الدين بل هو أحرى أن يسلكه فيها . ولا يخرجه من الفروسية بعض المقال فى خصومه بل هى بوادر الفرسان بعينها ، ولا تزال آداب الفروسية بشتى عوارضها هى المفتـاح الذى يدار فى كل باب من أبواب هذه النفس فاذا هو منكشف للناظر عما يليه .

---

(١) التنطيس : التأنق في الطهارة ، وفي الكلام ، والطعم ، والملبس ، وفي جميع الامور ، والنطيس : العالم .



اسلامه

ولد على فى داخل الكعبة ، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها ، فكأنما كان ميلاده ثمة[1] ايذانا بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها .

وكاد علىّ أن يولد مسلما ..

بل لقد ولد مسلما على التحقيق اذا نحن نظرنا الى ميلاد العقيدة والروح ، لأنه فتح عينيه على الاسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام

فهو قد تربى فى البيت الذى خرجت منه الدعوة الاسلامية وعرف العبادة من صلاة النبى وزوجه الطاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأمه ، وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة أوثق من محبة القرابة . فكان ابن عم محمد عليه السلام وربيبه الذى نشأ فى بيته ونعم بعطفه وبرّه . وقد رأينا الغرباء يحبون محمدا ويؤثرونه على آبائهم وذويهم . فلا جرم يحبه هذا الحب من يجمعه به جد ، ويجمعه به بيت ، ويجمعه به جميل معروف : جميل أبى طالب يؤديه محمد وجميل محمد يحسّه ابن أبى طالب ويأوى اليه ..

واختلفوا فى سنّه حين اسلامه من السابعة الى السادسة عشرة ، ونعله أسلم فى نحو العاشرة لأنه كان يناهزها[2] عند اعلان الدعوة المحمدية ، وكان النبى عليه السلام يتعبد فى بيته عبادة الاسلام قبل الدعوة بفترة غير قصيرة ، وليس ما يمنع عليا أن يألف تلك العبادة فى طفولته الباكرة فاذا هو نفر منها ، وأعرض عنها لغير سبب فى تلك الطفولة الباكرة فالعجيب انه يعود الى ألفتها والرضا بها بعد أن بلغ السن التى يعرف فيها معنى الغضب لعبادة الآباء والأجداد ..

---

(١) هناك . (٢) أي يدنو منها ويقاربها .

ولولا ألفة على لابن عمه وكافله لما قربته القرابة وحدها من الدين الذى دعى اليه ، فقد أصر كثير من أقرباء النبى على الشرك زمنا طويلا ، منهم عقيل أخوه وأحب اخوته الى أبيه . فحارب المسلمين فى بدر ولم يسلم وقد وقع فى أسر النبى وصحبه .. بل افتداه عمه العباس وخرج من الأسر وهو على دينه ، ثم أسلم بعد صلح الحديبية مع طائفة من الغرباء والأقربين ..

***

على ان الألفة بين ابنى العم الكريمين قد أوشكت أن تكون عائقا لاسلام على فى طفولته الباكرة .. لأن النبى عليه السلام أبى أن ينتزع الطفل من دين أبيه وأبوه لا يعلم ، وأشفق أن يكون بره بعمه وبابن عمه سبيلا الى التفرقة بين الأب وابنه وهو لايدرك ما يفعل ، ولم يشأ أن يعود الطفل الصغير أن يخفى سرا عن أبيه كأنه يخدعه باخفائه ولو فى سبيل الهداية والخير . فظل هذا الحرج الكريم عائقا عسيرا أعسر ما فيه انه عائق اختيار يهون معه الاضطرار ، أو عائق حيرة تقل فيها حيلة الكريم .. حتى شاع أمر الدعوة المحمدية وعلم بها أبو طالب ونَصَر ابن أخيه وأمر عليا بمتابعة ابن عمه ونَصْره . فأقبل الغلام البر بأبيه وبكافله اقبالا لا تلجلج[1] فيه على الدين الجديد ..

وملأ الدين الجديد قلبا لم ينازعه فيه منازع من عقيدة سابقة ولم يخالطه شوب[2] يكدر صفاءه ويرجع به الى عقابيله[3] .. فبحق ما يقال: إن عليا كان المسلم الخالص على سجيته[4] المثلى ، وان الدين الجديد لم يعرف قط أصدق اسلاما منه ولا أعمق نفاذا فيه.

كان المسلم حق المسلم فى عبادته ، وفى علمه وعمله ، وفى قلبه وعقله ، حتى ليصح أن يقال: انه طبع على الاسلام فلم تزده المعرفة الا ما يزيده التعليم على الطباع ..

كان عابدا يشتهى العبادة كأنها رياضة تريحه وليست أمرا مكتوبا عليه .. وكان يرى فى كهولته وكأنما جبهته ثفنة[5] بعير من ادمان السجود

---

(١) لا تردد • (٢) الخلط • (٣) العقابيل : بقايا العلة ، والعداوة ، والعشق • (٤) السجية : الخلق والطبيعة • (٥) أي ركبة •

وكان عليّ محجة في الاسلام لا يحيد[1] عنها لبغية[2] ولا لحشية ، فكلما زينوا له الهوادة[3] أبى « أن يداهن[4] في دينه ويعطى الدنية في أمره » وآثر الخير كما يراه على الخير كما يراه الناس ..

وكان دينه له ولعدوه ، بل له ولعدو دينه ، فما كان الحق عنده لمن يرضاه دون من يقلاه[5] ، ولكنه كان الحق لكل من استحقه وان بهته[6] وآذاه ..

***

وجد درعه عند رجل نصراني فأقبل به الى شريح — قاضيه — يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه ، وقال : انها درعي ولم أبع ولم أهب ، فسأل شريح النصراني : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟.. قال النصراني : ما الدرع الا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب ! .. فالتفت شريح الى عليّ يسأله : يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟.. فضحك عليّ وقال : أصاب شريح . ما لي بينة ! .. فقضى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى و « أمير المؤمنين » ينظر اليه ... الا ان النصراني لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد ان هذه أحكام أنبياء .. أمير المؤمنين يدينني الى قاضيه يقضي عليه !.. أشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين .. اتبعت الجيش وأنت منطلق الى صفين فخرجت من بعيرك الأورق[7] . فقال : أما اذا أسلمت فهي لك .. وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الجند بلاء في قتال الخوارج يوم النهروان .

وأحسن الاسلام علما وفقها كما أحسنه عبادة وعملا . فكانت فتاواه مرجعا للخلفاء والصحابة في عهود أبي بكر وعمر وعثمان ، وندرت مسألة من مسائل الشريعة لم يكن له رأى فيها يؤخذ به أو تنهض له الحجة بين أفضل الآراء ..

الا ان المزية التي امتاز بها عليّ بين فقهاء الاسلام في عصره انه جعل

---

(١) يميل . (٢) أي لمأرب . (٣) اللين . (٤) ينافق ويغش . (٥) قلاه : أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه ، أو قلاه في الهجر ، وقلية في البغض . (٦) قال عليه ما لم يفعل . (٧) ما في لونه بياض الى سواد .

الدين موضوعا من موضوعات التفكير والتأمل ولم يقصره على العبادة واجراء الأحكام ، فاذا عرف فى عصره اناس فقهوا فى الدين ليصححوا عباداته ويستنبطوا منه أقضيته وأحكامه ، فقد امتاز علىٌ بالفقه الذى يراد به الفكر المحض[1] والدراسة الخالصة ، وأمعن فيه ليغوص فى أعماقه على الحقيقة العلمية ، أو الحقيقة الفلسفية كما نسميها فى هذه الايام

***

ويصح أن يقال: ان عليا ، رضى الله عنه ، أبو علم الكلام فى الاسلام ، لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه كما قال ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة . فواصل بن عطاء كبيرهم تلميذ أبى هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه ، وأبوه تلميذ علىٌ رضى الله عنه . وأما الأشعرية فانهم ينتمون الى أبى الحسن عليٌ بن أبى الحسن على بن أبى بشر الأشعرى وهو تلميذ أبى على الجبائى ، وأبو على الجبائى أحد مشايخ المعتزلة الذين علمهم واصل بن عطاء .. أما الفقه فامامه الأكبر أبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد وجعفر بن محمد قرأ على أبيه وهكذا ينتهى الأمر الى عليٌ رضى الله عنه . وقد قرأ مالك بن أنس على ربيعة الرأى ، وقرأ ربيعة على عكرمة ، وقرأ عكرمة على عبد الله ابن عباس وقرأ عبد الله بن عباس على عليٌ رضى الله عنه . وقيل لابن عباس : أين علمك من علم ابن عمك ؟ .. فقال : كنسبة قطرة من المطر الى البحر المحيط ..

***

قال ابن أبى الحديد : « ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوف . وقد عرفت ان أرباب هذا الفن فى جميع بلاد الاسلام اليه ينتهون وعنده يقفون . وقد صرح بذلك الشبلى والجنيد وسرى وأبو زيد البسطامى وأبو محفوظ معروف الكرخى وغيرهم . ويكفيك دلالة على ذلك : الخرقة التى هى شعارهم الى اليوم ، وكونهم يسندونها باسناد متصل اليه عليه السلام .. »

وقد جمع « نهج البلاغة » نماذج شتى من الكلمات التى تنسب اليه

---

(١) الخالص .

ويصح أن تحسب أصلا « للعلم الالهى » أو لأسرار التصوف فى صدر الاسلام قبل اشتغال المسلمين بفلسفة اليونان وحكمة الأمم الأجنبية . وربما وقع الشك فى نسبة بعض الكلمات الى علىّ رضى الله عنه لأنها تجمعت بعد عصره بزمن طويل وامتزج[1] بها ما لابد أن يمازجها من علوم القرن الثالث وما بعده .. ولكن شيئا على هذا النهج لابد أن يكون قد صدر منه حقا حتى جاز أن يتصل النسب بينه وبين أئمة التوحيد وعلم الكلام على النحو الذى تواترت به الأقوال ، وأجمله ابن أبى الحديد فيما تقدم ..

***

ولنا أن نقول،انه كان رضى الله عنه يتتلمذ للقرآن الكريم ويستوحيه نصا فى عرفان اسلامه وتقرير ايمانه . فكانت نظرته الى الخلق والخالق نظرة قرآنية يبتكر ما شاء ابتكار التلميذ فى الحكاية عن الأستاذ ، فكلامه عن الطاووس والخفاش والزرع والسحاب انما هو الدرس القرآنى الذى وعاه من أمر الكتاب بالنظر فى المخلوقات ووصف الكتاب لطوائف منها كالنمل والنحل والطير والأجنة فى الأرحام . فهو تلميذ ربه جلّ وعلا فى قوله عن الخفاش : « من لطائف صنعته وعجائب حكمته ما أرانا من غوامض الحكمة فى هذه الخفافيش التى يقبضها الضياء الباسط لكل شىء ويبسطها الظلام القابض لكل حى ، وكيف غشيت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نورا تهتدى به فى مذاهبها .. فسبحان من جعل الليل لها نهارا ومعاشا . والنهار لها سكنا وقرارا ، وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة الى الطيران كأنها شظايا[2] الآذان ، غير ذوات ريش ولا قصب .. تطير وولدها لاصق بها لاجىء اليها ، يقع اذا وقعت ، ويرتفع اذا ارتفعت ، لا يفارقها حتى تشتد أركانه ، ويحمله للنهوض جناحه ، ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه ، فسبحان البارىء[3] لكل شىء على غير مثال خلاف غيره » .

ومثله قوله عن الطاووس : « ومن أعجبها خلقا الطاووس الذى أقامه

(١) أي اختلط . (٢) جمع شظية ، والشظية : كل فلقة من شيء .
(٣) الخالق .

فى أحكم تعديل ونضد[1] ألوانه فى أحسن تنضيد ، بجناح أشرج قصبه وذنب أطال سحبه ، اذا درج الى الأنثى نشره من طيه ، وسما به مظلا على رأسه .. وقد ينحسر من ريشه ويعرى من لباسه فيسقط تترى وينبت تباعا ، فينحت من قصبة نحتات أوراق الأغصان ، ثم يتلاصق ثانيا حتى يعود كهيئته قبل سقوطه لا يخالف سالف ألوانه ولا يقع لون فى غير مكانه » ..

ونحن لا نستغرب ابتداء هذا النمط من النظر الفلسفى على نحو من الأنحاء فى عصر الامام علىّ رضى الله عنه . لأنه كان عهدا نبتت فيه أصول الفرق الاسلامية جميعا من الخوارج والشيعة والقائلين بالرجعة وتناسخ الأرواح والمجتهدين فى قراءة القرآن وتفسيره على شتى المذاهب .. فأقرب شيء الى المعقول أن يكون امام العصر كله قدوة فى الاجتهاد والنظر وعنوانا للنوازع التى تفرقت بين أهل زمانه وتعبيرا صادقا لتفكيره ووعيه ، وصاحب أقوال من قبيل هذه الأقوال التى قدمناها وان لم تكن هى اياها بالنص والتفصيل ..

ويستقيم مع هذا التقدير أن يكون الامام على سجيته مؤثرا للاجتهاد ما استطاعه ، معرضا عن التقليد ما استغنى عنه ، فوافق الخلفاء من قبله فى أمور وخالفهم فى أمور ، وأبى أن يأتم بعملهم فيما يراه وما لايراه ، وأوصى ابنه الحسن وقد بلغ الستين فقال : « .. اعلم يابنى ان أحب ما أنت آخذ به الىّ من وصيتى تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك والأخذ بما مضى عليه الأولون من آبائك والصالحون من أهل بيتك ، فانهم لم يدعوا ان نظروا الى أنفسهم كما أنت ناظر وفكروا كما أنت مفكر .. فان أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم . لا بتورط الشبهات ، وعلق الخصومات ، وابتدىء قبل نظرك فى ذلك بالاستعانة بإلهك ، والرغبة اليه فى توفيقك ، وترك كل شائبة[2] أولجتك[3] فى شبهة أو أسلمتك الى ضلالة ، فان أيقنت أن قد صفا قلبك ، وتم رأيك فاجتمع ، وكان

---

(١) أي نسقها وجعل بعضها فوق بعض . (٢) الشوائب : الاقذار والاكدار . (٣) أدخلتك .

همك فى ذلك همًّا واحدا ، فانظر فيما فسَّرت لك .. »

وربما كانت هذه الوصية وحدها كافية للتعريف بإسلام عليٍّ كما ارتضاه لنفسه وارتضاه للقادرين عليه من أتباعه .. فانما هو اسلام المسلم « المطبوع » الذى يبتكر دينه لأنه يعتمد فيه على وحى بصيرته وارتجال مزاجه ، وانما هو اسلام الحكيم المجتهد الذى يرجع فى الحكمة والاجتهاد الى رياضة النفس على سنّة النساك[1] وتمحيص[2] الفكر على سنّة العلماء ، وانما هو اسلام الرجل الذى أتيح له أن يتتلمذ لربّه ويتربى فى حجر نبيّه ويصبح اماما للمتقين من بعده ..

---

(١) النساك جمع ناسك ، والناسك : العابد . (٢) التمحيص : الابتلاء والاختبار .



عصر الامام

كانت الظاهرة الكبرى فى عصر « عليّ » ظاهرة اجتماعية خاصة به دون عصور الخلفاء من قبله ، ولم تكن فى حقيقتها ظاهرة سياسية أو حربية عسكرية ، على شدة القتال فيها وغزارة الدماء التى أريقت فى حروبها ..

فعصر أبى بكر كان هو العصر الذى نشأت فيه الدولة الاسلامية

وعصر عمر كان هو العصر الذى تمّ فيه انشاؤها ..

وعصر عثمان كان هو العصر الذى تكون فيه المجتمع الاسلامى بعد نشأة الدولة الجديدة . فبرز فيه نظام جديد على أساس الثروة المجلوبة من الأقطار المفتوحة ، وعلى أساس الولايات التى تولاها بعض الطبقات المرشحة للرئاسة من العلية[1] وأشباهها ..

أما عصر عليّ فكان عصرا عجيبا بين ما تقدمه وجاء فى أعقابه أو هو لم يكن عجيبا لأنه جرى على النحو الذى ينبغى أن يجرى عليه ، فلم يثبت كل الثبوت ولم يضطرب كل الاضطراب لأنه كان بناء جديدا فى سبيل التمام ، ولم يكن بناء متداعيا فكله هدم واندثار ، ولا بناء قائما مفروغا منه فكله رسوخ واستقرار ..

الا ان العجيب فيه حقا انه انقسم بين ثبوته واضطرابه قسمين اثنين متقابلين : فى أحدهما كل عوامل الرضا عن النظام الاجتماعى والرغبة فى بقائه وتدعيمه ، وفى الآخر كل عوامل التذمر من النظام الاجتماعى والتحفز لتقويضه[2] وتحويله

أحدهما ، وهو قسم الرضا عن النظام الاجتماعى ، كان قسم معاوية

---

(١) أشراف القوم • (٢) أي لهدمه •

ابن أبي سفيان في الشام وما جاورها

والآخر ، وهو قسم التذمر من النظام الاجتماعي ، كان قسم علي ابن أبي طالب في الجزيرة العربية بجملة أنحائها

كانت الشام بمعنى من المعاني أرضا أموية في عهد الجاهلية فلجأ اليها أمية جد الأمويين حين غلبه هاشم على الزعامة ، وقصد اليها أبناؤه متجرين أو مهاجرين الى ما بعد قيام الدعوة الاسلامية

ثم قامت الدعوة الاسلامية فكان من نصيب يزيد بن أبي سفيان أن يتولى الامارة والقيادة على الشام من قبل الخليفة أبي بكر الصديق ، وخلفه أخوه معاوية من قبل الخليفة عمر ، فلم يزل مقيما على امارتها بضع عشرة سنة الى مبايعة عليّ بالخلافة بعد مقتل عثمان . فاتسع له من فسحة الوقت وفسحة الرخاء مجال ممهد لتأسيس السلطان الأموي الذي لا ينازعه منازع من حوله . ولم يزل منذ تولاها عاملا على البقاء فيها واصطناع الأعوان المؤيدين له في حكمها . فلم يتوان في استرضاء رجل ينفعه رضاه ، ولم يقصر رعايته على الشرفاء دون السواد[1] من الأتباع والأجناد . بل كان يرضى كل من وسعه ارضاؤه ، وقد وسعت ثروة الشام كل صاحب حاجة مقيم عنده أو ساع اليه ..

واشتهرت عنه هذه الخصلة حتى قصده أقرب الناس الى خصومه وأولاهم باجتنابه والنقمة عليه .. ومنهم عقيل أخو علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن زمعة ، وعمرو بن العاص ، وأناس من هذه الطبقة بين الشرفاء وذوي الأخطار

أراد عقيل من أخيه مالا يجريه عليه من بيت المال فأباه عليه لأنه ليس له بحق ، فتركه وأقبل على معاوية وهو يقول : « ان أخي خير لي في ديني ، ومعاوية خير لي في دنياي » وقس على ذلك ما يصنعه الغرباء عن عليّ والمقربون من معاوية بالنسب والرجاء .

قد همه ارضاء السواد والعامة ، كما همه ارضاء الشرفاء وذوي الأخطار .. « وبلغ من احكامه للسياسة واتقانه لها واجتذابه قلوب

---

(١) عامة الناس .

خواصه وعوامه ان رجلا من أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق فى حال منصرفهم عن صفين ، فتعلق به رجل من دمشق فقال : هذه ناقتى أخذت منى بصفين فارتفع أمرهما الى معاوية وأقام الدمشقى خمسين رجلا بينة يشهدون أنها ناقته .. فقضى معاوية على الكوفى وأمره بتسليم البعير اليه . فقال الكوفى : أصلحك الله انه جمل وليس بناقة فقال معاوية : هذا حكم قد مضى . ودس الى الكوفى بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره فدفع اليه ضعفه وبره وأحسن اليه ، وقال له : « أبلغ عليًّا انى أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل ! »

ولقد بلغ من أمرهم فى طاعتهم له انه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة فى يوم الأربعاء وأعاروه رءوسهم عند القتال وحملوه بها [1].

فان كان فى هذه القصص بعض المبالغة فهى مبالغة الفكاهة الموكلة لتكبير الملامح ليراها من غفل عنها ، وليست مبالغة الخلق والافتراء [2].

وما هى الا سنوات على هذه الوتيرة [3] حتى اجتمع له كل منتفع بالنظام الاجتماعى الجديد ، راغب فى تدعيمه ووقايته من نذر الخطر والزوال .

وعلى قدر هذا الدأب الشديد فى اجتلاب أسباب التمكين والتدعيم كان له دأب مثله فى اتقاء أسباب التمرد ، والاخلال بالنظام ، كما نسميه فى هذه الأيام ..

فما سمعت قط صيحة فتنة الا بادر اليها بما يسكنها ويردها الى طلب الاستقرار والدوام . فمن أجدى [4] معه المال أسكته باغداق المال عليه ، ومن كان من أهل الجد والاخلاص فى العبادة والزهادة فهو محتال على اقصائه [5] أو نفيه من الشام بحيلة يوافقه عليها شركاؤه فى المصلحة ولا تعييه

حنق بعض الزهاد على هذا الترف الذى استفاض بين العلية والشرفاء فارتفعت عليهم صيحة أبى ذر الغفارى بالنكير ، وطفق يطالب الأغنياء بالانفاق فى سبيل الله ، حتى ولع الفقراء بصيحته وشكا الأغنياء ما يلقونه من نذيره أو بشيره : « وبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها

(١) مروج الذهب للمسعودي : الجزء الثامن . (٢) الكذب .
(٣) الطريقة . (٤) نفع وأفاد . (٥) ابعاده .

فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم »

فأشفق معاوية من مغبة[1] هذه الصيحة وأرسل الى أبى ذر ألف دينار يسكته بها ان كان ممن يسكتهم الغنى عن الأغنياء ، فما طلع النهار حتى كانت الدنانير فى أيدى المعوزين[2] الذين يلوذون بالداعية الأمين ويشكون اليه . ثم صلى معاوية الصبح وأرسل الى الداعية رسوله الذى حمل اليه الدنانير يقول له : « أنقذ جسدى من عذاب معاوية فانه أرسلنى الى غيرك فأخطأت بك . فقال له : يابنى ، قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار .. ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها » .. فعلم معاوية أن الرشوة هنا لا تغنى عن القسوة . وكتب الى الخليفة أن أبا ذر أعضل به فلا طاقة له بالصبر عليه ، فأتاه الاذن بنفى أبى ذر من الشام الى المدينة ، ثم ضاقت به المدينة أيضا فنفى منها الى قرية من أرباضها[3] حيث لا يسمع له دعاء

***

وصنع بعبد الله بن سبأ — صاحب القول برجعة النبى الى الدنيا ووصاية علىّ على الخلافة — مثل هذا الصنيع بعد أن داراه فأعياه[4] ، فلما يئس منه ومن ترغيبه أو ترهيبه ضيّق عليه ثم أقصاه ..

والتفت الى من سماهم أهل الفتنة من طلاب الاصلاح والتبديل فكتب فى أمورهم الى الخليفة يقول : « انه قدم على أقوام ليست لهم عقول ولا أديان . أضجرهم العدل . لايريدون الله بشىء ولا يتكلمون بحجة . انما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة ، والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ، وليسوا بالذين ينكون[5] أحدا الا مع غيرهم .. »

ثم أخرجهم من دمشق الى غيرها مستريحا منهم بالنفى والاقصاء ، كأنما دمشق وحدها من بلاد المسلمين هى التى ينبغى لها أن تستريح

وهكذا تعاقبت السنون وكل سنة تزيد معاوية وفرة[6] من أسباب الرضا والاستقرار وقلة من أسباب القلق والطموح الى التغيير ، حتى تحيزت له الشام عند مبايعة علي وفيها أعظم ما يتأتى فى مثل ذلك العهد من دواعى السكينة واستدامة الحال ، وأقل ما يتأتى فيه من شواجر

---

(١) عاقبة . (٢) المحتاجين . (٣) أي نواحيها أو ضواحيها . (٤) أجهده وأتعبه . (٥) نكى العدو : قتل وجرح . (٦) كثرة .

الفتنة والعصيان ..

أما علي فقد شاءت المصادفات أن تنعكس الآية فى حصته من الدولة الاسلامية أيما انعكاس . فأوشكت أن تنعدم فيها دواعى الرضا والاستدامة ، وأوشكت أن تتم فيها شواجر[1] الفتنة وما نسميه اليوم بالاخلال بالنظام ..

فكان التنافس عنده على أشده بين العاصمتين الحجازيتين وبين الكوفة ، لا يرضى أهل المدينة بما يرضى أهل مكة ، ولا يرضى أهل الكوفة بما يرضى به هؤلاء وهؤلاء . حتى ضاق به المقام فى الحجاز وأوى الى الكوفة مأوى « المستجير من الرمضاء[2] بالنار »

***

وكانت قبائل البادية تنفس[3] على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة ، وينظرون اليهم نظرتهم الى القوى المستأثر بجاه الدين والدنيا وحق الخلافة والسطوة . وهى حالة كان أحجى[4] بالولاة أن يخفوها ويتلطفوا فى اصلاحها أو تبديلها ما استطاعوا لها من اصلاح وتبديل ، ولكنهم على نقيض ذلك كانوا يباهون بها ويجهرون بحديثها حتى قال سعيد بن العاص والى الكوفة : « انما السواد بستان لقريش ! » ..

وظهر هذا السخط من اثرة قريش فى خطب المتكلمين بلسان أهل البادية حين نشب النزاع بين طلحة والزبير وأنصارهما وبين علي وأنصاره ، فقام فى الجمع رجل من عبد القيس يقول :

« يا معشر المهاجرين !.. انتم أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لكم بذلك فضل .. » الى أن قال يشير الى خلافة أبى بكر: « ولم تستأمرونا فى شيء من ذلك فجعل الله للمسلمين فى امارته بركة ، ثم مات واستخلف عليكم رجلا فلم تشاورونا فى ذلك . فرضينا وسلمنا . فلما توفى جعل أمركم الى ستة نفر فاخترتم عثمان ، وبايعتموه عن غير مشورة منا ، ثم بايعتم عليا من غير مشورة منا . فما الذى نقمتم عليه فنقاتله ؟ .. »

---

(١) أي نوازع • (٢) الارض الشديدة الحرارة • (٣) نفس عليه بخير : حسد ، ونفس عليه الشيء نفاسة : لم يره أهلاله • (٤) أجدر •

وهذا كلام رجل يدين بفضل المهاجرين ويقدمه فى صـدر مقاله ، فكيف بكلام الرجال ممن ينسون هذا الفضل أو تغلبهم المنافسة على الشهادة به فى معرض الخصومة ؟ .. ولعل النافثين[1] بهذا الغيظ كانوا يثوبون الى بعض الصبر والتجوز لو أنهم وجـدوا من يشكون اليه فيحسن الاصـغاء والاعتراف لهم بالحق فى دعواهم ، ولـكنهم كانوا يشكون فيثور بهم المخالفون ويلجئونهم الى الصمت راغمين[2]. فلما قال ذلك الرجل مقالته هموا بقتله لساعته لولا أن حمته عشيرته وصحبه . ثم وثبوا عليه فى الغد فقتلوه وقتلوا معه قرابة سبعين .

***

وكان العبيد والموالى والأعراب المحرومون حانقين[3] متبرمين لايرضون عن حظهم من العيش بعد أن علمهم الاسلام حقوق المساواة وشرع لهم شريعة الانصاف . ولقد يكون معظم المتآمرين على قتل عثمان من هؤلاء العبيد والموالى والأعراب المحرومين . فلما طولب عليٌّ بالاقتصاص منهم لمقتل عثمان قال : « ..كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟.. ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا فهلا ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون ؟ »

وقالت السيدة عائشة ، رضى الله عنها : « أيها الناس !.. ان الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هـذا الرجل المقتول ظلما بالأمس.. والله لأصبع عثمان خير طباق الأرض أمثالهم..»

***

وكان مع عليٍّ جمهرة القراء والحفـاظ وأصحاب النسـك والفقه والشريعـة ، وهم خلق كثير يعـدون بالألوف ويتفرقون فى الحواضر والبوادى ، ولا يزالون كأنبياء بنى اسرائيل منذرين متوعدين ساخطين على ترف المترفين ، منكرين لكل خلاف ولو يسير فى اقامة أحكام الدين . لايرضون عن الدنيا ولا عمن رضى بها من طلابها ، ولايستمعون الى أمر الا أن يكون فى رأيهم وفاقا لحكم القرآن كما يفسرونه وحكم السنة

---

(١) النفث : هو كالنفخ وأقل من التفل · (٢) مكرهين · (٣) مغتاظين·

كما يعتقدونها . وطالما وقفوا بين عليّ وبين القتال لأنهم لايستجيزونه ، أو عن الصلح والتحكيم لأنهم يجلّون[1] القرآن عن قبوله .. فاذا كان أجناد معاوية يسمعون الحق والباطل لأنهم لا يفرقون بينهما ولا يفرقون بين الجمل والناقة فهؤلاء الأجناد العارفون لا يسمعون الا ما أجازوه واستوجبوه ، لأنهم خرجوا فى الأرض للتفريق بين الحلال والحرام والمعروف والمنكر . فلا يجمعون على طاعة ولا يحاربون آو يسالمون فى جماعة . وهم أقرب الناس فى ذلك العهد الى الجهر بالنذير والنداء بالتبديل والتغيير ، والاصغاء الى وحي الضمير قبل دعاء الأمير..

واجتمع مع علي فى الحجاز والكوفة كل منافس على الخلافة متطلع اليها ولو لم يجهر بطلبها مخافة من شركائه الذين يزاحمونه عليها ، فمنهم من كان يقول لعليّ : نبايعك على أنا شركاؤك ، ومنهم من كان يتعلل بقلة المشاورة له والمبالاة بقوله ، ومنهم من كان يحارب عثمان ثم أصبح يحارب علياً باسم عثمان ، تمحلا[2] لذرائع[3] الخلاف وكراهة لاستقرار الأمور ..

***

وقد كان أبو بكر وعمر يمسكان كبار الصحابة بالحجاز ويحذران منهم أن ينطلقوا فى الأرض فيقبلوا على الدنيا ويشجر[4] بينهم من النزاع ما يشجر بين طلابها . ثم ينصدع[5] شمل الأمة بالتشيع لهم وعليهم والتفرق بين أنصارهم وأعدائهم ، وأوصى أبو بكر خليفته من بعده قائلا :

« .. احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرىء منهم نفسه ، وان منهم لحيرة عند زلة واحد منهم فاياك أن تكونه ، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله » ..

فلما صارت الخلافة الى عثمان أهمل هذه السياسة الحكيمة وشق عليه أن يطيل حبسهم بالحجاز والهيمنة عليهم بجواره ، فانطلقوا حيث ذهبت بهم المذاهب ، وكان منهم ما حذره أبو بكر حيث قال لعبد الرحمن بن

---

(١) يعظمون · (٢) تمحل له : احتال · (٣) جمع ذريعة وهي : الوسيلة·
(٤) شجر بينهم الامر : تنازعوا فيه · (٥) أي يتشقق ·

عوف : « ورأيتم الدنيا قد أقبلت .. حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وحتى يألم أحدكم بالاضجاع على الصوف الأذربى (١) كما يألم أحدكم اذا نام على حسك السعدان »

***

روى المسعودى انه « فى أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال ، فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار وخلف ابلا وخيلا كثيرة ، وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف ألف فرس وألف أمة . وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك . وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفا ، وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفئوس غير ما خلف من الأموال والضياع . وبنى الزبير داره بالبصرة وبنى أيضا بمصر والكوفة والاسكندرية .. وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج ، وبنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات ، وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن ، وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم »

***

هؤلاء أيضا أصبحوا فى حصة على من الدولة الاسلامية عنصرا من أقوى عناصر القلق والتبرم (٢) والنفور من دوام الأمر للحكومة الجديدة ، خلافا لأمثالهم فى معسكر معاوية .

فالذى يغلب على أصحاب الثروات فى كل مجتمع أنهم أنصار الحالة القائمة وأعداء الثورة والاضطراب السياسى أو الاجتماعى على

---

(١) منسوب الى أذربيجان . (٢) السأم .

التخصيص ، ولكن هؤلاء الأغنياء خالفوا المعهود فى مجتمع علىّ فأصبحوا قادة السخط والشكوى وأعوان الثورة والتغيير ولو فى سرائر القلوب كلما حيل بينهم وبين الظهور فى الثورة بفعل محسوس . لأنهم عرفوا علياً من قبل ومن بعد فعلموا أنه لن يقرهم على ما هم فيه ولن يلبث أن يحاسبهم على ما جمعوه من المال أو يأخذ عليهم طريق المزيد

عرفوا مذهبه فى حساب الولاية ومذهبه فى حساب الخلافة . فلما كان واليا لليمن أبى على بعض الصحابة أن يركبوا ابل الصدقة وقال لهم : انما لكم منها سهم كما للمسلمين ، ثم لام العامل الذى أذن لهم أن يركبوها فى غيبته وهو منصرف الى الحج . وشاعت هذه القصة لأن أناسا شكوه الى رسول الله عليه السلام ، فأنكر شكواهم منه وقال : « لقد علمت انه جيش فى سبيل الله »

***

ولما قام عثمان بالخلافة طال عتب علىّ عليه ، لأنه أباح للعمال والولاة ما ليس بمباح فى رأيه ، ولقى بالعتاب كل صحابى من اخوانه جمع مالا واستهوته فتنة البذخ والثراء ..

وليس مذهبه واليا ولا مذهبه خليفة بمريح أولئك الأغنياء الذين ذاقوا حلاوة الغنى وكرهوا أن يحرموه أو يحاسبوا عليه ..

ولم يكن فى وسع علىّ أن يغض عنهم نظره ولو شاء ذلك ، وهو لايشاؤه ولا يحله لنفسه وقد أنكره على غيره . لأنه اذا غض نظره لم يستطع أن يغض الأنظار المفتوحة التى ثارت بعثمان وبايعت علياً بعده ليصنع غير ما صنعه عثمان وغير ما أثارهم عليه

فلا دعاة الدنيا راضون مطيعون ، ولا دعاة الدين راضون مطيعون ، ولا الفقراء والجهلاء راضون مطيعون ، وما منهم الا من هو قلق متوفز[1] لا يسكن به سكن ولا يدوم به قرار

وكل أولئك كانوا فى حصة علىّ من الدولة الاسلامية ، ولم يكن لمعاوية فى حصته شاجرة فتنة من هذه الشواجر بل كان له فى موضع كل

---

(١) متعجل .

واحدة منها دعامة تمكين وتأييد

وان هذه الشواجر على كثرتها وقوتها لفى غنى عن علة أخرى من علل الفساد والشقاق تضاف اليها

ولكنها مع هذا لم تستوعب تلك العلل التى اصطلحت على حصة عليّ من الدولة الاسلامية .. فقد أضيفت اليها علة أخرى ، بل أضيفت اليها أكثر العلل التى تبتلى بها دولة أو حكومة . وهي اعتمادها فى مواردها على غيرها ..

فكانت موارد الشام فى الشام نفسها من خراج أو انفال أو تجارة . أما موارد الحجاز فقد كانت بعيدة منه وان دخلت فى طاعته وجنحت[1] الى القائم بالأمر فيه . وكانت مصر والسواد من حصة عليّ ، ولكنه لم ينتفع بمصر كثيرا لتعاقب الولاة فيها ، ولم يستفد بالسواد كثيرا لتعاقب الفتن والغارات عليها .. وحسبك من هـذا داعية قلق وباعث مخافة ومبطل أمان وطمأنينة ..

***

وينبغي أن نذكر ان الحيلة فى هذا التقسيم قليلة ، وان الحوادث هى التى اختارت لكل حصة من الحصتين زعيمها وأشبه الناس بها وأقربهم الى ولاية أمرها و « كما تكونوا يول عليكم » .. ولا محل فى هـذه القاعدة لحيلة أو اختيار ..

فلم يكن أحد أشـبه بقيادة المنافع المستبقاة من معاوية ، ولم يكن أحد أشبه من عليّ بقيادة الشكوى التى تطمح بأصحابها الى التغيير..

ان شكا اناس غلبة قريش ، فعليّ كان يشكو منها ويظن الظنون بحقدها عليه ونكرانها لحقه ، ويقول فى كتاب من كتبه الى أخيـه : « ... ودع عنك قريشا وتركاضهم[2] فى الضلال وتحولهم فى الشقاق ، فان قريشا قد أجمعت على حرب أخيك اجماعها على حرب رسـول الله صلى الله عليه وسلم قبل اليوم ... »

وان جاءت صيحة الاصـلاح والتغيير عن طريق الدين على مذهب

---

(١) مالت . (٢) أي ركضهم .

الحفاظ والقراء والنساك فعليّ كان امام أهل العلم والقراءة ، وأحق من يتكلم بتفقيه أو تفسير ..

وان جاءت من ضيم[1] الفقراء فعليّ فقير ، أو من تهافت الولاة على المال فعليّ يبغض هذا التهافت كما يبغضه أضعف الفقراء ، عن زهد فيه لا عن قلة الوسائل اليه ..

فما شكا شاك قط الا وعليّ شريك له فى شكواه ، وكيف ينجو رجل كهذا من قيادة الدولة التى قامت على التبرم بالحال والطموح الى التغيير ؟.. وأية حيلة له الى جانب حيلة الحوادث وتوفيق المقادير ؟..

***

كان عليّ نموذج أصحابه الأعلى ، وكان معاوية نموذج أصحابه الأعلى . وكانا لأجل ذلك فى موضع رشحتهما له الحوادث قسراً[2] قبل أن يرشحا له بارادة مريد

وما نحن بقادرين على وزن الرجلين ولا على المقابلة بينهما فى الرأى والعمل ما لم نستحضر هذه الحقيقة أبدا ، وما لم نذكر أبدا ان أحدهما كان يعمل والحوادث حرب عليه ، وان الآخر كان يعمل والحوادث عدة فى يديه !..

---

(١) ظلم · (٢) أي قهرا ·

البيعة

بويع لعلي بالخلافة بعد حادثة من أفجع الحوادث الدامية فى تاريخ الاسلام ، وهى مقتل الخليفة عثمان بن عفان فى شيخوخته الواهنة ،[1] بعد أن حصروه بين جدران داره ، وكاد يقتله الظمأ لو أمهله القتلة بضعة أيام ..

وأفجع ما كان فى هذه الحادثة ، انها بلاء لا يدفع وقضاء لا حيلة لأحد فى اتقائه لأن المسئولين عنه كثيرون متفرقون فى كل جانب يناصره أو يعاديه .. فاذا امتنع الأعداء لم يمتنع الأصدقاء ، واذا بطل الشر الذى فيه اختيار لم يبطل الشر الذى لا اختيار فيه ، وربما كان حسن النية وسوء النية هنا صنوين متساويين . فمن الأعمال المؤسفة التى عجلت بالفاجعة أعمال كثيرة بدرت من عثمان نفسه ، أو لعله أقدم عليها بعد قصد ومراجعة ، وليست هى فى تعجيلها ولا فى سوء مغبتها[2] بأهون من أعمال الأعداء ..

مضت السنون الاولى من خلافة عثمان على خير ما كان يرجى لها أن تمضي فى عهد خليفة ..

ثم تغيرت الأحوال فجأة من جانب الراعى ومن جانب الرعية ، لأسباب لم تكن طارئة ساعة ظهورها ، وان ظهرت عواقبها طارئات ...

وتتعدد الأسباب التى أوجبت ذلك التغيير بعد السنوات الأولى ، ولكنها قد تنحصر فى سببين اثنين جامعين لغيرهما من الأسباب العديدة ، وهما امعان الخليفة فى الشيخوخة ، واستمراء الأعوان لما نعموا به من لين الخليفة ولين الرغد[3] والمتاع .

---

(١) ريح تأخذ في المنكبين ، أو في العضد ، أو في الاخذ عند الكبر .
(٢) عاقبتها . (٣) العيشة الواسعة الطيبة .

ولقد كتبت الأسفار[١] المطولات فى احصاء المآخذ على عثمان رضى الله عنه ، وكتبت الأسفار المطولات فى تبرئة الخليفة من تلك المآخذ أو الاعتذار له بأحسن الأعذار وتفسيرها على أحسن الوجوه ، لأن المسألة خرجت من عداد المسائل التاريخية ، وانتقلت الى ميدان النزاع بين الأحزاب والمذاهب وأقاويل الجدل والحجاج .. فجعلها الشيعيون وأهل السنة ذريعة[٢] الى تأييد مذهب وانكار مذهب فى الخلافة والخلفاء ، وراح الأولون يبالغون فى الاتهام كما يبالغ الآخرون فى الدفاع . ولا طائل هنا من شرح هذا وذاك ، ولا هو مما يقتضيه كلامنا الآن .. وانما المرجع فيه الى تاريخ عثمان ..

الا اننا نجتزيء[٣] هنا بالاشارة الى التذمر الذى أثار الفتنة ، والالمام بأسبابه عند أصحابه .. فمما لاشك فيه انهم تذمروا لأسباب تثيرهم وان طال الشك والجدل حول نصيبهم من الخطأ والصواب ..

أهم هذه الأسباب ، انه خالف بعض السنن التى اتبعها النبى عليه السلام فى الأذان والصلاة ، وانه أدنى أناسا من أقاربه كان رسول الله عليه السلام قد أقصاهم عن المدينة .. فاستدعاهم اليه بعد استخلافه وأغدق عليهم المنح والأموال وانه أطلق العنان لأبناء أسرته فى الولاية والعمالة ، ومنهم من اتهموه باقامة الصلاة وهو سكران ، وانه منح سفيان بن حرب مائتى ألف درهم ومنح الحارث بن الحكم زوج ابنته عائشة مائة ألف درهم من بيت المال ، وانه توسع فى بناء القصور ، وحرم بعض الصحابة ، وضرب بعضهم على مشهد من الملأ ضرب اهانة وايجاع ..

ولم تنقض سنوات على هذه الحال حتى كثر المترفون من جانب والمتربون[٤] من جانب آخر ، وشاع بين الجانبين ما يشيع دائما فى أمثال هذه الأحوال من الملاحاة[٥] والبغضاء والتزيد بالتهم واللجاجة[٦] ، واضافة الأوهام الى الحقائق فى خلق ذرائع الخلاف والشحناء .

ويدل على خطر مسألة الثروة فى هذه الفتنة ، ان الناس تألبوا على

(١) الكتب . (٢) أي وسيلة . (٣) نكتفي . (٤) الفقراء المعدمون .
(٥) لاحاه ملاحاة : نازعه . (٦) التمادي في الخصومة .

الخليفة مرة .. فأرسل في طلب علي ليصرفهم عنه ، فلما قدم اليه استأذنه فى اعطائهم بعض الرفد[1] العاجل من بيت المال ، فأذن له .. فانصرفوا عن زعماء الفتنة ، وهدءوا الى حين ..

ثم توافد المتذمرون من الولايات الى المدينة مجندين وغير مجندين .. وتولى زعامة المتذمرين فى بعض الأحيان جماعة من آجلاء الصحابة ، كتبوا صحيفة وقعوها وأشهدوا فيها المسلمين على مآخذ الخليفة .. فلما حملها عمار بن ياسر اليه ، غضب وزيره مروان بن الحكم ، وقال له : « ان هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس .. وانك ان قتلته نكلت[2] به من وراءه » فضربوه حتى غشي[3] عليه .

وفى مرات أخرى ، كان الخليفة يصغى الى هـذه الشكايات ويندم على ما اجترحه[4] أعوانه بعلمه آو بغير علمه ، ثم يعلن التوبة الى رعاياه ، ويؤكد لهم الوعد باقصـاء أولئك الأعوان واخلافهم فى أعمـالهم بمن يرضى المسلمين ، ويرضى الله ..

ثم يغلبه أولئك الأعوان على مشيئته ، فيبقيهم حيث كانوا ويملي[5] لهم فيما تعودوه من الترف والنكاية ، وعلى رأسهم مروان بن الحكم .. أبغض أولئك الأعوان الى المسلمين ، حتى من أهل الخليفة المقربين

وكان بعض الوفود يشكون ولاتهم ، فاذا عادوا الى بلادهم تلقاهم أولئك الولاة بالأذى وقتلوا بعضهم ضربا على ملأ من الشاكين الذين ينتظرون الانصاف .. فيعود المضروبون الى الشكوى ، وينصرهم اجلاء الصحابة عند الخليفة ، ويسألونه آن يولى عليهم غير واليهم المسىء اليهم . فاذا توجه الوالى الجـديد الى مكانه ، اذا فى الطريق رسول يحمل خطابا للوالى المعزول ، يأمره فيه بقتل من يفد اليه من حاملى الشكوى وحاملى كتاب الولاية ، ويقره فى مكانه !

حدث هـذا مع وفد مصر ، واختلفت الأقاويل فى تأويله من متهم للخليفة ، ومتهم لمنافسيه على الخـلافة ، ومتهم لوفد الشكوى الذى عثر بالخطاب ، ومتهم لمروان بن الحكم — عنصر السوء فى هذه المأساة

(١) العطـاء والصلـة • (٢) أي جعلتـه عبـرة لغيـره (٣) أي أغمي •
(٤) اكتسبه • (٥) يطيل ويمهل •

كلها — وهو أولى الأقاويل بالترجيح والتصديق ، اذ كان أيسر شيء على مروان لو كان بريئا من هذه المكيدة أن يكشف حقيقتها بسؤال الغلام حامل الخطاب ، وفى كشف هذه الحقيقة ابراء له ، وتعزيز لسلطان الخليفة ، وفضيحة لأعدائه ، وادحاض[1] لحجة الفتنة ، ودعوة الاثارة والتحريض .. ولكنه أهمل السؤال ، وقنع من تبرئة نفسه بقذف التهمة على متهميه ..

***

وظل الخليفة والثوار يشتبكون ويتحاجزون .. لا هم فى حرب ، ولا هم فى سلام ..

وكلما تحاجزوا بعد اشتباك منذر بالشر ، زاد الخليفة ضعفا ، وزاد الثوار ضراوة ، وزاد التوجس بينهم استفحالا واتسع مع التوجس مجال السعاية والارجاف[2] بين الفريقين حتى بلغ الكتاب أجله ..

وتوسط عليٌ بين الخليفة والثوار ، فاستمهلهم الخليفة ثلاثة أيام يرد فيها المظالم ويعزل العمال المكروهين

فانتظر الثوار هذه الأيام الثلاثة تلبية لنصيحة عليٍ ... ومنهم من يسيء الظن ، ويرى ان الخليفة انما يستمهلهم فى انتظار المدد الذى طلبه من الأمصار ..

وانقضت الأيام الثلاثة على غير جدوى ..

وتفاقمت الفتنة ، وأحاط الثائرون ببيت عثمان .. لا يقنعون فى هذه الكرة[3] الا أن يعتزل ، أو يسلمهم مروان بن الحكم ، أو يعزلوه عنوة[4]

وجاء فى رواية « شداد بن أوس » ان علياً رضى الله عنه ، خرج من منزله يومئذ معتما بعمامة رسول الله متقلدا سيفه ، أمامه الحسن وعبد الله بن عمر فى نفر من المهاجرين والأنصار حتى حملوا على الناس وفرقوهم ، ثم دخلوا على الخليفة فسلم عليه عليٌ .. وقال بعد تمهيد وجيز[5] : « .. لا أرى القوم الا قاتليك ، فمرنا فلنقاتل » . فقال الخليفة : « أنشد الله رجلا رأى لله حقا ، وأقر أن لى عليه حقا ، ان يهريق فى

---

(١) أي ابطال . (٢) الخوض في أخبار الفتن . (٣) المرة . (٤) أي قهرا . (٥) أي قصير .

سببي ملء محجمة من دم أو يهريق دمه فى » فأعاد عليّ القول ، فأعاد عليه هذا الجواب .. ثم خرج من عنده الى المسجد ، وحضرت الصلاة فنادوه : « يا أبا الحسن .. تقدم فصلّ بالناس » فقال : « لا أصلّي بكم والامام محصور ، ولكنى أصلّي وحدي » ثم صلّى وحده وانصرف الى منزله ، وترك ابنيه مع أبناء زمرة[1] من الصحابة فى حراسة دار الخليفة ، ليعلم الثوار أنهم معتدون على كل ذى خطر فى الاسلام ان وصلوا الى الخليفة باعتداء .. عساهم ان علموا ذلك أن يتهيبوا المركب ، فلا ينزعوا بالشر غاية منزعه

الا أن الثوار علموا أنهم مأخوذون بالانتظار مغلوبون بالمطاولة فتسوروا الدار وولغوا فى دم طهور لو هان على صاحبه أن تسفك الدماء فى سبيله لعز عليهم أن يسفكوه .

***

وللافاضة فى مقتل عثمان وعبرة هذا المقتل ، مكان غير هذا المكان ، وكتاب غير هذا الكتاب ..

فانما نحن فى صدد الموقف الذى وقفه عليّ من هذه الجريمة ، وما ينم[2] عليه هذا الموقف من خلقه ورأيه وسريرته وجهره .. وانما يعنينا هنا أن نسأل : أكان عليه وزر فى هذه الجريمة ؟.. أكان فى مقدوره عمل صالح يعمله لانقاذ عثمان من هذا المصير ؟..

ونحن لا نسأل هذا السؤال لنرجع فى جوابه الى جدل المجادلين وأقاصيص المادحين والقادحين .. فقد سال فى الخلاف على هذا السؤال دم غزير ومداد كثير ، وليس علينا نحن أن نزيد قطرة أو قطرات على هذا البحر المسجور[3] الذى لا ريّ فيه

ليس علينا هذا ، لأننا نستطيع أن نعبره الى حقيقة ماثلة لمن يشاء أن يراها ، وفيها الغنى — ولو بعض الغنى — عن الاسهاب فى السؤال والجواب ..

فالحقيقة التى لا يطول فيها الرتب[4] ، أن علياً رضى الله عنه لم يكن

---

(١) جماعة · (٢) أي يدل · (٣) المملوء · (٤) لعلها الريب ·

أقدر على اجتناب هذا المصير من معاوية أو من عثمان نفسه ، لو شاء عثمان أن يستمع الى بعض الناصحين اليه .

فقد كان معاوية واليا عزيزا ، له جند يرسله الى الخليفة فيحميه فى الشدة اللازمة وان أباه ، وكان لمعاوية قبول عند عثمان لم يكن لعليّ ولا لأحد من خلصائه ، وكان هو أقمن[١] أن يميل بعثمان الى الرضا بالحراسة أو الرضا بالرحلة الى مكة أو الشام ، لو أراد

وكان فى وسع عثمان أن يرحل الى مكة ، وهى آمن له من المدينة ، أو يرحل الى الشام وقد كانت مفتوحة له قبل أن تغلقها الفتنة ويمرد الثوار فى العصيان ..

أما عليّ فقد كان موقفه أصعب موقف يتخيله العقل فى تلك الأزمة المحفوفة بالمصاعب من كل جانب ..

كان عليه أن يكبح الفرس عن الجماح ، وكان عليه أن يرفع العقبات والحواجز من طريق الفرس .. كلما حيل بينها وبين الانطلاق

كان ناقدا لسياسة عثمان وبطانته التى حجبته عن قلوب رعاياه .. ناصحا للخليفة باقصاء تلك البطانة[٢] ، وتبديل السياسة التى تزينها له وتغريه باتباعها وصم الآذان عن الناصحين له بالاقلاع عنها

وكان مع هذا أول من يطالب بالغوث ، كلما هجم الثوار على تلك البطانة ، وهموا باقصائها عنوة من جوار الخليفة

كان الثوار يحسبونه أول مسئول عن السعى فى الاصلاح ، وكان الخليفة يحسبه أول مسئول عن تهدئة الحال وكف أيدى الثوار

ولم يكن فى العالم الاسلامى كله رجل آخر يعانى مثل هذه المعضلة التى تلقاه من جانبيه كلما حاول الخلاص منها ، ولا خلاص !

وضاعف هذا الحرج الشديد الذى كان يلقاه فى كل خطوة من خطواته ، انه لم يكن بموضع الحظوة[٣] والقبول عند الخليفة حيثما وجب الاصغاء الى الرأى والعمل بالمشورة . وانما كان مروان بن الحكم موضع الحظوة الأولى بين المقربين اليه .. لا ينجو من احدى جناياته التى كان

---

(١) أجدر . (٢) أي حاشيته . (٣) أي علو المنزلة والمكانة .

يجنيها على الحكومة والرعية حتى يعود الى الخليفة فيوقع فى روعه ان عليًا واخوانه من جلة الصحابة هم الساعون بين الناس بالكيد له وتأليب الثائرين عليه ، وانه لا آمان له الا آن يوقع بهم ويعرض عنهم .. ويلتمس الأمان عند عشيرته وأقربائه ، ومن هم أحق الناس بسلطانه وأصدقهم رغبة فى دوامه ..

ففى المؤتمر الذى جمعه الخليفة للتشاور فى اصلاح الأمر وقمع الفتنة ، لم يكن عليٌ مدعوا ولا منظورا اليه بعين الثقة والمودة .. بل كان المدعوون الى المؤتمر من أعدائه والكارهين لنصحه .. وهم معاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن أبى سرح وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص ، وهم فى جملتهم أولئك الولاة الذين شكاهم عليٌ وجمهرة الصحابة ، وبرمت[1] بهم صدور المهاجرين والأنصار

قال لهم عثمان : « ان لكل امرىء وزراء ونصحاء ، وانكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى . وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا الىّ أن أعزل عمالى ، وأن أرجع عن جميع ما ينزهون الى ما يحبون .. فاجتهدوا رأيكم وأشيروا عليّ » ..

قال معاوية : « أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم ، وأنا ضامن لك ما قبلى »

رأى رجل يريد أن يحتفظ بولايته ، ولا يريد أن يغضب أحدا من أصحاب الولايات فى غير مصره ..

وقال عبد الله بن عامر : « رأيى لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك ، وأن تجمهرهم فى المغازى[2] حتى يدلوا لك .. فلا تكون همة أحدهم الا نفسه ... »

رأى رجل يريد أن يشغل الناس عن الشكوى ولا يريد أن يزيلها ، ثم هو لا يبالى أن يخلق جهادا تسفك فيه الدماء فى غير جهاد مطلوب

وقال عبد الله بن سعد : « أرى يا أميرالمؤمنين ان الناس أهل طمع ، فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم »

---

(١) أي ضاقت وسئمت ٠ (٢) أي الحروب ٠

رأى رجل يشترى الرضا بالرشوة ، ويستبقى ما فى يديه منها

وقال عمرو بن العاص ، وهو بين السخط على ولاية فاتها والطمع فى ولاية يرجوها : « أرى انك قد ركبت الناس بما يكرهون ، فاعتزم أن تعدل .. فان أبيت ، فاعتزم أن تعتزل .. فان أبيت ، فاعتزم عزما وامض قدما » ..

رأى رجل عينه على الخليفة وعينه على الثوار ، ولهذا بقى حتى تفرق المجتمعون .. ثم قال للخليفة حيث لا يسمعه أحد غيره : « والله يا أمير المؤمنين لأنت أعز عليّ من ذلك .. ولكنى قد علمت ان سيبلغ الناس قول كل رجل منا ، فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى .. فأقود اليك خيرا وأدفع عنك شرا ... » .

***

وكان هؤلاء هم الوزراء والنصحاء وأهل الثقة عنـد عثمان ، ومن ورائهم مروان بن الحكم يلازمه ويكفل لهم أن يحجب النصحاء عنه ، وفى مقدمتهم عليّ واخوانه .. ثم تفرّق المؤتمرون وقد رد عثمان كل عامل الى عمله ، وأمره بالتضييق على من قبله ..

فكانت حيلة عليّ فى تلك المعضلة العصيبة جد قليلة ، وكان الحول[1] الذى فى يديه أقل من الحيلة

الا انه مع هـذا قد صـنع غاية ما يصنعه رجل معلق بالنقيضين ، معصوب[2] بالتبعتين ، مسئول عن الخليفة أمام الثوار ومسئول عن الثوار أمام الخليفة ..

جاءه الثوار مرة من مصر خاصـة ، يتخطون الخليفة اليه ويعرضون الخـلافة عليه .. فلقيهم أسوأ لقاء ، وأنذرهم لئن عادوا اليها ليكونن جزاؤهم عنده وعند الخليفة القائم ، جزاء العصاة المفسدين فى الأرض

وجاءوه مرة أخرى وحجتهم ناهضة ، ودليل التهمة التى يتهمون بها بطانة عثمان فى أيديهم .. جاءوه بالخطاب الذى وجدوه فى طريق مصر مع غلام عثمان ، يأمر عامله بقتلهم بعد أن وعدهم خيرا وأجابهم الى

(١) الحول هنا : بمعنى القوة ・ (٢) أي محاط ・

تولية العامل الذى يرضيهم . فلم تخدعه حجتهم الناهضة ، ولم يشأ أن على لهم فى ثورتهم واحتجاجهم من جراء ذلك الخطاب المشكوك فيه . وجعلهم متهمين مسئولين بعد أن كانوا متهمين سائلين ، فقال لهم : « وما الذى جمعكم فى طريق واحد ، وقد خرجتم من المدينة متفرقين كل منكم الى وجهة ؟ » ..

***

وكانت حيرة عليّ بين التقريب والابعاد ، أشد من حيرته بين الخليفة والثوار .. فكان يؤمر تارة بمبارحة[1] المدينة ليكف الناس عن الهتاف باسمه ، ويستدعى اليها تارة ليردع الناس عن مهاجمة الخليفة . فلما تكرر ذلك ، قال لابن عباس الذى حمل اليه رسالة عثمان بالخروج الى ماله فى ينبع : « يا ابن عباس .. ما يريد عثمان الا أن يجعلنى جملا ناضحا بالغرب — أى الدلو — أقبل وأدبر .. بعث الىّ أن أخرج ، ثم بعث الىّ أن أقدم ، ثم هو الآن يبعث الىّ أن أخرج .. والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثما » ..

ثم بلغ السيل الزبى[2] ، كما قال عثمان رضى الله عنه ، فكتب الى علىّ يذكر له ذلك ويقول : « ان أمر الناس ارتفع فى شأنى فوق قدره .. وزعموا أنهم لايرجعون دون دمى ، وطمع فىّ من لا يدفع عن نفسه

فان كنت مأكولا فكن خير آكل   والا فأدركنى ولما أمزق

فعاد عليّ ، وجهد فى انقاذ الخليفة جهده ، ولكنه كان يعالج داء استعصى دواؤه وابتلى به أطباؤه .. فكلهم يريد تغييرا يأتى من قبل الغيب أو يأتى من قبل الآخرين ، ولا يغير شيئا من عمله أو مستطاعه . ولعل الخليفة لو شرع فى التغيير المرجو يومئذ لما أجدى عليه عظيم جدوى ، لفوات أوانه وانطلاق الفتنة من أعنتها ، وامتناع التوفيق والصفاء بعد ما وقر فى النفوس ولغطت به الأفواه ..

وعد الخليفة وعده الأخير .. ليصلحن الأحوال ويبدلن العمال وأحاطت به بطانته كدأبها فى اثر كل وعد من هذه الوعود ، تنهاه أن

(١) بمغادرة . (٢) جمع زبية ، والزبية : الرابية لا يعلوها ماء .

ينجزه وتخيفه من طمع الناس فيه ، ان هو أنجز ما وعدهم حين توعدوه

وكانت المرأة أصدق نظر من الرجال فى هذه الغاشية التى تضل فيها العقول .. فأشارت عليه امرأته السيدة نائلة باسترضاء عليّ والاعراض عن هذه البطانة ، ولم يكن أيسر على بطانته من اقناعه بضعف هـذا الرأى بعد سماعه من امرأة ضعيفة . فكان مروان يقول له : « والله لاقامة عليّ خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها » ..

وكان هو يأذن له أن يخرج ليكلم الناس ، فلا يكلمهم الا بالزجر والاصرار .. كما قال لهم يوما : « ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب . شاهت[1] الوجوه .. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا .. ارجعوا الى منازلكم ، فأنا والله ما نحن مغلوبين على ما فى أيدينا »

اذن بطلت الروية[2] ، ولم يبق الا لحظة طيش لا يدرى كيف تبدأ ، ولا يؤتى لأحد اذا هى بدأت أن يقف دون منتهاها .

***

هجم الثوار على باب الخليفة ، فمنعهم الحسن بن عليّ وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وطائفة من أبناء الصحابة .

واجتلدوا[3] فمنعهم عثمان ، وقال لهم : « أنتم فى حلّ من نصرتى » وفتح الباب ليمنع الجلاد حوله .. ثم قام رجل من أسلم يناشد عثمان أن يعتزل ، فرماه كثير بن الصلت الكندى بسهم فقتله ، فجنّ جنون الثوار يطلبون القاتل من عثمان ، وعثمان يأبى أن يسلمه ويقول لهم : « لم أكن لأقتل رجلا نصرنى وأنتم تريدون قتلى .. » وعزّ على الثوار أن يدخلوا من الباب الذى كان قد أغلق بعد فتحه ، فاقتحموا الدار من الدور التى حولها .. وأقدموا على فعلتهم النكراء بعد احجام كثير

لو لم تقع الواقعة فى هذه اللحظة الطائشة ، لوقعت فى لحظة غيرها لايدرى كيف تبدأ هى الأخرى .. فانما هى بادرة واحدة من رجل واحد تسوق وراءها كل مجتمع حول الدار من المهاجرين او المدافعين ، ولا أكثر

(١) قبحت . (٢) التفكر في الامر . (٣) أي تضاربوا بالسيوف .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من البوادر بين ثوار لا يجمعهم رأى ، ومدافعين لا يضبطهم عنان ..

ونقل الخبر الى المسجد ، وفيه علي جالس فى نحو عشرة من المصلين ، فراعه منظر القادم وسأله : « ويحك ما وراءك ؟ » قال : « والله قد فرغ من الرجل » فصاح به : « تبا[1] لكم آخر الدهر .. » وأسرع الى دار الخليفة المقتول .. فلطم الحسن ، وضرب الحسين ، وشتم محمدا بن طلحة وعبد الله بن الزبير وجعل يسأل ولديه : « كيف قتل أمير المؤمنين ، وأنتما على الباب ؟ » فأجاب طلحة : « لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن ، لو دفع مروان ما قتل » .

***

قال سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه : « بقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان ، وأميرها الغافقى بن حرب ، يلتمسون من يجيبهم الى القيام بالأمر ، والمصريون يلحون على علي ، وهو يهرب الى الحيطان[2] ، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ، والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيبهم ، فقالوا فيما بينهم : لا نولى أحدا من هؤلاء الثلاثة . فمضوا الى سعد بن أبى وقاص فقالوا : انك من أهل الشورى . فلم يقبل منهم ، ثم راحوا الى ابن عمر فأبى عليهم ، فحاروا فى أمرهم . ثم قالوا : ان نحن رجعنا الى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمرة اختلف الناس فى أمرهم ولم نسلم .. فرجعوا الى علي فألحوا عليه ، وأخذ الأشتر بيده فبايعه وبايعه الناس .. وكلهم يقول : لايصلح لها الا علي . فلما كان يوم الجمعة وصعد علي المنبر، بايعه من لم يبايعه بالأمس وكان أول من بايعه طلحة بيده الشلاء ، فقال قائل : «انا لله وانا اليه راجعون» ، ثم الزبير، ثم قال الزبير: « انما بايعت عليا واللج[3] على عنقى والسلام ..»

وهذا الخبر على وجازته[4] ، قد حصر لنا أسماء جميع المرشحين للخلافة بالمدينة عند مقتل عثمان .. وربما كان أشدهم طلبا لها طلحة والزبير ، اللذان أعلنا الحرب على علي بعد ذلك .. فقد كانا يمهدان لها فى حياة

(١) التباب الخسران والهلاك . (٢) البساتين . (٣) السيف . (٤) اي قصره واختصاره .

عثمان ، ويحسبان أن قريشا قد أجمعت أمرها ألا يتولاها هاشمي ، وأن عليًا وشيك أن يذاد[1] عنها بعد عثمان كما ذيد عنها من قبله ، وكانت السيدة عائشة تؤثر أن تئول الخلافة الى واحد من هذين .. أو الى عبد الله بن الزبير ، لأن طلحة من قبيلة تيم[2] والزبير زوج أختها أسماء ، وفي تأييد السيدة عائشة لواحد منهم مدعاة أمل كبير في النجاح ..

على أن الرأي هنا لم يكن رأي قريش ، ولا رأي بني هاشم .. فلو أن عثمان مات حتف أنفه ، ولم يذهب ضحية هذه الثورة لجاز أن تجتمع قريش فتعقد البيعة لخليفة غير علي بن أبي طالب ، وجاز أن يختلف بنو هاشم .. فلا يجتمع لهم رأي على رجل من رجالهم الثلاثة المرشحين للخلافة ، وهم : عقيل ، وعلي ، وابن عباس .

***

ولكنها الثورة الاجتماعية التي تنشد رجلها دون غيره ولا محيد[3] لها عنه .. فان ترددت أياما ، فذاك هو التردد العارض الذي يرد على الخاطر لا محالة ، قبل التوافق على رأي جازم .. ثم لا معدل للثورة عن الرجل الذي تتجه اليه وحده على الرغم منها ..

فطلحة والزبير ، كانا يشبهان عثمان في كثير مما أخذه عليه المتحرجون في الدين ، وتمرد له الفقراء المحرومون .. كانا يخوضان في المال ، ولا يفهمان الزهد والعلم على سنة[4] الناقمين المتزمتين ، فاذا طلب الثائرون خليفة على شرطهم ووفاق رجائهم .. فما هم بواجديه في غير علي بن أبي طالب ، وقد قال بحق : « ان العامة لم تبايعني لسلطان غالب ولا لعرض حاضر » ولو شاء لقال عن الخاصة الذين لا يطمعون في الخلافة مقالته عن العامة في انقيادهم اليه بغير رهبة ولا رغبة .. فقد كان أولئك الخاصة جميعا على رأي العامة في حكومة عثمان وبطانته ، وان أخفى بعضهم لومه .. ولم يذهب بعضهم في اللوم مذهب الثوار في النزق[5] وسفك الدماء ..

ونعتقد كما أسلفنا أن هذه الحقيقة هي أولى الحقائق بالتوكيد

(١) أي يدافع ويرد ٠ (٢) هي قبيلة أبي بكر ٠ (٣) عدول ٠ (٤) أي طريقة ٠ (٥) الخفة والطيش ٠

والاستحضار ، كلما عرض أمر من أمور الخلاف والتردد فى خلافة علي رضى الله عنه .. فاذا هى فهمت على وجهها ، فكل ما عداها مفهوم البواطن والظواهر منسوق الموارد والمصادر .. واذا هى لم تفهم على الوجه الأمثل أو تركت جانبا ، وبحث الباحثون عن العلل والعواقب فى غيرها فالعهد كله غامض مجهول ، والموازين كلها مختلة منقوصة سواء فى تقدير الرجال أو تقدير الأعمال ، وجاز حينئذ أن يرمى على بالخطأ .. ولا خطأ عنده يصححه غيره فى موضعه ، وانما هو حكم الموقف الذى لا محيد عنه . وجاز كذلك أن ينحل خصومه فضل الصواب ولا صواب عندهم ، لأنهم مضطرون الى ورود هذا المورد .. فكروا فيه أو طرقوه اعتسافا بغير تفكير ..

***

فلم تكن المسألة خلافا بين على ومعاوية على شيء واحد ، ينحسم فيه النزاع بانتصار هذا أو ذاك

ولكنها كانت خلافا بين نظامين متقابلين وعالمين متنافسين : أحدهما يتمرد ولا يستقر ، والآخر يقبل الحكومة كما استجدت ويميل فيها الى البقاء والاستقرار ..

أو هى كانت صراعا بين الخلافة الدينية كما تمثلت فى علي بن أبى طالب ، والدولة الدنيوية كما تمثلت فى معاوية بن أبى سفيان

وليس موضع الحسم فيها أن ينتصر علي .. فيحكم فى مكان معاوية ، أو ينتصر معاوية فيحكم فى مكان علي ، بل موضع الحسم فيها مبادىء الحكم كيف تكون اذا تغلب واحد منهما على خصمه ؟ أتكون مبادىء الخلافة الدينية أو مبادىء الدولة الدنيوية ؟.. أتكون مبادىء الورع والزهادة أو مبادىء الحياة على أساس الثروة الجديدة ، كما توزعت بين الأمصار وتفرقت بين السراة[1] والأجناد والأعوان ؟

فلو أن عليًّا ملك الشام ومصر والعراق والحجاز ، وجرى فى سياستها على سنّة أصحابه من الحفاظ والقراء ومنكرى البذخ[2] والاسراف لبقيت

---

(١) سراة كل شيء : أعلاه . (٢) الكبر ، وتبذخ : تكبر وعلا شرف .

المشكلة حيث كانت ، ولم تغن هزيمة معــاوية الا ريثما يتجرد للدولة منازع آخر يحاول الغلبة من حيث فشل ..

ولو أن معاوية ملك المدينة الى جانب ملكه ، وجرى فى سياستها على سنّة الحفاظ والقراء لما أرضاهم ، ولا انقاد له أحد من أشياعه ..

فالحسم حق الحسم هنا ، انما تغليب مبادىء الملك أو مبادىء الخلافة ولا حيلة لعلي ولا لمعاوية فى علاج الأمر على غير هذا الوجه ، لو جهد له جهد الطاقة ..

***

وقد كان الموقف بين الخلافة والملك ملتبسا متشابكا فى عهد عثمان : كان نصف ملك ونصف خلافة ، أو كان نصف زعامة دينيــة ونصف امارة دنيوية ..

فوجب أولا أن يتضح الموقف بينهما ، وأن يزول الالتباس عن فلق[1] صريح ..

ووجب وقد زال الالتباس ، وتقابل الضدان اللذان لا يتفقان ، أن يبلغ الخلاف مداه .. ولن يزال قائما حتى تكتب الغلبة لمبدأ من المبدأين وحكم من الحكمين ، وليس لعلي أو معاوية على التخصيص

هذه هي العلة الكبرى التى تنطوى فيها جميع العلل الظاهرة ..

وخليق[2] بكل علة أخرى أن تكون تعلة موضوعة يستر صاحبها غير ما يبطن ، أو ينخدع فى زعمه وهو غافل عن معناه ..

خــذ لذلك مثلا علة طلحة وأصحابه الذين ثاروا على عليّ ليطلبوه بدم عثمان ، وهم لم يدفعوا عنه فى حياته بعض ما دفع عليّ عنه . وقد كان عثمان كثيرا ما يقول : « ويلى من طلحة .. أعطيته كذا وكذا ذهبا وهو يروم[3] دمى .. اللهم لا تمتعه به ولقه عواقب بغيه » ..

وساء ظن الناس بنقمة طلحة على عثمان حتى حدث بعضهم أنه رآه يوم مقتله يرمى الدار ، ويقود بعض الثائرين الى الدور المجاورة ليهبطوا منها الى دار عثمان ، وهو حديث يفتقر الى السند الوثيق ، ولكنه ينم

(١) الفلق : الصبح . (٢) أي جدير . (٣) يطلب .

على ظن الناس بصداقة طلحة للخليفة المقتول

وخـذ لذلك مثلا حجة معـاوية حين علل ثورته باتهام عليّ في دم عثمان ، وعلل اتهامه لعليّ بتقصيره في القود[1] من الثائرين .. وهم ألوف يحملون السلاح ، وهو لم يسكن بعد الى سلطان يعينه على القود من هؤلاء الألوف المسلحين . فماذا صنع معاوية بقاتلى عثمان حين صـار الملك اليه ، ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذى من أجله ثار واستباح القتال ؟ انه اتبع عليًا فيما صنع ، وأبى أن يذكر الثأر المقيم المقعد ، وقد ذكروه به وألحفوا[2] فى تذكيره . ولقد كان أول ما سمعه يوم زار المدينة ودخل بيت عثمان صيحة عائشة بنته وهى تبكى : « وا أبتاه » فلم تزده هذه الصيحة المثيرة الا اصرارا على الاغضاء والاعفاء . وقال لها يعزيها : « يا ابنة أخى .. ان الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أمانا ، وأظهرنا لهم حلما تحته غضب ، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل انسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره .. فان نكثنا بهم نكثوا بنا ، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا ولأن تكونى بنت عم أمير المؤمنين خيرا من أن تكونى امرأة من عرض المسلمين .. » .

***

ولو كانت الثورة كلهـا من أجـل عثمان لما انتهت بهـذا التسليم الهين .. ولكان عذر علي فى بداية المحنة أعظم حجة ، وأحق بالقبول ..

أو خذ لذلك مثلا علة عمرو بن العاص ، وقد كان أول الناصحين لعثمان بالاعتزال ، بل كان يخطب عثمان ليسترضى النـاس ، وعمرو يصيح به من صفوف المسجد : « اتق الله يا عثمان ، فانك قد ركبت أمورا وركبناها معك .. فتب الى الله تتب .. » ثم ترك عثمان فى المدينة بين المؤتمرين به ومضى الى فلسطين ، وسمع وهو يقول : « والله انى كنت لألقى الراعى فأحرضه على عثمان » .

فكل علة للثورة على خلافة علي ، فهى تعلل موضوع ينخدع به قائله أو يخدع به غيره .. الا تلك العلة التى طوت فيها جميع العلل ظاهرها

(١) القود : القصاص . (٢) الحفوا : الحوا .

وخافيها وصريحها ومكذوبها . وهى الخلاف بين مبادىء الخلافة الدينية ومبادىء الدولة الدنيوية ، وضرورة الفصل بين هاتين الخطتين .. وان كان فى ظاهره فصلا بين رجلين ..

فلما بويع بالخلافة ، كانت هذه البيعة ايذانا بانقسام الحلقة بين الندين للصراع الأخير ، أو كانت ايذانا باصطفاف المتسابقين الى غاية لا بد من بلوغها .. ولن تخطر على البال غاية لهذا السباق المحتوم غير انتهاء الخلافة أو انتهاء الملك على النحو الذى تهيأت له عناصر النظام الاجتماعى الجديد

فأما انتهاء الملك فى بدايته ، فقد كان بعيدا — بل كان عسيرا جدا فى تلك الآونة — كما يعسر انطفاء النار وهى تهب بالاشتعال ..

وأما انتهاء الخلافة فهو الذى كان ، وهو الذى كان منظورا أن يكون ، ولن يكون غيره بمنظور .. فمن الفضول لوم علىّ على شيء من الأشياء التى أفضت الى هذه الخاتمة ، وهى محتومة ليس عنها محيد ..

اذ لم يكن طبيعيا أن يصمد الناس على سنّة النبوة أكثر من جيل واحد ، تثوب[1] بعده الطبائع الى فطرتها[2] من نشأة جلال الخلافة النبوية ، وهى فى ابان النضال والحمية الدينيــة ، فتنسى المطــامع وتسهو عن الحزازات وتستعذب الألم والفداء الى مدى الطاقة الانسانية ، ولكنها تبلغ مدى الطاقة الانسانية بعد حين ، وتفتر[3] عن النهوض من قمة الى قمة.. فتركن آخر الأمر الى الأرض السواء حيث لاحافز ولا مستنهض ، الا مجاراة الطبيعة فى مجاريها التى لا تشق عليها ، وان المصلحين ليرضون غاية الرضا اذا هى حفظت من اصلاحهم عند ذلك وازعا يهديها بعد ضلالة عمياء ، ويردعها بعد جماح مريد ، ويكفكف من غلوائها ما كان من قبل منطلقا بغير عنان ..

وقد نظر النبى عليه السلام بعين الغيب الى هــذا المصــير فقال : « الخلافة ثلاثون عاما ثم يكون بعد ذلك الملك » .. وأنبأ بانقسام الفرق وتشعب الأهواء ، وكأنما كان ينظر الى ذلك بعينيه صلوات الله عليه

---

(١) ترجع . (٢) أي طبيعتها . (٣) تفتر : تضعف .

واتبع عليّ من اليوم الأول فى خلافته أحسن السياسات التى كان له أن يتبعها ، فلا نعرف سياسة أخرى أشار بها ناقدوه أو مؤرخوه ثم أقاموا الدليل على انها خير من سياسته فى صدق الرأى وأمان العاقبة ، أو أنها كانت كفيلة باجتناب المآزق التى ساقته الحوادث اليها

فمن اللحظة الأولى ، أخذ فى تجنيد قوى الخلافة الدينية التى لا قوة له بغيرها ..

فعزل الولاة الذين استباحوا الغنائم المحظورة[1] ، وتمرغوا بالدنيا ، وطمعوا وأطمعوا رعاياهم فى بيت مال المسلمين ، وأثاروا على عثمان سخط السواد وسخط الفقهاء المتحرجين والحفاظ الغيورين على فضائل الدين ..

***

ورد القطائع[2] التى وزعتها بطانة عثمان بين المقربين وذوى الرحم ، فصرفتها عن وجوهها التى جعلت لها من اصلاح المرافق واغاثة المفتقرين اليها على شرعة الانصاف والمساواة

ورجع الى خطة أبى بكر وعمر فى تجنيب الصحابة الطامحين الى الامارة فتنة الولايات ، مخافة عليهم من غوايتها وابعادا لهم من دسائس الشيع والعصبيات .. فلما طالبه طلحة والزبير بولاية العراق واليمن ، قال لهما : « بل تبقيان معى لآنس بكما » وسأل ابن عباس : «ماترى ؟» فأشار بتولية الزبير البصرة وتولية طلحة الكوفة . قال علي : «ويحك .. ان العراقين بهما الرجال والأموال .. ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع ، ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على القوى بالسلطان ، ولو كنت مستعملا أحدا لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى »

نعم ، ان هذه السياسة أغضبت منافسيه وطالبى المنفعة الدنيوية على يديه .. ولكن السياسة الأخرى كانت تغضب أنصاره ولا تضمن رضا المنافسين ودوامهم على الرضا والوفاق بينهم فى تأييده . وكانت تخالف

(١) الخطر : ضد الاباحة ، والشيء المحظور : المحرم • (٢) أرض الخراج •

عقيدته التى يدين بها نفسه وأقرب الناس اليه ، وتخالف وعده وعقيدة الناس فيه .. ولن يكون مالكا غالبا بسياسة الملك على كل حال ، فان لم يكن خليفة فما هو بشىء ، وان كان خليفة وملكا فهى خطة عثمان التى لم تستقم قط على وجه من وجهيها ومصيرها معروف ، وان كان خليفة ولا اختيار له فى ذلك فكل ما صنع فهو الحكمة كأحسن ما تراض له الحكمة ، وهو السداد[1] كأقرب ما يتاح له السداد

***

وعلم ان قريشا لا ينصرونه ، فنقل العاصمة من المدينة الى الكوفة .. لأن قريشا كانوا هاشميين وهم لا يتفقون على بيعته ، وقد تركه أقربهم اليه ورحل الى معاوية طمعا فى رفده ، أو كانوا أمويين وهم حزب معاوية وأهل عشيرته وبيته ، أو من تيم وهم حزب طلحة ، أو من عدى وهم يؤثرون عبد الله بن عمر بن الخطاب ، أو من قبائل أخرى ، وهم كما قال : « قد هربوا الى الاثرة[2] » .. فاذا أقام بينهم فهو مقيم بين أناس لا ينقطع لهم طلب ولا يتضمن لهم ولاء ..

ولم تمض أيام معدودة على مبايعة الخليفة الجديد حتى انتظمت صفوف الحجاز كله له أوعليه .. فكان معه جميع الشاكين لأسباب دينية أو دنيوية ، وكان عليه جميع الولاة الذين انتفعوا فى عهد عثمان ، وجميع الطامعين فى الانتفاع بالولاية والأموال العامة .. وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ما طمعوا فيه ..

وعلى رأس هؤلاء طلحة والزبير ..

فحشدوا جموعهم الى البصرة ، وصحبتهم السيدة عائشة لأنها كانت ترغب فى خلافة طلحة .. لقيها ابن عباس على مقربة من المدينة وهو أمير على الحج من قبل عثمان ، ولما يزل قائما بالخلافة ، فقالت له : « يا ابن عباس .. أنشدك الله فانك قد أعطيت لسانا ازعيلا — أى ماضيا — أن تخذل عن هذا الرجل — تعنى عثمان — وأن تشكك فيه الناس فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ورفعت لهم المنار ، وتحلبوا[3] من البلدان لأمر قد

---

(١) التوفيق والصواب . (٢) استأثر بالشىء : استبدبه ، والاسم الاثرة . (٣) تجمعوا من كل جهة .

جم[١]. وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح .. فان يل يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر رضى الله عنه » فأجابها ابن عباس : « يا أمه ! لو حدث ما فزع الناس الا الى صاحبنا » أى علي فقالت : « أيها عنك .. انى لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك »

فلما بويع عليٌ فى المدينة ، لم تكن من أنصاره ولا مع الباقين على الحيدة بينه وبين خصومه .. ولعلها لم تنسَ بعد نصيحته للنبى عليه السلام فى مسألة الافك التى قيل انه أشار فيها بتطليقها ، فخرجت الى البصرة مع المطالبين بثأر عثمان ، وكانت هنالك وقعة الجمل التى سُمِّيت بهذا الاسم لاحتدام[٢] القتال فيها حول جملها وهودجها .. فانتصر عليٌ ، وقتل الزبير ، ومات طلحة بجرح أصابه فى المعركة ، وحسم القتال بالصلح بين الفريقين فى الحجاز والعراق ..

على أن هذا النصر العاجل ، لم يخل من آفة تكدره وتنذر بالمخاوف التى يوشك أن يلقاها عليٌ فى حربه لخصومه الباقين بعد موت طلحة والزبير .. وأقواهم معاوية بن أبى سفيان صاحب الشام ..

فقد كشفت وقعة الجمل عن مصاعب القيادة فى جيش من المتمردين والمتذمرين .. فانهم يستحمسون فى عقيدتهم ، وهى فضيلة من فضائل الجيوش المقاتلة ، ولكنهم من جراء هذه الحماسة نفسها عرضة للعناد والتمادى فى اللدد[٣] واعجال قائدهم عن انعام الروية وانتظار الفرص المؤاتية ..

فقد كان عليٌ يميل — كدأبه — الى مفاتحة الخارجين عليه فى المهادنة أو المصالحة ، وكان معه جماعة السبئية — أتباع عبد الله بن سبأ — وهم أخلص الناس له وأغيرهم عليه ، ولكنهم لفرط غيرتهم ولددهم فى عداوتهم لم يقنعوا بما دون القضاء على خصومه ، ولم يقبلوا التوسط فى الصلح دون الغلبة التى لا هوادة فيها .. فدهموا القوم وأوقدوا جذوة[٤] الحرب ، قبل أن يفرغ عليٌ من حديث المهادنة والتقريب بينه وبين أصدقائه الذين خرجوا عليه ..

(١) كثر . (٢) أي اشتداد . (٣) شدة الخصومة . (٤) الجذوة : الجمرة

وكانت هذه أولى العثرات الكبار التى أعثرته بها حماسة المتمردين والمتذمرين فى جيشه ، ولم تزل تتعاقب وتتفاقم[1] عليه حتى منى بالعثرة التى لا تقال ..

وكان ذلك فى وقعة صفين ..

فانه نظر بعد غلبته فى العراق ، فلم يجد أمامه خصما يقف فى طريق الخلافة الا جيش معاوية بالشام ، فعمد معه الى خطته التى جرى عليها مع خصومه كافة حيث كانوا وكانت منزلتهم من الجاه والقوة ، ونعنى بها خطة المسالمة والبدء بالاقناع .. فطالت المراسلة منه الى معاوية ، ومن معاوية اليه ، وفى مثل واحد منها ، ما يغنى عن كثير ..

كتب الى معاوية بعد وقعة الجمل ، وقد سبقته كتب كثيرة من المدينة..

« سلام عليك .. أما بعد ، فان بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لأنه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه . فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وانما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فاذا اجتمعوا على رجل وسمّوه اماما كان ذلك لله رضى ، وان خرج عن أمرهم ردوه الى ما خرج عنه ، فان أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا . وان طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتهما ، وكان نقضهما كردهما ، فجاهدتهما بعد ما أعذرت اليهما ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله ، وهم كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فان أحب الأمور الىّ قبولك العافية ، وقد أكثرت فى قتـلة عثمان ، فان رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون .. ثم حاكمت القوم الى حملتك واياهم على كتاب الله . وأما تلك التى تريدها ـ يعنى الخلافة ـ فهى خدعة الصبى عن اللبن . ولعمرى لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبرأ قريش من دم عثمان ، واعلم انك من الطلقاء[2] الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون فى الشورى وقـد بعثت اليك والى من قبـلك جرير بن

(١) تعاقم الامر : عظم · (٢) أطلق معاوية وأبوه من الاسر يوم فتح مكة ·

عبد الله ، وهو من أهل الايمان والهجرة .. فبايعه ، ولا قوة الا بالله »

فرد عليه معاوية بما يلي :

« ســلام عليك .. أما بعد ، فلعمري لو بايعك الذين ذكرت وأنت بريء من دم عثمان ، لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان . ولكنك أغريت بدم عثمان وخذلت الأنصار ، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف . وقد أبى أهل الشام الا قتالك حتى تدفع اليهم قتلة عثمان .. فان فعلت كانت شورى بين المسلمين . وانما كان الحجازيون هم الحــكام على النــاس والحق فيهم ، فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام ، ولعمري ما حجتك على أهل الشام كحجتك على طلحة والزبير ، ان كانا بايعاك فلم أبايعك أنا . فأما فضــلك فى الاســلام وقرابتك من رســول الله صلى الله عليه وسلم فلست أدفعه » ..

***

ومن رد معاوية هذا ، تبدو النية الواضحة فى فتح أبواب الخــلاف واحدا بعد واحد .. كلما أغلق باب منها بقى من ورائه باب مفتوح ، لا ينتهى الخلاف باغلاقه

فتسليم قتلة عثمان لايكفى ، لأن عليًا نفسه متهم بالاغراء والتخذيل ، وبراءة علي من هذه التهمة لا تكفى لأن المرجع بعد ذلك الى الشورى والنظر فى البيعة من جديد ..

وشورى الحجازيين والعراقيين لا تكفى لأن الحق قد خرج منهم الى أهل الشــام ، وهم الحكام على النــاس .. لأنهم يحكمون لمعــاوية ولا يحكمون لغيره ..

ومن ثم ، بطلت الحجج والرسائل كما تبطل كل حجة وكل رسالة عند ما يقال باللسان غير ما يجول[1] فى الصدور

وزحف علي من الكوفة الى صفين ، ووجد جيش معاوية على الماء .. فنحاه[2] عنه بعد أن أبى عليه معاوية أن ينحيه بغير قتال ..

وبدأت العثرات من ثم فى كل خطوة يخطوها للسلام أو للقتــال ،

---

(١) يدور ويتحرك . (٢) نحاه : أي أبعده .

فلا يتحفز فريق من أنصاره للحرب حتى يثنيه فريق آخر يحرمها ولا يقول بوجوبها ، وتحاجز القوم نيفا وثمانين فزعة .. وتصاولوا فى وقعات شتى غامرت بها طائفة من هنا وطائفة من هنا ، وقلما اشتبك فيها الجيشان فى وقعة جامعة حتى كانت وقعة الهرير ، وحاقت[1] الهزيمة بجيش معاوية وقيل انه همّ بالفرار .. واذا بالمصاحف ترفع على الحراب من قبل جيش الشام ، واذا بالعثرة الكبرى التى لا خطوة بعدها فى طريق فلاح .. فان عليًا نظر حوله ، فاذا بجيشه يوشك أن يقتتل فيما بينه نزاعا على القتال أو القاء السلاح ، وان معاوية لفى غنى عن كفاح قوم لا يتفقون على كفاحه .. فله منهم سيوف مشرعة لنصرته ، شاءوا أو لم يشاءوا ، وسيكفونه مئونة الحرب حتى يتفقوا بينهم على حربه ، وهيهات !

***

ولو كانت آفة الطاعة فى جيش عليّ ، مقصورة على اجتهاد القراء والحفاظ ، وتعجل الغلاة والمتمردين .. لكان فى ذلك وحده ما يكفى لافساد التدبير واضطراب القيادة وتعذر القتال على أصوله .. اذ لا يستغنى القائد فى ميدان الحرب ، ولا فى ميدان السياسة ، عن الكتمان والمفاجأة وتحويل الخطط على حسب الطوارىء والمناسبات .. فاذا كان فى كل عمل من أعماله عرضة لاجتهاد أصحاب الفتاوى ، وكان أصحاب الفتاوى يفترقون عشرين وجهة فى كل حركة من حركات الجيش ، فليست له خطة تكتم ولا خطة تنفذ . وليس عجيبا بعد ذلك ، أن ينهزم فى ميدان القتال شر هزيمة يبتلى بها مقاتل .. بل العجيب أن يتماسك فترة من الزمن ــ وان قصرت ــ أمام جيش يفوقه فى العدد ويرجع فى أمره الى قيادة موحدة ونية مجتمعة ومشيئة مطاعة ..

ولكن الآفة مع هذا ، لم تكن كلها فى اجتهاد الحفاظ وتعجل الغلاة .. بل كان فى الجيش أناس يخونون عهده ويشغبون عليه ، ويبدو من أعمالهم أنهم مسخرون لعدوه كارهون لانتصاره .. فان لم يكونوا كذلك ، فالأمر الذى لا شك فيه انهم كانوا يعملون وهم عامدون ــ وغير

(١) حاقت : أي نزلت ٠

عامدين — شر ما يعمله الخائن الخبيث الذى يتحين الفرص للعناد والشقاق ، وافشاء الخلل والخذلان فى أحرج الأوقات

وأدهى من ذلك ، انه لم يكن قادرا على زجرهم والتنكيل بهم .. لأن الجيش الذى يوجد فيه من يحرم حرب العدو ، لن يعدم أناسا يحرمون حرب النصير المقيم على ظاهر الطاعة ، وليس لك بيّنة قاطعة عليه

ومثل من ذلك أيضا يغنى عن أمثال كثيرة ، وهو مثل الأشعث بن قيس أكبر سادات كندة وأخلقهم[1] أن ينصر حزبا على حزب ، لو خلصت نيته وبرئت شيمته[2] من التقلب والغدر بأصحابه ..

طمح هذا الرجل الى الملك بعد موت النبى عليه السلام ، فدعا قومه أن يتوجوه .. وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حوصر فى حصنه أياما ، ويئس من الغلبة فاستسلم .. على أن يصان دمه وبقية دم عشرة من أخصائه ، ثم فتح الحصن فقتل كل من فيه ونجا بالعشرة الذين اختارهم الى أبى بكر رضى الله عنه ، فقبل توبته وزوجه أخته أم فروة . فلما نشبت الفتنة بين علىّ ومعاوية ، كان هو من حزب علي يتطلع للفرصة السانحة

ثم زحف عليّ رضى الله عنه الى صفين ، فكان الأشعث أول المندفعين الى القتال حين سد أهل الشام طريق الماء ، وجاء عليًّا يقول : « يا أمير المؤمنين ! أيمنعنا القوم الماء وأنت فينا ومعنا سيوفنا ؟.. ولّنى الزحف اليه .. فوالله لا أرجع أو أموت »

ولكنه عاد الى المسالمة ، بعد أن وضح النصر فى ليلة الهرير ، فخطب فى قومه من كندة قائلا :

« ... قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان فى يومكم هذا الماضى ، وما قد فنى فيه من العرب .. فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ ، فما رأيت مثل هذا اليوم قط .. ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا ان توافقنا غدا انه لفنيت العرب وضيعت الحرمات... أما والله ما أقول هذه المقالة خوفا من الحرب ، ولكنى رجل مسن أخاف على النساء والذرارى[3]

(١) أي أجدرهم • (٢) الشيمة : الخلق • (٣) جمع ذرية ، وذرية الرجل : أولاده •

غدا اذا فنينا » ..

ثم ذهب الى عليّ رضى الله عنه بعد رفع المصاحف ، فقال له : «ما أرى الناس الا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم الى ما دعوهم اليه من حكم القرآن .. فان شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد فنظرت ما يسأل » ..

ولقى معاوية فسأله : « يامعاوية .. لأى شيء رفعتم هذه المصاحف ؟ »

قال : « لنرجع نحن وأنتم الى أمر الله عز وجل فى كتابه .. تبعثون منكم رجلا ترضون به ، ونبعث منا رجلا ، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه .. ثم نتبع ما اتفقا عليه »

فقال الأشعث : « هذا الحق ! »

وعاد الى عليّ ينادى بالتحكيم ، ويختار له هو وأنصاره رجلا ينوب عن عليّ ، وعليّ لا يرضاه ..

***

وكان أنصار التحكيم قد تكاثروا واجترءوا[1] على أمير المؤمنين ، فلم يبالوا أن يجبهوه[2] بالقول السيء منذرين متوعدين :

« يا على ! أجب الى كتاب الله عز وجل اذا دعيت اليه ، والا ندفعك برمتك الى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان . انه عرض علينا أن نعمل بما فى كتاب الله عز وجل فقبلناه .. والله لتفعلنّها أو لنفعلنّها بك »

وألحوا عليه أن يرد قائده الأشتر النخعى من ساحة الحرب ، والا اعتزلوه أو قتلوه ..

فقبل التحكيم وهو كاره ..

واختار أهل الشام عمرو بن العاص ، فقال الأشعث : « فانا رضينا بأبى موسى الأشعرى »

قال علي : « انه ليس لى بثقة .. قد فارقنى وخذل الناس عنى ، ثم هرب منى حتى آمنته بعد أشهر ، ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك »

قالوا : « لا نريد الا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ، ليس الى واحد منكما بأدنى من الآخر .. »

---

(١) أي تجرأوا وتطاولوا . (٢) أي يواجهوه .

قال : « فانى أجعل الأشتر »

قال الأشعث — وهو ينفس على الأشتر مكانته وبلاءه من قبل — :
« وهل سعر الأرض غير الأشتر ؟.. أو قال : وهل نحن الا فى حكم الأشتر ! » ..

فلما رأى اصرارهم وقلة أنصاره على رأيه بينهم قال : « فقد أبيتم الا أبا موسى ؟ »

قالوا : « نعم ! »

قال : « فاصنعوا ما بدا لــكم ! » .

***

فهذا رجل من الزعماء المطاعين فى جيش علي ، لم يدع من وسعه شيئا لتغليب حزب معاوية على حزبه ، واستكثر عليه أن يكون الحكم الذى يختاره نصيرا له مؤمنا بحقه وصحة رأيه . ولا طائل فى البحث عن هذا الخذلان الصريح ، أكان هو الطمع فى الملك بعد فشل علي أم النقمة على الأشتر النخعى فى مكانته وبلائه ، أم التواطؤ بينه وبين معاوية على منفعة مؤجلة ومكافأة موعودة .. فانما النية الخبيثة ظاهرة وان استترت العلة ، وأيا كانت العلة الخفية فقد صــنع الرجل غاية ما استطاع لتغليب حزب معاوية وخذلان الحزب الذى هو فيه

قال علي يصف قسمته من الأنصار ، وقسمته من النوازل والعثرات :
« لو أحبنى جبل لتهافت[1] »

وقال يصف أنصــاره : « أيها النــاس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم ، كلامكم يوهي[2] الصم الصلاب ، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء .. ما عزّت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم . أعاليل بأضاليل دفاع ذى الدين المطول .. أى دار بعد داركم تمنعون ؟.. ومع أى امام بعدى تقاتلون ؟.. المغرور والله من غررتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب ، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل[3] . أصبحت

(١) تساقــط . (٢) وهي الحائــط : اذا ضعــف وهــم بالسقوط .
(٣) الافوق : هو السهم المكسور في موضع الوتر ، والناصل : العاري مــن النصل .

والله لا أصدق قولكم ولا أطمع فى نصركم ، ولا أوعد العدو بكم ، ما بالكم ؟.. ما دواؤكم ؟.. ما طبكم ؟.. القوم رجال أمثالكم ، أقولا بغير علم ؟.. وغفلة من غير ورع ؟.. وطمعا فى غير حق ؟.. »

***

وهى صيحة لا تصف الا بعض ما يعانيه من حيرة ، لا مخرج له منها فى سياسة أصحابه . فانه لم يفرغ من التحكيم الذى أذعن[1] له وهو كاره ، حتى فوجىء بطاقة أخرى من أنصاره يرمونه بالكفر لأنه قبل ذلك التحكيم ، وزعموه قبولا للتحكيم فى كلام الله وفى دماء المسلمين ، وهو عندهم كفر بواح[2] ، أولئك هم الخوارج الذين حاربوه بالسلاح ، وكانوا يحرمون عليه حرب معاوية قبل ذلك !

ثم اجتمع الحكمان بدومة الجنـدل التى وقع عليها الاختيار لتكون وسطا بين العراق والشام . ولم يكن قرار الحكمين خافيا على من عرفوا أبا موسى الأشعرى وعمرو بن العاص فان أبا موسى لم يكتم قط أن السلامة فى اجتناب الفريقين والقعود عن القتال ، فليس أيسر من اقناعه بخلع صاحبه وخلع معاوية على السواء . ثم يرجع الرأى الى عمرو ابن العاص فى اقرار هذا الخلع أو الاحتيال فيه بالحيلة التى ترضيه

الا ان الدهاة من العرب ، كانوا يتوقعون من عمرو بن العاص أن يحتال لنفسه حتى يفرغ وسعه قبل أن يحتال لصاحبه الذى أنابه عنه

ومن هؤلاء الدهاة المغيرة بن شعبة الذى اعتزل الفريقين من مطلع الفتنة الى يوم التحكيم ، فلما اجتمع الحكمان علم انها الجولة الأخيرة فى الصراع .. فخرج من عزلته ودنا ليستطلع الأمور ، على سنّة الدهاة من أمثاله ، اذ يتنسمون[3] الريح قبل هبوبها ، ولا يقلقون أنفسهم بمهبها قبل أوانها .. فلقى أبا موسى وعمرو بن العاص ، ثم ذهب الى معاوية وهو مشغول البال بطول الاجتماع بين الحكمين واضطراب الظنون فيما وراء هذا الابطاء المريب .. فقال له وهو يرى اشتغال باله . « قد أتيتك بخبر الرجلين .. »

---

(١) خضع . (٢) أي ظاهر مكشوف . (٣) يتشممون .

قال معاوية : وما خبرهما ؟ ..

قال المغيرة : « انى خلوت بأبى موسى لأبلو[1] ما عنده فقلت : ما تقول فيمن اعتزل عن هذا وجلس فى بيته كراهية للدماء ؟.. فقال : أولئك خيار الناس ، خفت ظهورهم من دماء اخوانهم وبطونهم من أموالهم . فخرجت من عنده. وأتيت عمرو بن العاص ، فقلت : يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعتزل هذه الحروب ؟.. فقال : أولئك شرار الناس لم يعرفوا حقا ولم ينكروا باطلا » ..

ثم عقب المغيرة قائلا : « أنا أحسب أبا موسى خالعا صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد ، وأحسب هواه فى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذى عرفته ، وأحسبه سيطلبها لنفسه أو لابنه عبد الله ، ولا أراه يظن انك أحق بهذا الأمر منه .. »

وقد أحس المغيرة حزره[2] نقط الحرف بالحرف فى تقدير نية الرجلين ، فانهما ما اجتمعا هنيهة حتى أقبل أبو موسى على عمرو يقول له : « يا عمرو !.. هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله ؟ »

قال : « وما هو ؟ .. »

قال : « نولى عبد الله بن عمر ، فانه لم يدخل فى نفسه شيء من هذه الحروب .. »

فراغ عمرو قليلا يحاول أن يلقى فى روع صاحبه انه يريد معاوية ، ثم عاد يسأله : فما يمنعك من ابنى عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحبته ؟ »

فأوشك أبو موسى أن يجيبه لولا انه قال : « ان ابنك رجل صدق ، ولكنك غمسته فى هذه الحروب غمسا »

وتكرر بينهما هذا القول وأشباهه فى كل لقاء ، وطفقا يبدئان منه ويعيدان اليه بعد كل جدال ، حتى وقر فى خلد[3] الأشعرى ان خلع الزعيمين أمر لا مناص منه ولا اتفاق بينهما على غيره ، فتواعدا الى يوم يعلنان فيه هذا القرار ..

---

(١) أختبر وأعرف . (٢) أي ظنه وتخمينه . (٣) قلب .

وتقدم أبو موسى فقال بعد تمهيد : « ... أيها الناس ، انا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة ، فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها[1] من أمر قد أجمع رأيي ورأى عمرو عليه ، وهو أن نخلع عليًا ومعاوية ، ونستقبل الأمة بهذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم ، وانى قد خلعت عليًا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا » .

وتلاه عمرو فقال بعد تمهيد : « .. ان هـذا قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبى معاوية ، فانه ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه »

فغضب أبو موسى ، وصاح به : « مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت ، انما مثلك مثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث .. »

فابتسم عمرو، وهو يقول : « انما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا.. »

كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين ، وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه ..

وانتهت المأساة بهذه المهزلة ، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة

وبان ان اجتماع الحكمين لم يفض الى اتفاق بين الحكمين ، فعاد الخلاف الى ما كان عليه ..

الا انه استشرى[2] واحتدم بعد قصة الحكمين بما زاد عليه من فتنة الخوارج المنكرين للتحكيم

فقد أجمعوا وأبرموا[3] فيما بينهم « .. ان هذين الحكمين قد حكما بغير ما أنزل الله ، وقد كفر اخواننا حين رضوا بهما ، وحكموا الرجال فى دينهم ونحن على الشخوص من بين أظهرهم ، وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق »

وخرجوا وعلي يأبى قتالهم حتى ييأس من توبتهم ، ولقيهم بالجيش ، فآثر أن يلقاهم مناقشا قبل أن يلقاهم مقاتلا ، واقترح عليهم أن يخرجوا اليه رجلا منهم يرضونه ، يسأله ويجيبه ويتوب ان لزمته الحجة ويتوبوا ان لزمتهم . فأخرجوا اليه امامهم عبد الله بن الكواء

---

(١) الشعث : انتشار الامر · (٢) زاد · (٣) أبرم الشيء : أحكمه ·

قال علي : « ما الذى نقمتم علي بعد رضاكم بولايتى وجهادكم معى وطاعتكم لى ، فهلا برئتم منى يوم الجمل ؟ » ..

قال ابن الكواء : « لم يكن هناك تحكيم »

قال علي : « يا ابن الكواء ويحك .. أنا أهــدى أم رســول الله صلى الله عليه وسلم ؟ »

قال ابن الكواء : « بل رسول الله صلى الله عليه وسلم »

قال على : « فما سمعت قول الله عز وجل : « قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم[1] » أكان الله يشك انهم هم الكاذبون ..

قال : « ان ذلك احتجاج عليهم ، وأنت شككت فى نفسك حين رضيت بالحكمين ، فنحن أحرى أن نشك فيك »

قال : « وان الله تعالى يقول : « فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعه[2] » ..

قال ابن الكواء : « ذلك أيضا احتجاج منه عليهم » . ثم قال بعد كلام طويل من قبيل كلامه هذا : « انك صادق فى جميع قولك غير انك كفرت حين حكمت الحكمين »

قال علي : « ويحك يا ابن الكواء .. انى انما حكمت أبا موسى وحكم معاوية عمرا » ..

قال ابن الكواء : « فان أبا موسى كان كافرا »

قال علي : « متى كفر ؟ .. أحين بعثته أم حين حكم ؟ »

قال ابن الكواء : « بل حين حكم »

قال علي : « أفلا ترى انى بعثته مسلما فكفر فى قولك بعد أن بعثته أرأيت لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا من المسلمين الى ناس من الكافرين ليدعوهم الى الله[3] فدعاهم الى غيره ، هل كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك شيء ؟ »

---

(١) الآية : ٦١ من سورة آل عمران . (٢) الآية ٤٩ من سورة القصص.

(٣) وقد حدث هذا في عهد النبي عليه السلام اذ أوفد نهارا الرجال ليهدي قوم مسلمة فانقلب هناك مبشرا بدينه .

قال : « لا »

قال : « ويحك .. فما كان على ان ضل أبوموسى ؟ أفيحل لكم بضلالة أبى موسى أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم فتعترضوا بها الناس ؟ »

فعلم الخوارج ان صاحبهم ليس بندّ[1] لعلي فى مجال نقاش ، فكفئوه عن الكلام كأنهم آمنوا بصدق علي فى حجته وقصده ، لولا انهم قوم قهرتهم لجاجة العناد كما تقهر أمثالهم من المتهوسين الذين يجدون فى المضى مع العناد لذة يستمرئونها من الحق والمعرفة .. فمردوا[2] على الشقاق ، وأصروا على تكفير علي وأصحابه ، وأن يعاملوهم فى الحرب والسلم معاملة الكفار ..

واستبقى علي بعد هذا كله بقية للسلم والمراجعة .. فرفع فى الساحة راية ضم اليها ألفى رجل ونادى : « من التجأ الى هذه الراية فهو آمن »

ثم قال لأصحابه : « لا تبدءوهم بالقتال حتى يبدءوكم » فصاح الخوارج صيحتهم : « لا حكم الا لله وان كره المشركون » وهجموا هجمة رجل واحد .. وتلقاهم علي وأصحابه لقاء من نفذ صبره ووغر[3] صدره . فما هى الا ساعة حتى قتل معظم الخوارج ، وبقى منهم نحو أربعمائة أصيبوا بجراح وعجزوا عن القتال ، فأمر بهم علي فحملوا الى عشائرهم لينظروا من فيه رمق[4] فيدركوه بعلاج

وأراد المسير الى الشام ليلقى بها جيش معاوية ..

فتصدى له الأشعث بن قيس مرة أخرى ، كما تصدى له فى كل فرصة سانحة للغلبة ، وقابل له على مسمع من الناس : « يا أمير المؤمنين .. نفدت نبالنا ، وكلت[5] سيوفنا ، ونصلت[6] أسنّة رماحنا ، فارجع بنا الى مقرنا لنستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا عدة من هلك منا ، فانه أوفى لنا على عدونا » .

***

وتسلل الجند من معسكرهم ، ولاذ من لاذ بالمدن القريبة منهم ،

---

(١) المثل والنظير . (٢) مرد على كذا :مرن واستمر . (٣) الضغن ، والعداوة ، والتوقد من الغيظ . (٤) بقية الروح . (٥) وصارت عاجزة عن القطع . (٦) وخرجت .

وأيقن علي ان القوم مارقون[1] من يده ، ولا طاعة له عليهم اذا دعاهم بعدها لقتال ..

أما معاوية فقد علا نجمه بين قومه ، وأعانه طلاب المنافع عامدين ، وأعانه الخوارج غير عامدين ، فحاربوا عليًّا ولم يحاربوه ، وطلبوا التوبة من علىّ ولم يطلبوها منه ، واستمر هو فى انفاذ البعوث والسرايا الى كل موضع آنس منه غرة وظن بزعمائه موجدة أو سآمة . فلم تنقض سنتان حتى كانت معه مصر والمدينة ومكة ، وبقى علىّ فى أرباض[2] الكوفة يائسا منعزلا عن الناس ، يتمنى الموت كما قال فى بعض خطبه ؛ ويوجس شرا من أقرب المقربين اليه ، وانتهى بقبول المهادنة بينه وبين معاوية على أن تكون له العراق ولمعاوية الشام ، ويكفا السيف عن هذه الأمة ، فلا نزاع ولا قتال ..

وبقيت فى كنانة الأقدار مصادفة من هذه المصادفات التى يخيل اليك وأنت تتعقبها ، أنها تجمعت منذ الأبد ليبوء[3] علي بنقائض الموقف كله ، ويظفر خصومه بتوفيقات الموقف كله .. فشاءت هذه المصادفة الأخيرة أن يتفق ثلاثة على قتل ثلاثة ، فيذهب هو وحده ضحية هذه المكيدة العاجلة ، ويفلت زميلاه فيها : معاوية ، وعمرو بن العاص..

اجتمع عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمى ، وهم من غلاة الخوارج الموتورين ، فتذاكروا القتلى من فاقهم ، وتذاكروا القتلى من المسلمين عامة ، وألقوا وزر هذه الدماء كلها على ثلاثة من الكفار — أو أئمة الضلالة فى رأيهم — وهم : علي بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص

فقال ابن ملجم : « أنا أكفيكم علي بن أبى طالب »
وقال البرك : « أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان ؟
وقال عمرو بن بكر : « أنا أكفيكم عمرو بن العاص »
وان ضغينة الثأر لحافز أى حافز ..

---

(١) خرج من الجانب الآخر ، ومنه سميت الخوارج مارقة ، لقوله — صلى الله عليه وسلم — : « يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » .
(٢) ما حولها . (٣) ليعود ويرجع .

وان تهوس العقيدة لمثير أى مثير ..

وكان للمتآمرين الثلاثة قسط واف من هذين الحافزين ، يغنى عن مزيد من التحريض على القتل والانتقام ..

ولكن المصادفة العجيبة هى التى شاءت أن تشحذ عزيمة[1] ابن ملجم بحافز ثالث لعله يمضي حين ينبو هذان الحافزان الماضيان ، وهو حافز من الغرام الظامىء لا يرويه الا دم ذلك الشهيد الكريم .

فان المرء قد ينيم ثائرة الحقد ، وقد يمارى نفسه فيما تفرضه العقيدة .. ولكنه اذا كان عاشقا مخبولا يستنجزه الوعد معشوق مسلط عليه ، فهو مأسور زمامه فى يدى غيره ، وليس فى يديه .

***

وكان ابن ملجم يحب فتاة من تيم الرباب ، قتل أبوها وأخوها وبعض أقربائها فى معركة الخوارج وكانت توصف بالجمال الفائق والشكيمة[2] القوية ، وتدين بمذهب قومها فوق ما فى جوانحها من لوعة الحزن على ذويها ، فلما خطبها ابن ملجم لم ترض به زوجا الا أن يشفى لوعتها . قال : « وما يشفيك ؟ » قالت : « ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة[3] ، وقتل عليّ بن أبى طالب »

قال : « أما قتل عليّ فلا أراك ذكرته لى وأنت تريديننى .. »

قالت : « بل ألتمس غرته .. فاذا أصبت شفيت نفسك ونفسى ويهنأك العيش معى ، وان قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها »

وخرج الثلاثة متواعدين الى ليلة واحدة ، يقتل كل منهم صاحبه فى ذلك الموعد ..

فأما عمرو بن العاص ، فقد اشتكى بطنه تلك الليلة فلم يخرج من بيته ، وأمر خارجة بن حذافة صاحب شرطته أن يصلّى بالناس . فضربه عمرو بن بكر وهو يحسبه عمرا فقتله . فقال عمرو : أردتنى وأراد الله خارجة ، وأمر بقتله ..

وأما معاوية فضربه البرك بن عبد الله ، وقد خرج الغداة للصلاة

---

(١) أي تعبىء وتقوى ٠ (٢) يقال : فلان شديد الشكيمة ٠٠ اذا كان شديد النفس أنفا أبيا ٠ (٣) القينة : الأمة ٠

فوقعت الضربة على اليته .. وقيل ان الطعنة مسمومة لا يشفيها الا الكى بالنار أو شراب يمنع النسل . فجزع معاوية من النار ، ورضى انقطاع النسل ، وهو يقول : « فى يزيد وعبد الله ما تقر به عينى ، وأمر بالرجل فقتل لحينه » ..

وأما علي ، فضربه ابن ملجم فى جبينه بسيف مسموم ، وهو خارج للصلاة ، فمات بعد أيام وهو يحذر أولياء دمه من المثلة[1] ويقول لهم : « يابنى عبد المطلب .. لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين ، قتل أمير المؤمنين .. الا لا يقتلن أحد الا قاتلى .. »

« أنظر ياحسن ! ان أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة .. ولا تمثل بالرجل فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اياكم والمثلة ولو انها بالكلب العقور .

***

وهذه خاتمة فاجعة ، تنظر فى كل فرض من فروضها فلا نخليها من المصادفة السيئة التى لا تلقى تبعتها على أحد بعينه .

فمهما يقل القائلون ان عليا انما أصيب لأنه كان لا يتقى أحدا ، ولا يخرج الى المسجد بحرس ، فالواقع ان المصادفة السيئة قائمة هناك تفرق فى عثرات الحظ بينه وبين زميليه اللذين سيقا معه الى مكيدة واحدة .. فخرجا منها بحظين غير حظه ، فان ابن العاص لم ينج من القتل لأنه خرج الى المسجد محروسا ، ولكنه نجا لأنه لزم بيته فى تلك الليلة ، ومات صاحب شرطته الذى خرج فى مكانه . ولم ينج معاوية لأنه خرج محروسا ، ولكنه نجا لأنه أصيب وكانت اصابته غير قاتلة .

فهى المصادفة السيئة مهما تلتمس لها علة من علل التاريخ ، ترجع بنا فى آخر الأمر الى علل المصادفات التى لاتقبل التعليل .

وشىء آخر تصوره لنا هذه الخاتمة الفاجعة ، كما تصوره لنا البيعة كلها من قبل ابتدائها الى ما بعد انتهائها ..

وذلك هو النسيج الانسانى النابض الذى يتخلل حياة علي فى لحمتها

---

(١) مثل به : نكل به ، والاسم منه « مثلة » .

وسداها[1] ، وفى تفصيل أجزائها وجملة فحواها ، فما من حادثة من حوادث هذه الحياة النبيلة الا وهى معرض حافل للعواطف الانسانية برمتها ، تلتقى فيه عوامل النخوة والشجاعة والوفاء والايمان والسماحة ، وتشتبك فيه مطامع الناس وأشواقهم وظواهرهم وخفاياهم .. ذلك الاشتباك الذى يخلقه الشعراء خلقا فى القصص والملاحم ، فلا يحكمونه بعض أحكام الواقع الملموس فى سيرة الامام . وقد أسلفنا فى صدر هذا الكتاب انها سيرة تلامس النفس الانسانية فى شتى نواحيها : تلامسها من ناحيــة العقيدة كما تلامسها من ناحية العاطفة ، ومن ناحية الفكر كناحية الخيال ، ومن ناحية التمرد كناحية الولاء . فاذا اتبعت السيرة بالخاتمة ، فأى خيط من خيوط تلك الشبكة الانسانية التى تنسجها القرائح[2] لاقتناص الشعور وتقريب الخيال تفقده فى هذه الخاتمة الفاجعة ؟ أى باعث من بواعث القصص الدامية بأحاسيسها ولواعجها لا يرتعد هنا ارتعادا فى كل فصل من فصولها ومشهد من مشاهدها ؟ يأس الكريم المغلوب وجرأة المحتال الغالب ، وغرام المتهوس المجنون ، وأريحية القتيل الموصى عن اعتدى عليه ، وحقد المرأة وخداع الجمال ، وزيغ العقيدة ، واستواء الايمان ، وفنون لا تحصى تجتمع من الشعور الموار[3] واللهفة الدائمة فى خاتمة حياة تسع ألف حياة ..

***

وهذه مزية عليٍّ بين خلفاء الاسلام قاطبة .. ينفرد بها لأنه انفرد بمثال من النفوس ومثال من العوارض الفردية والاجتماعية تؤلفه المصادفات فى الأجيال الطوال ، ولا تحسن أن تؤلفه بمشيئتها فى كل جيل ..

تلك حياة حى .. وذلك مصرع شهيد ..

---

(١) السدى : ضد اللحمة · (٢) يقال : لفلان قريحة جيدة ، ويراد به استنباط العلم بجودة الطبع · (٣) أي المائج الهائج ·

سياسته

تسرى فى صفحات التاريخ أحكام مرتجلة يتلقفها فم من فم ، ويتوارثها جيل عن جيل ، ويتخذها السامعون قضية مسلّمة ، مفروغا من بحثها والاستدلال عليها ، وهى فى الواقع لم تعرض قط على البحث والاستدلال ، ولم تجاوز أن تكون شبهة وافقت ظواهر الأحوال ، ثم صقلتها الألسنة فعز عليها بعد صقلها أن تردها الى الهجر والاهمال ..

كل أولئك من لغو الشعوب .. وللشعوب بداهة تقصر دونها بداهة الغواصين من الأفراد ، ولكنها اذا لغت فشوطها فى اللغو أوسع من شوط الفرد بأمد[1] بعيد ..

من تلك الأحكام المرتجلة قولهم ان عليًا بن أبى طالب رجل شجاع ، ولكن لا علم له بخدع الحرب والسياسة !

وقد شاع هـذا الرأى فى عصر علىّ بين أصحابه ، كما شاع بين أعدائه ، وعزز القول به انه خالف الدهاة من العرب فيما أشاروا به عليه ، وانه لم ينجح بعد هـذه المخالفة فى معظم مساعيه ، فكان من الطبيعى أن يقال انه منى بالفشل لأنه عمل بغيرما أشار به أصحابه الدهاة ، وانه هو لم يكن من أصحاب الخدع الناجحة فى الحرب أو السياسة ..

وقد يكون كذلك أو لا يكون ، فسنرى بعد البحث فى آرائه وآراء المشيرين عليه أى هذين القولين أدنى الى الصواب ..

ولكن هل خطر لأحد من ناقديه ، فى عصره أو بعد عصره ، أن يسأل نفسه : أكان فى وسع علىّ أن يصنع غير ما صنع ؟ ..

وهل خطر لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك : هبه استطاع أن يصنع غير

---

(١) الامد : الغاية والمنتهى .

ما صنع فما هى العاقبة ؟.. وهل من المحقق انه كان يفضى بصنيعه الى عاقبة أسلم من العاقبة التى صار اليها ؟ ..

لم نعرف أحدا من ناقديه ، خطر له أن يسأل عن هذا أو ذاك .. مع ان السؤال عن هـذا وذاك هو السبيل الوحيد الى تحقيق الصواب والخطأ فى رأيه ورأى مخالفيه ، سواء كانوا من الدهاة أو غير الدهاة ..

والذى يبدو لنا نحن من تقدير العواقب على وجوهها المختلفة ان العمل بغير الرأى الذى سيق اليه لم يكن مضمون النجاح ولا كان مأمون الخطر ، بل ربما كان الأمل فى نجاحه أضعف والخطر من اتباعه أعظم ، لو أنه وضع فى موضع العمل والانجاز وخرج من حيز النصح والمشورة

وهـذه هى المسائل التى خالفه فيها الدهاة ، أو خالفه فيها نقـدة التاريخ الذين نظروا اليها من الشاطىء ، ولم ينظروا اليها نظرة الربان فى غمرة[1] العواصف والأمواج ..

***

فالمآخذ التى من هذا القبيل ، يمكن أن تنحصر فى المسائل التالية ، وهى :

١ — عزل معاوية
٢ — معاملة طلحة والزبير
٣ — عزل قيس بن سعد من ولاية مصر
٤ — تسليم قتلة عثمان
٥ — قبول التحكيم
٦ — قبول الخلافة

وهى كلها على الأقل قابلة للخلاف والاحتجاج من كلا الطرفين .. فان لم يكن خلاف وكان جزم قاطع .. فهو على ما نعتقـد أقرب الى رأى على وأبعد من آراء مخالفيه وناقديه ..

قيل فى مسـألة معاوية ان عليًا رضى الله عنه خالف فيها راى المغيرة وابن عباس وزياد بن حنظلة التميمى ، وهم جميعا من المشهورين بالحنكة[2]

(١) شدة • (٢) احتنك الشيء : فهمه وأحكمه ، ورجل محنك : أحكمته التجارب •

وحسن التدبير ..

جاءه المغيرة بن شعبة بعد مبايعته فقال له : « ان لك حق الطاعة والنصيحة ، وان الرأى اليوم تحرز به ما فى غد ، وان الضياع اليوم تضيع به ما فى غد . أقرر معاوية على عمله ، وأقرر العمال على أعمالهم ، حتى اذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت »

فأبى وقال :« لا أداهن[1] فى دينى ، ولا أعطى الدنية فى أمرى »

قال المغيرة : « فان كنت أبيت علي فانزع[2] من شئت واترك معاوية ، فان فى معـاوية جرأة ، وهو فى أهل الشـام يستمع له ولك حجة فى اثباته .. اذ كان عمر قد ولاه الشام » ..

فقال علي : « لا والله .. لا أستعمل معاوية يومين »

ثم خرج المغيرة ودخل عليه ابن عباس فقال له ، لما علم برأى المغيرة : « انه نصحك » ..

قال علي : « ولم نصحنى ؟ »

قال : « لأنك تعلم ان معاوية وأصحابه أهل دنيـا ، فمتى تثبتهم لا يبالوا عن ولى هذا الأمر ، ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شورى ، وهو قتل صاحبنا ، ويؤلبون عليك فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق»..

ثم مضت الأيام ، وشـاع بين أهل المدينة أن معـاوية منتقض على الامام .. فبعثوا بزياد بن حنظلة التميمى يعلم ما عنده من أمر هـذا الانتقاض ، وكان زياد من جلسائه

فقال له الامام : « تيسر »

قال زياد : « لأى شىء ؟ »

قال : « تغزو الشام »

فقال زياد : « الاناة[3] والرفق أمثل ، واستشهد بقول الشاعر :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطـأ بمنسم[4]

---

(١) ... (٢) أنزع : أي أعزل ٠ (٣) أي التمهـل والرويـة ٠
(٤) المنسم : خف البعير ٠

فتمثل على :

متى تجمع القلب الذكى وصارما [1] وأنفا حميا تجتنبك المظالم »

فخرج زياد الى الناس وهم يسألونه : « ما وراءك ؟ » فأجابهم : « هو السيف يا قوم ! » ..

***

تلك آراء المشيرين من ذوى الحنكة ، وذلك ما عمل به الامام وارتضاه .. فأيهما على خطأ وأيهما على صواب ؟ ..

سبيل العلم بذلك أن نعلم أولا : هل كان الامام مستطيعا أن يقر معاوية فى عمله بالشام ؟ ..

وأن نعلم بعد هذا : هل كان اقراره أدنى الى السلامة والوفاق لو أنه استطيع ؟ ..

وعندنا ان الامام لم يكن مستطيعا أن يقر معاوية فى عمله لسببين : أولهما انه أشار على عثمان بعزله أكثر من مرة ، وكان اقراره واقرار أمثاله من الولاة المستغلين أهم المآخذ على حكومة عثمان فى رأى على وذوى الصلاح والاستقامة بين الصحابة ، وكثيرا ما اعتذر عثمان من اقرار معاوية بأنه من ولاة عمر بن الخطاب .. فكان علي لا يقبل هذا العذر ولا يزال يقول له : « انه كان أخوف لعمر بن الخطاب من غلامه « يرفأ » .. ولكنه بعد موت عمر لا يخاف »

فاذا أقره وقد ولى الخلافة ، فكيف يقع هذا الاقرار عند أشياعه ؟ ألا يقولون انه طالب حكم لا يعنيه اذا وصل الى بغيته ما كان يقول وما سيقوله الناس ؟

واذا هو أعرض عن رأيه الأول ، فهل فى وسعه أن يعرض عن آراء الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج من حكم عثمان الى حكم جديد ؟ ..

ان هؤلاء الثائرين أشفقوا [2] من نية الصلح مع طلحة والزبير فى وقعة الجمل ، فبدأوا بالهجوم قبل أن يؤمروا به .. هل هجموا على أهل البصرة

---

(١) الصارم : السيف القاطع . (٢) أشفق منه : جذره .

وهم مأمورون بالهـدنة والاناة . فكيف تراهم يهدأون ويطيعون اذا علموا ان الولايات باقية على حالها ، وان الاستغلال الذى شكوا منه وسخطوا عليه لا تبديل فيه ؟ ..

وندع هذا ونزعم ان اقرار معاوية بحيلة من الحيل مستطاع .. فهل هو على هذا الزعم أسلم وأدنى الى الوفاق ؟

كلا .. على الأرجح ، بل على الرجحان الذى هو فى حكم التحقيق .. لأن معاوية لم يعمل فى الشام عمل وال يظل واليا طول حياته ، ويقنع بهذا النصيب ثم لا يتطاول الى ما ورائه ، ولكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التى يؤسسها ويدعمها[1] له ولأبنائه من بعده .. فجمع الأقطاب من حوله ، واشـترى الأنصـار بكل ثمن فى يديه ، وأحاط نفسـه بالقوة والثروة ، واستعد للبقاء الطويل ، واغتنام الفرصة فى حينها .. فأى فرصة هو واجدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره ؟

وانما كان مقتل عثمان فرصة لا يضيعها ، والا ضاع منه الملك وتعرض يوما من الأيام لضياع الولاية . وما كان مثل معاوية بالذى يفوته الخطر من عزله بعد استقرار الأمور ، ولو على احتمال بعيد .. فماذا تراه صانعا اذا هو عزل بعد عام من مبايعته لعلي وتبرئته اياه من دم عثمان ؟

انما كان مقتل عثمان فرصة لغرض لا يقبل الارجاء[2] ..

واذا كان هذا موقف علي ومعاوية عند مقتل عثمان ، فماذا كان علي مستفيدا من اقراره فى عمله وتعريض نفسه لغضب أنصاره ..

لقد كان معاوية أحرى أن يستفيد بهذا من على ، لأنه كان يغنم به حسن الشهادة له وتزكية عمله فى الولاية ، وكان يغنم به أن يفسد الأمر على عليّ بين أنصاره ، فتعلو حجته من حيث تسقط حجة الامام ..

وأصدق ما يقال بعد عرض الموقف على هذا الوجه من ناحيتيه ان صواب الامام فى مسألة معاوية كان أرجح من صواب مخالفيه .. فان لم تؤمن بهذا على التقدير والترجيح ، فأقل ما يقال ان الصـواب عنده وعندهم سواء ..

---

(١) يدعمها : يقويها . (٢) التأخير .

والتقدير فى مسألة طلحة والزبير أيسر من التقدير فى مسألة معاوية وولاية عثمان على الأمصار :

لأن الرأى الذى عمل به الامام معروف ، والآراء التى تخالفه لا تعدو واحدا من ثلاثة : كلها أغمض عاقبة ، وأقل سلامة ، وأضعف ضمانا من رأيه الذى ارتضاه ..

فالرأى الأول أن يوليهما العراق واليمن أو البصرة والكوفة ، وكان عبد الله بن عباس على هذا الرأى فأنكره الامام لأن « العراقين بهما الرجال والأموال ، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على القوى بالسلطان .. » ثم ينقلبان عليه أقوى مما كانا بغير ولاية ، وقد استفادا من اقامة الامام لهما فى الولاية تزكية يلزمانه بها الحجة ، ويثيران بها أنصاره عليه .

***

والرأى الثانى أن يوقع بينهما ليفترقا ولا يتفقا على عمل ، وهو لا ينجح فى الوقيعة بينهما الا باعطاء أحدهما وحرمان الآخر .. فمن أعطاه لا يضمن انقلابه مع الغرة[1] السانحة ، ومن حرمه لا يأمن أن يهرب الى الاثرة كما هرب غيره ، فيذهب الى الشام ليساوم معاوية ، أو يبقى فى المدينة على ضغينة مستورة ..

على انهما لم يكونا قط متفقين حتى فى مسيرهما من مكة الى البصرة ، فوقع الخلاف فى عسكرهما على من يصلى بالناس ، ولولا سعى السيدة عائشة بالتوفيق بين المختلفين لافترقا من الطريق خصمين متنافسين ..

ولم تطل المحنة بهما متفقين أو مختلفين ، فانهزما بعد أيام قليلة ، وخرج الامام من حربهما أقوى وأمنع مما كان قبل هذه الفتنة ، ولو بقيا على السلم المدخول لما انتفع بهما بعض انتفاعه بهذه الهزيمة العاجلة .

والرأى الثالث أن يعتقلهما أسيرين ، ولا يبيح لهما الخروج من المدينة الى مكة حين سألاه الاذن بالمسير اليها ، ثم خرجا منها الى البصرة ليشنا[2] الغارة عليه ..

---

(١) أي الفرصة • (٢) يقال : شن عليهم الغارة : اذا فرقها عليهم من كل وجه •

والواقع ان الامام قد استراب[1] بما نوياه حين سألاه الاذن بالسفر الى مكة .. فقال لهما : « ما العمرة تريدان ، وانما تريدان الغدرة[2] ! »

ولكنه لم يحبسهما ، لأن حبسهما لن يغنيه عن حبس غيرهما من المشكوك فيهم . وقد تركه عبد الله بن عمر ولم يستأذنه فى السفر ، وتسلل الى الشام أناس من مكة ومن المدينة ولا عائق لهم أن يتسللوا حيث شاءوا ، ولو انه حبسهم جميعا لما تسنى له ذلك بغيرسلطان قاهر، وهو فى ابتداء حكمه لما يظفر بشىء من ذلك السلطان ، وأغلب الظن ان سواد الناس كانوا يعطفون عليهم وينقمون حبسهم قبل أن تثبت له البينة بوزرهم . وما أكثر المتحرجين فى عسكر الامام من حبس الأبرياء بغير برهان ؟.. لقد كان هؤلاء خلقاء[3] أن ينصروهم عليه وقد كانوا ينصرونه عليهم ، وخير له مع طلحة والزبير وأمثالهما أن يعلنوا عصيانهم فيغلبهم من أن يكتموه فيغلبوه ويشككوا بعض أنصاره فى عدله وحسن مجاملته لهم .

وعلى هـذا كله ، حاسنوه ولم يصارحوه بعداء .. لم يكن الجيش الذى خرج من مكة الى البصرة بيائس من الخروج اليها اذا لم يصحبه طلحة والزبير فقد كانت « العثمانية » فى مكة حزبا موفور العدد والمال .. فهى مسألة تلتبس فيها الطرائق ، ولا يسعنا أن نجزم بطريقة منها أسلم ولا أضمن عاقبة من الطريقة التى سلكها الامام وخرج منها غالبا على الحجاز والعراق ، وما كان وشيكا أن يغلب عليهما لو بقى معه طلحة والزبير على فرض من جميع الفروض التى قدمناها ..

أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر ، فهى غلطة من غلطات الامام يقل الخلاف فيها ..

لأن قيسا بن سـعد كان أقدر أصحابه على ولاية مصر وحمايتها ، وكان كفؤا لمعاوية وعمرو بن العاص فى الدهاء والمداورة ، فعزله الامام لأنه شك فيه .. وشك فيه لأن معاوية أشاع مدحه بين أهل الشام ، وزعم انه من حزبه والمؤتمرين فى السر بأمره ..

---

(١) أي تشكك · (٢) الغدر : ترك الوفاء ، والمراد : الخيانة · (٣) أي جديرين ·

وكان أصحاب عليّ يحرضـــونه على عزله ، وهو يستمهلهم ويراجع رأيه فيـــه حتى اجتمعت الشـــبهات لديه .. فعزله وهو غير واثق من التهمة ، ولكنه كذلك غير واثق من البراءة

وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة ، فان قيسا بن سعد لم يدخل مصر الا بعد أن مر بجماعة من حزب معاوية ، فأجازوه ولم يحاربوه وهو فى سبعة نفر لا يحمونه من بطشـــهم ، فحســـبوه حين أجازوه من العثمانية الهاربين الى مصر من دولة عليّ فى الحجاز ..

ولما بايع المصريون عليًّا على يديه ، بقى العثمانيون لا يبايعون ولا يثورون ، وقالوا له : « أمهلنا حتى يتبين لنا الأمر » فأمهلهم وتركهم وادعين[1] حيث طاب لهم المقام بجوار الاسكندرية .

***

ثم أغراه معـــاوية بمناصرته والخروج على الامام ، فكتب اليه كلاما لا الى الرفض ولا الى القبول ، ويصح لمن سمع بهذا الكلام أن يحسبه مراوغا لمعاوية أو يحسبه مترقبا لساعة الفصل بين الخصمين .. اذ كان ختام كتابه اليه : « ... أما متابعتك فانظر فيها ، وليس هذا مما يسرع اليه وأنا كاف عنك فلا يأتيك شىء من قبلى تكرهه ، حتى نرى وترى »

ثم اشتد فى وعيده حين أنذره معاوية فقال : « أما قولك انى مالىء عليك مصر خيلا ورجلا ، فوالله ان لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم اليك انك لذو جد والسلام .. » .

وأراد الامام أن يستيقن من الخصومة بين قيس ومعاوية ، فأمر قيسا أن يحارب المتخلفين عن البيعة .. فلم يفعل وكتب اليه : « ... متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوك ، وهم الآن معتزلون والرأى تركهم » .

فتعاظم شـــك الامام وأصحابه ، وكثر المشـــيرون عليه بعزل قيس واستقدامه الى المدينة .. فعزله واستقدمه ، وتبين بعد ذلك انه أشار بالرأى الصواب ، وان ترك المتخلفين عن البيعة فى عزلتهم خير من التعجيل بحربهم ، لأنهم هزموا محمدا بن أبى بكر والى مصر الجديد ، وجرءوا

(١) وادعين : ساكنين .

عليه من كان يصانعه ويواليه ..

غلطة لاريب فيها ..

وان كان جائزا مع هذا ألا يهزموا قيسا ، لو كان حاربهم ، كما هزموا خلفه الذى لا يعدله[1] فى الحزم والخبرة .

ولكننا نبالغ على كل حال ، اذا علقنا بها الجرائر التى أصابت الامام من بعدها ، وزعمنا انه تقاعد عن اصلاحها فى حينها ، كما تصلح الغلطات التى يساق اليها الساسة .. فانما هى غلطة من تلكم الغلطات التى تضير والحوادث مولية .. وقلما تضير أو تعز على الاصلاح والحوادث مؤاتية . وقد عرف الامام خطأه فقال لصحبه : « ان مصر لا يصلح لها الا أحد رجلين هذا الذى عزلناه والأشتر » وأنفذ[2] الأشتر الى مصر ليعيدها الى طاعته فمات فى الطريق ..

***

والأقوال فى موت الأشتر هذه الميتة الباغتة كثيرة ، منها انه مات غيلة وان معاوية أغرى به من دس له السم فى عسل .. شربه وهو على حدود مصر فقضى نحبه ، وروى ان معاوية قال حين بلغه موته : « ان لله جنودا من العسل » ..

فان صحت الرواية ، واعتقد من اعتقد انها من دلائل السياسة القوية عند معاوية .. فمما لاشك فيه ان موت الأشتر ، لم يكن من دلائل السياسة الضعيفة عند الامام ، وانه لا لوم على سياسته فى اغتياله ، ان كان فيه سبب ثناء على سياسة الغيلة[3] عند من يحمدونها .

ومن عجائب هذه القصة ان معاوية ندم على تقريب قيس من جوار عليّ ، وقال : « لو أمددته بمائة ألف لكانوا أهون عليّ من قيس » لأنه قد ينفعه وهو قريب منه بالمشورة عليه فى عامة أموره ، ولا ينحصر نفعه له فى سياسة مصر وحدها ..

ولكن الذى حذره معاوية لم يكن ، والذى حذره عليّ كان ..

واذا ولت الحوادث ، فقد ينفع الخطأ وقد يضير الصواب ..

---

(١) يعدله : يساويه . (٢) أي بعث وأرسل . (٣) أي الاغتيال .

ثم تأتى مسألة القصاص من قتلة عثمان التى كانت أطول المسائل جدلا بين الامام وخصومه ، فاذا هى أقصرها جدلا من براءة المقصد من الهوى وخلوص الرغبة فى الحقيقة ..

فقد طالبوه بالقود ولم يبايعوه ، مع ان القود لا يكون الا من ولى الأمر المعترف له باقامة الحدود

وطالبوه به ولم يعرفوا من القتلة ، ومن هو الذى يؤخذ بدم عثمان من القبائل أو الأفراد ..

وأعنتوه بهذا الطلب لأنهم علموا انه لايستطاع قبل أن تثوب السكينة الى عاصمة الدولة ، وأعفوا أنفسهم منه — وهم ولاة الدم كما يقولون — يوم قبضوا على عنان الحكم وثابت السكينة الى جميع الأمصار

***

وقد تحدث الامام مرة فى أمر القود[1] من قتلة عثمان ، فاذا بجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح ويجهرون بأنهم « كلهم قتلة عثمان » فمن شاء القود فليأخذه منهم أجمعين

وكان الامام يقول لمن طلبوا منه اقامة الحدود : « انى لست أجهل ما تعلمون ، ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ، ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم آعرابكم ، وهم بينكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعا لقدرة على شىء مما تريدون؟..»

ومن قوله لهم : « .. ان هذا الأمر أمر جاهلية ، وان لهؤلاء القوم مادة ، وان الناس من هذا الأمر الذى تطلبون على أمور : فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى تهدأ الناس وتقع[2] القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق فاهدءوا عنى ، وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا »

ولو أن المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق الى الثأر له ، والقصاص من العادين عليه ، لقد كان هذا أقرب الطرق الى ما أرادوا .. يؤيدون ولى الأمر حتى يقوى على اقامة الحدود ، ثم يحاسبونه بحكم

(١) القصاص . (٢) ترجع .

الشريعة حساب انصاف ..

الا أنهم طلبوا ما لايجاب ، وما لم يكن من حقهم أن يطلبوه ، وليس بينهم أعف ولا أتقى من السيدة عائشة رضى الله عنها . وقد روى عنها انها قالت لما أخبرت ببيعة علىّ وهى خارجة من مكة : « ليت هذه انطبقت على هذه ان تمّ الأمر لعلىّ» تشير الى السماء والأرض.. ثم عادت الى مكة وهى تقول : « قتل والله عثمان مظلوما ، والله لأطلبن بدمه » ..

فقيل لها : « ولم ؟.. والله ان أول من أثار الناس عليه لأنت .. ولقد كنت تقولين : اقتلوا « نعثلا » فقد كفر »

فقالت : « انهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولى اليوم خير من قولى الأول »

وناهيك بالسيدة عائشة فى فضلها ومكانتها وتقواها ، فقل ما شئت فى المطالبين غيرها بهذا المطلب الذى لا يجاب

والرضا ، أو الارضاء ، مستحيل حين يكون الطلب من هذا القبيل.

أما الذين لاموه لقبوله التحكيم ، فيخيل الينا من عجلتهم الى اللوم انهم كانوا أول من يلومه ويفرط فى لومه لو انه رفض التحكيم وأصر على رفضه ، لأنه لم يقبل التحكيم وله مندوحة عنه[1] ..

ولكنه قبله بعد احجام جنوده عن الحرب ، ووشك القتال فى عسكرهم خلافا بين من يقبلونه ويرتضونه

وقبله بعد أن حجز الحفاظ والقراء نيفا وثمانين فزعة للقتال لشكهم فى وجوبه وذهاب بعضهم الى تحريمه

وبعد أن توعدوه بقتله كقتلة عثمان ، وأحاطوا به يلحون عليه فى استدعاء الأشتر النخعى الذى كان يلاحق أعداءه مستحصدا فى ساحة الحرب على أمل فى النصر القريب ..

والمؤرخون الذين صوبوا رأيه فى التحكيم وخطئوه فى قبول أبى موسى الأشعرى ، على علمه بضعفه وتردده ، ينسون أن أبا موسى كان مفروضا

(١) مندوحة ، ومنتدح : أي سعة .

عليه ، كما فرض عليه التحكيم فى لحظة واحدة .. وينسون ما هو أهم من ذلك ، وهو ان العاقبة متشابهة سواء ناب عنه أبو موسى الأشعرى أو ناب عنه الأشتر أو عبد الله بن عباس .. فان عمرو بن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر عليا فى الخلافة ، وقصارى[1] ما هنالك ان الحكمين سيفترقان على تأييد كل منهما لصاحبه ورجعة الأمور الى مثل ما رجعت اليه . وان توهم بعضهم ان الأشتر أو ابن عباس كان قديرا على تحويل ابن العاص عن رأيه ، والجنوح[2] به الى حزب الامام ، بعد مساومته التى ساومها فى حزب معاوية .. فليس ذلك على التحقيق بمقنع معاوية أن يستكين ويستسلم ، وحوله المؤيدون والمترقبون للمطامع واللبانات[3] يعز عليهم اخفاقهم كما يعزّ عليه اخفاقه .

وما أسهل المخرج الشرعى الذى يلوذ به معاوية فيقبله منه أصحابه ويتابعونه على نقض حكم الحكمين المتفقين ؟.. لقد كان النبى عليه السلام يقول عن عمار بن ياسر انه « تقتله الفئة الباغية » فلما قتله جند معاوية ، وخيفت الفتنة بينهم أن تلزمهم سبة البغى بشهادة الحديث الشريف — قال قائل منهم : انما قتله من جاء به الى الحرب .. فشاع بينهم هذا التفسير العجيب ، وقبلوه جميعا غير مستثنى منهم رجل واحد .. أفلا يقبلون تفسيرا مثله اذا تحول ابن العاص ، وأفتى الحكمان بخلع معاوية ومبايعة الامام ؟

فليس فى أيدى المؤرخين الناقدين اذن حل أصوب من الحل الذى أذعن[4] له الامام على كره منه ، سواء أذعن له وهو عالم بخطئه أو أذعن له وهو يسوى بينه وبين غيره فى عقباه .

ويبقى اعتزال الخلافة من البداية ، وهو خطة ترد على الخاطر حيال هذه المعضلات التى واجهها الامام ، ولم يكن عسيرا عليه أن يتوقعها بعد مقتل عثمان وشيوع الفتنة والشقاق بين الأمصار كلها .. وشيوعهما قبل ذلك بين جنده الذى يعول عليه..

---

(١) أي غاية · (٢) أي الميل · (٣) الحاجة · (٤) خضع ·

ولكنها خطة سلبية لا يمتحن بها رأى ولا عمل ، ولا ترتبط بها تجربة ولا فشل .. وكل ما هنالك من أسباب ترجيحها أنها أسلم للامام وآمن لسربه[١] وأهدأ لباله ، وهو أمر مشكوك فيه .. على ما فى طلب السلامة بين هذه الزعازع من اثرة ، قلما يرتضيها الشجاع الباسل أو الحكيم العامل ..

فمن السخف أن يخطر على البال ان رجلا كعلى بن أبى طالب ، يترك وادعا فى سربه بين هذه الزعازع التى تحيط بالدولة الاسلامية فى عصره ..

ان تركه الثوار وأعفوه من الحكم ، لم يتركه أصحاب السلطان ولم يعفوه من الدسيسة والايذاء ، لاعتقادهم انه باب من أبواب الخطر الدائم ، وانه ما عاش فهو علم منصوب يفئ[٢] اليه كل ساخط وكل مصلح وكل مخالف على الدين أو على الدنيا . وقد قيل: ان ابنه الحسن مات مسموما فى عهد معاوية خوفا من لياذ[٣] الناس به ورجعتهم اليه . وقيل مثل ذلك عن عبد الله بن خالد بن الوليد .. وما أعظم البون[٤] فى المكانة والحساب بينهما وبين الامام عند أصحاب المخاوف وأصحاب الآمال .

ولعلنا نقارب هذه الحقيقة من ناحية أخرى ، اذا رجعنا الى أقوال أبطال الميدان نفسه فى علل النصر والهزيمة ، وفيما يقال عن مزية كل منهم على خصمه أو مزية خصمه عليه

فعلي يسمع ما يقال عن شجاعته ورجحان معاوية عليه فى الدهاء ، فيقول : « ... والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس .. »

أو يقول : « ولكنه لا رأى لمن لا يطاع »

ويعلل ما أصابه فى بيعته بما أجمله لأتباعه حين قال لهم : « .. لم تكن بيعتكم اياى فلتة[٥] ، وليس أمرى وأمركم واحدا .. انى أريدكم لله ، وأنتم تريدوننى لأنفسكم »

ومعاوية يذكر الخصال التى أعين بها على علي ، فيقول : « انه كان

---

(١) لنفسه · (٢) يرجع · (٣) لجأ اليه · (٤) الفضل والمزية ·
(٥) أي فجأة بدون تردد وتدبر ·

رجلا لا يكتم سرا وكنت كتوما لسرّى ، وكان يسعى حتى يفاجئه الأمر مفاجأة وكنت أبادر الى ذلك ، وكان فى أخبث جنــد وأشدهم خلافا . وكنت أحب الى قريش منه ، فنلت ما شئت .. »

وعمرو بن العاص يقول عن عدة النجاح فى طلب الخــلافة : « انه لايصلح لهذا الأمر الا رجل له ضرسان ، يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر»

وهذه هى أسباب النصر والهزيمة على حقيقتها ، الا انها تظل ناقصة ما لم تقرنها بحقيقة أخرى ، وهى ان هزيمة معاوية كانت مرجحة — بل مؤكدة — لو انه وضع فى موضع عليّ ، وابتلى بالأسباب التى ابتلى بها

فالبلاء كله انما كان فى خبث الأجناد وشدة خلافهم ، ولهذا كان سر عليّ يعرف وسر معاوية يكتم .. لأن معاوية يطاع ونيته فى صدره ، وعليًا لا يطاع الا اذا سئل عن نيّته وما يحل منها أو يحرم فى رأى أتباعه . وكذلك كانت تفاجئه الحوادث لأنه كان يروى فيها ما يروى ، ولا ينفذ من رويته الا الذى ينساق اليه هو وأتباعه آخر المطاف بحكم الضرورة الحازبة[1] ، وقد بطل الجدل وبطل من قبله التدبير ..

ولو أن معاوية كتب عليه أن يحارب جندا مطيعا بجند عصاه ، لمــا طمع فى حظ أوفق من حظ علىّ فى ذلك الصراع المتفاوت بين الخصمين.. ولو استعان بكل ما أعين به من رشــوة الأنصار وكيد الخصوم ، بل لعله كان يخفق حيث أفلح قرنه[2] على قدر ما بينهما من فارق فى الشجاعة والسابقة الدينية ، وكذلك قال الامام : « ان لبنى أمية مرودا[3] يجرون فيه ولو قد اختلفوا فيما بينهم ثم كادتهم الضباع لغلبتهم »

على أننا نود أن نقف عند الحد المأمون فى تعليل النصر والهزيمة ، ولا نعدوه الى ما وراءه .. فليس من قصدنا أن نصف عليًا بقوة الدهاء وسعة الحيلة ، ولكننا قصدنا أن نبرئه من عجز الرأى وضعف التدبير ، لأن أسباب الهزيمة موفورة[4] بغير هذا السبب الذى لا دليل عليه ..

فقوام[5] الفصل بين الطرفين ، انه لا دليل لدينا من الحوادث على عجز

(١) أمر حازب وحزيب : أي شديد · (٢) القرن : الكفء · (٣) المرود : الميل · (٤) كثيرة · (٥) قوام الامر : نظامه وعماده ·

رأى ولا قوة دهاء .. ولو كانت قوة الدهاء صفة غالبة فيه لظهرت على صورة من الصور ، وان قامت الحوادث عائقا[١] بينها وبين النجاح .. فان الدهاء لا يخفيه أن تكون المعضلة التى يعالجها محتومة الفشل مقرونة بالخذلان ..

ومما لا شك فيه ، أن عليًا أشار بالرأى فى مواقف كثيرة فأصاب المشورة ، وانه وصف أناسا فدل على خبرة بالرجال وما يغلب عليهم من الطباع والخصال ، وانه أخذ بالحزم فى توقع الحوادث واستطلاع الأمور ولكنه لزم الكفاية فى ذلك ، ولم يتجاوزها الى الأمد[٢] الذى يسلكه بين الدهاة الموسومين[٣] بفرط الدهاء ..

فمن مشوراته الصائبة ، انه نهى عمر رضى الله عنه أن يخرج لحرب الروم والفرس بنفسه ، فقال له : « انك متى تسر الى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتنكب ، لاتكن للمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم.. ليس بعدك مرجع يرجعون اليه ، فابعث اليهم رجلا مجربا .. فان أظهره الله فذاك ما تحب ، وان تكن الأخرى كنت ردءا للناس ومثابة[٤] للمسلمين »

ومن وصفه للرجال وأساليب تناولهم ، قوله لابن عباس وقد أرسله الى طلحة والزبير : « لا تلقين طلحة ، فانك ان تلقه تلفه[٥] كالثور عاقصا — أى لاويا — قرنه يركب الصعب ويقول هو الذلول ، ولكن الق الزبير فانه ألين عريكة[٦] فقل له : « يقول لك ابن خالك عرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق .. فما عدا مما بدا ؟ »

ومن حزمه انه كان يبث عيونه وجواسيسه فى الشرق والغرب ليطلعوه على أخبار أعوانه وأعدائه ، وانه كان اذا وجبت الحرب بادر بالخروج ولم يأته التردد والابطاء بعد ذلك الا من خلاف جنده

ومن معرفته للجماهير انه وصفهم أوجز وصف حين قال: انهم أتباع كل ناعق ، وانهم « هم الذين اذا اجتمعوا ضرّوا واذا تفرقوا نفعوا » .. لأنهم اذا تفرقوا رجع أصحاب المهن الى مهنهم فانتفع بهم الناس ..

(١) أي مانعا وحائلا . (٢) الغاية . (٣) أي المعروفين . (٤) أي مرجعا .
(٥) أي تجده . (٦) أسلس طبيعة .

فهذا قسط من الرأى الصائب ، كاف لمهمة الحكم لو تصدى به الامام للخلافة .. والعصر عصر خلافة وليس بعصر دولة دنيوية مضطربة فى دور تأسيسها وتلفيق[١] أجزائها ..

بل هو قسط كاف لمهمة الحكم فى الدولة الدنيوية ، لو تولاها بعد استقرارها والفراغ من مكائد تأسيسها .. كما جاء عمر بن عبد العزيز فى صلاحه وتقواه بعد الملوك الأولين من بنى أمية ..

ولكنه قسط من الرأى لا يسلك صاحبه بين أساطين الدهاة الذين يكيدون بالرأى وبالعمل النافذ على السواء ..

***

ونعود بعد هذا ، فنقول:انه لم يخسر كثيرا بما فاته من الدهاء .. ولم يكن ليربح كثيرا لو استوفى منه أوفى نصيب ، لأنه لابد من ملك أو خلافة ..

ولن يكون ملكا بأدوات خليفة ، ولا خليفة بأدوات ملك ، ولن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلا يريد العصر والعصر يريده ، لأنه عصر ملك تهيأت له الدواعى الاجتماعية ، وتهيأ له الرجل بخلائقه[٢] ونياته ومعاونة أمثاله ..

ولم يكن معاوية زاهدا فى الخلافة على عهد أبى بكر أو عمر أو عثمان ، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه

فلما جاء عصر الملك ، طلب الملك والملك يطلبه ..

وقديما قال أبوه للعباس عم النبى ، وقد رأى جيش المسلمين فى فتح مكة : « لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما »

فهو الملك ، أو هو جاه الدنيا ، الذى تطلع اليه من نشأته الأولى فى بيته .. وانتظر ثم انتظر حتى لاقاه على قدر ، فوضع فى موضعه وقام به الموضع كما قام به ، ونجحا معا على التوافق والرفاء[٣] ..

وحين وجب أن يقع الفصل بين الملك والخلافة ، وجب أن يكون على رأس فريق الخلافة ..

---

(١) لفق الثوب : اذا ضم شقة الى شقة وخاطهما · (٢) جمع خليقة ، وهي : الطبيعة · (٣) أي الالتئام ·

وحين وجب أن يقع الفصـل بين أصحاب المنافع الراغبين فى دوام المنفعة ، وبين أصحاب المبـادىء والظـلامات الراغبين فى التبـديل والاصلاح ، وجب أن يكون على رأس هذا الفريق دون ذلك الفريق

وحين وجب هذا وذاك وجوبا لا حيلة فيه للمتحول ، ولا اختيار فيه للمختار ، وجب أن تصير خلافة عليٍّ الى ما صارت اليه ، كائنا ما كان خطره من الدهاء والخدعة ، وكائنا ما كان طريقه الذى ارتضاه هو أو أشار به المشيرون عليه

***

وقد يحسن بالمؤرخ بعد الموازنة بين عدة الخلافة وعدة الملك فى صراع عليٍّ ومعاوية ، أن يذكر عدة أخرى لم تظهر فى هذا الصراع ، وقد ظهرت فى مآزق شتى من أحرج مآزق التاريخ ، واعتمد عليها أبطاله الكبار كثيرا فى تأسيـس الدول وقمـع الثورات ، فاختصروا الطريق وأراحوا أنفسهم من عناء طويل ، ونريد بها عدة البطش العاجل والمباغتة الحاسمة كلما تأشبت[1] العقد وتعسرت الحيلة ووجب الخلاص السريع ..

فقد علمنا مثلا أن الأشعث بن قيس كان يعترض الامام فى كل خطوة من خطوات النصر ، ويثقل عليه باللجاجة والعنت فى مواقف مكربة تضيق بها الصدور ..

ولم يكن الأشعث بن قيس بالوحيد فى هذا الباب ، بل كان له شركاء من الخوارج وغير الخوارج ، يظهرون بالعنت فى غير موضعه ويذهبون به وراء حده ، وربما بلغوا من الضرر فى معسكر الامام فوق مبلغ الأشعث بن قيس ، على عظم الفارق بين سلطانهم وسلطانه

ألا يخطر على البال هنا ، ان ضربة من الضربات القاضية كانت تنجع[2] فى هـذا العنت المكرب حيث لا تنجع العقوبة الشرعية أو الأحابيل السياسية ؟ ..

ماذا لو أن الامام جرد سـيفه بين أولئك المشاغبين ، وأطاح برأس الأشعث بن قيس قبل أن يفيق أحد الى نفسه ، ثم ولى على الفور من

---

(١) أشب الشجر وتأشب : التف ٠ (٢) أي تفيد وتؤثر ٠

يقوم مقامه فى رئاسة قوم ويكفل لهم الطاعة بينهم لأمره ؟.. أكان بعيدا أن تفعل الرهبة فعلها ، فيسكن المشاغب ، ويهاب المتطاول ، ويجتمع المتفرق ، ويقل الخلاف بعد ذلك على الامام وعلى الرؤساء عامة ؟

لم يكن ذلك ببعيد ..

لكنه كذلك لم يكن بالمحقق ، ولا بالمأمون ..

فهى مجازفة ذات حدين ، تصيب بأحدهما وقد تصيب بهما معا .. وقد يكون الحد الذى تصيب به هو الحد الذى من قبل الضارب دون الحد الذى من قبل المضروب ..

وكل ما تفيدنا اياه هـذه الملاحظة العابرة على التحقيق ، ان الامام رضى الله عنه لم يكن من أصحاب هـذه الملكة التى اتصف بها بعض أبطال القلاقل فى أيام الفصل بين عهـدين متدابرين . فكانت له ضربة الشجاع ، ولم تكن له ضربة المغامر أو المقامر ..

ولم يضرب بالسيف قط ، كأنه يقذف بالقداح إما الى الكسب وإما الى الخسارة .. وانما كان يضرب به ضرب الجندى الذى يلتمس الغلب بقوته وقوة ايمانه ، ولا يلتمسه من جولات السهام وفلتات الغيب ..

على اننا ــ وقد سجلنا هذه الملاحظة ــ نفرض انه رضى الله عنه كان من أصحاب تلك الملكة التى عرف بها بعض المغامرين فى أوقات الفصل بين العهود ..

ونفرض انه عمد[1] اليها ، فنفعته فى عسكره وطوعت له الجند وأراحته من شغب الخارجين عليه والمتشعبين بالآراء والفتاوى من يمينه وشماله

فماذا عسى أن يغير هذا كله من طبيعة الموقف الذى أجملنـاه ؟.. يكون المخرج بين سياسة الملك ، كما يطلبها العصر ، وسياسة الخـلافة كما تطلبها البقية الباقية من آداب الفترة النبوية ؟

أيسوس الامام دولته ملكا دنيويا أم يسوسها خليفة نبوة ؟

أيفرق الأموال على رءوس القوم وقادة الجنـد وطلاب الترف أم يلزمهم عيشة النسك والشظف[2] والجهاد ؟

---

(١) أي تصد · (٢) خشونة العيش ·

واذا حرمهم وتألبوا عليه مع خصمه ، أفهو الغالب اذن بمطالب العصر ومقتضياته ودواعيه أم هم الغالبون ؟

واذا أعطاهم ليبذخوا بذخ الملك الدنيوى وهو وحده بينهم الناسك المجتهد على سنّة النبوة ، أفيستقيم له هـذا الدور العجيب وهو فى جوهره متناقض لا يستقيم ؟ ..

فالسياسة التى اتبعها الامام هى السياسة التى كانت مقيضة[1] له مفتوحة بين يديه ، وهى السياسة التى لم يكن له محيد[2] عنها ، ولم يكن له أمل فى النجاح ان حاد عنها الى غيرها .. سواء عليه اتفق جنده بضربة من الضربات القاضية أم لم يتفقوا على دأبهم[3] الذى رأيناه ، وسواء لان لطلاب الدولة الدنيوية أم صمد على سنّة النبوة والخلافة النبوية .

***

ومهما يكن من حكم الناقدين فى سياسة الامام ، فمن الجور الشديد أن يطالب بدفع شىء لا سبيل الى دفعه ، وأن يحاسب على مصير الخلافة وهى منتهية لا محالة الى ما انتهت اليه ..

ومن الجور الشديد ، أن يلقى عليه اللوم لأنه باء بشهادة الخلافة ، ولا بد لها من شهيد ..

وقد تجمعت له أعباء النقائض والمفارقات التى نشأت من قبله ، ولم يكد يسلم منها خليفة من الخلفاء بعد النبى صلوات الله عليه ..

أحس بها الصديق ، فمات وهو ينحى على الصحابة ويحذرهم بوادر الترف الذى استناموا اليه ..

وأحس بها الفـاروق وأثقلت كاهله ، وهو الكاهل الضليع بأفدح الأعباء .. فضاق ذرعا بالحياة ، وطفق يقول فى سنة وفاته : « اللهم كبرت سنى وضعفت قوتى ، وانتشرت رعيتى ، فاقبضنى اليك غير مضيع ولا مفرط .. اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك »

وأحس بها عثمان ، فما فارق الدنيا حتى ترك الخلافة والملك عسكرين متناجزين[4] ، لا يرجع أحدهما الا بالغلبة على نده وضده ..

---

(١) متاحة ٠ (٢) عدول ٠ (٣) أي عادتهم ٠ (٤) أي متقاتلين ٠

وكتب لعليّ بعــد ذلك أن يتلقى الدولة الاســلامية بين هــذين العسكرين ، فلا فى مقــدوره أن يجمعهما الى عسكر واحد ، ولا فى مقــدوره أن يختار منهما عسكر الملك ، ولا أن يختار عسكر الخــلافة الدينية فتظل على يديه خلافة دينية بعد أوانها ..

وما لم يكن فى مقدوره لم يكن فى مقدور غيره ، وانه لانصــاف قليل أن نعرف له هذه المعاذير الصادقة ، وهو الذى باء وحده بتلك النقائض والأعباء ..

***

وقد نقدت سياسة عليّ لفوات الخلافة منه قبل البيعة . كما نقدت سياسته لفوات الخلافة منه بعد البيعة ، وأحصى عليه بعض المؤرخين انه تأخر نيفا وعشرين سنة .. فلم يخلف النبى ، ولم يخلف أبا بكر ، ولم يخلف عمر .. كأنه كان مستطيعا أن يخلف أحدا منهم بعمل من جهده وسعى من تدبيره ، فأعياه السعى والتدبير ..

ومقطع الفصل فى هذا أن نرجع الى العوائق التى حالت بينه وبين الخــلافة قبل وصــولها اليه ، لنعلم منها العــائق الذى كان فى أيدى الحوادث والعائق الذى كان فى يديه ، أو كانت له قدرة معقولة عليه

فمما لا شك فيه ان الامام أنكر اجحافا أصابه فى تخطيه بالبيعة الى غيره بعد وفاة ابن عمه صلوات الله عليه ، وانه كان يرى ان قرابته من النبى مزية ترشحه للخلافة بعده لأنها فرع من النبوة على اعتقــاده ، وهم شجرة النبوة ومحط الرسالة ، كما قال ...

ومما لا شك فيه ، ان شعوره هذا طبيعى فى النفس الانسانية كيفما كان حظها من الزهــد والقناعة ، لأن تخطيه ـــ مع هــذه المزية التى ترشحه للبيعة ـــ يشبه أن يكون قدحا[1] فى مزاياه الأخرى ، من علم وشجاعة وسابقة جهاد وعفة عن المطامع ، أو يشبه أن يكون كراهة له وممالأة[2] على الغض من قدره ، ولم يزل من غرائز النفوس أن يسوءها القدح فيها والحط من مزاياها ومواجهتها بالنفرة والكراهة ..

---

(١) أي عيبا . (٢) مالأه على كذا ممالأة : ساعده .

الا ان الخلافة الاسلامية ، مسألة عالمية لا توزن بميزان واحد ، ولا يؤتم فيها برأى واحد ولا بحق واحد . وقد يضحى فى سبيلها بالعظيم والعظماء ، اذا تعارضت الحقوق وتشعّبت الآراء ..

ويشاء القدر أن تكون المزية الأولى فى ميزان علىّ هى العائق الأول فى سائر الموازين ، ومنها ميزان النبى صلوات الله عليه ..

فقد كان عليه السلام يأبى أن يثير العصبيات فى قريش ، وفى القبائل العربية عامة ، لعلمه بخطر هذه العصبية على الدعوة الجديدة ، وكراهته أن يصور الاسلام للعرب كأنه سيادة هاشمية تتوارثها عصبة هاشم دون العصب من سائر العرب والمسلمين . وقد رضي فى سبيل هذا المقصد الحكيم ، أن يجعل بيت أبى سفيان صنواً[1] للكعبة فى أمان اللاجئين اليه ، وأصهر الى أبى سفيان وندب ابنه معاوية للكتابة له بين النخبة المختارة من كاتبيه ، وربما حسن لديه أن تئول[2] الخلافة الى علىّ بعده اذا شاء المسلمون ذلك ، ولكن على أن تكون خلافته اختيارا مرضيا كاختيار غيره من أنصاره وأصحابه ، ويستوى منهم القريب والبعيد .

***

ولم تكن الحكمة النبوية هى وحدها التى تأبى اثارة العصبيات وتصوير الاسلام للعرب وللناس عامة فى صورة السيادة الهاشمية ، بل كانت الدعوة كلها فى صميم أصولها تأبى هذا الذى أبته الحكمة النبوية وتجتنبه غاية ما فى وسعها اجتنابه .. لأن الدعوة الاسلامية دعوة عالمية ، تشمل الأمم كافة من عرب الى عجم ومن مشرق الى مغرب ، وتقوم فى أساسها على المساواة بين الناس ورد المفاضلة بينهم الى الأعمال والأخلاق دون الأحساب والأعراق[3]. فليس من المعقول أن تسود العالم كله أسرة هاشمية ، ولا من المعقول أن يبنى الأساس على المساواة ، وأن يقام الحكم على هذا التفضيل ..

وان أحق الناس أن يفطن الى هذه الحكمة لهم أولئك الغلاة الذين زعموا ان وراثة الخلافة فى بنى هاشم حكم من أحكام الله وضرورة من

(١) أي مماثلا · (٢) آل : رجع · (٣) أي الاصول ·

ضرورات الدين ..

فلو أنها كانت حكما من أحكام الله ، لكان أعجب شيء أن يموت النبى عليه السلام وليس له عقب[1] من الذكور ، وأن يختم القرآن وليس فيه نص صريح على خلافة أحد من آل البيت ..

ولو أنها كانت ضرورة من ضرورات الدين ، أو ضرورات القضاء ، لنفذت فى الدنيا كما ينفذ القضاء المبرم[2] ، وحبطت[3] كل خلافة تنازعها كما تحبط كل بدعة تناقض السنن الكونية ..

فلا النصوص الصريحة ، ولا دلالة الحوادث على الارادة الالهية ، مما يؤيد أقوال الغلاة عن ترجيح الخلافة بالقرابة ، أو حصر الخلافة فى الأسرة الهاشمية ..

وهذا هو العائق الأول الذى حال بين علي وبين الخلافة ولا قدرة له عليه ، وقد لحظه العرب ولحظته قريش خاصة ، وذكره الفاروق حين قال : « ان قريشا اختارت لنفسها فأبت أن تجمع لبنى هاشم بين النبوة والخلافة » ..

***

ويرى بعض المؤرخين ، ان قريشا كانت تحقد على الامام وتنحيه عن الخلافة لعلة أخرى تقترن بهذه العصبية التى أوقعت التنافس بين بيوتها وبين بنى هاشم ، فقد بطش الامام بنفر من جلة البيوت القرشـية فى حروب المسلمين والمشركين ، وقتل من أعلام بنى أمية وحدهم عتبة بن ربيعة جد معاوية ، والوليد بن عتبة خاله وحنظلة أخاه ، وجميعهم من قتلاه فى يوم بدر .. عدا من قتلهم فى الوقائع والغزوات الأخرى ، فحفظ أقاربهم له هذه الترات بعد دخولهم فى الاسلام ، وزادهم حقدا أنهم لا يملكون الثأر منه لقتلاهم من الكفار . وكانت حاله بعد تلك المدة كما قال ابن أبى الحديد : « ... كأنها حاله لو أفضت الخلافة اليه يوم وفاة ابن عمه ، من اظهار ما فى النفوس وهيجان ما فى القلوب ، حتى الأخلاف[4] من قريش والأحداث والفتيـان الذين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته فى

---

(١) ولد • (٢) المحكم • (٣) بطلت • (٤) الاعقاب •

أسلافهم وآبائهم ، فعلوا به ما لوكانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله»

وقد علم الامام هــذا من قريش ، عندما يئس من مودتها وابتلى بالصريح والدخيل من كيدها ، فقال : « .. ما لى ولقريش ؟.. أما والله لقد قتلتهم كافرين ولأقتلنهم مفتونين .. والله لأبقرن[1] الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته .. فقل لقريش ، فلتضج ضجيجها »

***

ولو أن قريشا واذعته فى سرها وجهرها ، ووقفت بينه وبين منافسيه على الخلافة لا تصده عنها ولا تدفعهم اليها ، لقد كانت تلك عقبة أى عقبة ..

فأما وهى تحاربه بعصبيتها وتحاربه بذحولها[2] ، فتلك هى العقبة التى لا يذللها الا بحزب أقوى من حزب قريش بعد وفاة النبى صلوات الله عليه ، ولم يكن حزب قط أقوى يومئذ من قريش فى أرجاء الدولة الاسلامية بأسرها ..

ولقد سبق الامام الى الخلافة ثلاثة من شيوخ الصحابة هم : أبو بكر وعمر وعثمان ..

فاذا نظرنا الى عائق العصبية الذى قدمناه ، فلا نرى شيئا أقرب الى طبائع الأمور من سبق هؤلاء الثلاثة بأعيانهم[3] الى ولاية الخلافة بعد النبى عليه السلام ، لأنهم أقرب النــاس أن يختارهم المسلمون بعد خروج العصبية الهاشمية من مجال الترجيح والترشيح ..

فليس أقرب الى طبائع الأمور فى بلاد عربية اسلامية من اتجاه الأنظار الى مشيخة الاسلام فى السن والوجاهة والسابقة الدينية ، لاختيــار الخليفــة من بينهــا على السنة التى لم تتغــير قط فى تواريخ العرب الأقدمين ، ولم يغيرها الاسلام بحكم العادة ولا بحكم الدين

ولم يكن الامام عند وفاة النبى من مشيخة الصحابة التى تئول اليها الرئاسة بداهة بين ذوى الأسنان ، ممن مارسوا الشورى والزعامة فى حياته عليه السلام .. لأنه كان يومئذ فتى يجاوز الثلاثين بقليل . وكان

(١) لأشقن. (٢) ذحولها : حقدها وعداوتها وثأرها. (٣) أي أشخاصهم.

أبو بكر وعمر وعثمان قد لبثوا فى جوار النبى بضع عشرة سنة قبل ظهور علىّ فى الحياة العامة ، وهم يشيرون على النبى ويخدمون الدين ويجمعون الأنصار ويدين لهم بالتوقير والولاء ..

والعائق الذى قام بين علىّ وبين الخلافة هو فى طريق هؤلاء الثلاثة السابقين تمهيد وتقريب ..

ونعنى به عائق العصبية الهاشمية ..

لأن قريشا لا تنفس على بنى تيم ، ولا بنى عدى ، ولا بنى أمية ، فى رئاسة عثمان خاصة .. كما تنفس على بنى هاشم ، اذ تجتمع لهم النبوة والخلافة ..

***

والامام نفسه لم يفته أن يدرك هـذا بثاقب نظره ، حين قال وقد تجاوزته الخلافة للمرة الثالثة بعد موت الفاروق : « ان الناس ينظرون الى قريش ، وقريش تنظر الى بيتها فتقول : « ان ولى عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدا .. وما كانت فى غيرها من قريش تداولتموها بينكم »

واذا اجتمع هذا العائق الى عائق السن والتوقير للمشيخة المقدمة ، فهما مبعدان للامام عن الخلافة بمقدار ما يقربان سواه ..

نعم ان فارق السن قد تقارب بعد موت الفـاروق ، وبلغ الامام الخامسة والأربعين ، وسبقت له فى المشورة سوابق مأثورات .. فأصبح الفارق بينه وبين من يكبرونه مزية تعين على العمل والجهد وتنفى مظنة الضعف والتواكل . ولكن الذى كسبه بهذه المزية خسره بازدياد المطامع الدنيوية وبأس الرؤساء من الوفر[1] والنعمة على يديه ، واعتقاد الطامعين أنهم أقرب الى بعض الأمل فى لين عثمان وتقدم سنّه منهم الى أمل من الآمال فى شدة الإمام وعسر حسابه ..

وبقيت الجفوة[2] بينه وبين قريش على حالها ، لم يكفكف منها تقـادم العهد كما قال ابن أبى الحديد ..

وعلى هذه الجفوة فى القبيلة كلها ، دخلت فى الأمر دخله البواعث

(١) المراد بالوفر هنا : كثرة المال . (٢) الجفاء : نقيض الصلة .

الشخصية التى لا يسلم منها عمل من أعمال بنى الانسان فى زمن من الأزمان .. فقد اجتمع رهط الشورى الذين ندبهم الفاروق لاختيار الخليفة من بعده ، فتقدم بينهم عبد الرحمن بن عوف فخلع نفسه من الأمر كله ليتاح له أن يستشير الناس باسمهم ويعلن البيعة على عهدتهم . وقيل: انه أنس مع الزبير وسعد بن أبى وقاص ميلا موقوتا الى عليّ وانحرافا موقوتا عن عثمان ، فسارع الى المنبر وبايع عثمان وجاراه الحاضرون مخافة الفتنة والشقاق ..

وكان عبد الرحمن بن عوف صهرا لعثمان ، لأنه زوج أخته لأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط .

***

ويقضى الحق أن يقال فى هذا المقام: ان بيعة عثمان قد تمت باتفاق بين المسلمين لم ينقضه خلاف معدود ، فليست كلمة عبد الرحمن بن عوف هى التى خذلت عليًا وقدمت عثمان عليه ، اذ لو كانت هناك مغالبة شديدة بين حزبين متكافئين لما استقامت البيعة لعثمان بكلمة من عبد الرحمن بن عوف .. وهو واحد من خمسة أو ستة اذا أشركنا معهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ..

ثم بويع الامام بعد مقتل عثمان ، فهل تحولت قريش عن جفوتها ، أو نظرت الى السياسة الهاشمية نظرة غير نظرتها ؟

كلا . . .

بل جاءت البيعة فى المدينة ، يوم خفت[١] فيها صوت قريش ، وهبطت سمعة حكامها .. يوم أصبحت البيعة ثورة على قريش ، تنكر عليها الاثرة بالملك والاثرة بالغنائم والأمصار .. ويوم انقسم المجتمع الاسلامى قسميه اللذين التبسا وتداخلا حينا حتى فصلتهما الحوادث فصلها الحاسم فى خلافة عثمان : قسم يريد الرجعة الى الخلافة والآداب النبوية ، وقسم يريد المضى فى الملك والدولة الدنيوية ..

---

(١) أي ضعف .

فأى القسمين ، كان قسم علي كائنا ما كان سعيه واجتهاده ؟.. وأية سياسة كانت تعينه على مشكلة الخلافة منذ بدايتها بعد وفاة النبى الى ختامها الفاجع بعد مقتل عثمان ؟

كل سياسة له لم تكن لتحيد به عن الخاتمة المحتومة أقل محيد

وكل ما كان من تدبير الحوادث أو من تدبيره ، فهو على هذا الملتقى الذى يتلاحق عنده الاسراع والابطاء ..

وعلى هذا ينبغى أن نرجع الى علة غير سياسة علي لتعليل العوائق التى قامت دون مبايعته بالخلافة قبل الصديق والفاروق وعثمان ..

فهو غير مسئول عن نظرة العصبية التى نظرت بها قريش الى السيادة الهاشمية ..

وهو غير مسئول عن سنه التى تأخرت به عن مشيخة الصحابة من ذوى السابقة فى الجهاد والزعامة والاصالة بين ذوى الأسنان والأخطار..

وهو غير مسئول عن الصفة العالمية التى جعلت تأسيس الاسلام على أسرة واحدة فى العالم كله أمرا ملحوظا بالتوجس[1] والاحجام منذ اللحظة الأولى ..

نعم قد يسأل الامام عن علاقته بالناس وقدرته على تألفهم بالآمال والمجاملات ، ليأنسوا اليه ويرفعوا حجاب الجفوة بينهم وبينه ، ويؤثروه على غيره بالخلافة ، أملا فى بره واطمئنانا الى حفاوته ووده

وقد يرد على بعض الخواطر ، ان سياسة الدولة الدنيوية أو سياسة الارضاء بالمنافع والوعود ، كانت أجدى[2] عليه من آداب الخلافة الدينية وأخلق بتمكينه أولا وآخرا بين قريش وقبائل العرب عامة ..

فهذا فى رأيهم مأخذ يرجع الى شخصه وأعماله ، ويسأل عنه كما يسأل الانسان عن عمله وتصريف ارادته وفكره . ولا يجوز أن نرجع به الى حكم الحوادث القاهرة ، وسلطان المصادفات التى لا قبل له بتبديلها

ولكن الواقع ان هذه السياسة ــ سياسة المنافع الدنيوية ــ لم تكن لتجديه شيئا بعد وفاة النبى ، ولا بعد مقتل عثمان ..

---

(١) أي التخوف . (٢) أكثر فائدة ونفعا .

فبعد النبى عليه السلام ، لم تكن ذخائر الفتوح قد استفاضت فى الأيدى وأنشأت فى المجتمع الاسلامى طبقة مسموعة الصوت تحرص عليها وتستزيدها ..

فالذى يناضل فى سبيل الحكم بسلاح هذه المنافع ، انما كان يناضل بسلاح غير موجود .. بل كان يناضل سلاحا ماضيا[1] ينهزم أمامه لا محالة وهو سلاح الحماسة الدينية التى غلبت فى ضرباتها الأولى كل سلاح

أما بعد مقتل عثمان ، فأبعد الأمور عن التخيل أن يغلب على معاوية فى سوق المنافع الدنيوية ، لأن معاوية قد أهبّ[2] لها أهبته قبل عشرين سنة ، وجمع لها أنصاره وكنز لها كنوزه فى بلاد وادعة بين جند مطيع

ولو توافرت لعليّ مادة هذه السياسة ، لما توافر له أعوانها والمساعدون عليها .. فليس أقل نفعا فى هذا المضمار من أعوانه الذين ثاروا على سياسة المنافع وباءوا[3] من أجلها بدم خليفة ، واجتمعوا على التمرد قاصدين أو غير قاصدين .. فلا يديرون أنفسهم الى نهج كنهج معاوية ولو أرادوه

وأغلب الظن ان عليًّا كان يخسر بهذه السياسة أولئك الذين أحبوه ، ولا يربح بها أولئك الذين أبغضوه ..

فقد حببته آداب الخلافة الى كل طبقة تكره استغلال الحكم ، ولا مطمع لها فيه .. فكل بلاد خلت من عصبة المرشحين للحكم ، فقد كانت من حزبه وشيعته بغير استثناء ، فكان من حزبه شعب اليمن ومصر وفارس والعراق ، ونشأت فى اليمن — وقد عهدت حكمه قديما — تلك الطائفة السبئية التى غلت[4] فى حبه حتى ارتفعت به الى مرتبة التقديس ، وانتشرت فى مصر وفارس بذور تلك الشيعة الفاطمية والامامية التى ظلت كامنة فى تربتها حتى أخرجت شطأها[5] بعد أجيال ، وشذت الشام لأنها كانت فى يد معاوية ، وشذت أطراف من العراق أول الأمر لأنها كانت فى يد طلحة والزبير ، ولم يشذ عن هذه القاعدة بلد من البلدان الاسلامية من أقصاها الى أقصاها .. فلولا ان سواد الناس لا يعملون بغير عصبة من القادة ، وان العصب من القادة كانوا كلما وجدوا فى بقعة من

(١) أي قاطعا . (٢) أعد . (٣) أي رجعوا . (٤) من المغالاة ، أي تجاوزت الحد . (٥) شطء الزرع والنبات : فراخه ، وقال الاخنس : طرفه .

البقاع وجد معهم النفع والاستغلال . لقد كانت محبة أولئك السواد أنفع له من عصب معاوية أجمعين ..

فأغلب الظن — كما أسلفنا — ان علياً كان يخسر هؤلاء باتباعه سياسة الدولة الدنيوية ، ولا يكسب العصب التى ناصبته العداء ، وأيقنت أنه حائل بينها وبين ما طمحت اليه من الصولة والثراء ..

وهذا على تقدير المقدرين ان عليًا يؤاخذ لاجتنابه هذه السياسة ، وانه لو اتبعها لكانت أجدى عليه ..

وليست هى أجدى عليه لو اتبعها ، ولا هو على اجتنابها بملوم ..

وتفضى بنا هـذه التقديرات جميعا الى نتيجة واضحة نلخصها فى كلمات وجيزة ، ونعتقد انها أعدل الأقوال فى وصف تلك السياسة التى كثرت فيها مطارح النقد والدفاع ..

فسياسة علىّ لم تورطه فى غلطات كان يسهل عليه اجتنابها باتباع سياسة أخرى ..

وهى كذلك لم تبلغه مآرب مستعصية ، كان يعز عليه بلوغها فى موضعه الذى وضع فيه وعلى مجراه الذى جرى عليه ..

فليست هى علة فشل منتزع ، ولا علة نجاح منتزع ، أو هى لا تستدعى الفشل من حيث لم يخلق ، ولا تستدعى النجاح من حيث لم يسلس[1] له قياد ..

ورأينا فى سياسته فهما وعلما ، ولكننا لم نر فيها الحيلة العملية التى هى الى الغريزة أقرب منها الى الذكاء ..

فكان نعم الخليفة ، لو صادف أوان الخلافة ..

وكان نعم الملك لو جاء بعد توطيد[2] الملك واستغنائه عن المساومة والاسفاف ..

ولكنه لم يأت فى أوان خلافة ولا فى أوان ملك موطد ، فحمل أعباء النقيضين ، وأخفق حيث ينبغى أن يخفق أو حيث يعيبه أن ينجح.. وتلك آية الشهيد ..

---

(١) أي يسهل · (٢) أي قوي راسخ ·

حكومته

كانت الدولة الاسلامية الناشئة على شفا[1] الخطر فى ابان الفتنة الداخلية بين على ومعاوية .. ولكنها وقيت منه لأن عوامل الأمان الذى يحيط بها كانت أقوى من عوامل الخطر الذى يهددها .. وتتلخص عوامل الأمان فى وقاءين اثنين :

أحدهما ، ان الاسلام كان دعوة طبيعية تلقاها العالم وهو مستعد لها مستريح اليها ، فرسخت دعائمه وامتنعت حدوده بعد أعوام قليلة من ظهوره ، وسكن[2] اليه الناس مؤمنين بدوام ظنه[3] وشمول عدله ، سواء منهم من دخل فيه ومن أوى الى حكمه وهو باق على اعتقاده ..

وثانيهما ، ان أعداء الاسلام كانوا فى شاغل عنه بما أصابهم من الوهن وأحدق بهم من المخاوف ، وربما صح فى الفتنة الإسلامية يومئذ ما يصح فى كثير من الطوارق التاريخية الكبرى ، وهى انها لن تكون شرا محضا فى جميع عواقبها ، ولا تخلو من الخير على غير قصد من ذويها .. فان هذه الفتنة قد أغرت أعداء الاسلام بالانتظار ، وأوقعت فى روعهم انهم غنيون عن التحفز والوثوب الذى يشق عليهم جهده ، وهم فى تلك الحالة من الجهد والاعياء .. فقنعت دولة الروم بهجمات ضعيفة تلقاها معاوية بالجلد والاناة ، وألهى القوم عنه ببعض الأتاوات والنوافل .. فتراجعوا متربصين الى أن يقضى الخلاف بين المسلمين قضاءه ، وهم وادعون مكفيون شر القتال .. فكان هذا الانتظار الخادع جانبا من جوانب الخير فى الفتنة الاسلامية التى فاضت يومئذ بالشرور

---

(١) أي حافة . (٢) أي اطمأن . (٣) يستعمل الظن بمعنى العلم .

وعلى هــذا انقضت أيام عليّ ، وليس للحكومة الاسلامية سياسة خارجية تحسب من سياسة الفتوح ، أو سياسة الدفاع ، أو سياسة المفاوضة والاستطلاع ..

وكل ما يدور الكلام عليه عن حكومة عليّ ، فهو من قبيل سياسة الحكم بينه وبين رعاياه ، أو هو السياســة الداخليــة كما نسميها فى العصر الحديث ..

***

ومن اليسير أن نعرف سياســة الامام بينه وبين رعاياه ، بغير حاجة الى الاطالة فى التعريف وسرد الأمثال ..

لأنها سياسة الرجل الذى شاء القدر أن يجعله فدية للخلافة الدينية فى نضالها الأخير مع الدولة الدنيوية

فنحن نتخذ ما شئنا من طريقين متقابلين ، فاذا طريق عليّ هى طريق الخلافة المنزهة ، حين تقابل الدولة الدنيوية مقابلة الخصم للخصم أو النقيض للنقيض ، أو هى أقرب الطريقين الى المساواة وأدناهما الى رعاية الضعفاء ..

فالناس فى الحقوق سواء ..

لا محاباة لقوى ولا اجحاف بضعيف ، وقد عمــد الى القطائع التى وزعت قبله على المقربين والرؤساء ، فانتزعها من القابضين عليها وردها الى مال المسلمين لتوزيعها بين من يستحقونها على سنّة المســاواة ، وقال : « والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء لرددته ، فان فى العدل سعة .. ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق »

وفرض الرفق بالرعية على كل وال ، فلا ارهاق ولا استغلال ولو كانت الحكومة هى صاحبة الحق فى المال

فمن وصاياه المكررة لولاته : « انصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم فانهم خزان الرعية .. ولا تحســموا[1] أحدا عن حاجتــه ولا

---

(١) تحسموا : تمنعوا .

تحبسوه عن طلبته ، ولا تبيعن للناس فى الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها ، ولا عبدا ، ولا تضربن أحدا سوطا لمكان درهم»

ومن وصاياه فى تحصيل الخراج والصدقات : « .. امض اليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخدج[1] بالتحية لهم ، ثم تقول : عباد الله . أرسلنى اليكم ولىّ الله وخليفته لآخذ منكم حق الله فى أموالكم ، فهل لله فى أموالكم حق فتؤدوه الى وليّه ؟.. فان قال قائل : لا ، فلا تراجعه .. وان أنعم لك منعم ، فانطلق معه من غير أن تخيفه وتتوعده أو تعسفه أو ترهقه ، فخذ ما أعطاك من ذهب أوفضة ، فان كان له ماشية أو ابل فلا تدخلها الا باذنه ، فان أكثرها له .. فاذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به.. ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعها ، ولا تسوءن صاحبها فيها ، وأصدع المال صدعين ، ثم خيره ، فاذا اختار فلا تعرضن لما اختاره ، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء حق الله فى ماله .. فاقبض حق الله منه ، فان استقالك فأقله .. »

وكان دستوره فى تحصيل الضرائب المفروضة على الناس ، ان النظر فى عمارة الأرض أبلغ من النظر فى استجلاب الضريبة ، فكان يكتب الى واليه : « تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله .. فان فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم الا بهم .. لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك الا بالعمارة ، ومن جلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره الا قليلا ، وانما يؤتى خراب الأرض من اعواز[2] أهلها ، وانما يعوز أهلها اسراف الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر ..»

أما دستوره فى الولاة والعمال ، فخلاصته ما كتب به الى الأشتر النخعى يقول له : « انظر فى أمور عمالك ، فاستعملهم اختبارا ولا تولهم محاباة واثرة .. فانهم جماع من شعب الجور والخيانة ، وتوخ[3] منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الاسلام ، فانهم

(١) لا تخدج بالتحية : أي لا تلق التحية ناقصة · (٢) اي حاجة وفقر (٣) تمر

أكثر أخلاقا وأصح اعراضا وأقل فى المطامع اسرافا ، وأبلغ فى عواقب الأمور نظرا .. ثم أسبغ[1] عليهم الأرزاق ، فان ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو ثلموا[2] أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون[3] من أهل الصدق والعيون عليهم .. فان تعاهدك فى السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية »

وعلى هذه العناية باستطلاع أحوال الولاة والعمال ، كان ينهى أشد النهى عن كشف معائب الناس ، أو كما كان يقول فى وصية ولاته : « وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم[4] عندك أطلبهم لمعائب الناس .. فان فى الناس عيوبا ، الوالى أحق من سترها .. فلا تكشفن عما غاب عنك منها ، فانما عليك تطهير ما ظهر لك » .

وكان ينهى عن بطانة السوء مع حثه على اتخاذ العيون والجواسيس ، فقال فى وصيته لمحمد بن أبى بكر : « لا تدخلن فى مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ، ولا جبانا يضعفك عن الأمور ، ولا حريصا يزين لك الشره[5] بالجور .. فان البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله .. ان شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرا ، ومن شركهم فى الآثام فلا يكونن لك بطانة ، فانهم أعوان الأثمة واخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير الخلف ، ممن له مثل آرائهم ونفاذهم .. وليس عليه مثل آصارهم[6] وأوزارهم » ..

ولم ينكر قط شيئا من سياسة التولية ، ثم صنع مثله فى عهده ، على كثرة الاغراء حوله باصطناع التقية والمداراة والهوادة قليلا مع الأقرباء وذوى الأخطار ..

ومن زعم غير ذلك ، من ناقديه فى عصره أو بعد عصره ، فانما هو آخذ فى المقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات ..

اذ كان مما قيل مثلا ان عليا أقام عبد الله بن عباس على البصرة ، وعبيد الله بن العباس على اليمن ، ومحمد بن أبى بكر ابن زوجته على

---

(١) أتم ٠ (٢) الثلمة : الخلل ٠ (٣) أي الجواسيس ٠ (٤) أبغضهم ٠
(٥) غلبة الحرص ٠ (٦) أي ذنوبهم ٠

مصر .. وهم أقرباؤه وخاصـة أهله ، فهو اذن يصنع ما أنكره على حكومة عثمان من ايثار الأقرباء بالولايات واقصاء الآخرين عنها ..

ولكنها كما قلنا مقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات ، لأن المقارنة الصحيحة بين العملين تسفر[1] عن فارق بعيـد كالفارق بين النقيض والنقيض ..

فبنو هاشم لم يكن لهم متسع لعمل أو ولاية فى غير حكومة الامام ، ولم يكن للامام معتمـد على غيرهم بعد أن حاربته قريش ، وشاعت الفرقة والشغب بين أعوانه من أبناء الأمصار ..

وهم مع هذا لم يؤثروا بالولايات كلها ، ولم يؤثروا بالذى خصهم منها ليستغلوه ويجمعوا الثراء من غنائمه وأرزاقه .. بل كانوا يحاسبون على ما فى أيديهم أعسر حسـاب ، وكانوا لتضييقه عليهم فى المراقبة يتركون ولاياتهم ويستقيلون منها ، كما فعل ابن عباس حين هجر البصرة الى مكة ..

وقد بلغ من حسابه للولاة انه كان يحاسبهم على حضور الولائم التى لا يجمل بهم حضورها .. فكتب الى عثمان بن حنيف الانصاري عامله على البصرة : « أما بعد يا ابن حنيف ، فقد بلغنى ان رجلا من فتية أهل البصرة دعاك الى مأدبة .. فأسرعت اليها تستطاب لك الألوان وتنقل اليك الجفان[2].. وما ظننت انك تجيب الى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو ، فانظر الى ما تقضمه من هذا المقضم .. فما اشتبه عليك علمه فالفظه وما أيقنت بطيب وجوه فنل منه » .

واستكثر على شريح قاضيه أن يبنى دارا بثمانين دينارا ، وهو يرزق خمسمائة درهم .. وحاسب على أقل من هذا من هو أقل من شريح أمانة فى القضاء وحرجا فى الدين ..

فلو أن الامام اختص أقرباءه بالولايات التى يحاسبون عليها هذا الحساب ، لما كان فى اختصاصه اياهم مستبيح حق ولا مستبيح مال .. فكيف وهو لا يختصهم الا بالقليل منها ، ولا يختصهم وله مندوحة[3]

(١) ي تفضح وتكشف . (٢) جمع جفنة وهي : القصعة . (٣) أي سعة .

عنهم ، أو يختصهم وهم دون غيرهم فى القدرة والأمانة ؟

فالمقارنة هنا مقارنة أشكال وحروف ، وكل ما توحى الى الناقد بها أنه يذكر الأقرباء هنا والأقرباء هناك ..

وقد انقسمت طريق الخلافة ، وطريق الدولة الدنيوية فى كل أمر من الأمور على عهد الامام ولم تنقسم فى مسألة الولاة أو مسألة الاستغلال وكفى

وأكبر ما يذكر من انقسام الطريقين فى عهده قيام الفكرة العالمية الى جانب العصبية بالقبيلة أو بالوحدة الوطنية ..

فالدولة الدنيوية تشد ازرها[1] بالعصبية الجنسية ، والخلافة الدينية تشد ازرها بالأخاء بين الشعوب وبطلان الفوارق بين الأجناس ..

وقد كانت القبيلة من أنصار الامام ، تقاتل القبيلة من أنصار معاوية فى سبيل الرأى والعقيدة ..

وكان أنصار الامام أبدا من الفرس والمغاربة والمصريين أكثر من أنصاره بين قريش خاصة ، وبين بنى هاشم على الأخص ، وبين قبائل العرب على التعميم ..

وهذا الامتزاج بين الفكرة العالمية وبين إمامة علىّ أو خلافته ، هو أقطع الأدلة على الوحدة بين أوانه وأوان الخلافة .. فاذا ذهب هذا وجب أن يذهب ذاك ، أيا كانت السياسة المتوخاة[2] ، وبالغا ما بلغ نصيبها من السداد والصواب ..

ولنا أن نعمم هذا الحكم الانسانى فى كل شأن من شئون الحكومة ، قضى به علىّ فى عهده أو عهود الخلفاء من قبله ..

فالروح الانسانى هو قوام[3] الحكومة الامامية ، كما ينبغى أن يكون ، وهو قوامها كما كانت على يديه جهد الطاقة الآدمية .. وهى طاقة لها ما لها من حدود ..

جىء الى عمر بن الخطاب بامرأة زانية يشتبه فى حملها ، فاستفتى الامام .. فأفتى بوجوب الابقاء عليها حتى تضع جنينها ، وقال له : « ان كان لك سلطان عليها ، فلا سلطان لك على ما فى بطنها » .

(١) الأزر : القوة • (٢) أي المقصودة • (٣) قوام الامر : نظامه وعماده•

وانتزع امرأة من أيدى الموكلين باقامة الحد عليهـا .. وسأله عمر فقال : « أما سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصغير حتى يكبر ، وعن المبتلى حتى يعقل ؟ » قال : « بلى » قال : « فهذه مبتلاة بنى فلان .. فلعله أتاها وهو بها » قال عمر : « لا أدرى » قال : « وأنا لا أدرى » فترك رجمها للشك فى عقلها ..

وأتى عمر بامرأة أجهدها العطش ، فمرّت على راع فاستسقته .. فأبى أن يسقيها الا أن تمكنه من نفسها .. ففعلت ، فشاور الناس فى رجمها ، فقال عليّ : « هذه مضطرة الى ذلك .. فخلّ سبيلها »

وهذه أمثلة قليلة من أمثلة كثيرة فى القصاص وتفسير الشريعة ..

الا انه قد حاد[1] عن هذه السنّة[2] فى أمر واحد خالفه فيه بعض فقهاء عصره ، ومنهم ابن عمه عبد الله بن عباس

وذلك هو احراقه الروافض الذين عبدوه ووصفوه بصفات الآلهة ، وأبوا أن يتوبوا عن ضلالتهم مرة بعد مرة ، وقيل : انهم أصروا على عنادهم وهم يحرقون .. فاتخذوا من تعذيبه لهم بالنار دليلا على أنه هو الاله المعبود .. اذ لا يعذب بالنار الا الله

فهؤلاء المفسدون المفتونون ، قد استحقوا عقوبة الموت بقضاء الشريعة وقضاء الدولة التى لا يقوم لها نظام على هذه الضلالة .. ولكن الاحراق بالنار صرامة لا توجبها ضرورة العقاب ، وليس فى اجتنابها خطر على الشريعة ، ولا على النظام ..

انما شفيع الامام فى هـذه الصرامة انه كان هو المستهدف لتلك الضلالة ، وهو مظنة الريبة فى الهوادة فيها .. فهو ينزه عدله عن كل ظن حيث تظن بالهوادة جميع الظنون ، وقد أحرق الذين ألّهوه .. ونهى عن قتال الخوارج الذين حكموا بكفره ، الا أن يفسدوا فى الأرض أو يبدءوا بالعدوان على برىء . وفى هذا الانصاف بين مؤلّهيه ومكفريه شفاعة من تلك الصرامة فى العقاب .

---

(١) مال وعدل . (٢) أي الطريقة .

وكان الامام يذكر أبدا فى حكومته ان الحقوق العامة لها شأن لا ينسى مع حقوق الأفراد ..

ومن ذلك ما نقله الطبرى عن بعض الأسانيد ، حيث قال : « رأيت عليًّا عليه السلام خارجا من همدان ، فرأى فتيين يقتتلان ففرق بينهما .. ثم مضى فسمع صوتا : ياغوثا بالله فخرج يحضر نحوه حتى سمعت خفق نعله ، وهو يقول : « أتاك الغوث .. » فاذا رجل يلازم رجلا ، فقال : « يا أمير المؤمنين .. بعت هذا ثوبا بتسعة دراهم وشرطت عليه ألا يعطينى مغموزا[1] ولا مقطوعا ، فأتيته بهذه الدراهم ليبدلها لى فأبى فلزمته فلطمنى » فقال : « ابدله » ثم قال : « بينتك على اللطمة » فأتاه بالبينة .. قال : « دونك فاقتص » قال : « انى قد عفوت يا أمير المؤمنين » قال : « انما أردت أن أحتاط فى حقك » .. ثم ضرب الرجل تسع درات ، وقال : « هذا حق السلطان » .

وكان يكرر هذا الحكم فى كل ما شابهه من أمثال هذا العدوان ، وهو أشبه المذاهب بمذهب الحكومات العصرية فى القصاص

ويقال الكثير عن مناهج الامام فى الحكومة وسياسة الرعية مما يغنى فيه هذا الاجمال عن التوسع فى التفصيل ..

ولكن الذى لا ينسى فى سياق الكلام عن الامامة والدعوة العالمية ، انه رضى الله عنه كان أول من خرج بالعاصمة من المدينة الى أرض غير أرض الحجاز ، وهو الحجازى سليل[2] الحجازيين ..

وقد اختار الكوفة ، فكانت أوفق عاصمة للامامة العالمية فى تلك المرحلة من مراحل الدولة الاسلامية ..

لأنها كانت ملتقى الشعوب من جميع الأجناس ، وكانت مثابة التجارة بين الهند وفارس واليمن والعراق والشام ، وكانت العاصمة الثقافية التى ترعرعت فيها مدارس الكتابة واللغة والقراءات والأنساب والأفانين الشعرية والروايات .. فهى أليق العواصم فى ذلك العصر بحكومة امام ، وما زالت الامامة لاحقة بعليٍّ ومحيطة به حيث تحول وحيث أقام ..

---

(١) أي معيبا . (٢) الابن والابنة .

النبي والامام والصحابة

أحاديث النبى عليه السلام فى فضل عليّ ومحبته متواترة فى كتب الحديث المشهورة .. منها ما انفرد به ، وهو حديث الخيمة الذى رواه الصديق رضى الله عنه حيث قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خيم خيمة ، وهو متكىء على قوس عربية ، وفى الخيمة علي وفاطمة والحسن والحسين ، فقال : معشر المسلمين .. أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة ، حرب لمن حاربهم ، وليّ لمن والاهم ، لا يحبهم الا سعيد الجد طيب المولد ، ولا يبغضهم الا شقى الجد ردىء الولادة »

ومنها ما اشترك فيه وغيره ، وهو الذى روته السيدة عائشة حيث سئلت : « أى الناس أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .. قالت : فاطمة ! .. فقيل : من الرجال ؟ .. قالت : زوجها .. ان كان ما علمت صواما قواما »[1]

وقد روى حديث فى هذا المعنى ، حيث سئل رسول الله عن أحب الناس اليه ، فقال : « من النساء عائشة ، ومن الرجال أبوها »

ولا تناقض بين الحديثين ، اذ كانت السيدة عائشة هى التى تروى الحديث الأول ، وتخرج من كلامها كما يخرج المتكلم من عموم كلامه ، أو كانت تروي عن أقرباء النبى من لحمه ودمه ، فتقول ما تعلم عن غيرها

وهذان نموذجان من الأحاديث النبوية فى فضل عليّ ومحبته ومنزلته عند الله ونبيه ، وهى تعد بالعشرات

وأصحاب المذاهب يختلفون فى تأويل هذه الأحاديث ، وفى أسانيدها ، ويوجهونها حيث اتجهوا من التشيع للامام أو التشيع عليه .. وهو شرح طويل لا يهمنا منه هنا أن ننصر فيه فريقا على فريق ، أو نرجح مذهبا

---

(1) ... والسلام .

على مذهب . . اذ ليس فهم الامام موقوفا على تغليب أى الفريقين وتعزيز[1] أى المذهبين ، وفهم الامام على حقيقته النفسية والتاريخية هو كل ما نعنيه ..

فمهما يختلف الرواة فى تأويل الأحاديث ، فالذى يسعك أن تجزم به من وراء اختلافهم ، ان عليًّا كان من أحب النـاس الى النبى ، ان لم يكن أحبهم اليه على الاطلاق ..

لقد كان النبى عليه السلام يغمر بالحب كل من أحاط به من الغرباء والأقربين .. فأى عجب أن يخص بالحب من بينهم انسانا ، كان ابن عمه الذى كفله وحماه ، وكان ربيبه الذى أوشك أن يتبناه ، وكان زوج ابنته العزيزة عنـده ، وكان بديله فى الفراش ليـلة الهجرة التى همَّ المشركون فيها بقتل من يبيت فى فراشه . وكان نصيره الذى أبلى أحسن البلاء فى جميع غزواته ، وتلميذه الذى علم من فقه الدين ما لم يعلمه ناشىء فى سنّه ؟ ..

حب النبى لهذا الانسان حقيقة لا حاجة بها الى تأويل الرواة ولا الى تفسير النصوص ، لأنها حقيقة طبيعية ، أو حقيقة بديهية قائمة من وراء كل خلاف ..

ومما لا خلاف فيه كذلك ، انه عليه السلام كان لايكتفى بحبه اياه .. بل كان يسره ويرضيه أن يحبّبه الى الناس ، وكان يسوؤه ويغضبه أن يسمع من يكرهه ويجفوه ..

بعث رسول الله عليًّا فى سرية ليقبض الخمس ، فاصطفى[2] منه سبية ، واتفق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك الى رسول الله . وكان المسلمون اذا قدموا من سفر بدءوا بالرسول ، فسلموا عليه وأبلغوه ماعندهم ، ثم انصرفوا الى رحالهم.. فقام أحد الأربعة وحدث الرسول بما رأى فأعرض عنه ، وظن أصحابه أنه لم يسمعه .. فتناوبوا الحديث واحدا بعد واحد فى معنى كلامه . فلما فرغ الرابع من حديثه أقبل عليه رسول الله وقد تغير وجهه فقال : « ما تريدون من علىّ ؟.. ما تريدون

---

(١) أي تقوية · (٢) اختار ·

من عليٍّ ؟.. ما تريدون من عليٍّ ؟.. عليٌّ مني وأنا منه وهو ولى كل مؤمن بعدى» وقال لأحدهم فى روايات أخرى : «أتبغض عليًّا ؟» قال : «نعم !» قال : « لا تبغضه ، فان له فى الخمس أكثر من ذلك ، أى أكثر من السبية التى اصطفاها .. لا تبغضه ، وان كنت تحبه فازدد له حبا »

***

وبعث رسول الله علياً الى اليمن ، فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم ابل الصدقة ليريحوا ابلهم ، فأبى.. فشكوه الى رسول الله بعد رجعتهم . وتولى شكايته سعد بن مالك بن الشهيد ، فقال : « يارسول الله .. لقينا من عليٍّ من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق .. » ومضى يعدد ما لقيه ، حتى اذا كان فى وسط كلامه ضرب رسول الله على فخذه ، وهتف به : « ياسعد بن مالك بن الشهيد ، بعض قولك لأخيك عليٍّ ؟ فوالله لقد علمت انه جيش فى سبيل الله »

وشكا بعض الناس مثل هذه الشكوى ، فقام رسول الله فيهم خطيبا يقول لهم : « أيها النـاس .. لا تشكوا عليًّا ، فوالله انه لجيش فى ذات الله » ..

ويلوح[1] لنا أن النبى عليه السلام كان يحب عليًّا ويحببه الى الناس ، ليمهد له سبيل الخلافة فى وقت من الأوقات ، ولـكن على أن يختاره الناس طواعية[2] وحبـا .. لا أن يكون اختيـاره من حقوق العصبيـة الهاشمية ، فانه عليه السلام قد اتقى هذه العصبية جهـد اتقائه ، ولم يحذر خطرا على الدين أشـد من حذره أن يحسبها الناس سبيلا الى الملك والدولة فى بنى هاشم ، وقد حرم نفسه الشريفة حظوظ الدنيـا وأقصى[3] معظم بنى هاشم عن الولاية والعمالة لينفى هذه الظنة .. ويدع الحكم للناس يختارون من يرضونه له بالرأى والمشيئة ..

فالتزم فى التمهيد لعليٍّ وسائل ملموحة لا تتعدى التدريب والكفالة الى التقديم والوكالة ، أرسله فى سرية الى فدك لغزو قبيلة بنى سعد اليهودية ، وأرسله الى اليمن للدعوة الى الاسـلام ، وأرسله الى منى

---

(١) يظهر . (٢) أي غير مكرهين . (٣) أبعد .

ليقرأ على الناس سورة براءة ، ويبين لهم حكم الدين فى حج المشركين وزيارة بيت الله ، وأقامه على المدينـة حين خرج المسلمون الى غزوة تبوك .. ولم يفته مع هذا كله أن يلمح الجفوة بينه وبين الناس ، وأن يكله[1] الى السن تعمل عملها مع الأيام ، ويكلهم فى شأنه الى ما ارتضوه ، عسى أن تسنح[2] الفرصة لمزيد من الألفة بينهم وبينه ..

هذه فيما نعتقد أصح علاقة يتخيلها العقل ، وتنبىء عنهـا الحوادث بين النبى وابن عمه العظيم ..

***

وربما كانت أصح العلاقات المعقولة لأنها هى وحدها العلاقة الممكنة المـأمولة ، وكل ما عداها فهو بعيد من الامكان بعده من الأمان

فهو يحبه ويعهد له وينظر الى غده ، ويسره أن يحبه النـاس كما أحبه ، وأن يحين الحين الذى يكلون فيه أمورهم اليه ..

وكل ما عدا ذلك ، فليس بالممكن وليس بالمعقول ..

ليس بالممكن أن يكره له التقديم والكرامة ..

وليس بالممكن أن يحبهما له ، وينسى فى سبيل هذا الحب حكمته الصالحة للدين والخلافة ..

واذا كان قد رأى الحكمة فى استخلافه ، فليس بالممكن أن يرى ذلك ثم لا يجهر به فى مرض الوفاة أو بعد حجة الوداع ..

واذا كان قد جهر به ، فليس بالممكن أن يتألب أصحابه على كتمان وصيته وعصيان أمره . انهم لا يريدون ذلك مخلصين ، وانهم ان أرادوه لايستطيعونه بين جماعة المسلمين ، وانهم ان استطاعوه لا يخفى شأنه ببرهان مبين ، ولو بعد حين ..

فكل أولئك ليس بالممكن ، وليس بالمعقول ..

وانما الممكن والمعقول هو الذى كان ، وهو الحب والايثار، والتمهيد لأوانه ، حتى يقبله المسلمون ويتهيأ له الزمان

أما العلاقة بين على وسائر الصحابة من الخلفاء وغير الخلفاء ، فهى

---

(١) يسلمه ويتركه . (٢) تتاح وتهيأ .

علاقة الزمالة المرعية والتنافس الذى يشوب الى الصبر والتجمل والتقية..

فليس فيما لدينا من الأخبار والملامح ما يدل على ألفة حميمة بينه وبين أحد من الصحابة المشهورين ، وليس فيها كذلك ما يدل على عداوة وبغضاء .. بل ليس فى أخبـاره جميعا ما يدل على طبيعة تحقد على الناس ، وان دلت أحيانا على طبيعة يحقد الناس عليها ويفرطون

فمن المعلوم أن عليًا كان يرى انه أحق بالخلافة من سابقيه ، وانه لم يزل مدفوعا عن حقه هـذا منذ انتقل النبى عليه السلام الى الرفيق الأعلى . واحتج المهاجرون على الأنصـار فى أمر الخلافة بالقرابة منه صلوات الله عليه . قال : « ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فلجوا (١) عليهم .. فان يكن الفلج به فالحق لنا دونكم ، وان بغيره فالأنصار على دعواهم »

كذلك كان رأيه فى الخلافة يوم بويع بها الصـديق ، ثم بويع بها الفاروق ، ثم بويع بها عثمان ..

وجاءت قضية الارث بعد قضية الخلافة فى أوائل عهـد الصـديق ، فباعدت الفرجة بين القلوب ، وأطالت العزلة بين الأصحاب .. وخلاصة هذه القضية ، ان فاطمة والعباس رضى الله عنهما طلبا ميراثهما فى أرض فدك وسهم خيبر ، فذكر لهما الصديق حديث النبى عن ارث الأنبياء ، ونصه فى روايته : « نحن معاشر الأنبياء ، لا نورث .. ما تركناه فهو صدقة .. انما يأكل آل محمد من هذا المال »

فغضبت فاطمة ، ولم تكلمه حتى ماتت .. ودفنها عليٌ ليلا ، ولم يؤذن بها أبا بكر .. وقيل ، ان عليا تخلف عن البيعة ستة أشهر الى ما بعد وفاتها . ثم أرسل الى أبى بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد .. وتلقاه وعنده بنو هاشم ، فقال : « انه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر انكار لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله اليك ، ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا فاستبددتم به علينا »

---

(١) فلجوا : أي انتصروا عليهم .

ومع هذا اليقين الراسخ عنده فى حقه وحق غيره ، نرجع الى سيرته وأحاديثه .. فنرى ولا ريب انها أقل ما تشعر به النفس الإنسانية فى هذه الحالة من النفرة والنقمة ، ولا نجد فى خطبه ومساجلاته[1] التى ذكر فيها الخلفاء السابقين كلمة تستغرب من مثله ، أو يتجاوز بها حد الحجة التى تنهض بحقه .. بل الغريب انه لزم هذا الحد ولم يجاوزه الى جمحة غضب تفلت معها بوادر اللسان ، ولو جاوزه لكان عاذروه أصدق من لائميه..!

***

وقد أعان أسلافه الثلاثة برأيه وعمله ، وجاملهم مجاملة الكريم بمسلكه ومقاله . ولم يبدر منه قط ما ينم على كراهية وضغن مكتوم .. ولكنه كان يأنف أن ينكر هذه الكراهية اذا رمى بها كما يأنف العزيز الكريم . وفى ذلك يقول من خطاب الى معاوية : « ذكرت ابطائى عن الخلفاء وحسدى اياهم والبغى عليهم ، فأما البغى فمعاذ الله أن يكون ، وأما الكراهية لهم فوالله ما أعتذر للناس من ذلك »

وأولى أن يقال ان دلائل وفائه فى حياتهم ، وبعد ذهابهم ، كانت أظهر من دلائل جفائه . فانه احتضن ابن أبى بكر محمدا وكفله بالرعاية ورشحه للولاية ، حتى حسب عليه وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله ، وقد سمى ثلاثة من أبنائه بأسماء الخلفاء الذين سبقوه ، وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ..

ويخطىء جدا من يتخذ فتواه فى مقتل الهرمزان دليلا على كراهيته لعمر أو نقمة منه فى أبنائه .. فقد أسرع عبيد الله بن عمر الى الهرمزان ، فقتله انتقاما لأبيه ، ولم ينتظر حكم ولى الأمر فيه ولا أن تقوم البينة القاطعة عليه . فلما استفتى فى هذه القضية أفتى بالقصاص منه ، ولم يغير رأيه حين تغير رأى عثمان ، فأعفاه من جريرة[2] عمله ... لأنه هو الرأى الذى استمده من حكم الشريعة كما اعتقده وتحراه ، وبهذا الرأى دان قاتله عبد الرحمن بن ملجم ، فأوصى وكرر الوصاية ألا يقتلوا أحدا غيره لمظنة المشاركة بينه وبين رفقائه فى التآمر عليه

---

(١) أي مناظراته . (٢) الجريرة : الذنب والجناية .

وانك لن تجد انسانا أعرف بالعهد ، ولا أصون له ممن يتذاكره فى حومه[1] الحرب ، ويرى ان التذكير به ينزع السلاح من الأيدى ، ويعود بالخصمين المتناجزين[2] الى الصفاء والاخاء ..

فما حارب علىّ عدوا له سابقة مودة به الا أن يذكره بتلك السابقة ، ويستنجد بالصداقة الأولى فيه على العداوة الحاضرة ..

ومن ذلك موقفه مع الزبير وطلحة فى وقعة الجمل ، وهما ملحان فى حربه وانكار بيعته ..

فخرج حاسرا[3] لا يحتمى بدرع ولا سلاح ، ونادى :

يا زبير ، اخرج الىّ .. فخرج اليه شاكا فى السلاح ، وسمعت السيدة عائشة فصاحت : وا حرباه ! .. اذ كان خصم عليّ مقضيا عليه بالموت كائنا ما كان حظه من الشجاعة والخبرة بالنضال

فلما تقابل عليّ والزبير اعتنقا ، وعاد علي يسأله : « ويحك يا زبير ما الذى أخرجك ؟ .. »

قال : « دم عثمان »

قال : « قتل الله أولانا بدم عثمان »

وجعل يذكره عهوده وعهود رسول الله ، ومنها مقالة النبى : « والله ستقاتله وأنت له ظالم »

فاستغفر الزبير وقال : « لو ذكرتها ما خرجت »

ولما وقف عليّ على جثة طلحة بكى أحر بكاء ، وجعل يمسح التراب عن وجهه وهو يقول : « عزيز عليّ أن أراك أبا محمد مجندلا تحت نجوم السماء » وتمنى لو قبضه الله قبل هذا اليوم بعشرين سنة ..

والمودة عند فارس كعليّ عهد محفوظ وموثق مذكور ، ان فاتها ان تكون حنان قلب أو ألفة شعور

ويخيل الينا انه لم يرزق قط صداقة الالفاء الذين يرعاهم ويرعونه لأنه يحبه ويحبونه ، ولكنه عامل الناس وعاملوه على سنة العهود وديدن[4]

(١) حومة الشيء : معظمه ، أو أشد موضع فيه . (٢) المتقاتلين .
(٣) الحاسر : من لا يغفر له ولا درع ، أو لا جنة له . (٤) طريقة .

الفروسية ، فلم تزل بينه وبينهم اساءة الى سلاح مغمد أو سلاح مشهور

ومثل علي لا يرزق صـــداقة الالفاء ، لأنه من أصحاب المزايا التى تغرى بالمنافسة أو بالحسد ولا تحميها المنافع ولا المسايرة والمداراة .

فهو شجاع ، عالم ، بليغ ، ذكى ، موصول النسب بأعرق الارومات[١]..

فان لم يحسد هذا ، فمن يحسد ؟ ..

وان حسد ، فما الذى يفل[٢] من غرب[٣] حاســديه ؟.. وما الذى يفيء[٤] بهم الى القصد[٥] فى عدائه والتأليب عليه ؟ ..

انهم يستبعدون يومه فى الامارة والسلطان ، واذا استقربوا يومه فى الامارة والسلطان فلا مطمع لهم فى النفع على يديه وهو قوام بالقسط على الأموال والحقوق ، فنصيبه اذن منهم نصيب المحسود الذى لا رجاء له فى هوادة من حاسديه ، وليس أحقد من الناس على صاحب عظمة لم يطمعوا فى نفعه ولم يزالوا على طمع فى النفع من خصومه ، وبليته بهم أكبر وأدهى حين لا يصطنع الدهان[٦] ولا يعمد معهم الى الختل[٧] والروغان.. وعلى انه لو داهنهم وراوغهم لما اغتفروا له ذنب العظمة التى لا تحميها حماية من طمع أو نكاية ، أو كما قال الحكيم الغربى : « ان نسى انه أسد لم ينسوا أنهم كلاب »

وهكذا فرضت على الرجل العظيم ضريبة العظمة الغريبة فى ديارها وبين آلها وأنصارها ..

فالعلاقة بينه وبين كرام الصـــحابة ، كانت علاقة الزمالة التى ينوب فيها الواجب مناب الالفة ..

والعلاقة بينه وبين الخصوم ، كانت علاقة حسد غير مكفوف ، وبغض غير مكتوم ..

والعلاقة بينه وبين ســواد العامة ، كانت علاقة غرباء يجهلونه ولا ينفذون الى لبابه ، وان قاربه اناس معجبين ، وباعده أناس نافرين .. وتلك أيضا آية الشهيد ..

---

(١) جمع أرومة ، وهي : الاصل • (٢) فله وفلله : ثلمه • (٣) من معاني الغرب : حد الشيء ، والحدة ، والتمادي • (٤) يرجع • (٥) عدم الاسراف • (٦) النفاق • (٧) الخداع •

ثقـافته

ألسنة الخلق أقلام الحق ..

كلمة سائغة[1] ليس أصدق منها ان صدقت ، وهى صدق فى كثير من الأحيان ..

ونحن نعلم صدقها الأصيل حين نسمع الكلمة من هذه الكلمات التى ينقلها لسان عن لسان ويتلقاها جيل عن جيل ، فيخيل الينا أنها خاطر عابر يسمع ويستملح ويشفع له القدم .. فنقبله كرامة له كما تقبل الثمين والغث[2] أحيانا من وقار المشيب ، ولكنه بعد كل هذا لا يثبت على النقد ولا يصبر على مراجعة العلم والقيـاس ، ثم نعرضه اتفاقا على العلم والقياس .. فاذا به قد احتمل من النقد العسير ما ليست تحتمله آراء العلماء وقضايا الحكماء ، واذا بالخطأ فى هذه القولة الشائعة أو فى هذا اللقب المرتجل أقل من كل خطـأ يحصى على كلام مخلوق ..

من هذه الألقاب الشائعة ، لقب الامام الذى اختص به عليّ بين جميع الخلفاء الراشدين ، والذى يطلق اذا أطلق فلا ينصرف الى أحد غيره ، بين جميع الأئمة الذين وسموا بهذه السمة من سابقيه ولاحقيه ..

ولم وليس هو بفرد فى الامامة بجملة معانيها ؟ ..

ألم يكن الصديق اماما كعليّ ؟ .. ألم يكن الفاروق اماما كعليّ ؟.. ألم يكن عثمان اماما كعليّ ؟ .. ألم يكونوا خلفاء راشدين اذا قصدت الخلافة الراشدة بعد النبوة ؟ ..

بلى كانوا أئمة مثله ، وسبقوه فى الامامة ..

---

(١) أي مقبولة مستساغة . (٢) الغث من اللحم : المهزول ، ومن الكلام : الرديء الفاسد .

ولكن الامامة يومئذ كانت وحدها فى ميدان الحكم بغير منازع ولا شريك ، ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الامامة ليناضل به علم الدولة الدنيوية ، ولا أن يتحيز بعسكر يقابله عسكر ، وصفة تناوئها[1] صفة ، ولا أن يصبح رمزا للخلافة يقترن بها ولا يقترن بشيء غيرها .. فكلهم امام حيث لا اشتباه ولا التباس ، ولكن الامام بغير تعقيب ولا تذييل هو الامام كلما وقع الاشتباه والالتباس ..

وذاك هو عليّ بن أبى طالب ، كما لقبه الناس وجرى لقبه على الألسنة .. فعرفه به الطفل وهو يسمع أماديحه المنغومة فى الطرقات ، بغير حاجة الى تسمية أو تعريف ..

***

وخاصة أخرى من خواص الامامة ، ينفرد بها عليّ ولا يجاريه فيها امام غيره ، وهي اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الاسلامية منذ وجدت فى صدر الاسلام ، فهو منشيء هذه الفرق أو قطبها الذى تدور عليه . وندرت فرقة فى الاسلام لم يكن عليّ معلما لها منذ نشأتها ، أو لم يكن موضوعا لها ومحورا لمباحثها ، تقول فيه وترد على قائلين

وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد ، كما اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الفقه والشريعة ، وعلماء الأدب والبلاغة .. فهو أستاذ هؤلاء جميعا بالسند الموصول ..

أما الفرق التى جعلته موضوعا لها ومحورا لمباحثها ، فحسبك أن تذكر الخوارج والروافض والشيعة والناصبين وأهل السنّة ، فتكون قد ذكرت جميع الفرق الاسلامية بلا استثناء أو باستثناء جد يسير

وهنا تشتبك الفروع وتتأشب[2] الأفانين ، فترى الفرقة الواحدة مزيجا من التصوف والسياسة ، كالباطنية على اختلافها .. وقد تترامى بها الفروع حتى تصل الى القائلين بمذهب الباب أو مذهب البهاء ، وهم طرف مقطوع أو موصول ، من بعض تلك الأصول ..

فالامام أحق لقب به ، وهو أحق الأئمة بلقب الامام ! ..

---

(١) تعاديها . (٢) أي تختلط .

ولقد كانت له آية من آيات الشهداء فى كثير من صفاته ، وكثير من معارض حياته ، وطوارىء أوقاته ..

وكانت له فى الامامة آية أخرى من هذه الآيات ..

فآية الشهداء أنهم يبخسون[1] حقهم فى الحياة ، ثم يعطون فوق حقوقهم بعد الممات ..

أو هم يعرضون لنا عجائب الدنيا فى اقبالها وادبارها ، كما قال الامام رضى الله عنه : « انها اذا أدبرت عن انسان سلبته محاسن نفسه ، واذا أقبلت عليه أعارته محاسن غيره »

وكذلك اتفق للامام فى صفة الامامة ، كما اتفق له فى معظم الصفات..

فقلَّ أن سمعنا بعلم من العلوم الاسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب اليه ، وقلَّ أن تحدث الناس بفضل لم ينحلوه[2] اياه ، وقلَّ أن توجه الثناء بالعلم الى أحد من الأوائل الا كانت له مساهمة فيه ..

نحلوه ديوانا من الشعر فيه عشرات من القصائد ، وليس بينها الا عشرات من الأبيات تصح نسبتها اليه ..

ونحلوه علما سموه علم « الجفر » وزعموا انه علم النجوم والازياج الذى يكشف عن حوادث الغيب الى آخر الزمان

ونحلوه مقامات تخلو من أشيع الحروف فى الكلمات وهو حرف الألف ، ولا يعقل أن تظهر أشباه هذه المقامات قبل عصر الصناعة فى أيام العباسيين وما تلاها ..

ونحلوه من مصطلحات علم الكلام أقوالا لم تعرف ، ولا يعقل أن تعرف قبل ترجمة المفردات الاغريقية بما لها من غرائب النحت والاشتقاق

وبعض ما نحلوه يزيده قدرا ويرفعه شأنا ، الا تصح نسبته اليه ..!

وبعض ما بقى له غير مشكوك فيه ولا مختلف عليه .. كاف لتعظيم قدره واثبات امامته فى عصره ، وبعد عصره

وعندنا انه رضى الله عنه كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه ، وكان نقده للشعراء نقد عليم بصير ، يعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف

---

(١) ينقصون . (٢) يعطوه .

وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب ، ومن بصره بوجوه المقابلة بينهم انه سئل : « من أشعر الناس ؟ » قال : « ان القوم لم يجروا فى حلقة تعرف الغاية عند قصبتها .. فان كان ولا بد فالملك[١] الضليل » [٢]

وهذا فيما نعتقد أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب «المدارس» والأغراض الشعرية بين العرب . فلا تكون المقابلة الا بين أشباه وأمثال ولا يكون التعميم بالتفضيل الا على التغليب

لكنه رضى الله عنه لم يرزق ملكة الاجادة فى شعره ، والنبى عليه السلام يرى ذلك حيث سألوه أن يأذن لعليّ فى هجاء المشركين فقال : « ليس بذاك » .. وأحالهم الى حسان بن ثابت ، وندب له من يبصره بمثالب[٣] القوم ..

وكل شعره الذى رجحت نسبته اليه من قبيل هذه الأبيات التى وصف بها قبيلة همدان فى وقعة صفين :

ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا[٤] فوارسها حمر النحور دوام
وأعرض نقع[٥] فى السماء كأنه عجاجة[٦] دجن[٧] ملبس بقتام[٨]
ونادى ابن هند فى الكلاع وحمير وكندة فى لخم وحى جذام
تيممت همدان الذين هم هم اذا ناب دهر جنتي[٩] وسهامى
فجاوبنى من خيل همدان عصبة فوارس من همدان غير لئام
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها وكانوا لدى الهيجاء[١٠] كشرب مدام
فلو كنت رضوانا على باب جنة لقلت لهمدان : ادخلوا بسلام

أو من قبيل هذه الأبيات :

محمد النبى أخى وصهرى وحمزة سيد الشهداء عمى
وجعفر الذى يمسي ويضحى يطير مع الملائكة ابن أمى
وبنت محمد سكنى وعرسى منوط لحمها بدمى ولحمى
وسبطا[١٠] أحمد ولداى منها فأيكم له سهم كسهمى

---

(١) أي امرؤ القيس . (٢) أي عيوب . (٣) بالرماح . (٤) غبار .
(٥) دخان . (٦) الدجن : الباس الغيم السماء . (٧) الغبار . (٨) وقايتي .
(٩) الحرب . (١٠) ولد الولد .

سبقتكم الى الاسلام طرا[1] صغيرا ما بلغت أوان حلمى
وصليت الصلاة وكنت فردا فمن ذا يدعى يوما كيومى

وقد نظم شعرا ولا ريب ، كما يدل سؤالهم النبى عليه السلام أن يأذن له فى هجاء من هجاهم ، ولم ينسب اليه شعر .. صح أو لم يصح ، أجود مما قدمناه . وليس فيه ما يسلكه بين المجودين من الشعراء ، أو يلحق بطبقته[2] بين الكتاب والخطباء ..

***

أما كتاب الجفر أو علم الجفر ، فالقول الفصل فيه أقرب من القول الفصل فى جميع ما نحلوه وأضافوا اليه .. فمثل عليّ فى تقواه وفضله ، لا يشتغل بعلم مزعوم هو السحر القديم بعينه ، وليس هو مما يليق بورعه ولا ذكائه . وقد نهى وشدد النهى عن تعلم النجوم واستطلاع الغيب بأمثال هذه العلوم ، ومن المحقق الذى لا خلجة فيه من الشك عندنا أن النبوءات التى جاءت فى نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف وفتنة الزنج وغارات التتار وما اليها ، هى من مدخول الكلام عليه .. ومما أضافه النساخ الى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير أو طويل ..

ولا نجزم مثل هـذا الجزم فى أمر المقامات التى خلت من بعض الحروف ، لأن العقل لا يمنعها قطعا كما يمنع استطلاع الغيب المفصل من ازياج النجوم ، ولكننا نستبعد جدا أن تكون هذه المقامات من كلام الامام لاختلاف الأسلوب واختلاف الزمن ، وحاجة النسبة هنا الى سند أقوى من السند الميسر لنا بكثير

وكذلك نستبعد انه قال لكاتبه ليظهر علمه بغريب اللغة : « ألصق روانفك بالجبوب وخذ المزبر بشناترك واجعل حندورتيك الى قيهلى حتى لا أنفى نفية الا أودعتها بحماطة حلجلانك »

أى « الصق مقعدك بالأرض وخذ القلم بما بين أصابعك واجعل عينيك الى وجهى حتى لا ألفظ بلفظة الا وعيتها فى سواد قلبك »

---

(١) جميعا . (٢) طبقته : منزلته ومكانته .

فان الولع باظهـار العلم بالغريب بدعة لم تعرف فى صدر الاسلام ، ولم يلتفت الناس الى ادعائها الا بعد استعجام العرب وندرة العارفين

ومثل هذا ، ما نسبوه اليه حيث زعموا انه قال : «ماتربعلبنت قط» أى ما شربت اللبن يوم الأربعاء ، و « ما تسبتسمكت قط » أى ما أكلت السمك يوم السبت « وما تسرولقمت قط » أى ما لبست السراويل قائما .. الى أشباه هذه المخترعات التى تستغرب لفظا ومعنى واعتقادا من رجل كالامام فى صدر الاسلام

***

الا اننا نسقطها جميعا ، فلا نسـقط بها فضـلا ترجح به موازين الامام فى حساب الثقافة .. بل نحسبها فضلا ــ ان شئنا ــ ونسقطها فيبقى له بعدها السهم الراجح فى تلك الموازين ..

تبقى له الهداية الأولى فى التوحيد الاسلامى ، والقضاء الاسلامى ، والفقه الاسلامى ، وعلم النحو العربى ، وفن الكتابة العربيـة .. مما يجوز لنا أن نسميه أساسا صالحا لموسوعة المعارف الاسلامية فى جميع العصور ، أو يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الاسلامية كلها فى الصدر الأول من الاسلام ..

وتبقى له مع هـذا فرائد الحـكمة التى تسجل له فى ثقافة الأمة الاسلامية ، على تباين[1] العصور ..

ففى كتاب نهج البلاغة ، فيض من آيات التوحيد والحكمة الالهية تتسع به دراسة كل مشتغل بالعقائد وأصول التأليه وحكمة التوحيد

وربما تشكك الباحث فى نسبة بعضها الى الامام لغلبة الصيغة الفلسفية عليها وامتزاجها بالآراء والمصطلحات التى اقتبست بعد ذلك من ترجمة الكتب الاغريقية والأعجمية ، ولاسيما الكلام على الأضـداد والطبائع والعدم والحدود والصفات والموصـوفات ، ولكن الذى يقرؤه الباحث ولا يشك فى نسبته الى الامام أو فى جواز نسـبته اليه ، قسط واف لتحقيق رأى القائلين بسبق الامام فى مضمار علم الكلام ، واعتراف

(١) أي اختلاف ٠

المعترفين له بالأستاذية الرشيدة لكل من لحق به من أصحاب الآراء والمقولات . وهو على جملته خير ما يعرف به المؤمن ربه وينزه به الخالق فى كماله ، ومن أمثلته قوله : « الحمد لله الذى لم يسبق له حال حالا ، فيكون أولا قبل أن يكون آخرا ، ويكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا ، كل مسمى بالوحدة غيره قليل ، وكل عزيز غيره ذليل ، وكل قوى غيره ضعيف ، وكل مالك غيره مملوك ، وكل عالم غيره متعلم ، وكل قادر غيره يقدر ويعجز ، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ، ويصمه كبيرها ، ويذهب عنه ما بعد عنها ، وكل بصير غيره يعمى عن خفى الألوان ولطيف الأجسام ، وكل ظاهر غيره باطن ، وكل باطن غيره ظاهر ، لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان ولا تخوف من عواقب زمان ، ولا استعانة على من شاور ، ولا شريك مكاثر ، ولا ضد منافر ، ولكن خلائق مربوبون وعباد داخرون — أى ضارعون — لم يحلل فى الأشياء فيقال هو فيها كائن ، ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن ، لم يؤده خلق ما ابتدأ ولا تدبير ما ذرأ[١] ، ولا وقف به عجز عما خلق ، ولا ولجت[٢] عليه شبهة فيما مضى وقدر ، بل قضاء متقن ، وعلم محكم وأمر مبرم[٣] . »

أما القضاء والفقه ، فالمشهور عنه انه كان أقضى أهل زمانه وأعلمهم بالفقه والشريعة .. أو لم يكن بينهم من هو أقضى منه وأفقه وأقدر على اخراج الأحكام من القرآن والحديث والعرف المأثور . وكان عمر ابن الخطاب يقول كلما استعظم مسألة من مسائل القضاء العويصة[٤] : قضية ولا أبا حسن لها : لأنه كان فى هذه المسائل يتجاوز التفسير الى التشريع ، كلما وجب الاجتهاد بالرأى الصائب والقياس الصحيح ..

وفى أخباره ، ما يدل على علمه بأدوات الفقه كعلمه بنصوصه وأحكامه.. ومن هذه الأدوات علم الحساب الذى كانت معرفته به أكثر من معرفة فقيه يتصرف فى معضلات المواريث ، لأنه كان سريع الفطنة الى حيله التى كانت تعد فى ذلك الزمن ألغازا تكد[٥] فى حلها العقول ، فيقال : ان امرأة جاءت اليه وشكت اليه أن أخاها مات عن ستمائة دينار ، ولم

(١) خلق . (٢) أي دخلت . (٣) أبرم الامر : أحكمه . (٤) أي الصعبة الحل . (٥) تتعب .

يقسم لها من ميراثه غير دينار واحد .. فقال لها : لعله ترك زوجة وابنتين وأما واثنى عشر أخا وأنت ؟ .. فكان كما قال

وسئل يوما فى أثناء الخطبة عن ميت ترك زوجة وأبوين وابنتين . فأجاب من فوره : صار ثمنها تسعا . وسميت هذه الفريضة بالفريضة المنبرية ، لأنه أفتى بها وهو على منبر الكوفة ..

وفى هذه الاجابات ، دليل على الذكاء وسرعة البديهة .. فضلا عن الدلالة الظاهرة على العلم بالمواريث والحساب ..

واذا قيل فى قضائه انه لم يكن أقضى منه بين أهل زمانه ، صح أن يقال فى علم النحو انه لم يكن أحد أوفر سهما[١] فى انشاء هذا العلم من سهمه . وقد تواتر أن أبا الأسود الدؤلى شكا اليه شيوع اللحن على ألسنة العرب ، فقال له : أكتب ما أملى عليك ، ثم أملاه أصولا منها : ان كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل .. وان الأشياء ثلاثة : ظاهر ، ومضمر ، وشىء ليس بظاهر ولا مضمر .. وانما تتفاوت العلماء فى معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر .. يعنى اسم الاشارة على قول بعض النحاة ، ثم قال لأبى الأسود : انح هذا النحو يا أبا الأسود .. فعرف العلم باسم النحو من يومها

وهذه رواية تخالفها روايات شتى تستند الى المقابلة بين اللغات الأخرى فى اشتقاق أصولها النحوية ، ولا سيما السريانية واليونانية .. ولكن الروايات العربية لا تنتهى بنا الى مصدر أرجح من هذا المصدر ، وغيرها من الروايات الأجنبية والفروض العلمية لا يمنع عقلا أن يكون الامام أول من استنبط الأصول الأولى لعلم النحو العربى من مذاكرة العلماء بهذه الأصول بين أبناء الأمم التى تغشى الكوفة وحواضر العراق والشام ، وهم هنالك غير قليل ، ولا سيما [illegible]ين سبقوا الى تدوين نحوهم ، وفيه مشابهة كبيرة لنحو اللغة العربية

وليس الامام على أول من كتب الرسائل ، وألقى العظات ، وأطال

(١) أوفر سهما : أكثر حظا .

الخطب على المنابر فى الأمة الاسلامية ..

ولكنه ولا ريب أول من عالج هذه الفنون معالجة أديب ، وأول من أضفى[1] عليها صبغة الانشاء الذى يقتدى به فى الأساليب .. لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة مبلغين لا صياغة منشئين ، ويقصدون الى أداء ما أرادوه ولا يقصدون الى فن الأداء وصناعة التعبير ، ولكن الامام عليا تعلم الكتابة صغيرا ودرس الكلام البليغ من روايات الألسن وتدوين الأوراق ، وانتظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهة الأولى الى طور التفنن والتجويد.. فاستقام له أسلوب مطبوع مصنوع ، هو فيما نرى أول أساليب الانشاء الفنى فى اللغة العربية ، وأول أسلوب ظهرت فيه آثار دراسة القرآن والاستفادة من قدوته وسياقه ، وتأتى له بسليقته[2] الأدبية أن يأخذ من فحولة البداوة ومن تهذيب الحضارة ، ومن أنماط التفكير الجديد الذى أبدعته المعرفة الدينية والثقافة الاسلامية .. فديوانه الذى سمى « نهج البلاغة » أحق ديوان بهذه التسمية بين كتب العربية ، واشتماله على جزء مشكوك فيه لا يمنع اشتماله على جزء صحيح النسبة اليه صحيح الدلالة على أسلوبه ، وربما كانت دلالة الأخلاق والمزاج فيه أقوى وأقرب الى الاقناع من دلالة الأسانيد التاريخية ، لأن طابع « الشخصية العلوية » فيه ظاهر من وراء السطور ومن ثنايا الحروف ، يوحى اليك حيثما وعيته أنك تسمع الامام ولا تسمع أحدا غير الامام ، ويعز عليك أن تلمح فيه غرابة بين صاحب التاريخ وصاحب الكلام ..

على اننا نبالغ ما نبالغ فى تمحيص المنحول وغير المنحول من أقوال الامام ومن فنون ثقافته العامة ، ثم تبقى لنا بقية تسمح لنا — بل توجب علينا — أن نسأل : كيف يتسنى العلم بهذا لأى كان من الناس فى مثل ذلك الزمان ؟ ..

والسؤال لابد منه ، ولا نظن قارئا من قراء تاريخ الامام لم يخطر هذا السؤال بباله ولم يرد على لسانه

---

(١) أضفى : أسبغ . (٢) سليقته : أي طبيعته .

ولكن لابد معه من تصحيح الباعث[1] عليه لتصحيح الجواب عنه بعد ذلك ..

فالباعث عليه أننا نبالغ فى تجريد البداوة العربية من الصلات المعقولة بالثقافة العالمية ، سواء كانت من ثقافة العلم والدرس أو ثقافة التواتر والتلقين ..

لكن البداوة العربية لم تكن فى الواقع معزولة عن ثقافة الأمم المحيطة بها تلك العزلة التى تخطر لنا للوهلة الأولى ، فقد كانت على اتصال بعقائد الهند وفارس والروم ، وكانت للمعارف الانسانية أشعتها التى تتخلل الجزيرة العربية من قديم العصور

وحسبنا من أمثلة ذلك ، مثال واحد فى معسكر الامام نفسه يغنى عن الأمثلة من قبيله ..

وذلك هو مثال عبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء ، وهو يهودى ابن زنجية مولود فى بلاد اليمن ، ومذهبه الذى اشتهر به هو مذهب الرجعة الذى يجمع فيه بين قول اليهود بظهور المنقذ من أبناء داود ، وقول أهل الهند بظهور الاله الذى يتقمص جسم انسان ، وقول النصارى بظهور المسيح ، وقول أهل فارس بتقديس الأوصياء من أقرباء الملوك والأمراء ..

فهذه عقيدة لا تظهر من رجل يمنى من أهل الجزيرة ، اذا تخيلنا أن الجزيرة فى حضارتها أو بداوتها بمعزل عن ثقافات الهند والفرس والروم وبنى اسرائيل ، وأن الأمة العربية تخلو من أناس سمعوا بالعقائد والفلسفات من طريق القدوة الدينية ، أو طريق المحاكاة الاجتماعية ، أو طريق الدراسة والسماع ..

وقد كانت عاصمة الامام فى الكوفة .. وكانت مثابة[2] الغادين والرائحين من أبناء الحضارات المعروفة فى العالم بأسره ، ومن المسلمين الذين عاشوا بها أو بجوارها أناس كانوا ينظرون فى كتب الفرس ويعجبون بحكمتها كما جاء فى سيرة عمر بن الخطاب ، ومنهم من كان

(١) أي الدافع (٢) المثابة : الموضع الذي يرجع اليه مرة بعد أخرى .

ينظر فى النجوم على طريقة الفرس والروم ، وحذر بعض هؤلاء الامام أن يسير الى حرب الخوارج فى طالع كوكب من الكواكب المنحوسة ، فقال له : « أتزعم أنك تهدى الى الساعة التى من سـار فيها صرف عنه السوء .. فمن صدق بهذا فقـد كذب القرآن ، واستغنى عن الاستعانة بالله فى نيل المحبوب ودفع المكروه » ..

***

ثم أقبل على الناس بالنصح والموعظة ، قائلا : « اياكم وتعلم النجوم ، الا ما يهتـدى به فى بر أو بحر .. فانها تدعو الى الكهانة ، والمنجم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر فى النار !»

وقد لبث على بن أبى طالب زهاء ثلاثين سنة منقطعا أو يكاد ينقطع عن جهـاد الحكم والسياسـة ، متفرغا أو يكاد يتفرغ لفنون البحث والدراسة .. يتأمل كل ما سمع ، ويراجع كل ما قرأ ، ويعرف كل ما يعرف ، ممن يلقاه ، ويستطلع أنباءه وآراءه وقضاياه .. فمهما يكن قسط الثقافة العالمية قليلا فى بلاد الاسلام على تلك الأيام .. ففيه ولا ريب الكفاية للعقل اليقظان والبصيرة الواعية أن تفهم ما قد فهمه الامام ، وأن يثبت ما أثبته نهج البلاغة من الخواطر والأحكام ..

على أن هذه الفنون من الثقافة ــ أو جلتها [1] انما تعظم بالقياس الى عصرها والجهود التى بذلت فى بدايتها

فحصة الامام من علم النحو ــ مثلا ــ عظيمة لأن الابتداء بها أصعب من تحصيل المجلدات الضخام التى دونها النحاة بعد تقدم العلم وتكاثر الناظرين فيه ..

***

وهكذا يقال فى الحساب والمسائل العلمية التى من قبيله ، فلا يجوز لنا أن نقيسها بمقياس العصر الحاضر .. وهى فى ابتـدائها أصعب جدا منها فى أطوارها التى لحقت بها بعد نمائها واستفاضة البحث فيها ..

أما فن الثقافة الذى يقاس بمقياس كل زمن ، فاذا هو عظيم فى جميع

---

(١) أي معظمها .

هذه المقاييس ، قليل الفوارق بين البدايات منه والنهايات ، فذلك هو فن الكلم الجامعة أو فرائد الحكمة التى قلنا آنفا انها تسجل له فى ثقافة الأمم عامة كما تسجل له فى ثقافة الأمة الاسلامية ، على تباين العصور

فالكلم الجوامع التى رويت للامام طراز لا يفوقه طراز فى حكمة السلوك على أسلوب الأمثال السائرة

وقد قال النبى عليه السلام : « علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل »

فهذا الحديث الشريف أصدق ما يكون على الامام علي فى حكمته التى تقارن بحكم أولئك الأنبياء ..

فهى من طراز الحكم المأثورة عن أشهر أولئك الأنبياء بالمثل السائر وهو سليمان بن داود .

***

ويزيد عليها أنها أبدع فى التعبير ، وأوفر نصيبا من ذوق الجمال ، كقوله مثلا : « نفس المرء خطاه الى أجله » .. أو قوله : « من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة » .. أو قوله : « المرء مخبوء تحت لسانه » أو قوله : « الحلم عشيرة » .. أو قوله : « من لان عوده كثفت أغصانه » أو قوله : « كل وعاء يضيق بما جعل فيه الا وعاء العلم فانه يتسع » الى أشباه هذه التعبيرات الحسان التى تحار فيها أى مزاياها أفضل وأقوم : صدق المعنى ، أو بلاغة الأداء ، أو جودة الصناعة ..

وبعض أقواله ينضح بدلائل « الشخصية » التى تلازم صاحب الفن الأصيل ، فتلبس معانيه لباسا من خوالج نفسه وأحداث زمانه ، كما قال : « صواب الرأى بالدول . يقبل باقبالها ويذهب بذهابها » أو كما قال : « ما أكثر العبر وأقل الاعتبار » .. أو كما قال : « شاركوا الذى أقبل عليه الرزق فانه أخلق للغنى وأجدر باقبال الحظ عليه » .. أو كما قال : « اذا هبت أمرا فقع فيه ، فان شدة توقيه أعظم مما تخاف منه » .. أو كما قال : « لا يقيم أمر الله - سبحانه الا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع » ..

وله عدا هذه الحكم التى تلونت بألوان نفسه أو ألوان زمانه ، حكم كثيرة تصدر من كل قائل يقدر عليها ، وتنفذ الى كل سامع يفطن لها كقوله : « كل معدود منقض وكل متوقع آت » أو قوله : « اذا كثرت القدرة قلت الشهوة » أو قوله : « أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه » .. أو قوله : « من نصب نفسه للناس اماما ، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره .. وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم » أو قوله : « الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤئسهم من روح الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله » .. أو قوله : « قيمة كل امرىء ما يحسنه » أو قوله : « العاقل هو الذى يضع الشىء مواضعه » أو قوله : « الصبر صبران : « صبر على ما تكره ، وصبر على ما تحب » أو قوله : « من ملك استأثر » أو قوله : « النـــاس أعداء ما جهلوا » .. أو قوله : « القرابة الى المودة أحوج من المودة الى القرابة » ..

وله فى المواقف المرتجلة كلمات هى أشبه الكلمات بأسلوب الحكمة السائرة .. فلما خرج وحده لبعض المهام التى تردد فيها أنصاره ، قالوا له يشـــيرون الى أعدائه : « يا أمير المؤمنين نحن نكفيكهم » فقال : « ما تكفوننى أنفسـكم فـكيف تكفوننى غيركم ؟.. ان كانت الرعايا قبلى لتشكو حيف[1] رعاتها ، واننى اليوم لأشكو حيف رعيتى ، كأننى المقود وهم القادة ، أو الموزوع وهم الوزعة[2] »

ورثى محمدا بن أبى بكر حين بلغه مقتله على أيدى أصحاب معاوية فقال : « ان حزننا عليه قـدر سرورهم به ، الا أنهم نقصوا بغيضـا ونقصنا حبيبا » ..

فكل نمط من أنماط كلامه ، شـاهد له بالملـكة الموهوبة فى قدرة الوعى وقدرة التعبير .. فهو ولا شك من أبنـاء آدم الذين علمـوا الأسماء وأوتوا الحكمة ، وفصل الخطاب

وقد أخطأ « موير » Moyer المؤرخ الانجليزى حين قال : ان عليا

---

(١) أي ظلم . (٢) جمع وازع ، وهو من يتقـدم الصف فيصلحه ، ويقدم ويؤخر .

حكيم كسليمان ، وهو مثله حكمته لغيره .. يعنى أنه ينصح النــاس ولا ينتفع بالنصيحة ، فان « موير » أحجى[١] أن يفرق بين عمل الانسان بنصحه وبين انتفاعه بنصحه . ولا شك أن عليًّا كان من العاملين بما يقولون ومن المنتصحين بما ينصح به الناس . أما انه ينتفع بحكمته ، فالطبيب لا يقدح[٢] فى علمه أنه قد أعياه[٣] علاج نفسه بغبه .. فقد يكون الاخفاق من استعصاء الداء لا من صحة الدواء .

ولا يفوتنا ان بعض هذه النصائح ، قد نسب الى قائلة من الأوائل غير الامام رضى الله عنه ، وهذا يستطرد بنا مرة أخرى الى الصحيح والمنحول من كلام الامام الذى جمعه الشريف الرضى فى «نهج البلاغة» وفرغ من جمعه بعد مقتله بزهاء أربعة قرون ، وهو بحث يخرج بنا من موضوع هذا الكتاب الى دراسة أدبية ليست من أغراضنا الخاصــة فى التعريف بعبقرية الامام .. فحسبنا أن أسلوب الامام معروف فى بعض ما ثبت له من رسائله وخطبه ، وان طابع هذا الأسلوب شائع فى الكتاب لا تقدح فيه كلمة ظاهرة التلفيق هنا أو كلمة ظاهرة الاقحام هناك ، أوكلمات يقع فيها الالتباس لاختلاف الصناعة أو اختلاف التفكير . فنحن لا نخطىء أن نرى فى هذه الخطب والرسائل والأمثال وحدة تتصل حيناً ، وتنقطع حينا ، كالوحدة التى نراها بغير انقطــاع فى كتب الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد .. وهذه الوحدة وحدها مغنية لنا فى تبيان ثقافة الامام ، أو تذوق أسلوبه الذى لا تخطىء فيه مرة جزالة البادية وصقل الحاضرة وحسن البداهة وامتزاج الصناعة بالطبع الذى لا تكلف فيه ..

ولا يتم القول فى ثقافة الامام علي رضى الله عنه ، ما لم نتممه بالقول فى نصيــبه من الثقافة العسكرية أو فن الحرب ، الذى هو مضماره[٤] الأول ومناط شهرته التى تبرز فيها صفة الشجاعة قبل كل صفة ، وكفاءة المناضل قبل كل كفاءة ..

فجملة ما يقال فى هــذا الصدد ، أن فن الامام العسكرى هو فن

(١) أي أجدر ۰ (٢) يطعن ۰ (٣) أي استعصى عليه ۰ (٤) المضمار : الموضع تضمر فيه الخيل ، وغاية الفرس في السباق ۰

البطل المغوار الذى يناضل الأفراد وينفع الجيش الذى هو فيه بقدوة الشجاعة واذكاء[1] الحماســة وتعزيز الثقة بين صفوفه ، وانه يعرف كيف يكون الهجوم حيث يجب الهجوم ، وكيف يحتال على عدوه بمـا يخلع قلبه ويفت فى عضده[2] .. ومن حيله المشهورة فى توهين[3] عزم عدوه ، انه أمر بعقر الجمل فى الوقعة المعروفة باسمه ، لأنه كان علم القوم الذين كانوا يلتفون به ويثبتون بثبوته ..

وهـــذا كله فن البطل المغوار الذى يفرق العسكريون بينــه وبين خطط القيادة وفنون التعبئة وتحريك الجيوش ..

ولم يرد لنا من أنباء الامام فى هـــذا الباب ما نحكم به على قيادته العسكرية بهذا الاعتبار ..

نعم .. انه كان يقســم جيشــه الى ميمنة وميسرة وقلب وطليعــة ومؤخرة ، وأشباه ذلك من التقسيمات التى جرى عليها فى وقعة صفّين على التخصيص ..

وكانت له وصاياه المحفوظة فى تسيير الجيوش وتأديب الجند ومعاملتهم لسكان البلاد ، ومنها قوله : « اذا نزلتم بعدو أو نزل بكم ، فليكن معسكركم من قبل الاشراف[4] وسفاح الجبـــال ، أو أثناء الأنهار ، كيما يكون لكم رداء ودونكم ردا ، ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا لكم رقباء فى صياصى[5] الجبال ومناكب الهضاب ، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخـافة أو أمن ، واعلمــوا أن مقدمة القوم عيونهم ، وعيون المقدمة طلائعهم ، واياكم والتفرق فاذا نزلتم فانزلوا جميعا واذا ارتحلتم فارتحلوا جميعا ، واذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كفة ـــ أى محيطة بكم ـــ ولا تذوقوا النوم الا غرارا أو مضمضة » ..

ومنها قوله : « ولا تسر أول الليل ، فان الله جعله سكنا وقدره مقاما لا ظعنا[6] » ومنها قوله للولاة : « انى سيرت جنودا هى مارة بكم ان شـــاء الله ، وقـــد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى وصرف

(١) أي اشعالها . (٢) أي يضعف في قوته . (٣) أي تضعيف .
(٤) أي الاماكن المرتفعة . (٥) الحصون . (٦) الظعن : السير والرحال .

الشذى[1] ، وأنا أبرأ اليكم والى ذمتكم من معرة الجيش الا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذهبا الى شعبه ، فنكلوا من تناول منهم شيئا ظلما عن ظلمهم ، وكفوا أيدى سفهائكم عن مضارتهم والتعرض لهم .. »

وهذه وما هو من قبيلها ، مناهذ موروثة أو أدب هو أقرب الى نظام الادارة منه الى خطط التعبئة وقيادة الميدان ..

وعلى كونه قد اتبع هذه التقسيمات والمناهج فى وقعة صفين ، لم تكن الوقعة كلها الا مناوشات هجوم ودفاع بين طوائف متفرقة فى أوقات متباعدة .. كأنها ضرب آخر من ضروب فن الحرب على طريقة الفارس المناضل والبطل المفرد فى موقف المبارزة أو فى غمار الصفوف .

***

وخلاصة ذلك كله ، ان ثقافة الامام هى ثقــافة العلم المفرد والقمة العالية بين الجماهير فى كل مقام ..

وانها هى ثقافة الفــارس المجاهــد فى سبيل الله ، يداول بين القلم والسيف ، ويتشابه فى الجهاد بأسه وتقواه .. لأنه بالبأس زاهد فى الدنيا مقبل على الله ، وبالتقوى زاهد فى الدنيا مقبل على الله ..

فهو فارس يتلاقى فى الشجاعة دينه ودنيــاه ، وهو عالم يتلاقى فى الدين والدنيا بحثه ونجواه ..

---

(١) بمعنى الأذى أيضا .

في بيتـه

خلاصة رأى الامام فى المرأة أنها « شر كلها .. وشر ما فيها انه لابد منها » ..

كان يرى لها فضائل خاصة تليق بها غير الفضائل التى تليق بالرجال وتحمد منه .. « فخيار خصال النساء شرار خصال الرجال .. الزهو ، والجبن ، والبخل .. فاذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها ، واذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها ، واذا كانت جبانة فرقت[1] من كل شىء يعرض لها » ..

والامام صائر الى رأيه هذا فى المرأة من كلتا طريقيه ، وهما طريق الحكيم الذى ينظر اليها على سنّة الحكمة القديمة ، وطريق العابد الذى ينظر اليها على سنّة العبادة فى جميع العصور .. ولكنه لا رأى الحكيم ولا حس العابد قد حجبه قط عن فطرته الغالبة عليه ، وهى فطرة الفارس المطبوع على آداب الفروسية ، ومنها التلطف بالمرأة والصفح عن عدوانها .. فما انتقم قط من امرأة لأنها أساءت اليه ، ولا غفل قط عن الوصية بها فى موطن يستدعى هذه الوصية . ومن أمثلة وصاياه فى هذا المعنى خطبته بين جنوده قبل لقاء العدو بصفين ، حيث يقول :

« لا تهيجوا النساء بأذى وان شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم ، فانهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول ، ان كنا لنؤمر بالكف عنهن وانهن لمشركات ، وان كان الرجل ليتناول المرأة فى الجاهلية بالقهر ــ أى الحجر ــ أو الهراوة فيعير بها وعقبه من بعده .. »

وقد كانت ميوله نحو المرأة قوية ، كما يظهر من غير حادث واحد ..

---

(١) فزعت .

ومن ذلك صبية السبى التى استولى عليها وبنى بها لساعتها ، وجعلها قسمه من الخمس قبل تقسيمه .. فرأى بعض أصحابه فى ذلك ما شكوه الى النبى عليه السلام من أجله ، وربما كان هذا سبب تحذيره منها فى الغزوات خيفة على الجيش من شواغلها ، فكان يقول لسراياه وجيوشه اذا شيعها : « اعزبوا[1] عن النساء ما استطعتم » ويوصى فى أمثال هذه المواطن باجتنابها ..

الا أنه كان يرى على ما يظهر أن امرأة تغنى عن سائر النساء ، فلم يعرف له هوى لامرأة خاصة من نسائه غير الهوى الذى اختص به السيدة فاطمة رضي الله عنها كرامة لمنزلتها عنده ومنزلتها عند أبيها ، وهو غير الهوى الذى تبعثه المرأة بمغريات جنسها .

كان جالسا فى أصحابه ، فمرت بهم امرأة جميلة ، فرماها القوم بأبصارهم .. فقال رضى الله عنه : « ان أبصار هذه الفحول طوامح ، وان ذلك سبب هياجها .. فاذا نظر أحدكم الى امرأة تعجبه فليلامس[2] أهله ، فانما هى امرأة كامرأة »

وعلى الجملة ، يمكن أن يقال ان آراء الامام فى المرأة هى خلاصة الحكمة القديمة كلها فى شأن النساء ..

فهن شر لابد منه باتفاق آراء الأقدمين ، سواء منهم حكماء الهند واليونان أو الحكماء الذين نظروا الى المرأة بعين الدين من أبناء بنى اسرائيل وآباء الكنيسة المسيحية وأئمة الاسلام .

لأنهم كانوا جميعا يمزجونها بالشهوات التى تثيرها عامدة أو غير عامدة ، ويلقون عليها تبعة الشرور التى تنجم عنها بمكيدتها أو على الرغم منها ، ولم تتغير هذه النظرة بعض التغير الا فى الأزمنة الحديثة التى نظرت فى استقلال التبعات على أساس « الحرية الشخصية » .. فحاسبت المرأة بما تجنيه ، وأوشكت أن تبالغ فى تبرئتها من جناياتها .

فمن السهو عن الحقيقة ، أن تتخذ آراء الأقدمين فى المرأة دليلا على نصيبهم من الغبطة أو السكينة فى حياتهم البيتية .. لأننا خلقاء أن

(١) أعزبوا : ابتعدوا · (٢) كناية عن الجماع ·

تحسبهم جميعا من الأشقياء المعذبين فى بيوتهم ، وهو ما تأباه البداهة وتأباه أنباء التاريخ عن كثير من الأزواج والزوجات النابهات

وليس من اللازم فى حياة الامام خاصة ، أن يستمد آراءه فى المرأة من حياته البيتية .. فقد كانت تجاربه فى الحياة العامة مددا لا ينفد لهذه الآراء التى شاغت بين الأقدمين حتى أوشكت ألا تحتاج الى تجربة مكررة ، وشاءت المقادير أن تنقضى حياة الامام عليّ وللمرأة يد فى القضاء عليها ، فكانت حياته الغالية مهرا لقطام التى قال فيها ابن أبى مياس المرادى :

ولم أر مهرا ساقه ذو سماحة كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب عليّ بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من عليّ وان غلا ولا فتك الا دون فتك ابن ملجم

والذى يجزم به مؤرخ الامام أن حياته البيتية خلت من شكاة لم يألفها الأزواج فى زمانه ، وانها كانت على أحسن ما وصفت به الحياة الزوجية بين أمثاله ..

عاش مع فاطمة رضى الله عنها ، لا يقرن بها زوجة أخرى .. حتى ماتت بعد موت النبى عليه السلام بستة أشهر .. وهى رعاية لها ورعاية لمقام أبيها لاشك فيها ، فقد كان النبى عليه السلام كما جاء فى الاثر يغار لبناته غيرة شديدة ، وروى عنه انه قال وهو على المنبر مرة : « ان بنى هشام ابن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبى طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، الا أن يريد علي بن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم .. فانها بضعة منى يريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها »

وربما كان من وفائه لها غضبه لغضبها ، فأحجم عن مبايعة أبى بكر الى ما بعد وفاتها على بعض الروايات ، وهجره كما هجرته مدة حياتها . وقد ولدت له أشهر أبنائه وبناته : الحسن ، والحسين ، ومحسن ، وأم كلثوم ، وزينب ، وماتت ولم تبلغ الثلاثين .

وتزوج بعدها تسع نساء رزق منهن أبناء وبنات يختلف فى عددهم

المؤرخون ، ويؤخذ من احصائهم فى « الرياض النضرة » للمحب الطبرى انه رضى الله عنه وافر الحظ من الذرية ، بقى منهم بعده كثيرون

وكان على ما يفهم من خلائقه ، ومن سيرته وأخبـاره ، أبا سمحا يستريح الأبناء الى عطفـه ، ويجترئون على مساجلته الرأى فى أخطر ما ينوبه من الأحداث الجسام ..

لما توجه طلحة والزبير نحو العراق ، ومعهما السيدة عائشة رضى الله عنها ، جاءه ابنه الحسن بعد صـلاة الصبح فقال له : « قد أمرتك فعصيتنى ، فتقتل غدا بمضيعة لا ناصر لك فيها » فسأله : « وما الذى أمرتنى فعصيتك ؟ » قال : « أمرتك يوم أحيط بعثمان رضى الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ، ثم أمرتك يوم قتل ألا تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر .. فانهم لن يقطعوا أمرا دونك فأبيت .. ثم أمرتك حين فعل هـذان الرجلان ما فعلا أن تجلس فى بيتـك حتى يصـطلحا .. فان كان الفسـاد كان على يدى غـيرك ، فعصيتنى فى ذلك كله ! » ..

فلم يأنف أن يساجله الرأى ليقنعه ، وجعل يقول له : « أى بنى !.. أما قولك لو خرجت من المدينـة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به ، وأما قولك لا تبايع حتى تأتى بيعة الأمصـار فان الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هـذا الأمر ، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير فان ذلك كان وهنا على أهل الاسلام .. وأما قولك : اجلس فى بيتك فكيف لى بما قد لزمنى ؟ .. ومن تريدنى ؟ .. أتريد أن أكون مثل الضبع التى يحاط بها ويقال : دباب دباب[1] .. ليست هنا حتى يحل عرقوباها ثم تخرج .. واذا لم أنظر فيمـا لزمنى من الأمر ويعنينى ، فمن ينظر فيه ؟ .. فكف عنك أى بنى »

وهذه معاملة « أخوة » تستغرب فى الأجيال الماضية التى كان للأبوة فيها على البنين سيادة تقرب من سيادة المولى على الرقيق ، ولا ينقضها انه لطم الحسن يوما لأنه ظن به تقصيرا فى الدفاع عن عثمان .. فتلك

---

(١) دعاء ينادى به الضبع .

سورة[1] الغضب فى موقف من أندر المواقف التى لا يقاس عليها فى سائر الأحوال ..

وكان رضى الله عنه ، يزهيه[2] أن يحيط به أبنــاؤه فى محافل[3] الروع[4] ومشاهد الزخرف .. فيخرج اليها وهم حافون به عن يمينه وشـــماله ، ومنهم من يحمل اللواء بين يديه ، وذلك زهو الشجاع الفخور بأشباله الشجعان ..

واشتهر بالعطف على صغارهم ، كما اشتهر بمودة كبارهم .. فكان أحب شىء اليه أن يداعبهم أو يرى من يداعبونهم ، وكانت له طفــلة ذكية ولدتها له زوجة من بنى كلب يخرج بها الى المسجد ويسره أن يســألها أصحابه : من أخوالك ؟ .. فتجيب : « وه .. وه » محاكاة لعواء الكلاب ..

وكان يقول : « ان للوالد على الولد حقا ، وان للولد على الوالد حقا .. فحق الوالد على الولد أن يطيعه فى كل شىء الا فى معصية الله سبحانه ، وحق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعلمه القرآن » ..

ومن احسان التسمية ، انه همّ بتسمية ابنه حربا لأنه يرشحه للجهاد وهو أشرف صناعاته ، لولا أن رسول الله سماه الحسن ، وهو أحسن .. فجرى على هذا الاختيار فى تسمية أخويه الحسين والمحسن . وأتم حق أبنائه فى احسان أسمائهم ، فاختار لهم أسماء النبى وأسلافه من الخلفاء : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان

أما معيشته فى بيته بين زوجاته وأبنائه ، فمعيشة الزهد والكفاف .. و[illegible] ، فيها انه كان يتفق له أن يطحن لنفسه ، وأن يأكل الخبز اليابس الذى يكسره على ركبته ، وأن يلبس الرداء الذى يرعد فيه ، وان أحدا من رعاياه لم يمت عن نصيب أقل من النصيب الذى مات عنه وهو خليفة المسلمين .. وكان الخليفة يوم كانت الخــلافة تناقض ملك الدنيا .. فكان بيته نقيض القصر الذى تعرض الدنيا المملوكة بين أركانه وزواياه ..

---

(١) سورة أي حدة · (٢) من معاني الزهو : المنظر الحسن ، والفخر ، والكبر · (٣) أي مجتمعات · (٤) الفزع ·

صورة مجملة

من كلمات الامام التى لم يقلها أحد غيره كلمته فى خطاب الدنيا حيث يقول : « يا دنيا غرى غيرى .. غرى غيرى ! »

وانها لأكثر من كلمة ، وأكثر من دعاء ..

انها لسان قدر ، وعنوان حياة ..

فقــد خلق الامام ، وفى كل خليقــة من خلائقه الكبار اجتراء على الدنيا ، على ضرب من ضروب الاجتراء

خلق شجاعا بالغا فى الشجاعة ، وزاهدا عظيم الزهد ، ودارسا محبا للحقيقة الدينية يتحرّاها حيث اهتدى اليها ..

والشجاع جرىء على الدنيا لأنه لا يبالى الحياة ..

والزاهد جرىء على الدنيا لأنه لا يبالى النعيم ..

وطالب الحقيقة جرىء على الدنيــا لأنها طريق عنــده الى غاية من ورائها ..

فأى مصير لهذا الرجل غير الشــهادة فى زمن لم يعرف بطارىء من الطوارىء ، كما عرف بالاقبال على الدنيا ؟ ..

صــام النــاس قبله عن الدنيــا ، ثم أقبلوا على الدنيــا العريضة بحذافيرها ..

هــدأت حماسة الدعوة النبوية ، وثابت[1] الطبائع الى مألوفها الذى اشرجت عليه ، وتدفقت الأموال من الأمصار المفتوحة على نحو لم تعهده الجزيرة العربية قط فى تاريخها القديم ..

وأقبل الناس على الدنيا ، بل هرولوا الى الدنيا ..

---

(١) ثابت : رجعت •

واذا بخليفة جرىء عليها زاهد فيها ، يقف لهم فى طريقها ويصدهم عنها ..

يصد ماذا ؟..

يصد الطوفان ، وهو مندفع من وراء السدود ..

يصد الطبيعة الانسانية ، وهى منطلقة من عقال التقوى ..

يصد ما لا سبيل الى صده بحال ..

فهو مستشهد لا محالة ولو مات على سريره .. فان الانسان قد يعيش عيشة الشهداء ، ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء ..

وقد لزمته آية الشهادة فى كل قسمة كتبت له ، وكل حركة سعى اليها أو سعت اليه ..

فمن آيات الشهادة أن يساق الى الخلافة ، ولا حيلة له فى اجتنابها ..

ومن آيات الشهادة أن يساق اليها فى ساعة الفصل بينها وبين الملك ، وتقوم الحوائل كلها بينه وبينها قبل الأوان ..

ومن آيات الشهادة أن يساق اليها ، ولا حيلة له فى تحقيق أغراضها ولا فى الخروج من مآزقها ..

ومن آيات الشهادة أن يبتلى بأنصاره أشد من بليته بأعدائه ، ولا حيلة فى تبديل أولئك الأنصار ..

ومن آيات الشهادة ألا تغره الدنيا ، وقد غرت حوله كل انسان ..

فهو شهيد ، شهيد ، شهيد ..

خرج الى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه ، وخرج منها والشهادة مكتوبة على ذلك الجبين بضربة حسام[1]..

وصورته المجملة لا تشق على مصور ولا على متفرس ، لأنها صورة المجاهد فى سبيل الله بيده وقلبه وعقله ، أو صورة الشهيد ..

وكل امتحان لقدرته أو لعمل من أعماله ، ينبغى أن ينعزل عن محنة القدر التى لا يغلبها غالب ..

وقد كان له رأى عالم ، وفطنة حكيم ، ومشورة مدبر .. ولكننا اذا

---

(١) سيف .

قلنا: انه أخفق فى العمل لأنه لم يغلب القدر ، فذلك تكليف بما لا يطاق

وانما نقول انه أخفق فى العمل ونجح ، ولعله لو تولى الخلافة قبلها أو تولى الملك بعدها لما ظهر منه ذلك الاخفاق ..

***

وحق لا شك فيه انه أخفق حيث يشرفه اخفاقه ، وحيث يخفق الآخرون لو نصبتهم الأقدار فى مثل مكانه ..

ومات وقد حل مشكلة الخلافة بلسانه ، وهو الى اليوم موضع الخلاف عليها وعليه بين أصحاب المذاهب وأصحاب الأقوال فى التاريخ ..

فقد كان يود لو أن رسول الله استخلفه من بعده ، ولكنه لم يطلب اليه ذلك .. ولا رأى من الحكمة أن يطلبه اليه . قال ابن عباس ورسول الله فى مرض الوفاة : « اذهب الى رسول الله ، فسله فيمن يكون هذا الأمر .. فان كان فينا علمنا ذلك ، وان كان فى غيرنا أمر به فأوصى بنا ؟.. قال : « والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لايعطيناها الناس أبدا .. والله لا أسألها رسول الله أبدا » ..

آمن الامام بحكمة الرسول ايمان محبة وتصديق ، ولكنه لم يفارق الدنيا حتى كان قد آمن بها ايمان تعليم وتطبيق . فلما سألوه : « أنبايع الحسن ؟ » قال : « لا آمركم ولا أنهاكم » فأنصف الذين سبقوه ولم يفرضوا على الناس استخلافه ، لأنهم رأوا فى موقفه منها مثل ما رأوه فى موقف الحسن ابنه ، على حكم سواء ..

***

أى ختام أشبه بهذا الشهيد المنصف من هذا الختام ..

لقد ولد كما علمنا فى الكعبة ، وضرب كما علمنا فى المسجد .. فأية بداية ونهاية أشبه بالحياة التى بينهما من تلك البداية وتلك النهاية ! ..

فهرس

صفحة

عبقرية خالد

عباس محمود العقاد

الناشر الوحيد في كافة البلاد العربية والاسلامية

عدا مصر

المكتبة العصرية

للطباعة والنشر

صاحبها: شريف عبد الرحمن الانصاري

تلفون : بيروت ٢٢٧٥٤٥ ص. ب. ٨٣٥٥

صيدا ٧٢١٦١٢ — ٧٢٠٣١٧



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

حمدا لله ، وصلاة وسلاما على حبيبه ومصطفاه ٠٠ محمد بن عبد الله، وارض اللهم عن كل من خطا خطاه ، واتبع نهجه وسار على هداه ٠٠٠

وبعـد :

فمع العقاد نواصل المسيرة ، وننتقل مع روائعه من سيرة الى سيرة ، لنرى العجب العجاب ، والسحر الآسر للألباب ، في تصويره للعباقرة في عظمتهم ، والعظماء في عبقريتهم ٠٠٠ فنحس وكأن كل بطل من الابطـال نسيج وحده ٠٠ تفرد بالعبقرية ، وارتقى الى ذروة الانسانية ، وسما الى قمة البشرية ٠٠

والبديع حقا ان المواقف التي صورها المؤرخون على أنها مآخذ على هؤلاء الابطال ٠٠ استطاع الكـاتب بفكره الدقيـق ، وتحليلـه العميق ، واستقصائه الوثيق ، أن يجعلها مفاخر لهم ، لا معايب تهز قدرهم ، أو تقلل شأنهم ٠٠ وفي هذا تكمن عظمة الكاتب ، وتظهر قدرته ، وتبرز شخصيته ، وتثبت عبقريته ٠٠

وبطل هذا الكتاب ٠٠٠ ذاع في الدنيا صيته ، وعلا في التاريـخ صوته ، وطال في ميادين البطولة شوطه ، واقترن اسمه بالنصر ، فأشاع في نفوس الاعداء الفزع والقهر ، وكان مجرد اختياره للقيادة مدعاة — بين جنوده — للثقة والطمأنينة ، ومثارا لقوة العزم وشدة الشكيمة ٠٠٠ انـه سيف الله ٠٠ خالد بن الوليد ٠

ولقد استهل الكاتب بحديث عن البادية والحرب ، بين فيه أسباب النصر الذي حققه أهل البادية على أقوى دولتين في ذلـك العصر ٠٠ ألا وهما : الفرس والروم ٠٠

فذكر أن أسباب الهزيمة متعددة ، ويأتي في مقدمتها الغرور الباطل ، والاستهانة بالخصم ٠٠

لهذا وغيره أنتصر العرب على الدولتين العظميين ، لظنهما أن العرب لا ينتصرون ٠٠

فكانت نظرة الفرس الى العرب قائمة على التحقير والاستخفاف ، وكذلك الامر بالنسبة للروم ٠٠ ولقـد أخطأ المؤرخون المحدثـون الذيـن استعظموا انتصار العرب على هاتين الدولتين ، واعتبروا ذلك فلتـة أو

مصادفة ، والتمسوا العلل الواهية لتبرير هزيمتهما من جانب أهل البادية وسكان الصحراء ··

ولكن الكاتب ـ بصدق يراعه ، وطول باعه ـ رد على كل تعليل بما أبطله ، وكل زيف بما أظهره ، وأثبت أن العرب كانوا جديرين بهذا الانتصار ، وأنهم كانوا أخبر بفنون الحرب ، وأقدر على تنفيذ الخطط العسكرية الناجحة ، بعكس ما توهم المؤرخون ··

وساق دليلا على ذلك ·· واقعة حربية مشهورة ، نشبت بين العرب والفرس ·· تلك هي موقعة « ذي قار » التي انتصر فيها العرب ـ على الرغم من قلة عددهم وعدتهم ـ وذلك بفضل اليقظة ، والكفاية ، والخفة ، والفن الحربي السليم ، والعزة المشكورة ·· فكانوا أهلا للنصر ، حيث رسموا له كل مقوماته ، وخططوا لكل عوامل تحقيقه ، بما لهم من خبرة أصيلة في حرب العصابات التي فرضتها عليهم حياة البادية ، وخبرة مكتسبة في فن الحروب ، أفادوها من تجاورهم مع دول الحضارة ، فلم يكن انتصار العرب على الفرس والروم وليد المصادفة ، أو كان فلتة نادرة ، وانما كان لانهم استحقوا النصر بكل أسبابه ومقوماته ··

ولئن كانت الوحدة عنصرا أساسيا في تحقيق النصر ـ والعرب قد افتقدوها بصورتها الكاملة قبل الاسلام ـ فان الدعوة الاسلامية جاءت فوحدت صفوفهم ، وجمعت شتاتهم ، وربطت بينهم ، وتم لهم ما نقص ، وتهيأت لهم ذرائع النصر في شرعة الارض والسماء ·

ثم ألقى الكاتب الضوء على البيئة التي تربى فيها خالد ··· فبين مكانة قريش ، ودورها في الثقافة العربية ، والناخية الاقتصادية ، وخبرتها في السياسة والنظم الحكومية ، والنظام الفريد الذي أخذت نفسها به ·· وهو نظام يعتمد على توزيع الاختصاصات والمسئوليات على بطون القبيلة الواحدة ، وكان نصيب بني مخزوم ـ البطن الذي منه خالد ـ من مسئوليات الحكم : القبة ، وهي مجتمع الجيش ، والأعنة ، وهي : قيادة الفرسان ··

ونشأ خالد في أعرق بيوت بني مخزوم ، وأعلاها ، وأشرفها ، وأغناها ·· فجده المغيرة كان ينسب اليه ، ويشعر المخزومي بالشرف حينما يقال عنه : مغيري ، وأبوه الوليد · لقب بالعدل ، وبالوحيد ، وبريحانة قريش ، وهو الذي قال : أينزل القرآن على محمد ، وأترك ، وأنا كبير قريش وسيدها ؟ ·· وهو أحد اثنين نزل فيهما قول الله : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ·

وعمه هشام ·· قاد بني مخزوم في حرب الفجار ، وأرخت قريش بوفاته ·· وغير هؤلاء كثيرون ، لهم سجل زاخر بالمفاخر ··

غير أن بني مخزوم كان من صفاتهم الشائعة : حب السيطرة ، والصرامة ، وقلة الرحمة ، والاستزادة من المال ومتع الحياة ·· ومن نوايا

نسائهم أنهن اشتهرن بالجمال ، وكن يلقبن برياحين العرب •• وكانوا أحرص البطون في المحافظة على القديم ، لذلك كانوا أكثر صدا ، وردا ، وعنادا ، وكانت المصاولة بين الاسلام والجاهلية في وجه من وجوهها مصاولة بين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخالد بن الوليد ، الذي انتهى اليه شرف الرئاسة المخزومية في ذلك الأوان ، فدخل الاسلام بأوفى نصيب من حمية السيادة العربية في عهد الجاهلية ، فصنع للاسلام ، وصنع الاسلام له الأعاجيب ، وكان مقياس العبقرية العربية في عهدين متقابلين •

والبيت الذي نشأ فيه خالد بيت رئاسة وزعامة ، وكان لأبيه الوليد في بعض نواحي خلقه وعقله لمحات تلك المواهب التي تجلت بعد ذلك في عبقرية ولده العظيم ••

ولقد ظهرت على خالد مخايل الفروسية في باكورة صباه ، مما جعل أباه يختاره لقيادة الخيل •• وخالد في أوصافه الخلقية كان شبيها بعمر بن الخطاب ، وتعلم في صباه كل ما يحتاجه المرشح للحرب والفروسية وشمائل الرئاسة ••

ولم يستبعد الكاتب أن يكون خالد قد راض نفسه على عيشة الشظف والخشونة في البادية ، ليتمرس بالمصاعب ، وليتدرب على مآزق الحروب•• وكان على علم بالبادية لكثرة أسفاره في أرجاء الجزيرة •• كما ساق العقاد بعض العوارض لاسرة خالد ، واعتبرها من مهيئات الاقدار لانجاب العباقرة ، وفي ظلالها كانت نشأة بطل عبقري مدخر للقيادة والرئاسة بميراث حسبه وطبعه ، وملكات نفسه وجسده •

كما اعتبر الاستاذ العقاد ان اسلام خالد كان ضربا من ضروب التسليم، وهذا وصف وفق فيه الكاتب أيما توفيق ، لانه يتلاءم مع طبيعة خالد العسكرية والقيادية ، ولم يكن تسليمه تسليم العاجز الوكل ، ولا الجازع المنخذل ، وانما كان •• لانه بلغ نهاية الايمان بنفسه يوم بلغ نهاية الايمان بربه ••

أسلم خالد بعد أن أمال راية النصر من جانب المسلمين الى جانب المشركين يوم أحد ••

وبعد أن كان موكلا بقتل النبي في غزوة الاحزاب ••

وبعد أن تصدى للرسول في عام الحديبية ، وراودته نفسه في أن يغير على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو في الصلاة ، وفي هذا يقول :

« هممنا أن نغير عليه ، ثم لم يعزم لنا ، وكان فيه خبرة ، فاطلع على ما في أنفسنا من الهجوم به ، فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك مني موقعا ، وقلت : الرجل ممنوع » •

وبعد أن أبت عليه نفسه وخنزوانته أن يبقى في مكة ، ويرى المسلمين

وهم يدخلونها معتمرين ، تنفيذا لصلح الحديبية ..

وبعد أن كانت كراهته للاسلام امتدادا لكراهة أبيه الذي بذل الولد والمال ثمنا لهذه الكراهية .. ولكن الكاتب ـ بذكائه المعهود ـ حلل هذه الكراهية من جانب خالد بأنها كانت أقرب الى المبارزة منها الى المقت والضغينة ، وهذا تحليل يلائم طبيعة خالد أيضا .

وسبق اسلام خالد عدة مؤثرات ، ساهمت في تفتح قلبه ، واسترشاد عقله ، واقباله على الايمان بربه ..

سبق اسلامه انقسام بيت المغيرة الى معسكرين : جاهلي واسلامي ..

وسبق اسلامه اصغاء أبيه لآيات القرآن يتلوها النبي محمد ، وما أحدث ذلك من أثر في نفسه جعله يقول في القرآن ما قال ، حتى ظنوه قد صبأ عن دينه ، لولا أن تداركه منزلته في قومه ، ففكر وقدر ، وغالط نفسه ، وأقبر رأيه ، وزعم أنه سحر يؤثر ..

وسبق اسلامه هذا المشهد الجليل المهيب يوم شاهد المسلمين وهم قائمون للصلاة خلف الرسول في طريق الحديبية ، فأيقن أن لمحمد سرا ، وأنه لممنوع ..

وسبق اسلامه مواقف ومشاهد جعلته وغيره يرتابون في الغد ، فيفكرون في حسم الموقف ، والانتهاء الى رأي ، وفي مرحلة الجذب والدفع ، والمد والجزر ، وصلت رسالة لخالد من أخيه الوليد بن الوليد ، فكانت بمثابة دعوة الى الاسلام وجهت في أوانها ، وكان اسلام خالد هو الجواب .. كان اسلامه تسليم القلب نغص عنه الكفر ، وليس تسليم اليد رمت منها السلاح ..

وما هي الا فترة وجيزة حتى زحف المسلمون ـ ومنهم خالد ـ على مكة فاتحين ، بعد أن نقضت قريش عهدها مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وتم فتح مكة ، ولم يحدث قتال في هذا الفتح الا من صوب خالد ، بعد أن تعرض له رفقاء الشرك .. رفقاء الامس .. فرموه ورماهم ، بعد أن كانوا ـ متحدين ـ يوجهون سهامهم صوب المسلمين !!.

وصاحب الكاتب خالدا في صحبته للرسول ، وقد أخذ مكانه المرموق بين أصحاب النبي الاخيار الاطهار .. المختلفين في الاعمار .. والمتفاوتين في الاقدار ، فكان قدره عظيما ، ومقامه كريما ، وخلع عليه النبي ـ وهو الخبير بسبر أغوار الطبائع والافكار ـ لقب « سيف الله » ..

ومن عجب أن هذا اللقب الذي ناله خالد لم يظهر لذي عينين سر استحقاقه له بمعناه الكامل الا بعد وفاة الرسول ، حينما قام بدحر المرتدين، وحطم الاكاسرة ، وذل القياصرة !!.

ومن عجب ـ أيضا ـ أن الرسول لقب خالدا بسيف الله في وقت عاد فيه جيش المسلمين ـ وفيهم خالد ـ والناس يلومونهم ، ويقولون لهم :

يا فرارا !! وهذا ان دل على شيء ، فانما يدل على أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يكن مثل رؤساء الامم الذين يعرفون موضع الاكليل من رؤوس القادة وهم منتصرون ظافرون ، وانما كان يرى بالعين الملهمة القادرة على الرؤية في ظلام المحنة والبلاء ·· فلمح ببصره العلوي هذه القدرة في معدنها في وقت رأى الناس فيه خالدا مرتدا من غزوة مؤتة ، أو مأخوذا مع الخيل وهي تولي في أول المعركة يوم حنين ، أو صانعا في سرية بني جذيمة ما برأ منه النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ !!·

لهذا لم تكن حفاوة الرسول بخالد ، وتقديره له من قبيل المجاملة ، وانما كان تقدير البصير الخبير بالجوهر النفيس في معدنه الخفي ··

ولحقت روح النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالرفيق الاعلى ، ولم يمض على اسلام خالد الا حوالي ثلاث سنوات ، أسند اليه النبي خلالها أعمالا صغيرة ، وأشركه في أعمال كبيرة ، كانت كلها بمثابة مقدمات لاعمال جليلة وعظيمة ، سيكون خالد قائدها ، وعظيمها ، وبطلها الاول ، وستكون الترجمة الفعلية لهذا اللقب الكبير الذي استحقه من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين قال : « خالد سيف من سيوف الله » ·

وكانت حروب الردة ·· وكانت الفتوحات ·· وكان نصيب خالد فيها نصيب الاسد ــ كما يقولون ــ فلقن الاعداء دروسا عنيفة مخيفة ، ولكنها في شرعة الحرب كانت عادلة ··

وتناول الكاتب حروب الردة ، والفتوحات بأسبابها ، ودوافعها ، ومخططاتها ، ونتائجها ، ورسم لنا خالدا في حجمه الطبيعي ·· ماردا عملاقا ·· قائدا فنانا ·· محاربا مقداما ·· نابغة في فنون الحرب والانتصار ·· قمع أخطر الفتن في الجزيرة العربية من أقصاها الى أقصاها ، وقوض بنيان دولة الاكاسرة ، وحطم كبرياء دولة القياصرة ، وسبق اسمه الى أطراف الدولتين ، فحارب أعداءه بهيبته ، قبل أن يحاربهم بسيفه وأهبته ، حتى قال فيه صاحب دولة الجندل لقومه :

« أنا أعلم الناس بخالد ، لا أحد أيمن طائرا منه ، ولا أصمد في حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبدا قلوا أو كثروا الا انهزموا عنه ··· » ·

وجاءت النقمات الخالدية على غير ما هو مألوف في حروب صدر الاسلام ، ولكنها عجلت بختام عهد موبوء كان لا بد له من ختام ·· فخلعت القلوب ، وصكت الركب ، وزلزلت سلطان الطغاة في بلاد الفرس والروم ، وأتت انتصاراته متتابعة ، فلا ينتهي المسلمون من فرحة بنصر ، حتى يأتيهم البشير بفرحة نصر جديد ، مما جعل أبا بكر يقول وهو يزف للمسلمين أنباء النصر :

« يا معشر قريش ·· عدا اسدكم على الاسد فغلبه على خراذيله ··

اعقمت النساء ان يلدن مثل خالد ؟ » ٠

وان كان ذلك كله لم يمنع الكاتب من الاشارة الى أن في تاريخ خالد صفحة كان خيرا له وأجمل لو أنها حذفت ولم تكتب : كاحراقه للمرتدين ، وما صنعه مع بني يربوع وزعيمهم مالك بن نويرة ، وزواجه من امرأته ليلى ٠٠ لانها لم تضف الى فخاره العسكري كثيرا ولا قليلا ، وأهدفته للام ٠٠ أحمد ما يحمد منه أن له عذرا فيه يقبله أناس ، ولا يقبله آخرون ٠

وهناك قضية أثارها بعض الواهين من المؤرخين ، واتخذوا منها محورا للجدل ، وحملوها أكثر مما تحتمل ٠٠ تلك هي قضية : عزل خالد في أعقاب تولي عمر للخلافة ، واعتبروا أن هذا ناجم عن صراع قديم ، وحقد دفين ، نشأ بين خالد والفاروق منذ أن تصارعا ، فصرع خالد عمر ، وكسر ساقه ٠٠

فانبرى الأستاذ العقاد ـ وهذا ديدنه ـ للرد على هؤلاء المغالطين ، وكشف الحقيقة المبرأة من الخلط والجهالة ، وبين أن هذا الذي ادعوه لا يتلاءم مع خلائق عمر ، لانه لم يكن هناك من هو أشد حسابا لنفسه ومراجعته لنياته من عمر ، وأبعد شيء عن الحقيقة أن يكون عزل خالد لضغينة في نفس الفاروق ، أو لتلك المنافسة التي تستحكم بين الاشباه والنظراء ، وأن ما حدث لخالد لم يكن عزلا من امارة ولاه اياها الصديق ، وانما من امارة متفق عليها بين الامراء يوما بعد يوم ، وان أبا عبيدة بن الجراح كان أحق بالامارة من خالد في موقف التسليم والمسالمة ، واستلال الحقود ، وضمد الجراح ، وتقريب القلوب ٠٠ فهوادة أبي عبيدة أنسب في هذا الموقف من ضربات خالد ٠٠ فصواب التاريخ وصواب الفاروق قد تلاقيا ها هنا باسناد الامر الى أبي عبيدة في أوانه المقدور ، وان كان تلاقيا لم يجر على قصد مرسوم ٠٠

وعلى هذا ٠٠ فقد كانت ولاية أبي عبيدة ، وعزل خالد سنة عمرية ، ولا يتنافى ذلك مع رأي عمر الثابت في أبي عبيدة ٠٠ اذ كان لا يعدل به أحدا من الصحابة الاولين ، كما لا يتعارض ذلك مع بعض المآخذ التي حسبها الفاروق على خالد ، وحاسبه عليها كما كان يحاسب جميع ولاته ، وهذه سياسة عمرية حسبت لعمر ولم تحسب عليه ٠٠

وقد اعترف خالد بنزاهة عمر ، وبرأه من كل ما يوهم بغضه وتعديه، وذلك في قوله لابي الدرداء في مرض وفاته :

« قد كنت وجدت عليه في نفسي في أمور لما تدبرتها في مرضي هذا ، وحضرني من الله حاضر ، عرفت أن عمر كان يزيد الله بكل ما فعل ٠٠ كنت وجدت عليه في نفسي حين بعث الي من يقاسمني مالي ، حتى أخذ فرد نعل ، وأخذت فرد نعل ، فرأيته فعل ذلك بغيري من أهل السابقة ، ومن شهد بدرا ، وكان يغلظ علي ، وكانت غلظته على غيري

نحوا من غلظته علي ، وكنت أدل عليه بقرابة ، فرأيته لا يبالي قريبا ولا لوم لائم في غير الله ٠٠ فذلك الذي أذهب ما كنت أجد عليه ٠٠٠ » ٠

واعتبر الكاتب أن قمة البطولة في الحرب وصل اليها خالد في معركة « اليرموك » ، ولن يكون له مرتقى بطولي في الحرب أكثر من ذلك ، فبقيت له بعد قمة العظيم ٠٠ الظافر ٠٠ الجسور ، قمة العظيم ٠٠ الصابر ٠٠ المطيع ٠٠ وقد كان !!٠

وفي الحديث عن عبقرية خالد الحربية : وضعه الكاتب على القمة بين القمم ، وصاحب همه دونها كل الهمم ، فمقامه في الطليعه بين عباقرة الحرب ، ومكانه في المقدمه ممن سلكوا هذا الدرب ، لانه كان نمطا فريدا بين الفواد ، يمزج الفن بالبديهه ، كما يمزج فن البداوة بفن الحضارة ، ولم تعوزه قط صفة من صفات القائد الكبير المفطور على النضال ٠٠ جدد وابتكر ٠٠ وحارب بالقريحة الملهمة ٠٠ واعتمد على قوة الايمان وهمه الامل ، ولم يغفل عن القوة الادبية يعزز بها جيشه ، وكان هو نفسه مادة لتلك القوة ٠٠ ولم تفته العظة في موضعها يطرق بها الاسماع ، وتنفتح لها القلوب ، وتعمل عمل السحر في النفوس :

« ان الصبر عز ، وان الفشل عجز ، وان الصبر مع النصر » ٠

وساق الكاتب نماذج متعددة من اراء وتحليلات وتوجيهات خبراء الحرب في العصر الحديث ٠٠ فاذا بكل ما قدموه قد سبقهم اليه سيف الله ٠٠ خالد بن الوليد ٠٠

فلم تفته سمة من سمات القيادة ، لانه كان قائدا من مفرق رأسه حتى أخمص قدميه ٠٠ فلا عجب اذن ان يقول في آخريات عمره :

« ما ليلة يهدى الي فيها عروس انا لها محب ، أو أبشر فيها بغلام ٠٠ أحب الي من ليله شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبح بهم العدد ٠٠ فعليكم بالجهاد » ٠

والتشابه بين خالد وعمر لم يكن قاصرا على قسمات الوجه ، وطول القامة الى درجة تعجز قصير النظر عن التمييز بينهما ٠٠ فقد ربط الكاتب بينهما في « مفتاح الشخصية » ٠٠ وكما سبق في عبقرية عمر أن جعل « صفة الجندية » هي مفتاح شخصية الفاروق ، فانه في هذا الكتاب جعل « السليقه الجندية » هي مفتاح شخصية خالد ، وهذا لا يتعارض مع ما بين الرجلين من فارق في الخلق والتفكير ، لانه فارق لا يخرجهما عن طبيعة الجندية ٠٠٠ فعمر كان جنديا في أخلاقه الوازعة الحاكمة ، وخالد كان جنديا في أخلاقه الدافعة الهاجمة ، وتغلب على الفاروق من مزاج الجندي الناحيه الروحية ، أو ناحية الضمير ٠٠ وسيف الله تغلب عليه ناحية الحيوية ، أو ناحية البنيان والتركيب ٠٠ جندية الفاروق موزوعة ، وجندية خالد كانت مدفوعة ٠٠ جندية الفاروق كانت تميل الى الشظف

المختار ، أما جندية خالد فكانت تميل الى المتاع المباح ، وتجنح به الى المتعة في أيم الدعة ، كما تجنح به الى البطش في مقام الجلاد والعناد ، وتميل به قوته الحيوية تارة الى لقاء الحسان ، وتارة الى لقاء الاقران ··

واعتبر الكاتب أن حب خالد للمتعة ناشىء عن حبه للجهاد ، ومتعته ليست الا متعة المسافر الذي يستريح الى الواحة لينفض عنه الجهد ، ويتزود منها لجهد جديد ·· وليست متعة المتهافت الذي يتوق الى مهاد الراحة لينغمس فيها ، ويستكين اليها ، ولا يفيق من سكرتها ·· هي متعة القوي اليقظان ، وليست بمتعة الضعيف المستنيم ·· يأخذ من المتعة بأيسر المقادير ، ليأخذ من الشدة والبأس بأوفر المقادير ··

وطبيعة خالد القوية في ميادين النزال لم تنسه طابع الرفق اذا وجد له مجال ·· فقد روي عنه أنه قال لابي عبيدة حين سمعه يتناول رجلا بشيء :

« اني لم أرد أن أغضبك ، ولكني سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : « ان أشد الناس عذابا يوم القيامة أشد الناس عذابا للناس في الدنيا » ·

وبعد أن ملأ خالد سمع الزمان وبصره ، وبعد حياة حافلة بالامجاد ، وشوط طويل على درب الكفاح والجهاد ، وانتصارات للبطل هزت الدنيا بعد قوة عزم وطول جلاد ·· قضى سيف الله أيامه الاخيرة بعد عزله بين أهله وولده في مدينة حمص ، رزأته المقادير خلالها بموت نحو أربعين من أولاده عام الطاعون ، كما تعقب الموت أبناءه الذين بقوا بعد الطاعون ، حتى انقرضت ذريته ، وجاءت ــ بالعجب ــ نهايته : اذ مات على فراشه بعد كل هذه الزحوف ، وقابلته في الميادين الحتوف ، وعمت جسده الجراح ، ولم يترك وراءه من متاع الدنيا غير قوسه ، وغلامه ، وسلاح وقفه للجهاد في سبيل الله ، حتى قال فيه عمر : « رحم الله أبا سليمان ·· كان على غير ما ظننا به ·· كان والله سدادا لنحور العدو ، وميمون النقيبه » وأذن للنساء في البكاء على خالد ، قائلا قولته المشهورة : « ··· على مثل أبي سليمان تبكي البواكي » ·

رحم الله خالدا ··

لقد مات مطمئنا الى نهاية حياته ، لا يكره منها الا أنها انتهت به على فراشه !!·

ورحم الله العقاد ··

لقد أعطى كل عبقري حقه ، ووفاه قدره ، ومات مطمئنا على صدق ما كتب ، ولم يؤسفنا الا أن قلمه قد توقف !!·

مهدي عبد الحميد مصطفى

البادية والحرب

كان قتيبة بن مسلم قائدا من نوابغ القادة المعدودين الذين أنجبتهم الأمة العربية في صدر الاسلام ...

وكان يلي خراسان لملوك الدولة الأموية ، فخرجت بها خارجة أهمته (١) ، فقيل له : « ما يهمك منهم ؟... وجه اليهم وكيع بن أبي مسعود فانه يكفيكهم » . فأبى ، وقال : « لا ... ان وكيعا رجل به كبر يحتقر أعداءه ، ومن كان هكذا قلت مبالاته بعدوه فلم يحترس منه فيجد عدوه منه غرة ... » (٢) .

وهذه كلمة من كلمات القائد العربي تنبيء عن كثير :

تنبيء عن ملكة القيادة فيه ، وتنبيء عن ملكة السيادة في الأمة التي نشأ منها واستطاعت بها أن تسوس الأمم في الحرب والسلم ، سياسة للنجاح وللبقاء ...

فالحق ان شروط القيادة على وفرتها وعظم التبعة فيها جميعا ، ليس يوجد بينها ما هو ألزم للقائد من القدرة على سبر (٣) قوته وسبر قوة خصمه . وكل ما عدا ذلك فانما هو ترتيب لما يصنعه بقوته وما يتوقع من القوة التي ينازلها أن تصنعه ، أو هو تنظيم للأهبة والحيطة بين الفريقين في المكان الذي يتلاقيان فيه ...

وقد كانت لهزيمة الدول أمام العرب أسباب كثيرة : منها ضعف العقيدة واختلال النظام ونقص القيادة ، وانحلال الترف وتفرق الآراء ، ولكن البلاء الأكبر انما حاق بتلك الدول من آفة الغرور الباطل والاستخفاف بالخصم المقاتل . فانتصر العرب لأنهم ظنوهم لا ينتصرون ولا يعتزمون الانتصار ، وكان الاستخفاف والاهمال شرا على تلك الدول

---

(١) الخارجة واحدة من الخوارج ، وهم المتمردون على السلطان ، أهمته : أقلقته .

(٢) الغرة : الغفلة .

(٣) سبر قوته : اختبارها .

المتصلفة من الاستهوال والفزع • بل كان الاستخفاف والاهمال سببا لانقلابهم آخر الأمر الى استهوال يخذل المفاصل وفزع يفت في الأعضاء ، فاجتمعت عليهم البليتان من سوء التقدير ، ولم تنفعهم قلة المبالاة بالعدو ولا فرط المبالاة به بعد الأوان • • •

● ❊ ●

كانت دولة الفرس لا تنظر الى البادية العربية الا نظرة السيد المبجل الى الغوغاء المهازيل (١) الذين يحتاجون اما الى العطاء واما الى التأديب ، وبلغ من طغيان كسرى حين جاءته الدعوة المحمدية أن بعث الى النبي العربي بشرذمة من الجند تأتيه به في الأصفاد ! • • • وبلغ من طغيان جنده عامة وخاصة أنهم كانوا يأنفون أن يقرنهم أحد بالعرب في معرض من المعارض أو غرض من الأغراض ولو للحيلة والمكيدة • فاتفق في بعض وقعات العراق أن زعيما عربيا من جيرة الفرس أقبل على القائد الفارسي مهران بن بهرام ، ليمده بأبناء قبيلته ويعينه على خالد بن الوليد وجنده • فقال له : « ان العرب أعلم بقتال العرب ، فدعنا وخالدا ! » ،فجاراه القائد الفارسي مجاملة وخدعة ليستخلص منه أقصى العون والنجدة ، وقال له : « صدقت لعمري ! لأنتم أعلم بقتال العرب وأنتم مثلنا في قتال العجم • • • فغضب أتباعه لمجاملته هؤلاء القوم الذين يعينونهم ويقاتلون في صفوفهم ، وسألوه : « كيف تقول ما قلت لهذا الكلب ؟ » • • • فلم يهدأوا عنه حتى اعتذر لهم بأنه يخدع القوم ويغرر بهم ، وقال لهم : « دعوني فاني لم أرد الا ما هو خير لكم وشر لهم • • • فان كانت لهم على خالد فهي لكم • وان كانت الأخرى لم يبلغوكم ــ أي المسلمون ــ حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون • • • » •

وسخفوا (٢) في طلائع وقعة « أليس » فلم يحفلوا بجيش

(١) المهازيل : الضعاف •

(٢) سخفوا : رقوا وضعفوا •

خالد الزاحف اليهم وتنادوا الى طعامهم الـذي هيأوه ، ولم يكلفوا أنفسهم قبل ذلك مشقة استطلاع الطريق ··· ليأمنوا البغتة قبل تهيئة الطعام ·

أما الروم فكان لهم غرور كهذا الغرور في مواجهة البادية العربية ، وكان قصارى ما حذروه في أول الأمر أن يغير العرب على تخومهم لينهبوا ويسلبوا ثم يفروا بسلبهم الى الصحراء ··· فان أوغلوا في بـلاد الدولـة الرومانيـة فهم مأخوذون بالهبات والوعود أو مأخوذون بالكثرة المستعدة لا يقوم لها جند قليل يوشك أن يتجرد من السلاح بالقياس اليهم · فلما جد الجد وعرفت الدولة الرومانية من تقاتل من أولئك الجند العزل على زعمها اذا هي تنقلب من الغفلة الشديدة الى الفزع الشديد ···

● ❋ ●

ويبدو لنا أن المؤرخين المحدثين لم يبرءوا كل البرء من هذا الخطأ القديم ··· فما يزال الأكثرون منهم يستعظمون على العرب أن يغلبوا الفرس والروم ، ويحسبون هذه الغلبة شيئا قد حصل وكان ينبغي أن لا يحصل ، لـولا أنها فلتـة لا يقاس عليها ومصادفة لا تقبل التكرار ··

وبعضهم يلتمس العلة فيقول : « انما هي وهن الدولتين ومصابهما بالخور والانحلال » ، أو يلتمس العلـة فيقول : « انها عقيدة المسلمين القوية وافتقار الفرس والروم الى مثل هذه العقيدة » ·

وكل أولئك تعليل ناقص من كل نواحيه ···

فالمصادفة لا محل لها في حوادث الوجود ، ولا تطرد في قتال بعد قتال ، من جوف الصحـراء الى عمران العـراق والشام ومصر ومشارق الأرض ومغاربها بين أفريقية والصين ·

وانحلال دولة من الدول قد يفنيها ويعجزهـا عن النصر ولكنه لا يقيم دولـة أخرى لـم تتجمع لها أسبـاب النهوض والتمكين ·

والعقيـدة قوة لا غناء عنهـا بقوة أخرى لمـن يفقدها ،

ولكنها هي وحدها لا تغني عن الخبرة والاستعداد ، ولا تفسر لنا اختلاف النجاح باختلاف الخطط والقواد · وقد كان المسلمون على عقيدتهم الراسخة يوم لقائهم هوازن وشيعتها بوادي حنين ، فأوشكوا أن ينهزموا لاعتدادهم بكثرتهم وقلة مبالاتهم بعدوهم ، وأوشكت عاقبة الاستخفاف هنا أن تصيب المسلمين كما أصابت الفرس والروم ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « ··· ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » ···

فمهما يهرب هؤلاء المؤرخون من الحقيقة فلا محيص (١) لهم من الرجوع اليها لفهم الغلبة الاسلامية أو فهم الهزيمة الفارسية والرومانية ،وهذه الحقيقة هي أن المسلمين كانوا أيضا أخبر بالفنون العسكرية من أهل فارس والروم وكانوا أقدر على تنفيذ الخطط العسكرية التي تنفعهم من قواد تينك الدولتين ، وان البادية العربية سواء في عصور الجاهلية أو صدر الاسلام لم تكن من الجهل بفن الحرب بتلك الحالة التي توهمها المؤرخون الأوربيون ، بل معظم المؤرخين عامة ولا نحاشي (٢) منهم العرب والمسلمين ···

* ★ *

فالصورة الشائعة في خيال أكثر القارئين عن البادية ان حروب الصحراء لم تكن الا مشاجرات بالسيوف والرماح أو بالقسي والمقاليع (٣) ، لا ترجع الى نظام ولا تنهج على خطة ولا يخلص منها فن يتعلمه المتعلم ويتلقاه اللاحق عن السابق ، وقوام أمرها شراذم من السطاة والمغيرين سرعان ما تقبل حتى تدبر ، وقصارى ما تعرفه من أساليب القتال أن تفر بعد الكر أو تكر بعد الفرار ·

---

(١) لا محيص : لا مفر ·
(٢) لا نحاشي : لا نستثني ·
(٣) القسي : جمع قوس يذكر ويؤنث ·

وهذه صورة مضللة لمن يسترشد بها في اختبار قدرة البادية على الحروب الكبيرة والمناوشات الصغيرة ٠

فمن الخطأ « أولا » أن تستخف بالرياضة التي يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب الأجيال على أمثال هذه المناوشات ، أو على ما نسميه اليوم حرب العصابات ، حتى لو صح انها كانت هي كل ما يعرفه أهل الصحراء من فنون القتال ٠

فالذي لا ريب فيه ان الصحراء قد تعاقبت فيها الأجيال على حروب العصابات التي تشترك فيها القبائل أبدا بين عادية ومعدو عليها ، وان البدوي قد عاش زمنا كما جاء في التوراة « يده على كل انسان ويد كل انسان عليه » ٠ فحصل من ذلك على ملكة مطبوعة يصح أن تسمى « حاسة الحرب » أو أهبة الميدان الخالد التي لا تفارقه في ليل ولا نهار ٠ فلا يزال حياته في حيطة المدافع واستعداد المهاجم ويقظة القلب للنضال الذي يتعرض له بين مضطر مغتصب أو طائع مختار ٠

وهذه ملكة لا تحصل لأبناء المدن الذين يندبون للقتال بين آونة وأخرى ، ويتدربون عليه كأنه عمل يؤدي في مكان العمل ثم يطرح عن العاتق في سائر الأوقات ٠

* * *

ومن الرياضة التي يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب حروب العصابات انهم يتعودون الصبر على الفرار ويملكون الجأش عند الادبار ، لأن الفرار عندهم حركة من الحركات المألوفة في كل وقعة يخوضون غمارها ، وليست هزيمة تطيش باللب وتخلع الفؤاد وتوقع في روع صاحبها انه ضيع الأمل ولم يبق له من أطوار القتال غير التسليم ٠ فهو في حالة صالحة لاستئناف القتال ان أقبل وان أدبر ، وسواء طمع في النصر أو لاذ بالنجاة ، وكأنه يتأخر ليتقدم في حينها أو بعد حين ، ويتحول الى الوراء كما يتجول الى الشمال أو اليمين ، طوعا لأمر مقصود وجريا في عنان ممدود ، ومن هنا تيسر لقواد العرب في الغزوات الكبيرة أن يلموا شمل الجيش

المنهزم في سويعات معدودات وأن يتداركوا الخذلان من حيث يعسر على الجيوش المنظمة أن تتداركه قبل زمن طويل ...

ولن تخلو العصابات المغيرة ـ مع طول المرانة ـ من علم باصول الاستطلاع والمباغتة والتبييت (١) والمخاتلة وحسبان الحساب للرجعة والافلات ، وهي على بساطتها اصول لا ندحه (٢) عنها في أكبر الميادين وأصغرها على السواء .

هذا ان صح ان حروب العصابات هي كل ما حذقه عرب البادية من فنون القتال في تاريخهم القديم .

وذلك غير صحيح ...

فالعرب قد عرفوا في حروبهم التي وقعت بينهم تسيير الجيوش بعشرات الألوف على اختلاف الأسلحة والاقسام ، وقيل ان جيش الغساسنة الذي حارب المنذر بن ماء السماء لم يكن يقل عن أربعين ألفا بين راجل وفارس ، وكان في الجيش معا راكبو الخيل وراكبو الابل وحاملو السيوف وحاملو الرماح والضاربون بالسهام والنبال والضاربون بالحراب والحجارة .

ولقد كان الغساسنة والمناذرة أصحاب ملك قائم لا يعسر عليهم تسيير هذه الألوف المؤلفة الى الميادين القريبة ، ولكن القبائل التي لم تكن على شيء من هذا الملك كانت تسوق الألوف للقاء أمثالها وتستعد لها بالجيوش التي تساوي في عددها بعض جيوش القتال في عصرنا الحديث ، فاستعدت مذحج لقتال تميم يوم الكلاب الثاني (٣) بثمانية آلاف ، وجرى بين الفريقين من حيل الاستطلاع والمراوغة والهجوم والمطاردة ما هو محتو لكل عناصر الكفاح الأولى في كل زمان .

---

(١) التبييت : الايقاع بالعدو ليلا .

(٢) لا ندحة : ليس ثمة ما يبرر اغفالها ـ لا بد منها .

(٣) أيام العرب تطلق على الوقائع التي كانت بينهم في الجاهلية ، وقد عد أبو الفرج الاصفهاني فيها الفا وسبعمائة يوم وفي يوم (الكلاب الثاني) انتصرت تميم .

على ان البادية لم يفتها قط علم الحرب كما علمته دول الحضارة في عصور الجاهلية العربية ، فكانت غسان على مقربة من الروم تدخل معهم في الفرق المتطوعة على حالي الدفاع والهجوم ، وكان ملوك الحيرة على مقربة من الفرس يخدمهم أحيانا كتيبتان من الجيش الفارسي هما الشهباء والدوسر أو « الدوشير » بمعنى الأسدين شعار الدولة الفارسية ، وكان جند الشهباء من أبناء فارس وجند الدوسر من أبناء القبائل العربية ، وليس يحتاج العربي الى أكثر من هذه المقاربة وهذه القدوة لالتقاط الفنون التي يحتاج اليها في تعبئة الجيوش وللفطنة الى المخاوف التي يتقيها في مواجهة التعبئة النظامية من جانب دول الحضارة .

وقد تبين هذا فعلا في وقعة ذي قار التي تغلب فيها العرب على الدولة الفارسية . فان العرب كانوا في تلك الوقعة أبرع قيادة وأخبر بفنون الزحف والتعبئة من قادة الجيوش النظامية . فلم يغفلوا قط عن حيطة واجبة أو حيلة نافعة قبل اشتباكهم بالجيوش الفارسية : بعثوا الطلائع وبثوا العيون وقسموا جموعهم الى ميمنة تولاها بنو عجل ، وميسرة تولاها بنو شيبان وقلب تولته بطون من بكر عليهم رئيسهم القدير هانيء بن مسعود ، وأنفذوا الى قبائل العرب الذين في جيش الفرس رسلا يثيرون نخوتهم ويغرونهم بالتخلي عن أصحابهم حين يجد الجد ويلتحم الجيشان ، فوافقتهم اياد وبرت بوعدها فولت من الميدان في أحرج الأوقات ...

ولما أصبح يوم الواقعة الحاسمة أقبل الفرس ومعهم الأفيال والفرق المدرعة فلم يرع قادة العرب ما شاهدوا من ذلك الجيش الزاخر وتلك العدة الوافية ، بل تشاوروا في أمرهم وعقدوا بينهم ما يشبه « مجلس الحرب » في اصطلاح هذه الأيام . فقال ربيعة بن غزالة السكوني : « لا تستهدفوا (١) لهذه الأعاجم فتهلككم بنشابها ، ولكن تكردسوا

---

(١) لا تستهدفوا لهم : لا تقفوا بحيث تكونون هدفا ظاهرا لهم .

كراديس » (١) « فاذا أقبلوا على كردوس شد الآخر » • وقال حنظلة بن ثعلبة : « ان النشاب الذي مع الأعاجم يفرقكم ، فاذا أرسلوه لم يخطئكم ، فعاجلوهم اللقاء ، وابدأوهم بالشدة » (٢) • وقال يزيد بن حمار : « أكمنوا لهم كمينا » • ففعلوا وأكمنوه في موضع يقال له الخبيء وأوصوه أن يظهر حين يشتد القتال بين العسكرين وتفر قبيلة أياد من صفوف الأعاجم ، فيكون فرار أنصارهم واقبال المدد الى خصومهم ، مع احتدام القتال ، ضربتين متداركتين لا يقوون بعدهما على الثبات •

ولم يغفلوا عن حمية الجند والفرسان يلهبونها للمجازفة بالحياة والانفة من طلب النجاة ، وهو ما نسميه اليوم بالروح المعنوية ، فعمد حنظلة بن ثعلبة الى وضين راحلة امرأته ــ أي حزامها ــ فقطعه ، وتتبع رواحل النساء فقطع وضنها جميعا فسقطت على الأرض ، وصاح بقومه : « ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته •• وراح السيافون يقطعون أقبيتهم من مناكبها لتخف أيديهم لضرب السيوف ، وتسابق الخطباء والشعراء في التذمير والتحريض فذهبوا جميعا يرددون قول قائلهم : « المنية ولا الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره » •

وتبارز بعض الفرسان من العسكرين ، ثم التحم الفريقان وحمي الوطيس وظهر الكمين في أوانه وولت اياد فتبعها فريق ممن كسرت قلوبهم هذه الصدمة التي فوجئوا بها على غير رقبة (٣) ، وأطبق الكمين على قلب الجيش ومعه كوكب الجيش (٤) العربي كله فحقت الهزيمة العاجلة على أقوى الجيشين ، وكتب النصر لأولى الفريقين به في ميزان الفن العسكري الذي يشمل جميع المرجحات ، ما عدا المرجح المادي

---

(١) تكردسوا كراديس : تجمعوا كتيبة كتيبة •
(٢) بالشدة : الهجمة •
(٣) رقبة : ترقب وانتظار •
(٤) كوكب الجيش : معظمه •

دون غيره ، وهو العدد والسلاح ·

اذ الحقيقة ان غلبة العرب في يوم ذي قار انما كانت غلبة لليقظة على الغفلة ، وللكفاية على العجز ، وللخفة على الفخامة ، وللفن الحربي الصحيح على النظم التقليدية التي لا تصرف فيها ، وللعزة المشكورة على الكبرياء المزعومة ، وكان العرب خلقاء أن ينتصروا بكل وسيلة من وسائل النصر في الحروب القديمة والحروب الحديثة ، الا تفوق الفرس في بعض العدد التي لم ينفعهم تفوقهم فيها عند التحام الصفوف ·

❋ ★ ❋

وليس في وسع عالم من علماء الحرب في زماننا هذا أن يأخذ عليهم خللا في خطتهم لم يلتفتوا اليه أو يحصي عليهم وجها من وجوه التدبير قصروا فيه ، لأن وجوه التدبير كلها فضول بعد أن تستقيم للقاتل :

(١) أهبة الاستطلاع · و (٢) رسم الخطة · (٣) تنظيم الجيش في مواقفه · و (٤) تنظيم الجيش في حركاته · و (٥) اذكاء العزيمة في نفوسه · و (٦) اضعاف العزيمة في نفوس خصومه · وهذه كلها هي صفوة لباب الحرب في العصر الحاضر وفي العصور الغابرة ، وفي جميع العصور الى آخر الزمان ·

ويبدو لنا أن مزية الفرس والروم في أنواع الأسلحة والعدد كانت مزية مبالغا فيها على الأقل في ميادين الاشتباك والالتحام ، اذا صح أن لها الرجحان في مواقف الحصار ومواقف الحرب من بعيد · لأننا عرفنا من أخبار الحروب الماضية ان بعض الفرسان البواسل كانوا يترجلون ليحكموا الضرب والحركة ، وكانوا يخلعون عنهم شكتهم (١) تبرما بها وتخففا من ثقلها ولا سيما في أيام القيظ أو في المواضع الوعرة التي تصعب فيها حركة المدرعين في الشكة السابغة (٢) ، وكان بعض الضباط من النبلاء يستصحبون خدما لهم ليحملوا لهم

(١) الشكة : السلاح الذي يلبس ·
(٢) السابغة : الواسعة الوافية ·

شكتهم الى حين الحاجة اليها ، وجاء في كتاب فيجتيوس انجيل الحرب عند الرومان الأقدمين ان الجنود كانوا يضيقون ذرعا بالدروع المعدنية ويستثقلونها ويودون لو يطرحونها ويتاح لهم العمل بغيرها ، ولم تكن لهم حاجة بها الا حين يرادون على الاقتراب من مواقع السهام والنبال والحراب الطويلة ، لأداء عمل من الأعمال •

* ★ *

وعندنا ان العرب قد كسبوا الطريقتين معا بنشأتهم في البادية واقترابهم من دول الحضارة • ونعني بهما طريقة العصابات وطريقة الجيوش في ادارة الحروب •

فهم قد برعوا في حرب العصابات بالمرانة الطويلة • ثم اقتبسوا ما لزمهم أن يقتبسوه من فنون الحرب عند الدول الكبرى على أيامهم ، فلم يخسروا بذلك احدى الطريقتين بل جمعوا بينهما واستفادوا بما تفيده كل منهما في موضعها ، فأضافوا سرعة العمل في طريقة العصابات الى احكام التنظيم في طريقة الجيوش •• وكانوا يقاتلون بفنين متساندين يأخذون منهما ما يأخذون ويدعون منهما ما يدعون ، حيث كان الفرس أو الروم يتقيدون بفن واحد على التراث المحفوظ الذي لا يحسنون التجديد فيه ••

ومن المحقق ان قبائل العرب التي أقامت في الحواضر كانت على الزمن تتلقى النصيب الأوفى من كلتا الطريقتين ، اما بالقدوة والتلقين أو بالتعليم المقصود ، ولا سيما قبائل قريش التي كانت تقيم في عاصمة العواصم العربية من الوجهة الأدبية والثقافية،وكانت تجمع كل ما تفرق بين أبناء الجزيرة من المزايا والمعارف والصفات ، لأنها أخذت نفسها بآداب الرئاسة المدنية والبدوية التي يدين بها جميع هؤلاء •

فالتاريخ الصادق يتقاضانا أن نعرف هذه الحقيقة لنعرف موقع العدل والانصاف من حكم الزمن بين الأمم الكبيرة التي تنازعت السيادة بعد ظهور النهضة العربية •

● * ●

فالنهضة العربية لم يكتب لها النصر لأن الفرس والروم كانوا يستحقون الهزيمة وكفى ، بل هي قد انتصرت لأنها كانت تستحق النصر بأسبابه التي لا مصادفة فيها ولا محاباة ، ولا محل لها لفلتة نادرة لا تقبل التكرار ...

وانما كانت أسباب النصر عند العرب ناقصة فتمت في أوانها فغلبوا بوسائل الغلبة جميعها .

كانوا متفرقين بغير باعث الى الوحدة والنهوض ، فجاءتهم الدعوة الاسلامية تجمع شتاتهم وتبعث كرامتهم وتنطلق بهم في سبيلهم . فتم لهم ما نقص وتهيأت لهم ذرائع النصر في شرعة الأرض والسماء ، وعلم النبي عليه السلام بيوم « ذي قار » وهو يدعو العرب الى دين التوحيد ، فرأى فيه بوادر نصر العرب على العجم ، وأيقن أنه يوم تتلوه أيام ، وأنه مسمع بدعوته الأمم جميعا عما قريب .

قريــش ومخــزوم

كانت قريش موئل الثقافة العربية من أنحاء الجزيرة كلها بين حاضرة وبادية ، ومن قديم عصورها الى حديثها ·

لأنها كانت وسطا بين الحضارة والبداوة ، وكانت تقيم في عاصمة الحجاز والى جوار الكعبــة التي يحج اليهــا العرب ، تبركا بحرمتها ولياذا (١) بأصنامها ، ويحملون الى أسواقها أزواد (٢) الأدب والشعر والحكمة ، كما يحملون اليها ازواد القوت وسلع التجارة ·

وكانت قريش تنتقل الى بلاد العرب كما ينتقل العرب اليها من بلادهم ، فكان لها رحلتان في الشتاء والصيف : احداهما الى اليمن والاخرى الى الشام ، وكانت تضيف الى ما تعلمه بالسماع والرواية علم المشاهدة والمراس (٣) ، حيثما نزلت في طريقهما من ديار العرب أو من ديــار الروم والحبشة ، وسائر الامم الاعجمية كما كانت تسميها ·

والعرب من دأبهم حفظ السير ورواية الأحاديث والتنقيب عن الأخبار والطوايــا ، لأن الاستطلاع من طبيعــة سكــان الصحارى ، وتتوقف سلامتهم أحيانا على خبر يعلمونه في أوانه كما تستهدف أرواحهم أحيانا للخطر العظيم من جراء طارىء داهم تفوتهم الحيطة له في حينه ، ولم يزل أبناء القبائل على ولعهم المأثور بالسير والاخبار لغير هذه الضرورة التي يدعوهم اليها حب الامن والسلامــة · فهــم غيورون على تراث الاباء والاجداد تفاخرا بالنسب العريق وتصحيحا للعلاقات وتمييزا للأقربين والبعداء ···

ومع هذا الولع الأصيل في الطبيعــة العربيــة باستقصاء الخبر ، يصعب على الذهن أن يتخيل أن قريشا تجهل شأنا من شؤون الثقافة العربية ، وهي تقيم في مثابة (٤) الجزيرة كلها

---

(١) لياذا : لجوءا ، تقول (لاذ به) أي لجأ اليه ·

(٢) أزواد : جمع زاد ·

(٣) المراس : الخبرة والممارسة ·

(٤) الموضع الذي يثاب اليه ·

وتسهر على عاصمة العرب ، وتجوب أنحاء هذا الوطن الكبير من شماله الى جنوبه ومن جنوبه الى شماله ، وتتابع العصور حقبة بعد حقبة وهي في مرقبها الذي تطل منه على كل ما يعنيها …

فقلما غاب عنها علم عربي وصل اليه أبناء الحواضر والبوادي باجتهادهم واختبارهم ، أو وصلوا اليه بالقدوة والسماع عن الأمم الأجنبية …

وقلما خفي عنها فن من فنون ثقافة العرب في مصالح السلم والحرب ، أو معارض السياسة والشؤون الاجتماعية ·

ونظن أن خطأ المؤرخين في تقدير معارف العرب السياسية لا يقل عن خطئهم في تقدير معارفهم الحربية ، وقد كانت كما رأينا كفؤا لحضارة الدولة الفارسية وتجارب قوادها وأساورتها ·

وكذلك كانت لهم في السياسة والنظم الحكومية خبرة لا يستخف بها من ينفذ الى بواطنها ، فهي لا تبلغ أن تكون فلسفة مشروحة ومذاهب مفصلة على مثال النظم العصرية ، ولكنها كذلك لا تنزل الى الفوضى ولا الى الغريزة الهمجية التي لا مساك (١) لها ولا تدبير فيها ·

وأوجز ما يقال عن خبرتهم بالنظم الحكومية ان العالم القديم لم يعرف قط نظاما من أنظمة الحكم الا كان للعرب نموذج منه يوافق مصالحهم وعقائدهم ويجري على عاداتهم وخلائقهم ·

عرفوا نظام الامارة التي ينفرد فيها الأمير برأيه ويستأثر فيها بشريعته وقضائه …

وعرفوا نظام الامارة التي يتولى فيها الحكم نائب عن الأمير يفصل في قضايا الرعية بمعونة ذوي الرأي منها « الا أن يكون غزو أو قتال » فهو باسم الملك دون غيره ، وهو النظام الذي جرى عليه أهل الحيرة زمنا مع ملكهم المنذر ونائبه زيد بن

---

(١) لا مساك لها : لا ضابط لها ·

حماد من بني أيوب ٠

وعرفوا نظام الامارة التي يختار أميرها من أمة أخرى كما تنتقل الأسر الأوربية اليوم من مواطنها الى الموطن الذي تحكمه بالمصاهرة أو بالاتفاق بين الدولتين ٠ وعلى هذه السنه اجتمع البكريون حين غلبهم سفهاؤهم وآذل قويهم ضعيفهم فقال شيوخهم : « لا نستطيع دفع ذلك الا ان نملك علينا ملكا نعطيه الشاة والبعير ، فيأخذ للضعيف من القوي ويرد على المظلوم من الظالم ، ولا يمكن أن يكون من بعض قبائلنا فيأباه الاخرون ، ولكنا نأتي تبعا فيختار لنا » ٠ فقصدوه فملك عليهم حجرا أمير كندة،وهو أبو امريء القيس الشاعر المشهور ٠

وعرفوا الحمايات على أنواعها : حماية الامارة التي تستعين بجيش آجنبي ، وحماية الامارة التي تعتمد على جيشها ، وحماية الامارة التي تدين لدولة واحدة ، أو تدين لدولتين ٠ كما حدث ذلك في ملك اليمن بين الحبشة وفارس وسادات البلاد ٠

وعرفوا رئاسة القبائل المنفردة ورئاسة القبائل المجتمعة الى نسب واحد ، ورئاسة الرحل الذين يرعون الابل والشاء ، ورئاسة أهل المدر (١) الذين يغرسون المروج والبساتين ويزاولون التجارة من موسم الى موسم ٠٠٠

❊ ★ ❊

وكانت قريش تسمع بهذه النظم وتشاهدها في مواضعها وتقتبس منها ما هي في حاجة اليه ، ولكنها لم تأخذ بنظام الامارة لأن التنافس بين بطونها يمنعها أن تتفق على ملك من احداها ، ولم تتعرض لنظام الحماية لأنها كانت بنجوة من سلطان الدول الأجنبية ، ولم يوافقها نظام أهل الوبر (٢) ولا نظام أهل المدر لانها كانت وسطا بين الحضارة والبداوة كما قدمنا ، وكانت ترعى مصالحها ومصالح الوفود التي تقبل

---

(١) المدر : القرى ، والعرب تسمي القرية مدرة ٠

(٢) أهل الوبر : البدو ٠

اليها حاجة أو متجرة وليست هي من عشائرها التي تقبل منها حكم الشيخ في قبيلته على أية صفة من صفاتها ·

فاختارت لها نظاما فريدا يوفق بين هذه الأطوار الاجتماعية المختلفة فيها ، ولعله أشبه النظم بنظام المشيخة بين الرومان الأقدمين ، وانما يؤول الرأي الأخير فيه الى مجلس يجتمع من رؤساء كل بطن في القبيلة ، ويوشك أن يكون أمره شورى أو على صورة الشورى التي ترضى بالمجاملة وان لم يكن فيها رضا بالحقيقة · اذ الحقيقة أن المرجع الأخير الى أقوى الأقوياء من أولئك الزعماء ، كلما حزب الأمر وتشعبت الآراء ···

ومن زكانة (١) الحكم عندهم أنهم فهموا مناط الركاسة القرشية التي يدين بها حجاج البيت الحرام وقصاد مكة من الحضر والبادية ، وهي الدين واللغة والتجارة المشتركة ·

فحفظوا مناسك الكعبة ، وجعلوا أسواقهم معرضا للبلاغة الشعرية والخطب المروية ، وتعاهدوا على ضمان الثقة بالتجارة كلما غدر غادر بذمتها ، أو اعتدى معتد على حقوقها ·

● ❋ ●

واحتالوا على التوفيق بينهم بتقسيم المفاخر والمراسم على بطونهم وزعمائهم حسب أقدارهم ومزاياهم ، فانتهى الشرف الى عشرة بطون هم : هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدي وجمح وسهم ، فكانت لهاشم سقاية الحاج ، وكانت لأمية راية الحرب يخرجها عند القتال ليسلموها الى قائدهم المختار ، وكانت لنوفل الرفادة وهي اعانة الحجاج المنقطعين بالمال ، وكانت لعبد الدار السدانة (٢) والحجابة واللواء ، وكانت لبني تيم الديات (٣) والمغارم ، وكانت لبني مخزوم القبة وهي مجتمع الجيش والأعنة وهي

---

(١) الزكانة : الفطنة ·

(٢) السدانة : خدمة الكعبة ·

(٣) الديات : جمع دية ، وهي المال يعطيه أهل القاتل ·

قيادة الفرسان ، وكانت لبني عدي السفارة ، ولبني جمح الأيسار أو الأزلام (١) ، ولبني سهم الحكومة والاموال المحجرة ، وظلوا يتولونها جيلا بعد جيل الى ظهور الاسلام ٠

ولم يكن لهذه « الوظائف » الموزعة شأن واحد في جميع الأوقات والأحوال ، بل كانت تعلو وتهبط على حسب الزعيم الذي يتولاها وعلى حسب القوة التي يكون عليها بيته عند ولايته اياها ٠ ولكننا اذا نظرنا اليها نظرة مجملة وجدنا منها ما كان يقصد به « جبر الخاطر » والارضاء ٠

وما كان يشبه الوظائف الشورية أو الادارية التانوية في حكومتنا الحاضرة ، ولم تجد بينها « سلطات » فعالة خليقة أن تتعاقب مع الزمن غير تلات متفرقات ، وهي السلطة الروحية لهاشم وعبد الدار ، والسلطة السياسيه لأمية ، والسلطة العسكرية لمخزوم ٠

من بني مخزوم هؤلاء نشأ خالد بن الوليد ــ بطل هذا الكتاب ــ وكانت نشأته في أعرق بيوتها وأعلاها وأشرفها وأغناها ، فلم يكن من أبوته أو عمومته الا رئيس ابن رئيس لا تعلو مكانته مكانة أحد من رؤساء الجاهلية ٠٠٠

كان جده المغيرة بن عبد الله ، الذي كان الرجل من بني مخزوم يؤثر أن ينسب اليه فيسمى المغيري تشرفا بالانتساب الى الفرع الذي أناف على الأصول ٠٠٠

وكان أبوه الوليد بن المغيرة الملقب بالعدل وبالوحيد (٢) ، لأنه كان يكسو الكعبة وحده سنة وتكسوها قريش كلها كسوة مثلها سنة أخرى ٠

وكان عمه هشام قائد بني مخزوم في حرب الفجار (٣) ،

---

(١) الايسار والازلام : السهام التي تستخدم في الميسر ٠

(٢) وفيه نزل قوله تعالى : « ذرني ومن خلقت وحيدا » ٠

(٣) كانت بين قريش وقيس عيلان وقد حضرها النبي صلى الله عليه وسلم وهو صبي ٠

وبوفاته أرخت قريش كما تؤرخ بالأحداث العظام ، ولم تقم سوقا بمكة ثلاثا لحزنها عليه ...

* * *

وكان عمه الفاكه بن المغيرة من أكرم العرب في زمانه ، له بيت للضيافة يأوي اليه من شاء بغير استئذان .

وكان عمه أبو جذيفة أحد الأربعة الذين أخذوا بأطراف الرداء وحملوا فيه الحجر الأسود الى موضعه من الكعبة كما أشار النبي عليه السلام قبل الدعوة الاسلامية ...

أما الذي فض النزاع بين القبائل على هذا الشرف حين آذن التنافس بينها بالشر المستطير فهو عم آخر من أعمامه ، وهو أبو أمية بن المغيرة الملقب بزاد الراكب كما جاء في بعض الروايات . فقد أشار عليهم أن يكلوا الحكم الى أول داخل من باب المسجد ليختار من بينهم من يرفع الحجر الى مكانه ، فارتضوا مشورته وتم صواب المشورة بتوفيق البشارة النبوية قبل اهلالها على العالم بسنين . ولقب أبو أمية زاد الراكب لأنه كان يكفي أصحابه في السفر مؤونتهم فلا يتزودون بزاد .

ويظهر أن بني مخزوم هؤلاء كانوا في ثروتهم وعدتهم وبأسهم أقوى البطون القرشية حين ينفرد كل بطن منها عن سائر بطونها . ولكنهم لم يستأثروا بالزعامة القرشية لأنهم كانوا ينافسون بني هاشم وبني أمية وبني عبد الدار ، وهم ثلاثة بطون قوية يلتقون في جد واحد أقرب من الجد الذي يجمعهم ببني مخزوم ، وهو مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر جد قريش أجمعين .

● * ●

وقد تبينت رجاحتهم هذه في مواقف كثيرة قبل الاسلام وبعده فاضطلعوا وحدهم ببناء ربع الكعبة بين الركنين الأسود واليماني واشتركت قريش كلها في بناء بقية الأركان ...

وكان لبني مخزوم وحدهم في وقعة بدر ثلاثون فرسا من مائة فرس لقريش كلها ، ومائتا بعير وأربعة أو خمسة آلاف

مثقال من الذهب غير الأزواد والأمداد ...

فلا جرم يعظم على نفوسهم أن يغلبهم منافس على الشرف والعزة ، وأن يحوزوا كل ما حازوه من الرجال والاموال ثم تشيل كفتهم مرجوحة في ميزان الفخار ...

ولا جرم يأخذون الامر مأخذ الانفة والخنزوانة بينهم وبين بني عبد مناف حين تظهر النبوة في هؤلاء ولا تظهر فيهم .

وقد أخذوها هذا المأخذ حين قال ابو جهل : « تنازعنا نحن وبنو عبد مناف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا (١) وأعطوا فأعطينا ، حتى اذا تحازينا على الركب وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ... فمتى ندرك هذه ؟ » .

وانما قال أبو جهل « بنو عبد مناف » ذهابا الى الجد الذي يجمع هاشما وامية وعبد الدار ، كأنه يستعلي في كبريائه أن ينافس هاشما وحدها دون أن يصعد الى أبيها الذي يجمع بينها وبين غيرها .

وكان الوليد بن المغيرة يزعم أنه هو أحق الناس بالنبوة والقرآن ، ويقول : « أينزل على محمد واترك وانا كبير قريش وسيدها ؟ » . ففي ذلك يقول القرآن الكريم : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

ونحن نعلم الآن أي عقبة كانت هذه الخنزوانة المخزومية في طريق الاسلام أن نرجع الى الآيات التي نزلت في رؤسائهم ووصفت ما كان من عنادهم وعتادهم ، وما كانوا يقابلون دعوة الدين الجديد بدعواهم في آبائهم وأجدادهم ، فلم ينزل في رؤساء قبيلة مثل ما نزل في رؤساء هذه القبيلة ، ولم تتمثل منعة قوم كما تمثلت منعتهم في ردود القرآن على أقوالهم ، وهي أقوى ردود عرفت في السور المكية الأولى ، على ما جاء

---

(١) حملوا فحملنا : من الحمالة (بالفتح) وهي الكفالة أي كفلوا الناس وكفلناهم .

في الآيـات الكثيرة مـن سورة « ن » وسـورة المدثر وسورة الكافرون ، عدا اشارات أخرى في سورة الحجر وعبس وتولى ·

● ❋ ●

وكل أولئـك فحواه شيء واحـد ، وهو أن بني مخزوم باءوا (١) بأسباب المحافظة على القديم جميعا حـين تصدى الاسلام لتبديل ذلك القديم ، فهم أول من يصاب بهذه الدعوة الجديدة وآخر من يلبيها وله مندوحة عنها ، ومن ثم كانت المصاولة بين الاسلام والجاهلية في وجه من وجوهها مصاولة بين محمد عليه السلام وبين خالد بن الوليد الذي انتهى اليه شرف الرئاسة المخزومية في ذلك الأوان ·

والناس يختلفون في تمثيل بيئاتهم وطبقاتهم غاية الاختلاف ويصدقون في تمثيلها غاية الصدق وهم يتفاوتون بينهم تفاوت النقيض والنقيض · لأن البيئـة مستودع شامـل يوجد فيه الحسن والرديء ويأكل كل منه على حسب مأتـاه ومورده ، وحسب ما هو مستعد له وقادر عليه ·

فاذا قيل سيد مـن سادات قريش أو نموذج مـن نمـاذج القرشية الجاهلية جاز لنا أن نتمثله على ألوان كثيرة لا على لون واحد ، وجاز أن يكون هذا السيد خير السادات من طبقته أو شرهم وشر أهل زمانه من جميع الطبقات ·

ولكننا مع هذا قـد نحصر الخصال المشتركـة والنعوت الوسطى التي تشيع في هؤلاء السادات غير من تجاوزوا الحد وبلغوا الندرة في الشذوذ والاستثناء ·

فالغالب على هؤلاء السادة أنهم يتوارثون الثقافة العربية ويتدارسونها بالتعليم والتلقين والمعاشرة ، ويستوعبون أخبار الحكماء وذوي الأحـلام في عـلاج المشكـلات وتدبير الحيل ومصانعة (٢) الناس والأيام ·

ويكثر فيهم أن يجمعوا الثقافة السياسية والعسكرية كما

---

(١) باءوا : رجعوا ، والمراد انهم تحملوا أعباء المحافظة على القديم ·
(٢) مصانعة الناس : رشوتهم واستمالتهم ·

وصلت اليهم من تراث الأقدمين من عرب وعجم ، وبخاصة من كان منهم منوطا بعدة الحرب وقيادة القبيلة في غزواتها أو مواقف دفاعها ، كما كان خالد بن الوليد ·

★ ★ ★

ومن صفاتهم الشائعة فيهم حب السيطرة والصرامة وقلة الرحمة والاستزادة من المال ومتع الحياة والتفاخر بالوفر والثراء وجمع الحطام من حيثما اجتمع بأساليبهم التي كانوا يستجيزونها ولا يتحرجون منها ، وأشيعها الربا والمغالاة بالأسعار ·

وقد وجد في أسرة خالد من يكثر من الاقراض بالربا ومن يرى في أموال الربا شيئا من الدنس يقاربه في أحوال ويستبعده في أحوال أخرى ·

فمات أبوه وله على قبائل مكة وأرباضها(١) ديون تحسب بالألوف لم يزل خالد يتقاضاها حتى أسلم وأسلم المدينون ، فترك الربا من بعدها واكتفى برأس المال عملا بالقرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا اتقو الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » ·

وكذلك وجد في أسرته من نزه الكعبة عن أموال الربا وما شابهها فقال لقومه : « يا معشر قريش ·· لا تدخلوا في بنائها من كسبكم الا طيبا لا يدخل فيه مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد » ·

وكلهم قرشي جاهلي من طبقة السادة وأصحاب المال ·

فحين نقول أن خالدا كان مثال طبقته وعنوان المحافظة على مزايا هذه الطبقة يحسن بنا أن نتجه الى تلك الخلائق الوسطى ونترقب منه نماذجها المشتركة التي لا غلو فيها من

---

(١) أرباضها : أرباض المدينة : ما حولها ·

هنا أو هناك ، حتى نرى دلائل الزيادة في خليقة مـن تلـك الخلائق ، فذاك اذن خاصته التي يتميز بها بين قرنائه ولا تخرجه من معهود الطبقة كلها على الاجمال ٠

* * *

ولا يتم الكـلام على تراث بني مخزوم حتى نضيـف الى مزاياهم المختلفة مزية ملحوظة لها شأنها في كل مجتمع انساني وليس شأنها بالقليل في حياة خالد على التخصيص ٠

فقد كانت هذه القبيلة على كثرة الأقطاب بين رجالهـا مشهورة بجمال النساء بين الحواضر العربية ، وبقيت لها هذه الشهرة الى ما بعد قيام الدولة العباسية ، اذ كان يقـال لأبي العباس السفاح : ان المخزوميات رياحين العرب وعندك منهن يا أمير المؤمنين ريحانة الرياحين ٠

ولا بدع يكون هذا شأن القبيلة التي نبغ منها خالد بن الوليد وعمر بن أبي ربيعة ٠ فقديما كانت الفروسية والغزل والمرأة بيئة واحدة تتعاون فيها البطولة والشاعرية والجمال ٠

وصفوة هذا جميعه أن خالد بن الوليد قد دخل الاسـلام بأوفى نصيب من حمية السيادة العربية في عهد الجاهليـة ، فصنع للاسلام وصنع الاسلام له الأعاجيب ، وكـان مقياس العبقرية العربية في عهدين متقابلين ٠

نشـــأة خـــالـــد

خالد بن الوليد بن المغيرة أحد سبعة أخوة من الذكور وقيل عشرة ، بل ثلاثة عشر بين ذكور واناث ، ومنهم أختان ٠٠٠

وقد تقدم اجمال القول في شرف قومه ونصيب أعمامه خاصة من الرئاسة والزعامة ٠ أما أبوه الوليد فقد كان الرأس بين الرؤوس والزعيم بين الزعماء ، وكانت له في بعض نواحي خلقه وعقله لمحات تلك المواهب التي تجلت بعد ذلك في عبقرية ولده العظيم ٠

كان أغنى أبناء زمانه في صفوف الثراء المعروفة بينهم كافة : الذهب والفضة والبساتين والكروم والتجارة والعروض (١) ، والخدم والجواري والعبيد ، وسمي من أجل ذلك بالوحيد ، ولقب من أجل ذلك بريحانة قريش ٠

وهو الذي قال فيه القرآن الكريم من سورة المدثر : « ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا » ٠

ويروي سفيان الثوري أنه كان يملك ألف ألف دينار ، ويروي ابن عباس أنه كان يملك من الفضة تسعة آلاف مثقال ٠

ولكبريائه في جوده أو جوده في كبريائه كان ينهى أن توقد نار غير ناره في منى لاطعام الحجيج ٠

وكان يأنف لنفسه في الجاهلية أن يرى سكران على اباحة الخمر وشيوعها في تلك الأيام ، فانتهى عنها بغير ناه ، وقيل أنه قطع يد السارق على سبيل القصاص ٠

وقد كان من أصحاب الحيلة والحول (٢) والاقدام : ضربة من ضرباته في موقف اللبس والتردد ترينا فيه أبا خالد قبل

---

(١) العروض : الامتعة التي لا يدخلها كيل ولا وزن ولا تكون حيوانا ولا عقارا ٠

(٢) القوة ٠

أن يعرف العالم ضربات خالد ، وذلك يوم تداعت الكعبة وأوجس المشركون أن يهدموها ليعيدوا بناءها ، توقيرا لتلك الحرمة التي كانوا يقاربونها بالضراعة والخشوع ويدخلها بعضهم حفاة الأقدام ولم يقربوها قط بهدم أو عدوان . فلما رأى وساوسهم وفزعهم تناول المعول وضرب الضربة الأولى بيديه وهو يقول : « اللهم لم ترع (١) . اللهم لا نريد الا الخير » . ومضى في أثره الهادمون غير متهيبين .

ويؤخذ من بعض أحاديثه مع أبي جهل أنه كان من أفقه الناس لمعاني الكلام ومن أحفظهم للشعر والخطب في أيامه .

« قام النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد يصلي والوليد ابن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، فلما فطن النبي صلى الله عليه وسلم لاستماعه أعاد قراءة الآية ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم ، فقال : « والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن . والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق ، وانه يعلو وما يعلى .. ثم انصرف الى منزله » .

فقالت قريش : « صبأ والله الوليد ولتصبون قريش كلهم . فأوفدوا اليه أبا جهل يحتال لصرفه عن الاسلام ان كان قد نوى الدخول فيه ، وما زال به حتى قام معه الى مجلس قومه فقال لهم : « تزعمون أن محمدا مجنون ، فهل رأيتموه يخنق قط ؟ تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن ؟ تزعمون أنه شاعر وما فيكم أحد أعلم بالشعر مني فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟

يسألهم ويجيبونه : « كلا » ، في كل سؤال .

حتى أعياهم أن يردوا كلامه فسألوه رأيه في تفسير بلاغة القرآن ففكر ثم قال : « ما هو الا سحر يؤثر ! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ فهو ساحر وهذا هو

---

(١) لم ترع : لم تخف .

السحر المبين ••• فذاك اذ يقول القرآن الكريم : « انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر » •

واختلف المفسرون في تفسير المعنى المقصود بالعتل الزنيم الذي قيل أنه نزل فيه •

فرأى بعضهم أن الزنيم هو الدعي وأن الوليد بن المغيرة يوصف به لأن أباه ادعاه (١) ثماني عشرة من مولده •

ورأى بعضهم أن الزنيم وصف له من زنمة كان يعرف بها في عنقه ، وهي اللحمة المدلاة • ويخالفهم آخرون فيقولون أن الرجل الذي كان يعرف بهذه الزنمة هو الأخنس بن شريق ، وكان أصله من ثقيف وعداده في زهرة (٢) •

وفي رواية أنه عليه السلام سئل عن العتل الزنيم فقال أنه هو الفاحش اللئيم ، وغير ذلك من الروايات والتأويلات كثير•

الا أن الذي يعنينا فيما نحن بصدده ان الوليد لم ينسب قط الى أحد غير أبيه المغيرة ، وأن المغيرة لم يكن بحاجة الى استلحاق ولد غريب عنه لكثرة أولاده ونجابتهم بين فتيان مخزوم وقريش عامة ، وأن شبه الوليد ببني المغيرة ظاهر حتى في بعض الفروع البعيدة • فان عمر بن الخطاب كانت أمه قريبة خالد بن الوليد ، وكان يشبهه أقرب الشبه كما يتفق في أيامنا هذه كثيرا بين أبناء العمات والأخوال ، وأن غير الوليد لأولى بذلك الوصف لما تقدم من اعتزاز قريش بنسبته فيهم حتى لقب بريحانة قريش وسمي بينهم بالوحيد •

وعلى أية حال قد نشأ خالد في بيت الوليد بن المغيرة وهو سيد بني مخزوم ، وأحد السادات المعدودين في قريش ، وصاحب الكلمة التي يتعلق بها مصير قومه فيما يجنح اليه من شرعة أو دين •

أما أمه فهي لبابة بنت الحارث الهلالية ، وهي أخت ميمونة

---

(١) ادعاه : نسبه اليه واعترف ببنوته •

(٢) ثقيف وزهرة : قبيلتان •

أم المؤمنين زوج النبي عليه السلام ، وأخت لبابة بنت الحارث الكبرى زوج العباس عمه ، وأخت أسماء بنت عميس التي تزوجها جعفر بن أبي طالب ثم أبو بكر الصديق ، ثم علي بن أبي طالب ، ولها أخوات أخريات بنى بهن رجال من ذوي الأخطار ومقاديم (١) العشائر النابهين •

وندر في بيوت العرب النبيلة بيت لم يكن له صلة بخالد وذويه بالنسب والمصاهرة ، من جانب أمه أو جانب أبيه •

والأقوال في سن خالد وتاريخ مولده لا تنتهي الى قول يمتنع فيه الخلاف • فمن المؤرخين من يقول أنه مات وله من العمر ستون سنة • فاذا كان قد مات في السنة الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين للهجرة فقد ولد اذن في السنة الثامنة والثلاثين أو السنة التاسعة والثلاثين قبل الهجرة •

ولكنه قول يحول دون تصديقه والأخذ به ان خالدا كان صغير السن في عام الفتح ــ فتح مكة ــ كما يفهم من تلقيب أبي سفيان له بالغلام وشيوع هذا اللقب بين عارفيه •

فقد كان أبو سفيان والعباس يرقبان عبور الكتائب والقبائل في يوم الفتح فكان خالد بن الوليد أول من مر في بني سليم • فسأل أبو سفيان : من هذا ؟ قال العباس : هذا خالد بن الوليد • فعاد أبو سفيان يسأل وهو يخفي حنقه : الغلام ؟ قال العباس : نعم • كأنه لقب كان معروفا بين شيوخ قريش •

والرجل لا يقال له «غلام» وهو في نحو السادسة والأربعين • وقد يقال له ذلك وهو حول الأربعين اذا كان القائلون من رؤساء الشيوخ وكان اللقب قد عرف قبل ذلك بسنوات وبقي بحكم العادة والتردد على الأفواه • فاذا كان خالد بن الوليد يومئذ في نحو السادسة والثلاثين أو السابعة والثلاثين فمولده على التقريب بين سنتي ثماني وعشرين وثلاثين قبل الهجرة •

وعندئذ تخطر لنا قصة أخرى لها صلة بهذا التقدير •

---

(١) مقاديم : جمع مقدام وهو الرجل الكثير الاقدام على العدو ويجوز أن يريد (وجوه العشائر وأشرافها) •

وهي قصة المصارعة بينه وبين عمر بن الخطاب وهما غلامان وغلبته عمر وكسره ساقه في هذه المصارعة ، وانما يتصارع الندان أو المتقاربان • وعمر على تقدير مشهور قد ولد قبل الهجرة بأربعين سنة أو قرابة هذا التاريخ ••

فالتوفيق بين هذه الأقوال جميعا انما يستقيم لنا بتأخير مولد عمر قليلا عن سنة أربعين ، وتقديم مولد خالد قليلا عن سنة ثلاثين ، فيرجح اذن أن يكون مولده في نحو سنة أربع وثلاثين قبل الهجرة ، ولا مانع اذن أن يصارع عمر ويغلبه كما يغلب الفتى في الرابعة عشرة مثلا زميلا له في السادسة أو السابعة عشرة ، اذا كان مولودا للدربة على الرياضة وألعاب الفروسية ، وكان خالد ولا شك كذلك ، لأنه ورث قيادة الأعنة من باكر صباه •

نعم يظهر أنه كانت عليه مخايل الفروسية منذ صباه الباكر ، اذ رشحه أبوه لقيادة الخيل ولم يكن أكبر أبنائه ، ورأيناه على قيادة الفرسان — فرسان قريش — في وقعة أحد التي أحاط فيها برماة المسلمين من ورائهم : فحلت الهزيمة بجيش المسلمين بعد انتصاره •

وقد أسلفنا ان بني مخزوم كان لهم في الجاهلية آمر القبة والأعنة ، فالقبة هي خيمة عظيمة يضربونها ليجمعوا فيها عدة القتال ، والأعنة هي الخيل وفرسانها ، وولاية خالد هذه « الوظيفة » الموكولة الى قبيلته بين بطون قريش جميعا هي آية استعداده للرئاسة والقيادة منذ صباه •

وفي أخبار خالد قصة واحدة تنفعنا في تصور ملامحه وسماته لقلة أوصافه المحفوظة ، على خلاف ما تعودناه من أحاديث العرب عن أبطالهم ، وهي في الغالب مفيضة (١) في وصف أولئك الأبطال •

تلك القصة هي ما أشرنا اليه من المشابهة بينه وبين عمر ابن الخطاب ، حتى كان اناس من ضعاف النظر يخلطون بينهما

---

(١) مفيضة : مسهبة مفصلة •

من قريب ، ولا يميزونهما بالرؤية ولا بسماع الصوت الخفيض •

وخلاصتها ان علقمة بن علاثة لقي عمر بن الخطاب سرا فقال له : مرحبا بك يا أبا سليمان ••• ثم دنا منه فلم يميزه مع دنوه وسماع صوته برد السلام عليه ، فقال : عزلك ابن الخطاب ؟ فأجابه عمر : نعم • فمضى علقمة يقول : ما يشبع، لا أشبع الله بطنه •

وأصبح عمر فدعا بخالد وعلقمة وسأل خالدا : « ماذا قال لك علقمة •• فنفى أن يكون قد لقيه أو جرى بينهما كلام • وكرر عمر السؤال : فأقسم خالد بالله ما رآه ولا سمع منه شيئا ••• فقال علقمة كالموسع له من حرج (١) : حلا أبا سليمان (٢) ••• ولم يفطن لغلطه حتى تبسم عمر وأخبرهما بالحديث •

ومن هنا تفهم ان خالدا كان طويلا بائن الطول ، وانه كان عظيم الجسم والهامة ، مهيب الطلعة يميل الى البياض •

وغني عن تواريخ المؤرخين ولا جدال ان خالدا قد تعلم في صباه كل ما يتعلمه الفتى المرشح للحرب والفروسية وشمائل الرئاسة ، ومن الصغائر العارضة التي زعم اناس انها أصل الجفاء بينه وبين قريبه عمر بن الخطاب انه صارعه كما تقدم فغلبه وكسر ساقه ، وهي صغيرة تنبيء عن دراية باكرة بفنون الصراع والكفاح ، ولكنها لو لم تذكر في مصادرها لأغنانا عنها علم القائد الكبير بفنون الفروسية على أنواعها وسرعته في مآزق النزال الى مصارعة أقرانه ومبارزيه واحتضانهم بعنف شديد حتى يعجزهم عن الحراك •

وغير بعيد انه تعود عيشة الشظف وراض نفسه على الخشونة عمدا في البادية ليصبر على مضانك الحرب وشدائد

---

(١) كالموسع له من حرج : كأنما يريد أن يفتح الطريق لخالد لكي يخرج من الحرج الذي وقع فيه •

(٢) أبو سليمان : كنية خالد بن الوليد •

الجوع والظمأ حيثما تفرد عن موارد الزاد • فقد جاء في بعض الأحاديث ان خالدا كان يأكل الضب ويشتهيه كما يأكله الأعراب ويشتهونه ، وهو أغنى انسان في مكة أن يسيغ هذه الآكلة الاعرابية ، مع يساره وافتنان أهله في الأطعمة الحضرية •

قال ابن عباس رواية عن خالد انه دخل مع رسول الله على خالته ميمونة بنت الحارث فقدمت الى رسول الله لحم ضب جاءها مع قريبة لها من نجد ، وكان رسول الله لا يأكل شيئا حتى يعلم ما هو ، فاتفق النسوة الا يخبرنه حتى يرين كيف يتذوقه ويعرفه ان ذاقه • فلما سأل عنه وعلم به تركه وعافه • فسأله خالد : أحرام هو ؟ قال : « لا ولكنه طعام ليس في قومي فأجدني أعافه ••• » قال خالد : « فاجتررته الي فاكلته ورسول الله ينظر » •••

ومثل هذه التربية لقائد من قواد الحرب نموذج يحتذى في كل مدرسة من مدارس الفنون العسكرية الحديثه ، وعلى سنتها كتب نابليون تقريره وهو طالب في المدرسة الحربية يعيب على النظام يومئذ انه يسمح لابناء الأعيان بمعيشة الترف واستصحاب الخدم بين جدران المدرسة ، وهم أحرى بخدمة أنفسهم في مدرسة يتعلمون فيها الصبر على شدائد الحروب •

وكان لخالد ولا ريب علم بالبادية العربية من غير هذا الطريق طريق الرياضة المقصودة ان صح ما رجحناه • فلعله سافر كثيرا في الجزيرة قبل الاسلام ، ولعله عرف في تلك الأسفار دروبها المعصية التي كان يطرقها من العراق الى الحجاز ومن الحجاز الى اليمن ، ومن نجد الى الشام ، وبعضها كان يعتسفه (١) على عجل بغير ادلاء (٢) •

ولم تكن بخالد ولا باخوته حاجة الى التجارة لكسب العيش

---

(١) يعتسفه : يقتحمه •

(٢) أدلاء : جمع دليل •

وتحصيل المال ، اذ كان أبوه على تلك الثروة التي لا مزيد عليها في البلاد العربية • وكانت ثروته أشبه شيء في عصرنا هذا بثروة المصارف التي تعمل في صفقات القروض والربا ومضاربات الأسعار • أما الثمرات والخضر في مزارعه فلم تكن مما يحمل الى البلاد القصية للبيع والشراء • وانما قصاراها أن تباع في الحواضر الحجازية وما قاربها من البوادي القادرة على شيء من الترف والمتعة ، ولا سيما في أيام الأسواق والحجيج • ولهذا.فسر بعضهم وصف بنيه «بالشهود» فيما تقدم من الآيات بأنهم كانوا أبدا في صحبته وجواره مفاخرة بهم وتنزيها لهم عن الكدح والتصرف في شؤون المعاش • فان قضيت لأحدهم رحلة أو سياحة ففي غير هذه الأغراض أو في غير حاجة ملحة الى الاتجار ، وانما هي الدربة والتمرس بالمصاعب والانتفاع بخبرة السياحة وآدابها ، وقد ينفقون في ذلك خير ما يكسبون ، كما كان يصنع عمه « زاد الراكب » وأعمامه الآخرون الذين اشتهروا بالأنفة من مجاراة أحد لهم في الضيافة وبذل العطايا والهبات •

وموضع الترجيح والاستنتاج هنا انما هو في ارسال خالد الى البادية قصدا لرياضة النفس والجسد على خشونة الأعراب وشدائد الميادين •• فهذا ، وان جرت به عادة بعض الأشراف في حواضر الحجاز ، لم يقطع به قول من الأقوال في سيرة الوليد ابن المغيرة وبنيه « الشهود » على احتمال الشهادة للمعنى الذي قدمناه •

ولكن الأمر الموثوق به كل الثقة ، والذي لا موضع فيه لترجيح ولا استنتاج ـ ان خالدا قد نشأ حيث نشأ في الحاضرة أو البادية مستعدا للخشونة مستطيعا لمعيشة الأعراب ، مستجيب السليقة والبيئة لما يتكلفه المجاهد في أوعر القفار وأعنف الحروب ، وكانت له ضلاعة العصبيين الأقوياء المعهودين بين رجال السيف ، وهي ضلاعة يوشك أن تستمد من حماسة النفس وشهامة القلب أضعاف ما تستمده من العضلات والأوصال •

فلم تعفه العبقرية من ضريبتها التي لا مناص من أدائها ،

وآية ذلك انه مات على فراشه في نحو الخامسة والخمسين ، وليست هي بالسن الغالبة فيمن يموتون بداء الشيخوخة من غير علة اخرى ·

واذا تجاوزنا هذه المظنة ، وهي كافية ، ألفينا في تراجم الأسرة كلها ما ينبيء عن عوارض (١) الأسر التي تهيئها الأقدار لانجاب العباقرة في شتى المواهب والمزايا ·

فهذه الأسرة الغريبة تحشر فيها عوارض الاختلاف عن جملة الناس في تركيب الأعصاب خاصة ، ويشاهد فيها فرد أو أفراد تتجمع فيهم عللها وتمعن بهن مخالفاتها وعناصر شذوذها حتى تسلمهم الى الاختلال والاضطراب كأنهم ضحايا الاسرة كلها في سبيل انجاب العبقرية منها ·

وكانت هذه العوارض مشاهدة في اسرة خالد وفي اخوته على التخصيص · فذكر كتاب الاستيعاب في أسماء الاصحاب : « ان الوليد بن الوليد كان يروع في منامه مثل حديث مالك سواء في قصة خالد » ·

وعن مسند بن أبي شيبة ان خالد بن الوليد كان يفزع في نومه فشكا الى النبي عليه السلام · فقال له : « ان عفريتا من الجن يكيدك » ·

وبذلت هذه الأسرة الممتازة ضحيتها الكبرى في شخص سليلها عمارة بن الوليد أحد الأخوة المذكورين بأسمائهم من ذرية الوليد بن المغيرة

وعمارة هذا هو صاحب عمرو بن العاص في رحلة الحبشة رسولين الى النجاشي لتسليم المسلمين بها الى قريش ·

وكان مولعا بالخمر والغزل وسيما محببا الى النساء · فلما كان بالسفينة مع عمرو وامرأته شرب ونظر الى امرأة عمرو نظرة مريبة ·

وقد نلمح عوارض الأسرة هذه في أعظم أفراد الأسرة كما نلمحها في هذا المسكين الذي ابتلي بالثمن الفادح والضحية الكبرى · فخالد بن الوليد ــ شرف بني المغيرة ــ لم يفتنه الميل

(١) عوارض : ظواهر ·

الى المرأة كما فتن أخاه ، ولم يصرفه قط من عبء من أعباء البطولة ولا عن فريضة من فرائض العظمة والعبقرية ، ولكنه على هذا قد تعرض للمؤاخذة من عمر بن الخطاب ومن أبي بكر الصديق في صدد الزواج المعجل في غير حينه ، فسبى (١) امرأة مالك بن نويرة ، وتزوج في حرب اليمامة وهو بميدان القتال ، وسبى ابنة الجودي في دومة الجندل ، وقيل انه فقد أربعين ولـدا في طاعون الشام وهـو بقيد الحيـاة لما يجاوز الخمسين بكثير ٠

وتلك في جملتها شواهد العوارض التي يقرر النفسانيون المحدثـون انها سمات العبقريـة في منابتها ، ومنابتهـا هي الأسر التي تنجبهـا وتبـذل أثمانهـا قبل أن تنعـم بمجدها وفخارها ٠

وكما ظهرت هذه العوارض في لون من ألوانها على أخيه عمارة ظهرت في بعض ألوانها الأخرى على أخيه الوليد الذي كان مثله يراع في رقاده ٠

فهذا الأخ الكريم كان مـع جيش المشركين في وقعـة بدر فأسره المسلمون ٠ وطال الكلام في فدائه لغناه وعداوة أهلـه للاسلام ، فطلب أسره أربعة آلاف درهم ، وأوصى النبي ألا يقبلوا فدية له غير شكة أبيه الوليد وهي درع فضفاضة وسيف وبيضة (٢) ٠ وكل هذه المطاولة والمساومة والوليد باق على دين الشرك في أسر المسلمين ٠ فلما تم فداؤه وذهب الى أهله أعلن اسلامه بينهم وهم كارهون ، وعجب المشركون لأمـره فسألوه : هلا أسلمت قبل أن تفتدى ؟ ٠ فقال : كرهت أن يظن بي انني جزعت من الاسار ٠٠ وصبر على التعذيب والنكاية والحبس بين أهله حتى أفلت بعد جهد وحيلة ولحق بالنبـي مشيا على قدميه ٠٠٠

هذه أيضا نفحة خالدية من نفحات تلك الأسرة القوية التي

---

(١) سبى : أسر : وستأتي القصة في حروب الردة ٠

(٢) البيضة : الخوذة من الحديد ٠

تأبى لخلائقها ان تحير الناس وأن ترد عليهم من مورد التفاوت والاغراب والمخالفة للمألوف ٠

وهي في أطوارها المتباينة منجم العبقرية الذي لا مراء فيه،ومعدن البطولة التي تكتب لصاحبها وهو في الاصلاب(١) ٠

فها هنا نشأة بطل عبقري مدخر للقيادة والرئاسة بميراث حسبه وطبعه ، وملكات نفسه وجسده ، جاءته البطولة وهو ينتظرها ولا يشك فيها،وتهيأ لها بالقدرة على الشدة والرخاء والنعمة والبأساء ، ويكاد الصدق والاشاعة معا يتوافيان في دلالة واحدة في تربية هذا البطل المنذور للبطولة والعبقرية من قبل ميلاده ، فأكلة الضب التي سبق ذكرها واحدة ٠ وغيرها أكلات مسمومات يبدو لنا انها مخترعة أو محرفة ولكن اختراعها وتحريفها يدلان لا محالة على شيء ٠ وهو اشتهار خالد بترويض بنيته على تجرع الغصص التي يتقزز منها الناس ويخافون منها الهلاك ٠ ففي اليواقيت للقطب الشعراني انه حاصر قوما من الكفار في حصن لهم فقالوا : تزعم ان دين الاسلام حق ؟ ٠ فأرنا آية لنسلم ٠ فقال احملوا الي السم القاتل ، فأتوه به فأخذه وقال : بسم الله ، وشربه فلم يضره ، وتردد مثل ذلك في كتاب الاصابة فروى عن مصادر شتى انه لما قدم الحيرة أتى بسم فوضعه في راحته ثم سمى وشربه ، ولم يؤثر فيه ٠

وقد سمعنا نيتشه ــ بشير السوبرمان (٢) في العصر الحديث ــ يقول : ان السم الذي لا يميتني يزيدني قوة ٠٠٠

فهذه بنية بطل نشأت للمجد على هذا الغرار ٠

---

(١) الاصلاب : جمع صلب وهو الظهر والمقصود تكتب لصاحبها وهو لا يزال جنينا ٠

(٢) السوبرمان : الانسان الكامل ٠

اسلام

كان اسلام خالد ضربا من التسليم ...

كان ضربا من التسليم بمعناه « العسكري » المصطلح عليه في عرف القادة ورجال الكفاح .

لأنه أسلم أو سلم تسليم القائد البصير بحركة القتال بين المد والجزر والنصروالهزيمة ، الخبير بموضع الاقدام وموضع الاحجام ، المقاتل والقتال شجاعة ، المسالم والسلم ضرورة لا محيص عنها .

ولم يكن تسليمه تسليم العاجز الوكل (١) ، ولا الجازع المنخذل . بل لعله بلغ من نفسه غاية الثقة بالقدرة وحمادى (٢) اليقين بالخبرة ، يوم أسلم وسلم الى معسكر الدين الجديد . كأنه آمن بالله لأنه علم من ذات نفسه انه لن يغلبه الا الله ، وكأنه كان يقول في قرارة ضميره : أيهزمني أحد وليس له مدد من النبوة ؟ أيعلو سيف على سيفي وليس له سر من السماء ؟ .

فبلغ نهاية الايمان بنفسه يوم بلغ بداية الايمان بالله .

وقد كان على ذويه في بني مخزوم أن يحاربوا حربهم الى نهايتها ، لأن الصراع بين الجاهلية والاسلام لم يكن الا صراعا لهم قبل كل جاهلي وكل قرشي وكل عربي على التعميم .

وكان معسكرهم أولى المعسكرات ان يصمد الى موقف الحسم من النضال بين الفريقين ، لأن بلاءه بادبار الجاهلية أكبر من كل بلاء ، وموقفه أمام الاسلام موقف من ينافح عن عزته وعزة بيته وعزة آبائه وأجداده ، وعزة « النظام » الاجتماعي كله كما قررته الجاهلية أحقابا بعد أحقاب ، لأنه النظام الذي به يقومون وبهم يقوم .

وقد أبلى أبوه في هذا الصراع قصارى ما في وسعه من بلاء ، وهو شرح يطول ، وتفصيل تضيق به الفصول ، ولكن

---

(١) الوكل : الجبان العاجز .

(٢) الحمادى : الغاية ومبلغ الجهد .

اشارة واحدة فيه تغني عن بيان طويل ، وصفحة موجزة من صفحاته تغني عن الاطناب في القيل والقال •

وحسبنا من تفصيل مكائده وجهوده كلها في حرب الاسلام أن نقول انه قد هان عليه في هذا السبيل أن يبذل العزيزين : الولد والمال •

ففي بداية الدعوة المحمدية سعى وقومه الى عم النبي أبي طالب ليسلمهم محمدا أو يتخلى عنه ، وله بديلا منه عمارة ابن الوليد ••• وقد وصفوه بأنه أنهد الفتيان وأشعرهم وأجملهم في قريش •

وبعد استفاضة الدعوة المحمدية يسعى الى النبي فيمن سعى اليه من سراة قريش ليشاطروه أموالهم ويسكت عن أربابهم وعباداتهم ، وفي ذلك يقول القران الكريم في سورة الأحزاب : « ولا تطع الكافرين والمنافقين » •

وبمقياس هذا البذل السخي في سبيل الذين تقاس كراهة الرجل للدين الجديد ، وهي كراهة الهرم التي تبقى الى الموت ، لأنه فوجيء بالاسلام وهو يقارب التمانين وظل على الكيد له حتى مات بعيد الهجرة وقد نيف على الخامسة والتسعين •

★ ★ ★

وكان خالد فتى ناشئا يوم ظهر النبي بالدعوة الجديدة ، فنفر منها كما نفر قومه أجمعون ، وزاد على النفرة لهبا من حمية صباه ، وتحفزا فتيا يسبق به أباه •

فما هو الا أن بلغ مبلغ الزعامة في القتال حتى تجرد لها بعزيمة الفتوة وشجاعة البطولة ، ولم تنقض سنتان على موت أبيه حتى كان قائد الميمنة في وقعة أحد المشهورة ، وتولى الهجمة التي مالت بكفة النصر من جانب المسلمين الى جانب المشركين •

وذلك ان النبي عليه السلام أقام الرماة من وراء جيشه وقال لهم : « قوموا على مصافكم (١) هذه فاحموا ظهورنا ،

(١) المصاف : جمع مصف بفتح الميم وتشديد الفاء وهو موقف الحرب •

فان رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وان رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا » · فلما ولى المشركون منهزمين وتبعهم المسلمون مغتنمين ، خالفت كثرة الرماة وصاية النبي وتصايحوا بينهم: « ما مقامنا ها هنا وقد انهزم المشركون » · فكانت هي الغرة التي اهتبلها خالد ، ولم تذهله عنها الهزيمة المطبقة بقومه ، فكر بالخيل وتبعه عكرمة بن أبي جهل صاحب الميسرة وداروا من وراء جيش المسلمين ، فحملوا على من بقي من الرماة فقتلوهم وقتلوا أميرهم عبد الله بن جبير ، وانتفضت صفوف المسلمين واستدارت رحاهم واختلطوا فصاروا يقتتلون على غير شعار ويضرب بعضهم بعضا من العجلة والدهش ، وشاع ان عليه السلام قتل في المعركة ، وقتل فيها حمزة وسبعون من الأنصار ، وأرجف المرجفون بكبار الصحابة حتى ظن أبو سفيان ان أبا بكر وعمر من القتلى ، وصاح بين الصفوف : « يوم بيوم بدر والحرب سجال » ·

★

واشترك خالد في وقعة اخرى هي وقعة الأحزاب ، أو الخندق ، فكانت هي أيضا من أهول الغزوات على المسلمين وأوشكت أن تحيق بهم دوائرها لولا يقظة علي بن أبي طالب ووقيعة بعض الدهاة بين أحزاب قريش وهبوب الريح التي عصفت ببيوتهم وقدورهم وزادتهم يأسا من اقتحام الخندق الذي حفره المسلمون حول المدينة ، وفي هذه الغزوة يقول القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ، اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ··· » ·

وقد كان خالد في هذه الغزوة يطوف بخيله حول الخندق يلتمس مضيقا يقحم منه الخيل فأعياه وفشل عمرو بن ود حين حاول العبور من احدى نواحيه · فلما حبطت حملة عمرو

وقتله علي بن أبي طالب ، بـات المشركون ليلتهـم يقسمون كتائبهم لكل فريق من المسلمين كتيبة تدهمـه مع الصباح ، فكان خالد هو الموكل بالنبي عليه السلام في كتيبة غليظة من خيل قريش والأحزاب ، فاندفع يقاتل سحابة النهار وهويا من الليل ، الى أن تحاجز الفريقان ورجـع المشركون وانصرف المسلمون الى قبة النبي ، فأوتد خالد بعد هنيهة يطلب الغرة ، وكاد أن يظفر بها لولا حرس من المسلمين بقيادة أسيـد بـن حضير تنبه له وفوت عليه غرضه • ثم انقطـع القتال وهو لا يزال على الطلب والطواف ، وكان آخر من ترك الحومة بعد يأس الأحزاب من عبور الخندق ودخول المدينة ، فلبـث هـو وعمرو بن العاص على ساقة (١) الجيش في مائتي فارس رداء للجيش كله ، مخافة أن يتعقبه المسلمون •

* * *

وتصدى خالـد مرة اخـرى للنبي عليه السـلام في سنة الحديبية وهو في طريقه الى مكة ، وكان النبي قد خرج اليها معتمرا في نحو ألف وخمسمائة من المسلمين لا يحملون سلاحا غير السيوف في القرب ، فأوجس المشركون خيفـة أن يكون قدومه الى البيت الحرام للقتال لا للعمرة ، وندبوا خالـدا في مائتي فارس للقائه قبل بلوغ مكة • فدنا خالد حتى نظر الى أصحاب رسول الله ، وأمر رسول الله عباد بن بشر فتقدم في خيله وأقام بازائه وصف من ورائهم رجاله ، ثم حانت صلاة الظهر فصلى رسول الله بأصحابه صلاة الخوف ، وهم خالد أن يغير عليه لولا نخوة من الفروسية أبت له العدوان على المسالم وقمعت فيه طمع الرئيس الموتور ، وقال خالد يصف ذلك بعد اسلامه : « هممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا ، وكـان فيـه خيرة ، فاطلع على ما في أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك مني موقعا ، وقلـت الرجـل ممنوع » •

---

(١) ساقة الجيش : مؤخره •

الا انه مع هذا بقي على لدده في خصومة الاسلام ومعاندة نفسه دون الاصغاء له والنظر اليه • فلما صالح النبي قريشا ودخل مكة في عمرة القضية كره خالد أن يشهد دخوله ، وتغيب من جوار البيت ريثما يعتمر المسلمون ويرجعون من حيث أتوا ، وهو معنى النظر من رؤية شيء لا يستحبه ولا يخلي بينه وبين حربه •

كذلك كانت كراهة خالد للاسلام بعد كراهة أبيه •

ومن وثباته هذه ، ولجاجه ذاك ، يغلب على الظن ان كراهته كانت من نوع تلك الكراهة التي هي أقرب الى المبارزة والمناجزة منها الى المقت والضغينة • لأنها لا تعني صاحبها بالبعد من موضوعها كما تعنيه بالاشتغال به والعكوف عليه ، كأنه زميل المبارزة اللازم لاتمام الصراع واذكاء حرارته وامتحان قدرة النفس عليه •

وهذه الحرارة حركة جياشة في النفس وليست كذلك الموات الذي تنقبض عليه النفس في الشيخوخة الفانية ، ولا كذلك الضغن الذي يتغذى بقيحه المخزون في طبيعة منغولة(١) معدومة الخير والنجدة :

مثل هذه الحركة الجياشة في النفس الحية الفتية كالسيل المتدفع الأتي في واديه المحيط بجانبيه ، يظل متدفعا أتيا ما بقي في الوادي وما انهمر عليه الغيث من ضفتيه • ولكنه الى أمد لا محالة ، لأنه سينتهي الى مفترق الوادي فلا يجيش ولا يتدافع ، وسيقصر عنه الغيث فلا يربو ولا يترع (٢) • وسيكون طريقه مع الوادي المفترق غير طريقه مع الوادي المحصور •

والوادي هنا قد افترق في مجراه شعبة بعد شعبة منذ عهد قريب وان لم ينته بعد الى غاية المفترق في الأرض البراح (٣) •

---

(١) طبيعة منغولة : مشحونة بالحقد •

(٢) يترع : يمتلىء •

(٣) البراح : المكان المكشوف الذي لا يستره شجر أو غيره •

افترق الوادي قليلا حين انقسم بيت المغيرة بين معسكر الجاهلية ومعسكر الاسلام ، وأصبح في معسكر الاسلام أخوان حبيبان الى خالد ، وهما الوليد وهشام .

وافترق قليلا يوم أصغى أبوه الى القرآن فحدث آل بيته عنه ذلك الحديث الذي أرابهم وأشجاهم ، فحسبوه قد صبأ عن دينه وسألوه عن نبأ محمد فأوشك أن يقع في قلبه انه وحي السماء لو لم ينطق لسانه بأنه السحر الذي يفرق بين الرجل وزوجه والولد وبنيه والسيد ومولاه ...

وافترق قليلا يوم شهد خالد سكينة المسلمين في طريق الحديبية وهم قائمون للصلاة ، وهجس في خاطره أن يغير عليهم فصدته عنهم رهبة الصلاة ونخوة الفارس المحجم عن الغدر والغيلة ، وسرى في روعه ان لمحمد لسرا وان الرجل لممنوع .

وكان لتلك الحركة الجياشة مدد من تحريك الكتائب وتجريد الطلائع واقامة الأرصاد والتقاء الجموع واتفاق الكلمة بين المشركين على الحرب والعداء ، فاذا هم يتبلبلون مختلفين بعد صلح الحديبية ، واذا بصلح الحديبية يلقي السلاح من الأيدي سنين طوالا لا لقاء فيها ولا نزال ، ولا سورة من غضب ولا جذوة من غيظ مثار .

ومات الشيوخ الذين كانوا يخيمون بوقارهم وجمودهم على العقول وتهيأ الجو للسؤال : فيم هذا العداء والنضال ؟ أمن أجل الكعبة ومحمد يرعاها ويحترم جوارها ويحج اليها ؟ أم من أجل الكرامة ومحمد يصون للعزيز كرامته ويعرف للحسيب قدره ؟

ومن أين لمحمد ذلك النصر المبين بعد النصر المبين ؟

ومن أين له تلك المهابة التي ترد عنه الأعين والأيدي من قريب ؟

ومن أين له ذلك العون الذي يدركه وقد أحاطت به الهزيمة من كل فج فاذا هو ناصل (١) منها واذا هو الطارد

---

(١) ناصل : خارج .

وقد خيل اليهم انه الطريد المخذول ؟

ومن أين للمسلمين ذلك الأدب وذلك الخشوع ؟ ومن أين للنبي بينهم ذلك السلطان الصادع والصوت المسموع ؟

لقد رآهم ورآه سيد أهل الطائف عروة بن مسعود فعاد الى قومه يقول : « والله يا معشر قريش ... جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في عظمته فما رأيت ملكا في قومه مثل محمد بين أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه بشيء أبدا فانظروا رأيكم فانه عرض عليكم رشدا ، فاقبلوا ما عرض عليكم فاني لكم ناصح ، مع أني أخاف ألا تنصروا عليه » .

ولقد رأوه بعد ذلك في عمرة القضاء لا يتوضأ وضوءا الا كاد المسلمون يقتتلون عليه ، واذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، ولا يحدون النظر اليه ، ورأوهم في نظامهم ومودتهم وصدق ايمانهم وخالص نياتهم ، فأكبروهم وعز عليهم أن يصغروهم أو يتمادوا في الزراية بهم والاعراض عنهم ، وانقلبوا الى أنفسهم فاذا هم مرتابون في الغد متدابرون في المقصد ، منهزمون وهم الأكثرون محجمون وهم المتربصون ، فحانت الساعة لوزن الأمور ومراجعة الحاضر والمصير ، وفرضت هذه المراجعة فرضا على كل ذي بصر بالقيادة في معارك النضال أين تفشل وأين يتسع لها المجال ، فاذا بالرجلين المفطورين على توجيه الوجوه قد انتهيا الى رأي في مصير المعركة بين الجاهلية والاسلام في ساعة واحدة ، وعلما أين يقف الدينان المتناجزان من حق النصر وعوارض الهزيمة ، وهما عبقريا قريش في اصول القيادة على تباين السن والمذهب والمزاج : خالد بن الوليد وعمرو بن العاص .

وفي تلك الآونة التي يشتد فيها الجذب والدفع بين الانسان وقرارة ضميره وتجب فيها الموازنة وجوبا على كل ضليع بها قادر عليها ، لم يترك خالد لنفسه ولم يلبث أن جاءته الدعوة التي تنصره على عناده وتخرجه من تردده ، وتستدعي منه البت العاجل بجوابه ، وتمسح الغضاضة التي لعلها كانت تثنيه عن تلبية ضميره .

وتلك رسالة من أخيه يحملها له من كلام محمد ولا غنى فيها عن جواب ·

قال أخوه الوليد : « ··· أما بعد ··· فاني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام ، وعقلك عقلك ، ومثل الاسـلام يجهله أحد » ؟ ···

ثم مضى يقول : « سألني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أين خالد ؟ فقلت : يأتي الله به · فقال : ما مثل خالد يجهل الاسلام ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ، ولقدمناه على غيره ·

فاستدرك يا أخي ما فاتك منه ، فقد فاتتك مواطن صالحة ·

* * *

تلك كانت هي الدعوة التي جاءت في أوانها ·

وكان اسلام خالد هو الجواب ·

* * *

فهي مراحله الطبيعيـة التي لا بـد له مـن عبورها بين الجاهلية والاسلام : لم يكن طبيعيا أن يلبي أول دعوة وهو هو في قريش صاحب معقلها المنيع ·

ولم يكن طبيعيا أن يلبي الدعوة في وطيس الحرب ومحتدم العداء ·

ولم يكن طبيعيا أن يسكن هنيهة الى الموازنة وقد انقسم بيته ثم انقسمت نفسه ثم جاءته الدعوة الكريمة في حينها فلا يكون الاسلام جوابه المنظور ·

فهو قد انتقل من الاصرار ، الى القتال ، الى الموادعة ، الى الموازنة ، الى الترجيح ، الى الاجابة ،ولو عجل بواحدة من هذه الخطوات لكانت هذه العجلة هي مكـان العجب وهي الأمـر المخالف لطبائع الأمور ·

وقـد أسلفنـا ان الاسلام كـان في أمر خالـد ضربا من التسليم ، فنعيد هنا انه تسليم القائد في معركة نفسية وليس بتسليم القائد في معركة حسية وكفى ، ولهذا عناه أن يستغفر

له النبي ربه عن ماضيه ، ولم يكن قصاراه أن يرحب به النبي ويسلكه بين صحابته ومريديه • فقال : يا رسول الله •• قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندا عن الحق ، فأدع الله يغفرها لي •

فأجابه النبي عليه السلام : ان الاسلام يجب ما كان قبله •

فعاد خالد يؤكد رجاءه ويقول : يا رسول الله ، وعلى ذلك !

فدعا النبي ربه : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضح فيه من صد عن سبيلك •

فرضي خالد واستراح ••

ولا يكون هذا الا تسليم القلب نفض عنه الكفر ، وليس تسليم اليد رمت منها السلاح •

* * *

وأحرى بنا أن نرجع الى كلام خالد لبيان تاريخ إسلامه وسبب اهتدائه وتلخيص الأحاديث التي كاشف بها خلصاءه قبل لحاقه بالنبي في المدينة ليسلم على يديه ، فانه أجمل ذلك كله اجمالا يفصح عن تلك الأطوار النفسية التي ساورته وان لم يقصد الى الافصاح عنها ، ولعل صدورها منه على البديهة أبين لها وأقرب الى توكيدها من الشرح المقصود •

قال : «لما أراد الله بي من الخير ما أراد ، قذف في قلبي حب الاسلام وحضرني رشدي وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد فليس موطن أشهده الا وانصرف واني أرى في نفسي اني موضع في غير شيء وان محمدا سيظهر (١) ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحديبية خرجت في خيل المشركين فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه بعسفان ، فقمت بازائه وتعرضت له ، فصلى بأصحابه الظهر اماما ، فهممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا •

---

(١) سيظهر : سينتصر •

(٢) عسفان : موضع بين مكة والمدينة •

وكان فيه خيرة • فاطلع على ما أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك مني موقعا وقلت : الرجل ممنوع • وافترقنا وعدل على سنن خيلنا ، فأخذ ذات اليمين ، فلما صالح قريشا بالحديبية ودافعته قريش بالراح قلت في نفسي : أي شيء بقي ؟ أين المذهب ؟ فأخرج من ديني الى نصرانية أو يهودية • أفأقيم في عجم أو اقيم في داري فيمن بقي ؟

« وبينما أنا كذلك اذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمرة القضية ، وتغيبت فلم أشهد دخوله ، وكان أخي الوليد قد دخل مع النبي صلى الله عليه وسلم في تلك العمرة، فطلبني فلم يجدني • فكتب الي كتابا فاذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم • أما بعد • فاني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام وعقلك عقلك ، ومثل الاسلام يجهله أحد ؟ وقد سألني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أين خالد ؟ فقلت يأتي الله به • فقال : ما مثل خالد يجهل الاسلام ؟ ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ، ولقدمناه على غيره ، فاستدرك يا أخي ما فاتك منه ، فقد فاتتك مواطن صالحة » •

« فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الاسلام ، وسرتني مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأيت في النوم كأني في بلاد ضيقة جدبة فخرجت الى بلد أخضر واسع • فقلت : ان هذه الرؤيا حق ! فلما قدمت المدينة قلت لأذكرنها لأبي بكر ، فذكرتها فقال : هو مخرجك الذي هداك للاسلام ، والضيق الذي كنت فيه الشرك • فلما أجمعت الخروج الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت :من أصاحب الى محمد ؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت : أما ترى يا أبا وهب ؟ أما ترى ما نحن فيه ؟ انما نحن أكلة رأس (١) ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم • فلو قدمنا عليه فاتبعناه ؟

(١) أكلة رأس : كناية عن قلة العدد •

فأن شرف محمد شرف لنا ، فأبى علي أشد الاباء ، وقال : لو لم يبق غيري من قريش ما تبعته أبدا ، فافترقنا ، وقلت : هذا رجل موتور يطلب وترا (١) ، قتل أبوه وأخوه ببدر . ولقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان ، فقال لي مثل ما قال صفوان .. فقلت له : فأطو ما ذكرت لك .. وخرجت الى منزلي فأمرت براحلتي تخرج الى أن ألقى عثمان بن أبي طلحة ، وهو صديق لي أذكر له ما اريد . ثم تذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره ، ثم قلت : وما علي وأنا راحل من ساعتي ؟ فذكرت له ما صار الأمر اليه ، وقلت : انما نحن بمنزلة ثعلب في حجر لو صب عليه ذنوب من ماء خرج ، وقلت له نحوا مما قلته لصاحبيه ، فأسرع الاجابة .. وأدلجنا بسحرة فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج ـ على ثمانية أميال من مكة ـ فغدونا حتى انتهينا الى الهدة ، فوجدنا عمرو بن العاص بها فقال : مرحبا بالقوم . قلنا : وبك . فقال : أين سيركم ؟ قلنا : ما أخرجك ؟ قال : فما الذي أخرجكم ؟ قلنا الدخول في الاسلام واتباع محمد . قال : وذاك الذي أقدمني . فاصطحبنا جميعا حتى قدمنا المدينة ، فأنخنا بظاهر الحرة ركائبنا ، وأخبر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر بنا . فلبست من صالح ثيابي ثم عمدت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيني أخي فقال : أسرع فان رسول الله صلى الله عليه وسلم اخبر بقدومك فسر بقدومك وهو ينتظركم ، فأسرعت المشي ، فطلعت فما زال يبتسم الي حتى وقفت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة ، فرد علي السلام بوجه طلق فقلت : اني أشهد ان لا اله الا الله وأنك رسول الله . فقال : الحمد لله الذي هداك . قد كنت أرى لك عقلا ورجوت أن لا يسلمك الا الخير » .

الى أن قال : « وتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قدومنا في شهر صفر من سنة

(١) الوتر بكسر الراء : الثأر والموتور : الحاقد .

ثمان ، فوالله ما كان رسول الله يوم أسلمت يعدل بي أحـدا من أصحابه فيما حزبه (١) » •

فهذا السرد البسيط قد يحوم بنا حول الخالجة الأولى التي حركت قلب خالد الى الايمان بالدين الجديد ، ونحسب انها قد خالجته يوم التقائه بالمسلمين في طريقهم الى مكة قبيل صلح الحديبية •• يوم ردته سكينة الصلاة عن جموع المسلمين وهم مسالمون قانتون الى جوار البيت الحرام ، ويوم بدا له ان هذا البيت العتيق غير خاسر شيئا بدعوة محمد وغلبة أصحابه على البلد الأمين ، ويوم تراءى العنت (٢) من قريش أن يذودوا ابن عبد المطلب عن كعبة آبائه وأجداده ، ويفسحوا طريقها للوافدين من حمير كما قال الحليس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش ••

فمنذ تلك الساعة تباعد ما بين خالد وبين الشرك وتقارب ما بينه وبين الاسلام ، وطفق يتباعد من هناك ويتقارب من هنا حتى كانت مبايعته النبي على ما تقدم قبل فتح مكة بشهور •

وفي تحقيق هذا التاريخ ــ تاريخ اسلامه ــ خلاف غير قليل ، ولكن التاريخ الذي جاء في سرده المنسوب اليه أرجح التواريخ جميعا لأسباب كثيرة ، ليس بأهونها ولا أوهنها السبب النفساني الذي يقترن بغيره • فان الوقت المشار اليه آنفا لهو أشبه الأوقات أن يتفق فيه قائد الحرب وقائد السياسة على انتهاء الجولة بين قريش والاسلام • ولن نجد وقتا هو أولى باتفاق القائدين على اختياره للتسليم من ذلك الوقت الذي تواردت فيه الخواطر بين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص • وبعده قضي الأمر ولم يبق لمكة الا أن تفتح أبوابها طائعة لمن هجرته وهجرها تلك السنوات الثمان •

وقد علم النبي عليه السلام جلية الأمر منذ قدم اليه الرفاق الثلاثة فقال لصحبه : رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها ، وحق

---

(١) حزبه : أصابه من أمر •

(٢) العنت : التشرد وطلب المشقة •

للمسلمين أن يحسبوا منذ تلك الساعة ان أولئك الرفاق الأفذاذ قد جاءوهم بمقاليد الكعبة ومسالك البلد الأمين ٠

فالواقع ان مكة قد آذنت بالفتح(١) منذ فارقها خالد وعمرو وعثمان بن طلحة ، فأصبحت « المدينة المفتوحة » التي نعرفها في اصطلاح هذه الأيام ، وأصبحت قضية مغلقيها في وجه الدين الجديد قضية عبث وحبوط ٠

ويخطيء الكاتبون الذين يزعمون انها فتحت بعد شهور لأنها أخذت على غرة وزحف عليها جيش المسلمين في عشرة آلاف وأهلها معجلون (٢) عن الأهبة والدفاع ٠

فان النبي عليه السلام انما زحف عليها لأن قريشا غدرت بعهدها وسطت على حلفائه من خزاعة ٠ ثم أشفقت من القصاص فأوفدت أبا سفيان الى النبي يستأمنه ويسأله مد العهد الذي أبرم بينهم في صلح الحديبية ، فأبى النبي ولم يجبه ، وأحس المشركون منذ اللحظة الأولى ان المسلمين زاحفون عليهم لا محالة ، فلو ان قضية الشرك بقيت لها بقية من عزم لاستعدوا قبل السطو بخزاعة أو بعده على الأثر وأراحوا أنفسهم من الوساطة في التأجيل والمراوغة ، ولكنه التسليم الذي بدأ باسلام خالد وصاحبيه قد تراخى به الوقت الى أجله المعلوم ٠

* * *

فلما جاءها المسلمون دخلوها آمنين على كثرة من بها من المشركين ، وتقدم النبي صلوات الله عليه في كتيبته الخضراء، وتقدم سعد بن عباده والزبير بن العوام وخالد بن الوليد الى أبوابها فدخلوها كل من الباب الذي وكل اليه ، ونهى النبي أصحابه عن القتال فيها فلم يحدث قط قتال الا من صوب خالد ابن الوليد ، لأن صفوان بن أمية وسهيلا بن عمر وعكرمة بن أبي جهل رصدوا للباب الذي وصل منه وجمعوا له جمعهم

---

(١) آذنت بالفتح : أعلمت ٠

(٢) معجلون : مأخوذون على غرة فهم غافلون ٠

فمنعوه ورموه بالنبل وشهروا عليه السلاح ، فبطش بهم وقتل منهم قرابة ثلاثين أكثرهم من قريش وأقلهم من هذيل ، وولى السادة والأتباع بعد ذلك في هزيمة نكراء .

أهو تدبير أم مصادفة أحكم من التدبير ؟

خالد دون غيره تصادفه جنود رفقائه بالأمس في جيوش المشركين فيرمونه ويرميهم وقد كانوا معا يرمون المسلمين عن قوس واحدة .

انه حارب في صفوف الإسلام عرب الجزيرة وعرب العراق والشام ، وحارب في صفوف الاسلام جيوش الفرس والروم ، وحارب في صفوف الاسلام كل من برز لتلك الصفوف ، فما بال الجاهلية القرشية وحدها ينصرها على المسلمين ولا ينصر المسلمين عليها ؟ وأين يلتقي بها ان فاته لقاؤها في ذلك اليوم ؟ قالوا : انه خالد قوتل فقاتل . فقال : « قضاء الله خير » . ثم قال : « لا تغزى قريش بعد هذا اليوم الى يوم القيامة ... » .

وغرائب الاتفاق هكذا تكون حيث تكون .

---

(١) لا تغزى : لا نافية ، ولذلك فالفعل بعدها مرفوع ، أي : لن يقع عليها غزو .

مع النبي

أحاط بالنبي عليه السلام نخبة من كبار الرجال مختلفون في الأعمار والاقدار ، مختلفون في البيئات والأحساب ، مختلفون في فهم الدين وبواعث الاسلام ، فكان اختلافهم هذا آية من أصدق الايات على رحابة الافق وتعدد الجوانب في نفس ذلك الانسان العظيم ، وكان علمنا بكل رجل من أولئك الرجال مزيدا من العلم بعظمة هاديهم وسيدهم وموجه كل منهم في وجهته التي هو أصلح لها واقدر عليها ، وهم يلتقون أول الامر وآخره في ذلك الينبوع الفياض من تلك الفطرة العلوية التي فطرها الله لهداية الامم وقيادة الرجال ، بل لقادة القواد الذين يروضون الأمم والرجال ٠

وما من عظيم من هؤلاء العظماء الا كان تقدير النبي اياه بقدره الصحيح اية على عرفانه الشامل بخصائص النفوس وسبره (١) العميق لأغوار الطبائع والافكار ، ولكن تقديره لخالد بن الوليد على التخصيص كان آية الآيات في هذا الباب ، لأنه عليه السلام لم يكبره اكبار السياسي الذي يستجمع القوة حواليه وينزل كل زعيم منزلة قومه من الوفرة والعزة والجاه والعتاد ، وانما أكبره لانه عرف أقصى مستطاعه قبل أن يظهر من مستطاعه كثير ، وسماه « سيف الله » وبينه وبين الوقائع التي استحق بها ذلك اللقب الجليل بضع سنوات ٠ بل سماه سيف الله وهو قافل من معركة يتلقى المسلمون من عادوا منها بالنكير والتشهير ، ويحثون في وجوههم التراب ويصيحون بهم أينما وجدوهم : يا فرارا ٠ يا فرارا ٠ فررتم من سبيل الله ٠

لم يكبر النبي خالدا كما أكبر أبا سفيان تألفا له ورعيا لمكانه في قومه ولكنه أكبره للصفة التي سيوصف بها في تاريخ الاسلام بعد اهتدائه اليه ببضع سنوات ٠

أكبره لأنه « سيف من سيوف الله » والناس لا يرون الا

---

(١) سبره لاغوار الطبائع : سبر الجرح : نظر فيه ليعرف ما غوره وعمقه ٠

الهزيمة والارتداد ، ولم يكن النبي موليه القيادة في المعركة التي ارتد منها بجيش المسلمين ، فيقول قائل انه ينصر قائدا هو المسئول عن اختياره ، وهو من ثم المسئول عن ارتداده أو فراره · ولكنه ولى اخرين وترك اختياره بعدهم لمشيئة اخوانه في الجيش ، فاختاروه بعد ذلك مجمعين ·

كثير من رؤساء الامم يعرفون موضع الادليل من رؤوس القادة وهم منتصرون ظافرون،ولكنه موضع يخفي جد الخفاء على أنظار هؤلاء الكثيرين اذا لم يدلهم عليه ضياء النصر والظفر ويبقى للعين الملهمة وحدها ان تراه في ظلام المحنة والبلاء ·

ولقد صحب خالد النبي ثلاث سنوات ، وعهد اليه النبي في كثير من الاعمال الصغيرة واشركه في بعض الاعمال الكبيرة : ومنها غزوة مؤتة وغزوة حنين وسرية بني جذيمة ، فما من هذه الأعمال الكبيرة عمل واحد لم يتسع فيه المقال للشانىء والحاسد ولم ينظر إليه الناظر من وجهين متعادلين تارة الى جانب العذر وتارة الى جانب الملام ، ولو انه رضي الله عنه قضى نحبه في السنة العاشرة للهجرة أو بعد ذلك بقليل لعجب المؤرخون كيف سمي « سيف الله » وفيم استحق هذا اللقب الذي لا يعلوه لقب في الاسلام ، ولكن النبي وحده قد عرف قبل الحادية عشرة للهجرة انه حقيق بذلك اللقب على أوفى مداه ، وسماه به قبل أن يهزم المرتدين وقبل أن يهزم الفرس والروم وقبل أن يصون للاسلام جزيرة العرب ويضم اليها العراق والشام · وهي الأعمال الجسام التي من أجلها يدعى اليوم سيف الاسلام ·

وانما هو البصر العلوي الذي يلمح هذه القدرة في معدنها حيث ينظر الناس فيرون خالدا مرتدا من غزوة مؤتة أو مأخوذا مع الخيل وهي تولي في أول المعركة من ميدان حنين ، أو صانعا في سرية بني جذيمة ما يبرأ منه النبي عليه السلام ·

ولهذا ينبغي أن توزن هذه الأعمال بميزانها الصحيح لاقامة خالد نفسه في مقامه الصحيح ، فهي ولا ريب من المعدن الذي نجمت منه حروب الردة وفتوح العراق والشام ·

١ ـ سرية مؤتة

وأول هذه الأعمال قد اشترك فيه متطوعا بعد اسلامه بشهرين أو ثلاثة أشهر ، وهو سرية مؤتة التي سيرت الى البلقاء ·

وكان سبب هذه الغزوة ان النبي عليه السلام أرسل وفدا الى ذات الطلح بمقربة من الشام ليدعوهم الى الاسلام ، فقتلوا جميعا وعدتهم خمسة عشر الا رئيسهم نجا من القتل وحده ولعلهم أبقوا عليه عمدا ليخبر بما راه ، على ديدن المنكلين في ابلاغ مثلاتهم (١) الى من يهددونه بالتمثيل والتنكيل ·

وأرسل عليه السلام الحارث بن عمير الازدي رسولا الى هرقل فقتله شرحبيل بن عمرو الغساني وهو في الطريق ·

فأشفق عليه السلام من عقبى (٢) السكوت على كلتا الفعلتين وهو غير مأمون ·· وعلم ان قبائل الجزيرة العربية نفسها قد أذعنت للدعوة الجديدة ، ومنها المتربص للغدر متى قدر عليه ، والموهون الايمان الذي لا يصبر على الاغراء والاستثارة ، فاذا استضعف الغسانيون وجيران الغسانيين شأن النبي وأفلتوا من جرائر فعلة كتلك الفعلة اللئيمة جرأهم ذلك عاجلا على اقتحام الصحراء للنقمة من المسلمين ، فتهب القبائل لنصرتهم في عيون أولئك البدو الذين جهلوا بأسها ووهموا أنهم قادرون عليها ! اذ لا مطمع للدولة الرومانية في مقاتلة المسلمين واخضاع الجزيرة بغير هذه الوسيلة ، ولا سبيل الى تسيير الجنود الرومانيين بنظامهم المعروف ومعاهداتهم الكثيرة لمنازلة المسلمين في عقر دارهم من وراء المفاوز والنجود ، وتسييرهم بحرا الى شواطىء الحجاز لا يغنيهم عن الاستعانة باناس من العرب وأهل البادية، وهم أولى أن يستعينوا على هذا المطلب بأتباعهم الأقدمين في تخوم الشام ·

---

(١) المثلات (بفتح الميم وضم التاء) العقوبات ·
(٢) عقبى : عاقبة ·

فلم يجد عليه السلام مناصا من الثأر لأصحابه المقتولين ، وجرد لتأديب المعتدين جيشا صغيرا لا تتجاوز عدته ثلاثـة آلاف ، وكان في ذلك الجيش خالد بن الوليد ونخبة من أقدم الصحابة عهدا بالاسلام ، فلم يتول خالد قيادته لأنه كان على الأرجح أحدثهم عهدا بالدخول فيه ، وتولاها زيد بن حارثة « فان أصيب فالرئيس جعفر بن أبي طـالب ، فان أصيـب فعبد الله بن رواحة ، فان أصيب فليرتض المسلمون بينهم رجلا فليجعلوه عليهم » ..

وأمرهم عليه السـلام أن يذهبوا الى حيـث قتل الرسول فيدعوا القوم الى الاسلام ،فان أجابوا والا فالقتال، وأوصاهم: « ألا تغدروا ولا تغلوا (١) ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا ولا فانيـا ولا معتزلا بصومعـة ، ولا تقربوا نخلا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء » .

ولا شك أن هذا الجيش انما كان بالوصف العصري « حملة تأديبية وبعثة استطلاع » يقاد على هذا الاعتبار ومن أجـل هذه الغاية ، ولا يراد به بداهة أن يحطم قوة الدولة الرومانية أو يفتح البلاد التي كانت يومئذ في يديها ..

فمضى لهذه الوجهة حتى نزل معان (٢) وأقام بها ليلتين ، وسمع المسلمون هناك أن هرقلا قد عسكر بمآب (٣) في مائة ألف من الروم ومائة ألف من قبائل لخم وجذام والقين وبهراء وبلى على أهبة اللقاء .

وقد يقع في الخاطر أن الروم علموا بمسير جيش المسلمين فأعدوا هذه الجحافل الجرارة ثم سيروها الى تخوم الدولة في مدى الأيام التي مضت من خروج جيش المسلمين الى بلوغهم أرض معان ، وهو خاطر بعيد جد البعد لما هو معلوم من صعوبة جمع الجيوش وتسييرها في مثل هذه السرعة ، ولما يبدو مـن

---

(١) لا تغلوا : لا تخونوا في المغانم .

(٢) معان : مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز .

(٣) مآب : مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء .

ضخامة هذه الجحافل بالقياس الى القوة الاسلامية التي مهدوا للقائها ، ولم يكن ليفوتهم أن يعلموا بحقيقتها أنهم تلقوا الخبر بخروجها ممن رآها ..

والأرجح أن هرقل انما كان في جموعه هنالك في زيارة الشكر التي نذر لله أن يؤديها اذا هو ظفر بالفرس ورد منهم صليب الكنيسة الكبرى الذي حملوه معهم يوم فتحوا بيت المقدس ، وربما كان هرقل قد بارح بيت المقدس في ذلك الحين وتخلفت جيوش ركابه لأداء هذه الفريضة معه أو للقيام بمراسم الحفاوة في تلك الزيارة التاريخية .

ورأى المسلمون أن مدد الروم حاضر على مقربة منهم ، وأن الحرب بين عسكرين على هذا التفاوت البعيد عمل غير مجد ، ولم يكن منظورا ولا مقصودا عند مسير الجيش من المدينة ، فرجع بعضهم وتمهل الأكثرون منهم ليستأذنوا النبي فيما يصنعون ، وغلبت حماسة الشجاعة وحمية الشهيد على عبد الله بن رواحة فانتهر المترددين والمثبطين وقال لهم : « يا قوم ! والله ان التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون : الشهادة . وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فانما هي احدى الحسنيين : أما ظهور واما شهادة ! » ..

فاستمعوا اليه ولم يشاءوا بأية حال أن يرجعوا قبل الانتهاء الى مقصدهم الذي خرجوا من أجله وهو ابلاغ الدعوة الى قاتلي الرسول النبوي وابراء الذمة اليهم قبل القصاص ، ان وجب قصاص .

فتقدموا من معان الى مؤتة على مسيرة نحو ليلتين ، وفيها حصن للغسانيين يقيم به أمير منهم في خدمة الرومان .

واحتمى الأمير الغساني منهم بحصنه ثلاثة أيام لعله كان ينتظر فيها مددا أو أمرا من رؤسائه ، ثم التقى الفريقان على مزرعة في جوار البلدة ، فاستمات من بقي من جيش المسلمين ، وحاربوا على ما يظهر وهم مفاجأون ، لأننا لم نسمع في أخبار الوقعة بتوجيه الدعوة أو الاجابة عليها ، ولأن قائدا منهم أعجل عن طعامه ولم يذق القوت ساعات ، فلما فوجئوا بالقتال

لم تدع لهم المفاجأة من خطة غير خطة الصمود للخطر والثبات في وجهه مخافة المصاب الأكبر في هذه الحالة وهو مصاب الذعر والدهشة والملاحقة بلا هوادة ٠

وكأنما استحى القادة الثلاثة أن يرشحوا للموت ويرجعوا دونه ابتغاء النجاة ، فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل ، وأحاط القوم بجعفر بن أبي طالب وهو يحمل اللواء ويثير من حوله نخوة المسلمين ، فأنحوا عليه بالضرب الدراك (١) حتى قطعت يمينه ثم قطعت شماله ثم ضم اللواء الى عضديه ولبث يناضل عنه الى أن مات ٠

ودعي ابن رواحة الى الرئاسة فجاءه ابن عم له بعرق من لحم وقال له : شد بهذا صلبك فانك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده فانتهش منه نهشة ، ثم سمع الحطمة (٢) في ناحية المعترك فألقاه من يده وجرد سيفه وهو ينشد :

يا نفس الا تقتلي تموتي
هذا حمام الموت قد صليت (٣)
وما تمنيت فقد أعطيت
ان تفعلي فعلهما هديت

فطفق يصول بين الصفوف ويهدر بالشعر حتى قتل والمعركة في أشدها ٠٠

فما هي الا لحظة حتى دبر المسلمون أمر الرئاسة بوحي البديهة ونور العقيدة وهداية الفداء التي تهدي الى المصلحة الكبرى وتغفل كل مصلحة دونها ٠ واذا باللواء يأخذه في تلك اللحظة ثابت بن أقرم من بني العجلان وينادي في أصحابه : « يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم » ٠ قالوا : « أنت » قال : « لا ٠ ما أنا بفاعل » ٠ فاتفقت الكلمة على خالد بن الوليد فاذا هو يتولى القيادة في حينها ويصنع لساعته خير ما يصنع في ذلك الحين ٠

---

(١) الضرب الدراك : المتلاحق المتواصل ٠
(٢) الحطمة : زحام الناس وتدافعهم ٠
(٣) صليت : من (صلى النار) أي احترق ٠

وخير ما يصنع في ذلك الحين هو الارتداد المأمون ..

وهو أصعب من النصر في بعض المآزق . لأن النصر ميسور مع اجتماع العدة له واحتمال الشدة فيه . ولكن الارتداد المأمون غير ميسور لكل من يريده وهو في أضعف الموقفين .. الا أن تكون له خبرة بالقيادة تكافىء الرجحان في قوة العدو الذي يرتد بين يديه .

وأول شيء ينبغي أن يحتاط به لارتداده هو أن يوقع في روع عدوه أنه لا ينوي الارتداد بل ينوي الهجوم أو يقصد الى الحيلة .

فصمد في الميدان حتى المساء .

ثم بدل مواقف الجيش تحت الليل فنقل الميمنة الى الميسرة ونقل الميسرة الى الميمنة وجعل الساقة في موضع المقدمة والمقدمة في موضع الساقة ، ورصد من خلف الجيش طائفة يثيرون الغبار ويكثرون الجلبة عند طلوع الصباح . فلما طلع الصباح على الفريقين اذا بكل طائفة من طوائف الغسانيين والروم ترى قبالتها وجوها غير الوجوه وأعلاما غير الأعلام ، واذا بالجلبة مع هذا الاختلاف في الوجوه والأعلام توهم القوم أن مددا جديدا أقبل على جيش المسلمين ، وكانوا قد ذاقوا منهم أمر المذاق بغير مدد وهم مفاجأون ، فلما ذهب خالد يدافع القوم ويخاشي بجيشه (١) لم يتبعوه حذرا من الكمين وتوقعا للاحاطة بهم من ورائهم ، وأبلى خالد في هذه المدافعة والمخاشاة بلاء لم يبله قط في غزواته الكبرى على كثرتها . فاندقت في يده تسعة سيوف ولم تصبر معه الا صفيحة يمانية (٢) ، وكان هذا التراجع المحمي بشجاعة المستميت غطاء صالحا للجيش الصغير في مواجهة الجيش الكبير . فقفل الى المدينة بسلام ، وعرف خالد منذ ذلك اليوم بلقبه الذي أضفاه عليه النبي وهو سيف الله ، وعاد الناس يقولون مع النبي انهم

---

(١) يخاشي : من المخاشاة وهي المحاجزة .

(٢) الصفيحة : السيف العريض .

الكرار باذن الله وليسوا بالفرار ..

وقد سمعنا في عصورنا هذه بالألقاب الكبار تضفى على القادة لأنهم نجحوا في خطة ارتداد لا محيص منها . فتلك هي السنة النبوية تسبق النظم العصرية الى تقدير القائد البارع بقيمة النجاح في ارتداده كما تقدره بقيمة النجاح في تقدمه وانتصاره . ولو ان خالدا ملكته فطرة المجازفة ولم تملكه فطرة القيادة البصيرة لساءت العقبى أيما سوء وتعرضت الدعوة الاسلامية لمحنة لا نعرف مداها الآن . ولربما تعرضت لهذه المحنة من جانب الجزيرة العربية قبل أن تتعرض لها من جانب الروم والغسانيين . لأن الجيش قد خرج من المدينة تأديبا لأناس متصلفين قتلوا رسولا واحدا أو قتلوا وفدا لا تجاوز عدته خمسة عشر . فاذا تورط هذا الجيش في الزحف حتى اصطلم كله ولم يعد منه أحد ، فكيف يكون وقع هذا التأديب المعكوس في نفوس البادية المتحفزة أو في نفوس أهل مكة ولما تسلم مفاتيحها للمسلمين ؟ انه ليبعث السخرية والاستهانة من حيث أريدت له الهيبة والمنعة ، وانه ليثير من الفتن ومساوىء الظنون ما يصعب استدراكه في سنين .

ولكن الجيش قد عاد وأبلى في أعدائه وتسامعت الجزيرة بعدد الجحافل الهرقلية التي حسبتها مرصدة له ولم تقدر على تمزيقه ولا أصابت منه غير اثني عشر قتيلا منهم القادة الثلاثة الذين ندبوا للشهادة قبل خروجه ، فالسرية اذن قد نهضت بأمانتها ووقع في نفوس المسلمين من فرط الثقة ببأسهم انها كانت قادرة على جهاد أعظم من جهادها وثبات أطول من ثباتها . وهي مغالاة في القوة والبأس خير من المغالاة في الضعف والخور ، ولا ضرر منها ما شفعتها تلك البصيرة العلوية التي تضع الأمور في نصابها ، وتصف النجاح بصفاته ولو بدا للناس في ثياب الاخفاق ..

٢ ـ بنو جذيمة

وقد أثنى النبي على خالد في مهمة لم يندبه لها ولم يرشحه

لها مرشح غير كفاءته واتفاق رأي المسلمين فيها ·

ولكنه لامه وبريء من عمله حين أخطأ في مهمة ندبه لها بعد فتح مكة وهي السرية التي قادها الى بني جذيمة ليكشف عن طويتهم ويدعوهم الى الاسلام ··

فبعد فتح مكة توجهت عنايته عليه السلام الى تطهير البوادي المحيطة بها من عبادة الأصنام ، فأرسل السرايا الى قبائلها لدعوتها والاستيثاق من نياتها ، ومنها سرية خالد الى بني جذيمة في نحو ثلثمائة وخمسين من المهاجرين والأنصار وبني سليم ·· أرسلهم دعاة ولم يأمرهم بقتال ··

وكان بنو جذيمة « شر حي في الجاهلية يسمون لعقة الدم ، ومن قتلاهم الفاكه بن المغيرة وأخوه عما خالد بن الوليد (١) ، ووالد عبد الرحمن بن عوف ، ومالك بن الشريد وأخوته الثلاثة من بني سليم في موطن واحد » وغير هؤلاء من قبائل شتى ·

فلما أقبل عليهم خالد وعلموا أن بني سليم معه لبسوا السلاح وركبوا للحرب وأبوا النزول · فسألهم : آمسلمون أنتم ؟ فقيل ان بعضهم أجابه نعم ! وبعضهم أجابه : صبأنا ! صبأنا ! أي تركنا عبادة الأصنام ، ثم سألهم : فما بال السلاح عليكم ؟ قالوا : ان بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوهم فأخذنا السلاح ! فناداهم : ضعوا السلاح فان الناس قد أسلموا : فصاح بهم رجل منهم يقال له جحدم : ويلكم يا بني جذيمة ! انه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح الا الاسار وما بعد الاسار الا ضرب الأعناق ، والله لا أضع سلاحي أبدا · فما زالوا به حتى نزع سلاحه فيمن نزع وتفرق الآخرون · فأمر خالد بهم فكتفوا وعرضهم على السيف ، فأطاعه في قتلهم بنو سليم ومن معه من الأعراب ،

---

(١) أي أنهم كانوا قتلوا في الجاهلية اثنين من أعمام خالد وجاء في (الاغاني) أن القتيلين هما ابن الفاكه المغيرة عم خالد ، والفاكه بن الوليد بن المغيرة أخو خالد ·

وأنكر عليه الأنصار والمهاجرون أن يقتل أحدا غير مأمور من النبي عليه السلام بالقتال · ثم انتهى الخبر الى النبي فرفع يديه الى السماء وقال ثلاثا : « اللهم اني أبرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد » وبعث بعلي بن أبي طالب الى بني جذيمة فودى دماءهم وما أصيب من أموالهم ·· قيل انه « كان يدي حتى ميلغة الكلب » ويسألهم : أبقي دم أو مال لم يود لكم ؟ فلما اكتفوا ورضوا فرق بينهم بقية المال « احتياطا لرسول الله » وقد سأل رسول الله فتى من جذيمة انفلت اليه لينبئه نبأ خالد مع آله وذويه : هل أنكر عليه أحد ! قال : نعم · قد أنكر عليه رجل أصفر ربعة ورجل طويل أحمر . فاشتدت مراجعتهما · وكان عمر بن الخطاب بمجلس رسول الله فقال : أما الأول يا رسول الله فابني عبد الله · وأما الآخر فسالم ·· مولى بني جذيمة ··

ويعزى الى خالد أنه استند في قتالهم الى قول عبد الله بن حذافة : « ان رسول الله قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الاسلام » ·

وقد عم النكير على الحادث بين أجلاء الصحابة ، من حضر منهم السرية ومن لم يحضرها ، واشتد عبد الرحمن بن عوف حتى رمى خالدا بقتل القوم عمدا ليدرك ثأر عميه اللذين قتلهما بنو جذيمة مع عوف أبي عبد الرحمن ورجل من بني أمية · وقصة مقتلهم أنهم كانوا قد خرجوا تجارا الى اليمن ثم عادوا ومعهم مال رجل من بني جذيمة قضى نحبه هناك يحملونه الى ورثته وأهله · فاعترضهم جذمي (١) في رهط من قبيلته يدعى خالد بن هشام وزعم أنه وارث المال وأحق به من غيره · فمنعوه ينظرونه أن يصلوا بالمال الى أهل الميت · فغضب وقاتلهم بالرهط الذي معه فقتل عوفا والفاكه بن المغيرة ثم عمد عبد الرحمن الى خالد بن هشام هذا فقتله بثأر أبيه · وهمت قريش بغزو بني جذيمة لولا أن مشى

---

(١) جذمي : نسبة الى جذيمة ·

بعض العقلاء بينهم بالصلح فتصالحوا على الدية والمال ٠

ومن الاسراف أن يظن بخالد بن الوليد أنه تعمد قتل أناس وهو يعلم أن دمهم حرام ويتخذ من مهمة النبي ذريعة الى شفاء ترة قديمة ٠ فأدنى من ذلك الى القصد في فهم الحقيقة أن نبحث عن دواعي اللبس ودوافع الطبع التي تدفع خالدا خاصة الى مثل هذا التصرف ، فان كانت هذه الدواعي وهذه الدوافع قائمة مفهومة فهي تفسير لما حدث وفيها الكفاية ، وان لم تكن قائمة ولا مفهومة فهنالك ينفسح مجال الظنون والفروض لمن يشاء ٠٠

وقد كانت دواعي اللبس ودوافع الطبع قائمة مفهومة في مقتلة بني جذيمة ٠ فان البوادي كلها حول مكة كانت تزخر بالشر وتتحفز للوقيعة في تلك الآونة بعد تسليم مكة ٠ فلم تمض أيام على سرية خالد حتى كانت بطون هوازن وثقيف وجشم وغيرها متجمعة في العدة الكاملة والعديد الوافر لمباغتة النبي وجمعه ، فاذا ارتاب خالد في نيات طائفة من أهل البادية مشهورين بالشراسة والغدر وهم يلقونه بالسلاح فله في ارتيابه وجه لا يخفى ، واذا أضيف الى ذلك تلجج القوم في اعلان اسلامهم والافضاء بنياتهم فليس اللبس هنا بعازب عن بال المتوجس في أشباه ذلك المقام ٠٠

وقد يغني الشعر والقصص في الكشف عن شعور القوم هنا ما ليس يغنيه التاريخ وتسلسل الرواية ، فمن كلام أحد الوهبيين في خطاب بني جذيمة بن عامر يسوغ لنا أن نفهم أنهم لم يكونوا متفقين على الاسلام والمسالمة ، وذلك اذ يقول:

دعونا الى الاسلام والحق عامرا
فما ذنبنا في عامر اذ تولت

وما ذنبنا في عامر لا أبالهم
لئن سفهت أحلامهم ثم ضلت

وقال أحد الجذميين :

فلا قومنـا ينهـون عنـا غواتهـم
ولا الداء من يوم الغميصاء ذاهب (١)

وفي قصة رواها محمد بن اسحاق بن يسار ـ وهـو مـن الثقات ـ شواهد على اصرار بني جذيمة وعنادهم الى ما بعد الاسار والانذار ، وفحوى هذه القصة كما أثبتها صاحب كتاب الأغاني حيث نقلت ببعض التصرف : « ان خالدا بن الوليد كان جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فسئل عن غزوته بني جذيمة فقال : ان أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم تحدثت • فقال : تحدث فقال : لقيناهم بالغميصاء عند وجه الصبح • فقاتلناهم • حتى كاد وجه الشمس يغيب ، فمتحنا الله أكتافهم (٢) فتبعناهم نطلبهم ، بغـلام له ذوائب على فرس ذنوب في أخريات القوم ، فبوأت له الرمح فوضعته بين كتفيه ، فقال : لا اله • فقبضت عنه الرمح ، فقال : الا اللات أحسنت أو أساءت • فهمسته همسة أذريته وقيذا ـ أي مشرفا على الموت ـ ثم أخذته أسيرا فشددته وثاقا ، ثم كلمته فلم يكلمني واستخبرته فلم يخبرني فلما كان ببعض الطريق رأى نسوة من بني جذيمة يسوق بهن المسلمون • فقال : أيا خالد ! قلت : ما تشاء ؟ قال : هل أنت واقفي على هؤلاء النسـوة فأتيت على أصحابي ففعلت وفيهن جارية تدعى حبيشة ، فقال لها ناوليني يدك ، فناولته يدها في ثوبهـا • فقـال : أسلمي حبيش قبل نفاد العيش ، فقالت : وأنت حييت عشرا أو تسعا وترا وثمانيا تترى » •

قال: «وتناشدا الأشعار حتى قتل وأقبلت الجارية ووضعت رأسه في حجرها وجعلت ترشفه وتبكي •••» الى آخر القصة في الجزء السابع مـن الأغاني وهي على ظهـور الاختراع في بعضها لا تخلو من دلالة على موقف بني جذيمة من سرية خالد •

---

(١) الغواة : السفهاء ، جمع عوي ، والغميصاء : ماء لبني ، جذيمة قرب مكـة •

(٢) فمنحنا الله اكتافهم : أي أنهم تركوا الحومة طلبا للنجدة •

فأذا صح مع هذا ان خالدا تلقى من عبد الله بن حذافة السهمي أمرا بقتال بني جذيمة نقلا عن النبي عليه السلام فهو خليق أن يعتمد على الفتوى من أمثاله لحداثة اسلامه وقلة علمه بفقه الدين وأحكامه ، وهي على أية حال رواية لا تغفل كل الاغفال في صدد البحث عن أخبار هذه السرية ...

والجو كله بعد هذا وذاك ـ سواء في البادية أو في مكة ـ هو جو الحرب والريبة وجو التربص والنفور ، فلا عجب أن تختلف فيه النوازع والاراء وأن تستطار (١) فيه دواعي الشر والنقمة ، وان يتطرق اليه اللبس وتتعذر فيه استبانة الوجه الصراح (٢) .

وعند خالد دوافع الطبع الى جانب دواعي اللبس واختلاط الآراء ، وهي الدوافع التي قد نعد منها حداثة السن في ذلك الحين . ومنها انه تناول الموقف كما يتناوله القائد المطبوع على القتال في الصحراء ، ويحدث للقائد في هذا الموقف كثيرا أن يفرق بين ضربين من التسليم : هما تسليم المراوغة والختل وتسليم الاذعان والنصيحة ولا سيما تسليم العدو المتهم المتردد الذي يحيد عن الصراحة ويفند اناس منه مقال اناس آخرين ..

ومن دوافع الطبع عند خالد تلك الصرامة التي ينشأ عليها كل من نشأ في مثل بيئته من الجاهلية ، وتلك الشدة التي تثيره اليها أعصابه ويومىء اليها تفرغه في نومه ومشاركة اخوته في عوارضها الموروثة على نحو من الأنحاء ، وهي ولا ريب تلك الشدة التي عناها عمر بن الخطاب حين قال : « ان في سيف خالد لرهقا » وهو من أعرف الناس به وأقربهم اليه ، وهي التي توقعها جحدم أخو بني جذيمة حين صاح بقومه محذرا اياهم من القاء السلاح : ويلكم يا بني جذيمة . انه خالد ! . كأنها خليقة معهودة منه لا تحتاج الى تأويل بعيد .

---

(١) تستطار : تستثار .

(٢) الوجه الصراح : الرأي الواضح .

وندرت في تاريخ الحروب القديمة والحديثة حرب تدور على العقيدة الدينية أو الحمية الوطنية لا تحصى عليها فلتة من أشباه هذه الفلتات ، ولا يقع فيها نذير السيف حيث ينبغي أن يقع بشير السلام ٠

ولا يبعد أن يكون خالد قد ورث من عمومته جفوة لبني جذيمة فجنح بـه شعوره الى سوء الظن بهم وقلـة الطمأنينة اليهم من حيث لا يقصد الترة ولا يتعمد الانتقام ٠

فكل هذا أقرب الى تعليل بطشته بالقوم من اتهامه بحمل أمانة النبي على دخل (١) وسوء نية وهو الرجل الذي حارب أصدقاءه وأقرب الناس اليه على أبواب مكة ، وله ندحه (٢) عن حربهم لو تعمد اجتنابها أو كان قصاراه أن يتعلل باللسان ولا يرجع الى صدق النية في اطاعة النبي عليه السلام ٠٠

ومهما يلم اللائمون أو يعذر العاذرون في هذه الزلة فمقطع القول فيها بين المنصفين انها خطأ وان الابقاء على خالد بعدها صواب ٠ لأن صواب الابقاء على خدمته بعد غزوة بني جذيمة قد ظهر أيما ظهور في حروب الردة وحروب الفرس والروم ٠

وذلك مثل من تربية النبي عليه السلام لأفذاذ الرجال ٠

ويتجلى تمام هذا المثل باعطاء الرجال فرص المراجعـة والاصلاح في أمر يشبه الأمر الذي أخطأوا فيه ، وموقف قريب من الموقف الذي عرضهم للملامة وهذا الذي توخاه عليه السلام حين أرسل خالدا دون غيره الى بني المصطلق ــ وهم من بنـي جذيمة ــ ليستخبر له خبرهـم ويتبين الحـق فيما بلغـه عن ارتدادهم ، وكان الوليد بن عقبة قد أخبره انهم ارتدوا عن الاسلام ٠ فندب عليه السلام خالـدا « وأمـره أن يتثبت ولا يعجل ٠ فانطلق حتى أتاهم ليلا فبعث عيونه فلمـا جـاءوه أخبروه بأنهم متمسكون بالاسلام وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالدا فرأى ما يعجبه فرجع الى النبي صلى

(١) الدخل : (بفتح الخاء) الخديعة والمكر ٠
(٢) له ندحة عن حربهم : الندحة : السعة ٠

الله عليه وسلم فأخبره » •

وهو مثل ينبىء عن كثير ، وقد ينبىء فيما ينبىء عنه ان خالدا لم يتعسف كل التعسف في شكه الأول ببني جذيمة على اختلاف بيوتهم ، لأن الشك فيهم ما زال يتكرر بعد ذلك بشهور ، وما زال يدعو الى تلقي الاشاعة عنهم وايفاد الوفود اليهم مرتين للتمحيص والاستخبار •

٣ ــ غزوة حنين

ولم تمض أيام معدودات على مقتلة بني جذيمة حتى لمس خالد موضع الثقة من نفس النبي في حادث من أكبر حوادث الاسلام وهو غزوة حنين •

لمس هذه الثقة في غزوة حنين مرتين : مرة في اسناد قيادة الخيل اليه على طليعة الجيش ، ومرة في سؤاله عنه وعنايته به بعد هزيمة الخيل مولية عند اشتباك الجمعين •

وحق خالد في تلك الثقة انما يستبين من عرض الغزوة كلها لجلاء الاسباب التي أوقعت الهزيمة الأولى بجيش المسلمين ، ولا يد فيها لخالد من قريب أو بعيد ••• بل لعلها توحي الينا ان هزيمة خيله يومئذ انما كانت كصد الأجسام للأجسام ضرورة مادية لا دخل فيها للعوامل النفسية ، أمام جارفة من الجوارف القوية ، تأخذ ما أمامها من انسان أو حيوان ومن شجاع أو جبان •

فقد فتحت مكة والأعراب من حولها ثائرون محنقون ، وعلموا يومئذ انها الوقعة الفاصلة وانه لا مطمع بعدها في مكافحة النبي اذا تطاولت الأيام على قيام دينه في البلد الحرام وموطن الكعبة والأصنام • فاجتمعت قبائل همدان من هوازن وثقيف وجشم ومشى بعضهم لبعض يقولون : « ان محمدا قد فرغ من قتال قومه ولا ناهية له عنا • فلنغزه قبل أن يغزونا ، واستنفروا القبائل (١) فلباهم من أقربائهم عدد كبير منهم

---

(١) استنفروا القبائل : حرضوها على القتال •

الشباب ولدد الخصومة (١) والعناد٠٠فساق أموالهم ونساءهم

وتولى قيادتهم مالك بن عوف النصري ، وهو فتى جريء في نحو الثلاثين يجمع الى غطرسة الامارة وحمية الفروسية حدة الشباب ولدد الخصومة (١) والعناد٠٠فساق أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، وأمرهم اذا رأوا المسلمين « أن يكسروا جفـون سيوفهم (٢) ثم يشدوا شدة رجـل واحد » ٠ فاما فوز واما فناء ٠ وصفت الخيل ثم الرجالة (٣) المقاتلة ثم الابل عليها النساء ثم صفت الغنم ٠ ثم صفت النعم في حراسة لئـلا تفر والجيش مشتغل عنها ٠

وسأله دريد بن الصمة حكيم القوم : مالي أسمع رغـاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ؟ قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فسخر دريد برأيه وقـال له : رويعي صبأن والله ! وهل يرد المنهزم شيء ؟ انها ــ أي الحرب ــ ان كانت لك لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه ، وان كانت عليك فضحت في أهلك ومالك ، فرماه مالك بالخرف ولج في عناده ولج في بني هوازن ميلا الى كلام دريد فجمح به غضبه العارم وأقسم : « لتطيعني يا معشر هوازن أو لأتكئن علـى هذا السيف حتى يخرج من ظهري ! » ٠

فهي عزمة رجـل مستميت لا يبالي ما يصنع بنفسـه أو بقومه في سبيل قهر المسلمين ٠٠

ونما الخبر الى النبي فخرج في ألفين من أهل مكة حديثي العهد بالاسلام وعشرة آلاف من أصحابه الذين قدموا معه من المدينة ٠ وقيل انهم كانوا جميعا ثمانية آلاف ٠

وأعوزه السلاح فاستعار من بعض المشركين دروعا فأعطوه ثلاثين أو أربعين درعا ــ وقيل مائة درع ــ بما يكفيهـا مـن السلاح ، واستعـار من ابن عمـه نوفل بـن الحارث بن عبد

---

(١) اللدد : شدة الخصومة ٠

(٢) جفون السيوف : أغمادها ٠

(٣) الرجال : جمع راجل وهو عكس الفارس ٠

المطلب ثلاثة آلاف رمح ، فأعاره اياها وهو يقول : كأني أنظر الى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين •

وأخرج خالدا على طليعة الجيش في مائة فارس من بني سليم • قال الحارث بن مالك : خرجنا مع رسول الله ونحن حديثو عهد بالجاهلية فسرنا معه الى حنين ، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوما • فرأينا ونحن نسير مع رسول الله سدرة خضراء (١) عظيمة ، فتنادينا من جنبات الطريق : يا رسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط • فقال رسول الله : الله أكبر • قلتم ــ والذي نفسي بيده ــ كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ! ••

وكان في الجيش كثير من أمثال هؤلاء المسلمين المحدثين ، ومعهم في ساقة الجيش جمع من المشركين بين رجال ونساء ينظرون ما يكون ، وكان فيهم أبو سفيان الذي قال حين رأى بوادر الهزيمة : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ! •• وفيهم كلدة بن الحنبل الذي صرخ شامتا متعجلا : ألا قد بطل السحر اليوم ، وصرخ معه آخرون يقولون : اليوم نرجع العرب الى دين آبائها ••

وكان الغالب على جيش المسلمين في خروجهم قلة الاكتراث بعدوهم ، فقال أبو بكر الصديق : لن نغلب اليوم من قلة ••• ونسبت هذه الكلمة الى غيره ، ولكنها قيلت على التحقيق لما جاء في القرآن الكريم « اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا » •

وتقدم الجيش حتى حضرت صلاة الظهر فجاء رجل فارس فقال : يا رسول الله ••• اني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبلا فاذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم(٢) ونعمهم

---

(١) السدرة : شجر النبق •

(٢) الظعن : جمع ظعينة وهي الهودج •

وشائهم اجتمعوا الى حنين • فتبسم رسول الله وقال : تلك غنيمة المسلمين غدا ان شاء الله • ثم سأل : من يحرسنا الليلة ؟ • قال أنس بن أبي مرثد : أنا يا رسول الله • فأمره عليه السلام أن يستقبل الشعب (١) حتى يكون في أعلاه ، وقال له : لا تغرن من قبلك الليلة •

فلما أصبحوا سأل النبي : هل أحسستم فارسكم ؟ • يعني ذلك الحارس المستطلع • قالوا : يا رسول الله ما أحسسنا • فجعل عليه السلام يصلي ويلتفت الى الشعب ، حتى اذا قضى صلاته قال : أبشروا فقد جاءكم فارسكم •• فجعل ينظر الى خلال الشجر في الشعب واذا هو قد جاء حتى وقف وقال : اني انطلقت حتى اذا كنت في أعلى هذا الشعب حيث أمرني رسول الله فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما فنظرت فلم أر أحدا ، فسأله : هل نزلت الليلة ؟ قال لا • الا مصليا أو قاضي حاجة •

وروى مسلم من حديث عكرمة بن عمار عن اياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال : « غزونا مع رسول الله حنينا فلما واجهنا العدو تقدمت فأعلو ثنية (٢) فاستقبلني رجل من المشركين فأرميه بسهم وتوارى عني فما دريت ما صنع ، ثم نظرت الى القوم فاذا هم قد طلعوا من ثنية اخرى ، فالتقوا هم وصحابة رسول الله فولى أصحاب رسول الله ، وأرجع منهزما » •••

وحدث أبو عبد الرحمن الفهري قال : « كنا مع رسول الله في حنين فسرنا في يوم قائظ شديد الحر » •

وروى محمد بن اسحق بسنده : « خرج مالك بن عوف بمن معه الى حنين فسبق رسول الله اليها فأعدوا وتهيأوا في مضايق الوادي وأحنائه وأقبل رسول الله وأصحابه حتى انحط بهم الوادي في عماية الصبح ، فلما انحط الناس ثارت في وجوههم

---

(١) الشعب : بكسر الشين انفراج بين جبلين •
(٢) الثنية : الطريق في الجبل •

الخيل فشدت عليهم وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد » ·

وفي روايات شتى أن كمينا من المشركين فاجأ المسلمين من شعبة في الوادي وقابلهم بنبل كأنه الجراد المنتشر ، « وكانوا رماة ·· لا يكاد يسقط لهم سهم » فأدبرت الخيل وأدبر المقاتلة وراءها لا يلوون على شيء ·

وتلك جملة الأخبار عن بدء المعركة جمعناها من مصادر متعددة وأثبتنا بعضها بحروفها ، ويتبين من المعارضة بينها ان الهزيمة انكشفت من الهجمة الاولى ، لأن الخيل فوجئت في الطليعة بالنبل المنتشر من الكمين المستتر ، فولت منهزمة في جفلة حيوانية معروفة في أشباه هذه المواقف ، وقديما ذكر الرواة عن حرب الاسكندر وامراء الهند ان جفلة الفيلة من الحديد المحمى كانت هي سبب الهزيمة التي اصيبت بها الهند فانقلبت الفيلة وبالا عليهم وقضت وهي مولية على الكثيرين من فرسانهم ومشاتهم ، تطأ بعضهم وتوقع الاخرين وتدفع من حاول الثبات الى الفرار ، ولم تمض على حنين بضع سنوات حتى لقي الفرس من فيلتهم في حرب المسلمين مثل هذا المصرع ومثل هذا الجفلة الحيوانية ، يوم تعمدها المسلمون بالضرب في الأعين والخياشيم ·

وقد حدث مثل هذا مرة اخرى في وقعة حنين هذه حين حاول المسلمون أن يكروا بعد الفرار « فصار الرجل يلوي بعيره فلا يقدر على ذلك لكثرة الأعراب المنهزمين ، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله ويؤم الصوت » ·

وهكذا بدأت الهزيمة بفرار الخيل ولحاق المشاة بهم واختلاط الحابل بالنابل بعد ذلك من الفريقين ، وتواتر القول ان الطلقاء الحديثين في الاسلام أدبروا منهزمين عمدا بعد الهجمة الأولى · فأشاعوا الهزيمة فيمن معهم من المهاجرين والأنصار ·

ولقد أوشك أهل مكة أن يستقبلوا الأعراب المتقدمين على رضا من بعضهم لحنينهم الى الدين القديم ، وعلى كره من

بعضهم لا نفتهم من غلبة الأعــراب على قريش ، ولــولا أن تغير مجرى القتال ودارت الدائرة على المشركين بعد لحظات ، وكان الفضل في ذلك لحركة جاءت من قبل المسلمين وحركــة جاءت من معسكر الأعراب ، وكان مجيئهما في الموعد المقدور ٠

فأما الحركة التي جاءت من قبل المسلمين فهي بروز النبي عليه السلام بشخصه الكريم الى مقدمة الصفوف ٠ فقد ثبت في ذلــك الهول الجارف ثبوتا يجل عــن الوصف وأخذ زمام المعركة كلهــا في يديه ليمضي وحده في القتــال كيفما تصير الأمور ٠

وكان قد شهد المعركة على بغلته دلدل أو الشهباء ، فانحاز الى اليمين سريعا ليستطيع التقدم بين تلك الصفوف المتدفعة من مدبرين ومقبلين ، والتفت الى اليمين ونادى : يــا معشر الأنصار ٠٠ ثم التفــت الى اليســار ونادى كذلــك يا معشر الأنصار ٠٠٠ فتسامعوا وتجاوبوا وعطفوا ــ كمــا وصفهــم شاهدو الموقف ــ عطفة الابل على أولادها ، واجتمع معهم حول رسول الله مئات في لمحة عين ٠

● ❋ ●

وتختلف الروايــات في وصف هــذه الحركة المجيــدة من بدايتها ، فيقول بعضها ان الناس أدبروا يومئذ عن رسول الله حتى بقي وحده ، ويقول بعضها : بل بقي معه نفر قليل منهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث وربيعة بن الحارث ومعتب بن أبي لهب وعبد الله بن مسعود وقليلون لا يتجاوزون الاثني عشر ٠ وجعل رسول الله يقول :

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

ثــم أمر عمــه العباس أن يصرخ في الجيش : يــا معشر الأنصار ٠٠٠ يا أهل السمرة (١) ٠ يا أصحاب سورة البقرة ٠

---

(١) السمرة : ضرب من الشجر ، وهي الشجرة التي تمت تحتها بيعــة الرضوان ٠ وكأنه يناديهم : يا من بايعتم رسول الله ٠

يا بني الخزرج ٠٠٠ وكان العباس رضي الله عنه جهير الصوت يسمع صوته على مسافات بعيدة ٠ وقيل انه كان يقف على سلع (١) وينادي غلمانه بالغابة فيسمعونه وبينه وبينهم ثمانية أميال ٠

فلما جلجل صوته بهذا النداء اذا بالأنصار والمهاجرين يتجاوبون يا لبيك يا لبيك ٠٠٠ ويسرعون الى ناحية الصوت زرافات زرافات ، حتى تجمع منهم ثلاثمائة أو يزيد في لحظات ، ثم شاعت بين الألوف المؤلفة قدوة الكر والاقبال بعد الفر والادبار ، فاذا بالجيش بقضه وقضيضة يعدو الى ساحة القتال ويرسل الخيل والمطايا ليملك كل منهم زمام يديه وقدميه ٠ وهانت النفوس حتى استهدفت النساء للموت غير مباليات ، ومنهن من لم تكن على صحة في النظر كالعميصاء أم أنس بن مالك ، وكانت وهي حامل تحزم وسطها ببرد لها وفي حزامها الخنجر لدفاع من يجترىء عليها ٠

وكان خالد بن الوليد قد ثنى عنان فرسه بعد التوائه في الهجمة الأولى فلم يزل يقاتل حتى سقط مثقلا بالجراح لا يقوى على السير من مؤخرة رحله (٢) ، وهناك وجده النبي عليه السلام حين خرج يتفقد الجرحى بعد المعركة ، فبارك له وواساه ٠

أما الحركة التي جاءت من قبل المشركين فأعانت على هزيمتهم فذاك انهم قد غرتهم طلائع النصر فأقبلوا على الغنائم والأسلاب وشغل الكثيرون منهم بالتقاطها واستلابها عن مطاردة المدبرين ٠ فاتفقت الحركتان في وقت واحد لتحويل وجهة القتال ٠

* * *

ويتبين من مقدمات المعركة كلها ومن بوادرها التي

---

(١) سلع : جبل ٠
(٢) مؤخرة الرحل : الجزء الذي يستند اليه الراكب في آخره ٠

أجملناها ان الهزيمة فيها بعد الهجمة الأولى كانت ضرورة مادية لا محيد عنها ، وانها ضرورة لم يكن لخالد يد فيها ولا طاقة باتقائها ، لأن أسبابها كلها كانت من وراء تدبيره ومشيئته ، وهي كثيرة نجملها ما وسعنا الاجمال ٠

فمنها ان الروح التي غلبت على جيش المسلمين في بداية المعركة كانت روح استهانة وقلة اكتراث وان الروح التي غلبت على روح المشركين يومئذ كانت روح استماتة وعناد مع تقارب العدد بين الجيشين ٠

وربما رجحت كفة المشركين في الدروع والسلاح لما تقدم من حاجة النبي عليه السلام الى استعارة بعض الدروع والرماح ٠

و « منها » ان جيش المسلمين كان فيه كثير من الطلقاء قد يبلغون الألفين وقد يزيدون ، وكانوا على دخل (١) أو على ضعف يبيتون النية على خذلان النبي ٠ فخذلوه وتبعهم الناس ٠

و « منها » ان جيش المشركين سبق المسلمين الى مواقفه فاختار وأحسن الاختيار ، وهجم في الوقت الذي ارتضاه ٠

و « منها » ان المسلمين كانوا يواجهون الشمس عند الصباح واليوم قائظ لا تقوى فيه العيون على مواجهة شعاعها ، فحيل بينهم وبين التثبت والاحكام في مطلع الصباح الى أن استوت الشمس في كبد السماء ٠

و « منها » ان استطلاع المسلمين لم يكن على عادته من البراعة والتيقن والاسراع ٠ فقد أبطأ الفارس المستطلع حتى التمسه النبي عليه السلام مرات ٠ ثم جاء ولم يخبر بشيء ، ثم ظهر الكمين المرهوب من حيث لا يرونه فأوقع بالخيل وهي لا تحسب له أي حساب ، وهذا مع مهارة المشركين في الرماية حتى قيل انهم لا يسقط لهم سهم ٠

و « منها » ان بني سليم أصحاب الخيل التي تولاها خالد

---

(١) الدخل : (بفتح الخاء) الخديعة والمكر ٠

كانوا على قرابة من هوازن، وعز عليهم أن يلاحقهم المسلمون بعد استدارة المعركة فكانوا يقولون : ارفعوا القتل عن بني أمكم • وكانوا مع هذا ضعاف الاسلام فسبقوا الى الردة بعد موت النبي عليه السلام ، وما زالوا في موضع الظنة بعد ذلك على عهد الخلفاء •

* ✶ *

فتقدير النبي عليه السلام لخالد بن الوليد انما هو التقدير الصحيح لأعمال السرايا والجيوش في مؤتة وبني جذيمة وحنين ، وكأنما هو تقويم الجوهري الخبير للجوهر النفيس في معدنه الخفي غير مصنوع ولا مصقول ، وللتاريخ من بعده تقويم الجوهر بما يضفي عليه من جمال الصوغ والضياء •

ونعود هنا فنقول : ان تقدير النبي عليه السلام خالدا ابن الوليد لم يكن تقدير المجاملة لمكانه أو لما يرجى من قومه الأقوياء بني مخزوم ، فانه عليه السلام لم يجامله في وصفه الذي طابقته حوادث الأيام ، ولم يجامله حين قدم عليه في القيادة ثلاثة من السابقين في الاسلام وترك اختياره بعدهم لاتفاق كلمة المسلمين ، بل لم يجامله حين خاصم عبد الرحمن ابن عوف فغضب النبي عليه السلام وقال له معرضا : « يا خالد ذر أصحابي • لو كان لك أحد ذهبا فأنفقته قيراطا في سبيل الله لم تدرك غدوة أو روحة من غدوات أو روحات عبد الرحمن » •

انما هو سيد السادة ومربي الرجال والأبطال ، يقوم الأعمال بقيمتها وينزل العظماء في منازلهم ، ولا يمنعه اداء المجاملة أن يجامل بمقدار على حسب السوابق والأقدار •

وقد تولى خالد للنبي أعمالا اخرى في سنوات صحبته الثلاث ، ولكن الأعمال التي اخترناها هي أكبر أعماله في حياته عليه السلام ، وهي أقرب الأعمال الى وزن كفايته وتقويم معدنه وتمييز خلقه ، ولكنه اريد لكل عمل صغير كما

اريد لكل عمل كبير ، وكانت للنبي علية السلام نظرة في كل مهمة مقدورة ندبه اليها ...

* * *

فمن مهامه الصغيرة تسييره في ثلاثين فارسا لهدم «العزى» بعد فتح مكة ببضعة أيام ، وهي الصنم الذي كان أبوه يتمسح به وينحر له الابل والغنم ، وكان سظدنته من بطون بني سليم الذين قاتلوا مع خالد في مقاوم شتى . وقد كان معبود القبائل التي لقيها المسلمون في يوم حنين ، وأصله ثلاث شجرات بأرض نخلة يزعمون ان ربهم كان يشتو بها لحر تهامة ويصيف باللات عند الطائف لبردها .. وظلت مخوفة الى ما بعد الاسلام . فيقول الكلبي (١) . « ان اللات والعزى ومناة لكل منها شيطانة تكلمهم وتراءى للسدنة من صنيع ابليس وأمره» وهي التي أرجف من أرجف من المشركين ان القرآن الكريم يرتضيها ويساومهم على عبادتها ويجعلون منه قولهم : « اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . تلك الغرانيق العلا . وان شفاعتهن لترتجى » (٢) .

فهي مهمة مخوفة من وجهتها النفسية وان سهلت من الوجهة الحربية ، فخرج خالد حتى انتهى اليها فهدمها ، وجاء في بعض الأقاويل انه : « لما انتهى اليها جرد سيفه فخرجت اليه امرأة سوداء عريانة ناشرة شعرها ، فجعل السادن يصيح بها :

«أعزى» اذا لم تقتلي المرء خالدا فبوئي باثم عاجل أو تنصري

فأخذ خالدا «اقشعرار في ظهره» وضربها بالسيف فشقها . ثم لقي النبي فقال له : الحمد لله الذي أكرمنا بك وأنقذنا بك من الهلكة . لقد كنت أرى أبي يأتي العزى بخير ماله من الابل والغنم فيذبحها للعزى ويقيم عندها ثلاثا ثم ينصرف

---

(١) الكلبي : صاحب كتاب الاصنام .

(٢) الآيات الكريمة تنتهي عند كلمة (الاخرى) وقد زعم المرجفون كذبا أن رسول الله تلا بعدها « تلك الغرانيق » وهو زعم كاذب .

الينا مسرورا ، ونظرت الى ما مات عليه أبي والى ذلك الرأي الذي كان يعاش في فضله وكيف خدع حتى صار يذبح لما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع » • فقال عليه السلام : « ان هذا الأمر الى الله فمن يسره للهدى تيسر له ومن يسره للضلالة كان فيها » • • •

وكذلك بلغت العبرة الى خالد قبل أن تبلغ منه الى الناس •

* * *

ومن المهام التي ندب لها في حياة النبي مهمة يمتزج فيها الشك بالأمل والرفق بالشدة والترغيب بالترهيب ، لأنها بعثة الى اناس غلابين مجتمعي الرأي أولي عصبة وبأس وحنكة ولهم سمة يخالفون بها سمة العرب في معظم أنحاء الجزيرة وهم بنو الحارث بن كعب بنجران •

أرسله اليهم وأمره أن يدعوهم الى الاسلام ثلاثة أيام ، فان استجابوا قبل منهم وان لم يفعلوا فله أن يقاتلهم فخرج اليهم وبعث الركبان فيهم يبشرون بالدين الجديد ويبصرونهم بفضائله وأحكامه ، فاستجابوا له ودخلوا فيما دعوا اليه •

وأقبل وفد من عظمائهم على النبي ـ بأمره عليه السلام ـ فقال حين رآهم : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟ • قيل يا رسول الله : هؤلاء رجال بني الحارث بن كعب • ثم سلموا ونطقوا بالشهادتين فقال لهم عليه السلام : أنتم الذين اذا زجروا استقدموا ؟ وأعادها ثلاثا وهم لا يجيبون • فلما أعادها الرابعة قال زعيمهم يزيد بن عبد المدان وفيه شوس وخيلاء (١) : نعم يا رسول الله • نحن الذين اذا زجروا استقدموا ، وكررها أربعا • فقال النبي :لو ان خالدا لم يكتب لي انكم اسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم • فانطلق ابن عبد المدان يقول : أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدا • قال : فمن حمدتم ؟ قالوا : حمدنا الله عز

(١) الشوس والخيلاء : التكبر والعجرفة •

وجل الذي هدانا بك يا رسول الله ٠

قال : صدقتم ٠ ثم سألهم : بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية ؟ قالوا متغضبين : لم نكن نغلب أحدا ٠ قال : بلى ٠ كنتم تغلبون من قاتلكم ٠ فعادوا يقولون : كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله انا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدأ أحدا بظلم ٠

قال : صدقتم ٠ وقفلوا الى ديارهم فأرسل اليهم عمرو بن حزم يفقههم في الدين ويعلمهم السنة ومعالم الاسلام ويأخذ منهم الصدقات ٠

* * *

وقد شهد خالد مع النبي عليه السلام غزوتين لم يجر فيهما لقاء واشتباك ، وهما غزوة الطائف وغزوة تبوك ٠

وكانت غزوة الطائف تتمة لوقعة حنين ، لاذت بها القبائل (١) بعد فرارها وامتنعت وراء أسوارها ،وجمعت من الميرة (٢) ما يكفيها الى السنة القابلة ، فأحاط المسلمون بالأسوار فرماهم المشركون بالنبل كأنهم أسراب الطير ، وقتلوا وجرحوا وهم متمكنون في أسوارهم ، فبرز خالد لهم يدعوهم الى النزال ولا يجيبه أحد ٠ ثم صاح به عبد يا ليل عظيم ثقيف : « لا ينزل منا أحد ولكن نقيم في حصننا فان فيه من الطعام ما يكفينا سنين ، فان أقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا اليك بأسيافنا جميعا حتى نموت عن آخرنا » ٠

فضربهم المسلمون بالمنجنيق وتقدم نفر من الصحابة تحت دبابتين من جلود البقر يفتحون ثغرة في الحصن ٠ فأرسل عليهم المشركون سكك الحديد (٣) المحماة فأحرقت الدبابتين وصدتهم عن السور ٠

وأمر عليه السلام بكرومهم ونخيلهم فقطعت وهم يصيحون : دعها لله والرحم ٠ فقال عليه السلام : « أدعها

---

(١) لاذت بها : أي بالطائف : أي لجأت اليها ٠
(٢) الميرة : الاطعمة ٠
(٣) السكك : جمع سكة وهي حديدة المحراث التي يحرث بها ٠

لله والرحم » • واستشار نوفل بن معاوية الديلي في أمرهم فأجابه : « يا رسول الله • ثعلب في جحر ان أقمت أخذته وان تركته لم يضرك » •

وفي الطريق قسم النبي غنائم حنين قسمة لم ترض اناسا ، فغضب رجل من المنافقين وصاح في حضرته : هذه قسمة ما اريد بها وجه الله • فاحمر وجهه عليه السلام غضبا وقال له : ويحك من يعدل اذا لم أعدل؟ووثب خالد وعمر يستأذنانه في ضرب عنقه فأبى وقال : لا • • لعله أن يكون يصلي • فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه ؟ فعاد النبي يقول : اني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أن أشق عن بطونهم •

أما غزوة تبوك فقد خرج لها النبي عليه السلام الى حدود الروم سنة تسع للهجرة في أعظم جيش شهده المسلمون في حياته • ومن ثم أمر خالدا أن يذهب الى دومة الجندل (١) ليأتيه بالأكيدر أميرها ، لأنه كان في وسط الطريق بين الحجاز والعراق والشام عينا (٢) للروم وحربا للقوافل يدين للقسطنطينية بالعقيدة وبالطاعة • ومن خبرة النبي عليه السلام بالقبائل وأحوالها والأمراء وعاداتهم انه قال لخالد : « ستجده يصيد البقر • • • فكان ما قال » •

★ ★ ★

وقد ذهب خالد الى الدومة في أربعمائة وعشرين فارسا فاقتحم الحصن واضطر من فيه الى التسليم ومنهم الأمير •وجاء به الى المدينة فصالحه النبي على الجزية وعاهده على الأمان •

وثم بعثة من غير هذا الباب ندب لها خالد ولم يندب لمثلها قط في عهد النبي ولا عهود خلفائه ، وتلك بعثته الى بني مراد وزبيد ومذحج باليمن يدعوهم الى الكتاب ويعلمهم شريعته وأحكامه •

---

(١) دومة الجندل : حصن بين المدينة والشام ، أقرب الى الشام •

(٢) العين : الجاسوس •

قيل أنه مكث فيهم أشهرا يدعوهم فلا يجيبونه ، وانه عليه السلام بعث بعده علي بن أبي طالب وأمره أن يقفل خالدا ومن معه فان أراد أحد أن يعقب معه تركه ٠

ولا غرابة عندنا في هذا الذي حدث ـ ان كان قد حدث على الوجه الذي ذكره الرواة ـ فان خالدا لم يسمع من القرآن ولا من فقه الدين كما سمع الصحابة ممن عاشروا النبي سنين بعد سنين ، وانما هي سنوات قلائل لم يفرغ فيها الا بضعة أشهر من الغزوات والبعوث ٠ وقد أم الناس بالحيرة ـ في خلافة الصديق ـ فقرأ من سور شتى ، ثم سلم والتفت الى الناس معتذرا يقول : « شغلني الجهاد عن كثير من قراءة القرآن ٠

* * *

ويجوز ان النبي عليه السلام أرسله في هذه البعثة ليدربه على الدعوة وليفرغ بعض وقته للمدارسة والمذاكرة بهداية من معه من فقهاء الصحابة ، ويجوز انه عليه السلام تعمد أن يرصده للبطل المشهور عمرو بن معد يكرب ـ فارس زبيد ـ ندا له يكف من غربه ويلزمه التدبر في عاقبه نكثه وانتفاضه (١) ٠

وفي تواريخ البعثة اضطراب قد يشكك القارىء في بعض وقائعها وأغراضها فيجوز أيضا ان البعثة وفقت بعض التوفيق أو كل التوفيق ، وان الرواة قد فاتهم في هذا الصدد شيء كثير أو قليل من التحقيق ٠

لكنها كائنا ما كان مصيرها ومصير عشر من أمثالها لو ندب الى عشر من أمثالها ـ لتسقطن من سيرة خالد ويبقين له ما هو حسبه (٢) من البطولة وصدق البلاء ٠ وليكونن بها أو بغيرها خطيبا يبين من منبر التاريخ ،وان لم يحمله قط منبر التعليم ٠

---

(١) انتفاضه : خروجه على الامر ومخالفته ٠

(٢) ما هو حسبه : ما يكفيه ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حروب الردة

لتفصيل الكلام في حروب الردة مكان غير هذا المكان ·
لأننا نتناول منها في هذا الكتاب ما يتصل بأعمال خالد وتقديم خصائصه ومزاياه · وندع ما عدا ذلك لمكانه من الشروح والمطولات ·

وقد رجعت حروب الردة ـ كجميع الثورات والأحداث الاجتماعية ـ الى أسباب مختلفة ولم تنحصر في سبب واحد ، وربما كان من أسبابها ما خفي على المؤرخين ولا يزال خافيا علينا حتى الآن ، ولكننا نعتقد ان الأسباب الآتية كافية لتفسيرها وتفسير نصيب خالد منها ، على القدر اللازم لفهمها وتصحيح دلالتها ·

فمن أسباب حرب الردة تمرد القبائل القوية على قريش ، وأقواها القبائل التي تنتمي الى ربيعة دون مضر · فانها كانت تتعصب لنسبها وتأنف أن تعلوها قريش بفضل النبوة والرئاسة ، وصرح بذلك طليحة النمري حين لقي مسيلمة زعيم بني حنيفة ومدعي النبوة في اليمامة فقال : أشهد أنك كذاب · لكن كذاب ربيعة أحب الينا من كذاب مضر ·

وكان مسيلمة هذا يقول : انه أراد أن يأخذ نصف الأرض ويترك نصفها لقريش « ولكن قريشا قوم لا يعدلون » ·

ولم تكن المنافسة بين قبائل مضر أخف ولا أضعف من المنافسة بين مضر وربيعة ، فان المنافسة في الأقربين أشد وأيقظ من المنافسة بين الأبعدين كما هو المعهود في كل قبيل · فكانت ذبيان وعبس وبنو أسد تكره من سيادة القرشيين ما تكرهه القبائل البعيدة · وروي عن عيينه ابن حصن مثلما روي عن طليحة النمري اذ قال يؤيد المتنبىء طليحة بن خويلد : « نبي من الحليفين أحب الينا من نبي من قريش » · ويعني بالحليفين بني أسد وبني غطفان ·

وكانت قريش تقابل مثل هذه النفرة بمثلها في أيام خصومتها للنبي وثورتها عليه · فكان صفوان بن أمية مشركا في وقعة حنين ، ولكنه أنكر من أخيه أن يفرح بنصر هوازن

وحلفائها ، وصاح به وهزيمة المسلمين على أشدها : « اسكت فض الله فاك • أتبشرني بظهور الأعراب (١) •• والله لأن يربني (٢) رجل من قريش أحب الى من أن يربني رجل من هوازن » •

ومن أسباب الردة ثورة البادية على الحاضرة • فما زال من دأب البادية في كل زمان أن تنقم على الحاضرة سلطانها ونعمتها ، ولم يشذ عن هذه السنة الا بضع قبائل فيما بين مكة والمدينة كانت تخشى من سطوة القبائل الكبرى ما ليست تخشاه من سطوة المدينتين ، وكانت تحتكم في خصوماتها الى وساطة أهل مكة تارة وأهل المدينة تارة أخرى ، فتؤثر مودة الجوار بعد طول الخبرة وطول العشرة على بلاء الفتنة فيما بينها اذا زال سلطان مكة والمدينة ، ولزم بعض هذه القبائل الحيدة يترقب ما يكون ، وأسرع بعضها الى تلبية الدعوة فحارب في صفوف المسلمين •

ومن أسباب الردة نجاح الدعوة المحمدية بعد فتح مكة • فان هذا النجاح أطمع بعض القادة من رؤساء العشائر في بلوغ مثل هذا المطلب الجليل •

فما هو الا أن استقر الأمر لمحمد في الحجاز وما حوله حتى اشرأبت الأعناق للاقتداء به وظن من ظن انهم قادرون على ما قدر عليه وان المسألة كلها مسألة كهانة واسجاع وقيادة واتباع ، وقصرت عقولهم عن ادراك سر القوة الأصيلة التي هيأت لمحمد كل ذلك التوفيق العظيم ، وهي ان دعوته مطلوبة لاصلاح الأخلاق والمعاملات ونظم الحكم والمعيشة في العالم كله وليست مجرد نهزة تنتهز لظهور رئيس مطاع وتحقيق مجد مرموق • فنجم الدعاة (٣) في حياة النبي باليمن ، ونجد ، والبحرين ، لمجاراة الدعوة بالحجاز ، وجاءت وفاته عليه

---

(١) ظهور الاعراب : انتصارهم •
(٢) يربني : يكون لي ربا والمقصود : يملكني ويحكمني •
(٣) نجم الدعاة : ظهروا •

السلام أثر ذلك فجرأتهم على المجاهرة بالعصيان ٠

ومن الأسباب التي أثارت القبائل فريضة الزكاة التي فرضها الاسلام على كل مستطيع ، فانها أثارتهم لضنهم بالمال وأنفتهم من الاتاوة وخالفت ما ألفوه حتى من أكاسرة الفرس وقياصرة الروم ، لأنهم كانوا يأخذون من هؤلاء أكثر مما يعطون ، وكانت الأتاوات التي يرضخون عنها أقل من المنح التي توزع عليهم بين حين وحين ، باسم الخلع أو الهبات ٠

بل كان منهم من ضاق ذرعا بالفرائض فأسقطها الدعاة عنهم جميعا وأعفوهم من كل فريضة ، ومنهم من أنف من السجود فقال لهم طليحة الأسدي : « ان الله لا يصنع بتعفير وجوهكم ، فاذكروا الله قياما ، فان الرغوة فوق الصريح » (١) ٠

ويلحق بهذا وأشباهه ان الدين الجديد لم ترسخ جذوره بعد في نفوس الأقصين من أعراب البادية ، ولم تهجر طباعهم بعد عادات الجاهلية في العبادة والمعيشة ، وقد كان المسلمون أعلم بهم من أن يدهمهم بالمفاجأة من قبلهم ، لأنهم عرفوا طويتهم قبل ذلك من القرآن الكريم : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم » ٠

وليس أقرب الى المألوف من نكوص هؤلاء على أعقابهم بعد موت النبي وشيوع الفتنة والاضطراب عن ايمانهم وشمائلهم ، مع اغراء الدعاة وفرط الحنين الى القديم وهو منهم جد قريب ٠

* * *

وثمة سبب لا يغفل ولو لم تذكره التواريخ بالسند القاطع والنص الصريح : وهو الدسيسة المبثوثة من الدول الأجنبية ٠٠ كل منها بما يوائمها وبما هي قادرة عليه ٠

---

(١) الرغوة فوق الصريح : مثل معناه ان الامر غامض وسوف يبدو ٠

وهذا يفسر لنا ان النبوة ظهرت من العرب أولياء فارس ولم تظهر من العرب اولياء الروم. وهم الغساسنة ومن جاورهم من قبائل التخوم السورية ، فهؤلاء يدينون بالمسيحيـة فلـم يظهر بينهم مدع او مدعية للنبوة ، ولكنهم ناوشوا المسلمين على التخوم مناوشة الحـرب والوقيعة ، امـا التغلبيون على مقربة من فارس فلم يكن عليهم حرج من دولتهم التي تحميهم أن يحاربوا دين العرب الجديد بدين اخر ، ولم يجدوا حرجا من عقيدتهم ان يسمعوا الى المتنبئين والمتنبئات ، لان عقيدتهم هذه كانت مزيجا من المجوسية والوثنية ومسحة من المسيحيه لا يرضاها أتباع كتاب • فلهذا ظهرت بينهم سجاح وسلكت في التبشير بدينها العجيب مسلكا لا يستريح العقل الى تفسـيره بغير تفسير واحـد ، وهو انهـا كانت تعمـل لغرض سياسي وباغراء دولة أجنبية ، ولا تعمل لغرض ديني ولا بدافع من عندها وعند ذويها •

فسجاح هذه كانت من بني يربوع أقرب بطون بني تميم الى نفوذ فارس ، ثم تزوجت في اخوالها التغلبيين بالعـراق ، ثم انحدرت من ثم الى أرض بني تميم مبشرة بدين جديد بعد موت النبي عليه السلام ، وانحدر معها جيش كثيف لا يستهان بأمره ، فلما دعت قومها الأولين بني يربوع الى هذا الديـن طلبوا اليها ـ على ما يظهر ـ ان تؤلف بطون بني تميم جميعا الى دينها قبل الزحف على الحجاز لمحاربة المسلمين ، فلم يتفق بنو تميم على رأي • وتركتهم الى اليمامة حيث كان مسيلمة الكذاب يتحفز كذلك للخروج على الاسلام ، ولم يكن أوفق لهما بهذه المثابة من التعاهد على غرض واحد هو : الزحف على الحجاز ولكنها رجعت الى قومها وهي تقول : «انها وجدته على الحق فتزوجته » وانه سيؤدي لها نصف غلات اليمامة وقد استنجزته شطر هذا النصف قبل مرجعها الى بلادها ••

فلماذا خالفها بنو تميم ؟ ولماذا خالفها مسيلمة ؟ ولمـاذا انحدرت ثم عادت ان كان همها التبشير بديـن جديد ؟ ولماذا

هابها مسيلمة وأعطاها الجزية هو يأنف أن يعطيها (١) خليفة المسلمين ويجرد لحربه جيشا قيل ان عدته أربعون ألفا وقيل بل ستون ولم يقل عن عشرين ألفا في تقدير أحد من المؤرخين ؟ ..

كل أولئك لغز سخيف لا يقبله العقل الا على وجه واحد ، وهو انها كانت داعية الفرس لتحريض العرب على الثورة ، ومن ثم أصابت ما أصابت من الاخفاق أو النجاح .

ويعزز ذلك انها لقيت في رحلتها عملاء فارس جميعا من أبناء البوادي العراقية والنجدية ، وانها عملت حيث كان الأكاسرة حريصين على تجديد نفوذهم القديم ..

قال ابن الكلبي : « كانت عين كسرى تبذرق ـ أي تحرس ـ من المدائن حتى تدفع الى النعمان بن المنذر بالحيرة ، والنعمان يبذرقها بخفراء من بني ربيعة حتى تدفع الى هوذة ابن علي الحنفي باليمامة ، فيبذرقها حتى يخرجها من أرض بني حنيفة ، وتجعل لهم جعالة (٢) ، فتسير بها الى أن تبلغ اليمن » .

وعلى هذا تكون مهمة سجاح قد وضحت على هذه الصورة التي لا لغز فيها ولا تناقض بين أجزائها .

ويكون بنو تميم وبنو حنيفة وغيرهم قد عاملوها المعاملة الواجبة لمن يعتز بصولة الاكاسرة ويخلف المناذرة في وقت واحد .

فقد هدمت وقعة ذي قار ـ التي مر ذكرها بأول هذا الكتاب ـ هيبة الأكاسرة في الجزيرة العربية .

وساء ظن الأكاسرة بالمناذرة ـ ملوك الحيرة ـ الذين كانوا صنائع فارس وكانت فارس تعول عليهم في اخضاع البادية القريبة والبعيدة ، فنكلوا بهم وعصفوا بدولتهم قبيل ذلك بقليل . فأرسل الأكاسرة أميرة تغلبية لتخلف المناذرة في هذه

---

(١) أن يعطيها : المقصود الجزية والضمير هنا يعود عليها أي على الجزية.

(٢) الجعالة : ما يجعل على العمل من أجر أو رشوة .

المهمة القديمة .

وكان اختيارها من بني تغلب أدنى شيء الى المعقول والمنظور ، لأنهم أعداء بني بكر الذين تصدوا لحرب الفرس وهزموهم في وقعة ذي قار .

ثم كان تردد بني تميم وحنيفة في معاملتها أدنى شيء كذلك الى المعقول والمنظور ، لأنهم أصدقاء المناذرة من زمن قديم ، فلا هم راضون بهوانهم ولا هم قادرون على اغضاب فارس . وغاية ما في وسعهم أن يصرفوا سجاح راضية ويقنعوها بأن الثورة على الاسلام حاصلة ، ويكون عملهم جميعا معقولا على هذا التفسير حيث يعوزه الفهم والوضوح على كل تفسير سواه ..

بل نحن نخطر هذا في أخلادنا فنفهم كيف اشتد التغلبيون في حرب المسلمين وكيف اشتد المسلمون في حرب التغلبيين يوم اشتبكت جيوش الاسلام وجيوش الأكاسرة على أثر حروب الردة ، فهي شدة لها أوائلها ونهاية جاءت بعد بداية . وكانت رحلة سجاح الى الجزيرة العربية هي أولى الطلائع في حرب الأكاسرة والاسلام ..

* * *

من جملة هذه الأسباب يجوز لنا أن نقول : ان المدينة ومكة وجيرتهما كانت تقف وحدها في وجه البادية العربية بأسرها ، ومن وراء البادية دول كبيرة تنصرها ولا تنصر المدينتين في هذه المعركة .

وقد كانت حروب الردة طائفا من الشر لا شك فيه .

ولكنها ولا ريب لم تكن شرا محضا خلوا من جانب المصلحة والفائدة . لأن هذه الحروب وحدت عناصر المدينتين وهما وشيكتان أن تفترقا كل مفترق ، فاجتمعت منهما قوة تكافىء كل قوة في البادية على انفراد ، وتيسر لهما من ثم أن تأخذا من البادية قوة تفل قوى الدول الواقفة لهما بمرصد قريب ..

ولولا حروب الردة لكان الخلاف بين المهاجرين والأنصار خليقا أن يتشعب ويستفحل ، وكان الأنصار فيما بينهم

مختلفين شيعتين كبيرتين ثم شيعا صغارا في كل من الشيعتين ، وكذلك كان المهاجرون من هاشميين وأمويين ومن سائر بطون قريش ، فان بني هاشم على انفرادهم لم يجتمعوا بينهم الى كلمة ، ولم يكن لهم مطمع في الوفاق بينهم وبين بطون قريش الأخرى ، ودع عنك الوفاق بين طوائف المسلمين أجمعين ·

فلما تحفزت البادية للوثوب على المدينة أحس المسلمون جميعا انهم فريق واحد ، مهدد بخطر واحد ، فاتفقوا بوحي البداهة التي لا موضع فيها لتعمل التفكير وحيلة الحض والتحريض ، ولبثوا متفقين ما كانوا بحاجة الى الوفاق ، وما كان الشقاق بينهم مرهوب العواقب محذور الأخطار ··

وغني عن القول ان خالد بن الوليد كان في وسط هذه الحومة بكل داع من دواعيه النفسية والعقلية · بداعي العقيدة الاسلامية ، وداعي العصبية القرشية ، وداعي النشأة الحضرية ، وداعي القيادة العسكرية ، التي قدمته الى طليعة المجاهدين في هذا الميدان ·

فشهد حروب الردة من أوائلها الى نهاياتها ، وقسمت له الحصة الكبرى في أهم وقائعها وأعصب أوقاتها ، ومنها وقعة واحدة ترجح بها جميعا وتعد من حروب الاسلام الحاسمة في صدر تاريخه ، وهي وقعة اليمامة التي انتصر فيها بعد هزيمة قائدين ·

وتنقسم أعمال خالد في حروب الردة الى قسمين : أحدهما الذي اشترك فيه مع كبار الصحابة بقيادة الخليفة في المدينة وما جاورها ، والآخر الذي استقل به أو استقل على الأصح بناحيته العسكرية ، وهو أعظم عملية في هذه الحروب ·

* * *

توفي النبي عليه السلام وجيش اسامة بن زيد في الجوف من أرباض (١) المدينة ، والفتنة على مقربة منها تتطلع

(١) الجوف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام ، وأرباض المدينة : حولها ·

برؤوسها • فعاد فريق منه الى المدينة وأشار بعض الصحابة على الخليفة أن يرجىء مسيرته ويستبقيه عنده فترة من الزمن ريثما يطمئن في عقر داره خلال تلك الغاشية ، فأبى أشد الآباء أن يخلف وصية النبي أوصى بها في مرض وفاته ، وقال قولته المأثورة : « والله لا احل عقدة عقدها رسول الله ، ولو ان الطير تخطفتنا والسباع من حول المدينة ، ولو ان الكلاب جرت بأرجل أمهات المومنين لاجهزن جيش اسامة » ونادى في المسلمين : ليتم بعث اسامة ! ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند اسامة الا خرج الى عسكره بالجرف •

وسار الجيش الى وجهته كما اراد •

فخلت المدينة من الجند الا بضع مئات من رجال المهاجرين والأنصار • ودرى اقرب المرتدين اليها بحالها من العزلة وقلة الحامية فزحفوا عليها وظنوا أنهم اذا هددوها وهي عزلاء وتوسلوا بالمفاوضة والوساطة في الوقت نفسه رجع الخليفة عن عناده وقبل منهم ما ساوموه عليه ، وهو اقامة الفرائض كلها والاعفاء من الزكاة •• أو من الجزية كما سموها !

زحفت مئات من عبس وذبيان وفزارة على المدينة ، وتركوا شطرا من جموعهم في الربذة حيث تلتقي طرق كثيرة على مسافة سبعين أو ثمانين ميلا من المدينة ، وساروا بالشطر الاخر الى ذي حسا وذي القصة وهي أقرب محلة اليها • ثم أوفدوا سفراءهم ينزلون بالناس في بيوتهم ويتوسلون بهم الى الخليفة أن يقبل منهم ما عرضوا عليه • فأبى أباءه الذي لا ينثني وقال لو منعوني عناقا لجاهدتهم عليه (١) •

فقفلت الوفود الى جماعاتها ، وعلم الخليفة بقفولها ، وأخذ في التأهب للأمر بحزم العمل وحزم التدبير والحيلة بعد حزم الايمان • فلم يدع شيئا قط يستعد للخطر المنتظر الا أعده في أوانه ، وعلى الوجه الأمثل في تلك الأحوال ••

استطاع جمعه من المجاهدين ، وأرسل العيون على الطرقات

---

(١) العناق : الانثى من أولاد الغنم أو الماعز •

فأقام كبار الصحابة على الأبواب ، وجمع في المسجد من كل سبيل ، فما هو الا أن جاءوه بنبأ القوم ومواضع جماعاتهم المختلفة حتى خرج مع الليل ليضربهم من حيث لا يتوقعون قدومه ، ودهم من كان منهم بذي القصة فذعروا لهذه البغتة التي لم تكن لهم على بال ، ولاذوا بالفرار حتى لحقوا بأصحابهم في ذي حسا فصمدوا هناك للمقاومة ، وقيل أنهم تحيلوا على ابل المسلمين التي لم تروض للقتال فضربوها بالأنحاء (١) المنفوخة في وجوهها فنفرت وولت مجفلة من حيث أتت • فأطمعهم ذلك في الهجوم على المدينة ، وظنوا أن أهلها لن يفارقوها يومهم على الأقل بعد هذه الهزيمة ••

الا أن الخليفة لم ينتظرهم معتصما بالمدينة كما انتظروا • بل خرج بمن معه في هزيع من الليل على تعبئة كاملة ، وهبط عليهم عند طلوع الصبح وهم على غير أهبة فلم يلبثوا قليلا حتى تفرقوا وارتدوا ، ولم تقم لهم بعدها قائمة في هذه المحاولة الفاشلة • لأن جيش أسامة عاد من وجهته قبل أن يسعفهم مدد نافع ، فيئسوا أن يأخذوا المدينة عنوة أو غرة بعد ما أعياهم أخذها وهي قليلة الحامية مفتوحة الطريق •

تلك كانت هجمة المرتدين الأولى على معقل الاسلام •• ظفر فيها المسلمون لأنهم اعتصموا بحزم الايمان وحزم التدبير وحزم الوفاق ، وانخذل فيها المرتدون لأنهم كانوا على نصيب ضئيل من هذه العدد الثلاث ، فخانتهم عزيمة الدين وعزيمة الرأي وعزيمة الكلمة الواحدة ، ولعلهم لو شاءوا أن يتحدوا كلمة وفعلا لفاتهم طلاب ذلك ، لقلة الكلأ والماء الذي يكفيهم مجتمعين • فكان تفرقهم مما أعان المسلمين عليهم ، وعوضهم من قلة الجند رجحانا يقابلون به الكثرة وهي منحلة الوثاق •

ومن عجائب الخليفة الصديق أنه كان يعتصم بالايمان حتى يقال لم يدع مزيدا للحيلة والتدبير ، ويعتصم بالحيلة والتدبير حتى يقال لم يدع مزيدا للايمان ••

---

(١) الانحاء : زق السمن •

ففي هذه الفترة التي شغل فيها أولئك المرتدين بالهجوم والدفاع كانت رسله الى كل مكان تستنفر القبائل الموالية للنجدة ، وتمشي بالوقيعة والتفرقة بين القبائل المعادية أو المتربصة للعداء ، وتأتيه بالأخبار من كل صوب فيعمل وهو بصير ، ويعملون وهم متخبطون مضللون ..

فلم تنقض هجمة فزارة وعبس وذبيان حتى استتم له جيش كبير من أبناء القبائل الموالية في جوار المدينة ومكة ، ومعهم جيش أسامة وعدته بضعة آلاف من المدربين على القتال .

ومضى رسوله « عدي بن حاتم الطائي » الى قومه بني طيىء وهم يترددون : فريق يعصي الخليفة ويلحق بالمتنبي الأسدي طليحة بن خويلد ومعهم فلول المرتدين عن المدينة ، وفريق يحجم عن العصيان ويؤثر البقاء والانتظار . فأرهبهم من مغبة العصيان وساعده على ارهابهم مصير عبس وذبيان . وأنذرهم ليهبطن عليهم جيش لا قبل لهم بدفعه من تلك الأمداد التي تتدفق على المدينة أو يثوبوا الى الاسلام وايتاء الزكاة . فأصغوا اليه ، وسألوه المهلة حتى يستخرجوا من لحق بطليحة من اخوانهم لئلا يقتلهم وهم بين يديه ، ووعدوه أن يدخلوا بهم جميعا في زمرة جيش المسلمين .

* * *

الى هنا انتهت المرحلة الأولى التي اشترك فيها المسلمون جميعا بقيادة الخليفة لمدافعة المرتدين عن المدينة . وكان شأن خالد فيها شأن غيره من أبطال المجاهدين ..

وآن أن تبدأ المرحلة الثانية وهي المرحلة التي توزع فيها الأعمال بين القادة في شتى الميادين ، بعد أن تمت العدة وتوافدت الأمداد من مختلف القبائل ، واستراح جيش أسامة ، وهدأت سورة القيظ وبدأ الخريف ، وأصبح من الميسور للخليفة أن يوجه البعوث الى المتنبئين في مواطنهم ، ليجعل كل منهم عن مراده قبل استفحال خطبه .

ففي أول هذه المرحلة نرى خالدا « بذي القصة » حيث

عقد له الخليفة لواء القيادة على جيش لا تتجاوز عدته أربعة آلاف مقاتل ، أكثرهم من أبناء القبائل الموالية وأقلهم من المهاجرين والأنصار • ووجهته الى « بزاخة » من أرض بني أسد حيث اجتمع بنو أسد وقيس وحلفاؤهم الى المتنبيء القائم بأمر الردة هناك طليحة بن خويلد •

وربما كان الصحيح أن خالدا انما استقل في أول هذه المرحلة بعمل القائدالعسكري في تنفيذ خطة مرسومة بتفصيلاتها • اذ كانت هذه الخطة متفقا عليها بينه وبين الخليفة ، وكان الخليفة اليقظان يأمره بما يصطنع خطوة بعد خطوة ، وينبهه الى مواقف القبائل ومواطن الخطر منها على درجاته ، ويصحبه الى بداية طريقه •

قال الخليفة وهو يودع الجيش : « أيها الناس : سيروا على اسم الله وبركته ، فأميركم خالد بن الوليد الى أن ألقاكم • فاني خارج فيمن معي الى ناحية خيبر حتى ألاقيكم » •

ثم خلا بخالد وأسر اليه أمرا ثم قال : « ••• عليك بتقوى الله وايثاره على سواه ، والجهاد في سبيله ، والرفق بمن معك من رعيتك ، فان معك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل السابقة من المهاجرين والأنصار فشاورهم فيما نزل بك ثم لا تخالفهم • فاذا دخلت أرض العدو فكن بعيدا من الحملة فاني لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر (١) بالأدلاء،وقدم أمامك الطلائع ترتد (٢) لك المنازل، وسر في أصحابك على تعبئة جيدة ، واحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تقاتل بمجروح فان بعضه ليس منه ، واحترس من البيات (٣) فان في العرب غرة ، وأقلل من الكلام واقبل من الناس علانيتهم وكلهم الى الله في سريرتهم ، واذا أتيت دارا فاقحم • فان سمعت أذانا أو رأيت مصليا امسك حتى تسألهم

---

(١) استظهر بالزاد : استعن به •
(٢) ترتد : الفعل مجزوم في جواب الامر والاصل (ترتاد) •
(٣) البيات : المفاجأة في الليل •

عن الذين نقموا ومنعوا الصدقة ، فان لم تسمع أذانا ولم تر مصليا فشن الغارة ، فاقتل وأحرق كل من ترك واحدة من الخمس ••• واذا لقيت أسدا وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك ، وبعضهم لا عليك ولا لك متربص السوء ينظر لمن تكون الدبره (١) فيميل مع من تكون له الغلبة ، ولكن الخوف عندي من أهل اليمامة ، فاستعن بالله على قتالهم ، فانه بلغني انهم رجعوا بأسرهم ، فان كفاك الله الضاحية فأمض الى أهل اليمامة • سر على بركة الله » •

* * *

ولم يكن الخليفة على نية المسير الى خيبر كما أعلن أمام الناس ، ولكنه لم يشأ أن يعلن سير الجيش الى بزاخة نصا لمقاصد متعددة : منها أن يخيف بطون طيىء حين يقصد اليهم جيش خالد بقضه وقضيضه فيجهز على بقية التردد التي تهجس في صدورهم ، ومنها أن يقنع طليحة بارسال من عنده من طيىء لنجدة اخوانهم والدفاع عن بلادهم ، ومنها أن يدهم طليحة على غرة وهو يظن ان الجيش متجه الى غير بزاخة ومنصرف عنها الى حين ، ومنها أن يلزم أهل خيبر أماكنهم فلا يشتركوا في قتال ••

وقد عمل خالد بهذه الخطة فمضى في طريق بزاخة ثم عرج الى اليسار قبل منتصف الطريق كأنه يريد الحملة على ديار طيىء ، وهناك وافاه فوق الألف من مقاتلة البطون الطائية ممن تخلى عن طليحة أو كان على نية اللحاق به بعد قليل •

* * *

وقبل أن يستوي خالد في طريقه الى بزاخة جاءه اناس من الطائيين فعرضوا عليه أن يكفوه حرب قيس ويعفيهم من حرب بني أسد لأنهم حلفاؤهم منذ الجاهلية • ولم يكن عدي بن حاتم على رأي قومه فقال لخالد : لو ترك هذا الدين أسرتي الأدنى

---

(١) الدبرة : الهزيمة أو النصر •

فالأدنى من قومي لجاهدتهم عليه • أفأنا أمتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم ؟•• فلم يشأ خالد أن يكره أناسا على حرب من يسالمونهم ولا يتحمسون في قتالهم ، وقال لعدي : لا تخالف قومك ، وامض بهم الى القوم الذين هم لقتالهم أنشط ، والله ما قيس بأوهن الشوكتين • امضوا الى أي القبيلتين أحببتم » •

وأتم تعبئته للقتال وهو على الطريق ، فجعل القبائل على ميمنته والأنصار والمهاجرين على ميسرته ، وصمد هو في القلب مع فئة من هؤلاء وهؤلاء ••

أما طليحة فالظاهر انه كان أحذر من أن يؤخذ على غرة ، فانه قد رصد العيون على فجاج الصحراء فعلم بمقدم المسلمين قبل وصولهم الى بزاخة ، وأعد العدة لكلتا الحالتين من غلبة وفرار ، فعزل أكثر النساء في مكان أمين لئلا يقعن في السبي اذا دارت الدائرة عليه ، وأقام حوله أربعين فارسا من أشد فتيان بني أسد ليدرأوا الهجمة عنه ، كأنه كان يعلم اسلوب خالد في قتاله ••• اذ كان وكده (١) قبل كل وكد أن ينحي بالضربة المصمية (٢) على رئيس القوم فيفت في أعضاد القوم جميعا بقتله أو اكراهه على الفرار • ولم يكن طليحة جبانا يتنحى عن الطعن والضرب وراء غيره ، بل كان مشهورا بالشجاعة معروفا عنه انه أقسم لا يدعوه أحد الى مبارزة الا أجابه ، ولكنه كان على شجاعته أميل الى الحذر والحيطة منه الى المجازفة والحماسة ، وكان في هذه الخصلة نقيض نده الذي يصاوله وينازله بالسلاح والأخلاق ، فكان خالد أقرب الى المجازفة والحماسة منه الى الحذر والحيطة •

ولقد كانت لجيش طليحة مزيتان هما الكثرة والراحة •• فقد كان جيشه يربو على جيش المسلمين بألف مقاتل أو زيادة مع وفرة السلاح والركائب ، وكان مستريحا في دياره على خلاف جيش المسلمين الذي كان عليه أن يلقاه بعد مسير

---

(١) وكده : المراد القصد •

(٢) المصمية : التي تدع المضروب يقع قتيلا بين يدي ضاربه •

مئات من الأميال في الأودية والجبال ٠

ولهذا أوشك أن يفوز بيومه لولا عزمة من عزمات القيادة التي تأتي في ابانها وتدور برحى الحرب من طرف الى طرف في ساعات معدودات ٠

فلما التحم الجيشان ثبت طليحة وأصحابه ثبات المستميت، وكروا على المسلمين كرة عنيفة فكشفوا الميمنة ولحقت بها الميسرة وانقضت هنيهة خيل الى المسلمين انهم منكسرون لا محالة ، وجاء بعض بني طيىء الى خالد ينصح له أن يتراجع يومه ليعتصم بجبال طيىء ويستدرج المرتدين اليها ٠ فأنكر عليه نصيحته وزجره قائلا : لا أعتصم بغير الله !

ثم عول على الكرة في كبة (١) الجمع ليبلغ النصر أو يموت دونه ٠ فأرسل فرسه وترجل مقاتلا على قدميه ليملك الحركة حيث يشاء ويبعث القدوة في قلوب صحبه ، ونادى بالأنصار كأنه ذكر موقف النبي يوم حنين : يا أنصار الله ٠٠ فلبوه مندفعين اليه ، وثاب أبناء القبائل الى مواضعهم فاستحر القتل في الفريقين حتى قتل حرس طليحة جميعا واستقر هو في « دثار الكهانة » يوهمهم انه يتلقى الوحي أو ينتظر المدد من السماء ٠

وقد كان أتباعه يحبون أن يؤمنوا به مجاملة له ومرضاة لكبرياء القبيلة في أنفسهم ، فلما جد الجد أحبوا أن يروا لهذا الايمان علامة وسأله زعيم فزارة عيينة بن حصن وهو من أعز أنصاره وألد أعداء المسلمين : هل جاءك جبريل ؟٠٠ قال : لا ٠٠ ثم رجع له مستعجلا وحي السماء صائحا به وقد نسي في غضبه انه يخاطب على زعمه نبيا من الأنبياء : لا أبا لك أجاءك صاحبك ؟ قال لا ٠٠ فصاح به : حتى متى ؟ قد والله بلغ منا ٠ فلما عاوده الثالثة خجل أن يجيبه جوابه الأول وقال له : نعم ٠٠ جاءني وأوحى الي « ان لك رحى كرحاه ، وحديثا لا تنساه » ٠٠ فسخر منه عيينة وقال :

---

(١) الكبة : الجمع والزحمة ٠

« نعم ٠٠ هو حديث لا ننساه ٠٠ » ونادى في قومه وهو مؤمن بهزيمة طليحة وادبار أمره : انصرفوا يا بني فزازة ٠٠ انه لكذاب ٠ وجعل طليحة يسألهم من حيرته ما يهزمكم ؟ ٠٠ فأجابه أحدهم : أنا احدثك ما يهزمنا ، انه ليس رجل منا الا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله ، وانا لنلقى قوما كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه » ٠

وأدرك طليحة حذره (١) ٠ وكان قد أعد لهذا الحذر عدته ، فركب فرسه وأردف امرأته النوار على راحلة وراءه، ونجا بها وهو ينادي أتباعه :

« من استطاع أن يفعل هكذا فليفعل » ٠ وما زال في فراره حتى لحق بالشام ٠٠

* * *

وتعقب خالد فلول المرتدين ومن ما لأهم من قبائل هوازن وسليم حتى لحق بهم في « ظفر » حيث أحاطوا بسلمى أم زمل وهي كأمها من قبلها مضرب المثل في العزة والمنعة ٠ كان يقال عن امها « أعز من أم قرفة » (٣) لأنها تعلق في بيتها خمسين سيفا كل سيف منها لرجل من ذويها ، وقد سبيت هي في عهد النبي عليه السلام فاعتقتها السيدة عائشة رضي الله عنها ٠ فذهبت الى قومها مغضبة لتلك العزة التي انتهى بها عناد قومها الى الأسر والخدمة ، واستثارت حمية الرجال بهذه الغضبة التي تثير الطبيعة البدوية ولو لم تجتمع اليها بواعث اخرى للغضب والثورة ٠ فدار بين خالد وبين جيشها أحر قتال، ووقفت هي على جمل مشهور تضرم النخوة في قلوب جندها وترد الشجاعة الى من أدبر للفرار ، ومضى اليوم وهي تكافح ومن حولها زعماء جيشها يكافحون ٠ فيجعل خالد مائة من الابل لمن يصيب الجمل ٠٠ وأرسل نخبة من فرسانه عليه

---

(١) الحذر : (بكسر الحاء) : الاستعداد والتأهب ٠

(٢) مالأهم : حالفهم ووقف في صفهم ٠

(٣) أم قرفة ، : امرأة فزارية ٠

فعقروه ، وقيل انهم لم يصلوا اليه حتى قتل من دونه مائة رجل من حماتها المستيئسين ٠

وقد تفرقت سرايا في أثر المنهزمين تضربهم وتجمع الأسلاب والغنائم وتدعو الى الاسلام ٠

فلم تمض أيام حتى كان قد فرغ من مهمتيه الأوليين : وهما الانذار والتغلب على الفتنة ، وبقيت الأخيرة وهي القصاص والتأديب ، ولعلها كانت ألزم وأحزم من قمع الفتنة وتمزيق الجيوش ٠ لأن المرتدين كانوا قد أسرفوا في التنكيل بالمسلمين الذين أصابوهم بينهم ولم يتورعوا عن مثلة من المثلات التي يتورع عنها المقاتل الكريم ، وأصابوا أولئك العزل المنفردين في غير ساحة الحرب وبغير نذير من قتال ٠ فكانت أوامر الخليفة الى خالد صريحة ألا يني في عقاب المعتدين « ولا يظفرن بأحد قتل المسلمين الا قتله ونكل به غيره » ٠

ولم يكن خالد في مواقف الصرامة والبطش بحاجة الى توكيد وتشديد فلم يقبل المرتدين الا أن يأتوه «بالذين حرقوا ومثلوا وعدوا على المسلمين » ٠ ومثل بهم فأحرقهم بالنيران ورضخهم بالحجارة ورمى بهم من الجبال كفعلهم بأولئك الأبرياء الغافلين عن عدوانهم الذميم ٠ وقاد رؤساءهم في جوامع الحديد الى الخليفة ليصنع بهم ما يشاء ٠

وذلك درس لا شك أنه عنيف مخيف ، ولكن لا شك أنه عادل في شرعة الحرب والسلم ، وانه لازم كل اللزوم في أحوال كتلك الأحوال ٠

وأية كانت المثلات بالمرتدين فهي على التحقيق لا تتجاوز المثلات التي تؤمر بها « حملات التأديب » في عصرنا هذا لمعاقبة اناس لم يقترفوا مثل ما اقترفه المرتدون ولم يقرنوا فعالهم بجريرة الخروج على عقيدة أو شريعة ولا بتهديد «الدولة» في كيانها وهي أحوج ما تكون الى الأمان والضمان ٠٠

ومع هذا وجد من كبار المسلمين من لام خالدا على الامعان في تأديبه على النحو الذي نحاه ٠ فقال عمر بن الخطاب للخليفة منكرا احراق الناس : بعثت رجلا يعذب

بعذاب الله ؟ أنزعه !

فلم يستمع اليه الخليفة لأنه كان في حنقه على المرتدين لا يستعظم عليهم ضربا من ضروب العقاب •

ومهما يكن من مجاراة هذا العقاب لطبع خالد — فهذه البعثة بين بعثانه جميعا هي بعثة التنفيذ المحض الذي لا يشوبه نصيب من الاستقلال ، اللهم الا استقلال القائد الكفؤ بحسن القيام على ما وكل اليه ••

ومما لا غنى عنه قبل الانتقال الى أعمال خالد المستقلة في بقية حياته أن نتحرى نصيبها من اطاعة الأمر ونصيبها من الاقدام على العمل غير مأمور به ولا محمود عليه •

فيجوز لقائل في هذا الصدد أن يقول ان الخليفة لم يرسم لخالد خطة القتال والمداورة في بعثة بزاخة وانما أنضى خالد بهذه الخطة الى الخليفة فأقرها ووافقه عليها •

ذاك جائز غير ضعيف الجواز ، ولكننا على هذا نرجح ان الخليفة هو صاحب الخطة من ألفها الى يائها ، وان نصيب خالد فيها هو نصيب الاقرار والموافقة ، ويميل بنا الى هذا الترجيح ان نصائح الخليفة في بدء البعثة قد شملت الصغائر والكبائر وتناولت تفصيل الحركة كما تناولت تفصيل البيان الصحيح عن مواقف المرتدين في كل قبيلة وكل ميدان ، وان الخطة قامت على التورية والسبق بالهجوم ، وكلاهما مما تعلمه الخليفة الأول بعد طول الصحبة من النبي عليه السلام ، اذ كان مأثورا عنه انه كان اذا قصد وجهة ورى بغيرها ، وانه كان لا ينتظر الهجوم بل يسبق الهاجمين اليه ، وقد جرى الخليفة على ذلك في دفاعه عن المدينة قبل مسير البعوث وعقد الألوية للقواد •

كذلك تواترت بعض الأقوال بمسير خالد الى بني تميم — بعد معركة البزاخة — قبل أن يأتيه أمر الخليفة بالهجوم • قيل ان الأنصار أنكروا عليه المسير الى بني تميم وقالوا له : ما هذا بعهد الخليفة الينا ، انما عهده ان نحن فرغنا من

البزاخة واستبرأنا (١) بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب الينا »
فقال لهم خالد : « ان يكن عهـد اليكم هـذا فقد عهد الي أن
أمضي • وأنا الأمير والي تنتهي الاخبار ، ولو انه لـم ياتني
كتاب ولا أمر ثم رايت فرصة ان أعلمته بها فاتتني لم أعلمه
حتى أنتهزها » •

بل قيل أكثر من ذلك انه أغار على اليمامة قبل أن يأتيه
الأمر من الخليفة بالاغارة عليها • وهي اهول حروب الردة
بل لعلها أهول من معظم حروب الفرس والروم •

فزعم قوم انه قال لصحبه بالبطاح : والله لا أنتهي حتى
اناطح مسيلمة • فأبى الأنصار وقالوا : هذا رأي لم يأمرك به
أبو بكر فارجع الى المدينة • فأصر على رأيه وقال : لا والله •
حتى اناطح مسيلمة • فرجعت الأنصار فسارت ليلة ثم قالوا :
والله لئن نصر أصحابنا لقد ندمنا،ولئن هزموا لقد خذلناهم •
فرجعوا اليه ومضى بهم الى اليمامة •

والذي لا نزاع فيه ان الخليفة لم يبعث أحدا غير خالد الى
بني تميم ولو بعث غيره لصح أن يقال انه سار اليهـم غـير
مأمور ، ولكنه قال عند مسير جيشه من ذي القصة : « اذا فرغ
سار الى مالك بن نويرة بالبطاح ان أقام له » •

أما اليمامة فقد بعث اليها الخليفة عكرمة بن أبي جهـل
ثم رأى حاجته الى المدد فوجـه في أثره شرحبيـل بن حسنة ،
وأمرهما أن يتلاقيا ولا ينفردا بالهجمة على اليمامة ، ثم بدا
لعكرمة أن يستأثر بالنصر وحده فهجـم على مسيلمة قبل أن
يوافيه المدد فنكب نكبة شديدة • وتلقى الخليفة نبـأ هـذه
النكبة فكتب الى شرحبيل يأمره بالتوقف حتى يأتيه أمره ، ولم
يقل أحد ان الخليفة وجه قائدا غير خالد لنجدة شرحبيل ، ولا
كان معقولا أن يكتفي بشرحبيل بعد هزيمة عكرمة وقد كان
كلاهما عنده في حاجة الى التعزيز والامداد • •

وقد تقدم ان الخليفة قد بصر خالدا بشأن اليمامة قبـل

---

(١) استبرأنا بلاد القوم : طهرناها من المرتدين •

خروجه الى البزاخة ••• وليس ثمة من داع الى الشك في نسبة ذلك المقال اليه ، ولا الى الشك بعد هذا جميعه في تولية خالد قيادة الجيش الذي سار الى اليمامة ••

ومن المتواتر جدا ان خالدا لقي الخليفة بعد مسيره الى بني تميم وقبل مسيره الى بني حنيفة • لأنه استدعى لسؤاله عن مقتل مالك بن نويره وزواجه من امرأته ليلى • فهو قد توجه الى اليمامة مأذونا مأمورا بعد وقعة البزاخة وبعد وقعة بني تميم • وعدا هذا كله يكاد يستحيل على العقل أن يقبل ان خالدا قد تولى حربا كحرب اليمامة اشترك فيها أعظم الصحابة واستهدف المقاتلون فيها لأكبر الأهوال دون أن يندب لذلك بأمر صريح ••

* * *

وغاية ما نفهمه الآن من ورود ذكر اليمامة عند عقد الألوية في ذي القصة ان الخليفة عرف خطرها فأراد أن يجمع لها أكبر قوة من جيوشه المختلفة •• وأراد في الوقت نفسه أن يشغل بني حنيفة بأنفسهم فوجه اليهم عكرمة أولا ثم وجه شرحبيل بعده ليتلاقيا معا ، ويكون خالد قد فرغ في خلال ذلك من أمر بني أسد فيدرك سابقيه معززا لهم ان تعذر عليهم أن يقهروا بني حنيفة قبل قدومه ، وهي خطة تلائم ما عرف عن خطط الصديق من جرأة وحيطة وسرعة ، ولا يمنع هذا ان الخليفة أمر خالدا أن يرجع اليه بعد كل مرحلة من مراحل هذه البعثة لعله قد استجد شيء في غيابه •

وفحوى الأقوال الكثيرة التي تتفق بالبداهة على هذا النسق ان خالدا قد تولى التنفيذ في ترتيب أعماله وتولاه أيضا في أوائل خططه ، ولكنه قد وكل الى نفسه في الأمور التي يعلمها الشاهد ولا يعلمها الغائب • ومنها موعد المسير وطريقة الهجوم واللقاء • فقام بما وكل اليه جميعا على أكمل الوجوه وأقمنها بموافقة الخليفة ، الا في موضعين لكل منهما ارتباط بمسألة زواج : أحدهما في البطاح والآخر في اليمامة • فقد تعرض فيهما لمؤاخذة الخليفة ومؤاخذة كبار الصحابة ، ولم

يرض فيهما عرف الجاهلية أو عرف الاسلام ٠

وظاهر من مقال الخليفة في ذي القصة انه لم يكن على يقين من عداء بني تميم ، أو من ضرورة القتال في أرضهم ، وانما كان يعلق الأمر على موقفهم عند وصول جيش المسلمين اليهم ٠ وبخاصة بعد وفود زعماء منهم باعلان الطاعة وايتاء الزكاة ٠

وليس أدل من هذا على ان الصديق رضي الله عنه قد كان يعمل عمله في حروب الردة جميعا وهو على استطلاع وثيق وعلم واف بأحوال كل طائفة من المرتدين ، وان من دواعي انتصاره وفاء أخباره بحاجات القتال ونقص أخبار المسلمين عند القبائل المرتدة بعيدها وقريبها على السواء ٠

فتقديره لموقف بني أسد منذ البداية كان أصح تقدير ٠

وكذلك كان تقديره لموقف بني حنيفة في اليمامة ٠٠

ومثل هذين في صحة الالمام بالأحوال المختلفة شكه في ضرورة القتال بالبطاح ، وتعليقه القتال مع مالك بن نويرة على شرط ، وتخصيصه مالكا بالذكر دون الاخرين من زعماء بيوت بني تميم ٠

فالواقع في أمر بني تميم كما نعلمه اليوم انهم لم ينطووا على خطر جسام وان اختلفت في نياتهم الظنون ٠

وتاريخهم قبل الاسلام بعشرات السنين يؤكد هذه الحقيقة، ويوحي الى الخليفة رأيه الذي ارتآه ٠

كانوا في أجهل أيام الجاهلية في طليعة العرب كثرة ومنعة وسعة بلاء ووفرة ماء ومرعى ٠

وكانوا يجترئون على المغامرات التي تفرق منها القبائل الأخرى ، فبطشوا مرة بقافلة عظيمة من قوافل الفرس التي تسير في رعاية الدولة الفارسية وحراسة اناس من بني حنيفة ٠ وفارس دولة ضخمة يهابها العرب ، وبنو حنيفة قوم من المنعة والعزة بمكان ٠ فلما استشار كسرى بعض زعماء بني حنيفة في عقوبتهم قال له : « ان أرضهم لا تطيقها أساورتك (١) وهم

---

(١) الاساورة : جمع أسوار وهو الفارس والقائد في جيش الفرس ٠

يمتنعون بها ، ولكن أحبس عنهم الميرة ، فاذا فعلت بهم ذلك سنة أرسلت معي جندا من أساورتك ، فاقيم لهم السوق ، فانهم يأتونها • فتصيبهم عند ذلك خيلك » •

وكذلك لم يتمكن منهم كسرى حتى منع عنهم حاجياتهم من أرض الحضارة في سنة مجدبة • واستعان عليهم بمن يستدرجهم الى مكان ينالون فيه ••

ولكن بني تميم على هذا كانوا مثلا من الامثلة النادرة على عجائب الحظوظ في هذه الدنيا ، فقلما ظهر للمعتبرين ان الكثرة والسعة والمنعة والوفرة تنقلب أحيانا الى نقمة تشبه القلة والضنك والخوف كما ظهر ذلك في شأن بني تميم•

فقد كانت كثرتهم وسعة بلادهم واكتفاء كل بلد منها بمراعيه وأمواهه سببا لتفرقهم وتصدع وحدتهم وتعذر الاجماع بينهم على رئيس واحد • فتشعبوا بطونا يدين كل بطن منها لرئيس ، بل بيوتا في البطن الواحد يبلغ من تنافسهم أن يتحاربوا ويتوارثوا الترات ، ويصبح التوفيق بينهم أعسر من التوفيق بين أحدهم والغريب الطارىء عليهم من الأعداء والأصدقاء ••

وكان هذا شأنهم يوم ظهرت الدعوة المحمدية ، فلما بلغتهم خاف كل منهم أن يرفضها فيكون منافسوه الواقفون له بالمرصاد حربا عليه • فأجاب رؤساؤهم الدعوة ، وأقرهم النبي على رآستهم ، ومنهم الزبرقان بن بدر على الرباب ، وقيس بن عاصم على مقاعس والبطون ، ووكيع بن مالك على بني حنظلة ، ومالك بن نويرة على بني يربوع وهم بيت من بيوت بني حنظلة الكبار •

وكل أولئك رجال من ذوي الرأي الراجح والقول النافذ والمناقب « الشخصية » •• ويمتاز من بينهم مالك بن نويرة بمزايا اخرى لم تتفق لواحد منهم ، وهي اللباقة والظرف والفصاحة وحسن المحاضرة ، مع الوسامة والصباحة وأناقة الزي والشارة ، وهي في جملتها تلك الصفات التي ترشح صاحبها لمآسي البطولة في قصص الحياة من واقع أو خيال •

كانت فيه خيلاء وجفلة ، وكان متلافا لا يبقي على مال ، وكان فارسا شاعرا محدثا ظريف المدخل على من يعرف ومن لا يعرف ، ومن ذاك انه كان يقصد الحي من أحياء الأعداء وله فيه أسرى يريد فكاكهم بالفدية المصطلح عليها ، فلا يحدث أهل الحي هنيهة حتى يخلبهم بحديثه ويأسرهم بظرفه وحسن سمته فيردوا اليه أسيره بغير فدية ، ويفترقوا وهم أصفياء ..

وكان مالك هذا أول من قصدت اليه سجاح المتنبئة عند منحدرها من الجزيرة • فصرفها عنه بلباقته الى ملاقاة البطون الأخرى من بني تميم • ولعله زين لها أن تجمعهم اليها عصبة واحدة ، لعلمه باستعصاء ذلك عليها وعلى غيرها ... وانها وشيكة أن تنتقم له منهم ان هي دعتهم الى الالتفاف بها فلم يجيبوها •

ولم تزل الأنباء ــ قبل مقدم سجاج وبعد منصرفها ــ يتابع بعضها بعضا بانكسار المرتدين وغلبة المسلمين عليهم • الا ما كان من هزيمة عكرمة في اليمامة وانتصار بني حنيفة عليه ، وهو انتصار لا يسر بني تميم لشدة المنافسة بينهم وبين بني حنيفة •

فلما أخذ الخليفة في عقد الألوية وتسيير البعوث كان بنو تميم على حالهم المعهود من التفرق والمراقبة بعضهم لبعض على توجس وحذر ، فسبق بعضهم الى المدينة بحصته من الزكاة ، وتأخر بعضهم حتى نزل خالد بأرضهم فدفعوها اليه ، وتحير مالك بن نويرة فلم يعزم على الحرب ولم يؤد الزكاة •

وأغلب الظن ان بدد ما جمع من الصدقات في هباته وملاهيه ، ثم ليم في ذلك فأجاب لائميه بأبيات قال فيها :

وقلت خذوا أموالكم غير خائف
ولا ناظر فيما يجيء من الغد
فان قام بالأمر المخوف قائم
منعنا وقلنا الدين دين محمد

يعني ان محمدا هو صاحب الدين وصاحب الزكاة ، وقد

مضى محمد فليس لأحد بعده أن يتقاضاه ٠

وهو على الجملة موقف رجل مسرف « لا يبالي ما يجيء من الغد » كما قال : وليس بموقف عناد وتحفز لقتال ٠

فلما نزل خالد بالبطاح لم يجد أمامه أحدا يلقاه بزكاة أو يلقاه بقتال ٠ فعسكر حيث نزل وأرسل السرايا في أثر هذا البطاح ٠ فجاءته بمالك بن نويرة في نفر من بني يربوع ٠ فحبسهم ثم أمر بقتلهم ، وحدث بعد ذلك انه تزوج بامرأة مالك ليلى أم تميم ، وكانت من أشهر نساء العرب والجمال ، ولا سيما جمال العينين والساقين ٠ يقال انه لم ير أجمل من عينيها ولا ساقيها ٠

وتضطرب الروايات هنا أبعد اضطراب واصعبه أن تهتدي منه الى مخرج متفق عليه ٠

فمن قائل ان السرايا وجدت بني يربوع يصلون وسمعت الأذان ، ومن قائل : لم نر صلاة ولم نسمع بأذان ٠

ومن قائل ان الأسرى قتلوا لأن الليلة كانت باردة ونادى مناد من قبل خالد « ان دافئوا أسراكم » ففهم الحراس انه يريد القتل لأنهم من بني كنانة والمدفأة بلهجتهم كناية عنه ٠

ومن قائل ان مالكا قتل بعد محادثة حامية جرت بينه وبين خالد ٠ ثم تضطرب الروايات في نقل حديثهما فلا يدرى له نص صحيح ٠ فقيل ان مالكا صرح بأنه لا يعطي الزكاة وانما يقيم الصلاة ٠ فقال خالد : أما علمت ان الصلاة والزكاة معا لا تقبل واحدة دون الأخرى؟فقال مالك : قد كان صاحبك(١) يقول ذلك ٠ فاتخذ خالد قوله دليلا على تبرئه من النبي وقال له : أو ما تراه لك صاحبا ٠٠٠ ثم حمي الجدل بينهما حتى أمر بقتله ٠٠٠ ونسجت الخرافة بعد ذلك نسيجها الذي لا يتماسك لوهيه ٠ فزعموا ان خالدا أمر برأسه فجعل مع حجرين وطبخ على الثلاثة قدرا فأكل منه ٠ وان شعر مالك جعلت النار تعمل فيه الى أن نضج اللحم ولم يفرغ الشعر ! وهي خرافة تروى لتدلنا على شيء واحد : وهو وجود المحنقين

---

(١) يقصد بقوله (صاحبك) : النبي صلى الله عليه وسلم ٠

الراغبين في التشهير بخالد وتبشيع أعماله وايغار الصدور عليه ٠

وقيل ان مالكا لمح في عيني خالد الاعجاب بامرأته فصاح به : هذه التي قتلتني ٠ فقال له خالد : بل الله قتلك برجوعك عن الاسلام ٠

ويذهب بعضهم الى أكثر من هذا فيزعمون ان هوى خالد لها سابق لحرب الردة ، وفي ذلك يقول أبو نمير السعدي :

قضى خالد بغيا عليه بعرسه
وكان له فيها هوى قبل ذلك

وقيل ان خالدا توعد مالكا بالقتل فقال له مالك : أو بذلك أمرك صاحبك ؟ قال خالد : وهذه بعد تلك ؟ ثم تكلم أبو قتادة الأنصاري وعبد الله بن عمر في أمره فكره خالد كلامهما ٠ وعاد مالك يقول له : يا خالد : ابعثنا الى أبي بكر فيكون هو الذي يحكم فينا ٠ فقال خالد : لا أقالني الله ان أقلتك ٠ وتقدم الى ضرار بن الأزور أن يضرب عنقه ٠ ويزيدون على ذلك ان خالدا دعا أبا قتادة الأنصاري وعبد الله بن عمر الى حضور عقد الزواج بليلى بعد مقتل زوجها ٠ فأبيا وأشارا عليه أن يكتب الى أبي بكر ، فلم يستمع اليهما ٠

وغضب أبو قتادة فأقسم لا يجمعه بعد اليوم وخالدا لواء واحد ، وقفل الى المدينة غير مستأذن من قائده ، فلقي الخليفة ولقي عمر بن الخطاب ، فكانت غضبة عمر أشد وأعنف ٠ وطلب الى الخليفة أن يعزله وأن يقيده (١) قائلا : ان سيفه فيه رهق (٢) ٠ فلم يجبه الخليفة وقال له : يا عمر ، تأول فأخطأ (٣) ٠ ارفع لسانك عن خالد ٠ فاني لا أشيم سيفا سله الله على الكافرين ٠٠

ولكنه ودى مالكا واستدعى خالدا اليه ٠ فلما قدم الى المدينة رأى عمر منه ما زاده غضبا وشدة في طلب القود منه ٠

---

(١) يقيده : يقتله قصاصا ٠

(٢) رهق : طغيان وسفه ٠

(٣) تأول فأخطأ : حاول أن يتفهم الامر ويفسره فأخطأ ٠

رآه قد دخل المسجد وعليه قباء وقد غرز في عمامته أسهما ٠
فنهض اليه فنزعها وحطمها وصاح به : « قتلت امرءا مسلما ثم نزوت على امرأته ، والله لأرجمنك بأحجارك » ٠٠

فتركه خالد ولقي الخليفة فاعتذر اليه ٠ فعنفه الخليفة وأمره أن يفارق ليلى ثم عفا عنه واستبقى خدمته .٠ فعاد خالد الى المسجد وفيه عمر ٠٠ فبادره حين رآه مناجزا : هلم الي يا ابن أم شملة ٠٠٠ فعرف عمر ان الخليفة قد عفا عنه ٠ فلم يكلمه ودخل بيته ٠

وحسبنا من هذه الأقوال جميعا أن نقف منها على الثابت الذي لا نزاع فيه ٠ والثابت الذي لا نزاع فيه ان وجوب القتل لم يكن صريحا قاطعا في أمر مالك بن نويرة ، وان مالكا كان أحق بارساله الى الخليفة من زعماء فزارة وغيرهم الذين أرسلهم خالد بعد وقعة البزاخة ، وان خالدا تزوج امرأة مالك وتعلق بها وأخذها معه الى اليمامة بعد لقاء الخليفة ٠

وأوجب ما يوجبه الحق علينا بعد ثبوت هذا كله أن نقول: ان وقعة البطاح صفحة في تاريخ خالد كان خيرا له وأجمل لو أنها حذفت ولم تكتب على قول من جميع تلك الأقوال ، لأنها لم تضف الى فخاره العسكري كثيرا ولا قليلا ، وأهدفته لملام أحمد ما يحمد منه ان له عذرا فيه ، يقبله أناس ولا يقبله آخرون ٠

★★★

يجب تقرير هذا عند تقدير خالد لأنه الحق الذي لا يعلو على ميزانه ميزان في ترجيح الرجال والأعمال ٠

ولأن الرجل الذي يخشى على قدره من تقرير أخطائه رجل لا يستحق أن يكتب له تاريخ ٠ اذ معنى الخشية عليه من أخطائه انه فقير في الحسنات والعظائم ، وانه من الفقر في هذا الجانب بحيث تعصف الأخطاء بعظائمه وحسناته ٠ ولم يكن خالد بن الوليد كذلك . بل كانت له في ميزان العظمة والعبقرية كفة راجحة ، ولم يكد يرحل عن البطاح حتى اتصلت له حلقات من كبار الأعمال توزع على عشرة رجال ويجد كل

منهم في نصيبه كفايته من الفضل والرجحان ·

خرج من البطاح الى اليمامة ·

خرج من وقعة لا خطر لها الى وقعة لها الخطر الأكبر في حروب الردة وفي حروب الاسلام كافة خلال أيام الخلفاء الراشدين ·

ويرجع هذا الخطر الى قوة بني حنيفة أصحاب اليمامة ، ودهاء رئيسهم مسيلمة بن تمامة ، ومنعة بلادهم بالجبال والأودية ووفرة الماء والثمرات ·

هابها أصحاب سجاح وقالوا لها حين حدثتهم بغزوها : ان مسيلمة قد استفحل أمره وعظم ·· فلم تهون عليهم خطبها حتى استنزلت لهم سجعات من وحيها المزعوم تقول فيها : « عليكم باليمامة · دفوا دفيف الحمامة ، فانها غزوة صرامة ، ولا تلحقكم بعدها ملامة » ·

وكان مسيلمة هذا رجلا قصيرا أخنس الأنف أفطسه شديد الصفرة زري الهيئة ، ولكنه على ما يؤخذ من أخباره كان على ذكاء مفرط وحيلة نافذة ، وكان من أولئك الدهاة الذين يعوضون بالحيلة ما فاتهم من الهيبة والرواء ، فاشتهر بالخلابة والقدرة على استهواء النفوس من الرجال والنساء ، فمن خلابته ان النبي عليه السلام أرسل اليه رجلا من قراء القرآن ليعلم أهل اليمامة أحكام الاسلام ويبصرهم بالفرائض والعبادات وهو نهار الرحال · فما لبث الخبيث أن استغواه حتى شهد له أن يوحى اليه وانه سمع النبي عليه السلام يقول انه قد أشركه معه وشهد له بالنبوة ·· وقد استغوى سجاح ـ وهي تدعي النبوة ـ حتى شهدت بنبوته وتزوجته وانصرفت من بلاده بنصيب من الهدايا يقنعها بالذهاب ولا يضمن لها التكرار · وكأنه كان على حظوة عند النساء وخبرة بأهوائهن وأساليب مرضاتهن · فقد كان نساؤه يحببنه ويجزعن عليه ، وصاحت احداهن ساعة أن قتله وحشى بن حرب مولى جبير بن مطعم : « وا أمير الوضاءة · قتله العبد الأسود » ···

وخليق بهذا أن يظن به السحر وتنتظر منه الخوارق بين الجهلاء · لأنهم يرون سلطانه ولا يعلمون مأتاه · فيخيل

اليهم انه سر من الغيب أو معونة من الجنة والشياطين ، وهو على هذا كان يعين حيلته بما استطاع من صناعة الشعوذة والألاعيب التي كان يحذقها بعض الكهان في بلاد العرب والعجم ، فكان قبل ادعائه النبوة يطوف بالأسواق ويتعلم « النيرنجيات » (١) حيث سمع بأساتذتها المبرزين فيها • ولم يكن في طبيعته بمعزل عن طبائع السحرة وأدعياء الغيب • فقد قيل في وصفه وهو يتكهن : « انه اذا اعتراه شيطانه أزبد حتى يخرج الزبد من شدقيه » ••• والأغلب الأرجح ان به صرعا كأولئك الذين يشبهونه في الخلائق والدعاوى ، ومنهم الذين يعالجون « الاستهواء » من المستهوين أو الوسطاء •

ولسلطانه على أبناء قبيلته أحبوه ووثقوا به وأطاعوه • فتأتى له أن يجمع منهم أربعين ألفا أو ستين • وهو عدد ربما ارتفعت به المبالغة أو الجهل بالتقدير ، ولكنه لا يهبط الى ما دون العشرين قياسا على ما وصفت به معركة اليمامة من الهول وكثرة القتلى والجرحى بين الفريقين •

وقد كان مسيلمة يحسب الحساب لأمور كثيرة يوم تصدى لدعوى النبوة ومقاومة الاسلام • فكان يقاتل ثمامة بن اثال ، ويناوش بني تميم لما بينهم من الذحول (٢) والمنافسات ، ويتوقى شر سجاح وقومها التغلبيين ودولة الأكاسرة من وراء التغلبيين ، ويعلم ان أشياعه من بيوت بني تميم قد يخذلونه ، وان الذين دانوا بالاسلام بين قومه عيون عليه ، وان الخليفة لا يمهله ولا يجهل أخباره •• فتحيل على مهادنة خصومه ، وفرغ جهده لحرب المسلمين وحدهم ، وحشد كل ما وسعه من جند وسلاح ، ثم تقدم بهم في عجلة الى موقع يقال له عقرباء في طرف بلاده على مقربة من بلاد بني تميم •

ولم يكن خالد يجهل خطر الرجل الذي سيلقاه ، ولم يكن يخفى عليه ان الحرب في العراء غير الحرب في بلاد تكتنفها الجبال وتقام فيها الأبنية والأسوار ، فتوجه الى اليمامة في

---

(١) النيرنجيات : عمل يبدو كالسحر وليس سحرا •
(٢) الذحول : جمع ذحل وهو الثأر •

أهبة كافيـة بالقياس الى أهبـة المسلمين لأعدائهـم في صدر الاسلام ٠

ولا يعلـم على التحقيق عدد الجيش الـذي كان معـه في عقرباء ، ولكنه على التقريب يجاوز الثمانية الآلاف ولا يقل عنها ٠ لأن جيشه بالبزاخة نحو خمسـة آلاف ، يضاف اليهم جيش شرحبيل بن حسنة الذي سبقـه ولبث في انتظاره ، ولا يقل عن ألفين ، ويضاف اليهم الردء الذي أرسله الصديـق وراءهم بقيادة سليط بن عمرو ليحمي ساقتهم ، وغير هؤلاء من تطوع للحرب مع المسلمين من بني تميم وبني حنيفـة ، فهم في جملتهم يجاورون الثمانية الالاف ولا ينقضون عنهـا ، ان نقصوا ، الا بقليل ٠٠

لكن مكان القوة من هـذا الجيش الصغير انما هـو كثرة الصناديد من أبطال الصحابة المشهورين فيه ٠ فقد كان جيش المسلمين لا يجاوز في عدته نصف جيش اليمامة ، ولكنه كان في عدة وافية من أفذاذ الرجـال الذين يقومـون بالألوف ٠٠ فهم وأعداؤهم بهذه المثابة كفؤان متناظران ٠

وكانا كفؤين متناظرين في صدق النية واتقاء العـار من الهزيمة ٠ هذا تأخذه غيرة الحرم وهذا تأخذه غيرة الدين ٠ وقد قال ابن مسيلمـة لقومه وهم يتقدمـون الى المسلمين : « هذا يوم الغيرة ٠ اليوم ان هزمتم تستنكح النساء سبيـات وينكحن غير حظيات ، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم ٠

فليست تعوز الخصمين حرارة الخصومة ولا شواحذ الغيرة ولا صلابة العزم ولا توسم الأمل في النجاح ٠

ولم يزل خالد يتقدم الى وجهته على تعبئة كاملة كعادته في معظم غزواته ٠٠ وكان يتلقى الأخبار عن مسيلمة وحركاته في كل مرحلة من مراحل الطريق ٠ ولعله استعظم القـوة التي حشدها مسيلمة في عقر داره فجنح الى الأخذ بالأحوط وكتب الى الخليفة في طلب المـدد عسى أن يحتـاج اليه بعد الجولة

---

(٢) الردء : العون أو المدد ٠

الأولى من جولات القتال ، فأمده الخليفة بجرير بن عبد الله البجلي • ولكنه التحم بجيوش مسيلمة قبل أن يصل اليـه ، فلقيه منصرفا من اليمامة •

ولما دنا من أرض مسيلمة مرت مقدمة جيشـه في الليـل بكوكبة من الفرسان بين الأربعين والستين •• عليهم مجاعة ابن مرارة من زعماء بني حنيفـة وأصحاب الرأي والمنزلـة فيهم ، وكأنه كان خارجا لاستطلاع أمر المسلمين ، ولكنه أنكر ذلك وزعم انه ذهب « لأخذ ثأر له في بني تميم وبني عامر » • فلما سئلوا عن دينهم قالوا : منا نبي ومنكم نبي • فأمر خالد بضرب أعناقهم جميعا واستبقى مجاعة عسى أن ينتفع بمنزلته في قومه أو بعلمه بالحرب والمكيدة كما قال لبعض الرواة •

ونزل خالـد على كثيب في مواجهـة مسيلمة • ثم التحم الفريقان « وقاتلت بنو حنيفة قتالا لم يعهد مثله » واندفعت في هجمتها حتى دخلت خيمة خالد من وراء العسكـر وفيهـا امرأته أم تميم ومجاعـة بن مرارة مقيـد بالأغلال •• فهم بعض الحنفيين بقتلها لولا أن حماها منهم مجاعـة وأوصاهم بها خيرا وهو يقول : نعمت الحرة هذه • وعليكم بالرجال •

شوهد في كثير من المعارك بين المسلمين وأعدائهم في الصدر الأول (١) أن الكرة الأولى غالبا ما تكون للمشركين ، ولا سيما حين تجتمع لهم مزيـة العدد والراحـة حيث يختارون مكان القتال ، وهي مشاهدة لا تستغرب ولا تخالـف العهود ، لأن « الدفعة الحيوانية » أبدا لها الوثبة الأولى مع العـدد الكثير وراحة الجسد • وانما الثبات للعقيدة التي يلوذ بها الانسان بعد المراجعة ، وللضمير الذي يثوب اليه المرء بعد الامتحان • وليس من شأن العقيدة أن تكون ــ كالدفعة الحيوانية ــ وثبة عاجلة وهجمة سوارة فاشلة • وانما شأنها أن تحاسب النفس وتستعيد قواها وتستخرج ذخيرتها من أعماقها • فهي لهـذا تنفع صاحبها في المحنة وبعد تبين الشدة • وبخاصة حين يحتاج

---

(١) الصدر الاول : العصر الاول من عصور الاسلام •

اليها بعد الجولة الأولى •

وهذا الذي حدث في عقرباء كما حدث في وقائع شتى •

فبعد الجولة الأولى التي فازت بها « الدفعة الحيوانية » برزت العقيدة الى الطليعة وجاءت بمعجزاتها ، وهي معجزات لا يتخيل العقل ان نفسا انسانية تقدم عليها بغير اعتقاد •

انكشف الأعراب أولا في أول صدمة ، وتزلزلت أقدام أناس من الأنصار والمهاجرين من طغيان الجموع الهازمة على السواء •

فبادر خالد الى تنظيم جيشه على وضع جديد • فميز المهاجرين وميز الأنصار وميز الأعراب كل بني أب على راية • وصاح بهم : أيها الناس تمايزوا حتى نعرف من أين نؤتى (١) •

ثم عول على الموت كما وصاه أبو بكر فوهبت له الحياة ووهب النصر (٢)حمل على القوم حتى تجاوز الصفوف وجعل يخاطب مسيلمة ويعرض عليه النصف والرجوع الى الحق ومسيلمة يروغ منه • ثم نادى بشعار المسلمين : يا محمداه •• ودعا الى المبارزة وهو يصول ذات اليمين وذات الشمال ولا من يثبت له في مجال ، ولم يبال أن ينظر الى ما وراءه لأنه ترك كل شيء في تلك الساعة الا أن يتقدم أمامه • ولم يزد على أن قال لجيرته أو من نسميهم اليوم أركان حربه : « لا أوتين من خلفي » ومضى الى تقدم بغير رجوع ، الا رجوع ظافر مختار •

وظهرت في مقام الهول فضيلة الصناديد من كبار الصحابة • فحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض الى أنصاف ساقيه وهو يحمل لواء الأنصار بعد ما تحنط وتكفن • فلم يزل ثابتا حتى قتل في مكانه •

وصاح زيد بن الخطاب : أيها الناس عضوا على أضراسكم

---

(١) من أين تؤتى : من أي جهة يتمكن العدو منا اذا قدر له ذلك •

(٢) اشارة الى قول أبي بكر رضي الله عنه (أحرص على الموت توهب لك الحياة) •

واضربوا في عدوكم وامضوا قدما • ثم أقسم : والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فاكلمه بحجتي ، فكانت آخر ما فاه به في ذلك اليوم •

وحمى البراء بن معرور وأخذتـه العرواء التي كانت تأخذه حين تتعالى الوغى ويحتدم القتال • فكان كأنما يبحث عن الموت ويهرب من الحياة •

وتجاوبت الساحة بأصوات الأبطال يوصون بعضهم بعضا وينظر بعضهم الى بعض وهم ينقضون على أعدائهم ويتنادون بينهم : يا أصحاب سورة البقرة ••• يا أنصار الله ••• كما ناداهم النبي عليه السلام في يوم حنين • فاستحى كـل منادى منظور المكان منهم في ذلك المشهد العظيم أن ينكص على عقبيه ولم ير منهم الا قتيل في موضعه أو زاحف الى الأمام •

ومـا هي الا سويعـات حتى انكشـف أصحـاب مسيلمة منكسرين ، وهرول مسيلمـة نفسه الى حديقـة مسورة من ورائه • وقد سميت في ذلك اليوم بحديقة الموت لكثرة مـن قتل في طريقها وكثرة من قتل فيها • ولاحت من البراء نظرة الى جانب الباب فاذا هم قد أوشكوا أن يغلقوه عليهم • فصاح باخوانه : يا معشر المسلمين : القوني عليهم من فوق سورها • فاحتملوه فوق الحجف ورفعوهـا بالرماح حتى بلغت أعلـى السور فسقط منه على القوم بعد تردد ، ولم يزل يعالج باب الحديقة حتى فتحه ، وقد تواثب أفراد من المسلمين الى جانبه فأعانوه •

وقتل في هذه الهجمة مسيلمة كما قتل محكم بن الطفيـل أكبر أعوانه ومشيريه ، فاضطرب بنو حنيفة ووقعوا في الحيرة وهم في هزيمة لا يشار فيها برأي ولا يصغى فيها الى مشـير • فشغلوا عن باب الحديقة وأعين المسلمون على اقتحامه مـن داخلها وخارجها • فحق لتلك الحديقة في ذلك اليوم أن تسمى حديقة الموت ، لأنها اشتملت في يومها على ألوف من القتلى ، وبلغ عدد القتلى جميعا في ذلك اليوم بين ساحة القتال وحديقة الموت عشرات الألوف ، أقلهم في تقدير المقدرين عشرة آلاف من بني حنيفة وستمائة من المسلمين ، وأكثرهم في تقديـر

المقدريـن يرتفعون الى سبعين ألفـا أو ثمانين ألفـا حنفيين وألفين مسلمين وهو رقم لا يدل على نبأ صحيح ولكنه يـدل على هول صحيح سرى في الآفاق من أبناء تلك المعركة التـي ذهبت فيها نخبة من أجل الصحابة وأفقه الفقهاء • ومن جراء مقتلهم في هذه المعركة أمر الخلفاء بجمع القرآن في المصحف بعد أن فني الكثيرون من حافظيه ، وخيف أن يفنى آخرون •

ثم بعث خالد الخيول حول اليمامة يلتقطون مـا حـول حصونها من مال وسبي ، وعزم على غزو حصونها جميعا ولم يكن بقي فيهـا الا النساء والصبيـان والشيـوخ والكبار • فاقترح عليه مجاعة أن يذهب اليهم لينزلهم صلحا عن معاقلهم • ثم خدعه وأخلص لقومه ، لأنه أمر النساء والكبار أن يلبسوا الحديد ويبرزوا من رؤوس الناس • فآثـر المصالحة لما رأى بالمسلمين من الجهد « وقد كلوا من كثرة الحروب » واشترط أن يسلموا وأن يكون له نصف السبي والغنائم ، ثم نزل من النصف الى الربع حين أوهمه مجاعة ان القوم قد رفضوا مـا قبل منه •

فلما اطمأن المعتصمون الى الحصون من بني حنيفة فتحوا أبوابها فلم ير فيها الا امرأة أو صبي أو شيخ فان أو رجـل هزيل لا يرجى لقتال •

وقد يتوقع من خالد أن يغضب على مجاعة ويبطش بـه بطشة خالدية بعد هذه الخدعة التي اجترأ عليـه بها علانية وهو في قبضة يديه •

لكننا في الحق لا نعجب اذا هو لم يغضب • لأن عمل مجاعة لا مراء عمل نبيل يكبره في النفوس النبيلة ويبعث لـه فيها الاعجاب الذي يكفكف من شره كل غضب سريع • فهو عمـل ينضح بالمروءة والغيرة على العشيرة ، وكلتاهما فضيلة يعرفها خالد ويعرف للمتصف بهـا قدره فلا يذلـه ولا يجزيـه شر الجزاء •

وقصارى ما بلغ مـن غضبـه أنه نظر اليه نظرة شزراء وصرخ به : ويحـك •• خدعتني • فلـم يجبن مجاعـة ولم يعتذر ، وانما قال : هم قومي •

وما نحسب الا أن الاعجاب بمجاعة قد حبب الى خالد أن يصهر اليه ويوثق الصلة بينه وبينه • زعيم شجاع جميل الرأي حسن التدبير غيور على قومه عليم كما وصفوه بمكيدة الحرب والسلم • وهو خير صهر في تلك القبيلة التي يفخر « سيف الله » بدخولها على يديه في الاسلام ، ويطيب له أن يعزز صلة الدين بصلة البيت والنسب • وقد طاب له المقام بتلك البقاع المخصبة التي يزينها له النصر كما يزينها له طيب الهواء فاختار له واديا من اوديتها الجميلة يسمى الوبر ليقيم فيه حتى يؤمر بوجهة اخرى ، وخطب الى مجاعة فتاة له موصوفة بجمالها ، وهي خطبة لا ترفض ولكنها قد تقبل وتؤجل • لأن مجاعة قد علم من « ليلى » منذ كان سجينا في خيمتها كيف تلقى الخليفة وأصحابه خبر زواجها بخالد في ساحة القتال • فأشفق هذا الرجل المحنك البصير بالعواقب من عاقبة تسوءه وتسوء ابنته وتسوء خالدا في جريرته • فاستمهله ولم يعجل بتلبية طلبه ، وقال له : « مهلا •• انك قاطع وظهرك معي عند صاحبك » ••• ولكنه لم يلبث أن علم اصرار خالد حتى أجابه ورأى ان عاقبة القبول أسلم من عاقبة الاباء •

وكان خالد قد تلقى من الخليفة أمرا باستئصال كل من يحمل السلاح من بني حنيفة ، فعادت الرسل الى الخليفة بخبر الصلح وخبر الزواج ، فحسب أن الأمرين مقترنان واشتد به السخط على عمل خالد بما وقع في نفسه من حسبان فكتب اليه أعنف خطاب وجهه الى قائد من قواده أو وال من ولاته ، وسماه « ابن أم خالد ••• » وقال له في خطابه : انك لفارغ • ونعى (١) عليه انه « ينكح النساء وبفناء بيته دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجف بعد » •

وقد كتب خالد الى الخليفة يعتذر في انفة وعزة : « أما بعد : فلعمري ما تزوجت النساء حتى تم لي السرور وقرت

---

(١) نعي عليه : عابه وشهر به •

بي الدار ، وما تزوجت الا الى أمرىء لو عمدت اليه من المدينة خاطبا لم أبل • دع اني استثرت خطبتي اليه من تحت قدمي ، فان كنت قد كرهت لي ذلك لدين أو دنيا آعتبتك (١) ، وأما حسن عزائي على قتلى المسلمين فوالله لو كان الحزن يبقى حيا أو يرد ميتا لابقى حزني الحي ورد الميت ، ولقد اقتحمت في طلب الشهادة حتى يئست من الحياة وأيقنت بالموت • وأما خدعة مجاعة اياي عن رأيي فاني لم أخطىء رأي يومي ولم يكن لي علم بالغيب ، وقد صنع الله للمسلمين خيرا ، وأورثهم الأرض وجعل لهم عاقبة المتقين » •

وقال في رسالة اخرى : « اني لم أصالحهم حتى قتل من كنت أقوى به وحتى عجف الكراع ونهك الخف ونهك المسلمون بالقتل والجراح » •

وقد ظن خالد ان الخليفة لم يكن ساخطا عليه ذلك السخط لولا اصغاؤه « للأعيسر » كما كان يسمى عمر بن الخطاب • ويخيل الينا ان سخط الخليفة لم يكن ليبلغ به هذا المبلغ لولا ان زواجه ببنت مجاعة سبقه ذلك الزواج الذي خبطت فيه الظنون بعد مقتل مالك بن نويرة •

وعلى هذا انقضى واجب خالد بن الوليد في حروب الردة كأحسن ما ينقضي هذا الواجب ، وقام وحده بأوفر سهم في هذه الحروب ، لانه قمع آخطر الفتن في الجزيرة العربية من أقصاها الى أقصاها • فقمع فتنة بني أسد وحلفائهم ، وخطرها انها كانت أقرب الفتن الى المدينة ومكة • وقمع فتنة بني حنيفة ، وخطرها انها كانت فتنة القبيلة الأقوى والعديد الأكثر بين العرب قاطبة • وحقق كل ما ندبه له الخليفة وكل ما اتفقا عليه ، سواء من الخطط التي نظرا معا في تفصيلاتها أو من الخطط التي عرف خالد غاياتها وابتدع لها ما ارتآه من أساليبها في أماكنها وأوقاتها • ولم يخالف رغبة الخليفة الا في موضعين لهما ، كما أسلفنا ، علاقة بمسألة زواج •

---

(١) أعتبتك : أرضيتك ، وفعلت ما يسرك بعد أن فعلت ما ساءك •

أما الأولى ـ وهي زواج ليلى امرأة مالك ـ فقد تقدم تلخيصها وجملة الرأي فيه ـ كما أسلفنا ـ انه عمل يحوج خالدا الى الاعتذار والتفسير ، وانه صفحة كان خيرا له لو طويت من تاريخه ، فما فيها مزيد افتخار ، وفيها على أهون القولين مقام اعتذار ٠

وأما الأخرى فلا يسع أحدا أن يسهو فيها من عجلة خالد الى الزواج على غير عادة القوم في ميادين القتال ٠

ولكن لا يسع أحدا كذلك أن يتعدى هذا الى مظنة تمس نية الرجل أو تجعل صلحه لبني حنيفة متصلا برغبته في الزواج ببنت مجاعة زعيم الحنفيين في صلح اليمامة ٠٠ ذلك بعيد ، جد بعيد ٠٠

لأن بنت مجاعة كانت بين يديه ، وكان في وسعه أن يقتل أباها نقمة من خداعه اياه ، ومرضاة للخليفة الذي أمره باستئصال من يحمل السلاح في القبيلة ، فهو يقتله ولا معتبة عليه ٠

ولم يصالح خالد بني حنيفة وهم مجمعون على قبول صلحه ٠ بل كان منهم زعيم له أنصار وأتباع ـ هو مسيلمة بن عمير ـ أبى أن يذعن لشروط مجاعة ومضى يهتف في قومه : « يا بني حنيفة ٠ قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شيء ، فان الحصن حصين والطعام كثير ، وقد حضر الشتاء» ٠

فلما عارضه مجاعة وذهب برأي الأكثرين من قومه تمادى مسيلمة بن عمير في لجاج الخصومة وانسل الى فسطاط خالد يريد أن يفتك به ويشيع بموته الفتنة التي لا تؤمن عقابيلها (١) في معسكره ومعسكر بني حنيفة ، فتنبه خالد اليه وسأل : من هذا المقبل ؟ ٠٠ فعرفوه به فقال : اخرجوه عني ٠ فلما أخرجوه وجدوه يخفي السيف في ثيابه ، فلعنوه وأوثقوه في الحصن وأخذوا عليه عهدا لا يقربن بعدها من فسطاط خالد حتى تنتهي بيعة قومه على الاسلام ٠٠٠ ولكنه

(١) العقابيل : جمع عقبول وهو الشديد من الامور ٠

غدر بعهده وأفلت بالليل الى عسكر خالـد مصرا على قتله ، فلما أدركوه دون بغيته أجال السيف على حلقه فقطع أوداجه وآثر الموت على التسليم •

ومع هذا بقيت بلد « القرية » ووادي العرض في اليمامة لم يشملها الصلح الذي شمل العسكر في عقرباء • فلـم تكن مطاولة القوم خيرا من المصالحة في حالة كتلك الحال ، ولم يكن في طاقة المسلمين على أن ينهضوا للمطاولة بعد أن قتل منهم من قتل وجرح من جرح ومضى على أكثرهم عدة شهور بين مشقة السفر ومشقة الهول والبلاء ، ولم يكن ارجاء التسليم مأمون المغبة اذا استثيرت نخوة الحنفيين وفيهم من يعاند في الخصومة ذلك العناد ، ولقد يكون المستسلمون منهم أسرع الى النكسة يوم يشهدون بأعينهم سبي النساء « غير حظيات » وقتل القادرين على الحرب من فتية وكهول •

فدواعي خالد الى الصلح أظهر وأرجح من أن يعتسف معها داع آخر غير معقول ولا مستساغ ، وان الداعي الذي لا يعقل ولا يستساغ هنا لهو التعليل بزواجه من فتاة اليمامة • وأيسر شيء لديه أن يسببها بعد قتل ذويها ، ثم يكون ذلك أدنى الى رضى الخليفة وتحقيق ما أمر به ، قبل ان يطلع على الموقف في اليمامة من جملة نواحيه •

وبعد فليحسب زواج خالد كله في أي سجل يشاء أن يحسبه الحاسبون •

ففي سجل المفاخر الاسلامية شيء يحسب له بعـد حـرب اليمامة لن يطول فيه خلاف •• فتلك أول حرب ظهـر فيها للمسلمين مصداق قول النبي عليه السلام انه سيف من سيوف الله • كان الخطر على الدين الجديد من العرب أنفسهم ومن أمم « الأعاجم » التي تحيط بالبلاد العربية •

وقد رأينا نصيب خالد من وقاية الاسلام في أرضه ، وهو أوفى نصيب • وسنرى نصيبه من مراس (١) الخطر الآخر وما هو بأكبر الخطرين ، ولكن نصيب خالد في مراسه كان أوفى النصيبين •

---

(١) المراس : الجلد والقوة •

الفتوح

في سبع سنين قصار فتح العرب كل مـا اقتحموه من بـلاد الفرس والروم ··

فتقوضت في الشرق دولة الأكاسرة ، وتداعت في الشمال والغرب دولة القياصرة ، وزال سلطانها من الشام وفلسطين ومصر وأفريقية الشمالية ، وشغلت بنفسها زمانا عن الفاتحين وما فتحوه ·

عجيبة من أعظم عجائب التاريخ ·

لا يبرح المؤرخون حتى أيامنا هذه يأتون في تعليلهـا كل يوم بعلل جديـدة ، ويفيضون في شرح السوابـق واللواحق على النحو الذي يفسر العجب بالمألوف ، ويرد الدهشة الجامحة الى قرار البحث والتدليل ·

وهو جهد لا نعرض له في هذا الكتاب ، ولا يلزمنا هنا أن نستقصيه ونحاول البت فيه ·

انما يعنينا منه شيء واحد هو تقدير عمل خالد ، وتقدير الكفاية التي تضلع بذلك العمل ، وليس تقدير ذلك بعسير ولو بقي التاريخ منشعب اللسان في استقصاء علل الهزائـم التي نزلت بالفرس والروم

فالأسباب التي قضت على الفرس والروم بالهزيمـة ــ كائنة ما كانت ــ ليست هي الأسباب التي قضت للعرب بقيام دولة وانتشار عقيدة ، لأن استحقاق أناس للزوال لا ينشيء لغيرهم حق الظهور والبقاء ·

كذلك لم يكن انتصار العرب على الفرس والروم لأنهم عرب وكفى ، ولم تكن المسألة في لبابها كفاحـا بين الأجناس والعناصر بما لها من المزايا وما فيها من العيوب ·

فقد كان في أرض الدولتين عـرب كثيرون يدينـون لهما بالطاعـة وينظرون اليهما نظـرة الاكبار والمهابـة ، وكان القادرون منهم على القتال أوفر من مقاتلـة المسلمين عددا وأمضى سلاحا وأقرب الى ساحات العراق والشام من أولئك النازحين اليها من جنوب الجزيرة العربية ·

وقد كان هناك عرب كثيرون انهزموا أمام المسلمين وهم كذلك أوفر في العدد والسلاح وأغنى بالخيل والابل والأموال.

فهي نصرة عقيدة لامراء .

وينبغي أن يذكر المؤرخون هذه المسألة من جانبيها ولا يقصروا النظر فيها الى جانب واحد ..

فاستحقاق النظم القائمة للضياع هو في وقت واحد سبب ضياعها ، وهو حجة العقيدة التي تخلفها وتنتصر عليها في ساحة النزاع .

اذ كان ادعى الدواعي لظهور عقيدة جديدة ان النظم القائمة قبلها لا تتماسك ولا تصلح لحماية ذمارها .

فاذا قيل ان العقيدة الجديدة قد انتصرت لتداعي النظم التي اصطدمت بها فليس هذا تعليلا وكفى ، ولكنه كذلك شفاعة وحجة للظهور ، ودليل على انها حق صالح كأصلح الحقوق الكونية ، وانها علاج عالمي مطلوب جاء في الأوان .

لكن القول بانتصار العقيدة هنا لا يغني عن كل قول .

أفكل مناضل متذرع بالعقيدة صالح في تلك الآونة للانتصار ؟

ينبغي أن يكون الأمر كذلك لو كان تعليل النصر بالعقيدة مغنيا عن كل تعليل ..

ولكن الواقع ان الذين انتصروا بالعقيدة كانوا رجالا أولي خبرة وقدرة يؤمنون بها ويعرفون كيف يتغلبون بها على أعدائها .

وقد أفلح أناس وأخفق آخرون .

فانهزم عكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة حيث انتصر خالد في اليمامة ..

وخرج خالد وعياض بن غنم لفتح العراق من طرفيه في وقت واحد ، فسار خالد من نصر الى نصر ومن توفيق الى توفيق . ولبث عياض يتردد ويقدم خطوة ثم يحجم اخرى حتى أدركه خالد بالمعونة في دومة الجندل ..

وسبق خالد بن سعيد خالد بن الوليد الى الشام فغرر به الروم حتى استدرجوه الى مرج الصفر فأوغل وراءهم ولم

ينتظر حتى تدركه أمداد الخليفة التي أرسلها اليه تباعا بقيادة عكرمة بن أبي جهل والوليد بن عقبة وذي الكلاع الحميري ، فأحدقت به جحافل الروم واوشكت أن تلتف به من ورائه ، ولولا يقظة الخليفة وتلاحق امداده في أوقاتها لقضوا عليه ..

فلا انحلال الدولتين الفارسية والرومانية بمغن عن الاعتراف للعقيدة المنشئة بحقها في الغلب وحاجة العالم اليها في تلك الأونة ..

ولا العقيدة المنشئة بمغنية عن فضل رجالها وحماتها ، وكفاية سواسها وقادتها ..

فهي عقيدة منشئة يذود عنها حماة قادرون ، وكان خالد ابن الوليد في طليعة هؤلاء الحماة .

❋ ★ ❋

سبقه اسمه الى أطراف الدولتين فحارب أعداءه بهيبته قبل أن يحاربهم بسيفه ، وكانت هذه أول مزية لاختياره وأول فضل يحسب له في ميزانه ويضاف الى قيادته ويعمل عمله في نفوس أعدائه كما يعمل عمله في نفوس أتباعه ..

قال صاحب دومة الجندل لقومه حين سمع بمسيره اليه : « أنا أعلم الناس بخالد . لا أحد أيمن طائرا منه (١) ، ولا أصمد في حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبدا قلوا أو كثروا الا انهزموا عنه . فأطيعوني وصالحوا القوم .. » .

وكان الرجل من العرب يعيش في الشام ويهجر موطنه الأول ولكنه يسمع باسم خالد ويتلقى أنباءه من وراء المهامة (٢) والدروب ، فما هو الا أن ينضوي اليه حتى يوقن بيمن طائره ويسرع الى طاعة أمره عليما بأنه لا يأمر الأمر الا وهو قادر على انجازه . كما قال الشاعر الفارس عمرو ابن العمرد :

(١) أيمن طائرا : أكثر بركة وأسعد فألا .
(٢) المهامة : جمع مهمة ، وهي المفازة البعيدة والبلد المقفر .

اذا قال سيـف الله كروا عليهم
كررت بقلب رابط الجأش صارم

ويتناقل الرواة قصة لقائـه من قادة الروم لا تقـل فيها دلالة الخيال عن دلالة الحقيقة ، ان كانت القصة مـن توليد الخيال ..

قيل ان قائدا من قادة الروم اسمه جورج برز له في أكبر وقائع الشام وسأله : أحق ان الله أنزل على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم الا هزمتهم ؟

قال خالد : لا ..

قال : فبم سميت سيف الله ؟

قال : تابعناه . فقال أنت سيف مـن سيوف الله سله على المشركين ودعا لي بالنصر فسميت سيف الله . فأنا مـن أشد المسلمين على المشركين .

وكل هذا شبيه بأن يكون .

فان لم يكن نبأ خالد وقد وصل الى عدو من أعدائه فالذي لا ريب فيه ان أتباعه كانوا على علم بنبأه فكانوا على ثقـة بسداد رأيه ومضاء عزمه ، وكانوا يطمئنون اليـه فيعملون معه عمل المطمئن الى نجـاح سعيه ، وهذا هـو فضل القيادة الصالحة في نفوس الأتباع .

★

خرج خالد وزملاؤه للقاء الفرس والروم بعد وفاة النبي عليه السلام بسنة واحدة ، وبعد حروب طالت في الجزيـرة العربية عدة سنين .

فلو كانت الفتن وموت الزعماء قاضية على كل أمة كيفما كان السبب وكانت البيئة لكان مصاب العرب كمصاب الفرس والروم في تلك الأعوام : فتن وفتن ، ونبي مات وملك قتل أو قيصر شاخ . فهؤلاء وهؤلاء في العلة سواء .

لكن حركة العرب حركة انشاء ونماء .

وحركة الروم والفرس حركة اختلال وتقويض .

وجسم الفتى اليافع مضطرب لا يستقر على حال ٠
وكذلك جسم الهرم الذاهب ، ولكن شتان اضطراب واضطراب ٠

★ ★

كانت علل الفناء قد اصطلحت على بنية الدولة الفارسية يوم قصد خالد الى تخومها من ناحية السواد (١) ٠

وكانت علل مثلها ــ وان كانت أخف منها ــ قد اصطلحت على بنية الدولة الرومانية الشرقية ، يوم قصدها زملاؤه القواد من شتى نواحيها قبل الشام والبلقاء ٠ وهذه خلاصة وجيزة عن الحالة يومئذ في الدولتين :

يقول شراح الحضارات ان الحضارة تبتدىء بمعنى روحي قليل المظهر ثم تنتهي الى مظهر ضخم يتراخى به الزمن حتى لا تبقى فيه بقية من المعاني الروحية ٠٠

وهذه هي الحالة التي كانت عليها دولتا الفرس والروم عند اصطدامهما بالدعوة الاسلامية في نهضتها الأولى ٠

ففي بلاد الفرس خفت صوت الدين ومضى على ظهور « زرادشت » مصلحهم الديني الكبير زهاء أربعة عشر قرنا ، فرث الصالح من مذهبه وازداد الطالح سوءا على سوء ٠

وخلف في بيت الملك أمراء ضعفاء بعد آبائهم الأقوياء فشغلوا بالنزاع بينهم وأسقطوا هيبتهم في بلادهم وغير بلادهم ونهكوا قوة الدولة في فتن وبيلة وخيمة وترف أوبل وأوخم ٠
وما برحوا في طغيانهم وتهافتهم حتى ولي الملك اردشير فرأب صدعه وأوشك أن يعيده الى سابق مجده وتركه في القرن الثالث للميلاد وهو موحد بعض التوحيد بالقياس الى ما كان عليه قبل ذلك من التفرق بين العشائر والرؤساء ٠

ثم نكس النكسة الأخيرة وشاع فيه الفساد علوا وسفلا قبيل ظهور الدعوة الاسلامية ٠ وكان الملك المعاصر للنبي عليه السلام كسرى أبرويز فثار به ابنه شيرويه فقتله ونكل

---

(١) السواد : سواد المدينة : ما حولها من القرى والريف ٠

بذوي قرباه ، وأعقب طفــلا صغيرا فلم يلبث أن قتل وتولى بعده قائد الجيش شهر يزار ، فنفس عليه القواد والعظماء منزلته المغصوبــة فقتلوه وولوا عليهــم بوران بنت كسرى أبرويز ، فلم تتم في الملك سنة وبضعة أشهر حتى ماتت وخلفها فتى مــن بني عمومتها الأبعديــن ، ثم قتل وخلفتــه أخرى لكسرى أبرويز فقتلت ، وقتــل من بعدهــا ، الى أن تولى الأمر يزدجرد بن شهريار والدولة تترنح من فرط الاعياء ••

ومنيــت (١) ، أيامها الأخــيرة بضربة قويــة في حروبها الخارجية : وهي غلبة الروم عليها وانتزاع مصر والشام منها ورد حدودها الى دجلة والفرات بعد أن طغت على حدود آسيا الصغرى ، وقبل هذا منيت بضربة دون هذه الضربة في القوة والضخامة ، ولكنها أشد منها أثرا فيما نحن بصدده من أحوال الدعوة الاسلاميــة : وتلك هي ضربــة الهزيمة « بذي قار » التي تقدم وصفها في أول هــذا الكتاب • فان هــذه الهزيمة أطمعت فيهــا العرب بعد مخافــة رهيبة ، ولا سيمــا العرب المقيمين بجوار ذي قار وأرباض السواد ، ومنهم جند خالــد وزملائه الذين تقدموا لمنازلة الفرس في العراق ••

وساءت من جراء ذلك كله شئون الأمة في الديار الفارسية، فتهالك العلية على المظاهر وانغمسوا في الترف واستكثروا من النفائس والأموال وشغلوا عن سواد الأمة فشاع بينهــم الفقر والضنك والتذمر وبغض الحكام ، ولم يعلموا فيم هم مسوقون وعلى أي شيء يقاتلون ويتفانون • وهي حال تؤذن بالتصدع والانهيار لأول صدمة تهز الأركان والجدران •

ومن أعجب العجب أن يفطن رجل كالمغيرة بن شعبة لدلالة هذه الحال وهي معدودة في عصرنا من دروس علوم الاجتماع والتاريخ التي لا يصل اليها الباحث الا بعد مقارنة واطــلاع واسع مستفيض ، ولكنه العجب الذي يفسر لنا ما هــو أعجب منه ، وهو وفرة نصيب العرب يومئذ من أقطاب الرجال ذوي

---

(١) منيت : ابتليت •

الحنكة والنظر البعيد ، وانهم قد ظفروا لأنهم كانوا على أهبة في هذا الباب حرمتها كلتا الدولتين ، على كثرة من بهما من الزعماء أصحاب المظاهر والشارات ·

دخل المغيرة بن شعبة على رستم بطل الفرس المشهور في التواريخ والأساطير فجلس معه على سريره ، فاستكبر أعوانه هذه الجرأة من ذلك البدوي « المغرور » واجتذبوه من مكانه على السرير في عنف شديد · فما اهتز المغيرة ولا استكان ولا زاد على أن قال : لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام (١) ولا أرى أسفه منكم · انا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضا ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ـ أي نتساوى ـ فكان أحسن من الذي صنعتموه معي أن تخبروني ان بعضكم أرباب بعض · ان هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحد · واني لم آتكم ولكن دعوتموني ··· اليوم علمت أنكم مغلوبون ، وان ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول ؟

كلمات من ذهب ··

لو كان فيمن سمعها من الفرس من يضارع المغيرة لقال في جوابه : « واليوم علمنا انكم غالبون ، وان أحق الملك أن تقوم له قائمة لهو الملك الذي قوامه من هذه السيرة وهذه العقول» ·

على ان الأمم لا تقفر من الأحلام كل الاقفار في أظلم ظلمات الجهالة والادبار ، فقد وزن « يزدجرد » شأن العرب والفرس بالميزان الصحيح حين قال لرستم : « انما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عقاب أوفى على جبل يأوي اليه الطير بالليل ، فتبيت في سفحه في أوكارها · فلما أصبحت تجلت الطير فأبصرته يرقبها ، فان شذ منها شيء اختطفه · فلو نهضت نهضة واحدة ردته ، وأشد شيء يكون في ذلك أن تنجو كلها الا واحدا · وان اختلفت لم تنهض فرقة الا هلكت ، فهذا مثلهم ومثل الأعاجم » ·

---

(١) الاحلام : العقول ·

وصف صادق من جملة أطرافه •

وعلامة من علامات الانحلال أن لا ينفع الوصف الصادق ولا يهدي العارفين به الى رأي متفق عليه ، كما يعرف المرض ولا ينتفع بعرفانه في العلاج اذا شارف الجسم الفناء • ولهذا اتفق يزدجرد ورستم على الصفة ولم يتفقا على العمل النافع مع العرب ، فافترقا مختلفين •

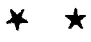
وكما بقيت في أهل فارس يومذاك مسكة من حلوم (١) بقيت لهم كذلك مسكة من مروءة الفرسان ، أو على الأصح مسكة من المراسم والمأثورات الحربية ، وهم أولع أمة بالمراسم والمأثورات كافة •

وهذه المسكة شرف للقادر ولكنها بلاء على العاجز المتخاذل ، كأنها الوثبة التي تعجل بالهلاك ان وثبها المريض الهزيل ، وانها في الأقوياء لمعوان على المجد والطموح •

فربما أقدموا على القتال وهم يحسبون انهم مقدمون على مباراة في حلقة صراع ، ينظرون عدوهم حتى يصل اليهم كما ينظر المصارع نده حتى يأخذ بعضديه في أمان •

ففي وقعة الجسر أقبل بهمن جاذويه ومعه راية الفرس الكبرى من جلود النمور طولها عشر أذرع وعرضها ثمان ، وبين يديه جيش يربو على جيش المسلمين مرات • فأرسل الى أبي عبيد قائد المسلمين يقول له : أما أن تعبروا الينا وندعكم والعبور وأما أن تخلو بيننا وبينه • فتعجل أبو عبيد وعبر النهر على جسر نصبوه ، والفرس ينتظرون •

مثل هذه المراسم جهل بحقيقة الحال ، وحقيقته انه صراع حياة وموت بين أمتين ، وليس بحلبة سباق أو حلقة رهان بين لاعبين في ملهاة •



أما دولة الرومان الشرقية فقد كانت في حال لا تفضل حال

---

(١) مسكة من حلوم : المسكة (بضم الميم) الاثر والبقية ، والحلوم : العقول •

جارتها وعدوتها في محنة العقيدة ومحنة النزاع على الملك والولاية •

ضرب المثل بالجدل البيزنطي في التاريخ القديم والحديث من جراء الخلاف على المذاهب الدينية في الدولة الرومانية الشرقية ، وكان معظم أبناء الولايات من النساطرة واليعاقبة يخالفون مذهب الدولة الرسمي ويمقتون رجاله ويرمونهم بالهرطقة والوثنية ، وكان القائلون منهم بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح أقرب الى الاسلام منهم الى المسيحية •

وابتذل عرش الملك بالقتل والاغتصاب فضعف الولاء له في نفوس العلية وقواد الجيوش • وقد استقر الأمر زمنا للقيصر هرقل الذي حضر عهد النبي عليه السلام ولكنه شقي بالفتن في أخريات عهده وركبته الوساوس في شيخوخته ولا سيما بعد بنائه ببنت اخته ، فاعتقد انه مغضوب عليه مستحق لعقاب السماء •

ومن كان من الرعية ذا دين غير المسيحية فهو ساخط ناقم كاليهود والوثنيين ••• لأن رؤساء الكنيسة والدولة اتهموهم غير مرة بالتواطؤ على فتح البلاد مع المغيرين عليها من الفرس والبرابرة ، فأثخنوا فيهم قتلا وتشريدا حتى قيل انهم كانوا يفتكون في المذبحة الواحدة بعشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال •

وعاشت في ظل الدولة الرومانية قبائل غسان وجذاع وكلب وتنوخ وغيرها من قبائل العرب فكانت تعينها وتستعين بها على منافساتها من قبائل المناذرة في الحيرة • ولكن غلبة الفرس تارة وغلبة الروم تارة اخرى على تلك البقاع ضيع الثقة بالدولتين ، وهيأ نفوس العرب لقبول دعوة جديدة ولا سيما الدعوة التي تأتيهم من أبناء جنسهم في الجزيرة العربية وبها اعتزازهم على العجم كافة من فرس وروم • واتفق في تلك الفترة انقطاع الهبات التي كان رؤساء العشائر يتلقونها من قياصرة الدولة وولاتها فبرموا بها وودوا لو انقلبوا عليها ساعة يأمنون كيدها ويوثقون الصلة بينهم وبين خصومها •

ويؤخذ من رسالة فجيتيوس Végétius في علم الحرب ان

نظام الجيش الروماني في الغرب والشرق كان قد تعاوره الخلل قبل ظهور الدعوة المحمدية بأكثر من قرنين • ففي هذه الرسالة يقول فجيتيوس الذي يعدونه امام أساتذة الحرب بين الغربيين ان « اللجيون » (١) قد وهن واضمحل ويذكر من أسباب وهنه واضمحلاله ان مناصبه الكبرى أصبحت تمنح للمحاباة والصنيعة بعد أن كانت وقفا على الكفاية والخدمة الطويلة ، وان عامة جنوده يهربون منه ويؤثرون الخدمة في الفرق المتطوعة لأنهم يستثقلون تمريناته وأسلحته ويستقلون جزاءه ويضيقون ذرعا بوطأة نظامه •

وقد أتيحت للرعية في الشام والبلقان فرصة حسنة للمقارنة بين حكم العرب وحكم الرومان قبل الوقائع الفاصلة التي دارت فيها الدائرة على الجيوش الرومانية • فقد كان رجال الجيش الروماني يهبطون المدينة فينهبون بيوتها وغلاتها ويستبيحون أعراضها ويهتكون حرماتها ويسكرون ويعربدون فلا يأمنهم أحد مطموع في ماله أو غير مطموع منه في شيء على الاطلاق ، وانما هي العربدة والضراوة والاستخفاف • ثم جاءهم قوم لا يعتدون على عرض ولا يقربون الخمر ولا يعفون عمن يقربها منهم ولو كان من عليتهم ، ويقيمون في المدينة ثم يرحلون عنها فيردون الجزية الى أهلها لأنهم انما أخذوها لحمايتهم وحمايتها • فكانت المقابلة بين الحكمين مدعاة الى التراخي في الدفاع عن الحكم القديم وتمني الغلبة للحكم الجديد • وقد تجاوز ذلك الى المساعدة الظاهرة كما حدث من بعض العرب المسيحيين والوثنيين على السواء •

* * *

بل ربما تجاوزت كل هذا الى ازعاج ثقة القادة بأنفسهم عند المقابلة بينهم وبين قادة خصومهم •• فمما يروى في هذا

---

(١) اللجيون : اسم كان يطلق في روما القديمة على فرقة من الجيش قوامها بضعة آلاف من المشاة وبضع مئات من المدافعين •

المعنى وهو كثير ان أخا القيصر وقائده سأل رجلا من قضاعة عن شأن المسلمين بعدما أقام بينهم أياما فقال له : « هم رهبان بالليل فرسان بالنهار ، لو سرق ابن ملكهم قطعوا يده ، ولو زنى رجموه اقامة للحد · فقال القائد : لئن كنت صادقا لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها » ·

ولما بدأت المعارك بين العرب والدولتين كان العرب ربما أخطأوا فلم يضربوا ضربتهم في موضعها فيتسع لهم الوقت لاصلاح الخطأ والرجوع الى الخليفة لطلب النجدة والمشورة ، لأن أعداءهم مشغولون أبدا بنزاع أو فتنة أو ريبة · أما الروم والفرس فلم يكن لهم متسع لاصلاح خطأ يخطئونه وكثيرا ما كانوا يخطئون · فبدأت المعارك بين الفريقين وعند أحدهما كل مظاهر الأسباب التي تدعو الى النصر وعند الآخر كل حقائق الأسباب التي تدعو اليه ·

وقد اتفقت كلمة الصحابة على حرب فارس والروم وسيف الله بوادي الوبر في اليمامة لم يطل استقراره في غمده بعد وقعة عقرباء ·

وهناك حلقات من الحوادث تسوغ لنا أن نعتبر حرب فارس الثانية امتدادا للوقعة الأولى بذي قار ، أو استئنافا لتلك الواقعة بعد فترة لا تحسب طويلة في تواريخ النزاع بين الأمم، وهي نيف وعشرون سنة فالقبائل التي ارتدت بالبحرين وقبائل تغلب التي انحدرت مع سجاح من الجزيرة كانت كلها من أتباع الدولة الفارسية على صورة من صور التبعية في ذلك الزمان ، وكانت تعيش كلها في ظل تلك الدولة من أيام المناذرة الى زوال ملكهم بعد وقعة ذي قار ·

والبطلان اللذان تعودا ضرب الفرس والاغارة على دهاقينهم (١) في تلك الأصقاع كانا من بني بكر الذين نهضوا بالعبء الأكبر في وقعة ذي قار ، وما برح العداء بينهم

---

(١) الدهاقين : جمع دهقان (بضم الدال) رئيس الاقليم أو القوي القادر على التصرف أو صاحب المال ·

وبين الفرس والقبائل التي تواليهم على أشد ما يكون : وهما المثنى بن حارثة الشيباني وسويد بن قطبة العجلي • وكلاهما على ذكر من هزيمة الفرس وعلى خبرة بقتالهم في أطـراف العراق • وقد صخب المثنى النهر في غاراته حتى بلغ القطيف وهجر (١) ولم يقف له أحد في طريقه • فهذا مع عجز الفرس عن تأديب رعاياهم في اليمن لدخولهم في الاسلام قضيا علـى تردد الخليفة في أمر البعثة الفارسية، فصحت عزيمته وعزيمة أصحابه على تجريدها بعد الفراغ من حروب الردة بأسابيع معدودات •

* * *

وقد علمنا من دأب الخليفة الصديق انه كان لا يبرم أمرا الا أحكم تدبيره مرحلة مرحلة من طريقه الى منتهاه ••

وهكذا كان شأنه في البعثة الفارسية : فانه ندب لها قائدين هما خالد بن الوليد ، وعياض بن غنم ، وأمر خالدا أن يتجه الى الابلة ثغر الهند كما سماها ، وأمر عياضا أن يتجـه الى المصيخ بشمال العراق • فأيهما بلغ الحيرة قبل الآخر كان هو قائد الجيشين معا ووجبت طاعته على زميلـه ، وقال لهما : « اذا اجتمعتا بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس أمنتمـا أن يؤتى المسلمـون من خلفهـم فليكن أحدكمـا ردءا للمسلمين ولصاحبه وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكـم من أهـل فارس دارهم » •

خطة محكمة يبلغ بها الخليفة مقاصد شتى في وقت واحد • ففيها اذكاء المنافسة بين القائدين، وفيها تشتيت جهود الفرس في الدفاع عن بلادهم ، وفيها تدبير النجاة سلفا لمن يحتاج اليها من الجيشين ، وفيها تيسير أمر الماء والكلأ في الطريق للجيشين معا ، لأن أمواه الطريق ومراعيه تضيق بالجيشين المجتمعين اذا سارا في طريق واحد •

وكان الصديق واخوانه يعلمون ان المسالة في هذه الحرب

---

(١) القطيف وهجر : مدينتان بالبحرين •

مسألة يقين وعزيمة وليست مسألة كثرة وهيئة ..

فحرص لهذا على أن يجنب الجيوش الاسلامية مخاوف المرتدين ونكساتهم ، وأوصى القائدين ألا يقبلا أحدا منهم ، وألا يكرها أحدا من غير المرتدين على المسير في جيشهما ما لم يقبل على الحرب برضى منه ورغبة . ولما نظر خالد الى من حوله يرفض كثيرهم ويبقى قليلهم كتب الى الخليفة يستمده فأمده بفارس واحد هو القعقاع بن عمرو التميمي .. فعجب أصحابه وقالوا له : أتمده برجل واحد ؟ .. قال : نعم ! .. لا يهزم جيش فيهم مثل هذا !

ولم تمض أيام حتى ظهر للمسلمين انه مدد كاف وأي كفاية ، فان ثقة الناس بجيش يكون القعقاع فيه ويتولى قيادته خالد بن الوليد قد جاءت بالمتطوعين للقتال من كل صوب وحدب . فبلغ جيش خالد يوم شارف ميدان القتال قرابة عشرة آلاف عدا جيش المثنى بن حارثة وهو يبلغ ثمانية آلاف . ولم يتقدم المسلمون خطوة في ميدان القتال حتى كانت للقعقاع وقفة لعلها أنقذت الجيش كله وأنقذت البعثة كلها من بدايتها ، ولم يكن أحد ليعلم ماذا تكون العاقبة لولا تلك الوقفة التي تعلق بها الكثير من مصير جيش الفرس ومصير جيش المسلمين .

ففي الوقعة الأولى دعا القائد الفارسي ـ هرمز ـ خالدا للمبارزة قبل التحام الجيش ، وأضمر نية الغدر به حين يخرج منفردا بين الصفين ، فوكل به شرذمة من فرسانه ينقضون عليه وهو مشغول بمبارزته فيراع الجيش العربي بمقتل قائده كما سبق الى وهمه ، ويطبق الجيش الفارسي بعدده الكبير على الجيش العربي بعدده القليل فتكون الغلبة لأكبر الجيشين وأكمل العدتين ..

وأوشكت هذه المكيدة أن تتم على النحو الذي دبره هرمز لولا انه أخطأ الحساب في اغتراره بقوته وجهله بصولة خالد في مبارزته ، فظن ان الجولة بينهما تطول قبل أن يخرج فرسانه للغدر بخالد ، ولكنه صرع في جولة واحدة وفوجىء

أصحابه بهذه السرعة فاقتربوا من خالد على عجل وهو مشغول بالاجهاز على قائدهم ، واذا بالقعقاع أسرع اليهم من لمح البصر ومن ورائه جيش المسلمين بجملته يضرب في قطيع مذعور مأخوذ بالمفاجأة ومهابة هذه الصولة العاجلة • فكانت وقعة اليوم وقعة رجلين في جولة واحدة ، تلتها الجولات اللاحقات التي ترسمت خطاها وسارت على هداها ••

سار خالد الى العراق في أوائل السنة الثانية عشرة للهجرة النبوية • وأتم في سنة واحدة ما أعيا الرومان أن يتموه في أجيال •

وقد تكتب في شرح وقعاته بالعراق مجلدات طوال يستغرق بحثها ومعارضة رواياتها مئات الصفحات ، ولكننا لا نتوسع في ذلك الشرح هنا لأن أعمال خالد تعنينا في هذا الكتاب لمقصد واحد،وهو الرجوع بها الى مصدرها من نفسه وعقله ومقومات شخصه •

وفي هذا حسبنا أن نقول على الاجمال قبل الاشارة الى وقعاته انه لقي الفرس وأولياءهم في خمس عشرة وقعة لم يهزم ولم يخطيء ولم يفشل قط في واحدة منها ، وأن قوادا من المسلمين أخطأوا في حروب الردة وحروب الفرس والروم كما حدث من عكرمة وشرحبيل وأبي عبيد وخالد بن سعيد ، ولكن خالدا لم يخطيء قط عن خدعة أو عجلة أو قلة أهبة ، وكان يسير بجيشه أبدا على تعبئة كاملة ليقاتل عدوه حيث لقيه مفاجئا أو غير مفاجيء ، وكان أبدا كما وصفه عمرو بن العاص : « في أناة القطاة ووثبة الأسد » فلا يهمل الحيطة ولا يجعل التعويل كله على الشجاعة دون الحزم والحيلة ، ولا يعز عليه أن يتحامى لقاء عدوه في بعض الساحات لينتقل به الى المكان الذي هو أصلح لحركاته وأعون له عليه • ومن علمه بفنون القتال انه كان يحارب بثمانية عشر ألفا وكأنه كان يحارب بخمسة أضعاف هؤلاء • فاذا أرسل أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف الى مكان يغنون فيه ، فذاك أجدى من تسيير الجيش كله أو تسيير عدد منه يربو على الحاجة الضرورية •• فان

طرأ في خلال مسيره ما ليس في الحسبان فمعوله في الحالة على سرعة خاطفة كسرعة الباشق (١) وهو ينقض على فريسته ، فلا تشعر الفرقة التي أشخصها (٢) الى مكانها بالحاجة اليه حتى يكون معها كأنها لم تفارقه ولم يفارقها •

فهي شجاعة ويقظة وخبرة وسرعة ومعرفة بما هو لازم في وقت لزومه ، ولم تخذله خصلة من هذه الخصال قط في ساحات فارس ولا في ساحات الشام مع اختلاف الميادين واختلاف الأحوال واختلاف الأعداء •

وقد كانت تعبئة خالد في المسير تشبه التعبئة التي جرى عليها العرف في أيامه ، وهي قسمة الجيش الى ميمنة وميسرة وقلب وطليعة تسبقه ، وردء يلحق به ليحمي ظهره أو يلبث في موضع من المواضع كمينا ينزل الى الساحة على غير انتظار، لتقوى به سواعد أصحابه وتنخذل به عزائم أعدائه •• ولكنه كان عند القتال يفتن باتخاذ طريقة الهجوم أو الدفاع كما توحي بها ضرورة الساعة • فيقاتل بالصفوف كما يقاتل بالكراديس ، ويواجه خصمه أو يدور عليه ، ويتراجع أمامه أو يمعن في الهجوم على كبة جمعه ، ويحصره أو يخلي له سبيل الهرب،حسبما تدور به المعركة في أثنائها أو توحي به طوالعه قبل ابتدائها •

ثلاث من طرائق مختلفة ، فقدم المثنى على رأس فرقة ثم ألحق به عدي بن حاتم صاحبه في حرب بني أسد ، ثم لحق بهم على رأس جيشه وواعدهم موضعا الى الجنوب الغربي من البصرة الآن ، ولعله توخى تسهيل السقي والمرعى بهذا التقسيم ، ثم اختيار الطريق بقيادة الرجل الذى كانت له سابقة الدراية بهذه الدروب •

---

(١) الباشق : (بفتح الشين) البازي وهو ضرب من الصقور
(٢) أشخصها : بعث بها •

وكتب الى هرمز قائد الفرس يخيره بين الاسلام والجزية أو الحرب ، ويقول له في ختام كتابه الوجيز : « جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » ثم عدل الى كاظمة بعد أن كان موعده الأول « الحفير » لانها كانت على ما يظهر أوفق لتعبئة جيشه ٠

وهناك التقى بجيوش الفرس ــ وعلى رأسهم هرمز ــ فوقعت بينهم الوقعة التي سبقت الاشارة اليها وتعرف باسم ذات السلاسل ، لأن الفرس كانوا يوثقون أنفسهم فيها بالسلاسل جماعات جماعات ليثبتوا في القتال ولا يتأتى لهم الفرار ان أرادوه ولئن صح هذا لقد كانت مخاوف الشك فيه أظهر من صدق العزيمة والطمأنينة الى النية القوية ٠

ولما تبدد جيش هرمز تعقبه المثنى بن حارثة وعبر الفرات ليأخذه متفرقا قبل أن تتجمع فلوله حيث تأمن احتثاث الملاحقة وراءها ، ولكن الفرس علموا بعد مقتل هرمز وتفرق جيشه انهم مهددون في « المدائن » عاصمة ملكهم فحشدوا لملاقاة المسلمين جيشا عظيما بقيادة قارن بن قريانس يعاونه أميران من بيت أردشير ٠ فأدرك فلول هرمز في « المذار » وضمهم اليه، وكان المثنى قد علم بخروج هذا الجيش العظيم واجتماع الفلول المتفرقة اليه فكتب الى خالد يستأمره ويستمده ٠ فكان خالد هو الجواب ٠٠

ووصل خالد الى المذار وهو كامل التعبئة فتصدى قارن لمبارزته على عادتهم قبل بداية القتال ، فنهض اليه خالد ومعقل بن الأعشى يستبقان ، وأراد معقل أن يحمي خالدا من مثل مكيدة هرمز فيتلقى الضربة دونه أو يسبقه الى قتل قارن ٠ وبرز عدي بن حاتم وعاصم بن عمر لمنازلة الأميرين ، فظفروا بهم جميعا ثم اشتبك الفريقان في ملحمة حاربوا فيها كما قال المؤرخون حرب حنق وضغينة ، وبلغ بعضهم بعدد القتلى من الفرس ثلاثين ألفا ، ولولا النهر ولياذ الفرس بالسفن لكانت المقتلة أعظم من ذاك ولم يكد يفلت من الموت أحد ٠

ورانت الحيرة (١) بعد وقعة المذار على عقول القادة من الفرس ، فخيل اليهم ان في هؤلاء العرب سرا لا يدركونه ، وأحبوا أن يحاربوا آفتهم بآفة من جنسها ، فاستعانوا بأوليائهم من ابناء القبائل العربية فيما بين النهرين ، واشترك هؤلاء في كثير من الوقائع التي دارت بين الفرس والمسلمين بعد وقعة المذار ، وضايقوا المسلمين غير قليل في الوقعتين التاليتين بالولجة وأليس •

وكان خالد كعادته في الحيطة والمبادرة ، فاستبقى طائفة من جيشه في البلاد التي فتحها حماية لظهره واستعدادا لمن يجترىء عليها بعد مسيره • وتقدم الى الولجة على تعبئة كاملة بمن معه جميعا ، ثم فصل طائفتين من الجيش أثناء الطريق ليكمنا على مقربة من الولجة ويلتفا في ساعة الحرج بالجيش الفارسي من ورائه • فطالت المدافعة والمراوغة بين الفريقين قبل أن يظهر الكمينان • وتردد النصر بين الفرس والمسلمين تارة هنا وتارة هناك حتى ظن الفرس انهم من النصر قاب قوسين أو أدنى • ثم ظهر أحد الكمينين وظهر الكمين الآخر قبل أن يفيق الفرس من دهشة الكمين الأول • فتولاهم اعياء اليأس بعد اعياء المصابرة والمجاهدة ، وولوا مدبرين وهم يتخففون من السلاح والعتاد في مهربهم •• فكثر منهم القتلى والأسرى كما كثر نصيب المسلمين من الغنائم والأسلاب •

وجاءت بعد وقعة الولجة وقعة « أليس » وهي أعجب الوقائع في حرب العراق بما اتفق فيها من صنوف الحيلة وصروف المقادير ومعارض النقمة وعواقب الرجاء مع الغالب وعواقب اليأس والقنوط مع المغلوب ، ولعلها هي الوقعة الحاسمة في النزاع بين المجوسية والاسلام •

راع الشاهنشاه (٢) تلاحق الهزائم على جيوشه ، وغاظ

---

(١) رانت : غلبت وغطت •

(٢) الشاهنشاه : ملك الملوك (فارسية) •

العرب الموالين له أن يؤخذوا في حماهم ، وأنفوا أن يهاونوا ولا يراهم الناس كفاء لتلك القبائل الواغلة عليهم ، فتلاقوا في الوقعة الوسطى بين ديارهم جميعا وهي اليس ، وانتظروا هناك جحافل من الفرس وعدوهم ان تربي في العدد والعدة على كل جيش نزلوا به الى الميدان في المعارك الماضية .

وهنا تتراءى في الموقف أصبع المقادير ..

فان « بهمن جاذويه » قائد الفرس الذي أمره الشاهنشاه بالمسير الى أليس أناب عنه قائدا اخر يدعى جابان وشخص هو الى المدائن ليلقى مولاه ويقلب معه الامر على وجوهه في مسائل شتى لا تغني فيها المراسلة غناء الحديث والمشاهدة ، وليأتي من المدائن بمدد أخر يضاف الى جيشه الاول والى جموع القبائل العربية عند الفرات . وقال لجابان وهو يودعه : « كفكف نفسك (١) وجندك عن قتال القوم حتى ألحق بك ، الا أن يعجلوك » .

وبلغ المدائن فاذا مولاه مريض يجود بنفسه ، وليس نظام الوراثة على عرش فارس في ذلك الحين من الوضوح والاستقرار بحيث يطمأن اليه اذا مات الملك والجيش بعيد والمتربصون كثير والشيع في البلاد أكثر من المتربصين ..

فبقي « بهمن » في المدائن ، ووصل جابان الى « أليس » قبل أن يصل اليها خالد فألقى أثقاله وآمر بتهيئة الطعام . ووصل خالد وهم مقبلون على طعامهم لا ينتظرون وصوله . فلبثوا على طعامهم لأنهم امروا من جهة ألا يعجلو الى القتال حتى يوافيهم قائدهم الكبير ، ولأنهم من جهة أخرى لم يحسبوا ان خالدا يلقي أثقاله وهو على تعبئة كاملة مستعد للنزال في كل لحظة ، ولانهم على ما يظهر كانوا يواجهون القتال أبدا كأنهم يواجهون ساحات الصوالج والأكر أو ساحات المباراة في «الألعاب الرياضية» : انما تبدأ فيها المباراة باتفاق الطرفين .

ولكن خالدا ضرب ضربته الأولى في الجموع العربية فقتل

---

(١) كفكف نفسك : اصرفها وأبعدها .

قائدها وأثخن القتل في صفوفها ، وثار الفرس الى السلاح مكرهين لئلا يمهلوا خالدا حتى يفرغ من الجموع العربية ويتحول اليهم بين لحظة وأخرى ٠

فثبتت الجموع العربية حين أسعفتها النجدة ، وثبت الفرس وطال بهم الثبات لعلمهم انه صبر ساعات ثم يدركهم قائدهم الكبير ٠ وابتلي المسلمون من هؤلاء وهؤلاء ببلاء لم يعهدوه من القوم قبل ذلك اليوم ٠ فاشتد الأمر بخالد وثاب الى الله يستلهم العزم للمسلمين وينذر له الضحايا ان منحه أكتاف أعدائه ، « فلا يستبقي منهم أحدا يقدر عليه حتى يجري نهرهم بدمائهم » ٠ وفي هذا النذر بقية من البدوية المخزومية لا تخفى على اللبيب ٠

وطال صبر الفرس فنفد ٠٠٠

وتساقطت رؤوس العرب الموالين لهم فجزعوا ٠٠٠

ولاحت لخالد لوائح النصر الذي سأله الله ، فلم ينس نذره ونادى في المسلمين : « الأسر ٠٠٠ الأسر ٠٠٠ لا تقتلوا الا من امتنع » ٠ لأنه نذر ليجرين النهر بالدماء ٠٠٠ فليجر اذن بالدماء ٠

وأمر بضرب أعناق القوم في النهر وقد حبس ماءه ٠ فلم يجر بالدماء ! ٠ لأن الدماء تترقرق ولا تسيل ولو قتل أهل الأرض كما قال له أصحابه فأطلق الماء فسال بالدم أحمر قانيا ثلاثة أيام ٠

* * *

وحمادي ما يقال في الاعتذار لخالد من هذه النقمة المفردة في تاريخ صدر الاسلام انها كانت شرعة الحرب في تلك الأيام، وانه كان يدين بها أناس صنعوا بالملل الأخرى مثل ما صنع بهم في هذه المعركة ، وعاملوا أسرى الحرب ومن لم يحاربوهم قط مثل هذه المعاملة في حروبهم مع العرب والدولة الرومانية. وان خالدا حسب ان هذه الذبائح قربان الى الله ٠٠ ودماء المشركين أشبه القرابين بميادين الحروب ، وهو حسبان يوائم صرامة طبعه ويحيك في صدر رجل الحرب وسليل رجال الحرب منذ أمد بعيد ، وأكبر الظن عندنا انه لو كان قائد الجيش

رجلا ممن طالت صحبتهم للنبي عليه السلام كأبي عبيدة أو سعد بن أبي وقاص أو عمر بن الخطاب لتوسل الى الله بغير هذه الوسيلة حين آزم الموقف وجد الجد في معركة أليس • فقد صفح عمر بن الخطاب عن أسرى السواد وظفر المسلمون بألوف الأسرى في معارك العراق والشام ومصر فسرحوهم وعاملوهم بحكم الأسرى في القرآن الكريم ، وقد اختلف فقهاء المسلمين في جواز قتل الأسرى من غير مشركي العرب ، فلم يجزه من آجازه منهم الا لحسم مادة الفساد ، أن خيف ألا تحسم بغير هذه الذريعة • وقد كانت مادة الفساد في أعقاب الدولة الساسانية خليقة — ولا نكران — بضربة من أمثال هذه الضربات ، فقد اعيت فيها الحيلة من دعوة وافناع ومصابرة ، وكانت النكبة بدوام هذه الدولة أشد على الفرس أنفسهم من نكبة القتلى في تلك المعركة الشعواء ، وهي في غرابة صروفها أدنى أن تحسب من معارك الاقدار ، وتلك هي المعارك التي يراد فيها الغالب والمغلوب على الأمر ، ولا يريدان فيه •

وقديما علمنا من طوارق الحرب والسلم ان الشر المحض والخير المحض في هذه الدنيا عزيزان أو مستحيلان • فهذه النقمة الخالدية جاءت على غير المألوف في حروب صدر الاسلام ، ولكنها عجلت بختام عهد موبوء كان لا بد له من ختام ، فخلعت القلوب وصكت الركب وزلزلت سلطان الطغاة في بلاد الفرس بل في بلاد الروم ، وكان من جرائها ان الأمصار التي كانت تفزع من حصار خالد لها كانت تلقي بأنفسها في احضان غيره من قادة المسلمين ، كما أسرع أهل دمشق الى ابن الجراح يلتمسون مصالحته مخافة الفتح عنوة على يد ابن الوليد •

*

كانت هذه الوقائع تتوالى يوما بعد يوم وتتوالى معها البرد (١) الى المدينة بأخبار النصر وغنائم القتال ، فلا يفرغ

---

(١) البرد : جمع بريد •

الناس من حديث بريد حتى يتبعه ما وراءه بنصر جديد •
وسبقت ضربات خالد كل آمال الآملين في سرعة الظفر بدولة الأكاسرة • فقال أبو بكر وهو يبلغ الناس أنباء الظفر ليزفوا بشراها الى الجزيرة العربية : « يا معشر قريش •• عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله (١) •• أعقمت النساء أن يلدن مثل خالد » ؟•

ثم سلمت الحيرة ـ بلد النعمان وموئل نابغة بني ذبيان ـ فكان لتسليمها صدى بين أبناء العروبة لا يعدله صدى الفتح في بلد من البلدان ، لأنها كانت في عالم الشعر والبلاغة حديثا على كل لسان •

الا ان الخليفة الذي عرفناه رجلا حصيف الجرأة ، جريء الحصافة ، لم ينس اليقين مع الحيطة ولم ينس الحيطة مع اليقين • وأدركه الحذر في هذه المرحلة من مراحل الحرب الفارسية فجنح الى الاناة والتريث وأخذ بعنان خالد فلم يأذن له أن ينطلق وراء الحيرة حتى يوافيه زميله عياض بن غنم ويأمن كلاهما من ورائهما غدرات الطريق • وحجة الخليفة في ذلك أظهر من أن تخفى • فمن تجاوز الحيرة أحاط به الفرس من اليمين والروم في الشام من اليسار • ثم ان السواد نفسه اقليم حديث العهد بالاسلام لم ترسخ فيه قدمه ولا يؤمن تركه والتطوح بعده الى حمى الدولة الفارسية في عواصمها من وراء النهرين ، وقد نما اليه ولا شك ان فلول العرب المهزومين هجروا حوض العراق وأوغلوا في الصحراء الى دومة الجندل يتجمعون ويتربصون ، وفي الشام أراجيف عن تعبئة القيصر لجيوشه لا تغمض عنها العيون قبل أن تستقر الطرق وتتمهد مواطيء الفتوح ، فان لم يخرج عياض ابن غنم من معاقل دومة الجندل بين العراق والشام مالكا زمامها ما حولها فكل خطر هناك محتمل ، وكل عجلة قد تجر الى وبال •

---

(١) خراذيلة : الخراذيل قطع اللحم الواحدة (خرذولة) •

ولكن الفرس الكريم الذي يحبس في الحلبة يعاني من أمان الحبس ثقلة لا يعانيها من تعجل العواقب ومكافحة الأخطار • فحز في طبع خالد جذب العنان وأقام في انتظار زميله قرابة عام وهو يسميه سنة نساء • ولو كتب لرجل غيره أن يظفر في هذه السنة المستريحة بمثل ما ظفر به لارتضاه لنفسه سجل عمر كامل ، لأنه خاض ثماني وقائع فيما يليه من البلاد لم يحسبها وقائع تحصى • وله في كل وقعة منها نصر يعتز به قائد فخور •

وقد عرضت لخالد في هذه السنة وما قبلها عوارض شتى تدخل في الحساب أو تأتي من هنا وثم (١) على غير حسبان • فتصرف فيها جميعا تصرف الرجل الذي خلق للتقلب في أجواء الحرب كما خلق السمك للتقلب في الماء ، فلا تفجأه حالة من حالاتها بما يربكه أو يعييه •

البدوي لا عهد له بسفينة غير سفينة الصحراء — وهي الجمل — ولكن خالدا غنم السفن الفارسية بعد وقعة أليس فأركب جيشه فيها ليكفيه ويكفي مطاياه مشقة السير • فلم تنقله السفن الا قليلا حتى جف الماء ولصقت بالقاع ، لأن الفرس تسامعوا بمسيره في النهر فأوصدوا قناطر الحيرة وحبسوا الماء عن مجراه ، ولو بدوي غير هذا البدوي فوجىء بهذه الحيلة الحضرية وهذه اللعبة الهندسية لوقع في « حيص بيص » وترك السفن في قاعها ورجع الى مطاياه •• ولكنه أبى الا أن يبلغ السفن الى حيث شاء • فانبعث في نفر من أصحابه كالبزاة الى القناطر وأطلقوا ماءها ولبثوا هناك في حراستها وفي انتظار السفن التي ارتفعت براكبيها كأنهم يشهدون غريبة من غرائب السحرة تعبث بالسفينة بين بر يابس ونهر غزير ••

وحفروا له في الأنبار خندقا ثم احتموا وراء الخندق بحصن ينظرون اليه من أعلاه، كأنهم يهزأون به ويستعجزونه

(١) من هنا وثم : من هنا وهناك •

أن يعبر الخندق كثيرا ولا قليلا بل أمر لتوه بنحر الابل العجاف وألقى بها في الخندق فسدته ودعا جيشه الى العبور عليها • فأصبح من في الحصن سجناء في يديه ، وتوسلوا اليه أن يرسلهم في سبيلهم مجردين من السلاح والمتاع ، وهم يحمدون الله على النجاة من يوم كيوم أليس • فأجابهم الى ما طلبوه •

وعلم ان عقة بن عقة يحشد له في عين التمر حشودا من تغلب واياد وأصحاب المتنبئة سجاح ، ويوهم الفرس انه ند للعرب لأنه أخبر بهم من غيرهم • فوثب على معقله بالصحراء وهو كدأبه على تعبئة كاملة • وبصر بعقة حين دنا من الموقع فقال لصحبه : اكفونا ما معه فاني حامل عليه بنفسي •• ثم احتضنه وحمله أسيرا وهو لا يتوقع أن يؤخذ من أساليب القتال العربي بهذا الاسلوب العجيب في كل قتال • وقد كان خالد يعمد اليه كلما بدا له أن يوجز في الحركة ويضرب قلب أعدائه بضرب عميدهم المطاع فيهم ، فيصيب ما أراد •

وأعطى الدعوة حقها كما أعطى القتال حقه في كل معركة بما تقتضيه وتوحيه اليه •

فكان اذا لقي العرب سألهم مذكيا فيهم نخوة العروبة : « ويحكم أأنتم عرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم فما تنقمون من الانصاف والعدل ؟ » •

وكان يعين الحمية الدينية في جيوشه بما يغري النفوس من نعيم الدنيا ومتاع الحياة ، فأباح الأسلاب من سلبها بالغا ما بلغ قدرها ، وربما قسم للمقاتل الواحد في بعض الوقائع ألف دينار فلا يستكثرها عليه ولا ينتزع منه غنيمة وقعت في يديه • وقال لهم يوما بعد وقعة المذار : « ألا ترون الى الطعام كرفغ التراب ؟ الله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء الى الله عز وجل ولم يكن الا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولي الجوع والاقلال من تولاه ممن أثاقل عما أنتم عليه » •

وأحكم الصلح كما أحكم الحرب فكان عهده مع أهل الحيرة نموذجا للعهود من قبيله ، وكان يصالح المستسلمين صلح من يعني كل حرف يخطه بيمينه فلا يزيد ولا ينقص • قال في عهد أهل الحيرة : « هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد •• نقباء أهل الحيرة ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به • عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء على أيديهم في الدنيا ، رهبانهم وقسسهم الا من كان منهم على غير ذي يد حبيسا عن الدنيا تاركا لها • وعلى المنعة ، وان لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم • وان غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة •• وكانت كتابة هذا العهد في شهر ربيع الأول سنه اثنتي عشرة هجرية » وعلى قدر سطوته الجائحة بمحاربيه ومعانديه كانت رعايته ورفقه بأولئك المظاليم الخالدين من زراع تلك البلاد • فللمرة الأولى في التاريخ من قبل بابل ونينوى رأى فلاحو السواد حاكما يحفظ لهم غلاتهم وينصفهم من دهاقينهم ـ أو مستغليهم ـ ويستمع شكاية ضعيفهم من قويهم ويشرع بينهم شرعة المساواة والأمان • وبلغ من رفق الحكم الجديد برعاياه ـ مسلمين وغير مسلمين ـ انه تكفل بالعبد اذا تحرر ، وبالغني اذا افتقر ، وبالعائل اذا انقطع عائلوه • وهذا مثل مما تكفل به الحكم الجديد في كتاب خالد • قال : « اني دعوتهم الى الله والى رسوله فأبوا أن يجيبوا ، فعرضت عليهم الجزية أو الحرب ، فقالوا لا حاجة لنا بحربك ، ولكن صالحنا على ما صالحت عليه غيرنا من أهل الكتاب في اعطاء الجزية واني نظرت في عدتهم فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل ، ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانة ألف رجل ، فأخرجتهم من العدة ، فصار من وقعت عليه الجزية ستة آلاف فصالحوني على ستين ألفا وشرطت عليهم ان عليهم عهد الله وميثاقه الذي أخذ على أهل التوراة والانجيل : ألا يخالفوا ولا يعينوا كافرا على مسلم من العرب ولا من العجم ، ولا يدلوهم على عورات المسلمين ، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه ، ان أخذه أشد ما

أخذه على نبي من عهد أو ميثاق أو ذمة ، وان خالفوا فلا ذمة لهم ولا أمان ، وان هم حفظوا ذلك ووعوه وأدوه الى المسلمين فلهم ما للمعاهد وعلينا المنع لهم فان فتح الله علينا فهم على ذمتهم ، لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبي من عهد أو ميثاق ، وعليهم مثل ذلك ألا يخالفوا ، وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو اصابته آفة من الآفات، أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقام بدار الهجرة ودار الاسلام ، فان خرجوا الى غير دار الهجرة ودار الاسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم وأيما عبد من عبيدهم أسلم أقيم في أسواق المسلمين فبيع بأغلى ما يقدر عليهم في غير وكس ولا تعجيل ودفع ثمنه الى صاحبه • ولهم كل ما لبسوا من الزي الا زي الحرب ، من غير أن يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم ، وأيما رجل منهم وجد عليه شيء من زي الحرب سئل عن لبسه ذلك ، فان جاء منه بمخرج والا عوقب بقدر ما عليه من زي الحرب • وشرطت عليهم جباية ما صالحتهم عليه حتى يؤدوه الى بيت مال المسلمين ، عما لهم منهم ، فان طلبوا عونا من المسلمين أعينوا به ، ومؤونة القواد من بيت مال المسلمين » •

وقد عزلت هذه الرعاية من جانب وتلك السطوة من جانب آخر عزلا فاصلا بين الرعاة والرعية في السواد وفي الديار الفارسية ، فنظرت الدهماء الى الحرب كأنها حرب على الرعاة وحدهم لا ناقة لهم فيها ولا جمل، فلا هي تعينهم ولا هم يخشون من عواقبها العاجلة أو الآجلة ، بل هم بهذه العواقب ينعمون واليها يتشرفون •

★ ★

وكانت وقعة الفراض آخر أعمال خالد الكبار في العراق وأوفاها دلالة على عجز الدولتين معا ، دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية ، عدا ما فيها من الحوادث التي هي أصلح ما تكون للتفرقة بين مغبة العمل الواحد تأتيه الأمة في عهد

اقبالها وتأتيه الأمة في عهد ادبارها . فهو ضربة موت من ناحية وهو من الناحية الأخرى كالضربة التي تشحذ عزيمة المضروب وترد التوازن اليه .

الفراض في أعلى العراق بين مسالح الفرس والروم يوشك هؤلاء وهؤلاء فيها أن يتناظروا متقابلين ، وقد هبط عليها خالد في وثبة من وثباته فتألب عليه هنالك عرب البادية وجيش الروم وكان وشيكا أن يتألب معهم جيش من الفرس لولا ما شغلوا به من أمر العرش ووراثه والمتنازعين عليه . وقال الروم لخالد كما قال الفرس بعد ذلك لأبي عبيد : (١) اما أن تعبروا الينا واما أن نعبر اليكم . فلم يصنع خالد صنيع أبي عبيد بل قال لهم : اعبروا أنتم ان شئتم . وتركهم حتى يعبروا ليحصرهم بينه وبين النهر فلا يهرب منهم هارب، وأرسل الفرسان والرامحين ليعزلوهم قطيعا قطيعا ويضيقوا عليهم مسالكهم . ثم يحصدوهم حصدا وهم أشبه بالمحكوم عليهم في ساعة التنفيذ منهم بالمقاتلين .

على انه لم يثب على الفراض وثبته تلك حتى كان قد « طهر » جوف الصحراء من جموع الأعراب التي تكوفت الى دومة الجندل وعوقت عندها زميله « عياضا » قرابة عام . فلما ترامت أنباء فتوحه الى عياض كتب اليه يستشيره ويستنجده . فكان هو على عادته أول جواب بعد رجع الخطاب ، وكتب اليه يقول :

لبث قليلا تأتك الجلائب
يحملن آسادا عليها القاشب (٢)
كتائب تتبعها كتائب

وكانت تفصله من دومة الجندل مسيرة اسبوعين فقطعها هو في أقل من عشرة أيام ، ووجد حصن الدومة مكتظا بمن فيه وحوله زرافات ضاق بها الحصن فعسكرت بالعراء ، فجعل

---

(١) هو أبو عبيد بن مسعود .
(٢) السيف اللامع : القاطع .

القوم جميعا بينه وبين عياض • وتولى عياض حرب من قبله فهزمهم لما جاش في نفسه من نخوة المنافسة وما جاش في نفوسهم من الوجل والحيرة • وتدافع المنهزمون الى الحصن يريدون بابه فسبقهم خالد اليه وانتزعه وحال بين النازلين في الحصن ومن حوله • ثم استبى كل من أصابه من رجال ونساء • ومن هؤلاء السبايا ابنة الجودي بن ربيعة ، استباها خالد لنفسه وقيل أنه اشتراها • ثم بنى بها وأقام معها في دومة الجندل أيام مقامه فيها •

وكان أهل الدومة قد عاهدوا المسلمين غير مرة ونكثوا بعهودهم فأمعن القتل فيهم وجعلهم نكالا (١) لغيرهم • ثم قفل الى العراق وهو مطمئن الى غزوة الفراض بأعلى الفرات • فغزاها وفرغ منها كما تقدم • وبقيت له في العراق عزمة خالدية أخرى ولكنها من نوع غير هذا النوع ، فلم يلبث أن قضاها •

بقي على موسم الحج اسبوعان وهو أول حج حان بعد تلك الغزوات المتلاحقات التي أمده الله فيها بنصره وعونه •

أيفوته قضاء الشكر في هذا الموسم وأداء الفريضة في موعدها ؟ ولم ؟ الخوف من الأعداء ؟ العائق من بعد الشقة ووعورة الطريق ؟ ألعذر من الأعذار التي يعتصم بها القاعدون عن الحج برخصة من الفقهاء ؟ كل أولئك عوائق لا يستهان بها ولكنها خلقت ليذللها لا لينكص عليها •• ففي خطفة الريح العاصفة خرج من أعلى العراق الى أقصى الحجاز وأدى الفريضة وعاد الى معسكره دون أن يعلم أحد من الأعداء ولا من المسلمين الا أقرب خاصته المقربين ، بل دون أن يعلم الخليفة نفسه وقد كان على الحج في ذلك العام •

ويروق بعض المؤرخين أن يحسب هذه العزمة الخالدية من مغامراته التي تنم على فرط الثقة بنفسه ولا تنم على شيء غير ذلك ، ولكنها في الواقع دلت على ثقته بغيره كما دلت على

---

(١) نكالا لغيرهم : عظة وعبرة •

ثقته بنفسه • فقد علم أن معه بالجيش من فيه غنى وكفاية اذا جد في غيبته طارق داهم أو خطب حازب • وكفى بالمثنى رائده المقدام ، وبالقعقاع صاحبه القديم وموضع ثقته الحميم •

*

علم الخليفة بمغامرته هذه فجاءه منه ملام ، واعجاب • وتكليف ، ووصاة : أمره بحرب الدولة الرومانية بعد هذا الفوز الذي أصابه في حروب الدولة الفارسية ، وأن يسارع الى مرضاة الله وقتال أعداء الله ، ويكون كمن يجاهد في الله حق جهاده •

وقال له : « سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فانهم قد شجوا وأشجوا واياك أن تعود الى مثل ما فعلت ، فانه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك ، ولن ينزع الشجي من الناس نزعك • فليهنك أبا سليمان النية والحظوة • فأتمم يتمم الله لك • ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، واياك أن تدل بعمل فان الله له المن ولي الجزاء » •

وكتب الى أبي عبيدة في الشام يخبره بمقدم خالد اليه ، ويقول له في كلام صريح : « سلام الله عليك • أما بعد ••• فقد وليت خالداً قتال العدو في الشام ، فلا تخالفه واسمع له وأطع • فاني لم أبعثه عليك الا تكون عندي خيراً منه ، ولكنني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك • أراد الله بنا وبك خيراً والسلام » •

فأرسل خالد الى أبي عبيدة رسولا يبلغه قبل مقدمه بكتاب يقول فيه : « أتاني كتاب خليفة الله يأمرني بالسير الى الشام ، وبالقيام على جندها والتولي لأمرها • والله ما طلبت ذلك قط ولا أردته اذ وليته • فأنت على حالك الذي كنت عليه لا نعصيك ولا نخالفك ، ولا نقطع دونك أمراً •• فأنت سيف المسلمين لا ننكر فضلك ولا نستغني عن رأيك » •

* * *

وأول خاطر سبق الى ظن خالد حين حوله الخليفة من حرب فارس الى حرب الروم أنه عمل من أعمال « الأعيسر » كما يسميه ويعني به عمر بن الخطاب ، وأنه نفس عليه أن ينفرد بفتح فارس فأرسله الى ميدان له فيه شركاء من أعلام الصحابة ذوي الخطر والسابقة الملحوظة بين المسلمين ٠

وهو ظن بعيد يخطر على بال خالد لأنه يتوقع شيئا من صوب عمر ولكنه لا يخطر على بال غيره ٠ اذ لا ينفس عمر على خالد أن ينفرد بغلبة الفرس ثم يرسله ليغلب الروم بعد أن تأخر الفتح على أيدي كبار القواد من أجلاء الصحابة ٠ فهذا مزيد من الفخر يتطاول اليه المتطاول وليس بنقص منه يتعمده لخالد من يأباه عليه ٠ وانما اختار الخليفة خالدا لأن العراق كانت في هدأة من جانب الفرس بعد هزائمهم الكثيرة ، وكان في جيش المسلمين وقواده بالعراق كفاية للمثابرة على الفتح بعد أن تم التدويخ والتمهيد ، ولأن خالدا كان أقرب مدد الى الشام ولم يكن بالحجاز بقية من قوة فاضلة (١) تضاف الى قواتهم في حرب الرومان ٠٠ فاختاره الخليفة وهو يقول : « لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » ٠

وليس من عادة خالد أن يضيع وقتا قل أو كثر اذا نيط به أمر من الأمور ٠ فلما ندب لجهاد بالشام نظر فاذا بينه وبين الشام يومئذ من خمسمائة الى ستمائة ميل على حسب الطرق التي يسلكها ، وهي أربع يختار منها أصلحها لانجاز العمل الذي وكل اليه ٠

من هذه الطرق الأربع ما هو سهل موفور الماء والكلأ ولكنه من أجل هذا موفور الحراس والسكان ، فهم يعوقونه بالمقاومة عن الاسراع بالمطلوب دون أن تكون للغلبة عليهم فائدة تذكر في القتال الحاسم بين المسلمين والرومان ٠٠

ومنها ما هو قليل الحراس والسكان وفيه الماء والكلأ ، ولكنه بعيد يطول السير فيه ٠٠

---

(١) قوة فاضلة : زائدة ٠

ومنها ما هو وعر قليل الماء والكلأ مخيف غير مطروق ، أو كما قال الدليل الذي سأله خالد : « انك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال • والله ان الراكب المفرد ليخافها على نفسه ، وما يسلكها الا مغرور • انها لخمس ليال جياد لا تصاب فيها ماء، مع مضلتها •• » •

وأيسر شيء على القارىء الذي عرف خالدا أن يعلم أي هذه الطرق يسلكه خالد •• فما هو بسالك حيث سلك الا الطريق الذي هو أحوج الى قدرة القائد وأدل على العزمة والمضاء وأبعدها جميعا ان يتوقع العدو هجوما منه فأجمع عزمه على طريق من الطرق الأربع هو أصعبها وأقصرها ، وهو الذي خوفه الأدلاء منه ، وقال لدليله الاخبر رافع بن عميرة الطائي — ولا أحد يغني غناءه في السير بتلك المفازة المهلكة وان كان يومئذ من حسر النظر كالمكفوف الضرير :

« ويحك انه والله ان لي بدا من ذلك » •• ان القوة تأتي على قدر النية ، وان المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة الله » •

ويروي الرواة أن الدليل قال لهم بعد ذلك : أكثروا من الماء • من استطاع منكم أن يصر أذن ناقته على ماء فليفعل ، فانها المهالك الا ما دفع الله •

ثم قال لخالد : ابغني عشرين جزورا عظاما سمانا مسان فأتاه بهن فظمأهن حتى اذا أجهدن عطشا أوردهن فشربن ، حتى اذا تملأن عمد اليهن فقطع مشافرهن ثم كعمهن لئلا يجترن ••

وأشار على خالد أن يقتط أربعا من هذه الجزور كلما نزل منزلا ليسقي الخيل ، وأن يشرب الجند مما حملوا من الماء • ففعلوا ما أشار به حتى كان آخر يوم في المفازة •• فقال له خالد : ويحك يا رافع ما عندك ؟ فأرسل رافع جماعة ينظرون شجيرة من عوسج في موضع كان يعهدها فيه ويعهد فيه الماء على مقربة منها • فلم يجدوها • فصاح الرجل بالويل واسترجع قائلا : هلكتم والله اذن وهلكت لا أبالكم • انظروا انظروا » فلما نظروا وأمعنوا النظر رأوا جذرا قد بقي منها وقطع

سائرها • فكبروا فرحا وشكرا وحفروا في أصلها فنبع لهم الماء ، فشربوا ونجوا من هذا الخطر الأليم الذي دونه كل خطر من لقاء الأعداء •

وفي ذلك يقول أبو أحيحة القرشي :

لله عينا رافع اهتدى ... في مهمه مشتبه الى سوى

والعين منه قد تغشاها الردى ... معصوبة كأنها ملأى ثرى

فهو يرى بقلبه ما لا يرى ... من الصوى تترى له بعد الصوى

فوز من قراقر الى سوى ... والسير زعزاع فما فيه ونى

خمس اذا ماسارها الجيش بكى ... في اليوم يومين رواحا وسرى

ما سارها من قبله انس يرى ... هذا لعمري رافع هو الهدى

وسواء صحت رواية الجزور المظمأة أو كان فيها شيء من توسع الخيال فالطريق الذي سلكه خالد معروف ، والقدرة عليه هي موضع العبرة والتأمل في هذا المقام • أما نحن فالذي نراه أن خالدا لم يكن لينتظر حتى تظمأ الابل وهي لا تجهد من الظمأ الا في أيام • وأن الابل لا تخزن الماء في جوفها وان لم تجتره دون أن ينصرف منها ، وان عشرين جزورا تمتلىء كروشها بالماء لا تسقي الخيل في الجيش كله وعدته عشرة آلاف • فلا بد من تدبير آخر مع هذا التدبير تجتمع فيه السرعة الى التخفيف الى الاقدام ••

والأمر الذي لا شك فيه بعد هذا كله أن خالدا سار بجيشه – وعدته عشرة آلاف – من عين التمر الى قراقر ، ثم من قراقر الى سوى وبينهما تلك المفازة المهلكة ، ثم الى تدمر فالغوطة فبصرى ، فقطع هذه المسافة في ثمانية عشر يوما لأنه كما قال الشاعر كان يطوي مسافة اليومين في يوم واحد ••

« في اليوم يومين رواحا وسرى •• » •

خرج من الحيرة في أوائل صفر من سنة ثلاث وعشر للهجرة، وطوى تلك المسافة في تلك الأيام بعد أن قمع كل مقاومة لقيها من المسالح والحصون وراء المفازة الخاوية من كل ديار ..

* * *

واتفق خروجه من الحيرة وجيوش المسلمين في الشام تشرع في خطة جديدة للتراجع الى الجنوب وملاقاة الجيوش الرومانية الجرارة في جمع واحد ينهض لها ويحول دون الاحداق بكل جيش منها على انفراد .

وكان الخليفة قد سيرها ـ بعيد منتصف السنة الثانية عشرة للهجرة ـ مع أربعة من كبار القواد في طرق مختلفة الى وجهات متعددة .

فسير يزيد بن أبي سفيان على رأس ستة آلاف أو سبعة آلاف الى دمشق ، وسير شرحبيل بن حسنة على مثل هذا العدد الى الأردن ، وسير عمرو بن العاص على رأس جيش يزيد على ذلك قليلا الى فلسطين ، وسير أبا عبيدة بن الجراح على رأس خمسة آلاف أو ستة آلاف الى الجابية ، وأمدهم بعكرمة بن أبي جهل في جيش صغير ليحمي ظهور من يحتاج منهم الى الحماية ويسرع بالنجدة الى من يطلب منهم المعونة .

ولا نعلم على التحقق حكمة التفرقة بين هذه الجيوش في طرائقها ووجهاتها ، ولكنها على ما يظهر مسألة الماء والكلأ من جهة ، ثم رغبة الخليفة في تشتيت جموع الروم وتوزيع أغراضها ، ولا يخلو الأمر من الحيطة لمنع الالتفاف بالجيش الواحد اذا أوغل في البلاد كما حدث قبيل ذلك لجيش خالد بن سعيد ، فان الجيوش الأربعة يكون كل منها مددا لصاحبه ومانعا للالتفاف به أو منقذا له من الالتفاف اذا وقع فجأة . وهذا مع علم الخليفة يومئذ بتفوق الحاميات الرومانية في مواقع البلاد الداخلية ، اذ كان الرومان على ما يظهر قد اطمأنوا من جانب الفرس بعد انتصارهم عليهم ، واطمأنوا الى جانب العرب بعد رجوع حملاتهم الثلاث على النحو المعروف ، وهي حملات مؤتة وتبوك وجيش أسامة ، وزداهم اطمئنانا أنهم غلبوا الحملة

الرابعة وهي حملة خالد بن سعيد ، وأنهم عرفوا اشتغال العرب بحرب الفرس فوقع في روعهم أن العرب أضعف من أن يشغلوا أنفسهم بحرب دولتين عظيمتين في وقت واحد • فمن هنا خلت ربوع الشام من جيش كبير للرومان ، وعلم الخليفة ذلك فاعتقد أن تفرقة الجيوش في زحفها الى الشام أقرب الى توزيع العمل والاسراع فيه ، فان تغير الموقف وعمد الرومان الى حشد الحشود الكبيرة فقد أوصى القادة بالتشاور والتعاون في مقابلة هذه الطوارىء ، كما أوصاهم بالرجوع اليه •

وقد نجحت هذه الجيوش في وجهاتها وتقدم بعضها الى دمشق وبعضها الى حمص وأوغل بعضها الى فلسطين •

ثم نما اليهم أن القيصر يستعد لهم بجيش كبير في انطاكية وجيش آخر في جوار بيت المقدس ، وبلغت عدة الجيش الأول على تقدير بعض المؤرخين مائتين وأربعين ألفا ، وعدة الجيش الثاني سبعين ألفا أو نحو ذلك ، ولو نزلنا بعدة الجيشين الى النصف حسبانا للمبالغة وجهل الحقيقة لما كان نصف هذا العدد بالشيء القليل ، لأنه يربي على ثلاثة أضعاف الجيش العربي كله بعد قدوم جيش خالد اليه ، ولم يرتفع به أحد الى ما فوق الخمسين ألفا على أعظم تقدير ••

فتشاور القواد فيما يصنعون ، فاستقر رأيهم على التراجع الى الجنوب ليتجمعوا قبل أن يتلاقى الجيشان الرومانيان ويشتبكا بهم وهم متباعدون متفرقون كل منهم في بضعة آلاف •

ولعلهم يصبحون في تراجعهم أقرب الى الأمن اذا حاربوا وظهورهم الى الصحراء ،وقد علموا بالأمثلة الكثيرة أن الجيوش الرومانية تحجم عند حدودها ولا تجسر على خوضها في أعقاب جيش كبير أو صغير •

والمؤرخون مختلفون فيمن هو صاحب المشورة الأولى بالتراجع الى الجنوب ، فمنهم من يقول انه أبو سفيان بن حرب ومنهم من يقول انه عمرو بن العاص • وهذا القول الأخير أدنى الى الواقع لأن عمرا كان يتراجع في الجنوب قبل أن تصل الجيوش الأخرى اليه ، وكان من الموافق لخطته أن توافيه الأمداد في ميدانه بفلسطين •

وأيا كان صاحب الرأي الأول في هذا فقد تم التراجع باقرار الخليفة وكان شعوره بحرج المسلمين في أماكنهم هو الباعث له أن يستدعي خالدا من العراق الى الشام • فكتب لقواده بالشام يقول : « اجتمعوا فتكونوا عسكرا واحدا والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين ، فانكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وانما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف اذا أتوا من تلقاء الذنوب • فاحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه » •

ومن المتعذر جدا تمحيص التواريخ في ترتيب الوقائع بعد وصول خالد الى الشام • ولكن الأرجح فيما نرى أن المعركة الأولى بدأت مع الجيش الأصغر في « أجنادين » بالجنوب • لان البدء بأصغر القوتين واخلاء الجنوب قبل الانتقال الى الشمال أولى وأوفق من ترك هذا الجيش الأصغر وراء ظهور المسلمين ومواجهتهم الجيش الأكبر بين عدوين ، وان معركة «أجنادين» لم يشترك فيها معظم القواد المسلمين ، مما يرجح أنها وقعت قبل اجتماع هؤلاء القواد في صعيد واحد • ولو أنها وقعت بعد المعركة الكبرى في اليرموك لما كان مفهوما أن يترك أولئك القواد جيشا كجيش الرومان في فلسطين دون أن يتعقبوه جميعا ، مع فراغهم من أسر الجيش الكبير في اليرموك •

وعلى أية حال هزم الروم في « أجنادين » وكانت الوقعة الحاسمة بينهم وبين المسلمين في اليرموك ، على اختلاف كثير في التواريخ ، واتفاق في تصوير خطة القتال •

ويحسن بنا قبل أن نستطرد الى الكلام على المعركة أن نجمل حالة الجيشين المتقاتلين عند اللقاء ••

فالجيش الروماني كان أوفر عددا وأكمل عدة بغير خلاف ، ولكنه خليط من عناصر عدة منها الروم والأرمن والعرب وأجناس أخرى ، وقد يظن لأول وهلة انه امتاز بالنظام والخطط الفنية على أعدائه ، ولكنه في الحقيقة كان أبعد الجيشين عن النظام الصحيح اذا أردنا بالنظام وحدة الحركة والتوجيه • لأن المتطوعين فيه من أبناء القبائل كانوا يحاربون

على ديدنهم والجنود النظاميين يحاربون على ديدن أخـر ، وتعوقهم العدد الكثيرة والشكك السابغة التي حسبت من مزاياهم ، فهي الى النقص هنا أقرب منها الى المزية ٠

وقد أثيرت فيهم حمية الدين ولكنهم ثاروا لها متشككين متفرقين ، وجعلتهم حماستهم الدينية يترقبون من الله عقابا ينزله بهم على خطاياهم وخطايا قيصرهم ورؤسائهم المتهمين عندهم بالزيغ ومطاوعة الشيطان ٠ فحمية الدين تثيرهم من ناحية وتضيرهم من ناحية ، وليست هي من قوة اليقين المكين ٠٠

أما جيش العرب فقد كان من أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة وترجع الى قيادة واحدة ، وفي صدورهم من حمية القتال كل ما يحفز القلب الانساني الى الثبات والاستبسال : غيرة على الدين وغيرة على العرض وناهيك بالغيرتين ، ويقين من نعيم الآخرة ونعيم الدنيا اذا كتب له الفلاح ، وكفى باغراء النعيمين ٠

كان في جيش المسلمين أصون كرائم البيوتات القرشية : بنت أبي بكر وأم معاوية وزوج عكرمة بن أبي جهل وعقائل أناس من الجند والقادة ٠ وقد أمرهن أبو عبيدة قبل المعركة « أن يأخذن بأيديهن أعمدة البيوت والخيام ويجعلن الحجارة بين أيديهن ٠ فان كان الأمر للمسلمين أقمن على ما هن عليه ، وان رأين أحدا من المسلمين منهزما ضربن وجهه بأعمدتهن وأرجعنه بحجارتهن ، ورفعهن اليه أولادهن وقلن له : قاتل عن أهلك وعن الاسلام » ٠ ولم يقنع خالد بهذا بل قال لهن : يا نساء المسلمين : أيما رجل أقبل عليكن منهزما فاقتلنه ٠

ومن أجل هذا لا نعجب أن يكون هرقل قد وزن القوى وفكر حقا في عرض الصلح على المسلمين وقال لبطانته وذوي شوراه: « لأن تعطوهم نصف ما أخرجته الشام وتأخذوا نصفه وتقربوا من جبال الروم خير لكم مـن أن يغلبوكم علـى الشام كلهـا ويشاركوكم في جبال الروم » ولكنهم استضعفوه وكبر عليهم أن يجيبوه ٠

أما المسلمون فالصلح الذي فكروا فيه قبل القتال هـو الصلح على شرطهم المعلوم ٠ الاسلام أو الجزية ، فان لم يقبل

شرط من الشرطين فالحكم للسيف ..

وقد أفادهم عرض هذه الشروط قوة على قوة وزادهم في نفوس أعدائهم مهابة على مهابة . فلما ذهب وفدهم يعرض هذه الشروط قبل القتال على القائد تيودور ـ أخي القيصر ـ حسب هذا أنه يهولهم بالبذخ والثراء ويكسر نفوسهم بما يريهم من حلل الأبهة والنعيم . فأقام لهم سرادقا من فاخر الحرير يستقبلهم فيه ... فوقفوا عند بابه ولم يدخلوه قائلين : « ان ديننا يمنعنا أن نفترش الحرير والديباج » .

فهالوه بزهدهم أكثر مما هالهم بترفه .. وأعسر شيء على جنوده بعد ذلك أن يؤمنوا حق الايمان أنهم ـ وهم الغارقون في المناعم والملذات ـ يقاتلون في سبيل الله قوما هذا مبلغ زهدهم في المناعم واللذات ، وهذا مبلغ استعلائهم على الدنيا وما تبسطه لهم من غواية .

ولم يخف على أحد من قادة الرومان والعرب خطر المعركة الكبيرة التي هم مقبلون عليها : هي معركة فاصلة في مصير الشام ما في ذلك ريب . وقد تكون المعركة الفاصلة أيضا في مصير الدولة الرومانية ومصير الأمة العربية . فان هزيمة الدولة الرومانية فيها تنزع من يدها الأماكن المقدسة ويعقبها ضياع مصر وثورة المتربصين بالقيصر وأهل بيته في بلاده الآسيوية والأوربية ، وان هزيمة الجيش العربي معناها هزيمة الجيش الأكبر الذي لا يتسع الوقت ولا تتسع الطاقة لتجريد جيش غيره على أثر الهزيمة ، وقد تغري القيصر الروماني بارسال قبائل الشام في أعقاب المسلمين الى الحجاز والجزيرة العربية ولا يبعد أن تثير أبناء الجزيرة العربية آنفسهم على خليفة الاسلام ممن لا تزال لهم ترات (١) تغلي في حنايا الصدور ..

فاستعد الفريقان غاية ما في الوسع من استعداد .

وارتضى كلاهما موقع اليرموك للوقعة الفاصلة بينهما

---

(١) ترات : جمع تره وهي الثار .

لأنه يوافق طلبة القيصر (١) من مكان « واسـع المطرد ضيق المهرب » ولا يكرهه المسلمــون لأنهم رأوا منزل الروم فيــه منزل محصور بين النهر والبحيرة والوادي وجيش المسلمين • أو كما قــال عمرو بن العاص حــين رآهم : « أيهــا الناس : أبشروا ••• حصرت واللــه الــروم ، وقلمــا جاء محصور بخير » •• تحاجز الجيشــان أشهرا لا يشتبكــان الى جمادى الآخرة أو رجب على قول بعض الرواة •

وكلاهما ينظر كيف يبدأ الآخر هجومه ليرتب له لقاءه ، وكلاهما قد عبأ طاقته من سلاح الأيدي ولم يزل يعبيء طاقته من سلاح النفوس : سلاح العقيدة والفداء •

واستعان الرومان بالقسيسين يلهبون الحمية ويضرمون الحفيظة • ويهونون على أتباعهم بذل الأرواح في سبيل الملة والدولة والمجد القديم •

وأقبل المسلمــون على القرآن يرتلونــه وعلى العظات يذمرون بها القلوب ، وجعلوا وراءهم حرسا من الأعراض هو أقوى الحراس بعد الايمان •• ثــم كثرت الحركة أيامــا في جيش الروم فعلم القادة المسلمون انهم مقتربون من الهجوم ، ولم يشأ خالد أن تبتديء المعركة بقيادة متفرقــة لا تتحد في نظام واحد • فصرف همه الأول الى تنظيم الفرق جميعــا في تعبئة واحدة يقودها رجل واحــد ، ووجــد من زملائه قلوبا مصغية فأجابوه الى ما دعاهم اليه ••

قال لهم قبل ابتداء القتال : « هذا يوم من أيام اللــه لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي : اخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم ، فان هذا اليوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قومــا على نظام وتعبئة وأنتم متساندون ، فان ذلك لا يجمل ولا ينبغي •• وان من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبــين هذا • فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون انه الرأي » •

ثم قال وقد سألوه رأيه : « ان الذي أنتم فيه أشد علــى

(١) طلبة : « بكسر اللام » الشيء المطلوب •

المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من امدادهم ، ولقد علمت ان الدنيا فرقت بينكم فالله ... ان تأمير بعضكم لا ينقصهم عند الله ولا عند خليفة رسول الله .. هلموا .. فان هؤلاء قد تهيأوا وهذا يوم له ما بعده . ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعدها . فهلموا فلنتعاور (١) الامارة،فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدا والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ، ودعوني اليكم اليوم » .

فأسندوا اليه قيادتهم يومها ، وكان توحيده القيادة أول خطوة في طريق النصر الحاسم بمعركة اليرموك .. ثم أسرع الى تعبئة قواده وجنوده على الوضع الذي رآه ملائما للتعبئة الرومانية ، وهو الوضع الملائم للحرب « في العمق » كما يقول العسكريون في هذه الأيام .

فأقام عمرو بن العاص على الجناح الأيمن ، ويزيد بن أبي سفيان على الجناح الأيسر ، وأبا عبيدة بن الجراح على القلب . واتخذ مكانه في كبة الجمع ولجأ الى طريقته التي اختارها لحرب بني حنيفة وهي طريقة الكراديس ، لأنها أصلح للنفاذ في الصفوف ، وأدعاها الى التنافس بين المقاتلين وتمييزهم بالتبعة أو بالثناء .

وكانت كل فرقة من الميمنة أو القلب أو الميسرة تتألف من كراديس عدة ، على كل منها قائد معروف ، ومنهم صاحبه القديم القعقاع ، وزميله في حرب اليمامة عكرمة بن أبي جهل ، وزميله في دومة الجندل عياض بن غنم ، وابنه عبد الرحمن وهو يومئذ دون العشرين . وجملة الكراديس جميعا ثمانية وثلاثون معظمها في القلب ، وعدته ثمانية عشر كردوسيا ، رئيسهم أبو عبيدة وفيهم عكرمة والقعقاع ..

وكان موضع الميمنة بحيث يستطيع الالتفاف بالجيش الروماني اذا أمعن في الهجوم والاطباق عليه مع القلب اذا

---

(١) فلنتعاور : تعاور الشيء : تداولوه فيما بينهم .

ارتد الى الوراء ٠

وفرغ من التعبئة فعمد الى « القوة الأدبية » يوليها حقها من عنايته الكبرى ٠ وأخرج المقداد يقرأ على الجيش سورة الأنفال ، ودعا كل رئيس أن يعظ جنده ويبصرهم بمرماه في حركاته ، وجماع هذه العظات خطبة عمرو بن العاص حيث قال : « غضوا الأبصار ، واجثوا على الركب واشرعوا الرماح ، فاذا حملوا عليكم فأمهلوهم ، حتى اذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا في وجوههم وثبة الأسد ، فوالذي يرضى الصدق ويثبت عليه ويمقت الكذب ويجزي بالاحسان احسانا ، لقد سمعت ان المسلمين سيفتحونها كفرا كفرا وقصرا قصرا ، فلا تهولنكم جموعهم ولا عددهم ، فانكم لو صدقتموهم الحملة تطايروا تطاير الحجول » ٠

وخطب مثله معاذ بن جبل وأبو سفيان ، وبرز القعقاع وعكرمة قائدا المجنبة في القلب يرتجزان (١) واختير يوم القتال في يوم ريح سموم سافياء في حمارة القيظ فكانت طاقة المسلمين به أكبر من طاقة الروم ٠

ثم اشتبك الجيشان على نحو لا يعلم تفصيله على التحقيق ، ولكنه بدأ كما تعودنا في حروب المسلمين بهجمة شعواء من جانب العدو يتزعزع لها العدد الصغير أمام العدد الكبير ، ثم تكون الكرة الثانية لحمية العقيدة ومراجعة الايمان والاعتصام بنية الفداء ٠

فلما انكشف المسلمون بعد الهجمة الأولى ثابوا الى عزماتهم بنخوة الايمان ونخوة العرض والانفة ٠ فضرب النساء في وجوه الخيل قائلات : « الى أين يا حماة الاسلام وطلاب الشهادة ! » وصاح عكرمة كأنه يؤنب نفسه : « قاتلت رسول الله في كل موطن وأفر اليوم ؟ من يبايع على الموت ؟ » فبايعه أربعمائة من الفرسان المغاوير لا يقوم في وجههم قائم ، وصدموا الروح حتى صدوهم غير حافلين بما أصابهم ، وقد

---

(١) يرتجزان : ينشدان الرجز ، وهو ضرب من الشعر ٠

قتل في طليعتهم عكرمة وابنه ومعظم أولئك الفرسان ، ولم ينج منهم قط الا جريح مثخن بالجراح • وأفلحت الكرة الثانية ، وتقهقر الروم ••

* * *

وقد اهتم خالد بالعزل بين خيل العدو ومشاته ، فتضايقت الخيل وعجزت عن الجولان وولت هاربة فأخلوا لها الطريق ، ورجع المشاة الى الخنادق فلحقهم بها المسلمون ثم أحاطوا بهم من ورائهم فشاع فيهم الذعر وسقطوا وهم مولون مهرولون في هوة الواقوصة أو وادي الرقاد • وقيل ان موتاهم بالواقوصة كانوا أكثر من قتلاهم في حومة الوغى ، لأنهم قدروا بثمانين ألفا سقطوا في الوادي فرادى وجماعات • اذ كان بعضهم يقرنون أنفسهم في السلاسل كل عشرة في سلسلة واحدة تثبيتا لأقدامهم وتيئيسا من الفرار • فاذا بالوجل يفل حديد السلاسل كما فل عزائم القلوب ، وبلغ اليأس مبلغه من أشراف القوم فقعدوا في أماكنهم ينتظرون الموت • فكأنهم قد قروا قاعدين !

وحق لهرقل وقد حبطت محاولاته جميعا بعد اليرموك أن يودع الشام •

العـزل

يستحق الرجل أن يسمى بطلا من أبطال التاريخ اذا كان له « دور تاريخي » يقضيه ويتسم بملامحه ودواعيه ..

وآيـة انقضاء ذلـك الدور أن يبلـغ البطل من الأعمال المقدورة له قمتها العليا التي لا قمة وراءها ، وانه يعدو هذا الدور فاذا هو مفتئت على الآخرين ممن لهم حق مثـل حقه في أدوار التاريخ ، أو يعدوه الى أعمال يغني فيها الآخرون مثل غنائه ، وتدخل في باب من السعي والدراية غير بابه ..

وقد بلغ خالد في معركة اليرموك قمته العليا التي لا مرتقى بعدها لراق : قمع فتنة الردة ، وضرب دولة الأكاسرة ضربته الدامغة ، ووحد قيادة المسلمين في حرب الرومان ، فصدهم الى ما وراء حدودهم ، ودخلت ميادين الشام بعدها من أعمـال يصح أن تسمى بالأعمال الخالدية ٠ فهي بين حصار أو مراوغة أو تسليم ٠ وانما يراد خالد لتحطيم قوى الأعداء التي تعز على التحطيم ٠

وان يكن من عمل « خالدي » في ميادين الشام بعد معركة اليرموك فهو عمله في مرج الروم ، ثم عمله في قنسرين (١) . ٠

ففي مرج الروم كان هو وأبو عبيدة ينازلهمـا قائـدان رومانيان هما جونس وتوذر كما سماه خالـد ، فتسلل توذر تحت الليل ليفاجيء الجيش العربي عند دمشق بقيادة يزيد ابن أبي سفيان ويأخذ جيوش المسلمين على غرة متفرقين ٠ فأتفق خالد وأبو عبيدة على تعقبه ومفاجأته من خلفه قبل أن يفاجيء يزيد بن أبي سفيان ٠ فأوقعاه في الفـخ الـذي نصبه ، ولـم يرجع خالـد الى أبي عبيدة الا وتـوذر مقتول وجيشه مبدد كما قال :

نحـن قتلنا تـوذرا وشـوذرا
وقبله مـا قـد قتلنـا حيـدرا
نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا

---

(١) قنسرين وقنسرون ــ كورة بالشام ــ أعجام الاغلام ، ص ٢٣٢ ٠

وفي قنسرين حصر خالد الرومان المحتمين بحصونها فطاولوه وأبرموه • فقال لهم محنقا : « لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم أو لأنزلكم الينا » وأبى أن يصالحهم بعد ذلك الا على تخريب المدينة ودك حصونها • فختمت بذلك ضرباته الخالديات •

ولكنه كان قبل مرج الروم وقنسرين قد وفى « دوره التاريخي » أكمل وفاء ، فلو فاته هذان العملان لما نقص من مجده شيء ولا تغير مجرى الحوادث في أعقاب هزيمة الرومان •

❋

أما سائر الميادين فقد تولاها قواد آخرون ففتحت بقية فارس وفتحت مصر وشطر من أفريقية الشمالية ، وكتبت بذلك « أدوار تاريخية » أخرى للمثنى بن حارثة وسعد بن أبي وقاص والنعمان بن مقرن وعمرو بن العاص ، ورجال غيرهم يساوونهم أو يقلون عنهم في المقدرة ولا يقلون عنهم في المقصد والنية ، وكل زيادة في عمل خالد لا تضيف اليه مجدا فوق مجده ، وتنقص ولا ريب من عمل هؤلاء ، وتحرم الاسلام أيديا كثيرة تعمل له وتدفع عنه • وليس هو بمستغن عن تلك الأيدي الكثيرة بيد واحدة ، بالغا ما بلغ بها الرجحان والاستعلاء •

قلنا في أول هذا الفصل ان انقضاء « الدور التاريخي » لبطل من الأبطال له آيات تدل عليه ، ومنها أن يعدو دوره الى أعمال يغني فيها الآخرون مثل غنائه وتدخل في باب من السعي والدراية غير بابه ، ونزيد على هذا ان غناء الآخرين في هذا خيرا من غنائه لهو أولى أن يدل على انقضاء دوره وانتقاله الى من هو أحق به وأخلق •

وفي ميدان الشام ـــ بعد معركة اليرموك ـــ كان أبو عبيدة ابن الجراح أحق بالموقف الجديد من خالد بن الوليد • لأنه موقف التسليم والمسالمة واستلال (١) الحقود وضمد الجراح

---

(١) استلال الحقود : ازالتها •

وتقريب القلوب ، وفي جميع أولئك يتسع المجال لهوادة أبي عبيدة ويضيف بضربات خالد • فأبو عبيدة يسرع الى المسالمة اذا فتحت له أبوابها ولا يبطىء عن الحرب اذا وجبت عليه أسبابها ، فان كانت بالمسالمة جدوى فذاك ، وان كان يوم الضربات الخالديات فهي لديه يرمي بها في مراميها • وانما يكون العمل الأول هنا لمن يسالمهم ويتقبل التسليم ، ويكون العمل التابع له لمن يرفع سوط النقمة على الذين يلجون في العداء كأهل قنسرين ، فلا يسلمون الا بتخريب الديار ودك الحصون •

ولا جرم كان أبناء الأمصار يتسامعون بحلم أبي عبيدة فيقبلون على التسليم اليه ويؤثرون خطابهم له على خطابهم لغيره ، وكان خالد يرضى بهذا حينا ويسخط منه حينا ، كما سخط عند تسليم دمشق ووساطة أبي عبيدة في العفو عن أهلها • فانه كان يحسبهم مغلوبين عنوة فيعاقبون بالسبي والقصاص ولا يبسط لهم مهاد العذر والموادعة ، ولولا انه لا يغدر بعهد عاهدهم به أبو عبيدة لما كان لهم من شرط عنده غير شرطه على أهل قنسرين •

فصواب التاريخ وصواب ابن الخطاب قد تلاقيا ها هنا باسناد الأمر الى أبي عبيدة بن الجراح في أوانه المقدور ، وان كان تلاقيا لم يجر على قصد مرسوم ••

* * *

تولى الفاروق الخلافة بعد الصديق عليهما الرضوان •

ورأي الفاروق في أبي عبيدة بن الجراح معروف • فقد كان لا يعدل به أحدا من الصحابة الأولين ، وقد هم بترشيحه للخلافة بعد وفاة النبي عليه السلام ، وقال وهو يجود بنفسه: انه لو كان حيا لعهد اليه ولم يلجأ الى مجلس الشورى الذي وكل اليه أمر انتخاب الخليفة بعده ••

وتحدث عمرو بن العاص مرة الى الفاروق في رئاسة الجيوش الموجهة الى الشام فأجابه في مقال صريح : « •• انه ليس على أبي عبيدة أمير ، ولأبو عبيدة عندنا أفضل منزلة

منك وأقدم سابقة ، والنبي عليه السلام قال فيه : أبو عبيدة أمين هذه الأمة » ٠

وكما عرف رأي الفاروق في أبي عبيدة عرف كذلك رأيه في سابقة الاسلام والغزو على الاجمال ٠ فانه خالف الصديق في التسوية بين أنصباء المسلمين كافة يوم أخذ الصديق في توزيع الأرزاق والأنفال ، وجعل للرجل نصيبا يختلف باختلاف سابقته في الاسلام والجهاد ، لأنه « لا يجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ، ولا يسوي بين من هاجر الهجرتين وصلى الى القبلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف » ٠

فاقامة أبي عبيدة على ولاية الشام وقيادة جيوشها حادث لا غرابة فيه من الفاروق ولا ينتظر منه غيره ، وبخاصة حين تكون امارة خالد بن الوليد بغير تأمير من الخليفة الأول ، انما هي اتفاق على تقسيم القيادة بين الأمراء يوما بعد يوم ٠

* *

وبهذه المثابة تكون ولاية أبي عبيدة سنة عمرية معروفة ولا يبلغ منها أن تكون « قضية » بين الفاروق وخالد على الصورة التي هول بها بعض المؤرخين واتخذوا منها محورا للجدال ، والتنقيب عن الأسباب والأقوال ٠

واذا نحن تجاوزنا النظر الى الموضوع من جانب هذه السنة العمرية فولاية أبي عبيدة كانت في اعتقادنا أصلح الولايات للشام في تلك المرحلة التي انتهت اليها حرب بين المسلمين والروم ٠

فما نظن أحدا تفوته حاجة الشام في مثل تلك المرحلة التي انتهت فيها بطشة الحرب الكبرى ، وبدأت فيها ممهدات السلم والحكم والمصالحة ٠ وهذه مهمة وال يحسن الحرب ويحسن التوجيه اليها في مناسباتها ، وليست مهمة قائد عسكري يجري الأمر على سنة السطوة العسكرية ، ويكون عمله الأكبر تحطيم قوى الأعداء في ضربة طاحنة ثم يلاحقهم متى شاء بالمطاردة والتضييق والاحراج ، كما كان دأب خالد في بطشاته التي لا تبقي بعدها بقية لغير الاجهاز ٠

وإذ تكون هذه هي المهمة المطلوبة بعد معركة اليرموك ، فلا خلاف في أي الرجلين أولى بالولاية عند ذاك : أبو عبيدة ابن الجراح أو خالد بن الوليد ، سواء أكان الخليفة على رأي الفاروق ام كان على غير هذا الرأي في أمين الأمة وفي سوابق الاسلام والجهاد .

*

ونما الى الفاروق بعد ذلك ان خالدا وعياضا أغارا على بلاد الروم ورجعا منها بغنائم وأسلاب ، وان الاشعث بن قيس قصد خالدا ومدحه فأجازه بعشرة آلاف درهم ، وأجاز آخرين من « ذوي البأس وذوي الشرف وذوي اللسان » .

فعظم هذا البذل على الفاروق وكتب الى أبي عبيدة : « أن يقيم خالدا ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين أجاز الأشعث ، هل من مال الله أم من ماله أم من اصابة أصابها ؟ فان زعم انه من اصابة أصابها فقد أقر بالخيانة ، وان زعم انها من ماله فقد أسرف « وأمر أبا عبيدة أن يعزله على كل حال وأن يضم اليه عمله — وكان يومئذ يولى أمور قنسرين — وأن يقاسمه ماله نصفين ..

فصدع أبو عبيدة بالأمر ، وجمع الناس وجلس على المنبر ، ودعا بخالد فسأله : يا خالد .. أمن مالك أجزت عشرة آلاف أم من اصابة ؟ فلم يجب وأبو عبيدة يعيد السؤال مرة بعد مرة . فوثب اليه بلال مؤذن النبي عليه السلام وقال له : ان أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ، ثم تناول عمامته ونقضها وعقله بها وخالد لا يمنعه ، وسأله : ما تقول ؟ أمن مالك أم من اصابة ؟ فقال : لا ، بل من مالي . فأطلقه وعممه بيده وهو يقول : نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا »

ثم قوسم ماله حتى بقيت نعلاه ، فقال أبو عبيدة : ان هذا لا يصلح الا بهذا . فقال . خالد : أجل ، ما أنا بالذي أعصي أمير المؤمنين ، فاصنع ما بدا لك ..

ولما علم خالد بعزله ذهب الى قنسرين فخطب أهل عمله

وودعهم ثم ذهب الى حمص فخطب أهلها وودعهم وقال في بعض خطبه : « ان أمير المؤمنين استعملني على الشام حتى اذا كانت بثنية وعسلا عزلني وآثر بها غيري » • « فنهض له رجل من السامعين فقال : صبرا أيها الأمير ، فانها الفتنة • فما تردد خالد أن قال : أما وابن الخطاب حي فلا » •

ثم قصد الى المدينة فلقي الفاروق فقال له : « لقد شكوتك الى المسلمين • وبالله انك في أمري غير مجمل يا عمر » •• فسأله الفاروق : من أين هذا الثراء ؟ •• قال : من الأنفال والسهمان • ما زاد على الستين ألفا فلك » فزادت عشرون ألفا فضمها الى بيت المال • ثم قال له : يا خالد : والله انك علي لكريم ، وانك الي لحبيب ، ولن تعاتبني بعد على شيء » وأرسل الى الأمصار يأمر الولاة أن يعلنوا فيها باسمه : « اني لم اعزل خالدا عن سخطة ولا عن خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فخشيت أن يوكلوا اليه ويبتلوا • وألا يكونوا بعرض فتنة» •

❋

تلك قصة خالد والفاروق ••

وهي قصة تؤلم وتؤسف ، الا ان الألم والأسف فيها من فعل الضرورة التي لا محيد عنها ، وليسا من فعل خالد ولا فعل الفاروق ••

ومن الحق للرجلين العظيمين أن نفهم هذه القصة على حقيقتها المبرأة من الخلط والجهالة • لأن فهمها على حقيقتها موصول بتقدير الحالة كلها وموصول بتقدير الخليفة العادل وتقدير القائد الكبير •

وأبعد شيء عن هذه الحقيقة أن يكون عزل خالد لضغينة في نفس عمر أو لتلك المنافسة التي تستحكم بين الأشباه والنظراء ، أو لغير سبب من تلك الأسباب التي كان عمر يحاسب بها جميع القادة والولاة •

وأسخف من هذه الظنون أن يسبق الى الوهم كما سبق الى وهم بعض المؤرخين ان عمر قد عزل خالدا لبغضاء قديمة مرجعها الى الصراع بينهما في أيام الصبا ، وان خالدا صرع

عمر وكسر ساقه فلم يزل بقية حياته واجدا عليه (١) ..

وأجهل الناس بخلائق عمر من يجمح به الوهم الى ظن من هذه الظنون . فليس بين رجال التاريخ جميعا من هو أصعب تخطئة من عمر بن الخطاب ، لأنه ليس بينهم جميعا من هو أشد حسابا لنفسه ومراجعة لنياته منه ، وأغلب الظن عندنا انه لو أحس في نفسه نية ذحل (٢) أو ثأر قديم لكان أثر هذا الاحساس أن يؤجل عزل خالد ولا يعجل به مخافة من خدعة نفسه وتضليل هواه .

فالحق ان حساب عمر لخالد لم يخالف قط حسابه لجميع ولاته . فكذلك صنع بعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص، وكذلك صنع بكل وال أحصى ماله فظهرت فيه الزيادة . وقد عزل زياد ابن أبيه ثم قال انه عزله « لأنه كره أن يحمل على الناس فضل عقله » وكان يحسب انه قادر على أن يسوق العرب بعصاه لو انه من قريش . ولقد تبين بعد انه من قريش ..

* * *

وكانت سياسة عمر مع الولاة جميعا أن يراجعوه في الأموال ، وبذلك أشار على أبي بكر فوافاه الحساب من كل وال الا خالدا أبى وأغلظ له في الجواب حيث قال : « أما أن تدعني وعملي والا فشأنك وعملك » .

فلما بويع عمر كتب الى خالد أن يراجعه في حساب المال وألا يعطي شاة ولا بعيرا الا بأمره ، فأحاله الى ما جرى به العمل قبله . فلم يطقها عمر وقال : ما صدقت الله ان كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أنفذه » .

هذا الى الخلاف بين سنن عمر في سياسة الناس وتصريف الشؤون وسنن خالد التي طبع عليها . فعمر كان يحب الاناة

---

(١) واجدا عليه : غاضبا عليه .

(٢) الذحل : الحقد والعداوة .

(١) المكيث : الرزين المتأني .

قبل القتل والقتال ومن ثـم كان انكاره لمقتـل بني جذيمة ومقتل مالك بن نويرة ، وعفوه عن أسرى السواد خلافا لما صنع بهم خالد في معركة أليس أو نهر الدم كما سميـت بعد ذاك • وقد حرم عمر « قيس بن سليط » أن يقود جيشـا هو كفؤ لقيادته قائلا له : لولا انك رجل عجل في الحرب لوليتك هذا الجيش • والحرب لا يصلح لها الا الرجل المكيث » (١) •

واذا كان عمر قد أوجس من « عقل زياد بن أبيه وهـو مجهول النسب فالفتنة باسم خالد أعظم وأخطر • انه لعظيم النزعة الى الاستقلال ، وانه لمن بني مخزوم وهم أقوى قبائل قريش منفردين ، وله صهر في سائر القبائل والبطون ولأبنائه أخوال في بني تميم وبني حنيفة ، ولشهرتـه سحر في نفوس الناس بفعل الأعاجيب ، وللزهو مكان من طباع خالد يحسب حسابه ولا ينساه الخليفة المسئول عن عواقب الأمور في دولة الاسلام • فقبل أن يقهر خالد دولة الأكاسرة ودولة القياصرة رجع الى المدينة يوما فاذا هو يغرز في عمامته السهام ويدخل المسجد بدرع القتال •• فبعد غلبته على الاكاسرة والقياصرة وشيوع ذكره في الامصار ماذا يجري لو وهن الحكم يوما بعد « ابن الخطاب » ؟ ••

اما و « ابن الخطاب » حي فلا ، كما قال خالد • ولكن ابن الخطاب لا يدوم ، والعواقب لا تنكشف ، وعزل خالد نقص يعوضه قادة اخرون من حقهم ان يعملوا كما عمل، ومن أثرهم أن يثوب الناس الى العقيدة وحدها فلا يحسبوا أن النصر رهين برجل واحد لا يرتهن بغيره •

★ ★ ★

أما الاحتمال الآخـر ـ ان حـدث ـ فالخطر فيـه عظيم والموازنة بينه وبين كل عاقبة يعقبها عزل خالد لا مجال فيها لتردد طويل •

وهذا كله فضلا عن مرد العزل الى القسطاس الـذي يرد اليه حساب جميع القواد والولاة • ولم يفت ذلك خالدا بعد هدوء الغضب والمثوبة الى الرأي فقال في مرض وفاته لأبـي

(١) المكيث : الرزين المتأني .

الدرداء : « قد كنت وجدت عليه في نفسي في أمور لما تدبرتها في مرضي هذا وحضرني من الله حاضر عرفت ان عمر كان يريد الله بكل ما فعل • كنت وجدت عليه في نفسي حين بعث الي من يقاسمني مالي حتى أخذ فرد نعل وأخذت فرد نعل ، فرأيته فعل ذلك بغيري من أهل السابقة ومن شهد بدرا •وكان يغلظ علي وكانت غلظته على غيري نحوا من غلظته علي ، وكنت أدل عليه بقرابة فرأيته لا يبالي قريبا ولا لوم لائم في غير الله ، فذلك الذي أذهب ما كنت أجد عليه ، وكان يكثر علي عنده وما كان الا على النظر ـ كنت في حرب ومكايدة وكنت شاهدا وكان غائبا فكنت أعطي على ذلك ، فخالفه ذلك من أمري » •

ولقد توفي رحمه الله وهو يجعل وصيته وتركته وانفاذ عهده الى عمر بن الخطاب ••

* * *

ونحن اليوم ننظر الى القصة بعين التاريخ فنرى ـ كما أسلفنا ـ ان الفاروق انما ختم دورا ختمه القدر وانقضبت به الحوادث • فلم يكن بعد القمة التي ارتفع اليها خالد في ضربته لدولة الرومان مرتقى لراق ولعل مجده الباذخ قد كانت تعوزه قمة من نوع تلك القمم التي تسنم فيها صعدا من غلبته على طليحة ومسيلمة الى غلبته على القياصرة والأكاسرة : تلك هي قمة التجمل والاخلاد الى الواجب الأليم يوم عزله • فهي والله لما يحسب له الى جانب قممه البواذخ ، قمم العظيم الظافر الجسور •• وأين لولا عزله كنا نبصر بينها قمة العظيم الصابر المطيع •

عبقريته الحربية

كسبت المعارك الحاسمة لأسباب لا تحصى ، وكسبت معارك شتى للسبب ونقيضه ، وربما تعرض النقاد العسكريون للمعركة الواحدة فاذا بهم يرذون النصر فيها الى أسباب تتناقض وتتباعد كأنهم يتكلمون عن النصر والهزيمة ٠

كسب بعض المعارك لأن الأقواس كانت أكثر من السيوف، وكسب بعضها لأن السيوف كانت أكثر من الأقواس ٠

وكسبت معارك حاسمة لأن رماح المنتصرين كانت أطول من رماح المهزومين بشبرين أو بضعة أشبار ، وكسبت معارك غيرها لأن الرماح كانت تتلاحق في طولها على حسب الصفوف ٠

وفي بعض المعارك كان الفرسان في الوسط فقيل ان هذا كان من دواعي النصر العاجل ، وفي معارك أخرى قيل ان دواعي النصر انما ترجع الى قيام الفرسان على الجانبين ٠

وكثيرا ما يقال ان اشتراك الفرسان والمشاة في العمل كفيل بالغلبة في بعض الميادين ، ثم يدور الكلام على ميدان آخر فيقال ان تربص الفرسان بمعزل عن القتال الى ساعة الفصل هو الكفيل بالغلبة المؤزرة حتى نهاية القتال ، وربما قيل ان ظهور الفرسان في ميدان يضيق عن حركات المناورة حتى على الفرسان وعلى المشاة فدب الفشل في صفوف هؤلاء وهؤلاء ٠٠

ولقد يحاول بعض الخبراء أن يجمعوا أسباب النصر الى قاعدة موجزة فيقولون كلاما يحسن الاطلاع عليه ، ولكنه كلام يقرأه القائدان معا فيبوء أحدهما بالنصر ويبوء الآخر بالهزيمة ٠

مثل هذه القواعد الموجزة كمثل القاعدة التي توجز لك البلاغة الشعرية في كلمات ثلاث وهي : الوزن ، واللفظ ، والمعنى ٠ ولا خطأ في هذا الايجاز ، ولكنه مع هذا لا يعلم الشاعر الصواب ٠

وقصارى ما يقال بعد تقرير الأسباب وتدوين القواعد انها لا تمنع الفروق بين معركة ومعركة وميدان وميدان ، وان القائد الموفق هو الذي يلمح هذه الفروق فيعمد الى العمل اللازم في الوقت اللازم بالقدر اللازم ، فلا ينقص أو يزيد ، ولا يتقدم أو يتأخر ، ولا يوحد العمل مع وفرة الفروق ..

واذا كان كل شيء في المعركة يتوقف أحيانا على كذا أو كذا من الخطوات في السبق الى حومة القتال ، وكذا أو كذا من الأشبار في طول الرماح ، وكذا او كذا من التفاوت في سرعة القذيفة هنا أو هناك . أو كذا وكذا من الحركات الى اليمين أو الى الشمال والى الأمام أو الى الوراء ، فتفصيل أسباب النصر في المعارك القديمة على التخصيص ضرب من المستحيل، لأن اثبات الفوارق بين المعسكرين في الأسلحة والمواعيد والعدو والحركة غير ميسور . وأقصى ما نطمع فيه أن نقنع بالاجمال دون التفصيل ..

واجمال القول في توفيق خالد بن الوليد أنه لم تعوزه قط صفة من صفات القائد الكبير المفطور على النضال : وهي الشجاعة والنشاط والجلد واليقظة وحضور البديهة وسرعة الملاحظة وقوة التأثير .

كان يضع الخطة في موضعها ساعة الحاجة اليها . فكان يحارب بالصفوف كما كان يحارب بالكراديس ، وكان يحارب بالكمين والكمينين كما يحارب أحيانا بغير كمين ، وكان يستخدم التورية والمباغتة والسرعة على أنماط تختلف باختلاف الدواعي والأحوال .

وقد علم أن تمزيق الجيوش أجدى في الحرب من الحصار والاحتلال وعلم أن الخبر قوة وسلاح . فكان يستطلع أخبار العدو ولا يتيح له أن يستطلع خبرا من أخباره يفيده أو يحميه من بأسه .

وأجدى من هذا جميعه أنه كان لا يغفل عن الفقرة الأدبية يعززها ما استطاع في جيشه ويضعضعها ما استطاع في جيش عدوه .

فكان هو نفسه مادة لهذه القوة الأدبية تجيش بها نفوس أنصاره فيثقون بالفوز ويأمنون خطر الهزيمة ، وتشيع في نفوس أعدائه فيسري اليهم الذعر وتفارقهم الثقة والطمأنينة •

والى هذا كان يعتمد على قوة الايمان وهمة الأمل ، فيتعهد جيشه بالعظات قبل القتال وفي أثناء القتال ، ولا يفوته وهو مشغول بالضرب والطعن والتوجيه والمراقبة أن يطوف بين الصفوف للتذمير والتشجيع فيعمل ويقول القول الذي هو ضرب من العمل ، فاذا قال : « ان الصبر عز وان الفشل عجز وان الصبر مع النصر » فليست هي أصداء تمر بالهواء ولكنها هي العز والصبر ماثلان للعيان يسريان بالقدوة منه الى كل مسمع وجنان ••

والى هذا وذاك كان يثير المنافسة الكريمة في صدور جنده وأعوانه ، فيدعوهم الى التمايز والتناظر لينفث فيهم مع عزيمة الايمان عزيمة أخرى من حب الفخار وخوف المسبة والعار •

ويتخذ من الغيرة على العرض مددا لهذه العزائم التي تواجه الموت على حد قوله كما تواجه الحياة ، فاذا بالرجل الفرد يبلي في قتاله ما ليس يبليه عشرات ••

* * *

ولم يخف عليه قط مقتل العدو من قوته الأدبية حيثما عمد الى هذا المقتل في منازلات للمستبدين والطغاة • فانهم في جيوش الأمم التي طال عهدها بالظلم يرتفعون الى مقام الأرباب من حيث يتحدر رعاياهم الى مقام القطيع السائم • فاذا أصيب القائد في الجولة الأولى فكثرة الجند بعد ذلك معوان على الهزيمة وليست بالوقاية منها ، لأنها كثرة من الخوف والذعر وليست كثرة من الثقة والثبات •

ولقد كان هو يخلق فنون الحرب التي يجمعها « الخبراء » في عصورنا هذه بمراجعة الحروب وتحصيل الدروس واستخراج القواعد من الخطط والمعلومات ••

قرأنا في كتاب « فن الحرب اليوم » (١) لمؤلفيه من قواد البحر والبر والهواء : « عند بحث هذه المسألة ينبغي أن نحضر في أذهاننا أنه مع استثناء قليل لم يكن ثمة الا نوعان من السلاح سيطرا على حومة القتال ، وهما السلاح المقذوف والسلاح الضارب أو القارع ، أي النبل أو السهم أو الرصاصة من جانب • والهراوة والسيف والرمح من الجانب الآخر • ومجمل ما يقال بعد هذا ان الصف هو أنسب الأوضاع لتطور قوة السلاح المقذوف وان الكردوس أنسب الأوضاع لتطور قوة السلاح الضارب • لأن الرماة بالقذائف يحتاجون الى مدى مكشوف ، وانما يتأتى الضرب في العمق كرات متلاحقات من المقاتلين جماعات جماعات » •

ان خالد بن الوليد لم يقرأ هذا ولم يفته شيء بفواته عنه ، لأنه قد علم كنهه ولبابه من بديهته الحربية فقاتل بالصفوف حيث تغني الصفوف وبالكراديس حيث لا تغني الا الكراديس •

وفي هذا الكتاب أيضا يقول المؤلفون : « يتضح مما تقدم أنه في حملات السلاح الضارب هناك أمران ضروريان : وهما الاستطلاع وكتمان الحركات • والغرض من الاستطلاع وزن قوة العدو ومن كتمان الحركات أن تحول بينه وبين وزن قوتك وتوقع الهجمة من أي موضع تكون » ••

ثم يتكلمون عن الاستطلاع كما يجري في عصرنا الحديث فيقولون : « وعلى هذا يجري الاستطلاع من الهواء قبل الحركات الأولى وفي خلالها ، وتتقدم الكراديس أثناء ذلك على نظام المعركة ، أي على النظام الذي تتألف به حين تدعى الى الهجوم » •

وهذه هي ربيئة (٢) خالد للاستطلاع ، ومسيره « على التعبئة الكاملة » التي يهجم بها ساعة اللقاء بالنظام الذي كان

---

(١) تأليف الاميرال باكون والجنرال فلو ومارشال الطيران باتريك بلايفير •

(٢) الربيئة : الطليعة الذي يرقب العدو من مكان عال لئلا يدهم قومه •

يسير عليه ، ثم يدخل في التحام قريب ولا يطيل في موقف التقاذف بالنبال والسهام .

وتقرأ في كتاب « الأسلحة وفنون التعبئة » لمؤلفه ونترنجهام الذي كان محررا لمجلة الجيش والبحرية بالولايات المتحدة : « ان سرعة الحركات وقوة الاصابة وتدبير الوقاية هي الان ــ كما كانت في كل زمان ــ بعض مفاتيح النصر التي لا شك فيها ، فاذا كسبت المعارك أحيانا بالمفاجأة أو التركيز في الموضع الحاسم وفي الوقت اللازم أو المناورة البارعة ، فهذه المزايا انما تستمد مباشرة من التفوق في سرعة الحركة أو في قوة الاصابة أو في تدبير الوقاية .

وخالد بن الوليد لم يقسم فن التعبئة هذا التقسيم حين علم أنه يضمن سرعة الحركة باقتحام الصحراء المخيفة ، ويضمن المفاجأة بهذا الاقتحام ، ولا يزال واثقا بالوقاية حيثما حارب وظهره الى الصحراء ، أو حيثما تقدم وراء جيش مهزوم لا يتماسك له قوام .

★ ★ ★

ووضع الخبير المشهور ليدل هارت كتابا مستقلا عن فن سوق الجيوش على طريق التورية لخصه في قوله : « ان التحرك في الوجهة المتوقعة يحفظ توازن العدو ويزيد بتثبيت هذا التوازن قدرته على المقاومة ، وفي الحرب ــ كما في المصارعة ــ انما يتأتى لك أن تغلب الخصم دون أن تزحزح قدمه وتخل توازنه باستنفاد قوتك أنت استنفادا لا يناسب الجهد الذي يلقاه خصمك . ولن يتاح النصر بهذه الوسيلة الا بفضل الرجحان الكبير في قوتك على نحو من الأنحاء . وقد يضعف الحسم في النتيجة مع ذلك . وعلى نقيض هذا ينبئنا التاريخ العسكري في جميع العصور لا في عصر واحد ، وفي جميع الحروب الحاسمة على التقريب ، ان الاخلال بتوازن

العدو نفسيا وماديا هو المقدمة التي لا محيص عنها للقضاء عليه » ..

وهذا الاخلال بالتوازن هو الغاية التي كان يتوخاها ابن الوليد ، أما بالهجوم من جهتين أو ثلاث جهات ، وأما بالمفاجأة التي لا تتوقع بحال من الأحوال ، وأما بالكمين الذي يدخل اليأس على العدو في ساعة بالتطويق من حيث لا ينتظر التطويق .

وكل أولئك مفهوم جد الفهم أن يزلزل الأقدام ويخل التوازن ، وكل ما يزلزل أقدام الانسان في الحرب أو السلم فهو كذلك مفهوم جد الفهم من أقدم الزمان ، ولكن القدرة حق القدرة هي معرفة الوقت ، ومعرفة الوسيلة ، ومعرفة التنفيذ متى عرف الوقت وعرفت الوسيلة ، وبهذا دون غيره تتجلى « معرفة » القواد الملهمين ..

وقال خبير حربي آخر هو أرثر برني في كتابه « فن الحرب » معقبا على حرب الفرس واليونان : « كانت قوة الفرس ، جنودا ، قائمة على الخيالة والرماة .وكانت طريقتهم في القتال أن يمطروا العدو سهاما ، ثم يجترفوه بجملة من الفرسان في الوقت اللازم ، وأفلحت هذه الطريقة مع أصحاب الأقواس من الميديين ، وأصحاب الرماح الراكبة من الليديين ، وأصحاب المشاة الثقيلة من البابليين والمصريين . لكنها خابت مع اليونان ، وكانت التبعة في خيبتها على ضعف فرق المشاة الفارسية ، فاذا ما استطاع الجند الاغريق أن يقتربوا ـ وكل شيء يتوقف على هذا ـ تناولوا المشاة الفرس على عجل بسيوفهم القصيرة ودروعهم الصغيرة » .

ولو عمم هذا الخبير القول لوجب أن يقول ان الذي خيب طريقة الفرس مع اليونان هو الذي خيبها مع العرب من أيام ذي قار الى أيام خالد بن الوليد ، فالهجوم من قريب بالسيوف القصيرة والدروع الصغيرة هو الجُنة (٢) التي احتمى بها

(٢) الجنه : « بضم الجيم » الوقاية .

العرب من الرماة ومن الفرسان ، بل من الفيلة في بعض الأحيان ، وقد قيل في الأمثال الشعبية التي هي أصدق من قواعد الخبراء « الذي تغلب به العب به » وقد كان خالد يعلم ان الالتحام هو أنفع ضروب القتال للجندي الذي ينافح عقيدة ويضرب بالسلاح الخفيف • فلم يلق الفرس ولا الروم الا في التحام •

وقد صح هنا رأي ونترجهام مؤلف كتاب « الأسلحة وفنون التعبئة » الذي سبقت الاشارة اليه حين قال : « ان بعض الجماعات الانسانية بطيئة التغير ، ومن هذه الجماعات الممالك الآسيوية التي يحكمها ملك أو عاهل مرفوع النسب الى السماء، فانها تنتظم على سنن فحواها ان التغيير لا ينبغي وان العادات المأثورة كلها حسنة قويمة ، وان كل ما يعمل الآن خليق أن يعمل كما قد عمل منذ أزمان ، وربما لاذت بعض الأمم التي هي أقرب الى التقدم بفترة من فترات الراحة تستبقي فيها التقاليد والمأثورات على سنة المحافظة على القديم • فاذا برزت جماعات من هذا قبيل للقتال برزت وفي رؤوس قوادها وجنودها فكرة عتيقة عن الحرب وحقيقتها ، ولم يغيروا خططهم وآراءهم للانتفاع بسلاح جديد أو معرفة جديدة ، ورسخت عندهم أصول رجعية للحرب أو لم تكن لهم فيها أصول على الاطلاق ، ولكنهم يمضون بحكم العادة وفاقا للترتيب الذي وضع منذ عهد بعيد وان هذه الجماعات لتخرج جيوشا ليس أسهل من تحطيمها بجيوش الأمم التي يسهل عليها اتخاذ الأساليب الجديدة ومواجهة الغير والطوارىء » •

ولو شاء صاحب هذا الرأي لشمل الدولة الرومانية فيما حكم به على الدول الآسيوية ، لأنها كانت تقاتل بخطط وضعها الأقدمون لها منذ قرون ، وهي على هذا عاجزة عن تنفيذ القديم عجزها عن ابتكار الجديد •

وجملة القول ان خالدا كان يحارب بالقريحة الملهمة أناسا رثت عقائدهم كما رثت ملكاتهم العسكرية ، فكانوا يرتبون كتائبهم وأسلحتهم في الميدان على نحو مرسوم كأنهم قائمون في مراتبهم بديوان التشريفات ، وكان خالد يلبي الضرورة

عفو الساعة في ترتيب كل كتيبة وكل سلاح ، فاذا بدا له أن الخيالة لا تجدي في الحركة جدوى المشاة ترتبت حركات الجيش معه كما تترتب الحركات في أعضاء الجسم الشاعر بتلبية الأعصاب والجوارح لمراكز التنبيه في الدماغ ، فيترجل وقد ترجل معه كل من تنفعه الحركة على قدميه في كره وفره وهجومه ودفاعه ٠

واذا بدا له أن الحرب بالجماعات أنفع من الحرب بالصفوف المختلطة ، فما هي الا كلمة قالها حتى تتلاقى تلك الجماعات كل منها الى قائدها المختار : « تمايزوا أيها الناس » فاذا هم بعد لحظات متمايزون ٠٠

وكانت مادة القتال التي يعمل بها من جند أو سلاح تغنيه وتلبيه ٠ فكان جنده يصبرون على الشدة ولا يروعهم فقد مفقود ،لأنهم مؤمنون عالمون أن الموجود هو رب القائد والمقود، وكانوا يصبرون على الهزيمة لأنهم عرب معودون في غزواتهم أن يكروا بعد فر ، وأن يجتمعوا بعد تفرق ، فهم يحسبون النكوص ضربا من التحفز للوثوب ٠ أما خصومه فكانوا يتساقطون تباعا كما تتساقط حجارة اللعب المرصوصة اذا سقط منها الحجر الأول ٠٠ فلا تماسك لها بعد ابتداء السقوط ٠٠

ومن ثم كان نمطا فريدا بين قواد التاريخ ، لأنه يمزج الفن بالبديهة ، كما يمزج فن البداوة بفن الحضارة ، وكان يقتبس ويجدد بالرأي والفطنة كما يقتبس ويجدد بغريزة موروثة من قبيلة « القبة والأعنة » يصح أن تسمى غريزة الميدان ٠ وقد تصعب المقارنة بينه وبين قواد العصور الحديثة لاختلاف الأسلحة والمسافات ، وان كنا نعتقد أن القائد العبقري تسعفه عبقريته على اختلاف العصر والسلاح ٠

ولكن المقارنة بينه وبين قواد الطراز الأول من الزمن القديم تقدمه الى المرتبة الأولى بين أكبر القواد ، ومنهم الاسكندر وبلزاريوس اللذان حاربا عدوا كعدوه في ميدان كميدانه ٠ فالاسكندر في وقعة « اربل » هزم جيشا فارسيا

العرب من الرماة ومن الفرسان ، بل من الفيلة في بعض الأحيان ، وقد قيل في الأمثال الشعبية التي هي أصدق من قواعد الخبراء « الذي تغلب به العب به » وقد كان خالد يعلم ان الالتحام هو أنفع ضروب القتال للجندي الذي ينافح عقيدة ويضرب بالسلاح الخفيف • فلم يلق الفرس ولا الروم الا في التحام •

وقد صح هنا رأي ونترجهام مؤلف كتاب « الأسلحة وفنون التعبئة » الذي سبقت الاشارة اليه حين قال : « ان بعض الجماعات الانسانية بطيئة التغير ، ومن هذه الجماعات الممالك الآسيوية التي يحكمها ملك أو عاهل مرفوع النسب الى السماء، فانها تنتظم على سنن فحواها ان التغيير لا ينبغي وان العادات المأثورة كلها حسنة قويمة ، وان كل ما يعمل الآن خليق أن يعمل كما قد عمل منذ أزمان ، وربما لاذت بعض الأمم التي هي أقرب الى التقدم بفترة من فترات الراحة تستبقي فيها التقاليد والمأثورات على سنة المحافظة على القديم • فاذا برزت جماعات من هذا قبيل للقتال برزت وفي رؤوس قوادها وجنودها فكرة عتيقة عن الحرب وحقيقتها ، ولم يغيروا خططهم وآراءهم للانتفاع بسلاح جديد أو معرفة جديدة ، ورسخت عندهم أصول رجعية للحرب أو لم تكن لهم فيها أصول على الاطلاق ، ولكنهم يمضون بحكم العادة وفاقا للترتيب الذي وضع منذ عهد بعيد وان هذه الجماعات لتخرج جيوشا ليس أسهل من تحطيمها بجيوش الأمم التي يسهل عليها اتخاذ الأساليب الجديدة ومواجهة الغير والطوارىء » •

ولو شاء صاحب هذا الرأي لشمل الدولة الرومانية فيما حكم به على الدول الآسيوية ، لأنها كانت تقاتل بخطط وضعها الأقدمون لها منذ قرون ، وهي على هذا عاجزة عن تنفيذ القديم عجزها عن ابتكار الجديد •

وجملة القول ان خالدا كان يحارب بالقريحة الملهمة أناسا رثت عقائدهم كما رثت ملكاتهم العسكرية ، فكانوا يرتبون كتائبهم وأسلحتهم في الميدان على نحو مرسوم كأنهم قائمون في مراتبهم بديوان التشريفات ، وكان خالد يلبي الضرورة

عفو الساعة في ترتيب كل كتيبة وكل سلاح ، فاذا بدا له أن الخيالة لا تجدي في الحركـة جدوى المشاة ترتبت حركـات الجيش معه كما تترتب الحركات في أعضاء الجسم الشاعـر بتلبية الأعصاب والجوارح لمراكز التنبيه في الدماغ ، فيترجل وقد ترجل معه كل من تنفعه الحركة على قدميه في كره وفره وهجومه ودفاعه •

واذا بدا له أن الحرب بالجماعات أنفع من الحرب بالصفوف المختلطة ، فما هي الا كلمة قالها حتى تتلاقى تلك الجماعات كل منها الى قائدها المختار : « تمايزوا أيها الناس » فاذا هم بعد لحظات متمايزون ••

وكانت مادة القتال التي يعمل بها من جند أو سلاح تغنيه وتلبيه • فكان جنده يصبرون على الشدة ولا يروعهم فقد مفقود ،لأنهم مؤمنون عالمون أن الموجود هو رب القائد والمقود، وكانوا يصبرون على الهزيمة لأنهم عرب معودون في غزواتهم أن يكروا بعد فر ، وأن يجتمعوا بعد تفرق ، فهم يحسبون النكوص ضربا من التحفز للوثـوب • أمـا خصومـه فكانوا يتساقطون تباعا كمـا تتساقط حجارة اللعب المرصوصة اذا سقط منها الحجر الأول •• فـلا تماسك لهـا بعـد ابتداء السقوط ••

ومن ثم كان نمطا فريدا بين قواد التاريخ ، لأنه يمزج الفن بالبديهة ، كما يمرج فن البداوة بفن الحضارة ، وكان يقتبس ويجدد بالرأي والفطنة كما يقتبس ويجدد بغريـزة موروثة من قبيلة « القبة والأعنة » يصح أن تسمى غريزة الميدان • وقد تصعب المقارنة بينه وبين قواد العصور الحديثة لاختلاف الأسلحة والمسافات ، وان كنـا نعتقد أن القـائد العبقري تسعفه عبقريته على اختلاف العصر والسلاح •

ولكن المقارنة بينه وبين قواد الطراز الأول من الزمـن القديم تقدمه الى المرتبة الأولى بـين أكبر القواد ، ومنهـم الاسكندر و بلزاريوس اللذان حاربا عدوا كعدوه في ميـدان كميدانه • فالاسكندر في وقعة « اربل » هزم جيشـا فارسيا

تقدر عدته بمائة ألف من الفرسان والمشاة ، وبلزاريوس في وقائع أرمينية هزم جيشا فارسيا تقدر عدته بأربعين ألفا أو قرابة الأربعين ·· والمقارنة بين خالد بن الوليد وهذين القائدين ترجح كفته على كفتيهما معا في هذا الميدان ، لأن الاسكندر كان يقود خمسة وأربعين ألفا وبلزاريوس كان يقود نيفا وعشرين ألفا ، وكلا الجيشين مسلح بأمضى الأسلحة في ذلك الزمان ··

وقد كان خالد يحارب بثمانية عشر ألفا جيوشا أعظم من الجيوش التي تصدى لها القائدان الكبيران ، ولم يكن له مثل سلاح المقدونيين أو سلاح الرومانيين ، ولم يكن نصرهما كنصره ولا العاقبة بعدهما كالعاقبة بعده · وزاد على ذلك أن انتصر مثل هذا النصر على كل عدو من العرب أو العجم ، ومنهم الرومان في أكبر الميادين ، ميدان اليرموك ·

فمكان خالد في التاريخ العسكري هو مكان الطليعة بين أكبر القواد الذين اشتهروا بالفن أو اشتهروا بالعبقرية أو اشتهروا بالمناقب الشخصية · وفيه من ملامح القيادة في العظائم والصغائر ما يدل على طبيعة القيادة الملهمة ، وانه كان كما يقال قائدا من فرع رأسه الى قدميه ·

فقد خالد قلنسوته يوم اليرموك فقال : اطلبوها · فبحثوا ونظروا فلم يجدوها ، فما زال بهم يأمرهم أن يطلبوها ويلحوا في طلبها حتى وجدوها ، فاذا هي خلقة لا تساوي شيئا · فسئل عن ذلك فقال : « اعتمر النبي صلى الله عليه وسلم فحلق رأسه فابتدر الناس شعره فسبقتهم الى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة ، فلم أشهد قتالا وهي معي الا تبين لي النصر » ·

رحمه الله ! لم تفته من سمات القيادة حتى التعويذة المشهورة بين رجال الحروب ·· فما زال معلوما عن كبار الجند أنهم يأنسون الى تعويذة يعتزون بها ويستبشرون بصحبتها وهم يخوضون غمرات الموت · وما في ذلك من عجب ، فليس أحوج الى صلة بعالم الغيب من رجل يلقى الموت صباح مساء ·

وقال خالد في أخريات عمره : « ما ليلة يهدي الي فيهـا عروس أنا لها محب ، أو أبشر فيها بغلام أحب الي من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين ، أصبح بهم العـدو ، فعليكم بالجهاد » ٠

هذا حبيب الحرب الذي يهواها وتهواه ٠ فله منها الصفوة التي لا تصطفي بها أحدا من الطلاب والقرناء على بغضاء ٠

مفتاح شخصيته

تقدمت الاشارة الى قصة الشبه القريب بين خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب في ملامح الوجه وطول القامة، وانهما كانا من التقارب بحيث يشتبه الأمر على قصير النظر وهو يتكلم اليهما ، فيخاطب عمر بن الخطاب وهو يظن انه يخاطب خالد بن الوليد ٠

ويلوح لمن يقرأ سيرة الرجلين ان الشبه بينهما يتعدى الملامح والقامة الى معالم الشخصية وطبائع القوة النفسية ، فكلاهما يجوز أن يقال فيه انه « جندي » بالفطرة وان «مفتاح شخصيته » هو السليقة الجندية ، فاذا أحضرنا في أخلادنا كلمة « الجندي » أو الجندي المطبوع لم نجد في ابن الخطاب ولا في ابن الوليد صفة لا تحتويها هذه الكلمة في معنى من معانيها ٠٠

وبين الرجلين فارق لاخفاء به في الخلق والتفكير ٠

لكنه فارق لا يخرج بهما من نطاق هذه الطبيعة ، فكلاهما جندي مطبوع على الخلائق الجندية ، ولكن ابن الخطاب تغلب عليه ، من مزاج الجندي ، ناحيته الروحية أو ناحية الضمير ، وابن الوليد تغلب عليه من هذا المزاج نفسه ناحية الحيوية أو ناحية البنيان والتركيب ٠

وأصح من هذا أن نقول ان عمر كان جنديا في أخلاقه الوازعة الحاكمة ، وان خالدا كان جنديا في أخلاقه الدافعة المهاجمة ٠ وفي الجنود ، كما لا يخفى ، هذه الأخلاق وهذه الأخلاق ٠

ولا ريب ان هذا الفارق بين الفاروق وسيف الله انما هو قبل كل شيء فارق بين نفسين ، أو بين رجلين ، أو بين « شخصيتين » ٠

لكن هذا لا يمنع أن يكون في الوقت نفسه فارقا بين « قبيلتين » وبين أسرتين وبين نشأتين ٠٠ فان الفوارق بين بني عدي قبيلة عمر وبين بني مخزوم قبيلة خالد لخليقة أن

تتجه بالمزاج المتقارب وجهتين متباينتين •

فبنو عدي ـ آل عمر ـ كانـوا في الجاهليـة أهل تحكيم ومعرفـة بالفصل في الخصومات ، وقـد ذاقوا ، كما قلنا في « عبقرية عمر » : « طعم الظلم من أقربائهم بني عبد شمس ، وكانوا أشداء في الحرب يسمونهم لعقة الدم ، ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلة عددهم بالقياس الى عدد أقربائهم •• فاستقر فيهم بغض القوي المظلوم للظلم وحبه للعدل الذي مارسـوه ودربوا عليه » ••

أما بنو مخزوم ـ آل خالد ـ فكانوا على خلاف ذلك أهل حرب وسطوة وأصحاب ثراء ورخاء ، وكانوا في الجاهليـة موكلين بالخيل والسلاح ، معتزين بالعتاد التليد ، والعـدة والعديد •

وكان ثراؤهم يملي لهم في أسباب الترف والنعيم كما تملي لهم فيه مزيـة أخرى مـن المزايـا التي تكفلها للقبيلـة عزة السلطان وطول العهد بالحضارة والرئاسة ، وتلك المزية هي جمال النساء •

فقد كان يقال ان « المخزوميات » رياحين العرب •

وكـان في رجالهم ذلك الغزل الـذي أخرج منهـم شاعره الأول عمر بن أبي ربيعة ، بل أخرج منهم غزلين ظرفاء حتى في النساء والاتقياء ••

جاء في كتاب الأغاني عن أبي السائب المخزومي : « انـه كان رجلا صالحا زاهدا متقللا يصوم الدهر ، وكان أرق خلق الله وأشدهم غزلا ، فوجه ابنه يوما يأتيه بما يفطر عليـه ، فأبطأ الغلام الى العتمة • فلما جاء قال له : يا عدو نفسه ، ما أخرك الى هذا الوقت ؟ •• قال : جزت بباب بني فلان فسمعت منه غناء فوقفت حتى أخذته ، فقال : هـات يا بني ، فوالله لئن كنت أحسنت لأحبونـك ولئن كنـت أسأت لأضربنـك • فاندفع يغني بشعر كثير :

ولما علـوا شغبا (١) تبينت انه
تقطع من أهل الحجـاز علائقي

(١) سهل بين طريقي مصر والشام •

فلا زلن حسرى ظلعا ثم حملتهـا
الى بلـد نـاء قليـل الأصـادق

« فلم يزل يغنيه الى نصف الليل · فقالت له زوجته : يا هذا ، قد انتصف الليل وما أفطرنا · قال لها : أنت طالق إن كان فطورنا غيره · فلـم يزل يغنيه الى السحـر · فلما كان السحر قالت زوجته : هذا السحر وما افطرنا ، فقال ، أنت طالق ان كـان سحورنا غـيره · فلما أصبح قـال لابنه : خذ هذه واعطني خلقك ليكون الحباء فضل ما بينهما · فقال له : يا أبت أنت شيخ وأنا شاب ، وأنا اقوى على البـرد منك · قال : يا بني ·· ما ترك صوتـك هذا للبرد علي سبيلا مـا حييت » ·

واطرح كل ما هذه القصة من المبالغة والاغراق تبق منها بقية كافيه لبيان مكان الغزل من نساك بني مخزوم ، فضلا عن الشعراء والظرفاء ·

وندع القبيلة الى الأسرة فيتراءى لنا في النظرة الاولى ذلك الاختلاف الذي لا بد منه بين معيشة الخطاب ومعيشة الوليد ، أو بين معيشة الرجل الكادح لنفسه الخشن في ملمسه ، وبين معيشة الرجل المترف الفخور بالمال والبنين والجاه المكين ·

لكنه مع هذا فرق في المعيشة لا يتغلغل الى بواطن وطباع · انما الفرق المتغلغل الى بواطن الطباع ، بل الى أعمق أعماقها، هو فرق البنية العصبية بين أبناء الخطاب وأبناء الوليد ·

فمن أوصاف أبناء الوليد عامة ينكشف لنا « قلق عصبي » في هذه الأسرة قد تطرف جد التطرف في أفراد منها ، واعتدل بعض الاعتدال في آخرين ··

فعمارة بن الوليد هو الذي بلغ منه الاضطراب أن يراود امـرأة في محضر زوجهـا ، وأن يجترىء على حـرم النجاشي بالمغازلة ، ثم يجترىء بالتحدث عن هذه المغازلة حديث الفخر والمباهاة ، ثم ينطلق مع الأوابد في الآجام بفعل السواحر كما قيل ، وهو قول لا يخفى مدلوله في لغة العصر الحديث ··

وذكر عن خالد كما ذكر عن أخيه الوليد انه كان يتفزع في نومه · فذاك أثر من آثار « أعصاب الأسرة » كلها على ما

هو واضح من جملة المشاهدات في أبنائهـا ، وان كان يجمح بهم في حين ويكبح في حين ..

وقد كان خالد يغضب فينتقع لونه كما جاء في كتب الفتوح من حديث المغاضبة بينه وبين أبي عبيدة بعد تسليم دمشـق ومصالحة أهلها . وقد كانت علة المغاضبة ان أبا عبيدة يحسب التسليم صلحا وخالدا يحسبه غلبا يحق فيه على المغلوب جزاء السبي والاغتنام والقصاص .

وكانت في خالد حدة يملكها أو تملكه آونة بعد آونة . وفي القليل الذي بلغنـا اشارة الى الكثير الـذي لم يبلغنا . فقد غاضب أبـا عبيدة وغاضب عبد الرحمن بـن عوف وغاضب عمار بن ياسر . وقال له عمار وقد سمع منه ما ساءه : « لقد هممت ألا أكلمك أبدا » فأصلح بينهما النبي عليه السلام وهو يقول لخالد : « يا خالد .. ما لك ولعمار .. رجل من أهـل الجنة قد شهد بدرا » ثم يقول لعمار : « ان خالدا يـا عمـار سيف من سيوف الله على الكفار » .

فهذا الفارق بين الأسرتين ، وذلك الفارق بين القبيلتين ، مفسران صالحـان لاختـلاف لوني « الجنديـة » في شخصية الرجلين العظيمـين . عمر الى الجندية الموزوعـة وخالد الى الجندية المدفوعة ، وعمر الى الشظف المختار وخالد الى المتاع المباح .

ولا يرد الينا العجب بعد هذا أن يكون شعور خالد بالمرأة هو شعوره ذاك الذي أهدفه للملاحظة والمؤاخذة مرات، وجعل من مؤاخذيه أرغب الناس في عذره والثناء عليه ، ونعني به الخليفة الصديق .

وقد كان هذا الشعور يلازمه ما يلازم أبناء الثراء من حب الرفاهية وبهجة الحياة . فلم يفرغ من الحرب قط الا انقلب منها الى واد ظليل في صحبة زوج محببة اليه . فقضى في وادي الوبر باليمامـة أيام الدعـة بين زوجيه بنت مجاعـة وبنت المنهال . وقضى في دومة الجندل أيـام الهدأة بين الوقائع في صحبة ابنة الجودي الحسناء ، واستطاب المقام بحمص بعـد العزل وآثره على المقام بالحجـاز . وأغضب الفاروق لأنـه

« كان يدخل الحمام فيتدلك بعد النورة بثخين معجون بخمر »
فلما لامه الفاروق في ذلك قال : انا قتلناها فعادت غسولا غير خمر ، ثم قال يخاطب عمر :

سهـل أبـا حفص فان لدينـا
شرائـع لا يشقى بهـن المسهـل
وهل يشبهن طعم الغسول وذوقه
حميا الخمور ، والخمور تسلسل

وفي كل أولئك هو سليل حق لبني مخزوم ولبيت الوليد ، وترجمان صدق لتلك البنية العصبية المتفززة التي تجنح به الى المتعة في أيام الدعة كما تجنح به الى البطش في مقام الجلاد والنناد ، وتفسر لنا الجندي الذي تميل به القوة الحيوية تارة الى لقاء الحسان وتارة الى لقاء الأقران .

وهو نفسه قد أبان عن طويته كلهـا غير عامد حين قال : « ما ليلة يهدى الي فيهـا عروس أنا لها محـب أو آبشر فيها بغلام أحب الي من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو ، فعليكم بالجهاد » ..

فالحرب عنده اشتهاء ، والعروس عنده غاية المتاع .

والحرب في رأيه حسناء تشتهى أبدا ولا تشيب كصاحبة الزبيدي التي تكون في مبدئها « فتية تسعى بزينتهـا لكـل جهول » ثم تصبح :

شمطاء جزت شعرها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيل

وأيا كانت متعته بالمرأة الحسناء أو بالمقام الوثير فهي متعة القوي اليقظان وليست بمتعة الضعيف المستنيم .

هي متعة المسافر الذي يستريح الى الواحة لينفض عنـه الجهد ويتزود منها لجهد جديد ، وليست متعة المتهافت الذي يتوق الى مهاد الراحة لينغمس فيها ويستكين اليها ولا يفيق من سكرتها .

بل هو يحب المتعة لأنه يحب الجهاد ، فاذا طالت عافها وبرم بها واجتواها ، وأنف أن يقنع بها ويستمرئها .. فلم يطق سنة واحدة بالحيرة بين حروب فارس وحروب الروم ، وسماها

« سنة نساء » لأنها كانت راحة من العناء ·· مع أنها كانت راحة المتربص المتوفز ، وكانت راحة يتخللها وثبات وضربات من هنا وهناك ··

وهكذا كان يأخذ من المتعة بأيسر المقادير ، ليأخذ من الشدة والبأس بأوفر المقادير ··

لأن طبيعته القوية هيأته للشدة والبأس قبل كل شيء ، وما بقي من الطبيعة للرياضة فقد اتمته الرياضة بعزيمة الجبابرة التي لا تلين · باستمراء ما لا مراءة فيه من طعام وشراب ، وبأكل الضب وشرب السم ومطاولة الركوب أياما بعد أيام ·

لا جرم يكون أكبر الأسى لتلك النفس في ساعة الموت انها تموت على الفراش أو على حد قوله كما يموت البعير : « لقد طلبت القتل في مظانه ، فلم يقدر لي الا أن أموت على فراشي ·· ولقيت الزحوف وما في جسدي شبر الا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح ، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » ··

وأقرب شيء أن يلاحظ في سيرة خالد ـ من نشأته الى وفاته ـ ان هذا الولع كله بالحرب لم يكن ولعا بالشر والسوء ولا ولعا بالضغينة والبغضاء ، فكانت عداواته كلها عداوات جندي مقاتل ولم تكن عداوات مضطغن آثم ·· ولم يعرف قط عنه انه حمل الضغينة لأحد من الناس ولو انه اضطغن على أحد لكان أحق الناس أن يضطغن عليه عمر بن الخطاب، لأنه عزله وشطر ماله وأبقاه في العزلة سنوات ، ولكنه لم يعمل عملا واحدا ولم يقل كلمة واحدة تدل على ضغن عليه · وقد سامحه والتمس له المعذرة وعلم انه قد أراد وجه الله بما حاسبه عليه ، وكان أشد ما قاله فيه : « الحمد لله الذي قضى على أبو بكر بالموت وكان أحب الي من عمر ، والحمد لله الذي ولي عمر وكان أبغض الي من أبي بكر ثم ألزمني حبه » وربما ذكره وهو غاضب فسماه «الأعيسر بن أم شملة» فكانت هذه الكلمة أدل على التحبب منها على الكراهة ، ولاحت كأنها كلمة المغلوب في لعبة لا في غرض عظيم يقعد ويقيم ·

وقد يمكن كثيرا أن تتسع هوة البعد بين الولع بالحرب والولع بالشر والضغينة ، وانها لأولى أن تتسع بينهما حيث تكون الحرب ميدان التضحية والفداء في سبيل الغيرة القومية أو في سبيل الايمان والضمير ، وحيث يكون الرجل قد تربى على مراسها وطبع في نفسه على مزاج يألف القتال ولا ينفر منه ، وليس في المجتمعات الانسانية التي تصبح الحرب فيها ضرورة من ضرورات الحياة والشرف باعث الى النفرة عن القتال ، ولن تزال القدرة على الحرب شرفا وشجاعة الى آخر الزمان ، ما دام في بني الانسان من يحمل السلاح للعدوان والبغي والتلصص والمراء ، فيتقيه بنو الانسان بمن يحمل السلاح للحق والعقيدة والانصاف ·

وعلى كثرة من قتل خالد في حروبه لم يكن يقتل أحدا قط وهو يشك في صواب قتله وان أخطأ وجه الصواب · فالقتلى الذين طاحت بهم سيوف الجلادين بأمره في « نهر الدم » كانوا يستحقون عنده القتل قربانا الى الله وجزاء لهم على عناد الشرك والاصرار ·

أما اذا شك في صوابه فهو يستكثر المساءة الى رجل واحد فضلا عن الجحافل والقبائل ، ويسبق الى الرفق رجلا كأبي عبيدة عرف طوال حياته بالرفق والرحمة والأناة · فيقول له وقد تناول رجلا بشيء : « اني لم أرد أن أغضبك ، ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان أشد الناس عذابا يوم القيامة أشد الناس عذابا للناس في الدنيا » ··

فهو مطبوع على عداء الجندي المقاتل وليس بالمطبوع على عداء الدسيسة والشر في صغائر العيش وسفاسف الأمور ·

كذلك لا يفهم من ولعه بالحرب على هذه الصفة انه كان مبتلى بذلك الولع الأهوج الذي يبتلى به من لا يعقلون هجوما الا كهجوم الريح أو فرارا الا كفرار الحيوان ·

فقد كان يقدم عن علم بمواضع الاقدام ، ولذلك لم ينهزم قط وهو مسئول عن الهزيمة ·· وانما هزم في حنين مرة واحدة وهو مسئول عن اليوم كله كما قدمناه ·

أما اذا وجب التراجع فالشجاعة كل الشجاعة عنده أن

يؤمن بهذه الحقيقـــة وأن يدبر أمر التراجـع بعد ذلك على النحو الذي يصون الكرامة ويصون الدماء ، ويكون المخدوع المغلوب فيه هو الذي أمكن التراجع من بين يديه ، وقد كان في وسعـــه أن يبطش بالمتراجعين جميعـــا قبل أن يفلتـــوا من أوهاقه المطبقة عليهم ٠

هذه هي الجنديـــة البصيرة بمزاياها في الكفـــة الراجحة والكفة المرجوحة أو هذه هي الجندية الغالبة أبدا وهـــي في أقدام أو في أحجام ٠

ولقد كانت هذه الطبيعة الجندية أن تحيط بكل ما رزق من طبيعة حية ٠ فمن أقواله : ان الجهاد شغلني عـــن تعلـــم القرآن ، أو قراءة كثير من القرآن ٠٠

وعذره في ذلك حين قال ذلك المقال انه لم يقض في ملازمة النبي غير أوقات جد قصار ، لأنه شغل السنوات الثلاث التي قضاها مع النبي بعد اسلامه وهو بين السرايا والغزوات ٠

وقد كان يخطب ويكتب ويقول الأبيات من الشعر والرجز على مثال ما قدمناه ٠ ولكنها الخطب والكتب التي يستطيعها العربي الفصيح الناشيء في كنف الفصحاء ، ثـــم هي كلهـــا ملحقة بوظيفة الجندية فيه ، فاذا قال كلمـــة أو كتب سطرا فكأنما يكتب بحسام لا بيراع ٠

كتب الى مرازبـــة فارس فقال : « الحمد لله الـــذي فض ملككم وأذل عزمكم ، فاذا أتاكم كتابي هذا فابعثوا الي الرهن واعتقدوا منا الذمة وأجيبوا الي الجزية ، والا والله الذي لا الـــه الا هو لأسيرن اليكم بقـــوم يحبون المـــوت كما تحبون الحياة ، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا » ٠٠

وخطب في المسلمين وقد تهيبوا طروق المفازة من العراق الى الشام فقال : « لا يختلفن هديكـــم ، ولا يضعفن يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النيـــة ، والأجر على قدر الحسنة ، وان المسلم لا ينبغي له أن يكترث لشيء يقع فيه مع معونة الله له » ٠

ويسمع الكلمة فيردها بالجواب المسكت كأنه يتلقى ضربة سيف بضربة سيف كما قال حين سمع صائحا في المعسكر يصيح:

ما أكثر الروم وأقل المسلمين ٠٠

فلم يكن أسرع منه الى أن يقول : « بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ٠ ان الجيوش انما تكثر بالنصر وتقل بالخذلان » ٠

فكل كلمة منه فانما هي ضربة سيف في صورة حروف ونبرات ٠

ومن الملاحظات الجديرة باستقراء علم النفس انه على التشابه بينه وبين عمر كان في عمر جانب فكاهة وان كانت خشنة غليظة ، ولم يكن فيه هو مثل هذا الجانب في عمله أو كلامه ٠

وقد كان الأدنى الى الظن ــ عند النظرة الأولى ــ أن تنمو الفكاهة مع الرجل الذي نشأ في مهد اليسار ولا تنمو مع الرجل الذي نشأ على العسر أو اليسر القليل ٠

لكنها النظرة الأولى ولا تتعداها ٠

لأن الأعسار في الواقع أعون على الفكاهة من اليسار ، ومن هنا كان ولع الناس بالفكاهة في أيام الحروب وأزمات الشدة ومظالم الاستبداد ، كأنها ضرب من التعويض والمقابلة ، ولا غرابة في ذلك حيث ننظر الى منشأة الفكاهة في جملتها ، فهي على أكثرها وليدة المفارقة بين الحالات وليست وليدة الموافقة الموائمة ٠ وما أكثر المفارقات في حياة المعسرين ٠

ولعلنا نبلغ مقطع القول في هذه الملاحظة حين نقول : ان الموسر أقدر على التسلية والمعسر أقدر على الفكاهة ، وبين التسلية والفكاهة فرق غير مجهول ٠٠ رحم الله خالدا ٠٠ انه كان جنديا وكفى !

لكنه قد عوض في جانبه الواحد عن جوانب عدة في الآخرين ، لأنه قد رزق الجندية في طرازها الأول ، ورزق منها وحده ما يكفي عشرة من جنود التاريخ المبرزين ٠

نهاية من صنع القدر

قضى خالد بقية أيامه بعد عزله في مدينة حمص ـ زهاء سنوات أربع ـ لم يفارقها قليلا الا ليعود اليها ·

وعاش هناك بين أهله وولده وهم كثيرون ·

وكأنما كانت للموت ضريبة مقضية على هذا القائد الكبير يطالبه بها في حربه وسلمه حيث كان · فمات من أولاده نحو أربعين في سنة الطاعون ··

ولم ترو لنا كلمة قالها خالد في موت هؤلاء الأبناء الكثيرين ، وهو الرجل الذي كان التبشير بغلام عنده فرحا من أكبر أفراح الحياة · فكأنما ألف وجه الموت لطول ما واجهه من قريب ، فهو لا يلقاه أبدا لقاء غريب مريب ··

* * *

وتعقب الموت أبناءه الذين بقوا بعد الطاعون وأشهرهم المهاجر من حزب علي وعبد الرحمن من حزب سعاوية·· فمات المهاجر في صفين ومات عبد الرحمن مسموما على ما قيل ، لأنه رشح للخلافة قبل أن يرشح يزيد بن معاوية لولاية العهد· فسقاه معاوية السم على يد الطبيب ابن أثال ··

وما هي الا فترة حتى انقرضت ذرية هذا القائد الكبير ـ صاحب الموت والقدر ـ فورث دورهم بالمدينة أحد أبناء أخيه ·

وانتهت حياة خالد رضي الله عنه نهايتها العجيبة ، بين سنة احدى وعشرين واثنتين وعشرين ·

والنهاية العجيبة لحياة مثله أن يموت على فراشه ـ كما قال ـ بعد أن شهد نيفا وخمسين زحفا في نجد والحجاز والعراق والشام ، ولم يبق في جسمه مصح من كثرة الجراح ·

وليس هذا كل ما في موته من «غير المألوف» أو غير المنظور، فانه مات ولم يجاوز الخامسة والخمسين على أرجح تقدير ، وليست هي بالسن التي تنتهي بها الحياة بغير مرض شديد · فان كان قد ألم به مرض عارض غير مميت في جملة أطواره فلعله قد أتم ما بدأه الحزن على الأبناء ، والفتور من الراحة،

وذلك الاضطراب الذي كان يفزعه في نومه وينتقع منه لونه اذا غضب أو ثار •

ولم يوجد في بيته عند موته غير فرسه وغلامه وسلاح وقفه للجهاد في سبيل الله • فلما بلغ ذلك عمر قال : رحم الله أبا سليمان كان على غير ما ظنناه به •• ونكس مرارا وهو يسترجع كلما رفع رأسه • ثم قال : كان والله سدادا لنحور العدو ميمون النقيبة •

* * *

وقد كان حزن عمر عليه حزن قريب وحزن مسلم وحزن خليفة • قال لأمه : عزمت عليك ألا تبيتي حتى تسودى يديك من الخضاب •

واجتمع بنات عمه يبكين فقيل لعمر: أرسل اليهن فانههن• فقال : دعهن يبكين على أبي سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة • على مثل أبي سليمان تبكي البواكي » •

ولما سئل عمر أن يعهد بعد موته قال : لو أدركت أبا عبيدة ابن الجراح ثم وليته ثم قدمت على ربي فقال لي:لم استخلفته على أمة محمد ؟ •• لقلت : سمعت عبدك وخليلك يقول : لكل أمة أمين وان أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح ، ولو أدركت خالدا ثم وليته ثم قدمت على ربي فقال لي من استخلفت على أمة محمد لقلت : سمعت عبدك وخليلك يقول لخالد : سيف من سيوف الله سله الله على المشركين ؟

ولعمري ان « سيف الله » قد استحق هذه التزكية وهو في الغمد كما استحقها وهو مشهور •

فليست سنوات العزلة بأخف السنوات وزنا في سيرة خالد بن الوليد • ان الحوادث قد وعظته بها فاتعظ في صبر واناة • فلم يغلبه لسانه ولم يغلبه هواه ، ولم يتحرك لكيد ولا لشغب ولا لمذمة ولا لوقيعة • ولو شاء بعض ذلك لكان له مطمع فيه ، وهو الرجل الذي طبقت شهرته آفاق المسلمين وغير المسلمين •

نعم انه لا فتنة وابن الخطاب حي كما قال ، وان الفتنة انما تخشى :

« اذا كان الناس بذي بلى » أو في معرض الفرقة والنزاع وعصيان الأئمة أو انقطاع الامام » ٠

ولكن ادراك هذا وحده مفخرة من المفاخر ، وليس كل ادراك كهذا الادراك بالذي يغلب الهوى ويقمع النزوات ٠

فلا جرم يرشح الفاروق خالدا للخلافة كما رشح لها أبا عبيدة ، ولا جرم يعرف سيف الله في الغمد كما عرفه وهو في يمين البطل الجسور ٠ فان يكن خالد مخشي المزاحمة على الخلافة في ظن من الظنون فليس هو بمخشي عليها وقد وصلت اليه معهودا اليه خالصة من الزحام ، وقد استحقها بعد أكبر مستحقيها وريض لها سنوات تجرد فيها من سورة (١) الشباب وبعد ما بينه وبين نشأة الجاهلية ، وقرب ما بينه وبين الله ٠

* * *

لقد مات ــ نصير الموت ــ مطمئنا الى نهاية حياته ، لا يكره منها الا انها انتهت به على فراشه ٠

ولكننا ــ أبناء آدم ــ نكره كثيرا ما يكون من حقنا أن نتمناه ٠ وما كان لخالد أمنية قد بقيت له في ميدان الكفاح يتمناها ٠ لقد عرفه الناس حق عرفانه وهو الكريم الشجاع ، ولم يبق له الا أن يعرفوه في ميدان العزلة وهو الشجاع الصبور ٠ وقد عرفوه على هذه الصفة في ميدان حمص ــ ميدان السلم والتسليم ــ خير عرفان وأجدره بماضيه العظيم وتاريخه الخالد المقيم ٠

---

(١) سورة الغضب : حدته وشدته ٠ و « ريض » فعل مبني للمجهول من « راض » أي درب ومرن ٠

فهرس







مجموعة العبقريات الإسلامية

عبقرية عثمان ابن عفان

ذو النورين

عبقرية الإمام علي

عبقرية خالد